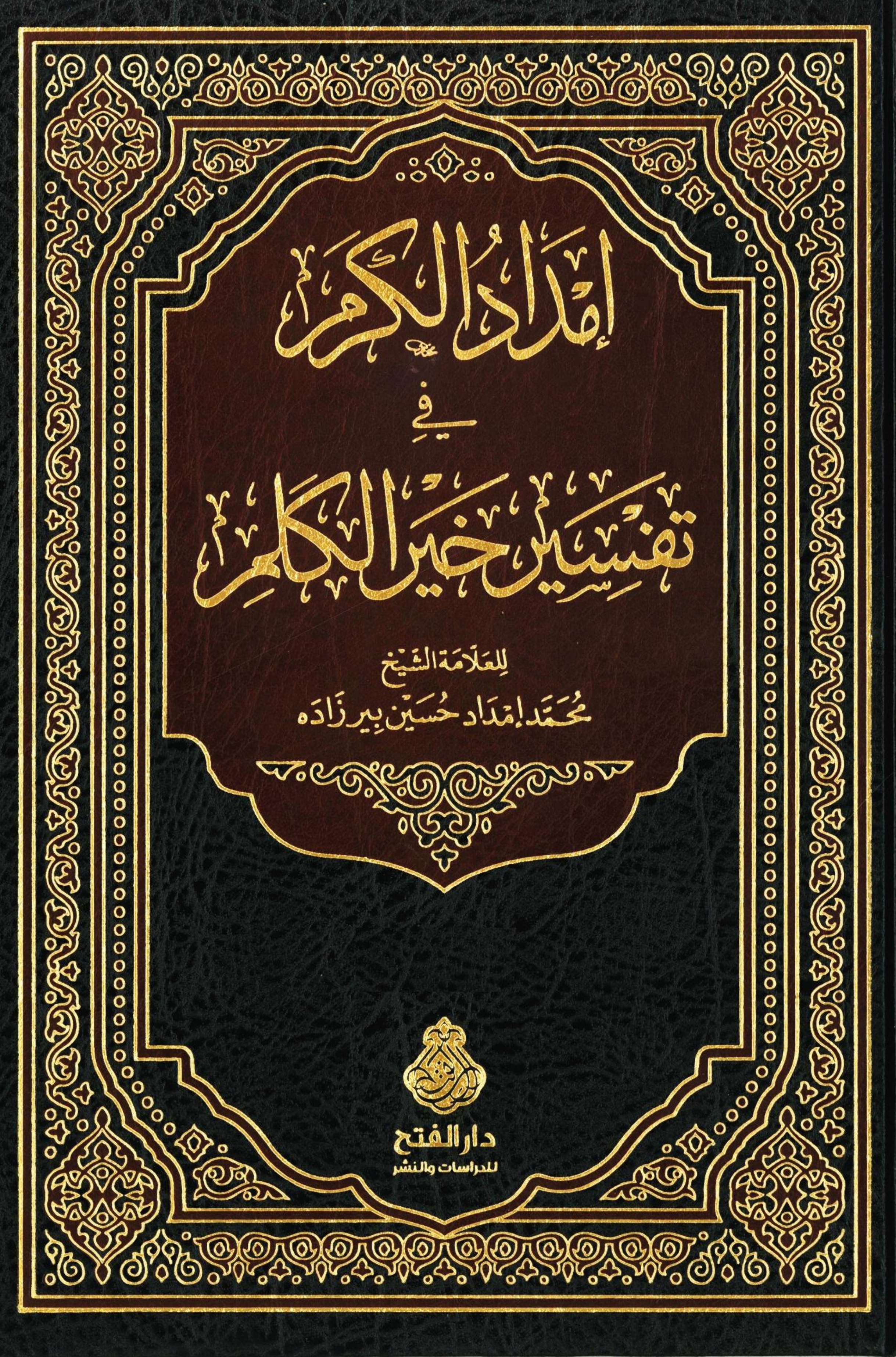


إمداد الكرم
في
تفسير خير الكلم
للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده
دار الفتح
للدراسات والنشر



للعلامة الشيخ
محمد إمداد حسين بير زاده

إمداد الكرم في تفسير خير الكَلِم

للعلامة الشيخ محمد إمداد حسين بيرزاده

نقله عن الأردية أ.د. إبراهيم محمد إبراهيم السيد

الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

قياس القطع: 17 × 24

الرقم المعياري الدولي: ٩٧٨-٩٩٥٧-٢٣-٤٢١-٨ : ISBN

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٧٥٧/٤/٢٠١٧)



دار الفتح للدراسات والنشر

هاتف: 4646199 6 (00962)

جوال: 777925467 (00962)

ص.ب: 183479 عمّان 11118 الأردن

البريد الإلكتروني: info@daralfath.com

الموقع على الشبكة الإلكترونية: www.daralfath.com

الناشر بالمملكة المتحدة:



Al-Karam Publications
Eaton Hall
Retford
Nottinghamshire
DN22 0PR
England, United Kingdom
Tel: +44 (0) 1777 702555
Email: info@alkarampublications.com
Website: www.alkarampublications.com



إمداد الكرم مختصر في تفسير خير الكلم

للعلّامة الشّيخ
محمّد إمداد حسين بير زاده

نقله عن الأرديّة
أ.د. إبراهيم محمّد إبراهيم السّيّد

الجزء الخامس



دار الفتح
للدراسات والنشر


بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس مضامين
المجلد الخامس

❋ ❋ ❋

فهرس مطالب
المجلد الخامس

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣٥) سُورَةُ فَاطِرٍ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «فاطر»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، ولها اسمٌ آخَرُ هو: «الملائكةُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها كذلك، وقد ذُكِرت بعضُ صفاتِ الملائكةِ في هذه الآية.

جاء في بدايةِ هذه السُّورةِ أنّ المستحِقَّ الحقيقيَّ لكلِّ الحمدِ والثّناءِ هو اللهُ تعالى فقط؛ لأنه هو الذي خَلَق السماءَ والأرضَ، وهيَّأ لكم رِزقَكم عن طريقِهما، ثم إنه أرسَلَ الملائكةَ إلى الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ لهدايتِكم، وإذا لم يكنْ هناك رازقٌ وخالقٌ سِواه، فليس هناك غيرُه إذًا مَن تليقُ به العبادة.

في هذه السُّورةِ طَمْأَنةٌ للنبيِّ ﷺ بأنه إذا كان مشركو مكّةَ يكذِّبونَك، فهذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد كُذِّب الرُّسلُ عليهمُ السَّلامُ من قبلِك، وكلُّ هؤلاءِ المكذِّبينَ سيعودونَ إلينا يومًا ما، وسوف نُحاسبُهم حسابًا كاملًا.

جاء التأكيدُ للناس بأنّ يومَ القيامة قادمٌ لا مَحالةَ؛ لأنّ هذا وَعْدُ اللهِ تعالى، ووَعْدُه صادق، وسوف تُبعَثُونَ في ذلك اليوم وتحاسَبون، فمنِ اعتقَد أنّ هذه الدُّنيا هي كلُّ شيء، ولم يتَّبعْ أحكامَ الله تعالى، سيواجِهُ يومَ القيامة عذابًا أليمًا، لهذا عليكمُ الانتباه، ولا ينبغي أن لا تَشغَلَكم هذه الحياةُ الدُّنيا عن الآخِرة، وأن لا يجعَلَكم الشّيطانُ المخادِعُ عُصاةً لله تعالى بتزيينِ السّوءِ لكم.

وفي السُّورةِ أيضًا تحذيرٌ لكم من الشَّيطانِ بأنه عدوٌّ لكم؛ لأنه طُرِد من الجنّةِ بسببِكم، والآنَ يريدُ أن يُخرجَكم من الجنّةِ أيضًا، ولهذا عليكمُ الانتباهُ لخِداعِه ومكرِه، وتذَكَّروا أنّ الشيطانَ من أهل جهنَّم، والذين سيَقبَلونَ دعوتَه سيَدخلونَ جهنَّمَ أيضًا معَه.

جاءت في هذه السُّورة دلائلُ بسيطةٌ سهلةُ الفهم على التوحيدِ والنُّبوةِ والآخِرة مِثلُها مِثلُ السُّورِ الأخرى، كما جاء فيها أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، وهو الغالبُ على الجميع، ومن يعصيهِ لن يستطيعَ الإفلاتَ من العقاب، فاتَّقوا اللهَ واخشُوْه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
وقتَ السَّحَر من يوم الجمُعة الأول من يناير ٢٠١٠م
الموافق ١٥ محرم ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ فَاطِرٍ (٣٥)،

مكية (٤٣)، آياتها (٤٥)، ركوعاتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

١ ـ المستحِقُّ الحقيقيُّ لكلِّ حمدٍ وثناءٍ هو اللهُ تعالى وحدَه، وهو الذي خَلَق السّماءَ والأرضَ، والتي يحتارُ عندَ رؤيتِها العقلُ الإنسانيُّ، كما أنه هو الذي خَلَق الملائكةَ النُّورانيِّينَ أيضًا، ونحن لا نَراهم، وبعضُهم يوصِّلُ رسالةَ الله تعالى إلى

الأنبياء، والبعضُ الآخَرُ يكونُ وسيلةً لنزولِ العذابِ أو الرحمةِ لعامّةِ المخلوقات، وبعضُ هذه الملائكةِ له جناحانِ، ولبعضِها ثلاثةٌ، ولبعضِها أربعةٌ، وليس هذا فقطْ، بل إنّ بعضَ الملائكةِ له مئآتُ الأجنحةِ أيضًا، ولا شكَّ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، ويزيدُ في أجنحةِ الملائكةِ وأوصافِ المخلوقاتِ الأخرى كما يشاء.

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٢ ـ حين يرضَى اللهُ تعالى عن فردٍ أو قوم ويفتَحُ عليه أبوابَ رحمتِه ونِعَمِه، لا يستطيعُ أحدٌ أن يُغلقَ هذه الأبوابَ، وحين يغضَبُ اللهُ تعالى على فردٍ أو قوم، ويُغلقُ عليهم أبوابَ رحمتِه ونِعَمِه، لا يستطيعُ أحدٌ أن يفتحَ هذه الأبوابَ، بلا شكٍّ اللهُ تعالى غالبٌ على الجميع، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يتحدَّى حُكمَه، وهو ـ مع ذلك ـ حكيمٌ أيضًا، وكلُّ حُكم من أحكامِه يكونُ مطابِقًا للحِكمةِ والإنصاف، وهو لا يظلمُ أحدًا.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

٣ ـ يا أَيُّها الناسُ، اذكُروا أفضالَ الله عليكم، وهو الذي خَلَقكم، وأَنْزل المطرَ من السّماءِ، وأَنْبت به من الأرضِ النَّباتَ، فهيَّأَ لكم بذلك أرزاقَكم، فماذا حَدَث لكم إذًا، بحيث تتركونَه وتعمَهونَ في الشِّركِ به؟ وإذا لم يكنْ هناك رازقٌ وخالقٌ غيرُه، وهو أمرٌ يقينيٌّ، فلا تليقُ العبادةُ بأحدٍ سواه.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

٤ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنه إذا كان مشركو مكّةَ يكذِّبونَك فهذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد كُذِّب الرسُلُ عليهمُ السَّلام من قَبْلِك، وكلُّ هؤلاءِ المكذِّبينَ سيَرجِعونَ إلينا يومًا ما، وسوف نُحاسبُهم حسابًا كاملًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

٥ ـ أيُّها الناسُ، ستقومُ الساعةُ لا مَحالةَ، فهذا وعدُ الله تعالى، ووَعْدُه صادقٌ، وسوف تُبعَثونَ في ذلك اليوم، وتحاسَبون، فمنِ اعتَقَد أنّ هذه الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، ولم يَتَّبِعْ أحكامَ الله تعالى، سيُواجهُ يومَ القيامة عذابًا أليمًا، لهذا عليكمُ الانتباهُ، ولا ينبغي أن تَشغَلَكم هذه الحياةُ الدُّنيا عن الآخِرة، أو يَجعَلَكم الشّيطانُ المخادِعُ عُصاةً لله تعالى بتزيينِ السّوءِ لكم.

﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

٦ ـ الشّيطانُ عدوٌّ لكم؛ لأنه طُرِد من الجنّةِ بسببِكم، والآنَ يريدُ أن يُخرِجَكم من الجنّةِ أيضًا، ولهذا عليكمُ الانتباهُ لخِداعِه ومكرِه، وتذكَّروا أنّ الشيطانَ من أهل جهنَّم، والذين سيَقبَلونَ دعوتَه سيَدخُلونَ جهنَّمَ أيضًا معَه.

أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ

تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

٧ ـ الشيطانُ يزيِّنُ للناسِ سوءَ عملِهم، والذين يقَعونَ فريسةً لخِداع الشيطانِ ويعتقدونَ أنّ أعمالَهم السيّئةَ هذه أعمالٌ حسَنةٌ حقيقةً، تنتهي من عقولِهم القدرةُ على التمييزِ بينَ الحلالِ والحرام، ولا تبقَى هناك أيُّ صورةٍ لإصلاحِهم، لهذا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ، إنْ لم يَقبَلْ أمثالُ هؤلاءِ الضّالِّينَ الهدايةَ فلا تحزَنْ عليهم ولا تغتمَّ لهم، فتؤْذيَ بذلك نفسَك حسرةً عليهم، فلقد أدَّيتَ حقَّ الدَّعوة، أمّا فيما يتعلَّقُ بهؤلاءِ الضالِّينَ فإنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أفعالَهم تمامَ العلم، ولأنّهم استعمَلوا عن عَمْدٍ الاختيارَ الممنوحَ لهم من اللهِ تعالى في الضّلال، لهذا حكَم اللهُ تعالى أيضًا بأنهم ضالُّون.

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

٨ ـ مثلَما أَنْزل اللهُ تعالى قطَراتِ المطرِ على الأرض الميِّتة (الجافّة) فأحياها بها، كذلك ليس من الصَّعبِ عليه أن يُحييَ الموتَى يومَ القيامة.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس من الإنسانِ شيءٌ إلّا يَبْلى إلّا عَظْمًا واحدًا وهو عُجْبُ الذَّنَب، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ في

(١) البخاري، كتاب التفسير، سورة ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ برقم ٤٩٣٥.

الإنسانِ عَظْمًا لا تأكلُه الأرضُ أبدًا فيه يُركَّبُ يومَ القيامة». قالوا: أيُّ عظمٍ هو يا رسولَ الله! قال: «عُجْبُ الذَّنب»[١].

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾

٩ ـ اللهُ تعالى مالكُ العزّةِ كلِّها، ولهذا من يريدُ العزّةَ، عليه أن يَرجِعَ إلى الله، وسينالُ العزّةَ بطاعتِه له. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «فمَن طَلَب العزّةَ من الله وصَدَقَه في طلبِها بافتقارٍ وذُلّ، وسكونٍ وخضوع، وَجَدَها عندَه، إن شاء الله»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما نَقَصَتْ صَدَقةٌ من مالٍ، وما زاد اللهُ عبدًا بعفوٍ إلّا عزًّا، وما تَواضَعَ أحدٌ لله إلّا رَفَعه الله»[٣].

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾

١٠ ـ الوسيلةُ للحصولِ على العزّةِ هي أنْ يَجريَ على لسانِ الإنسانِ كلامُ الله تعالى والكلماتُ المحبَّبةُ إليه، وهي المقبولةُ عندَه تعالى، وتكونَ سببًا في أن يمنَحه اللهُ العزّةَ، والوسيلةُ الأخرى هي أن يعمَلَ الإنسانُ عملًا يحبُّه اللهُ تعالى، ولهذا فإنّ الله يرفَعُ درجاتِ عزّتِه بفَضْل أعمالِه الصّالحةِ هذه.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

١١ ـ فيه تسريةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنّ الذين يتآمرونَ على الإسلام ونبيِّ الإسلام ﷺ لن ينجَحوا في مَسْعاهم أبدًا، وسوف يَلقَوْنَ عذابًا شديدًا، والمثالُ الواضحُ على ذلك:

---

(١) مسلم، كتاب الفتن، باب ٢٨ برقم ٧٤١٦.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) مسلم، كتاب البر، باب ١٩ برقم ٦٥٩٢.

أنّ أهلَ مكّةَ تآمَروا على قتلِ النبيِّ ﷺ، فأَنْجاهُ اللهُ تعالى منهم، وأوصَلَه إلى المدينةِ المنوَّرة، ولكنّ هؤلاءِ المتآمِرينَ قُتلوا بأيدي المسلمينَ في غزوةِ بدر، ومَن نَجا منهم اعترفَ بهزيمتِه يومَ فتح مكّة.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ﴾

١٢ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من الطِّين، وخَلَق أولادَه من نُطفتِه، ثم جَعَل ذُرِّيتَه تستمرُّ وتتواصَلُ من خلالِ التقاءِ الرجلِ والمرأة، ولا شيءَ يخفَى على اللهِ تعالى منذُ استقرارِ الحَمْل في رَحِم الأُمِّ وحتى مولِد الطفل، حتى أنه يَعلَمُ كلَّ ورقةٍ تسقُطُ على الأرض، وكلَّ حبةٍ تَنبُتُ في ظُلُماتِ الأرض: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: ٥٩]، كما أنّ عُمُرَ كلِّ شخصٍ مسطورٌ في اللَّوح المحفوظ، ويزيدُ اللهُ في عمُرِه أو يَنقُصُه إذا شاء. ولمزيدٍ من التفصيل في هذا راجعِ الحاشيةَ رقم ٤٨ للآية رقم **٣٩** من سُورة الرَّعد (١٣).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

١٣ ـ منذُ استقرارِ الحَمْل في بطنِ الأُمِّ وحتى مولدِه، ومِن مولدِ كلِّ إنسانٍ حتى موتِه، كلُّ هذه الأحوالِ جميعًا وتفصيلاتُها مكتوبةٌ في اللوح المحفوظ، وهو أمرٌ ليس صعبًا على اللهِ تعالى؛ لأنّ عِلمَه محيطٌ بكلِّ شيء.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾

١٤ ـ ماءُ البحارِ مالحٌ غيرُ مُستَساغ، بينَما مياهُ الأنهارِ والعيونِ عَذْبةٌ ولذيذة، لماذا يختلفُ طعمُ كلٍّ منهما عن الآخر؟ لمعرفةِ الحِكمةِ في ذلك راجع الحاشيةَ رقم ٤١ للآية رقم **٥٣** من سُورة الفُرقان (**٢٥**).

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

١٥ ـ مياهُ البحارِ مالحةٌ ومياهُ الأنهارِ عَذْبة، ولكنْ لك أن تتصوَّرَ قُدرةَ اللهِ تعالى بأنْ جعلَ لحومَ الأسماكِ في كلٍّ منهما عَذْبةً لذيذةً وليست مالحةً أو غيرَ مُستساغة.

ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآية ثلاثَ فوائدَ للبحر، يعني: أَكْلَ اللحومِ الطازَجة في صورةِ الأسماك، واتِّخاذَ الحُلِيِّ من اللآلئ والجواهرِ المستخرَجةِ منه، ونَقْلَ البضائع التجاريّةِ بينَ مختلفِ الدُّولِ في سُفُنٍ ومراكبَ تسيرُ في البحر، ومن هذا تحصلونَ على فَضْل الله تعالى، يعني: الرِّزقَ، وهذا كلُّه حتى تستمتعوا بنِعَم الله تعالى المختلفة وتشكروه عليها.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾

١٦ ـ جَعَل اللهُ تعالى الشمسَ والقمرَ ملتزمَيْنِ بالتحرُّكِ في مداراتٍ مخصوصةٍ ووقت معين، وبسببِ هذا يَنقُصُ اللّيلُ ويزيدُ النهارُ أو العكس، وهكذا تتبدَّلُ باستمرارٍ حالةُ الطَّقس، وهكذا يستمتعُ الإنسانُ بالمواسم المختلفة وكذا ثمارِ الصَّيفِ والشتاء، فلو استمرَّ طقسٌ واحدٌ على الناس لأصابَهم المَلَلُ منه، ولَما كان هناك تنوُّعٌ في المحاصيل الزِّراعية.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾

١٧ ـ يعني: مالكُ اللّيلِ والنّهار والشمسِ والقمرِ والأرضِ والسماءِ هو ربُّكم نفسُه، وهو فقطِ الذي تليقُ به العبادةُ، والذين تركتُم اللهَ تعالى من أَجْلِهم وعبدتُّموهم لا يَملِكونَ حتى مجرَّدَ قشرةٍ من نَواةِ تمرة، فكيف يمكنُ أن يكونوا آلهةً؟

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾

١٨ ـ هنا يقالُ للمشركينَ: إنّكم لو دعوتُم هذه الأصنامَ في وقتِ شِدّتِكم فإنّهم لن يستطيعوا سَماعَ دعائكم، وعلى افتراضِ أنّهم سيَسمَعونَ دعاءكم، فإنّهم معَ ذلك لن يستطيعوا مدَّ يدِ العَوْنِ لكم، بل إنّهم سيُعلنونَ براءتهم من شركِكم يومَ القيامة قائلينَ: إنّنا لم نكنْ آلهةً، ولم نأمُرْهم بعبادتِنا، وليس لنا أيُّ علاقةٍ بهم أصلًا، فيا أيُّها المشركون، اسمَعوا وتَدبَّروا، هذه هي الأحوالُ التي ستُواجهُكم، وربُّكم يُعلمُكم بها مقدَّمًا، ولا يمكنُ أن يُخبرَكم أحدٌ غيرَ الله تعالى بمِثلِ هذه الأمور الغَيْبيّةِ المبنيّةِ على الحقيقة، ولهذا لا يزالُ أمامَكم وقتٌ لكي تصلحوا أنفسَكم، وإلّا فلن تجنُوا يومَ القيامة سوى النَّدم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ

وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾

١٩ ـ أنتم جميعًا محتاجونَ إلى اللهِ تعالى، واللهُ تعالى لا يَحتاجُ إلى أحد، وأنتم جميعًا مَدِينونَ لفضلِه، وهو المستغني عن الجميع، وسواءٌ حَمِدَه أحدٌ أم لا، فهو المستحِقُّ للحمدِ على كلِّ حال؛ لأنه هو المتفضِّلُ الحقيقيُّ على الناس جميعًا، ولهذا فإنّ مَن يحمَدُه تكونُ الفائدةُ له هو وليس لله تعالى، ومن يُعرِضُ عن حمدِه يضُرُّ نفسَه، ويكونُ مستحِقًّا للعقابِ على جحودِه.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

٢٠ ـ يا أهلَ مكّة، مثلَما أنّ الأجيالَ السابقةَ، يعني: آباءكم وأجدادكم، لم يَعُدْ لهم أثرٌ، وأنتم الآنَ في مكانِهم، كذلك فإنّ اللهَ تعالى إذا أراد أَفْناكم أنتم أيضًا، وجاء بمَن يشاءُ بدلًا منكم وأسكَنَه مكانكم، وهذا ليس بالأمرِ الصَّعبِ على الله تعالى؛ لأنّ الذي يستطيعُ أن يَخلُقَ السماءَ والأرضَ لا يَصعُبُ عليه إماتتُكم والإتيانُ بمَن يَخلُفُكم.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ﴾

٢١ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ كلَّ إنسانٍ مسئولٌ عن أعمالِه، ولن يَحمِلَ أحدٌ أوزارَ أحدٍ يومَ القيامة، حتى وإن كان من أقربائه الأقربينَ، لكنّ الذي أضَلَّ الآخرينَ سيَحمِلُ وِزرَ ذنوبه، ومعَها وِزرَ ذنوبِ مَن أضَلَّهم أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وليس معنى هذا أنّ أوزارَ الذين أضَلَّهم ستخِفُّ أثقالُها عنهم، بالقَطْع لا، فستبقَى هذه الأثقالُ كما هي، لكنّ أثقالَ المُضِلِّ هي التي ستتضاعفُ، بمعنى: أنه سيكونُ على كاهلِه عبءُ ضلالِه هو، وعبءُ إضلالِه للآخَرينَ معَه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «مَن دَعا إلى هدًى كان له من الأَجْرِ مِثلُ أُجورِ مَن تَبِعَه لا يَنقُصُ ذلك من أجورِهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثم مِثلُ آثام مَن تَبِعَه لا يَنقُصُ ذلك من آثامِهم شيئًا»[١].

ويقول سيّدُنا عِكرِمةُ رضي الله عنه في تفسيرِ هذه الآية: «وإنّ الرّجُلَ لَيأتي إلى أبيه يومَ القيامة فيقول: ألم أكنْ بكَ بارًّا، وعليك مُشفِقًا، وإليكَ مُحسِنًا، وأنت ترى ما أنا فيه، فهَبْ لي حسَنةً من حسَناتِك، أوِ احمِلْ عنّي سيّئةً، فيقول: إنّ الّذي سألتَني يسيرٌ، ولكنّي أخافُ مِثلَ ما تخاف. وإنّ الأبَ لَيقولُ لابنِه مِثلَ ذلك، فيَرُدُّ عليه نحوًا من هذا. وإنّ الرّجُلَ لَيقولُ لزوجتِه: ألم أكنْ أُحسِنُ العِشرةَ لك؟ فاحملي عنّي خطيئةً لعلّي أَنْجو، فتقولُ: إنّ ذلك لَيسيرٌ، ولكنّي أخاف ممّا تخافُ منه»[٢].

سيشفَعُ الأنبياءُ والعلماءُ والشُّهداءُ والحُفّاظُ والصّالحونَ والقرآنُ ورمضانُ والأطفالُ الصِّغارُ ذكورًا وإناثًا وغيرُهم يومَ القيامة بإذنِ الله تعالى للمذنِبينَ من أهل الإيمان، وليس معنى هذا أنّهم سيَحمِلونَ أوزارَ هؤلاء المذنِبينَ عنهم، وإنّما المقصِدُ أنّ الله تعالى سيَقبَلُ شفاعتَهم، وسيعفو عن ذنوبِ هؤلاءِ المذنِبينَ، بمعنى: أنّ ذنوبَ هؤلاءِ لن يكونَ لها وجودٌ أصلًا، ويمكنُكَ في هذا الخصوص الرجوعُ إلى الحاشية رقم ٧٤ للآية رقم ١٠٩ من سورة طه (٢٠).

---

(١) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٤.

(٢) تفسير القرطبي، سورة فاطر (٣٥): الآية ١٨.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾

٢٢ - النبيُّ ﷺ يُنذِرُ الناسَ جميعًا ويحذِّرُهم من عذابِ الله تعالى، ولكن لأنّ الذين في قلوبِهم تقوى اللهِ تعالى هم - فقط - الذين يستفيدونَ من هذا الإنذارِ والتحذير، لهذا فكأنّ الحقيقةَ هي أنّ النبيَّ ﷺ يُنذرُ أولئك الذين يخشَوْنَ ربَّهم؛ لأنّ الذي لا يخشَى اللهَ ولا يخافُه لا يخافُ من أحدٍ آخَرَ.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أيضًا: أنّ من يؤمنُ باللهِ تعالى مباشرةً ودونَ نقاش، لمجرَّدِ سَماعِه من النبيِّ ﷺ أو تدبُّرِه في نظام الكائنات، فإنّ إيمانَه هو المقبولُ تمامًا، وإلّا فإنّ الكافرينَ جميعًا سيؤمنونَ بالله تعالى يومَ القيامة، لكنّ إيمانَهم هذا لن يكونَ مقبولًا.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

٢٣ - الذي يُطهِّرُ نفسَه من الذنوبِ لا يكونُ متفضِّلًا على أحدٍ بفعلِه هذا، وإنما تكونُ فائدتُه له هو نفسِه؛ لأنّنا في نهايةِ الأمر سنَرجِعُ جميعًا إلى الله تعالى، وسيرضَى اللهُ تعالى في ذلك اليوم عن هؤلاءِ الطاهرينَ، ويُدخلُهم جَنّاتِه، أمّا غيرُ الطاهرينَ فسيغضَبُ عليهم ويُدخِلُهم نارَ جهنَّم.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾

٢٤ - المرادُ بالأعمى هو: الكافر، والمرادُ بالبصير هو: المؤمن، يعني: مثلَما لا يستوي الأعمى والبصيرُ، كذلك لا يستوي المؤمنُ والكافر؛ لأنّ الكافرَ يظَلُّ يَعْمَهُ في ظلماتِ الكفر، بينَما يسيرُ المؤمنُ جادًّا في سَيْرِه على الصراطِ المستقيم في نورِ الإيمان.

﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلۡحَرُورُ﴾

٢٥ ـ المرادُ بالظلِّ هو: الثّوابُ، والمرادُ بالحَرور هو: العذاب، يعني: مثلَما يشعُر الإنسانُ بالراحةِ والسَّكِينة حين يَصِلُ إلى الظلِّ، ويضطربُ ويتأذَّى في حرارةِ الشمس، كذلك يشعُر المؤمنُ بالاطمئنانِ والسَّكينةِ يومَ القيامة حين يرى ثوابَ حسنَاتِه، بينَما يضطربُ الكافرُ ويتأذَّى حين يَرى عذابَ سيّئاتِه.

﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ﴾

٢٦ ـ المرادُ بالأحياء هم: أهلُ الإيمان، إذ إنّهم أحياءٌ وقلوبُهم أيضًا حيّةٌ، وهم يتدبَّرونَ نظامَ الكائناتِ بغيرِ تعصُّبٍ أو عناد، ويعرِفونَ الحقَّ ويؤمنونَ به، والمرادُ بالأموات هم: الكفّار، إذ إنّهم أحياءٌ، ولكنّ قلوبَهم ميِّتة، ورَغْم رؤيتِهم الحقَّ فإنّهم لا يؤمنونَ به بسببِ تعصُّبِهم وعنادِهم، ويظَلُّونَ يَتيهونَ في الباطل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾

٢٧ ـ المرادُ بإسماع مَن في القبورِ هنا: الإسماعُ بطريقةٍ يَقبَلُ بها السامعُ النَّصيحةَ، فيتخَلَّى عن ظلماتِ الكُفر، ويتَّجهُ إلى نورِ الإيمان، وظاهرٌ أنّ أهلَ القبورِ يكونونَ قدِ انتَقلوا من دارِ العمل إلى دارِ الجزاء، وبالتالي لو ذَهبْنا إلى قبرِ كافرٍ ودعوناهُ إلى الإسلام فإنه يستطيعُ أن يسمعَ الدعوةَ، لكنّ وقتَ القَبولِ يكونُ قدِ انتهى.

والمرادُ بأهلِ القبورِ هنا: الكُفّار، والكُفّارُ يدعَوْنَ دائمًا إلى رسالةِ الحق، وكلُّ نبيٍّ يدعو الكفَّارَ في عصرِه دائمًا إلى رسالةِ الحقِّ، لكنّ المرادَ بالكفّار هنا: أولئك الذين ماتت قلوبُهم، وفي الوقتِ الذي كانت قلوبُهم لا تزالُ حيّةً في البدايةِ لم يَقبَلوا الإسلامَ، وظَلُّوا بسببِ تعصُّبِهم يُنكِرون، حتى ماتت ضمائرُهم، إلى درجةِ أنّ دعوتَك لهم أصبحت مثلما تدعو أهلَ القبور؛ لأنّ كلَيْهِما قد تجاوَزَ مرحلةَ قَبولِ النَّصيحة،

ولهذا قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنّك لا تُسمِعُ هذه القلوبَ الميِّتةَ، بمعنى: أنك تؤدِّي واجبَك بإسماعِهم رسالةَ الحق، لكنّ هؤلاءِ لن يَقبَلوا النَّصيحةَ، وليس معنى هذا أنّ أهلَ القبورِ لا يستطيعونَ السَّمعَ أصلًا، وإلّا لَما كانت هناك فائدةٌ من إلقاءِ السلام عليهم، ويمكنُك الرجوعُ في هذا الخصوصِ إلى الحاشية رقم ٧٤ للآية رقم ٨٠ من سُورة النَّمل (٢٧).

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

٢٨ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى نبيًّا لكلِّ قوم، وقام هذا النبيُّ بنفسِه، أو من خلالِ العلماء ـ باعتبارهم وَرَثةَ الأنبياء ـ بتبليغ رسالةِ التوحيدِ في كلِّ أنحاءِ دائرةِ نُبوَّتِه، حتى لا تحتجَّ أُمَةٌ من الأُمم بأنّهم لم يأتِهم مَن يُنذرُهم، وقد ختَم اللهُ تعالى سلسلةَ النُّبوةِ بحبيبِنا المصطفى ﷺ، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ نبيٌّ لكلِّ قوم ولكلِّ مكانٍ في العالَم حتى قيام الساعة، وبعدَ النبيِّ ﷺ واصَلَ علماءُ أُمـتِه إبلاغَ رسالةِ الإسلام إلى كلِّ أرجاءِ الدُّنيا عن طريقِ التدريسِ والتأليفِ والوَعْظ، واليومَ تطوَّر الإعلامُ تطوُّرًا كبيرًا بحيثُ لا يوجَدُ أحدٌ في العالَم تقريبًا لم يَعرِفْ بالإسلام، أمّا إن كان هناك أحدٌ لم يحاولْ أن يفهَمَ الإسلامَ بدافع التعصُّب، فإنّ هذا ذنبُه هو وليس ذنبَ أحدٍ آخَرَ.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

٢٩ ـ هنا تسريةٌ عن النبيِّ ﷺ وطَمْأنةٌ له بأنْ لا تحزَنْ يا رسولَ اللهِ ﷺ إذا كان مشركو مكّةَ يكذِّبونَك، فقد أظهَرَ الأنبياءُ السابقونَ عليهم السَّلامُ المعجِزاتِ لأقوامِهم، وتَلَوْا عليهم الصُّحفَ والكتُبَ السَّماويةَ التي أُنزِلت عليهم، ومعَ ذلك

فقد كذَّب هؤلاءِ أنبياءهم، ولمّا لم يَرجِعوا عن كُفرِهم وظُلمِهم برَغْم تنبيهِهم مرّاتٍ ومرات، أرسَلَ اللهُ عليهم عذابًا مَحَا كلَّ أثرٍ لهم من الوجود.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

٣٠ ـ أرضٌ واحدة، وطقسٌ متماثِل، ولكنّ ألوانَ الثمارِ الناتجةِ من هذه الأرضِ وطعمَها مختلفٌ بعضُها عن بعضٍ، حتى أنك تجدُ ألوانًا مختلفةً وطعمًا

مختلفًا بين ثمارٍ من نفسِ النَّوع، مثلَ المانْجو والعنبِ والتّفاح وغيرِها، وبنفسِ الطريقة تجدُ أحجارًا بألوانٍ مختلفةٍ في الجبلِ الواحد، وكلُّ هذه الأشياءِ العجيبةِ تعبِّرُ عن قُدرةِ الله تعالى وتُظهِرُها.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ ﴾

٣١ ـ لو أنّنا نظَرْنا إلى الشَّكل الظاهريِّ للإنسان، بصَرْفِ النظَرِ عن النّباتاتِ والجماداتِ والحَيوانات، لوجَدْنا طفلَيْنِ ـ مثلًا ـ لأبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدةٍ غيرَ متماثلَيْن، حتى أنّ بصَماتِ إبهام أيِّ إنسانٍ وخطوطَ يدِه لا تتشابهُ معَ بصماتِ إنسانٍ آخَرَ، وباختصار: لو تدبَّرنا هذا التنوُّعَ الموجودَ في كلِّ شيءٍ في الكائنات، لن يجدَ العقلُ السليمُ بُدًّا من التسليم بأنّ هذه الكائناتِ ليست نتيجةَ حادثةٍ ما، وإنّما هي معجزةٌ لقدرةِ الله تعالى وحِكمتِه.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾

٣٢ ـ قال اللهُ تعالى: العلماءُ فقطْ هم الذين يخشَوْنَ الله تعالى، ومعنى هذا أنّ كلَّ مسلمٍ يخشَى اللهَ تعالى بقَدْرِ علمِه، لكنّ العالِمَ أكثرُهم خَشْيةً لله، أو يجبُ عليه أن يكونَ كذلك؛ لأنه يَعلَمُ أكثرَ من غيرِه عن ذاتِ الله تعالى وصفاتِه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ «.... إنّ أَتْقاكم وأعلَمَكم بالله: أنا»[١].

ويقولُ شهابُ الدِّين القسطَلّانيُّ في شرح هذا الحديثِ: «فقيل: لسنا كهيئتِك (يا رسولَ الله، إنّ الله) تعالى (قد غَفَر لكَ ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر) كأنّهم قالوا: أنت مغفورٌ لك لا تحتاجُ إلى عمل؟ ومعَ ذلك تواظبُ على الأعمالِ، فكيف بنا معَ كثرةِ ذنوبِنا؟ فرَدَّ عليهم بقولِه: أنا أَوْلى بالعمل؛ لأني أتقاكم وأعلَمُكم»[٢].

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب ١٣ برقم ٢٠.

(٢) إرشاد الساري، ١: ١٧٦.

ويُعلَمُ منه أنه كلَّما كان الشّخصُ على قَدْرٍ أكبرَ من العلم، كانت خَشْيتُه لله تعالى أكبرَ، ومن كانت خَشيتُه لله تعالى كبيرةً، كان عمَلُه بقدرِ خَشْيتِه، وأكثرُ الناس خَشْيةً لله تعالى هم أكثرُهم احترامًا لدى اللهِ تعالى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

العلم الحقيقي

العِلمُ الحقيقيُّ هو ذلك العِلمُ الذي يُجبِرُ الإنسانَ على العمَل، مثلَما أعلَمُ أنّني سأحترقُ إنْ قفَزْتُ في النارِ المشتعلة، ولهذا لن أقفزَ في هذه النارِ حتى لو استماتَ أحدٌ في الإلحاح علَيّ بأنْ أقفزَ فيها، وهكذا العالِمُ الحقيقيُّ هو الذي يُجبرُه عِلمُه على إقامةِ الصّلاة والصِّيام وقولِ الحقِّ وأكلِ الحلال؛ لأنه يَعلَمُ أنه سيُلقَى به في جهنَّمَ إن لم يُقِم الصلاةَ، أو إن لم يَصُمْ، أو لم يَقُل الحقَّ، أو أكَلَ الحرامَ، والشّخصُ الذي لا يعمَلُ بما يَعلَمُ ليس عالِمًا حقيقيًّا، وإليك بعضَ الأقوالِ في هذا الخصوص:

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ليس العِلمُ عن كثرةِ الحديث، ولكنّ العِلمَ عن كثرةِ الخَشْية»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا مجاهدٌ رحمه اللهُ تعالى: «إنّما العالِمُ مَن خشِيَ اللهَ عزَّ وجلّ»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا الرَّبيعُ بن أَنَـس رضي اللهُ عنـه: «مَن لم يخشَ اللهَ تعالى فليس بعالِم»[٣].

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة فاطر (٣٥): الآية ٢٨.

(٢) تفسير القرطبي، سورة فاطر (٣٥): الآية ٢٨.

(٣) المرجع السابق.

فضل العلم

ـ يقولُ سيّدُنا عثمانُ بن عفّانَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «خيرُكم مَن تعلَّم القرآنَ وعَلَّمه»[1].

ـ «منِ اغبَرَّت قدَماهُ في طلبِ العِلم، حَرَّم اللهُ جسَدَه على النّار، واستغفَرَ له مَلَكاهُ، وإن ماتَ في طلبِه مات شهيدًا، وكان قبرُه روضةً من رياض الجنّة، ويُوسَّعُ له في قبرِه مدَّ بصَرِه، ويُنوَّرُ على جيرانِه أربعينَ قبرًا عن يمينِه، وأربعينَ قبرًا عن يسارِه، وأربعينَ عن خَلْفِه، وأربعينَ أمامَه»[2].

ـ قال رسولُ الله ﷺ لسيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه: «يا أبا هريرةَ، عَلِّم الناسَ القرآنَ وتعلَّمْه، فإنك إن مِتَّ وأنت كذلك زارَتِ الملائكةُ قبرَك كما يُزارُ البيتُ العتيق»[3].

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «مَن جاءه الموتُ وهو يَطلُبُ العِلمَ ليُحيَي به الإسلامَ فبينَه وبينَ النّبيّينَ درجةٌ واحدةٌ في الجنّة»[4].

ولمزيدٍ من التفصيل عن فَضْل العِلم وأهل العِلم راجع الحاشيةَ رقم ٩٩ للآية رقم ١٢٢ من سُورة التوبة (٩)، وكذا الحاشيةُ رقم ٣٩ للآية رقم ٤٥ من سُورة العنكبوت (٢٩).

العلم أفضل من العبادة

ـ سُئل رسولُ الله ﷺ عن رجُلَيْنِ كانا في بني إسرائيلَ، أحدُهما: كان عالمًا

---

(١) البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب ٢١ برقم ٥٠٢٧.

(٢) التفسير الكبير، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.

(٣) كنز العمال، ١٠: ٢٥٩.

(٤) سنن الدارمي، المقدمة: باب ٣٢.

يُصلّي المكتوبةَ ثمّ يجلسُ فيُعلّمُ النّاسَ الخيرَ. والآخَرُ يصُومُ النّهارَ ويقومُ اللّيلَ، أيُّهما أفضل؟ قال رسولُ الله ﷺ: «فَضْلُ هذا العالِم الّذي يُصلِّي المكتوبةَ ثمّ يجلسُ فيُعلِّمُ النّاسَ الخيرَ على العابدِ الّذي يصُومُ النّهارَ ويقومُ اللّيلَ كفَضْلي على أدناكُم»[١]؛ لأنّ فائدةَ العبادةِ تكونُ للعابدِ فقطْ، وهو الذي سيَستحِقُّ النجاةَ بعبادتِه، لكنّ فائدةَ التعليم تمتدُّ لتشمَلَ الآخَرينَ أيضًا.

ـ قال رسولُ الله ﷺ: «ساعةٌ من عالمٍ متّكِىءٍ على فراشِه ينظُر في علمِه خيرٌ من عبادةِ العابدِ سبعينَ عامًا»[٢]؛ لأنّ عبادةَ سبعينَ عامًا ستعودُ بالفائدةِ على العابدِ فقطْ، وسيَستحِقُّ بناءً عليها النّجاة، لكنْ، في هذه الساعةِ ـ طبقًا للقرآنِ والحديثِ ـ لو تَبادَر إلى ذهنِ العالِم كلامٌ من الحِكمةِ سيَستفيدُ به الكثيرُ من الناس، ويكونُ سببًا في نَجاتِهم جميعًا.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن سَلَك طريقًا يبتغي فيه علمًا سَلَكَ اللهُ به طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلم، وإنّ العالِمَ لَيستغفرُ له مَن في السّمواتِ ومَن في الأرض حتّى الحِيتانُ في الماء، وفَضْلُ العالِم على العابدِ كفَضْل القمرِ على سائرِ الكواكب، إنّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنّما وَرَّثوا العِلمَ، فمَن أخَذ به أخَذ بحظٍّ وافر»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا اجتَمعَ العالِمُ والعابدُ على الصّراط؛ قيل للعابد: ادخُلِ الجنّة وتَنعَّمْ بعبادتِك،

(١) تفسير القرطبي، سورة التوبة(٩): الآية ١٢٢.
(٢) كنز العمال، ١٠: ١٥٤.
(٣) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

وقيل للعالم: قفْ هنا واشفَعْ لمَن أحبَبْتَ، فإنّك لا تشفَعُ لأحدٍ إلا شُفِّعتَ، فقام مقامَ الأنبياء»[1].

العلم أفضل من الجهاد

ـ قال النبيُّ ﷺ: «طالبُ العِلم أفضَلُ عندَ الله تعالى من المجاهدِ في سَبيل الله»[2]؛ لأنّ فائدةَ الجهاد تكونُ للمجاهد فقطْ، أو سيَستفيدُ منه بعضُ رجالِ زمانِه فقطْ، بينَما الذي يُحصِّلُ العلمَ أيًّا كانت الشُّعبةُ التي يختارُها لتبليغ الإسلام، سواءٌ كانت التدريسَ أم التأليفَ أم الخَطابة، فإنّ المستفيدينَ منه لا حَصْرَ لهم.

ـ قال النبيُّ ﷺ، فيما رواه عنه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «الغُدُوُّ والرَّواحُ في طلبِ العلم أفضَلُ عندَ الله من الجهادِ في سَبيل الله عزَّ وجلّ»[3]؛ لأنّ الجهادَ بالدّليل أفضَلُ من الجهادِ بالسَّيف[4]، كما أنّ العلمَ التفصيليَّ هو الجهادُ الأكبر؛ لأنّ النقاشَ بالدّليلِ هو أصلُ الدِّين وأساسُه، وهذا أيضًا أحدُ مقاصدِ بَعثةِ النبيِّ ﷺ[5].

فضل العالم

ـ قال النبيُّ ﷺ «علماءُ أُمّتي كأنبياءِ بني إسرائيلَ ـ أي: في صدقِ طلبِ الحقّ ـ

---

(١) الجامع الصغير، ١: ٢٧ برقم ٣٥٢، وجمع الجوامع، ١: ١٣٨ برقم ٨٧٨، وكنز العمال، ١٠: ١٣٦ برقم ٢٨٦٨٨.

(٢) كنز العمال، ١٠: ١٤٣ برقم ٢٨٧٢٧.

(٣) كنز العمال، ١٠: ١٦٣ برقم ٢٨٨٤٤.

(٤) «لأنّ الجهاد بالحجّة أعظم أمرًا من الجهاد بالسّيف». البحر المحيط، سورة التوبة (٩): الآية ١٢٢.

(٥) «هو الجهاد الأكبر؛ لأن الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعث». تفسير البيضاوي، سورة التوبة (٩): الآية ١٢٢.

بالإعراضِ عن الكونَيْن والتّوجُّه إلى اللهِ تعالى»[١]، يعني: أولئك العلماءَ الرّبانيِّين الذين يستغنُونَ عن الدُّنيا ويطلُبونَ رضَى الحقِّ تعالى، وألفاظُ هذا الحديثِ ليست ثابتةً عن النبيِّ ﷺ، لكنّ أهلَ العلم يعترِفونَ به باعتبارِ معناه؛ لأنّ العلماءَ هم ـ بالفعل ـ وَرَثةُ الأنبياء.

ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: «يوزَنُ يومَ القيامة مِدادُ العلماءِ ودمُ الشّهداء، فيَرجَحُ عليهم مِدادُ (أقلام) العلماءِ على دم الشّهداء»[٢].

ـ «نومُ العالِم عبادةٌ، ومُذاكَرتُه تسبيحٌ، ونفَسُه صدقةٌ، وكلُّ قطرةٍ نزَلت من عينَيْه تطفئُ بحرًا من جهنَّم، فمَن أهان العالِمَ فقد أهان العلمَ، ومن أهانَ العلمَ فقد أهان النبيَّ، ومَن أهان النبيَّ فقد أهان جِبريلَ، ومَن أهانَ جِبريلَ فقد أهانَ الله، ومَن أهان اللهَ أهانَه اللهُ يومَ القيامة»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «هل تَدرُونَ من أجوَدُ جُودًا؟»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «اللهُ أجوَدُ جودًا، ثمّ أنا أجوَدُ بني آدم، وأجوَدُ بعدي رجلٌ عَلِم علمًا فنَشره يأتي يومَ القيامة أميرًا وحدَه، قال: أمّةً وحدَه»[٤].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾

٣٣ ـ تلاوةُ القرآنِ الكريم، وإقامةُ الصّلاة، والإنفاقُ في سَبيل الله تعالى كلُّها حسَناتٌ هي في الحقيقة نوعٌ من التجارةِ معَ الله تعالى، وَعَد اللهُ مَن يقومُ

---

(١) تفسير روح البيان، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٤.
(٢) كنز العمال، ١٠: ١٤١.
(٣) التفسير الكبير، سورة البقرة (٢): الآية ٣١.
(٤) شعب الإيمان، البيهقي، ٢: ٢٨١.

بها بالأجرِ والثوابِ العظيم، واللهُ لا يُخلفُ وعدَه أبدًا، ولهذا فإنّ مَن يقومُ بهذه التجارةِ لا شكَّ رابحٌ ولن يخسرَ أبدًا.

يقولُ المفسِّرونَ: «إنّ إظهارَ الصَّدقاتِ المفروضة عندَ إعطائها أفضَلُ، بينَما الأفضَلُ في الصَّدَقاتِ التّطوُّعيّة أن يتِمَّ إخفاؤها»[1]، والذين يُعطُونَ الصَّدقاتِ خُفيةً سيُظِلُّهم اللهُ في ظلِّ عرشِه يومَ القيامة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «سبعةٌ يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلّا ظِلُّه:

١ ـ الإمامُ العادل (الحاكم).

٢ ـ وشابٌّ نَشأَ في عبادةِ ربِّه.

٣ ـ ورجلٌ قلبُه معلَّقٌ في المساجد.

٤ ـ ورجلانِ تحابّا في الله اجتَمَعا عليه وتفَرّقا عليه.

٥ ـ ورجلٌ طلبَتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنّي أخافُ الله.

٦ ـ ورجلٌ تصَدَّقَ أخفَى حتّى لا تَعلَمَ شِمالُه ما تُنفقُ يمينُه.

٧ ـ ورجلٌ ذَكَر اللهُ خاليًا ففاضَتْ عيناه»[2].

صحيحٌ أنّ المتصدِّقَ خُفْيةً يظَلُّ محفوظًا من خطرِ الرِّياء، وفي نفسِ الوقت لا تَجرَحُ نفسَ متلقّي الصَّدقةِ أو مشاعرَه، ولكنْ لو وُجِدت ظروفٌ لا يستطيعُ القليلُ من الناسِ أن يقوموا بها، فإنّ إعطاءَ الصَّدقةِ علانيَةً، والتسابقَ إلى التصدُّقِ يكونُ أفضَل، وذلك حتى يتِمَّ ترغيبُ الآخَرينَ في التصدُّق، مثلَما طالَبَ النبيُّ ﷺ في الغزَوات، وتصَدَّقَ الصّحابةُ رضي اللهُ عنهم جميعًا علانيَةً، وحاولوا التسابقَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢): الآية ٢٧١.

(٢) البخاري، كتاب الأذان، باب ٣٦ برقم ٦٦٠.

في الإعطاء[١]، وبنفسِ الطريقة فإنّ التصَدُّقَ علانيَةً والتسابقَ إليه من أَجْل الجهادِ وبناءِ المساجد والمدارس والمستشفياتِ ونَشْرِ الدِّين وخدمةِ الناسِ في أيامِنا هذه أفضَل، بشَرْطِ أن لا يكونَ في نيّتِه رياءٌ، وإنّما يكونُ المقصودُ هو ترغيبُ الآخَرينَ في التصَدُّق.

وهناك حِكَمٌ عظيمةٌ وراءَ إخراج الصَّدقاتِ المفروضةِ ـ مثلَ الزّكاةِ ـ علانيَةً، وأولُ شيءٍ هو: أنه يتِمُّ أداءُ الفرضِ بالنِّسبة لمُخرِج الزكاة، وأصبح مالُه بذلك طاهرًا، وفي نفسِ الوقتِ يكونُ في ذلك ترغيبٌ للآخَرينَ في إخراج زكاتِهم، ومن يؤدِّي الزكاةَ بهذا الترغيبِ العَلَنيّ فإنّ المرغِّبَ ينالُ ثوابَه أيضًا، وكذلك تعودُ الثقةُ إلى الناسِ بهذا الشَّكل، ولن يكونَ هناك سوءُ ظنٍّ، بمعنى: أنّ الناسَ سيَرَوْنَ بأعيُنِهم أنه إذا كان اللهُ تعالى قد أَنْعم عليهم بالثّروةِ فإنّهم أيضًا لن يبخَلوا بها، وإنّما يشكُرونَ المتفضِّلَ الحقيقيَّ عليهم بإخراج الزكاة.

بالإضافةِ إلى الزَّكاة فإنّ هذه الحِكَمَ أيضًا تكونُ وراءَ أداءِ الأعمال المفروضةِ الأخرى علانيَةً مثلَ: الصّلاةِ والحجِّ، ولهذا ـ في الغالب ـ قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: «إذا قَضَى أحدُكم الصّلاةَ في مسجدِه فلْيجعَلْ لبيتِه نصيبًا من صَلاتِه، فإنّ اللهَ جاعلٌ في بيتِه من صلاتِه خيرًا»[٢]، وفي روايةٍ أخرى: قال النبيُّ ﷺ: «فعليكم بالصّلاةِ في بيوتِكم، فإنّ خيرَ صلاةِ المرءِ في بيتِه إلّا الصّلاةَ المكتوبة»[٣]. يعني: الخروجُ من البيتِ لأداءِ الصلاة، والذهابُ إلى المسجدِ، ومشاركةُ الآخَرينَ هناك في صلاةِ الجماعة وغيرِ ذلك كلِّه رَغْمَ أنه

---

(١) الصحاح الستة.

(٢) مسلم، صلاة المسافرين، باب ٢٩ برقم ١٨٢٢.

(٣) مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب ٢٩ برقم ١٨٢٥.

إظهارٌ للصّلاة، ولكنّه ضروريٌّ، وباختصار: فإنّ القيامَ بالأعمالِ الصّالحة خُفيةً أو علانيَةً كلاهُما أمرٌ طيِّبٌ، وأحيانًا يكونُ الإخفاءُ أفضَلَ، وأحيانًا أخرى يكونُ الإعلانُ هو الأفضَلَ حسَبَ الظروفِ والأحوال.

﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

٣٤ ـ الذين يتاجِرونَ معَ بعضِهم يكونُ بينَهم احتمالٌ للخسارةِ أيضًا جنبًا إلى جنبٍ معَ احتمالِ المكسَب، لكنّ الذين يُتاجِرونَ معَ الله تعالى بالأعمالِ الصالحةِ لا يخشَوْنَ خسارةً؛ لأنّ اللهَ تعالى يُعطيهم أجرَهم كاملًا طِبقًا لأعمالِهم، كما أنّ اللهَ تعالى خيرُ مَن يَجزي ويُقدِّر، فهو الذي يمنَحُ فضلًا وكرمًا خاصًّا لمَن تتميَّزُ أعمالُهم بقَدْرٍ أكبرَ من الإخلاص، وهو الذي سيزيدُ في أجرِهم من فضلِه.

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾

٣٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنّ الكتابَ الذي أَنْزلناهُ عليكَ في شكلِ القرآنِ الكريم حقٌّ تمامًا، ويؤيِّدُ الكتُبَ السّماويةَ السابقةَ، أي: الزَّبورَ والتّوراةَ والإنْجيلَ، ويؤكِّدُ أنها حقٌّ أيضًا، وأنّ اللهَ تعالى هو الذي أَنْزلَها.

ويُعلَمُ منه أنّ القرآنَ الكريمَ هو الكتابُ السَّماويُّ الأخيرُ؛ لأنه يُصدِّقُ الكتُبَ السابقةَ عليه فقطْ، ولا يبشِّرُ بكتابٍ آخَرَ قادم.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

٣٦ ـ إنّ فضلَ الله تعالى وإحسانَه على المسلمينَ عظيم، إذ إنه اختار المسلمينَ من بينِ عبادِه لخدمةِ القرآنِ المَجيد.

جاء في هذه الآيةِ بيانٌ لثلاثةِ أقسام من المسلمين، وهم: الذين يقولُ عنهم سيّدُنا الحسَنُ البصريُّ رحمه اللهُ تعالى: «السابقُ: مَن رَجَحت حسَناتُه على سيّئاتِه، والظالمُ لنفسِه: مَن رَجَحت سيّئاتُه، والمقتصِدُ: من استَوت حسَناتُه وسيّئاتُه، وجميعُهم يدخُلونَ الجنّةَ»(١).

يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «السابقُ بالخَيْرات يَدخُل الجنّةَ بغيرِ حساب، والمقتصِدُ يدخُل الجنةَ برحمةِ الله، والظالمُ لنفسِه وأصحابُ الاعرافِ يدخُلونَ الجنّةَ بشفاعةِ محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم»(٢).

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾

٣٧ ـ كلُّ أهلِ الإيمان سيَدخُلونَ الجنّةَ في الآخِرة، وسيَخلُدونَ فيها إلى الأبد، وهناك سيلبَسُ الرجالُ الذَّهبَ والحريرَ، لكن حُليَّ الذهبِ في هذه الدنيا كالأساور والجواهر، وكذا ملابسُ الحرير تلبَسُها النّساء، ولا تجوزُ للرجال.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾

٣٨ ـ حين يدخُلُ أهلُ الإيمان الجنّةَ سيقولون: كنّا نخافُ العذابَ بسببِ أعمالِنا، لكنِ الحمدُ لله تعالى أنه أبعَدَ الحَزَنَ عنّا بفضلِه وكرَمِه، وأَنْعم علينا بجنّةٍ لا تعبَ فيها ولا نَصَب ولا إرهاقَ، وإنما اطمئنانٌ وسَكِينةٌ وسلامٌ في كلِّ جانبٍ منها.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾

٣٩ ـ حين يُلقَى بالمنكِرينَ في جهنَّمَ سيتمنَّوْنَ ليتَ الموتَ يأتيهم حتى

(١) صفوة التفاسير، محمد على الصابوني.
(٢) تفسير ابن كثير.

يحصُلوا على النَّجاةِ من هذا العذاب، لكنّ الموتَ لن يأتيَهم، كما لن يَقِلَّ عذابُهم، وإنما سيُبتلَوْنَ بعذابِ جحودِهم وإنكارِهم إلى الأبد.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

٤٠ ـ سيَصرُخونَ في جهنَّمَ مستغيثينَ: يا ربَّنا، أَخْرِجْنا من هذا العذاب، وامنَحْنا فرصةَ العودةِ إلى الدُّنيا ثانيةً، وسنعمَلُ الصّالحاتِ دائمًا، ولن نرتكبَ سوءًا أبدًا. وعندَئذٍ سيقولُ اللهُ تعالى: لقد أعطيناكم مُهلةً وعُمرًا، ولو حاولتُم خلالَ هذه المُهلة وهذا العُمرِ فهمَ الحقِّ لَاستطعتُم ذلك، ثم إنّنا لم نكتفِ بهذه المُهلة، وإنّما أرسَلْنا إليكم الأنبياءَ والعلماءَ ليُنذِروكم هذا العذابَ، لكنّكم لم تستمعوا إلى أحدٍ منهم، والآنَ عليكم أن تذوقوا عذابَ إنكارِكم وظُلمِكم، فهنا ستكونُ الأحكامُ طِبقًا للعدلِ والإنصاف، ولن يُمنَحَ ظالمٌ مِيزةً أو عونًا ومَدَدًا.

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ

عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

٤١ ـ سيَستغيثُ المنكِرونَ خائفينَ من عذابِ جهنَّم متوسِّلينَ أن يَمنَحَهم اللهُ تعالى فرصةً أخرى للعودةِ إلى الدُّنيا، وعندَها لن يعصوه أبدًا، لكنّ اللهَ تعالى يعلَمُ تمامَ العلم ما تُخْفيه الصُّدورُ، وبفَرْضِ المستحيل لو أنّهم أُعيدوا إلى هذه الدنيا ثانيةً فإنّهم سيَسمعونَ إلى الشيطانِ وينهمِكونَ في ارتكابِ السُّوءِ من جديدٍ، ولن يستمعوا إلى نصائح العلماء. ولمزيدٍ من التفصيل في هذا الخصُوص راجع الحاشيةَ رقم ٢٦ للآية رقم ٢٨ من سُورة الأنعام (٦).

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴾

٤٢ ـ اللهُ تعالى خَلَقَكم بشَرًا، وأسكَنكم في هذه الدُّنيا الأرضَ واحدًا تِلوَ الآخَر، وجَعَلَكم الوارثينَ لمالِ ومتاعِ مَن سبَقُوكم، ووَضَع على رءوسِكم أنتم ـ بني الإنسان ـ تاجَ خلافتِه، وجَعَلكم أشرفَ المخلوقات، فإذا أنكرتُم المتفضِّلَ الحقيقيَّ عليكم، فإنّ ذلك لن يَضِيرَه شيئًا؛ لأنه القادرُ المطلَقُ المستغني، لكنّكم أنتم الذين ستَخسَرونَ بإنكارِكم هذا له، وسيزيدُ غضبُ الله عليكم يقينًا، لأنّكم جَحَدتُم أفضالَ الله تعالى عليكم ولم تُقدِّروها حقَّ قَدْرِها.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

٤٣ ـ هنا دعوةٌ للمشركينَ لكي يتفكَّروا ويتدبَّروا في أنّ الأصنامَ التي أشركتُموها معَ الله تعالى وعبدتُموها، هل خَلَقتْ أيَّ جزءٍ في السماءِ أو الأرض؟ واضحٌ أنها لم تَخلُقْ شيئًا منها، فهل لديكُم أيُّ كتابٍ سماويٍّ تعلمتُم منه هذا الشِّرك، وتعملونَ طبقًا له؟ فإذا لم يكنْ لديكم أيُّ دليلٍ: عقليٍّ أو نَقْلي على صدقِ هذه الأصنام وحَقّانيّتِها، فلماذا تظلِمونَ أنفسَكم، ويُمَنِّي بعضُكم بعضًا بالشّفاعةِ الزائفة؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

٤٤ ـ خَلَق اللهُ تعالى السّماءَ والأرضَ كلًّا منهما ملتزِمةً بمدارِها المقرّرِ لها؛ لأنه لو خَرَجت أيٌّ منهما عن مدارها ولو قليلًا لَكان ذلك دمارًا لنظام الكائناتِ كلِّه في لَمَحاتٍ قليلة، ولكنْ حينَ تنحرفُ هاتانِ عن مدارِهما بأمرِ الله تعالى معَ قُربِ الساعة، وتتحطَّمُ كلٌّ منهما وتتناثَر، فلن يكونَ في استطاعةِ أحدٍ عندَئذٍ أن يتوقَّفَ في مكانِه، وبرَغْم كلِّ هذه القُدرةِ التي لا حدَّ لها فإنّه تعالى رحيمٌ بعبادِه كثيرًا إلى درجةِ أنه لا يؤاخذُهم فورَ ارتكابِهم للطُّغيانِ والعصيان، وإنّما يُمهِلُهم ليُصلِحوا أنفسَهم، وما أن يتوبَ أحدٌ منهم حتى يعفوَ اللهُ تعالى عن كلِّ عصيانٍ ارتكبَه.

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

٤٥ ـ يقولُ أبو السُّعود: «بَلَغ قُريشًا قبل مبعَثِ رسولِ الله ﷺ أنّ أهلَ الكتابِ

كذَّبوا رسُلَهم فقالوا: لَعَن اللهُ اليهودَ والنَّصارى، أَتَتْهُم الرسُلُ فكذَّبوهم، فواللهِ لئنْ أتانا رسولٌ لَنكونَنَّ أهدى من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: فلمّا جاءهم محمَّدٌ ﷺ أشرَفُ المرسَلينَ ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادَهم مجيئُه إلّا تباعُدًا عن الهدى والحقِّ وهربًا منه ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: نَفَروا منه بسببِ استكبارِهم عنِ اتِّباع الحقِّ، وعتُوِّهم وطُغيانِهم في الأرض»[1]، ولكنْ حين جاءهم سيِّدُ الأنبياءِ والمرسَلين سيِّدُنا محمدٌ ﷺ قاموا بمخالفتِه ومعاداتِه بدافعٍ من تكبُّرِهم وتعصُّبِهم.

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾

٤٦ ـ قام سادةُ قُريشٍ بدافع من تعصُّبِهم وتكبُّرِهم بتكذيبِ النبيِّ ﷺ، ليس هذا فقطْ، وإنّما تآمَروا كذلك على قتلِه، لكنّهم نَسُوا حقيقةَ أنّ مَن يحفِرُ لأخيه حُفرةً لا بدَّ أنه سيقَعُ هو فيها ذاتَ يوم، فهل ينتظرونَ أن يَتِمَّ إهلاكُهم كما أُهلِكت الأقوامُ الطاغيةُ السابقةُ من قبلِهم؟ فينبغي لهم إذًا أن يعلَموا أنّ نوعيّةَ العذابِ التي قرَّرها اللهُ لهم لن تتغيَّر، وكذا موعدُ هذا العذاب أيضًا لن يتقدَّمَ أو يتأخَّر، وهكذا نجَّى اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ من أهلِ مكّةَ وجاء به إلى المدينة، بينَما قُتِل سادةُ مكّةَ في غزوةِ بَدْر، ومَن نَجا منهم تجرَّع مرارةَ الهزيمةِ يومَ فَتْح مكّة.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾

٤٧ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ بأنه لا بدَّ أنكم رأيتُم ـ خلالَ أسفارِكم التجاريّة ـ

---

(١) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني.

مساكنَ قوم عادٍ وثمودَ المدمَّرة، وقد كان هؤلاءِ أكثرَ منكم قوةً، ولو لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن طُغيانِكم، وحَكَم اللهُ تعالى أن يُصيبَكم بعذابٍ من عندِه، فلن تستطيعَ أيُّ قوةٍ في الأرضِ أو السماءِ أن تتحدَّى حُكمَ الله تعالى؛ لأنه هو القادرُ على كلِّ شيء.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾

٤٨ ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: «كلُّ ابن آدمَ خَطّاءٌ، وخيرُ الخطّائينَ التَّوّابون»[١]، ويُعلَمُ منه أنّ الخطأَ يمكنُ أن يقعَ من أيِّ إنسان، لو أنّ اللهَ تعالى آخَذَ الناسَ بأخطائهم فورًا وعاقَبَهم، لَانتهى وجودُ بني الإنسانِ في عدّةِ أيام، وعندَئذٍ لا تكونُ هناك حاجةٌ للحَيوانات؛ لأنّها خُلِقت من أَجْل فائدةِ الإنسان، كما لن تكونَ هناك ضرورةٌ للأنبياءِ، وبالتالي تَخْلو الأرضُ من الإنسانِ والحَيوان، ولكنّ اللهَ تعالى ـ لِحكمةٍ عندَه ومصلحةٍ ـ يُمهِلُ الناسَ إلى وقتٍ معيَّنٍ حتى يُصلحوا أنفُسَهم، وإن لم يُصلحوا أنفُسَهم فمن الممكنِ أن يولَدَ من أولادِهم عبادٌ شاكرونَ لله تعالى، ولكنْ إذا حان الوقتُ المحدَّدُ لأَخْذِ الظالمينَ فإنّ العبادَ جميعًا في نَظَرِ الله تعالى، وكلُّ واحدٍ سيُعاملُ طِبقًا لعَملِه، فيلقَى المحسِنونَ جزاءَ إحسانِهم، ويلقَى المسيئونَ جزاءَ إساءتِهم.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صَلاة العشاء من يوم الأربعاء ٦ يناير ٢٠١٠م
الموافق ٢٠ محرم ١٤٣١هـ.

---

(١) الترمذي، برقم ٢٤٩٩.

ـ تتساقطُ الثلوجُ ويتزايدُ البردُ بشدّةٍ في بريطانيا من الأسبوعَيْنِ السابقَيْن، وقد أحاطت الثلوجُ بجامعةِ الكرَم من كلِّ جانبٍ بسُمكِ قَدَم كامل، ولهذا كان من الصعبِ الخروجُ من المكان، وبهذا توقَّفتِ المشاغلُ الأخرى، ممّا أتاح لي وقتًا كافيًا لكتابةِ التفسير، وهكذا اكتَملَ تفسيرُ سورة «فاطر» في ستةِ أيام فقطْ، أي: من الأولِ من ينايرَ وحتى السادس من نفسِ الشهر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣٦) سورة يس

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «يٓس»، وهو الآيةُ الأُولى منها.

في هذه السُّورةَ مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ المكِّيَّةِ الأخرى جاء بيانٌ لعقائدَ ثلاثٍ أساسيّةٍ في الإسلام عدّةَ مراتٍ، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والآخِرة.

في الآيةِ رقم ٣٦ من السُّورة جاءتِ الإشارةُ إلى عمليّةِ التلقيح، بمعنى: أنّ وجودَ الأزواج من الذَّكرِ والأُنثى في الإنسانِ والحَيوان حقيقةٌ عامّةٌ يَعرِفُها كلُّ إنسانٍ من قديم الزَّمن، بينَما كان اكتشافُ الذَّكرِ والأُنثى في النباتاتِ في القرنِ التاسعَ عشَرَ الميلاديِّ، لكنّ القرآنَ الكريمَ أعلَن قبلَ ١٤٠٠ عام أنّ في النباتاتِ أيضًا ذَكَرًا وأُنثى، وأنّ الحبوبَ والثِّمارَ تنتُجُ عن عمليّةِ التلقيح بينَهما.

وفي الآيةِ رقم ٦٥ من السُّورةِ جاء بيانُ أنّ المشركينَ سيحاولونَ الكذبَ يومَ القيامة قائلينَ بأنّهم لم يكونوا مشركينَ في الدُّنيا، لكنّ الله تعالى يَختِمُ على أفواهِهم، وتشهَدُ أيديهم وأرجُلُهم على كلِّ أفعالِهم القبيحةِ التي كانوا يرتكبونَها.

كان كفّارُ مكّةَ يتّهمونَ النبيَّ ﷺ باتّهاماتٍ عديدةٍ كاذبةٍ بغَرَض إبعادِ الناس عنه، ومن بينِ هذه الاتِّهاماتِ الكاذبة: أنّ النبيَّ ﷺ شاعرٌ، وأنّ القرآنَ الكريمَ عبارةٌ عن مجموعةٍ من أفكارِه الشِّعريّة، وكان أهلُ الجزيرةِ العربيّة بصفةٍ عامّة يُطلقونَ لفظَ

«شاعرٍ» على مَن يقولُ كلامًا خياليًّا، ويُطلقونَ وصفَ «أجوَدِ الشِّعر» على أكذبِه[١].

وفي الآيةِ رقم ٦٩ جاء الردُّ على هذا الاعتراضِ من كفّارِ مكّةَ بأنّ اللهَ تعالى لم يُعلِّم النبيَّ الكريمَ ﷺ الشِّعرَ، بل ولا يليقُ قولُ الشِّعرِ بالنبيِّ ﷺ، وأنّ القرآنَ الكريمَ ليس مجموعةً من الأشعار، وإنّما هدايةٌ ونصيحةٌ من أوّلِه إلى آخِره.

بعض الأحاديث النبوية في فضائل سورة يٰس

١ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ لكلّ شيءٍ قلبًا، وقلبُ القرآنِ: يٰس»[٢].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا مَعقِلُ بن يَسَارٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اقرأوها عندَ موتاكم». يعني ﴿يسٓ﴾[٣].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من ميّتٍ يُقرَأُ عندَه ﴿يسٓ﴾ إلّا هَوَّن اللهُ عليه»[٤].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن زارَ قبرَ والدَيْهِ أو أحدِهما في كلِّ جمُعةٍ، فقَرأَ عندَهما ﴿يسٓ﴾ غَفَر اللهُ له بعدَدِ كلِّ حرفٍ منها»[٥].

---

(١) «لأن الشعر كلام مزخرف موزون، مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: أعذبه أكذبه». صفوة التفاسير، سورة يس (٣٦): الآية ٦٩.

(٢) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٧ برقم ٢٨٨٧.

(٣) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ٤ برقم ١٤٤٨.

(٤) الدر المنثور في التفسير المأثور، وتفسير القرطبي.

(٥) الدر المنثور في التفسير المأثور.

٥ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن دَخَل المقابرَ فقَرأَ سُورة ﴿يسٓ﴾ خفَّفَ اللهُ عنهم يومَئذٍ، وكان له بعدَدِ حروفِها حسَناتٌ (يعني ثلاثةَ آلافِ حسَنة)»[1].

ومن فضائلِ سُورة ﴿يسٓ﴾ أيضًا: أنّ عمَلَ تعويذةٍ من الآيتَيْنِ الأُولَيَيْنِ فيها، أو إذابتَهما في الماءِ وشُربَه أمرٌ مفيد، مثلَما رَوى الإمامُ الحاكمُ، عن أبي جعفرٍ محمدِ بن عليٍّ رضي اللهُ عنه، أنه قال: «مَن وَجَد في قلبِه قسوةً فلْيكتُبْ ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ في جام من زَعْفَرانٍ، ثم يَشرَبْه»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العصر من يوم السبت ٩ يناير ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ محرم ١٤٣١هـ.

* * *

(١) تفسير القرطبي.
(٢) الدر المنثور، وتفسير القرطبي.

سُورَةُ يسٓ (٣٦)،

مكية (٤١)، آياتها (٨٣)، ركوعاتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

﴿يسٓ﴾

١ ـ رَغْم أنّ يسٓ من الحروفِ المقطَّعاتِ[1] التي يَعلَمُ اللهُ تعالى ورسولُه الكريمُ ﷺ معناها تمامَ العلم، لكنّ بعضَ المفسِّرينَ ذَكَروا لها معانيَ متعدِّدةً في ضوءِ بعضِ الإشاراتِ الواردةِ في هذا الخصوص، على سَبيل المثال: يقولُ أبو بكرٍ الوَرّاقُ: «معناه: يا سيّدَ البشَر»[2]، ويقولُ سعيدُ بن جُبَيْر: «هو اسمٌ من أسماءِ

---

(١) «يسين: الحروف المقطعة في أوائل بعض السور الكريمة» صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

محمّدٍ ﷺ، ودليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[(١)]، أي: الآيةُ التي تَلَتْ ﴿يسٓ﴾.

لم يُقسِم اللهُ تعالى في كتابِه من أَجْل نُبوّةِ أيِّ نبيٍّ سوى النبيِّ ﷺ، وفيه تعظيمٌ وتكريمٌ للنبيِّ ﷺ كبيرٌ[(٢)]، وبنفسِ الطريقة يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ عن تفسير الآيةِ رقم ٧٢ من سُورة الحِجْر (١٥): إنّ المفسِّرينَ أجمَعوا على أنّ اللهَ تعالى قد أَقْسم في هذه الآيةِ المباركة بحياةِ النبيِّ ﷺ المباركةِ، وأنّ اللهَ تعالى لم يُقسِمْ بحياةِ نبيٍّ سوى النبيِّ ﷺ[(٣)].

﴿وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٢ ـ يقولُ القُشَيْريُّ: «قال ابنُ عبّاسٍ: قالت كُفّارُ قُريشٍ: لستَ مرسَلًا وما أرسَلَك اللهُ إلينا، فأَقْسم اللهُ بالقرآنِ المُحكَم أنّ محمّدًا من المرسَلينَ، على صراطٍ مستقيمٍ وهو الإسلامُ. وقال الزَّجّاجُ: على طريقِ الأنبياءِ الّذين تَقدَّموك»[(٤)].

لقد أَقْسم اللهُ تعالى بالأرضِ والسّماءِ على صِدقِ القرآنِ الكريم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣]، وفي هذه الآيةِ أَقْسم بالقرآنِ الكريم على صِدقِ النبيِّ ﷺ فقال: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾

٣ ـ أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ على النبيِّ الكريم ﷺ حتى يُنذِرَ أولئك

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «قال القاضي أبو بكر ابن العربيّ: قال المفسّرون بأجمعهم: أقسم الله تعالى ها هنا بحياة محمّدٍ ﷺ تشريفًا له، وهذا نهاية التّعظيم وغاية البرّ والتّشريف. قال أبو الجوزاء: ما أقسم الله بحياة أحدٍ غير محمّدٍ ﷺ، لأنّه أكرم البريّة عنده». القرطبي، سورة الحجر(١٥): الآية ٧٢.

(٤) تفسير القرطبي.

القوم الذين لم يأتِهم نذيرٌ منذُ فترةٍ طويلة، والمرادُ بالقوم هنا هم: أهلُ مكّةَ وأهلُ الجزيرةِ العربيّة؛ لأنّهم لم يأتِهم نبيٌّ بشكلٍ مباشِر لهم بعدَ سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، وإنْ ظَلَّ العلماءُ من الأديانِ السابقةِ على الإسلام يأتونَهم تأكيدًا، ولهذا كان هؤلاءِ قد نَسُوا تعاليمَ الأنبياءِ الكرام السابقينَ عليهمُ السَّلام، ورَغْمَ أنّ النبيَّ ﷺ أُرسِلَ إلى البشَرِ كافةً، ولكنْ لأنّ المخاطَبينَ الأُوَلَ له ﷺ كانوا أقرِباءه وأهلَ مكّةَ، لهذا قال اللهُ تعالى له أنِ ابدَأْ في الدَّعوةِ بقومِك.

﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

٤ ـ كان أهلُ مكّةَ قد تَمادَوْا إلى أقصى درجةٍ في تقليدِ آبائهم وأجدادِهم في شِركِهم، بحيثُ أنّ أكثَرهم لم يكونوا يؤمنونَ، وبسببِ إنكارِهم المتعمَّدِ وتعصُّبِهم هذا حَكَم اللهُ تعالى فيما يتَعلَّقُ بهم أنّهم لا يؤمنون.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾

٥ ـ مثلَما لا تنحني رأسُ الإنسانِ إلى أسفلَ إذا ما ضَغَط أحدٌ بيدَيْه على عُنقِه بقوةٍ لبعضِ الوقت، فإنّ أعناقَ أهلِ مكّةَ قد جَعَلَها الشِّركُ متصلِّبةً بحيث لم تعُدْ تنحني أمامَ الإسلام.

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

٦ ـ الحقيقةُ أنّ الشّيطانَ قد أحاطَ عقولَهم وضمائرَهم بعقَباتٍ من رَغْباتِهم النَّفْسيّةِ وشَهواتِهم بحيثُ لم يعودوا يرَوْنَ نُورَ الإسلام، وبالتالي فإنّ تحذيرَ أمثالِ هؤلاءِ أصحابِ العقولِ العمياءِ من عذابِ الله تعالى وعَدَمَ تحذيرِهم سواءٌ؛ لأنّهم لن يؤمنوا، ولمزيدٍ من التفصيل عن هذه الآياتِ الأربع (من ٧ إلى ١٠) راجع الحاشيةَ رقم ١٠ للآية رقم ٧ من سورة البقرة.

ويقولُ العلّامةُ نُورُ الدِّين الحَلَبيُّ الشافعيُّ فيما يتعلَّقُ بهذه الآية: «وعندَ خروجِه ﷺ جَعَل ينثُرُ التُّرابَ على رءوسِهم، فلم يبقَ رجلٌ إلّا وَضَع على رأسِه ترابًا ثم انصَرفَ إلى حيثُ أراد»[1].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

٧ ـ النبيُّ ﷺ يُنذِرُ الناسَ جميعًا بعذابِ الله تعالى، لكنّ الذي يستفيدُ من هذه النَّصيحة هو ذلك الشَّخصُ فقطِ الذي يخشَى اللهَ تعالى دونَ أن يراه، وإلّا فإنّ الكفّارَ جميعًا سيخشَوْنَ اللهَ تعالى يومَ القيامة، ولهذا أيُّها النبيُّ الحَبيب ﷺ، الشّخصُ الذي يخشاني دونَ أن يَراني، ويتوبُ توبةً صادقةً من قلبِه، بشِّرْه بأنّ اللهَ سيغفرُ ذنوبَه في هذه الدنيا، وسيُنعِمُ عليه في الآخِرة بالأَجْرِ العظيم.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

٨ ـ يعني: أنّنا سنُحيي الموتَى يومَ القيامةِ يقينًا، وسنُحاسِبُهم على حسَناتِهم وسيِّئاتِهم، ولهذا فإنّ ملائكتَنا تكتُبُ كلَّ أعمالِهم، الحسَنَ منها والسيِّئَ على السواء، وهي الأعمالُ التي يقومُ بها الناسُ في الدُّنيا من أَجْل الآخِرة، كما أنّهم يكتُبونَ أيضًا تلك الأعمالَ التي يقومُ بها الناسُ ويَخلُفونَها وراءهم في الدُّنيا، على سَبيل المثال: لو أنّ شخصًا تَرَك خلفَه مسجدًا بناهُ أو مستشفًى أو مدرسةً أو كتابًا أَلَّفه، أو أولادًا صالحينَ وغيرَ ذلك مما شابَهَه، فإنّ هذه الحسَناتِ كلَّها تظَلُّ تُكتَبُ في صحيفةِ أعمالِه حتى بعدَ موتِه، وكذلك إذا تَرَك أحدٌ وراءه في الدُّنيا بيتَ دعارةٍ بناه، أو حانةً أو صالةَ قمارٍ وغيرَها ممّا شابَهَها فإنّ كلَّ هذه السيِّئاتِ تظَلُّ تُكتَبُ في صحيفةِ أعمالِه حتى بعدَ موتِه، وباختصار: تُدرَجُ حسَناتُ كلِّ شخصٍ وسيّئاتُه

(١) السيرة الحلبية، ٢: ٣٧.

في كتابٍ واضح، يعني: في صحيفةِ أعمالِه[1].

يقولُ سيّدُنا جَريرُ بنُ عبدِ الله رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن سَنَّ في الإسلام سُنّةً حسَنةً، فعُمِلَ بها بعدَه، كُتِب له مِثلُ أجرِ مَن عَمِل بها، ولا ينقُصُ من أجورِهم شيءٌ (لأنه هو الذي وَضَع أساسَها)، ومَن سَنّ في الإسلام سُنّةً سيّئةً، فعُمِل بها بعدَه، كُتِب عليه مِثلُ وِزْرِ من عَمِل بها، ولا ينقُصُ من أوزارِهم شيءٌ (لأنه هو الذي وَضَع أساسَها)»[2].

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾

---

(١) «كل شيءٍ من الأشياء أو أمرٍ من الأمور جمعناه وضبطناه فى كتاب مسطور هو صحائف الأعمال» ـ صفوة التفاسير.

(٢) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٦٨٠٠.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾

٩ ـ أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمّدًا ﷺ أنْ يا رسولَ الله ﷺ، قُصَّ على أهلِ مكّةَ قصّةَ أصحابِ القريةِ الذين كذّبوا أنبياءهم، فدمَّرهم اللهُ تعالى وأهلَكَهم، وهكذا قَصَّ النبيُّ ﷺ على أهلِ مكّةَ قصّةَ أصحابِ القرية بأنّ اللهَ تعالى أرسَلَ إليهم رسولَيْنِ، وحين كذَّب أهلُ القرية الرسولَيْنِ أرسَلَ اللهُ تعالى إليهم رسولًا ثالثًا تصديقًا للرسولَيْنِ، وقال هؤلاءِ الرُّسلُ الثلاثةُ لأهلِ القرية: إنّنا لم نأتِ هكذا من أنفسِنا، وإنّما أوحَى اللهُ تعالى إلينا، وهو الذي أرسَلَنا إليكم.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

١٠ ـ قال أهلُ القرية: لا يمكنُ أن تكونوا رسُلًا؛ لأنّكم بشَرٌ مِثْلُنا، ولو أنّ اللهَ تعالى كان مرسِلًا بشَرًا على أيِّ حال، فلماذا لم يختَرْ واحدًا منّا نحن؟ ولهذا فإنّنا نعتقدُ أنّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ عليكُم شيئًا، وأنّكم تكذِبون، وتنسُبونَ إلى الله تعالى كلامًا من عندِ أنفسِكم.

﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

١١ ـ قال الرُّسُلُ: اللهُ تعالى هو الذي أرسَلَنا، وواجبُنا هو أن نُبلِّغَكم رسالةَ الله تعالى فقطْ، وقد أبلَغْناكم بها فعلًا، والآنَ سواءٌ آمنتُم بها أم لم تؤمنوا، فهذا ليس من مسئوليّتِنا، وحين تُرجَعونَ إلى الله تعالى فسوف يُحاسبُكم هو نفسُه.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

١٢ ـ قال أهلُ القرية: إنّ مجيئَكم إلينا كان نَحْسًا؛ لأنه معَ مجيئكم سادتِ الفُرقةُ وانتشَر القلقُ بينَنا، هذا من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ حَلَّ بنا القحطُ وأصبحنا

في ضِيقٍ من ذاتِ يدِنا، ولهذا فإنّنا نحذِّرُكم بأنْ ترجعوا عن دعوتِكم، وإلّا سنأخذُكم ونُذيقُكم عذابًا أليمًا، ثم نرجُمُكم ونقضي عليكم قضاءً مُبرَمًا.

﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾

١٣ ـ قال الرُّسُل: النَّحسُ الذي حَلَّ بكم إنّما هو وَبالُ أفعالِكم القبيحة، ونحن ننصَحُكم بالعمَل الصالح، ولكنّكم تعتَبِرون ذلك شُؤمًا عليكم، وتهدِّدونَنا بالرَّجم، وهذا ظلمٌ عظيمٌ منكم وتجاوُزٌ لكلِّ الحدود.

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

١٤ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهُما: «إنّ أهلَ القرية هَمُّوا بقتلِ رُسُلِهم، فجاءهم رجلٌ من أقصى المدينة يسعَى، أي: لينصُرَهم من قومِه»(١)، ويقالُ: إنّ اسمَ هذا الرجُل كان «حَبيبًا»، وقد قال هذا الرجلُ لقومِه: هؤلاءِ الرُّسُلُ على هُدًى، ولا يطالبونَكم بأجرٍ على دعوتِهم لكم، ولهذا لا تقتُلوهم، وإنّما عليكم أن تتَّبِعوهم.

﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

١٥ ـ يقولُ سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه: إنّ أهلَ القرية سَألوا حبيبًا النَّجّارَ هذا: هل أنتَ أيضًا على دينِ هؤلاءِ الرُّسُل؟ فأجابَهم: ما الذي دَهاني حتى لا أعبُدَ الذي خَلَقَني، بل إنّني أنصَحُكم أن تعبُدوه أنتم أيضًا؛ لأنّكم جميعًا ستَمثُلونَ يومًا من الأيام في حضرتِه.

﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

١٦ ـ وأضاف حبيبُ النجّارُ قائلًا: كيف يمكنُ أن أترُكَ اللهَ تعالى وأعبُدَ أولئك

(١) تفسير ابن كثير.

الذين إنِ ابتَلاني اللهُ تعالى بمصيبةٍ لم يستطيعوا أن يُفلِتوني من قَبْضتِها، ولا طاقةَ لهم على ذلك، فإذا لم أومنْ بالله تعالى رَغْمَ عِلمي بهذا كلِّه فإنّني يقينًا على ضلالٍ مبين، ولهذا اسمَعوا جيِّدًا ما أقولُ، لقد آمنتُ بذلك الربِّ الذي هو ربُّكم جميعًا وليس ربِّي وربَّ الرّسُلِ فقط.

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾

١٧ ـ حين أعلَن حبيبُ النَّجّارُ إيمانَه انهالَ عليه قومُه جميعًا رميًا بالحجارةِ حتى استُشهِد، ولأرواح الشُّهداءِ شرفُ أنها تدخُل الجنّةَ قبلَ يوم الحَشْر، وهكذا لمّا وَصَلت روحُ حبيبِ النجّارِ إلى الجنّةِ هَبَّت ـ بدافع حبِّها لخيرِ قومِها ـ قائلةً: ليتَ قومي يعلَمونَ أنّ اللهَ تعالى قد غَفَر لي كلَّ ما ارتكبتُ من أخطاءٍ في زمنِ كُفري، وأدخَلَني الجنةَ معَ الأبرار، حتى يؤمنوا بالله تعالى، فيفوزوا بنِعَم الجنّة، وما أحسَنَ ما قال العلّامةُ إقبال:

ـ الحياةُ أرفَعُ من أن تُحسَبَ بالرِّبح والخسارة، فهِي أحيانًا حِفاظٌ على الرُّوح، وأحيانًا التَّضحيةُ بها.

ويقولُ الإمامُ القُشَيريُّ: إنّ النبيَّ ﷺ قال في تفسيرِ هذه الآية: «إنّه نَصَح لهم فى حياتِه وبعدَ موتِه»[1].

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾

١٨ ـ بعدَ استشهادِ حبيبِ النَّجارِ لم يُرسلِ اللهُ تعالى جيشًا من الملائكةِ لكي يُهلِكوا هولاءِ القومَ الطاغينَ العاصِين، واللهُ ليس في حاجةٍ إلى هذا أصلًا، وإنّما صاح أحدُ الملائكةِ صَيْحةً واحدةً شديدةً فجَعَلهم خامدينَ مثلَ النارِ الخامدة.

---

(١) تفسير القرطبي.

أهلَكَ اللهُ تعالى الأُممَ السابقةَ عن طريقِ مَلَكٍ واحدٍ بشكل عامّ، وسوف تكونُ نفخةٌ واحدةٌ في الصُّور من مَلَكٍ واحدٍ، يعني: سيّدَنا إسرافيلَ عليه السَّلامُ، كافيةً لإفناءِ الكائناتِ كلِّها قُربَ يوم القيامة، لكنّ اللهَ تعالى أنزَلَ آلافًا من الملائكةِ من السماءِ في غزوةِ بدرٍ وغزوةِ الخَنْدق، وهذا شرفٌ وتكريمٌ خاصٌّ للنبيِّ الكريم ﷺ بأنّنا قد أَنْزلنا الملائكةَ من السّماءِ لطَمْأنةِ أُمّتِك.

﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

١٩ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى في كلِّ قوم أنبياءَ كرامًا عليهمُ السَّلام، يُنذِرونَ الناسَ ويحذِّرونَهم من عذابِ الله تعالى، ويَهدُونَهم إلى طريقِ الجنّة، ولكنْ واأسفاهُ على أولئك الناسِ الذين لم يُقدِّروا أولئك الرسُلَ المحبِّينَ لهم حقَّ قدرِهم وسَخِروا منهم، ألم يكنْ أهلُ مكّةَ يعلَمونَ أنّ الأُممَ التي كذَّبت أنبياءهم عليهمُ السَّلامُ من قبلِهم أهلَكَهم اللهُ تعالى، ثم لم يعودوا إلى هذه الدُّنيا بعدَها أبدًا؟ لكنِ الناسُ جميعًا ممّن جاءوا من قبلُ أو ممّن سيأتُونَ من بعدُ، سوف يَمثُلونَ أمامَ الله تعالى، وسوف يُسألُ هؤلاءِ جميعًا عن أعمالِهم ويحاسَبونَ عليها، ولهذا ينبغي لأهلِ مكّةَ أخْذُ العبرةِ من المصيرِ الذي آلَ إليه أهلُ القرية، وأن يتخلَّوْا عن معاداةِ النبيِّ الكريم ﷺ ويختاروا طريقَ طاعتِه.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ

عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ﴾

٢٠ ـ هذا المثالُ ضُرِب مرّاتٍ عديدةً لمُنكِري القيامة؛ لأنه مثالٌ يشاهَدُ بشكلٍ عام في الواقع، يعني: مثلَما يَخلُقُ اللهُ تعالى في الأرض نوعًا ما من الحياة بإنزالِ المطرِ عليها، فتَنبُتُ فيها بعدَ المطرِ الزُّروعُ التي تأكلونَ ثمارَها، بعدَ أنْ لم يكنْ فيها أثرٌ لخُضرةٍ أو يُنوعة، ولم يكنْ سوى الغبارِ يتطايَرُ في كلِّ مكان، فإنّ اللهَ تعالى ـ بنفسِ الطريقة ـ يأمُرُ الموتَى فيَهُبُّونَ أحياءً بإذنِه يومَ القيامة.

تعظيم الخبز

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سُكَيْنَةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أكرِموا الخُبزَ؛ فإنّ اللهَ أكرَمَه، فمَن أكرمَ الخُبزَ أكرَمَه الله»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ أُمِّ حَرَام رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أكرِموا

(١) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، ٨٨ برقم ١٤٢٤.

الخُبزَ؛ فانّه من برَكاتِ السّماءِ والأرض، مَن أكلَ ما سَقَط من السُّفرة غُفِر له»[١].

﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۚ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

٢١ ـ علاوةً على الغِلالِ فإنّ اللهَ تعالى قد جَعَل في الأرضِ حدائقَ وبساتينَ تأكلونَ من ثمارِها المتنوِّعة، كما أنه أجرَى في بعضِ الأماكن عُيونًا من الماءِ جنبًا إلى جنبٍ ماءِ المطر، وهذه الأرضُ والمطرُ وعيونُ الماءِ والتي تعتمِدُ الحياةُ عليها، ليس من بينِها شيءٌ عَمِلتْه أيدي الإنسان، فهي كلُّها من فَضْل الله وإحسانِه، ومعَ ذلك فإنّ الناسَ لا يؤدُّونَ شُكرَها، كم هم جاحدونَ ناكرو الجميل.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٢٢ ـ وجودُ الأزواج من الذَّكرِ والأُنثى في الإنسانِ والحَيوانِ حقيقةٌ عامّةٌ يعرِفُها كلُّ إنسانٍ من قديم الزّمن، بينَما كان اكتشافُ الذَّكَرِ والأنثى في النباتاتِ في القرنِ التاسعَ عشَرَ الميلاديِّ، لكنّ القرآنَ الكريمَ أعلَن قبلَ ١٤٠٠ عام أنّ في النباتاتِ أيضًا ذَكَرًا وأُنثى، وأنّ الحبوبَ والثمارَ تَنتُجُ عن عمليّةِ التلقيح بينَهما، وهو دليلٌ قاطعٌ على أنّ القرآنَ الكريمَ ليس من كلام البشَر، وإنّما كلامُ الله تعالى؛ لأنّ أحدًا لم يكنْ يعلَمُ عندَ نزولِ القرآنِ أنّ في النباتاتِ أيضًا ذَكَرًا وأُنثى، بل إنّ القرآنَ الكريمَ ذَكَر أيضًا أزواجًا لا يَعلَمُ الناسُ عنها شيئًا حتى الآنَ. ولمزيدٍ من التفصيل عن عمليّةِ التلقيح راجعِ الحاشيةَ رقم ٥ للآية رقم ٣ من سُورة الرَّعد (١٣).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾

٢٣ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ الفضاءَ المحيطَ بنا هو ـ في الأصل ـ ظلامٌ، وحينَ

(١) الجامع الصغير، الإمام جلال الدين السيوطي، ٨٨ برقم ١٤٢٦.

تُشرقُ الشمسُ يضيءُ هذا الفضاء، وما أن تَغرُبَ الشمسُ حتى يعودَ الفضاءُ إلى حالتِه الأَصْليّة، أي: يعودُ إلى الظلام ثانيةً.

وفي هذا دليلٌ لمُنكِري القيامة بأنّ الإنسانَ حين ينامُ باللّيل يكونُ كمَن مات، لا يدري عمّا حولَه شيئًا، كأنّ الليلَ قد غَشَّاه بالموت، وما أن يَطلُعَ النهارُ حتى ينهَضَ، ويُدرِكَ ما حولَه كالأحياءِ، وكأنّ النهارَ قد أعاد إليه الحياةَ، كما أنّ اللهَ تعالى يَجعَلُ الإنسانَ يمُرُّ بكيفيّةٍ مؤقَّتةٍ مشابهةٍ للحياة والموتِ من خلالِ اللّيل والنّهار، فهو أيضًا قادرٌ على أن يُميتَ الإنسانَ ذاتَ مرةٍ موتًا كاملًا، ثم يُحيِيَه ثانيةً للأبد.

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾

٢٤ ـ الحدودُ والأوقاتُ التي حدَّدها اللهُ تعالى للشمسِ لا ينقُصُ فيها ولا يزيد، معَ أنه لو أنّ الشمسَ خَرَجت من مدارِها في وقتٍ من الأوقات، واصْطَدمت بالقمرِ لَدمَّرتِ الكائناتِ كلَّها، لكنّ اللهَ تعالى جَعَل الشمسَ مقيَّدةً داخلَ مدارِها المحدَّد لها، حتى لا يحدُثَ أيُّ خَللٍ في نظام الكائنات، وهكذا فإنّ الشمسَ تابعةٌ لهذا النظام والضَّبطِ من آلافِ السِّنين، وستبقَى هكذا حتى يوم القيامة، وهذا دليلٌ عظيمٌ على قُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه.

ومفهومُ هذه الآيةِ واضحٌ تمامًا، ولا شُبهةَ فيها أو إبهام، لكنّ الحديثَ الذي وَرَد في «البخاريِّ» بشأنِ هذه الآية به بعضُ الإشكالات، ولهذا تأمَّلْ هذا الحديثَ أولًا، ثم سأحاولُ بعدَها إزالةَ ما فيه من إشكال:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال يومًا: «أتَدرُونَ أين تذهَبُ هذه الشّمسُ (أي: بعدَ غروبِها)؟». قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «إنّ هذه تجري

حتّى تنتهيَ إلى مُستقَرِّها تحتَ العرشِ فتَخِرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلك حتّى يقالَ لها: ارتفعي، ارجِعي من حيثُ جِئتِ، فترجِعُ فتُصبحُ طالعةً من مَطلَعِها، ثمّ تجري (حَسَب السابق) حتّى تنتهيَ إلى مستقَرِّها تحتَ العرشِ فتَخِرُّ ساجدةً، ولا تزالُ كذلك حتّى يقالَ لها: ارتفعي، ارجِعي من حيث جئتِ، فترجِعُ فتُصبحُ طالعةً من مطلَعِها، ثمّ تجري لا يَستنكرُ النّاسُ منها شيئًا، حتّى تنتهيَ إلى مستقَرِّها ذاك تحتَ العرش، فيقالُ لها: ارتفعي، أصبِحي طالعةً من مغرِبِك، فتُصبحُ طالعةً من مغربِها». فقال رسولُ الله ﷺ: «أتدرونَ متى ذاكم؟ ذاك حينَ لا ينفَعُ نفسًا إيمانُها لم تكنْ آمنَتْ من قبلُ أو كسَبَتْ في إيمانِها خيرًا»[(١)].

والمفهومُ الظّاهرُ الذي يمكنُ أن يَتبادَرَ إلى الذِّهن من هذا الحديثِ الشّريف هو أنّ الشمسَ تذهبُ بعدَ غروبِها تحتَ العرش، حيث تَسجُدُ هناك (وتقضي الليلَ هناك)، ثم تعودُ بأمرِ الله تعالى لتطلُعَ من مطلَعِها ثانيةً.

الإشكال الأول

الإشكالُ الأوّلُ في هذا الحديثِ هو: أنّ العرشَ فوقَ السماوات، بينَما الشمسُ تكونُ في الفَلَكِ تحتَ السماوات، فلو صَعِدت الشمسُ فوقَ السماوات، سوف تغيبُ عن هذه الدُّنيا بطبيعةِ الحال، وبالتالي يسوَدُّ اللّيلُ في دنيانا هذه، معَ أنّ هذا لم يحدُثْ أبدًا، فالشمسُ موجودةٌ في الدُّنيا دائمًا في مكانٍ أو آخر.

ومن الممكنِ أن يكونَ توجيهُ هذا الإشكال بأنّ عرشَ الله تعالى فوقَ السماواتِ، وهو كبيرٌ إلى درجةِ أنه يُحيطُ بالسّماواتِ والأرض: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٧٢ برقم ٣٩٩، والبخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٤ برقم ٣١٩٩.

وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولهذا فإنه مثلَما أنّ الأرضَ والسّماءَ تحتَ العرشِ، فإنّ الشمسَ أيضًا في أيِّ مكانٍ كانت تكونُ تحتَ العرشِ يقينًا، ولا تحتاجُ إلى أن تتخَلّى عن مدارِها لتصعَدَ فوقَ السماواتِ، وإنّما حيثما تسجُدْ يكنْ ذلك تحتَ العرشِ قطعًا.

الإشكال الثاني

لو أنّ الشمسَ تسجُدُ تحتَ العرشِ لَتوقَّفَ دوَرانُها، في حينَ أنّ مشاهداتِنا تقول: إنّ الشمسَ حين تَغرُبُ عن بلدٍ من البلاد تَطلُعُ في نفسِ الوقتِ على بلدٍ آخَر، ولهذا فإنّ معنى الغروبِ هو: أنّ الشمسَ تغرُبُ عن أعيُنِنا، لكنّ دوَرانَها مستمرٌّ، مثلَما قال العلّامةُ الصابونيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «إنّ المرادَ بمستقَرِّها هو منتَهى سَيْرِها، وهو يومُ القيامة، حيث يَبطُلُ سيرُها، وتَسكُنُ حركتُها، وتُكوَّرُ وينتهي هذا العالَمُ إلى غايتِه»[١]، والبحثُ العلميُّ الحديثُ أيضًا يقولُ: إنّ الشمسَ تتحرَّكُ في مدارِها بسرعةِ مائةٍ وأربعينَ ميلًا في الثانية[٢].

ويمكنُ أن يكونَ توجيهُ هذا الإشكالِ بأنّ سجودَ الشمسِ لا يكونُ مثلَما نترُكُ نحن كلَّ أعمالِنا ونذهبُ إلى المسجدِ لنسجُد، وإنّما يكونُ سجودُها طِبقًا لحالِها، ولا حاجةَ لها إلى أن تترُكَ مدارَها، تمامًا مثلَما تسجُدُ الجبالُ والأشجار، لكنّنا لم نَرَها أبدًا تترُكُ أماكنَها لتذهبَ إلى مكانٍ آخَر، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۥ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) (The sun, which is located relatively far from the nucleus, moves at an estimated speed of about **225** kilometers per second (**140** miles per second) in a nearly circular orbit). (Encyclopedia Britannica: Edition **15**: Volume **8**: Page **131**: Milky Way Galaxy).

وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ [الحج: ١٨]، ويُعلَمُ منه أنّ كلَّ هذه الأشياءَ تسجُدُ لله تعالى بطريقتِها الخاصّة، بمعنى: أنّ الأشياءَ التي تكونُ في حالةِ ثَباتٍ دائمًا تسجُدُ في حالِ ثباتِها أيضًا، والأشياءُ المتحرِّكة دائمًا تسجُدُ حالَ حركتِها.

الإشكال الثالث

الإشكالُ الثالثُ هو: ما معنى وصولِ الشمسِ إلى منزلِها، وسجودِها هناك، ثم عودتِها ثانيةً وطلوعِها من مطلَعِها؟

ويمكنُ أن يكونَ توجيهُه بأنّ الشمسَ في كلِّ ثانيةٍ تصلُ إلى منزلٍ جديدٍ يَبعُدُ عن المنزلِ الأول ١٤٠ ميلًا؛ لأنّ الشمسَ تَطْوي في سَفَرِها ١٤٠ ميلًا في الثانية، وهكذا تسجدُ الشمسُ في كلِّ منزلٍ جديدٍ بطريقتِها الخاصّةِ شكرًا لله على أنّها أكمَلَت سَفَرًا لمنزلٍ من منازلِها بأمرِ اللهِ تعالى، وعليه يأمُرُها اللهُ تعالى أن تنهضَ من سَجْدتِها، وتعودَ للدَّوَرانِ في مدارِها المقرَّرِ لها، وأن تَطلُعَ في المنزلِ التالي، وليس معنى هذا أنّ الشمسَ تخَلَّت عن حركتِها وترَكَت منزلَها وذهَبَت لتسجُدَ في مكانٍ ما بعيدًا، ثم أتاها الأمرُ بأن تعودَ من هناك لتَطلُعَ من جديدٍ، وإنّما معناهُ: أنّ الشمسَ تسجدُ أثناءَ دَورانِها في كلِّ لمحة، وتَطلُبُ الإذْنَ هل تستمرُّ في دوَرانِها أم أنّ وقتَ القيامة قد حان فتترُكَ الدَّوَرانَ ولا تعودَ لتَطلُعَ من جديد؟ وعليه، يأمُرُها اللهُ تعالى بأنِ استمرِّي في دوَرانِك كما هو المعتاد؛ لأنّ وقتَ القيامةِ لم يحِنْ بعدُ، وهكذا تُواصلُ الشمسُ دوَرانَها إلى أن يأتيَ يومٌ تنقطعُ فيه حركتُها وتتوقَّف، وتَطلُعُ من جهةِ المغرب، وهذا هو يومُ القيامة.

- وباختصار: فإنّ مفهومَ هذا الحديثِ هو: أنّ الشمسَ في دوَرانٍ مستمرٍّ، وهي في كلِّ لمحةٍ تسجُدُ لله تعالى بطريقتِها الخاصّة، وتطلُبُ الإذْنَ من اللهِ تعالى

لتُواصلَ سفرَها في كلِّ لمحةٍ تالية، إلى أن تقومَ السّاعةُ، وعندَئذٍ يتوقَّفُ دوَرانُها، وتَطلُع بأمرِ الله تعالى من جهةِ الغرب.

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴾

٢٥ ـ للقمرِ ثمانيةٌ وعشرونَ منزلًا، وهو يَطوي مسافةَ منزلٍ واحدٍ كلَّ يوم، ويبدو في المنازلِ الأُولى صغيرًا دقيقًا، ثم يَكبَرُ تدريجيًّا حتى يبدوَ مكتمِلًا في ليلةِ الرابعَ عشَرَ من الشهر، ثم يبدَأُ في التناقُصِ بعدَ ذلك، ويعودُ في المنزلِ الأخيرِ إلى شكلِه الأوّل، فيبدو صغيرًا دقيقًا كغُصْنِ نخلٍ قديم جَفَّ واعوَجَّ، وبعدَ المنزلِ الأخيرِ لا يظهَرُ القمرُ ليومٍ أو يومَيْنِ، ثم يَطلُعُ بعدَ ذلك هلالًا. وفائدةُ منازلِ القمر هذه أنَّ الناسَ يحسُبونَ أيامَهم وشهورَهم وسنواتِهم طِبقًا لذلك، كما يحدِّدونَ عباداتِهم الخاصّةَ مثلَ: صيام رمضانَ والحجِّ أيضًا من خلالِها.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

٢٦ ـ الشمسُ والقمرُ والنُّجومُ كلُّها منهمِكةٌ في دوَرانِها في الأفلاك، ولا يتجاوَزُ أحدُها مدارَه ولا السُّرعةَ المحدَّدةَ له، ولهذا لا طاقةَ لليلِ على أن يحُلَّ وقتَ النهار، ولا تستطيعُ الشمسُ أن تترُكَ مدارَها وتصطدمَ بالقمر، ولكنّ يومًا سيأتي حتمًا تجتمعُ فيه الشمسُ والقمر، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]، وعندَئذٍ «يختَلُّ نظامُ الكونِ، وتقومُ الساعة، وتنتهي حياةُ البشَريّة عن سطح هذا الكوكبِ الأرضيِّ»[١].

---

(١) صفوة التفاسير.

ما الفلك؟

عندَ أكثرِ المفسِّرينَ: الفَلَكُ والسماءُ شيئانِ مختلفان، فالسَّماءُ في الأعلى، والفَلَكُ في الأسفل، مثلَما قال العلّامةُ الآلوسيُّ: أنّ الفَلَكَ «هو: موجٌ مكفوفٌ تحتَ السّماءِ يجري فيه الشمسُ والقمر... وقال الضحّاك: هو ليس بجسم، وإنّما هو مدارُ هذه النجوم»(١).

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

٢٧ ـ المرادُ بالفُلكِ في هذه الآية هو: سفينةُ سيّدِنا نوحٍ عليه السّلام، التي كانت ممتلئةً بالمتاع والبشَر، وكلُّ الأجيالِ التي تأتي بعدَهم حتى يوم القيامةِ من نَسْل هؤلاء الذين رَكِبوا السَّفينةَ فقط؛ لأنّ باقيَ الناسِ جميعًا قد غَرقوا في الطُّوفان، وهذه السَّفينةُ آيةٌ على الرحمةِ الإلهيَّة على النَّسل الإنسانيِّ، ولو لم يُنقذِ اللهُ تعالى رُكّابَ السَّفينة في ذلك اليوم لَما بقيَ في الدُّنيا إنسانٌ.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ اللهَ تعالى عَلَّم فَنّ بناءِ السُّفنِ بدايةً لسيّدِنا نوحٍ عليه السلام، ثم تَطوَّر النَّسلُ الإنسانيُّ في هذا المجالِ كثيرًا، فصَنَع في البدايةِ سُفنًا شراعيّةً، ثم دُخَانيّةً بخاريّةً، ثم صَنَع بعدَ ذلك سُفُنًا ضخمةً يركَبُها الإنسانُ ويحملُ عليها بضائعَه التجاريّةَ من مكانٍ إلى آخَر.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾

٢٨ ـ لو أراد اللهُ تعالى إغراقَ كلِّ المراكبِ والسفُنِ البحريّةِ لن يستطيعَ أحدٌ إنقاذَ مَن فيها من البشَر، ولكنْ من رحمةِ الله تعالى وفَضْلِه أنه لا يُغرِقُ الناسَ، وإنّما يرحَمُهم، حتى يستمتعوا بحياتِهم إلى الوقتِ المحدَّد.

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٣٣.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

٢٩ ـ إذا قيل للكفّار: اتَّقوا العذابَ الذي يمكنُ أن يأتيَكم حتّى في هذه الدنيا، مثلَما نَزَل على الأُمم السابقةِ من قبلِكم، واتّقوا أيضًا ذلك العذابَ الذي سيأتيكم في الآخِرة بعدَ موتِكم، حتى يرحمَكم اللهُ تعالى.

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

٣٠ ـ كان كفّارُ مكّةَ متعصِّبينَ ومعانِدينَ إلى درجةِ أنه كلّما جاءَهم أمرٌ من اللهِ تعالى، وأراهم نبيُّه الحَبيبُ ﷺ معجزةً، كانوا يُعرِضونَ منذُ البداية، بدلًا من أن يتدبَّروا فيها أولًا، ويُكوِّنوا رأيًا عنها.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

٣١ ـ إذا قيلَ لكفّارِ مكّةَ: ساعِدوا الفقراءَ من المالِ والثّروةِ التي أَنْعم اللهُ تعالى بها عليكم، كانوا يقولونَ بتكبُّرٍ وغرورٍ: لماذا نُطعمُ أولئك الفقراءَ الذين لا يُطعِمُهمُ اللهُ تعالى، ولو أنّ لديهمُ الأَهْليّةَ فعلًا فلماذا جَعَلَهم اللهُ فقراءَ؟ ولهذا فإنّنا نحن أيضًا سنعاملُهم مثلَما عامَلَهم اللهُ تعالى. والحقيقةُ أنّ هؤلاءِ الناسَ في ضلالٍ مُبين؛ لأنّ اللهَ تعالى خَلَق هذه الحياةَ الدُّنيا للابتلاء، وجَعَل فيها الأغنياءَ والفقراءَ حتى يُنفِقَ الأغنياءُ من نِعَم الله تعالى عليهم ويشكروهُ عليها، ويصبرَ الفقراءُ على ما هم فيه من فقرٍ وعَوَز.

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾

٣٢ ـ كان الكفّارُ يقولونَ: متى ستقومُ الساعةُ التي تُخوِّفُنا من عذابِها؟ وفي

هذه الآية جاء الجوابُ: بأنّكم أيُّها الناسُ ستَظلُّونَ منهمِكينَ في أعمالِكم ومناقشاتِكم وجِدالِكم، إلى أنْ يَنفُخَ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ فجأةً في الصُّورِ للمرّةِ الأُولى، وعندَئذٍ لن تُعطَوْا فرصةً حتى لِأن يوصيَ أحدُكم وصيّتَه، أو أنْ تعودوا إلى بيوتِكم من حيث أنتم، وإنّما سيفنى الناسُ جميعًا حيث يكونونَ.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ولَتَقُومَنَّ السّاعةُ وقد نَشَر الرّجُلانِ ثوبَهما بينَهما فلا يتبايعانِه ولا يَطوِيانِه، ولَتَقُومَنَّ السّاعةُ وقدِ انصَرفَ الرّجلُ بلبنِ لِقْحتِه فلا يَطعَمُه، ولَتَقُومَنَّ السّاعةُ وهو يُليطُ حوضَه فلا يَسقي فيه، ولَتَقُومَنَّ السّاعةُ وقد رَفَع أكلتَه إلى فيهِ فلا يَطعَمُها»[1].

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَـٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤٠ برقم ٦٥٠٦، ومسلم برقم ٢٩٥٤.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾

٣٣ ـ حينَ ينفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ لأولِ مرةٍ تقومُ السّاعةُ عندَها، وسيفنَى الناسُ جميعًا إذْ ذاك، ولكنْ سيبقَى جزءٌ في حجم الخَرْدلةِ من العمودِ الفَقَريِّ للإنسان، وهو الذي سيُعادُ منه الإنسانُ إلى الحياةِ ثانيةً يومَ القيامة[١].

ثم بعدَ أربعينَ سنةً حين يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّورِ للمرةِ الثانية سينهَضُ كلٌّ من قبرِه الذي دُفِن فيه، ومعَ أنّ الأجسادَ تكونُ قد فَنِيت، لكنّ الله تعالى سيُعيدُ الناسَ أحياءً من الجزءِ الباقي (عَظْمةِ الذَّنَب) من العمودِ الفَقَريِّ للإنسان. وحينَ ينهَضُ الناسُ من قبورِهم، وينظُرونَ حولَهم في حَيْرةٍ ودهشة، تأخُذُهم الملائكةُ مُسرعينَ للمثولِ في عدالةِ الله تعالى، ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ «بينَ النَّفختَيْنِ أربعونَ سنةً»[٢].

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾

٣٤ ـ حين ينهَضُ الكفّارُ من قبورِهم، ويرَوْنَ أهوالَ ميدانِ الحشرِ، سيقولون: ما أسوَأَ طالعَنا! منِ الذي أنهَضَنا من مخادعِنا؟ ويبدو ـ في الظاهر ـ أنّ هذه الآيةَ تنفي عذابَ القبر، وكأنّهم كانوا ينامونَ في قبورِهم لا يَلْوُونَ على شيءٍ، لكنّ الحقيقةَ ليست كذلك، مثلَما يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «إنّ الكفّارَ إذا عاينوا جهنَّمَ وما فيها من أنواع العذابِ صار ما عُذِّبوا به في قبورِهم إلى جنبِ عذابِها كالنَّوم»[٣].

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «... ليس من الإنسان شيءٌ إلاّ يبلى، إلّا عظمًا واحدًا وهو عجب الذّنب، ومنه يركّب الخلق يوم القيامة». البخاري ومسلم، وراجع الحاشية رقم ٨ للآية رقم ٩ من سورة فاطر (٣٥).

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) المرجع السابق.

ويقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما في تفسيرِ هذه الآية: «إنّما يقولونَ هذا لأنّ اللهَ تعالى يَرفَعُ عنهم العذابَ بينَ النَّفختَيْنِ (يعني: أربعينَ عامًا) فيَرقُدونَ، فإذا بُعِثوا بعدَ الثانية وعايَنوا أهوالَ القيامةِ دَعَوْا بالوَيْل. وقيل: إذا عايَنَ الكفّارُ جهنَّمَ وأنواعَ عذابِها صار عذابُ القبرِ في جَنْبِها كالنّوم، فقالوا: يا وَيْلَنا! مَن بَعَثَنا من مَرْقدِنا»[١].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

٣٥ ـ يقولُ الفَرّاء: «قيل: قالت لهم الملائكةُ ذلك، وقيل: يقولُ الكفّار: مَن بَعَثَنا من مَرقَدِنا؟ فيقول المؤمنونَ: هذا ما وَعَد الرَّحمنُ وصَدَق المُرسَلون»[٢].

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾

٣٦ ـ يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: إنّ المرادَ منها النَّفخةُ الثانيةُ التي وَرَد ذِكرُها في الآية رقم ٥١[٣]، يعني: حين يَنفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلام في الصُّورِ للمرةِ الثانية فإنّ الناسَ جميعًا سيَحيَوْنَ ويَمثُلونَ في عدالةِ الله تعالى، ولن يستطيعَ أحدٌ الفِرارَ من هناك.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

٣٧ ـ ستتحقَّقُ كلُّ مقتَضَياتِ العدلِ والإنصافِ يومَ القيامة، ولن يُظلَمَ أحدٌ، سواءٌ كان مسلمًا أم كافرًا.

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) المرجع السابق.

(٣) «أي: ما كانت النفخة إلا صيحة واحدة، يدل على النفخة قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾» التفسير الكبير.

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾

٣٨ ـ يقولُ أبو حَيّان: «والظاهرُ أنّ الشُّغلَ هو النَّعيمَ الذي قد شَغَلَهم عن كلِّ ما يَخطُرُ بالبال»[١].

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾

٣٩ ـ أهلُ الجنّةِ وأزواجُهم سيتَّكئونَ على أرائكَ وسُرُرٍ زُيِّنت بأقمشةٍ وستائرَ، وستكونُ تلك الأرائكُ في ظلالٍ لا تصلُ إليها حرارةُ الشمس، ولا تطالُها البرودةُ الشَّديدة، وإنّما سيكونُ الطّقسُ لطيفًا، والبيئةُ المحيطةُ جميلةً.

﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾

٤٠ ـ يستمتعُ أهلُ الجنّةِ من الرِّجال والنِّساءِ بربيع الجنّةِ وما فيها من ثمارٍ وفواكهَ ونِعَمٍ متنوِّعةٍ حسَبَ رغبةِ كلٍّ منهم، ثم حين يأتيهم فجأةً صوتُ سَلام الربِّ الرَّحيم سبحانَه وتعالى الذي يُسعِدُ القلوبَ، عندَئذٍ يلتفتُ الجميعُ تُجاهَ الله تعالى، ولمزيدٍ من التفصيل إليك هذا الحديثَ الشّريفَ:

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «بَيْنا أهلُ الجنّةِ في نعيمِهم، إذْ سَطَع لهم نورٌ، فرَفَعوا رءوسَهم، فإذا الرَّبُّ قد أشرَفَ عليهم من فوقِهم، فقال: السّلامُ عليكم يا أهلَ الجنّة. قال: وذلك قولُ الله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] قال: فينظُرُ إليهم وينظُرونَ إليه، فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ من النّعيم ما داموا ينظُرونَ إليه حتّى يحتجبَ عنهم ويبقَى نورُه وبرَكتُه عليهم في ديارِهم»[٢].

---

(١) تفسير البحر المحيط.

(٢) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ١٣ برقم ١٨٤.

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

٤١ ـ بعدَ الحسابِ يومَ القيامة سيُفصَلُ بينَ أهل الإيمانِ والكفّار، ثم لن يجتمعوا بعدَ ذلك أبدًا، يعني: أنّ أهلَ الإيمانِ سيَسعَدونَ في الجنةِ إلى الأبد، بينَما سيُعذَّبُ الكفّارُ في جهنَّمَ إلى الأبد.

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

٤٢ ـ سيقولُ اللهُ تعالى لأولادِ آدمَ يومَ القيامة: لقد أَخْبرتُكم، على وَجْهِ اليقين عن طريقِ الأنبياءِ والعلماءِ، أنّ الشيطانَ لكم عدوٌّ مُبين، وسيَدخُلُ جهنَّمَ، ولئن أطعتُموه سيأخُذُكم معَه إلى جهنَّمَ أيضًا.

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾

٤٣ ـ يعني: قيلَ لكم مرارًا وتكرارًا: إنّ عبادتَكم وطاعتَكم لي هي الطريقُ المستقيمُ الذي سيأخُذُكم إلى الجنّة، ومعَ ذلك لم تستخدِموا عقولَكم، وأضَلَّ الشيطانُ أكثرَكم، ولهذا ستَدخُلونَ أنتم أيضًا جهنَّمَ بسببِ ضلالِكم.

﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

٤٤ ـ حين يتراءَى للمشركينَ يومَ القيامة مصيرُهم السيِّئُ يركَبُهم الخوفُ، وحينَئذٍ سيكذبونَ قائلينَ: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وحينَئذٍ يَختِمُ اللهُ تعالى على أفواهِهم، وتشهَدُ عليهم أيديهم وأرجُلهم وأعضاءُ أبدانِهم الأخرى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

إنّ أعضاءَ أجسادِنا شاهدةُ عِيانٍ على كلِّ حركةٍ من حركاتنا، وتُسجِّلُ كلَّ حركاتِنا مثلَ كاميراتِ المراقبة، ومن يحاولُ أن يكذبَ يومَ القيامة ستَكشِفُ هذه الأعضاءُ كلَّ كذبِه وتضَعُ أمامَه كلَّ السِّجلّات.

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾

٤٥ ـ حينَ أغلَقَ مشركو مكّةَ أعيُنَهم عن آياتِنا، كان يمكنُ لنا لو أرَدْنا أن نطمِسَ على أعيُنِهم فلا يبقَى لها أيُّ أثرٍ، فلا تبدو لهم كلُّ تلك الطُّرقِ التي كانوا يسيرونَ عليها دائمًا، ولو نشاء مسَخْنا صُوَرَهم وجَعَلْناهم أحجارًا أو مشلولين، فلا يستطيعونَ حركةً إلى الأمام أو الخَلْف، لكنْ مِن فضلِنا وكرَمِنا أنّنا لم نَسلُبْهم أعيُنَهم ولم نجعَلْهم أحجارًا، وإنّما أعطيناهم مُهلةً لكي يُصلِحوا أنفسَهم.

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾

٤٦ ـ حين يَمنحُ اللهُ تعالى شخصًا قويًّا ذا صحةٍ جيّدة عمُرًا طويلًا، فإنه يعيدُه في شيخوختِه إلى حالةِ الطفولةِ ثانيةً، بمعنى: أنه يصبحُ ضعيفًا ومحتاجًا للآخَرينَ مثلَما كان في طفولتِه، كما أنه ليس من الصّعبِ على اللهِ تعالى أن يُعميَ أحدًا من الطُّغاةِ في شبابِه أو يَجعَلَه مشلولًا، ومعَ ذلك لا يستفيدُ كفّارُ مكّةَ من عقولِهم ولا يستعملونَها، ولا يخشَوْنَ أَخْذَ اللهِ لهم.

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾

٤٧ ـ كان كفّارُ مكّةَ يتّهمونَ النبيَّ ﷺ باتّهاماتٍ عديدةٍ كاذبةٍ بغَرَض إبعادِ الناسِ عنه، ومِن بينِ هذه الاتّهاماتِ الكاذبة: أنّ النبيَّ ﷺ شاعرٌ! وأنّ القرآنَ الكريمَ عبارةٌ عن مجموعةٍ من أفكارِه الشِّعريّة، وكان أهلُ الجزيرةِ العربيّة بصفةٍ عامّة يُطلِقونَ لفظَ «شاعر» على مَن يقولُ كلامًا خياليًّا، ويُطلقونَ وصفَ «أجوَدِ الشِّعر» على أكذبِه[1].

في هذه الآيةِ جاء الردُّ على هذا الاعتراضِ من كفّارِ مكّةَ بأنّ اللهَ تعالى لم يُعلِّم النبيَّ الكريمَ ﷺ الشِّعرَ، بل ولا يليقُ قولُ الشِّعر بالنبيِّ ﷺ، وأنّ القرآنَ الكريمَ ليس مجموعةً من الأشعار، وإنّما هدايةٌ ونصيحةٌ من أوّلِه إلى آخِره.

إنّ قولَ الشِّعرِ وسَماعَه أمرٌ ليس مَعِيْبًا في ذاتِه، بل إنه يضاعِفُ أثرَ الحقائق، والنبيُّ ﷺ قَرأَ الأشعارَ بنفسِه، وسَمِعَها من أصحابِه الكرام رضي اللهُ عنهم أيضًا، لكنّ تلك الأشعارَ التي تتّسمُ بالإفراطِ والتفريط، وتصلُ بالأفكارِ والتصوُّراتِ إلى حدٍّ

---

(١) «لأن الشعر: كلام مزخرف موزون مبني على خيالات وأوهام واهية، حتى قيل: أعذبه أكذبه». صفوة التفاسير، سورة يس (٣٦): الآية ٦٩.

الكذبِ والكُفر، فإنّ قولَ مِثلِ هذه الأشعارِ وسَماعَها كلاهما حرامٌ، وقد قرَّر القرآنُ الكريمُ أنّ مِثلَ هذه الأشعارِ ضلالٌ، ولهذا لا علاقةَ للنبيِّ ﷺ بمِثل هذه الأشعار.

كما أنّ فُصَحاءَ العربِ وعلماءَ اللُّغة منهم يقولونَ عن الشِّعر: إنه ذلك الذي قاله الشاعرُ بقَصْدِ أن يقولَ شعرًا، أمّا إنْ خَرَج من لسانِه كلامٌ موزونٌ مِثلُ الشِّعر دونَ قصدٍ أو إرادة، فإنه ليس شعرًا[1]، وإنّما هو مصادَفةٌ، مثلَما قال النبيُّ ﷺ يومَ غزوةِ حُنين:

ـ «أنا النّبيُّ لا كذبْ أنا ابنُ عبدِ المطَّلبْ»[2]

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

٤٨ ـ نَزَل القرآنُ الكريمُ ليُنذرَ كلَّ مَن كان قلبُه حيًّا، بمعنى: أنّ لدَيْهِ الأَهليّةَ لكي يتدبَّرَه بكلِّ حرّيةٍ ويَقبَلَ هدايتَه، والحقيقةُ أنّ إنذارَ أمثالِ هؤلاءِ الناسِ أصحابِ القلوبِ الحيّة له فائدةٌ، لكنّ الذين ماتت قلوبُهم، يعني: وَضَعوا غِشاوةً على عقولِهم وضمائرِهم من التعصُّبِ والعِناد، أمثالُ هؤلاءِ الناسِ أصحابُ القلوبِ الميِّتةِ لا أمَلَ في أن يَقبَلوا الهِدايةَ، لكنّ الفائدةَ من إنذارِهم هي أن تقامَ عليهم الحُجّةُ للعذابِ الإلهيِّ، ولن يستطيعوا أن يحتَجُّوا أنه لم يأتِهم نذير.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾

٤٩ ـ لقد أحسَنَ اللهُ تعالى على الإنسانِ بأَفْضالٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وهنا تذكيرٌ

---

(١) «قال فصحاء العرب والبلغاء: إنّ ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يعدّ شعرًا، وإنما يعدّ منه ما يجري على وزن الشعر مع القصد إليه... لأن ما وافق وزنه وزن الشعر ولم يقصد به إلى الشعر ليس بشعر». تفسير القرطبي.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٥٢ برقم ٢٨٦٤، ويمكنك مراجعة بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بقول الشعر في الحواشي من ٩٦ - ٩٧ للآيات من ٢٢٤ إلى ٢٢٧ من سورة الشعراء (٢٦).

بواحدٍ من هذه الأَفْضال، يعني: أنه خَلَق لهم بيَدِ قُدرتِه أنعامًا مختلفةَ الأنواع والأقسام، مثلَ الجاموسِ والبقرِ والأغنام والماعِز والجِمالِ والخيولِ وغيرِها، وليس للإنسانِ دخلٌ في خَلْقِها أصلًا، ثم جَعَل اللهُ تعالى الإنسانَ مالكًا لهذه الأنعام، وبعضُها ضخمُ الجسم، والبعضُ الآخَرُ قويٌّ، لكنّ اللهَ تعالى جَعَلَها كلَّها مسَخَّرةً للإنسان، ولهذا فإنه يَستعمِلُ بعضَها للركوب، والبعضَ الآخَرَ يذبَحُه ويأكلُ لحمَه.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾

٥٠ - فائدةُ هذه الأنعام لا تنحصرُ في الركوبِ وأكلِ اللُّحوم فقطْ، وإنّما يُحلَبُ لبَنُ بعضِها، والبعضُ يُصنَعُ من أوبارِها وأصوافِها ملابسُ ثقيلةٌ، ويُصنَعُ من جلودِ بعضِها الآخَرِ الأحذيةُ، وباختصار: فإنّ الإنسانَ يستفيدُ دائمًا وفي كلِّ وقتٍ بنِعَم الله تعالى، لكنْ كم هو ظلمٌ عظيمٌ أنّ الإنسانَ - معَ ذلك - لا يؤدِّي شُكرَ الله تعالى.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾

٥١ - النِّعَمُ التي تسيرُ بها عَرَبةُ حياةِ الإنسان خَلَقَها اللهُ تعالى كلَّها، لكنْ ما أَعجَبَ هؤلاءِ الناس! إذْ يترُكونَ المتفضِّلَ الحقيقيَّ عليهم، ويتَّخذونَ من الأصنام آلهةً لهم، ويأمُلونَ من هذه الأصنام أن تساعدَهم في وقتِ الشِّدة، معَ أنّها لا تستطيعُ مساعدةَ نفسِها، ولو أنّ أحدًا ذَمَّ هذه الأصنامَ، فإنّها لا تملِكُ من القوّةِ ما تردُّ به عليه، بل إنّكم أنتم بمثابةِ الجيشِ الذي أعدَّتْه هذه الأصنامُ، وإنْ لم تُدافعوا أنتم عنها فإنّ أيَّ إنسانٍ يستطيعُ تحطيمَها.

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

٥٢ - في هذه الآيةِ طَمْأنةٌ للنبيِّ ﷺ بأنه إذا كان كفّارُ مكّةَ لا يعترفونَ بخالقِهم وربِّهم من الأَصْل، يقولونَ عنك: إنك شاعرٌ، فلا يَحزُنْك قولُهم هذا، فنحن نعلمُ

تمامَ العلمِ ظاهرَهم وباطنَهم، وسوف نُحاسبُهم حسابًا عسيرًا في الوقتِ المحدَّدِ لذلك.

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

٥٣ ـ ألَا يعلمُ الإنسانُ أنّنا خلَقْناهُ من قطرةِ ماء؟ ومعَ ذلك يُعادينا ويضربُ لنا الأمثالَ قائلًا: كيف يمكنُنا أن نُحييَ الإنسانَ ثانيةً من العظامِ الرَّميم المهترِئة؟ ونَسِي كيف كان خُلْقُه هو.

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

٥٤ ـ قال النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى: مثلَما خَلَق اللهُ تعالى العظامَ والإنسانَ للمرّةِ الأولى من قطرةِ ماء، يمكنُه ـ كذلك ـ أن يُعيدَ خلقَ الإنسانِ ثانيةً من تلك العظام.

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «إنّ رجلًا (من الأُمم السابقة) حَضَره الموتُ، فلمّا يَئِسَ من الحياةِ أوصَى أهلَه إذا أنا مِتُّ فاجمَعوا لي حَطَبًا كثيرًا وأوقِدوا فيه نارًا، حتّى إذا أكَلَتْ لحمي (واسوَدَّت محترقةً)، وخَلَصَتْ إلى عَظْمي، فامتَحَشَتْ، فخُذوها فاطحَنوها (أي: الترابَ)، ثمّ انظُروا يومًا راحًا فاذْرُوهُ في اليمِّ. ففَعَلوا، فجَمَعَه اللهُ فقال له: لمَ فعلتَ ذلك؟ قال: من خشيتِك. فغَفَر اللهُ له»[1].

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

٥٥ ـ قبلَ اختراع أعوادِ الكِبريتِ والوَلّاعات، كان الناسُ يُشعلونَ النِّيرانَ من الأحجار، وكان العربُ يُشعلونَ النارَ عن طريقِ الشجرِ الأخضر، مثلَما يقولُ

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٢ برقم ٣٤٥٢.

العلّامةُ القُرطبيُّ: «إنه كانت عندَ العربِ شجرتانِ معروفتانِ، واحدةٌ تُسمَّى المَرْخَ، والثانية تُسمَّى العَفَار[1]، وكانت العربُ تقطَعُ غُصنًا من كلٍّ منهما مثلَ المِسواكِ الذي يكونُ يانعًا أخضَرَ، والماءُ يتساقَطُ منهما، ثم يَحُكُّونَ الغُصنَيْنِ معًا، فتَخرُجُ منهُما النارُ، وفي الآيةِ إشارةٌ إلى هذه العادة عندَ العربِ معَ هذا الشجرِ الأخضر».

معَ أنّ طبيعةَ النارِ والماءِ متناقضةٌ، وفي الغُصنِ الأخضرِ أيضًا رطوبةٌ وماءٌ، ولهذا فإنّ اشتعالَ النارِ منه مخالفٌ لطبيعتِه، ولكنّ هذا لا يَصعُبُ على الله تعالى، فإذا كان اللهُ تعالى قادرًا على أن يَخلُقَ النارَ من الغُصنِ الأخضر، فليس من الصَّعبِ عليه أن يُعيدَ خَلْقَ الإنسانِ من هذه العظام.

بصفةٍ عامّة تُشعَلُ النارُ من الخشبِ الجافِّ، ولكنّ هناك أشجارًا مثلَ السَّروِ وغيرِها يخرُج من أغصانِها ماءٌ يُشبه الزّيتَ، وما أن يُلقَى بها في النارِ حتى تشتعلَ هي الأخرى فورًا.

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٥٦ ـ اللهُ تعالى هو الذي خَلَق السّماءَ والأرضَ، وليس من الصَّعبِ عليه خَلقُ الإنسانِ ثانيةً؛ لأنّ خَلْقَ الإنسانِ أيسَرُ من خَلْقِ السّماءِ والأرض وأهوَنُ، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

٥٧ ـ عندَما يريدُ اللهُ تعالى أن يَخلُقَ شيئًا فإنه لا يَحتاجُ إلى مادةٍ يَخلُقُه منها

---

(١) بوزن سحاب. و«المرخ والعفار (كما يأتي عند القرطبي بعد قليل) يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلى بعض فتخرج منهما النار». تفسير القرطبي.

ولا إلى وسائلَ يَخلُقُه بها، وإنما يَظهَرُ هذا الشيءُ إلى الوجودِ بمجرَّدِ قولِ الله تعالى: ﴿كُن﴾، فالتفكيرُ حولَ هذه الذاتِ القادرةِ المطلَقة، والتساؤلُ: كيف يمكنُها خَلْقُ الإنسانِ ثانيةً من هذه العِظام الرَّميم؟ حماقةٌ كبرى وجَهْلٌ عظيم، فالذي يستطيعُ أن يَخلُقَ الإنسانَ لأوّلِ مرةٍ من قطرةِ ماء، كيف لا يستطيعُ أن يُعيدَ خَلْقَه ثانيةً من العظام؟

يقولُ المفسِّرون: «هذا تقريبٌ للأذهان، والحقيقةُ أنه تعالى لو أراد شيئًا لَكان بغيرِ احتياج إلى لفظِ ﴿كُن﴾»[1]، فإذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها بمجرَّدِ الإرادةِ فقطْ، فهل يصعُبُ عليه أن يُحيِيَ الموتى من البشَر؟

﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

٥٨ ـ الحاكمُ الحقيقيُّ لكلِّ شيءٍ في هذه الكائناتِ هو اللهُ تعالى فقطْ، ونحن جميعًا سنَمثُلُ بينَ يدَيْه تعالى ذاتَ يوم، حيث سيَسألُنا عن كلِّ أعمالِنا ويحاسبُنا عليها.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة المغربِ من يوم الاثنين ٢٥ يناير ٢٠١٠م
الموافق ٩ صفر ١٤٣١هـ.

وبفضلِ الله تعالى اكتَمل تفسيرُ سورةِ يسٓ في ١٦ يومًا فقط، أي: من ٩ يناير حتى ٢٥ يناير، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

---

(١) صفوة التفاسير، سورة النحل (١٦): الآية ٤٠.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «الصَّافّاتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

تحدَّثتْ هذه السُّورةُ مراتٍ عديدةً عن ثلاثِ عقائدَ أساسيّةٍ من عقائدِ الإسلام، مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ الأخرى، يعني: التوحيدَ والنُّبوّةَ والآخِرة.

في بدايةِ السُّورةِ أَقْسم اللهُ عزَّ وجلَّ - ثلاثَ مراتٍ - موضِّحًا عقيدةَ التوحيد، قائلًا: إنّ إلهَكم واحدٌ فقطْ، وهو ربُّ كلِّ ما في السماواتِ والأرض.

كان أهلُ مكةَ ينكرونَ القيامةَ قائلين: كيف يمكنُ أن يُحيِيَنا اللهُ تعالى مرةً ثانيةً بعدَ أن نكونَ قد مِتْنا وصِرْنا ترابًا، وأصبحت عظامُنا رَمِيمًا ومُهترئةً؟ وعليه، قال النبيُّ ﷺ لهم بأمرِ الله تعالى: إنّ الساعةَ قائمةٌ لا مَحالَة، وهذا وعدُ ربِّي، وإحياؤكم من جديدٍ ليس بالأمرِ الصّعبِ بالنسبةِ إليه، فهو القادرُ المطلَقُ، وبزَجْرةٍ واحدةٍ فقطْ منه سينهَضُ كلُّ الناسِ من قبورِهم أحياءً.

سيتشاجَرُ مُنكرو القيامةِ معَ بعضِهم يومَ القيامة، ويتَّهمُ كلٌّ منهم الآخَرَ بأنه هو الذي أضَلَّه، ولكنّ هذا العُذرَ من المضَلَّلينَ لن يكونَ مقبولًا يومَ القيامة، فلماذا لم يستخدموا عقولَهم، ولماذا قَلّدوا الضالِّينَ تقلِيدًا أعمى واتَّبعوهم؟ وبالتالي فإنّ كلًّا منهما - المُضِلِّينَ والمضَلَّلين - يكونُ مستحِقًّا للعذاب.

واجَه النبيُّ ﷺ والذين آمَنوا معَه ظروفًا في غايةِ الصُّعوبةِ في مكةَ، وللتسريةِ عنهم وطَمْأنةً لقلوبِهم ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ الأنبياءِ الذين أهال عليهم المنكرونَ تِلالًا من المصائب، لكنّهم ظَلُّوا ثابتينَ، إلى أن أَنْعم اللهُ عليهم بالفلاح والنَّجاح بعدَ ذلك، يعني: سيّدَنا نوحًا وسيّدنا إبراهيمَ وسيّدَنا إسماعيلَ وسيّدنا موسى وسيّدَنا هارونَ وسيّدَنا إلياسَ وسيّدَنا لوطًا وسيّدَنا يونُسَ عليهم جميعًا السلام.

جاء في هذه السُّورةِ ذِكرُ واقعةِ ذَبْح سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ تفصيلًا، كيف استَعدَّ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لذَبْح ابنِه إرضاءً لله تعالى، وفي هذه الواقعةِ طَمْأنةٌ للمسلمينَ في مكةَ بأنّ رضا اللهِ تعالى في غايةِ الأهميّة والرِّفعة، بحيث لو كان ثمنَ ذلك هو البعدُ عن الأولادِ والأقاربِ فهو صفقةٌ رابحةٌ تمامًا.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاةِ الفجر من يوم الجمُعة ٢٩ يناير ٢٠١٠م
الموافق ١٣ صَفَر ١٤٣١هـ.

* * *

سُورَةُ الصَّافَّاتِ (٣٧)،

مكية (٥٦)، آياتها (١٨٢)، ركوعاتها (٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾

١ ـ في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى ثلاثَ مرّات، أي: بالملائكةِ الذين يَصْطَفُّونَ في الصلاةِ صفوفًا، والذين يَزجُرونَ الشياطينَ ويطردونَهم، والذين يَتْلُونَ كلامَ اللهِ تعالى. وبعدَ القَسَم بهذه الطوائفِ المقدَّسة قال: إنّ إلهَكم واحدٌ، ولا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه.

كان بعضُ الكّفارِ يعبدُ الملائكةَ، وفي هذه الآياتِ جاء إبطالُ هذا الأمرِ بأنّ الملائكةَ أنفُسَهم يعبدونَ اللهَ تعالى، ويتَّبعونَ أحكامَه في كلِّ لحظةٍ ويعمَلونَ بها، فكيف إذًا يمكنُ أن يكونوا آلهةً؟

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾

٢ ـ يقالُ للموضعِ الذي تُشرقُ منه الشمسُ: «المشرِق»، ورَغْمَ أنّ الشمسَ تَطلُع من المشرِق، لكنَّها تَطلُعُ كلَّ يوم من مكانٍ مختلف، وبالتالي يصبحُ للشمسِ طيلةَ العام **٣٦٥** مشرِقًا، ومالكُ كلِّ هذه المشارقِ هو اللهُ تعالى.

﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴾

٣ ـ جَعَل اللهُ تعالى النُّجومَ زينةً للسماءِ ووسيلةً لإرشادِ الناس، وحَفِظ السماءَ من كلِّ شيطانٍ متمرِّدٍ عاصٍ، فإذا حاولَ الشياطينُ الصُّعودَ للتنصُّت على كلام ملائكةِ العالَم الأعلى، تنهالُ عليهم الشُّهُبُ الحارقةُ المشتعلةُ من كلِّ جانب، وتُلهِبُهم، فيَفِرُّونَ إلى أسفلَ مسرِعينَ، ومِثلُ هذا سيظَلُّ يحدُثُ للشياطينِ في الدنيا، وسيُسلِّطُ اللهُ تعالى عليهم في الآخِرة عذابًا دائمًا مستمرًّا.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾

٤ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، سَلْ مُنكري القيامة: هل خَلْقُ السماواتِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ أصعَبُ على اللهِ تعالى أم خَلْقُ إنسانٍ صغيرٍ من جديدٍ، وهو الذي خَلَقه بدايةً من طينٍ لازبٍ غيرِ متماسِك، ثم أجرى نَسْلَه بعدَ ذلك من قطرةٍ من الماء؟ طبيعيٌّ أنّ لا يكونَ من الصعبِ على مَن خَلَق مخلوقاتٍ عظيمةً وضخمةً مثلَ السّماءِ والأرض، أن يُعيدَ خَلْقَ إنسانٍ من ترابِ قبرِه وعظامِه.

﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴾

٥ ـ برَغْم الآياتِ الواضحة والدَّلائلِ الصّريحةِ على قيام السّاعة، إلّا أنّ أهلَ مكةَ كانوا يُنكرونَها، ويسخَرونَ منها، وكان النبيُّ ﷺ يتعجَّبُ من سُلوكِهم هذا كثيرًا مستغرَبًا كيف لا يَستعمِلُ هؤلاءِ الناسُ عقولَهم، وقد أجابَ القرآنُ الكريمُ عن هذا التساؤلِ في الآيةِ التالية بأنّ هؤلاءِ في الحقيقةِ مصابونَ بالتعصُّبِ والصَّلَفِ والعناد، ولهذا كلَّما أسدَيْتَ إليهم نصيحةً، أو جاءَتْهم معجِزةٌ، فإنّهم ينكرونَها على الفَوْرِ دونَ تدبُّر وتفكُّر فيها، ويقولونَ عنها: إنّها سِحر.

﴿ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴾

٦ ـ في هذه الآية يقالُ لمُنكري القيامة: إنّ كلَّ الناسِ سيُبعَثُونَ من جديدٍ يومَ القيامة، ولكنّكم ستُواجِهونَ الذُّلَّ والخِزيَ بسببِ إنكارِكمُ القيامةَ.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴾

٧ ـ الإحياءُ بعدَ الموت ليس بالأمرِ الصَّعبِ على الله تعالى، إذ إنّ سيّدَنا إسرافيلَ سينفُخُ في الصُّورِ بأمرِه تعالى، وعندئذٍ سينهَضُ الناسُ أحياءً، وينظُرُ بعضُهم إلى بعضٍ في دهشةٍ وحَيْرة.

﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾

٨ ـ حين يُبعَثُ مُنكرو القيامةِ وينهَضونَ من قبورِهم سينـدَمونَ كثيرًا، وسيصرُخونَ قائلينَ: ما أتعسَنا! إنّ هذا هو يومُ الجزاءِ والحساب، وستقولُ الملائكةُ لهم أيضًا: نعَمْ، هذا هو يومُ القيامةِ الذي كنتُم به تكذِّبونَ به في الدُّنيا.

ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَـَٔاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

﴿ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

٩ ـ سيقولُ اللهُ تعالى للملائكةِ يومَ القيامة أن يأخُذوا الظالمينَ ورُفَقاءهم وآلهتَهم ويسيروا بهم إلى طريقِ جهنَّم، والمرادُ بالظالمينَ هنا: الكفّارُ المشركون، والمرادُ برُفَقائهم أولئك الذين كانوا شُركاءَهم في الكُفرِ والشِّرك، والمرادُ بآلهتِهم: الأصنامُ وغيرُها ممّا كانوا يُعبَدون، وليس للأصنام ذنبٌ في كلِّ هذا؛ لأنّ الأصنامَ لم تقُلْ لأحدٍ منهم أبدًا: أنِ اعبُدْني من دونِ الله، ولهذا فإنّ الأصنامَ لن تدخُلَ النارَ عقابًا، وإنّما من أَجْلِ عقابِ المشركينَ لأنّهم اتَّخَذوها آلهةً.

﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾

١٠ ـ قال المفسِّرون: إنه عندما تأخُذُ الملائكةُ المشركينَ إلى جهنَّمَ يأتي الحُكمُ من اللهِ تعالى إلى الملائكةِ أنْ أوقِفوهم لأنّهم سيُسأَلون[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تَزولُ قَدَما ابنِ آدمَ يومَ القيامة من عندِ ربِّه حتّى يُسألَ عن خمسٍ:

١ ـ عن عُمُرِه فيما أفناه.

٢ ـ وعن شبابِه فيما أبلاه.

٣ ـ وعن مالِه من أين اكتَسَبه.

٤ ـ وفيما أنفَقَه.

٥ ـ وماذا عمِل فيما عَلِم»[2].

---

(١) «قال المفسرون: لما سيقوا إلى النار حبسوا عند الصراط للسؤال» تفسيرالبغوي وتفسير الخازن.

(٢) الترمذي، أبواب القيامة، باب ١ برقم ٢٤١٦.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾

١١ ـ الزُّعماءُ المشركونَ في هذه الدُّنيا يساعِدونَ متَّبِعيهم ورُفقاءَهم كثيرًا، ويفخَرونَ بهذا التعاونِ فيما بينَهم، ولكنْ يومَ القيامة حينَ يقِفونَ خَجِلينَ عاجِزينَ مَحْنيِّي الرُّءوسِ، لا يستطيعونَ مساعدةَ أحد، عندَئذٍ سيُقالُ لهم على سَبيل الزَّجْرِ والتوبيخ: لقد كنتُم تفتخرونَ كثيرًا بتعاونِكم فيما بينَكم في الدُّنيا، فماذا حَدَث لكمُ اليومَ؟ فلا تستطيعونَ مساعدةَ بعضِكم بعضًا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾

١٢ ـ في هذه الآيةِ استُعملَ لفظُ اليمينِ للدِّلالةِ على جهةِ اليمين، ولفظُ اليمينِ في اللُّغةِ العربيّة يمكنُ أن يدُلَّ على معانٍ متعدِّدة، مثلًا: القوةُ والغَلَبة، القَسَم، الدِّين، والخيرُ وغيرُها، وبالتالي يصبحُ مفهومُ هذه الآيةِ بهذا الاعتبارِ: أنه حين يتبادلُ زعماءُ المشركينَ ومتَّبِعوهم الاتِّهاماتِ فيما بينَهم يومَ القيامة، يقولُ المتَّبِعون: لقد كنتُم الأقوياءَ الغالبين، وكنتُم تُقسِمونَ مؤكِّدينَ لنا أنّ الدِّينَ الذي تقدِّمونَه لنا هو طريقُ الخير، وبالتالي لم يكنْ أمامَنا سوى أن نُطيعَ ما تقولون.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾

١٣ ـ سيرُدُّ القادةُ المشركونَ: إننا لم نُجبِرْكم على الشِّرك، وإنّما رغَّبناكُم فيه لا أكثرَ، وأنتم الذين اتَّبعتُمونا فورًا، وكأنّكم كنتُم تجلسونَ من قبلُ مستعدِّينَ لاتِّباعِنا، ولهذا لا تتَّهِمونا نحن فقطْ، فأنتُم أيضًا طُغاةٌ عُصاةٌ، وما كنتم لتؤمنوا أبدًا.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾

١٤ ـ يضيفُ قادةُ المشركينَ قائلين: رَغْم أنّنا لم نُجبِرْكم على الشِّرك، لكنَّنا

كنا سببًا في ضلالِكم يقينًا، على أيِّ حال ما كان كان وانتَهى، والآنَ كلانا ضالٌّ، وقد صَدَر حُكمُ الله تعالى في أمرِنا بأنّنا جميعًا سنَذُوقُ عذابَ ضلالِنا.

يقولُ العلّامةُ الرازي في تفسيرِ هذه الآية: «إنِ اعتَقَدتُم أنّ غِوايتَكم بسببِ إغوائنا فغِوايتُنا إنْ كانت بسببِ إغواءِ غاوٍ آخَرَ لزِمَ التَّسلسُلُ وذلك مُحالٌ»[1]، يعني: ستظلُّ مسئوليةُ كلِّ ضلالٍ تعودُ إلى السببِ فيه، وسيَرجِعُ ذلك في نهايةِ الأمرِ إلى الشيطان، وتبرَأُ ذمةُ بني الإنسان، معَ أنّ هذا يتنافَى معَ العقلِ والنقل كلَيْهما.

هذا التفصيلُ كلُّه يخُصُّ ذلك الشَّخصَ الذي اختار الضَّلالَ بمَحْضِ إرادتِه، ولكنْ إن أُجبِر أحدٌ على الضَّلال، بينَما هو لا يعترفُ بهذا الضَّلالِ من قلبِه، على سَبيل المثال: لو قيلَ لمسلم أنِ اشرَبْ كأسَ الخمرِ هذا وإلّا قُتِلت، فلو شربَ الخمرَ إنقاذًا لروحِه فالأملُ أن يعفوَ اللهُ عنه إن شاء اللهُ تعالى.

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾

١٥ ـ حين يقالُ للمشركينَ أنِ اعبُدوا اللهَ تعالى وحدَه؛ لأنه لا أحدَ سواهُ يستحِقُّ العبادةَ، فسيُنكرونَ مستكبِرينَ قائلينَ: إنّ النبيَّ ﷺ ـ والعياذُ بالله ـ شاعرٌ ومجنون، فهل نترُكُ آلهَتنا التي وجَدْنا آباءَنا وأجدادَنا يعبُدونَهم بناءً على ما يقولُه؟ هذا لن يكونَ ولن نفعلَه أبدًا.

﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾

١٦ ـ سيقولُ اللهُ تعالى مجيبًا المشركينَ: إنّ حبيبي النبيَّ الكريمَ ﷺ ليس شاعرًا ولا مجنونًا، ولقد جاءكم بقرآنٍ ليس فيه كلامُ شعراءَ ومجانينَ، وإنّما حِكَمٌ ونصائحُ، كما أنّ به بيانًا للتوحيدِ الذي دعا إليه الأنبياءُ السابقونَ عليهمُ السَّلامُ من

(١) التفسير الكبير.

قبلُ، وقد كانوا جميعًا رُسُلًا صادقينَ، ولهذا فإنّ الشخصَ الذي لا يَقبَلُ التوحيدَ سيُواجِهُ عذابًا أليمًا.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

١٧ ـ جاء في الآياتِ السابقة على هذه الآية بيانٌ للمصيرِ الذي آلَ إليه المشركونَ والطُّغاةُ المتمرِّدون، والآنَ يَذكُرُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ الإنعاماتِ والجوائزَ التي سيَحُوزُها عبادُ الله المخلَصُون، يعني: أنّ عبادَ الله المخلَصينَ سيكونونَ محفوظينَ يومَ القيامة من العذاب، أمّا ما جَعَلَه اللهُ لهم في الجنّةِ من طعامٍ وفواكهَ سيُقَدَّمُ إليهم بكلِّ احترامٍ وإجلال.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾

١٨ ـ سيجلسُ عبادُ الله المخلَصونَ في الجنّةِ على أرائكَ جميلةٍ ومُريحةٍ أمامَ أحبابِهم، وسيُقدِّمُ إليهم كئوسَ الخمرِ غِلمانٌ في جمالِ لآلئِ الصَّدَف، وهذا الخمرُ سيكونُ طاهرًا وصحيًّا لا يسبِّبُ ألمًا في الرأس، ولا يَذهَبُ بعقلِ مَن يشربُه، على عكسِ خمرِ الدُّنيا.

خمرُ الدنيا سيِّئُ الطعم، والعقلُ يذهبُ بشربِه إلى درجةِ أنّ السَّكرانَ لا يستطيعُ التمييزَ بينَ أهلِه والغُرباءِ عنه، وفي بعضِ الأحيان يتلفَّظُ بألفاظٍ خاطئةٍ يخجَلُ منها فيما بعدُ دائمًا، لكنّ خمرَ الجنّة طَهُورٌ ومنزَّهٌ عن كلِّ هذه العيوب، وفي الجنّةِ عيونٌ وأنهارٌ من الخمرِ تجري، ولونُها أبيضُ، وطعمُها لذيذٌ، ولا يُحدِثُ شُربُها أيَّ أثرٍ سلبيٍّ على عقلٍ أو جسم شاربِه، وباختصار: فإنه لا شيءَ مشتركٌ بينَ خمرِ الدُّنيا الحرام وخمرِ الجنةِ الطَّهور سوى الاسمِ فقط.

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾

١٩ ـ سيكونُ لدى أهلِ الجنة زوجاتٌ جميلاتٌ ذواتُ أعيُنٍ جميلةٍ تُشبهُ ذلك البَيْضَ النظيفَ الناصعَ الذي يخلُبُ اللُّبَّ، والذي حُفِظَ بعيدًا عن الترابِ والغبار، وهؤلاءِ الزَّوجاتُ لن يَرْفَعْنَ أبصارَهنَّ إلى غيرِ أزواجِهنَّ.

﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴾

٢٠ ـ سيَسألُ أهلُ الجنّةِ عن أحوالِ بعضِهم بعضًا في جوٍّ مُفعَمٍ بالسعادة، فيقولُ واحدٌ من أهلِ الجنّة: كان لي صَديقٌ في الدُّنيا يُنكرُ الآخِرة، وكان يقولُ لي ساخرًا: هل تؤمنُ أنت أيضًا بيوم القيامة؟ كيف يمكنُ أصلًا أن نُبعَثَ من جديدٍ بعد أن صِرنا تُرابًا من أجلِ الحساب؟

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

٢١ ـ سيُخاطِبُ اللهُ تعالى هذا الرجلَ من أهلِ الجنّةِ قائلًا: لو كنتَ تريدُ رؤيةَ صديقِك هذا فانظُرْ إلى جهنَّم، وحين يُطِلُّ على جهنَّم يَرى صديقَه يحترقُ بنارِها في وَسَطِها، وعندَما يَرى هذا الرجلُ من أهل الجنةِ حالَ صديقِه هذا يقولُ له: أيُّها التّعِسُ، كنتَ تريدُ أن تُهلِكَني أنا أيضًا، ولكنْ من فَضْل الله تعالى ربِّي علَيَّ أنْ أَنْجاني من هذا العذابِ، وإلّا لَكنتُ اليومَ مبتلىً معَك في هذا العذاب.

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾

٢٢ ـ سيَشكُرُ هذا الرجلُ من أهلِ الجنةِ اللهَ تعالى حين يَرى سوءَ حالِ صديقِه في جهنَّم، ويرى حُسنَ وَضْعِه في الجنّة، وسينهَضُ قائلًا على سجيَّتِه من فَرْطِ سعادتِه: ألن نموتَ بعدَ ذلك ثانيةً؟ يعني: كم أنَّ اللهَ تعالى كريمٌ بأنّ الموتَ لن

يأتيَنا ثانيةً، ولن نُعذَّبَ أبدًا، وإنما سنَخلُدُ في الجنةِ إلى الأبد، لأنّنا قد ذُقنا الموتَ الذي كان من الضَّروريِّ أن نَذوقَه، والآنَ أنهَى اللهُ تعالى سلسلةَ الموتِ هذه مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إذا صار أهلُ الجنّة إلى الجنّة، وأهلُ النّارِ إلى النّار، جيءَ بالموتِ (كمِثْلِ كبشٍ) حتّى يُجعَلَ بينَ الجنّةِ والنّار، ثمّ يُذبَحُ، ثمّ يُنادي منادٍ: يا أهلَ الجنّة، لا موتَ، يا أهلَ النّار، لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنّةِ فرحًا إلى فَرَحِهم. ويزدادُ أهلُ النّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم»[١].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

٢٣ ـ سيقولُ أهلُ الجنّة: إنّ تحصيلَ مالِ الدُّنيا ومتاعِها ليس هو النّجاحَ الحقيقيَّ، فالنَّجاحُ الحقيقيُّ هو الحصُولُ على رضا الله تعالى والجنّة، وينبغي لكلِّ شخصٍ أن يَجتهدَ من أَجْلِ تحقيقِ هذا النجاح.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾

٢٤ ـ في جهنَّمَ شجرةٌ يقالُ لها: الزَّقُّوم، شديدةُ المرارةِ ذاتُ أشواكٍ، إذا لامَسَ ماؤها الجسدَ تورَّم، وحين يجوعُ أهلُ جهنَّم تُقدَّمُ لهم هذه الشّجرةُ ليأكلوها، وتناوُلُ هذه الشجرةِ عذابٌ ما بعدَه عذابٌ للظالمين، وقد ضُرِب هذا المثَلُ لتخويفِ أهلِ مكّةَ وتحذيرِهم من سوءِ عاقبةِ الكُفرِ والشِّرك، بأنّكم إنْ لم ترجِعوا عن طُغيانِكم وتمرُّدِكم، فستأكلونَ أنتم أيضًا شجرةَ الزَّقُّوم في جهنَّم، وإن آمنتُم فستستمتعونَ بأفضلِ ضيافةٍ من الله تعالى في الجنّة، والآنَ قرِّروا أنتُم أنفسُكم، أيُّ شيءٍ خيرٌ لكم وأفضَلُ؟

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٥١ برقم ٦٥٤٨.

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾

٢٥ - مثلَما يُشبَّهُ الشيءُ الطيِّبُ الجميلُ الطاهرُ بالملائكة، والشيءُ القبيحُ النَّجِس السيِّئُ بالشيطان، كذلك شُبِّهت أغصانُ شجرةِ الزَّقُّوم برُءوسِ الشياطينِ لقُبحِها ورائحتِها النَّتِنة ومرارتِها التي لا تُطاق.

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴾

٢٦ - حين يَقرُصُ الجوعُ بطونَ أهلِ جهنَّم سيُؤتَى بهم إلى شجرةِ الزَّقُّوم، ويَملأونَ بطونَهم من أغصانِها ذاتِ الروائحِ النَّتِنة، عندَئذٍ توضَعُ في بطونِهم مياهٌ تغلي، فتجتمعُ أغصانُ الزَّقُّوم معَ الماءِ المَغْليِّ على تقطيع أمعائهم، وبعدَ أن يأكلوا الزَّقُّومَ ويشربوا الماءَ المَغْليَّ تتِمُّ إعادتُهم ثانيةً إلى مكانٍ آخَرَ في جهنَّم، حيث توجَدُ شجرةُ الزَّقُّومِ أيضًا.

﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾

٢٧ - الذين سيُبتَلَوْنَ بعذابِ أكلِ الزَّقُّوم في جهنَّمَ كان سببَ ضلالِهم أنّهم وَجَدوا آباءهم وأجدادَهم ضالِّين، لكنّهم لم يَستعمِلوا عقولَهم وفهمَهم، وظلُّوا يسيرونَ على نَهْجِهم دونَ فَهْمٍ أو تفكير.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴾

٢٨ - يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لو لم يَقبَلْ مشرِكو مكةَ دعوتَك، ولو لم يترُكوا تقليدَ آبائهم وأجدادِهم، فلا تحزَنْ ولا تغتَمَّ، فقد مَضَتْ أُممٌ ضالّةٌ من قبلِهم، معَ أنه قد جاءَتْهم الأنبياءُ، وقد أَنْذَرَهم هؤلاءِ الأنبياءُ بعذابِ الله تعالى، ولكنْ حين لم يَرجِعوا عن ضلالِهم أهلَكْناهم.

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾

٢٩ ـ ظَلَّ سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ يدعو قومَه تسعَمائةٍ وخمسينَ عامًا قبلَ الطُّوفان، ولمّا لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم وعِصيانِهم حتى بعدَ هذا الزمنِ الطّويل من الدَّعوة، وشَعَر سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ أنّهم لن يؤمنوا، دَعا اللهَ تعالى بما بيَّنه القرآنُ الكريمُ قائلًا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟

عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، وهكذا قَبِل اللهُ تعالى دعاءه، ونَجَّى الذين آمَنوا به من الغَرَق، وكان تَعدادُهم ثمانينَ (٨٠)، والمرادُ بأهلِه هنا: هم الذين آمَنوا به[١].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

٣٠ - يقولُ سيّدُنا ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «لمّا خَرَج نوحٌ عليه السَّلامُ من السَّفينةِ ماتَ مَن كان معَه من الرجالِ والنِّساء إلّا وَلَدَه ونساءَهم»[٢]، ولهذا فإنّ كلَّ مَن في الدُّنيا من البشَرِ اليومَ هم من ذُرِّيةِ أولادِ سيّدِنا نوح عليه السَّلام، مثلَما قال سيّدُنا سعيدُ بنُ المسيِّبَ رضي الله عنه: «كان وَلَدُ نوح ثلاثةً والناسُ كلُّهم من وَلَدِ نوحٍ عليه السَّلام»[٣]، ولهذا يقالُ لسيّدِنا نوح عليه السَّلام: آدمُ الثاني وأبو البشَرِ الثاني.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾

٣١ - يقولُ العلّامةُ الخازنُ: «أي: أبقَيْنا له (أي: لسيّدِنا نوح عليه السَّلامُ عندَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام الذين جاءوا من بعدِه) حُسْنًا وذِكرًا جميلًا فيمَن بعدَه من الأنبياءِ والأُمم إلى يوم القيامة، وقيل: ترَكْنا عليه فى الآخِرين أن يُصلَّى عليه إلى يوم القيامة»[٤]، وهكذا فإنّ اللهَ تعالى يَجْزي عبادَه الصالحينَ طبقًا لدَرجاتِهم.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾

٣٢ - مثلَما كان سيّدنا نوحٌ عليه السَّلامُ نبيًّا، كذلك كان سيّدُنا إبراهيمُ عليه

---

(١) «وهم من آمن معه وكانوا ثمانين». تفسير القرطبي.
(٢) تفسير الخازن وتفسير القرطبي.
(٣) تفسير القرطبي.
(٤) تفسير الخازن.

السَّلامُ من أنبياءِ الله تعالى، وكان قلبُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ سليمًا، يعني: «إنه سَلِم من الشِّرك والشكِّ والمعاصي»[١]، فقد كان قلبُه خالصًا لله تعالى، وخاليًا من الدُّنيا ومن حبِّ أهلِ الدُّنيا[٢].

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾

٣٣ ـ حَذَّر سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ عمَّه آزَرَ وقومَه بأنّكم إذا كنتُم تترُكونَ اللهَ تعالى وتعبُدونَ آلهةً باطلةً، فماذا تقولونَ عن تلك الذاتِ الذي هو ربُّ العالَمينَ جميعًا، والمستحِقُّ الحقيقيُّ للعبادة؟ يعني: استعمِلوا عقولَكم، واعبُدوا ذلك الربَّ الذي هو ربُّ العالَمينَ جميعًا، وهو المستحِقُّ للعبادةِ في الحقيقة.

هل كان والدُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ مشرِكًا؟ هل كان اسمُه آزَرَ؟ للتعرُّفِ على تفصيلِ ذلك راجعِ الحاشيةَ رقم ٧٠ للآية رقم ٧٤ من سُورة الأنعام (٦).

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾

٣٤ ـ يقولُ العلّامةُ الخازنُ: «كلَّما حَلَّ عيدٌ من أعيادِهم كان قومُ نوح ينهَضُونَ مبكِّرينَ صباحًا، فيُعِدُّونَ أطيبَ الطعام ويضعونَه أمامَ الأصنام، ثم يَخرُجونَ من المدينةِ للاحتفالِ بالعيد، وعندَما يعودونَ في المساءِ يأكُلونَ الطعام الذي وَضَعوه قَبْلًا أمامَ الأصنام كنوع من التبرُّك، وذاتَ عيدٍ قالوا لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام أن يخرُجَ معَهم للاحتفالِ بالعيد، لكنّ سيّدَنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ كان يريدُ أن يقومَ بتحطيم الأصنامِ فورَ أن يَخرُجَ هؤلاءِ الناسُ جميعًا، حتى يقيمَ عليهم الحُجّةَ بأنه كيف يمكنُ

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) ««بقلب سليم» من الاشتغال بغيرالله تعالى خاليًا عن الغير وحبه كما يدل عليه قصة ذبح ابنه لامتثال أمر ربه». التفسير المظهري.

أن يكونَ إلهًا مَن لا يستطيعُ أن يَحميَ نفسَه؟ وهكذا، نَظَر سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى النُّجوم؛ لأنّ هؤلاءِ الناسَ كانوا يستعينونَ بالنُّجوم في أمورِ حياتِهم، ولهذا نَظَر سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى النُّجوم طبقًا لهذه العادةِ لدَيْهِم، ثم قال لهم: إنِّي مريضٌ اليوم، ولهذا لا أستطيعُ أن أذهبَ معَكم(١).

فَهِمَ قومُه من جوابِه هذا أنّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ عَلِم من رؤيتِه لحركةِ النَّجوم أنه سيمرضُ، وأنه لهذا لا يستطيعُ أن يَخرُجَ معَهم، ولهذا تَرَكوا سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ خلفَهم وخَرَجوا للاحتفالِ بالعيد، في حينَ أنّ ما كان يؤلمُ قلبَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام هو: لماذا لا يتخَلَّى هؤلاءِ عن الشِّرك؟ وقد أثَّر هذا التفكيرُ على صحّةِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وثَقُل عليه، ورَغْم أنّ جوابَ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هذا يبدو ـ في الظاهر ـ كذبًا، لكنّ الحقيقةَ هو أنه ليس كذبًا، وإنما يقالُ له: تَوْرِيةٌ وتعريض، وهو أمرٌ جائزٌ.

التورية والتعريض

المرادُ بالتَّوريةِ والتعريض هو: أسلوبُ الكلام الذي يُعطي للكلام مَعْنيَيْنِ، أحدُهما قريبٌ أو ظاهريّ، والثاني بعيدٌ أو باطنيّ، وبالتالي يقَعُ المخاطَبُ في مُغالطةٍ بسببِ هذا المفهوم الظاهريِّ القريبِ، ولكنّ المتكلِّمَ يقصِدُ المعنى البعيدَ الباطنيَّ لِحكمةٍ عندَه، وهو أيضًا صحيحٌ؛ لأنّ استخدامَ مِثل هذا الكلام لمقصِدٍ

---

(١) «قال ابن عباس: كان قومه يتعاطون علم النجوم، فعاملهم من حيث كانوا يتعاطون ويتعاملون به لئلا ينكروا عليه، وذلك أنه أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجة في أنها غير معبودة، وكان لهم من الغد عيد ومجمع، فكانوا يدخلون على أصنامهم ويقرِّبون لهم القرابين ويضعون بين أيديهم الطعام قبل خروجهم إلى عيدهم، وزعموا التبرك عليه فإذا انصرفوا من عيدهم أكلوه فقالوا لإبراهيم: ألا تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر في النجوم فقال: إني سقيم». تفسير الخازن.

شرعيٍّ أمرٌ جائز[1]، ولمزيدٍ من الأمثلةِ على هذا راجع الحاشيةَ رقم **٥٣** للآية رقم **٦٣** من سُورة الأنبياء (**٢١**).

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾

٣٥ ـ حينَ وَضَع المشركونَ الطّعامَ أمامَ أصنامِهم وخَرَجوا للاحتفالِ بالعيدِ تسَلَّل سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ خُفْيَةً إلى المعبدِ وقال للأصنام: لماذا لا تأكلون؟ لماذا لا تنطِقُون؟ ثم حَمَل الفأسَ بيمينِه وحطَّم بها الأصنامَ، وبعدَ ذلك علَّق الفأسَ على كتفِ الصَّنم الأكبَر، ثم خَرَج من المعبَدِ في هدوءٍ، وعاد من حيثُ جاء.

﴿ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴾

٣٦ ـ عندَما عاد هؤلاءِ الناسُ منَ احتفالِهم في المساءِ تساءلوا: منِ الذي فَعَل هذا بآلهتِنا؟ فقال بعضُهم: لقد سَمِعنا شابًّا يسيءُ إليهم في الحديثِ، واسمُه: إبراهيمُ، ومنَ الممكنِ أن يكونَ هو الذي فَعَل هذا بآلهتِنا. وهكذا أسرَعوا إلى سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وسألوه: هل حَطَّمتَ آلهتَنا؟ فأجابَهم سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قائلًا: لماذا تعبُدونَ آلهةً تنحِتُونَها بأنفُسِكم ولا تستطيعُ حمايةَ نفسِها، بل ولا تستطيعُ أن تَدُلَّكم على اسم مَن حطَّمَها، مع أنَّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَقَكم، وهو القادرُ المطلَق، وهو الذي يستحِقُّ أن يُعبَد.

﴿ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴾

٣٧ ـ لمّا لم يستطع المشركونَ الردَّ على دليلِ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ قرَّروا أن يَبْنوا مبنىً كبيرًا يُشعِلونَ النارَ بداخلِه (مَحْرقةً)، ثم يُلقوا سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ

---

(١) «وهذا ليس بكذب وإنما هو من المعاريض الجائزة لمقصد شرعي». صفوة التفاسير.

في هذه النار، حتى يموتَ مُحترِقًا وينتهيَ أمرُه من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ لا يتجرَّأَ أحدٌ آخَرُ على مخالفةِ الأصنام والإساءةِ إليها. وباختصار: خَطَّطوا لحَرْقِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، لكنّ اللهَ تعالى أفشَلَ إرادةَ المشركين، واستحالتِ النِّيرانُ إلى رَوْضةٍ لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وهذه معجزةٌ عظيمةٌ له عليه السَّلام، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٥٦ للآية رقم ٦٩ من سُورة الأنبياء (٢١).

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

٣٨ ـ حين خَرَج سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ سليمًا معافًى من النِّيران، ولم يؤمنْ به قومُه معَ ذلك، أعلَن أنه سيُهاجِرُ من هناك قائلًا: إنّني ذاهبٌ إلى حيث يَهديني اللهُ تعالى، وهناك أستطيعُ أن أعبُدَ اللهَ تعالى وأن أدعوَ إلى دينِه بكلِّ اطمئنانٍ وحُرِّية.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾

٣٩ ـ حين وَصَل سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ مُهاجِرًا إلى فِلَسطينَ دعا أن يرزُقَه اللهُ تعالى الولدَ الصّالحَ، واستجابَ اللهُ دعاءه، وبشَّره بوَلَدٍ حليم.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾

٤٠ ـ مَن هو الابنُ الذي تقرَّر أن يُذبَح؟

هناك اختلافٌ في مَن كان الابنَ الذي تقرَّر أن يُذبَح؛ هل كان سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ أم سيّدَنا إسحاقَ عليه السَّلام؟ لكنّ الدّلائلَ والقرائنَ تَدُلُّنا على أنّ الابنَ الذي أُمِر سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أن يَذبحَه كان سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلام، وإليك بعضَ الأدِلّةِ فتدبَّرْها:

١ ـ يقولُ العلّامةُ محمّد عليٌّ الصّابونيُّ: «جمهورُ المفسِّرينَ على أنّ هذا الغُلامَ المبشَّرَ بهِ هو «إسماعيلُ»؛ لأنّ اللهَ تعالى قال بعدَ تمام قصّةِ الذَّبيح: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فدَلَّ ذلك على أنّ الذَّبيحَ هو إسماعيلُ»[1]، ولأنّ هذه الواقعةَ حدَثت قبلَ مولدِ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلام.

٢ ـ جاء في الآيةِ رقم ١١٢ من هذه السُّورةِ أنه عندَما بُشِّر سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ بمولدِ ابنِه إسحاقَ قيلَ له في الوقتِ نفسِه: إنه سيكونُ نبيًّا، وفي الآيةِ رقم ٧١ من سُورةِ هودٍ (١١) جاء أنه عندَما بُشِّرت السيّدةُ سارةُ عليها السَّلامُ بمولدِ ابنِها إسحاقَ قيل لها: إنه سيولَدُ لها ابنٌ هو يعقوبُ، ويُعلَمُ من هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أنّ الوالدَيْنِ كانا قد أُخبِرا قبلَ مولدِ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلامُ بأنه سيكونُ نبيًّا، وأنه سيتزوَّجُ عندَما يكبَر، وسيولَدُ له سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام، وبالتالي إذا جاء الحُكمُ بذَبْحِه في طفولتِه وقبلَ النُّبوّةِ والزَّواج، فإنّ سيّدَنا إبراهيمَ كان يَعلَمُ أنه سيكونُ نبيًّا، وأنه سيولَدُ له سيّدُنا يعقوبُ عليه السَّلام، وهذا كلُّه لم يَحدُثْ بعدُ، ولهذا فإنّه لن يموتَ بالذَّبح، وبالتالي فإنّ هذا لم يكنْ بالابتلاءِ الشّديد، ولهذا فإنّ القياسَ يقتضي أن يكونَ الذَّبيحُ هو سيّدَنا إسماعيلَ عليه السّلام؛ لأنه لم تكنْ هناك نُبوءةٌ بأنه سيكونُ نبيًّا أو صاحبَ أولاد، وبالتالي فإنّ ذبحَه كان بمثابةِ الابتلاءِ العظيم فعلًا.

٣ ـ سَكَن سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ فِلَسطينَ والشامَ، وأطلَقَ على أولادِه «بني إسرائيلَ»، بينَما سَكَن سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ مكةَ، وأطلَقَ على أولادِه «العربَ»، والكبشُ الذي ذُبح فِداءً لسيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ ظلَّ قرناهُ معلَّقَيْنِ بالكعبة فترةً طويلةً مثلما قال الشَّعبيُّ: «قد رأيتُ قرنَي الكبشِ في الكعبة»[2].

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير ابن كثير.

كما أنّ مكانَ الذَّبح وتقديمَ القرابينِ يقَعُ في مِنًى بالقربِ من مكةَ، وكان أهلُ مكّةَ في الجاهليّة يُضَحُّونَ في مِنًى كل عام احتفاءً بذِكرى سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسماعيلَ عليهما السَّلام، ويُعلَمُ منه أنّ «المناسكَ والذبائحَ إنّما محَلُّها بمنًى من أرضِ مكّةَ حيث كان إسماعيلُ لا إسحاقُ، فإنّه إنّما كان ببلادِ كنعانَ: من أرضِ الشام»[1].

٤ ـ يقولُ الأصمَعيُّ: «سألتُ أبا عَمْرٍو بنَ العلاءِ عن الذَّبيح؛ إسحاقَ كان أم إسماعيلَ؟ فقال: يا أصمعيُّ، أين ذهبَ عقلُك؟ متَى كان إسحاقُ بمكّةَ؟ إنّما كان إسماعيلَ، وهو الذي بنَى البيتَ معَ أبيه»[2].

٥ ـ يَدَّعي اليهودُ أنّ الذَّبيحَ هو سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلام، ويقدِّمونَ دليلًا على ذلك الآياتِ التاليةَ من التَّوراة: «بعدَ هذا الكلام ابتَلَى اللهُ تعالى إبراهيمَ وقال: يا إبراهيم، اصطحِبِ ابنَك الوحيدَ الذي تحبُّه كثيرًا إلى بلادِ مُورياه، وهناك، على جبلٍ من الجبالِ سأُخبرُك، وهناك قدِّمْه قُربانًا في المحرَقة»[3].

والولَدُ الوحيدُ يقالُ لمَن ليس له إخوةٌ، في حينَ أنه لمَّا وُلِد سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ كان عُمُرُ أخيه الأكبرِ سيّدنا إسماعيلَ عليه السَّلام أربعةَ عشَرَ عامًا، وبالتالي لم يكنْ سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ وحيدًا، أمّا سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ فقد ظَلَّ وحيدًا بالفعل لمدّةِ أربعةَ عشَرَ عامًا قبلَ مولدِ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلامُ مثلَما جاء في الكتابِ المقدَّس: «حين وُلِد سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ للسيّدةِ هاجَرَ عليها السَّلامُ كان عُمُرُ سيّدنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ إذْ ذاك ستةً وثمانينَ عامًا[4]، وحينَ وُلِد سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ للسيّدةِ سارةَ عليها السَّلامُ كان عُمُرُ سيّدِنا

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الحازن.

(٣) سفر الميلاد: ١٦:١٦: الكتاب المقدس الحيّ.

(٤) المرجع السابق.

إبراهيمَ عليه السَّلامُ إذْ ذاك مائةَ عام[١]، ويُعلَمُ من آياتِ الكتابِ المقدَّسِ أنّ الابنَ الأوّلَ لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلام، ولهذا كان هو الابنَ الوحيدَ، وقد حَدَثت واقعةُ الذَّبح هذه حينَ كان عمُرُ سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ ثلاثةَ عشَرَ عامًا[٢]، وقد وُلِد سيّدُنا إسحاقُ عليه السَّلامُ بعدَ ذلك بعام.

٦ ـ يقولُ القرضيُّ: «سَأَلَ عُمُرُ بنُ عبدِ العزيز رجلًا من علماءِ اليهود ـ وكان أَسْلمَ وحسُنَ إسلامُه ـ: أيُّ ابنَيْ إبراهيمَ أمَرَه اللهُ تعالى بذَبْحِه؟ فقال: إسماعيل، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، إنّ اليهودَ لَتعلَمُ ذلك، ولكنْ يحسُدونكم يا معشَرَ العربِ على أن يكونَ أباكم هو الذي أمَرَ اللهُ تعالى بذَبْحِه ويدَّعونَ أنه أسحاقُ أبوهم»[٣].

رؤيا النبي

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: «رُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ»[٤].

ـ عن عائشةَ رضي اللهُ عنها، قالت: قلتُ يا رسولَ الله، تنامُ قَبل أن تُوتِرَ؟ قال: «تنامُ عيني ولا ينامُ قلبي»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: «والنّبيُّ ﷺ نائمةٌ عيناهُ ولا ينامُ قلبُه، وكذلك الأنبياءُ تنامُ أعيُنُهم ولا تنامُ قلوبُهم»[٦].

---

(١) سفر الميلاد: ٢١: ٥: الكتاب المقدس الحيّ.

(٢) «قال المفسرون: وهو سن الثالثة عشرة». صفوة التفاسير.

(٣) تفسير الخازن.

(٤) تفسير القرطبي.

(٥) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٤ برقم ٣٥٦٩.

(٦) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٤ برقم ٣٥٧٠.

امتحان سيدنا إسماعيل عليه السلام

عندَما بَلَغ سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلامُ ابنُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ سِنَّ الثالثةَ عشْرةَ من عمُرِه قال له أبوه: لقد رأيتُ في المنام أنّي أذبَحُك بأمرٍ من اللهِ تعالى، فما رأيُك الآنَ؟ لم تكنْ هذه مشورةً يطلُبُها سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ من ابنِه سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، بحيث لو رَفَض الابنُ هذا الأمرَ فسيَتخلَّى الأبُ عن إرادةِ الذَّبح هذه، وإنّما كان المقصودَ هو الامتحانُ والابتلاء، وقد أجابَ الابنُ السَّعيدُ إجابةً مُرْضِيَةً قرَّتْ بها عَيْنا والدِه، يعني: يا أبَتاهُ، افعَلْ ما تؤمَرُ به، ولو أراد اللهُ فستجدُني من الصابِرين.

محاولة الشيطان

رَوى سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه، عن كعبِ الأحبارِ وابنِ إسحاقَ، عن رجالِه: «لمّا رَأى إبراهيمُ ذَبْحَ ابنِه قال الشّيطانُ: لئن لم أَفتِنْ عندَ هذا آلَ إبراهيمَ لا أفتِنُ منهم أحدًا أبدًا، فتمثَّلَ له الشّيطانُ رجُلًا وأتَى أُمَّ الغلام، فقال لها: هل تَدْرينَ أينَ ذهب إبراهيمُ بابنِك؟ قالت: ذَهَب به يحتَطِبانِ من هذا الشِّعب، قال: لا والله، ما ذَهَب به إلّا لِيذبَحَه، قالت: كلّا، هو أرحَمُ به وأشدُّ حبًّا له من ذلك، قال: إنّه يَزعُمُ أنّ اللهَ قد أمَرَه بذلك، قالت: فإنْ كان ربُّه أمَرَه بذلك فقد أحسَن أن يُطيعَ ربَّه، فخَرَج الشّيطانُ من عندِها، حتّى أدرَكَ الابنَ وهو يمشي على إثرِ أبيه، فقال: يا غُلام، هل تدري أين يذهبُ بك أبوك؟ قال: نَحتَطِبُ لأهلِنا من هذا الشِّعب، قال: واللهِ ما يريدُ إلّا أن يذبَحَك، قال: ولمَ؟ قال: زَعَم أنّ ربَّه أمَرَه بذلك، قال: فلْيفعَلْ ما أمَرَه به ربُّه فسَمعًا وطاعةً، فلمّا امتَنعَ منه الغُلامُ أَقْبل على إبراهيمَ عليه السّلام، فقال له: أين تريدُ أيُّها الشّيخ؟ قال: أريدُ هذا الشِّعبَ لحاجةٍ لي فيه، قال: واللهِ إنّي لَأرى الشّيطانَ قد جاءك في منامِك

فأمَرَكَ بذَبْح ابنِك هذا، فعَرَفَه إبراهيمُ عليه السَّلامُ، فقال: إليكَ عنّي يا عدوَّ الله، فو اللهِ لَأمضِيَنّ لأمرِ ربِّي، فرَجَع إبليسُ بغَيْظِه لم يُصِبْ من إبراهيمَ وآلِه شيئًا ممّا أراد، قدِ امتَنَعوا منه بعَوْنِ الله تعالى»[١].

علم الشيطان للغيب

لم يكنْ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قد أَخْبر زوجتَه وابنَه بأمرِ الرؤيا بعدُ، ولكنّ الشيطانَ عَلِم بها، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧]، يعني: أنّ الشيطانَ لا يظهَرُ لكم، ولكنّه يَراكم في كلِّ وقتٍ وكلِّ مكان، ويَعلَمُ بِنَواياكم في قلوبِكم، والشّيطانُ لا يأتيكم في صُورةِ العدوِّ، وإنّما يأتيكم في صُورةِ الصَّدِيق والناصح لِيخدَعَكم، ولهذا ينبغي أن تعمَلوا جاهدينَ لتجنُّبِ فتنتِه ووساوسِه.

لقد أعطَى اللهُ تعالى الشّيطانَ طاقةً تمكِّنُه من معرفةِ ما يدورُ بخَلَدِ الإنسانِ من أفكارٍ وتصوُّرات، لدرجةِ أنه كان يَعلَمُ برُؤيا نبيٍّ جليلِ القَدْر مثلَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، والتي وَرَدت فيها الإشارةُ إلى ذَبْح سيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام، فإذا كان عِلمُ الشّيطانِ واسعًا إلى هذا الحدِّ الذي يُضِلُّ به الناسَ، فما بالُك بسَعةِ عِلم الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ الذين هم أفضَلُ من كلِّ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، ويُخرِجونَ الناسَ من ضلالاتِ الشياطينِ إلى نورِ الهداية.

يقولُ سيّدُنا ذو النُّون المِصريُّ رحمه اللهُ: «إنْ كان هو يَراك من حيثُ لا تراه فاستعِنْ بمَن يَراهُ من حيث لا يَراهُ، وهو اللهُ القهّارُ الستّار»[٢]. أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرَّجيم، آمين.

---

(١) تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل.
(٢) التفسير المظهري، سورة الأعراف (٧): الآية ٢٧.

رجم الشيطان

نَقَل أبو طُفَيْل، عن سيّدِنا ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ إبراهيمَ لَمّا أُمِر بذَبْح ابنِه عَرَض له الشّيطانُ بهذا المَشعَر فسابَقَه فسَبَقَه إبراهيمُ، ثمّ ذَهَب إلى جَمْرةِ العقَبة فعَرَض له الشّيطانُ فرماهُ بسبعِ حَصَياتٍ حتّى ذَهَب، ثمّ عَرَض له عندَ الجَمْرةِ الوُسطى فرَماه بسَبْع حَصَياتٍ حتّى ذَهَب، ثمّ أدرَكَه عندَ الجَمْرةِ الكبرى فرَماهُ بسَبْع حَصَياتٍ حتّى ذَهَب، ثمّ مضَى إبراهيمُ لأمرِ الله عزَّ وجلّ»[1].

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾

٤١ ـ لَمّا استَعدَّ سيّدُنا إبراهيمُ ووَلَدُه سيّدُنا إسماعيلُ عليهما السَّلامُ من أَجْل التّضحية والذَّبح، قال سيّدُنا إسماعيلُ عليه السَّلام لوالدِه: «يا أبتِ، اشدُدْ رباطي كيلا أضْطَرِبَ، واكفُفْ عن ثيابِك حتى لا يَنتضحَ عليها شيءٌ من دمي فينقُصَ أَجْري وتراه أُمِّي فتحزَنَ، واستَحِدَّ شفرتَك، وأسرِعْ مَرَّ السِّكِّين على حَلْقي ليكونَ أهونَ علَيّ، فإنّ الموتَ شديد، وإذا أَتيْتَ أُمِّي فاقرَأْ عليها السَّلامَ منِّي، وإن رأيتَ أن تَرُدَّ قميصي على أُمِّي فافعَلْ، فإنه عسى أن يكونَ أَسْلَى لها عنِّي، (وأضاف سيّدُنا إسماعيلُ قائلًا: يا أبتاهُ، حين تَهُمُّ بذَبْحي فاجعَلْني على بطني وظهري لكَ، لأنه إذا وَقَع بصَرُك على وَجْهي عندَ الذَّبح فسيَرِقُّ قلبُك، وستَحُولُ هذه الرِّقةُ بينَك وبينَ تنفيذِ حُكم اللهِ تعالى. «ترى ماذا كان شعورُ هذا الأبِ الشَّيخ حين سَمِع هذا الكلام من ابنِه الوحيد»). فقال إبراهيمُ عليه السَّلام: نِعمَ العَوْنُ أنت يا بُنيَّ على أمرِ الله، ففَعَل إبراهيمُ ما أمَرَه به ابنُه، ثم أَقْبل عليه يُقَبِّلُه وهُو يبكي وقد رَبَطَه والابنُ يبكي، ثم إنه وَضَع السِّكِّينَ على حَلْقِه فلم تَحُكَّ شيئًا. ثم إنه حَدَّها مرَّتَيْنِ أو ثلاثًا بالحجرِ، كلُّ ذلك لا يستطيعُ أن يقطَعَ شيئًا»[2].

---

(١) تفسير معالم التنزيل.

(٢) تفسير الخازن.

﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

٤٢ ـ الرُّؤيا التي رَآها سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ لم يكنْ فيها أنه ذَبَحَه حتى صَعِدت رُوحُه إلى بارئها، وإنّما رأى أنه يَذبَحُه، وبينَما كان سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ منهمِكًا في ذَبْح ابنِه سيِّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلامُ في منًى إذا هَتَف هاتفٌ: يا إبراهيمُ، لقد حَقَّقتَ الرُّؤيا وصَدَّقتَها، فلم يَمُتْ سيِّدُنا إسماعيلُ ذَبْحًا في الرُّؤية، ولم يكن المقصودُ ذَبْحَه أصلًا، وإنّما كان الأمرُ امتحانًا لك، وقد نَجَحْتَ فيه، ولهذا فإنّنا قد فَدَيْنا ابنَك بكَبْشٍ عظيم. ثم التَفتَ سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ فرأى سيِّدَنا جِبريلَ عليه السَّلامُ واقفًا ومعَه كبشٌ جميل، وهو الذي ذَبَحَه سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام.

وقد قيلَ له: الذِّبْحُ العظيمُ لأنّ هذا الكبشَ جاء من اللهِ تعالى، وقد حَدَثت واقعةُ الذَّبح هذه في العاشرِ من ذي الحِجّة في منًى، وهي الذِّكرى التي نحتفي بها حتى اليوم وإلى قيام الساعة.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيّ: «ورُوي أنّه لَمّا ذَبَحه قال جِبريلُ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبر. فقال الذَّبيح: لا إلَه إلّا الله واللهُ أكبر. فقال إبراهيم: اللهُ أكبر ولله الحمدُ، فبقيَ سُنّةً»[1].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾

٤٣ ـ لأنّ أجرَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ هو الأعظَم، لهذا يكونُ ابتلاؤهم هو الأعظمَ أيضًا، فقد عَرَّض سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ قبلَ ذلك رُوحَه لنارِ النَّمرود، ثم هاجَرَ من البلاد، ثم قَدَّم ابنَه الوحيدَ قُرباناً وهو في مرحلةِ الشَّيخوخة، وبعدَ نجاحِه في كلِّ هذه الاختباراتِ أَنْعم اللهُ تعالى عليه بشأنٍ متميِّز خاصٍّ به، وأَجْرى ذكرَه بالخيرِ عندَ كلِّ الأنبياءِ الكرام الذين جاءوا من بعدِه، وعندَ كلِّ الأُمم التاليةِ له، بمعنى: أنّ

---

(١) تفسير القرطبي.

أهلَ الإيمانِ سيظَلُّونَ يُصَلُّونَ ويُسلِّمونَ عليه إلى قيام السّاعة، والمسلمونَ يُصَلُّونَ ويُسلِّمونَ على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السّلامُ وعلى آلِه في كلِّ صلاةٍ، ويُجدِّدونَ في كلِّ عام ذكرى أهلِ بيتِه، مِثلَ التّضحيةِ وتكبيرِ التشريق والسعيِ بينَ الصَّفا والمَرْوةِ، وكلُّها ذِكرى له.

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

٤٤ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ الأمرَ بالذَّبح كان متعلِّقًا بسيّدِنا إسماعيلَ عليه السَّلام؛ لأنّ اللهَ تعالى بَشَّر بمولدِ سيّدِنا إسحاقَ عليه السَّلامُ بعدَ أنْ بيَّنَ واقعةَ الذَّبح بأكملِها.

﴿ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾

٤٥ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى برَكاتٍ كثيرةً على سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسحاقَ عليهما السَّلام، يعني: بَعَث من أولادِهما أنبياءَ كثيرينَ، ومعَ ذلك كان من بينِ أولادِهما الصالحُ والظالمُ أيضًا، ولهذا لا ينبغي أن يعيشَ أحدٌ مغترًّا بصلاح أبيه فقطْ، وإنّما يجبُ أن تكونَ أعمالُه هو أيضًا صالحةً؛ لأنّ البشَرَ جميعًا في هذه الدُّنيا هم ـ في نهايةِ الأمر ـ أولادُ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، أي: أولادُ نبيٍّ واحد، ولكنّ منهمُ الكافرَ ومنهمُ الظالمَ كذلك، ومنهمُ المؤمنَ والمتَّقيَ أيضًا.

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ

ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

٤٦ ـ الأَفْضالُ التي تفضَّلَ اللهُ تعالى بها على سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ مَرَّ ذِكرُها في مواضعَ متفرِّقةٍ، على سَبيل المثال: نَجّاه اللهُ تعالى من الموتِ عند مولدِه، وهيَّأ له أن يتربَّى في بيتِ الفِرعَون، ولمزيدٍ من التفصيل يمكنُكَ مراجعةُ حواشي الآياتِ من ٣٨ إلى ٤٠ من سُورة طه (٢٠)، ثم إنَّ اللهَ تعالى أَنْعمَ عليه بالنُّبوةِ والتَّوراةِ والمعجِزات، كما أَنْعم على أخيه هارونَ عليه السَّلامُ بالنُّبوةِ أيضًا، ثم نَجّاهما وقومَهما منَ استعبادِ الفِرعَون وظُلمِه لهم، ومكَّنهم من مُلكِه، ولمزيدٍ من التفصيل راجعْ حاشيةَ الآية رقم ٥٠ من سُورة البقرة (٢).

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

٤٧ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا إلياسَ عليه السَّلامُ نبيًّا إلى مدينةِ بَعلبَكَّ بلبنانَ، وكان الناسُ هناك يعبدونَ صنمًا يُدعَى «بَعْلًا»، فقال لهم سيّدُنا إلياسُ عليه السَّلامُ: اتَّقوا عذابَ الله تعالى، ولا تعبُدوا صنمًا صنَعَتْه أيديكم؛ لأنه لا يستحِقُّ العبادةَ، ولكنِ اعبُدوا خالقَكم الحقيقيَّ الذي هو ربُّكم وربُّ آبائكم وأجدادِكم، لكنّهم كذَّبوا

سيّدَنا إلياسَ عليه السَّلام، فأهلَكَهم اللهُ تعالى، ولم يَنجُ من العذابِ سوى عبادِ الله المخلَصينَ المطيعين.

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾

٤٨ ـ جَعَلَ اللهُ تعالى ذِكرَ سيّدِنا إلياسَ عليه السَّلامُ بالخيرِ باقيًا، فالأنبياءُ من بعدِه والمؤمنونَ يؤمنونَ به نبيًّا، ويُسلِّمونَ عليه، ويُقرَأُ اسمُ سيّدِنا إلياسَ عليه السَّلامُ ويُكتَبُ كذلك «إلْ ياسين»، مثلَما قيلَ لطُور سَيْناء ﴿وَشَجَرَةً تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٍ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠] في موضعٍ آخَرَ من القرآنِ الكريم: «طُورُ سِينِينَ»: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]، معَ أن الاسمَيْنِ لجبلٍ واحدٍ فقطْ.

﴿ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾

٤٩ ـ حين اقترَبَ وقتُ نزولِ العذابِ على قوم لوطٍ أَخْرج اللهُ تعالى سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ وأهلَ بيتِه من هناك، إلّا أنّ زوجةَ سيّدِنا لوطٍ العجوزَ تخلَّفت عنهم؛ لأنها كانت كافرةً، وهَلَكت هي الأخرى معَ باقي الكفّار.

﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴾

٥٠ ـ هنا خطابٌ لأهل مكّةَ، أنّكم تمُرُّونَ في أسفارِكم التِّجاريّةِ إلى الشّام صباحًا ومساءً بقُرى قوم لوطٍ المدمَّرة، وهم الذين أُمطِروا بالحجارة، ألا تستعمِلونَ عقولَكم وتفكِّرونَ بأنّكم إن أقمتُم على تكذيبِكم للنبيِّ الكريم ﷺ؟ فقد ينزلُ عليكم مِثلُ هذا العذابِ أيضًا.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿١٤٢﴾ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴾

٥١ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ نبيًّا إلى نِينَوَى بالعراق، وقد نَهى أهلَ نِينَوى عن الشِّركِ ودعاهم إلى التوحيد، لكنّهم كذَّبوه، وازدادوا طُغيانًا وتمرُّدًا، فأنذَرَهم سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ بالعذاب، وبأنّ هذا العذابَ سينزلُ عليهم في غضونِ ثلاثةِ أيام، وغَضِبَ هو نفسُه من هؤلاءِ الناسِ وخَرَج من عندِهم، ولم ينتظرْ وحيًا من اللهِ تعالى بخصوصِ الهجرة، ورَغْمَ أنّ الرحيلَ عن بلادِ أمثالِ هؤلاءِ المشركينَ المُعانِدينَ والهجرةَ منها أمرٌ مستحسَنٌ لعامّةِ المؤمنين، لكنّ الذي يليقُ بنبيٍّ من الأنبياءِ هو أن ينتظرَ الوحيَ.

يقولُ العلّامةُ الرازي: «فركِبَ معَهم، فلمّا تلجَّجَتِ السّفينةُ تكفَّأتْ بهم وكادوا أن يَغرَقوا، فقال المَلّاحونَ: هاهنا رجلٌ عاصٍ أو عبدٌ آبِقٌ؛ لأنّ السّفينةَ لا تفعَلُ هذا من غيرِ ريحٍ إلّا وفيها رجلٌ عاصٍ، ومِن رَسْمِنا أنّا إذا ابتُلينا بمِثلِ هذا البلاءِ أن نَقترعَ، فمَن وَقَعت عليه القُرعةُ ألقَيْناهُ في البحر، ولَأن يَغرَقَ واحدٌ خيرٌ من أن تَغرقَ السّفينةُ، فاقتَرعوا ثلاثَ مرّاتٍ فوَقَعت القُرعةُ فيها كلُّها على يونُسَ عليه السّلام، فقال: أنا الرّجُلُ العاصي والعبدُ الآبِق، وألقَى نفسَه في البحر، فجاء حوتٌ فابتَلَعَه، فأوحَى اللهُ تعالى إلى الحوتِ: لا تؤْذِ منه شعرةً، فإنّي جَعَلتُ بطنَك سِجنًا له ولم أجعَلْه طعامًا لك»[1].

خَرَج سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ دونَ أن ينتظرَ الوحيَ، وكان يتصوَّرُ أنه لا يرتكبُ بذلك خطأً، ولهذا لن يؤاخِذَه اللهُ تعالى على ذلك، ولكنّه شَعَر وهُو في بطنِ الحوتِ أنّ رحيلَه قبلَ نزولِ الأمر بالهجرةِ كان اجتهادًا خاطئًا منه، ولهذا نَدِم، وأخَذ يَذكُرُ اللهَ تعالى، ثم ألقَى به الحوتُ بأمرِ الله تعالى في منطقةٍ صخريّةٍ على شاطئِ البحر، فقال اللهُ تعالى: إنّ يونُسَ رسولي وذاكرٌ لي، ولو لم يكنْ من المسبِّحينَ لي لَبقيَ في بطنِ الحوتِ حتى قيامِ الساعة.

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾

٥٢ ـ كان سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ قد أصابَه ضعفٌ شديدٌ بسببِ مكوثِه في بطنِ الحوتِ لعدّةِ أيام، فأَنْبت اللهُ تعالى له شجرةَ يَقْطينٍ في هذا المكانِ الصَّخريِّ الذي لا تَنبُتُ فيه شجرةٌ، وليس فيه بيتٌ من البيوت. ورَغْم أنّ نباتَ اليقطينِ يمتَدُّ على الأرضِ، لكنّ معجزتَه عليه السَّلامُ كانت أنّ هذا النباتَ تحوَّلَ إلى شجرةٍ ذاتِ

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٨٧.

أغصانٍ تُظلِّلُ عليه، كما أنّ ماعزًا كانت تأتي إليه كلَّ يوم صباحًا ومساءً ـ بأمرِ الله تعالى ـ لكي تَسقيَه من لبنِها[١]، وبعدَ عدّةِ أيام حينَ تحسَّنت صحةُ سيّدِنا يونُسَ عليه السّلامُ وزال ضَعْفُه، عاد من جديدٍ إلى قومِه بأمرِ الله تعالى، وكان تَعدادُهم مائةَ ألفٍ أو يزيدُ. وحينَ رآه قومُه فَرِحوا كثيرًا، وآمَنوا به عليه السَّلامُ، ثم مات بعدَ ذلك مِيتةً طبيعيّةً بانتهاءِ أَجَلِه.

يقولُ حسَنُ ابنُ عساكرَ: إنه بعدَ أن تحسَّنت صحةُ سيّدِنا يونُسَ عليه السَّلامُ مرَّ بأحدِ الرُّعاةِ فسألهُ عليه السَّلام: كيف حالُ يونُس؟ فأجابه: لا أعلمُ عن حالِه شيئًا، لكنّه كان أصلحَ الناسِ وأصدَقَهم، وقد حَذَّرنا من العذاب، ثم ظَهَرت علاماتٌ على نزولِ العذابِ فعلًا كما أخبَرَنا، فتُبنا جميعًا إلى الله تعالى، وأكرَمَنا اللهُ برحمتِه، والآنَ نحن نبحثُ عن سيّدِنا يونُسَ عليه السَّلامُ أين يمكنُ أن يكون، ولكنَّنا إلى الآنَ لم نعثُرْ له على أثرٍ. فسألهُ سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام: هل أجدُ لدَيْكَ لبنًا؟ فأجاب: قَسَمًا بمَن أكرَم سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلام، منذُ أنْ رَحَل عنّا سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ لم تُمطِرْنا السماءُ، ولم يَنبُتْ نباتٌ. فقال سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام: أحضِرْ ليَ شاةً. ففَعَل الرجلُ، وحينَئذٍ مَرَّ سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ بيدِه على بطنِ الشاة، ثم قال له: الآنَ احلِبْ لبنَها بأمرِ الله، فحَلَبَه، وشربَ سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلامُ هذا اللَّبَن، فقال الراعي: لو كان سيّدُنا يونُسُ حيًّا فهو أنت. فقال عليه السَّلام: أنا يونُسُ فعلًا، فاذهَبْ إلى قومِك وبلِّغْهم سلامي. قال الراعي: لقد أعلَنَ المَلِكُ أنَّ مَن يأتيني بخبرٍ يقولُ: إنه رأى سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلام، ويُقدِّمُ لي دليلًا على صِدقِ ما يقولُ فسأُعطيه مُلكي، وأنا لا أقولُ هذا الكلامَ بغيرِ دليل. فقال سيّدُنا يونُسُ عليه السَّلام: خذْ هذه الشاةَ، وهي التي ستشهَدُ بأنّني شربِتُ لبنَها. وبالفعل، أَخَذ الراعي الشاةَ وذَهَب،

---

(١) تفسير خزائن العرفان وتفسير نور العرفان.

وشهِدتِ الشاةُ، ثم اصْطَحَب الراعي قومَه ووَصَل إلى ذلك المكانِ الصَّخريِّ حيث رأى سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلام، وبَحَث هؤلاءِ عن سيّدِنا يونُسَ عليه السلام، فوجَدوه في هذا المكانِ يُصلِّي، وفرِحَ الناسُ كثيرًا حتى بَكَوْا من الفرحة، ثم اصْطَحبوا سيّدَنا يونُسَ عليه السَّلامُ بكلِّ احترامٍ وإجلال إلى بلدِهم، وقال هؤلاءِ الناسُ للراعي: إنك سيّدُنا، وليس بينَنا من يَفُوقُكَ مكانةً ومقامًا، ولن نُخالفَك في أمرٍ أبدًا، وهكذا ظلَّ هذا الراعي يَحكُم هؤلاء لأربعينَ عامًا[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾

٥٣ ـ كان أكثرُ العربِ يكرَهونَ البناتِ، في حينَ كانت بعضُ القبائلِ تعتبرُ الملائكةَ بناتِ الله تعالى، وفي هذه الآياتِ يَسألُ العربَ: هل لديْكم دليلٌ على أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى؟ وهل كنتُم موجودينَ حين خَلَق اللهُ تعالى الملائكةَ؟ وهل رأيتُم بأنفُسِكم أنّ الملائكةَ إناثٌ فعلًا؟ أو هل لديْكُم دليلٌ مكتوبٌ، أي: هل ذَكَر أيُّ كتابٍ سَماويٍّ هذا الذي تقولونَ؟ فإنْ لم يكنْ لديْكُم أيٌّ من هذه الأدِلّة، ومن المؤكَّدِ أنه ليس لدَيْكم فعلًا، فكم من الحُمقِ وسُوءِ الأدبِ أن تُحبُّوا لأنفُسِكم الذُّكور، وتجعَلوا لله الإناثَ، في حينَ أنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن الوَلَدِ، وبالتالي فإنّ القولَ بأنّ لله وَلَدًا كذبٌ صريحٌ وبُهتانٌ عظيم.

﴿ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴾

٥٤ ـ يقولُ العلّامةُ محمّد علي الصّابونيُّ: «جَعَل المشركونَ بينَ اللهِ وبينَ الجِنِّ قرابةً ونَسبًا، حيث قالوا: إنه نكَح من الجِنِّ فوَلَدت له الملائكةَ... لقد

---

(١) تفسير تبيان القرآن، ٩: ٩٦٠.

عَلِمتِ الشياطينُ أنّهم مُحضَرونَ في العذاب»[١]، ويُعلَمُ منه أنه لا علاقةَ قرابةٍ بينَ الله تعالى وبينَ الجِنِّ، ولو كانت هناك قرابةٌ لله تعالى معَ الجِنِّ لَعفا اللهُ تعالى عن طُغيانِهم وتمرُّدِهم، ولَما ألقَى بهم في عذابِ جهنَّم.

﴿إِلَّاعِبَادَٱللَّهِٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

٥٥ ـ عبادُ الله المخلَصونَ لا يقولونَ أبدًا عن اللهِ تعالى مِثلَ هذا الكلام الذي يقولُه المشركونَ عنه، ولهذا سيَخلُدُ المشركونَ في عذابِ جهنَّم إلى الأبدِ بسببِ طُغيانِهم وتمرُّدِهم، بينَما سيَدخُلُ عبادُ الله المخلَصونَ الجنّةَ.

﴿مَآأَنتُمۡعَلَيۡهِبِفَٰتِنِينَ﴾

٥٦ ـ هنا خطابٌ للمشركينَ بأنّكم وآلِهَتكم لا تستطيعونَ ـ مجتمِعينَ ـ إضلالَ أحدٍ بغيرِ إذْنِ الله تعالى، باستثناءِ الشّخصِ الذي قَدَّر اللهُ تعالى عليه أنه من أهلِ جهنَّمَ بسببِ طُغيانِه، فمِثلُ هذا الشّخصِ سيَدخُلُ جهنَّمَ على أيِّ حال.

﴿وَمَامِنَّآإِلَّالَهُۥمَقَامٞمَّعۡلُومٞ﴾

٥٧ ـ كان المشركونَ يعتقدونَ أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وهنا يأتي كلامُ الملائكة أنفُسِهم إبطالًا لاعتقادِ المشركينَ هذا، بمعنى: أنّ لكلِّ واحدٍ منّا ـ نحن الملائكةَ ـ دائرةً محدَّدةً، ونحن نقفُ في إطارِها صفوفًا نعبدُ اللهَ ونسبِّحُه، ونُطيعُه في كلِّ وقت.

﴿لَكُنَّا عِبَادَٱللَّهِٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾

٥٨ ـ عندَما كان كفّارُ مكّةَ قبلَ مجيءِ النبيِّ ﷺ يسمَعونَ عن التَّوراةِ والإنْجيلِ

---

(١) صفوة التفاسير.

الذي نَزَل على اليهودِ والنَّصارى، كانوا يقولونَ: لو جاءهم أيضًا كتابٌ سَماويٌّ لَما طَغَوْا مِثلَ اليهودِ والنَّصارى، وإنّما كانوا سيعمَلونَ بما فيه، ولَكانوا عبادًا مخلَصينَ لله تعالى، ولكنْ حين حقَّق اللهُ تعالى أُمنيتَهم هذه، وأرسَلَ إليهم النبيَّ ﷺ بالقرآنِ المَجيد، أنكَروه وكفَروا به تعصُّبًا وعِنادًا، وسوف يَعلَمونَ قريبًا العاقبةَ الوخيمةَ لإنكارِهم هذا.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٥٩ ـ وَعَد اللهُ تعالى أنبياءَه ورسُلَه أن يَنصُرَهم ويُعينَهم، وأن تكونَ الغَلَبةُ لدينِهم، وهذه الغَلَبةُ يمكنُ أن تكونَ ظاهريّةً وماديّةً أيضًا مثلَما كانت الغَلَبةُ الماديّةُ للإسلام لقرونٍ عديدة، ثم لم تستمرَّ هذه الغَلَبةُ الماديّةُ بسببِ تقصيرِ المسلمينَ أنفُسِهم. كما يمكنُ أن تكونَ هذه الغَلَبةُ معنويّةً ودينيّةً أيضًا، يعني: أنه لا يمكنُ لأحدٍ أن تكونَ له الغَلَبةُ على الإسلام في ميدانِ الأدِلّةِ والبراهين، وهذه حقيقةٌ واضحةٌ وضوحَ الشمسِ في كلِّ عصرٍ وزمان، واليومَ أيضًا وبرَغْم عَدَم تحقُّق الغَلَبةِ الظاهريّةِ للإسلام فإنه أكثرُ الأديانِ انتشارًا في العالَم بفَضْل دلائلِه القويّةِ ونظريّاتِه الرائعة.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

٦٠ ـ يقولُ اللهُ تعالى للنبيِّ الكريم ﷺ: لا تَحمِل السّيفَ ضدَّ المشركينَ لفترةٍ، واعْفُ عن إيذائهم لك، وانتظِرْ، فسوفَ تأتيك نُصرتُنا قريبًا، وسوف يرَوْنَ بأنفُسِهم عاقبتَهمُ الوخيمةَ، مثلَما حَدَث لهم يومَ غزوةِ بدرٍ وفَتْح مكة.

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

٦١ ـ كان النبيُّ ﷺ يُحذِّرُ كفّارَ مكّةَ من العذابِ بأنّكم إنْ لم تَرجِعوا عن عصيانِ الله تعالى فسوف يَنزِلُ العذابُ عليكم، لكنّهم كانوا يَسخَرونَ منه ﷺ

قائلين: لماذا لم يأتِنا إلى الآنَ ذلك العذابُ الذي تُخوِّفُنا منه؟ فأجابَهم النبيُّ ﷺ بأمرٍ من اللهِ تعالى بأنّ للعذابِ يومًا محدَّدًا، وحين يَنزِلُ العذابُ عليهم سيكونُ ذلك اليومُ في غايةِ السُّوءِ بالنِّسبة لهم، وهكذا كان يومُ بدرٍ لهم يومًا في غايةِ السُّوء، حيث قُتِل أحِبّاؤهم، وواجَهوا هزيمةً منكَرةً، أمّا العاقبةُ التي سيُواجِهُها هؤلاءِ الكفّارُ يومَ القيامة فستكونُ أكثرَ سوءًا.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

٦٢ ـ اللهُ تعالى منزَّهٌ عن الشُّركاءِ الذين اتَّخَذهم المشركونَ لله تعالى، وكذا عمّا كانوا ينسُبونَه إليه من الإناثِ، فهو المستَغْني، ولا حاجةَ له بشريكٍ أو وَلَد.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

٦٣ ـ لقد بَلَّغ الأنبياءُ الكرامُ جميعًا عليهمُ السَّلامُ رسالةَ الله تعالى إلى عبادِه، وبَذَلوا قُصارَى جُهدِهم لهداية بني الإنسان، ولهذا فإنّهم يستحِقُّونَ السَّلامَ عليهم. يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا سَلَّمتُم عليَّ فسَلِّموا على المرسَلينَ، فإنّما أنا رسولٌ من المرسَلين»[1].

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٦٤ ـ اللهُ تعالى ربُّ العالَمينَ جميعًا، ولهذا فإنّ المستحِقَّ الحقيقيَّ لكلِّ حمدٍ وثناءٍ هو اللهُ تعالى أيضًا.

فضائل الآيات الثلاث الأخيرة

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ غيرَ

(١) تفسير القرطبي.

مرّةٍ ولا مرّتينِ يقولُ في آخِر صلاتِه أو حين ينصرفُ: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾[1].

ـ يقولُ الشَّعبيُّ: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن سرَّه أن يكتالَ بالمِكيالِ الأَوْفى من الأَجْر يومَ القيامة فلْيقُلْ آخِرَ مجلسِه حين يريدُ أن يقوم: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾»[2]، وأنا أيضًا أختِمُ تفسيري لهذه السُّورةِ بتلاوةِ وكتابةِ هذه الآياتِ الثلاثِ الأخيرة ﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة المغرب من يوم السبتِ ١٣ فبراير ٢٠١٠م
الموافق ٢٨ صفر ١٤٣١هـ.

وقدِ اكتمَل تفسيرُ سُورةِ الصّافاتِ بفَضْلِ اللهِ تعالى وكرَمِه في خمسةَ عشَرَ يومًا فقطْ، أي: من ٢٩ ينايرَ إلى ١٣ فبراير، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير القرطبي.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٣٨) سورة ص

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «ص»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

مضامين السورة

١ ـ القرآنُ المَجِيدُ نصيحةٌ لبني الإنسانِ جميعًا، لكنّ كفّارَ مكّةَ أنكَروهُ بسببِ تكبُّرِهم، وهذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد أنكَرت أُممٌ سابقةٌ عديدةٌ الكتُبَ السَّماويةَ، وأُهلِكوا عقابًا لهم على ذلك، وإنْ لم يَرجِعْ كفّارُ مكّةَ عن تكبُّرِهم فيمكنُ أن يأتيَهم العذابُ أيضًا.

٢ ـ كان كفّارُ مكّةَ يعبُدونَ آلهةً متعدِّدة، وحين دعاهمُ النبيُّ ﷺ إلى عبادةِ الله الواحدِ بَلَغتْ بهم الدَّهشةُ والحَيْرةُ مداها، وقالوا غاضبينَ: كيف يمكنُ أصلًا أن يُسيِّرَ إلهٌ واحدٌ فقطْ هذا النظامَ الهائلَ للكائنات؟ إنّ هذا لَأمرٌ عجيبٌ وغريبٌ لا يمكنُ أن يقبَلَه العقلُ، ولهذا فإنّ هذا الشخصَ ـ والعياذُ بالله ـ ساحرٌ وكاذب.

٣ ـ جاء فيها ذِكرُ الأنبياءِ الكرام السابقينَ عليهم السَّلامُ وأقوامِهم العُصاةِ بغَرَض التَّسريةِ عن قلبِ النبيِّ ﷺ، بأنه إذا كان كفّارُ مكةَ يخالفونَك فلا تحزَنْ ولا تغتَمَّ، لقد واجَهَ الأنبياءُ السابقونَ عليهم السَّلامُ أقوامًا مثلَ هؤلاء، فصَبَروا عليهم، وعليك أنت أيضًا أن تصبِرَ على قومِك.

٤ ـ جاء فيها بيانٌ تفصيليٌّ لقصّةِ كونِ الشّيطانِ رجيمًا ولعينًا، وفيها قال اللهُ تعالى: إنّ من يتّبعُ الشيطانَ سيَدخلُ جهنَّمَ معَه.

٥ ـ في نهايةِ السُّورةِ قال النبيُّ ﷺ: إنّني لا أطلُبُ منكم أجرًا على دعوتِكم إلى القرآنِ المجيدِ وتبليغي لكم إياه، ولا أنا متكلِّفٌ في ذلك، وإنّما الحقيقةُ هي أنّ القرآنَ المجيدَ نصيحةٌ لكلِّ العالَمين، وأنتم تُنكرونَ هذه الحقيقةَ اليومَ، لكنِ اسمَعوا جيّدا، سيأتي قريبًا وقتٌ تعترفونَ فيه ـ شئتُم أم أبَيْتُم ـ بأنّ القرآنَ المجيدَ بالفعل نصيحةٌ كلُّه للعالَمينَ جميعًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الاثنين ١٥ فبراير ٢٠١٠م
الموافق الأول من ربيعٍ الأول ١٤٣١هـ.

* * *

سُورَةُ صٓ (٣٨)،

مكية (٣٨)، آياتها (٨٨)، ركوعاتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾

﴿صٓ﴾

١ ـ هذه من الحروفِ المقطَّعاتِ التي هي سِرٌّ بينَ الله تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجعِ الحاشيةَ الأولى من سُورة البقرة.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾

٢ ـ النَّصائحُ الواردةُ في القرآنِ الكريم في غايةِ الكمال، والعمَلُ بها يَجعَلُ

دنيا الإنسانِ وآخرتَه طيِّبةً جميلةً، ولكنّ الذين ينكرونَ القرآنَ المَجيدَ والنبيَّ ﷺ لا ينكرونَهما بسببِ أنّهم رأَوْا في القرآنِ الكريم أو في النبيِّ ﷺ عيبًا، وإنّما سببُ إنكارِهم هو أنّهم مُبتَلَوْنَ بالتكبُّرِ والعِناد، وهو ما يمنَعُهم من التدبُّرِ في رسالةِ القرآن الكريم.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾

٣ ـ يعني: أنّ كثيرًا من الأُمم السّابقةِ أنكَروا الأنبياءَ السّابقينَ عليهمُ السَّلامُ والكتُبَ السّماويةَ تكبُّرًا وعِنادًا، وحيَن نَزَل عليهمُ العذابُ بسببِ كفرِهم أخَذَتْهم المفاجأةُ، فأرادوا التوبةَ إلى اللهِ تعالى، ولكنّ وقتَ التوبةِ كان قد فات؛ لأنّ التوبةَ التي تكونُ عندَ رؤيةِ العذابِ لا تُقبَلُ، وفي هذه الآيةِ تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنْ يَعتبِروا من أحوالِ الأُمم السّابقة، ويَرجِعوا عن مخالفتِهم للقرآنِ الكريم، وإلّا فيمكنُ أن ينزِلَ عليهم أيضًا العذابُ.

﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾

٤ ـ كان سادةُ الكفّارِ يعجَبونَ كثيرًا بأنه إذا كان اللهُ تعالى لا بدَّ مرسِلًا رسولًا من البشَر، فلماذا لم يختَرْ نبيًّا من سادتِهم الأغنياء؟ والآنَ هذا أمرٌ يسبِّبُ لنا حرجًا بالغًا، بأن نكونَ سادةً، ومعَ ذلك نتَّبعُ شخصًا عاديًّا، وبسببِ هذا التكبُّر كانوا يقولونَ عن مُعجِزات النبيِّ ﷺ: سِحرٌ، وحين يُتلَى عليهم كلامُ الله تعالى كانوا يقولون: إنّ محمّدًا ﷺ هو الذي يؤلِّفُ هذا الكلامَ من عندِ نفسه ثم يَنسُبُه إلى اللهِ تعالى، ولهذا فهو ـ والعياذُ بالله ـ كاذبٌ.

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾

٥ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبي: «لمّا أَسْلم عُمرُ بنُ الخطّابِ رضي اللهُ عنه شَقَّ

على قريشٍ إسلامُه، فاجتَمَعوا إلى أبي طالبٍ وقالوا: اقضِ بينَنا وبينَ ابنِ أخيك. فأَرسَل أبو طالبٍ إلى النّبيِّ ﷺ فقال: يا ابنَ أخي، هؤلاء قومُك يسألونَك السَّواءَ، فلا تَمِلْ كلَّ المَيْل على قومِك. قال: «وماذا يسألونني؟». قالوا: ارفُضْنا وارفُضْ ذِكرَ آلهتِنا وندَعْك وإلهَك. فقال النّبيُّ ﷺ: «أتعطونَني كلمةً واحدةً وتملِكونَ بها العربَ وتَدِينُ لكم بها العجَم؟» فقال أبو جهلٍ: لله أبوك، لَنُعطيَنَّكها وعشْرَ أمثالِها. فقال النّبيُّ ﷺ: «قولوا: لا إلَه إلّا الله»، فنَفَروا من ذلك وقاموا، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فكيف يسَعُ الخلقَ كلَّهم إلهٌ واحدٌ؟ فأَنْزلَ اللهُ فيهم هذه الآياتِ»[١].

فصاحة القرآن المجيد

جاء في هذه الآية لفظ ﴿عُجَابٌ﴾، وقد سَمِعتُ وأنا في مرحلةِ التعليم الإبتدائيِّ روايةً عن هذا اللَّفظ نَقَلَها الدكتورُ وهبةُ الزُّحَيلي في مقدِّمةِ «تفسيرِه المنير»، يعني: أنه بيَّنها باختصارٍ في صفحة ٣٦ من الجزءِ الأول، وخلفيّةُ هذه الرواية وتفصيلُها كما يلي:

ذاتَ مرةٍ اجتَمع بعضُ أهلِ اللُّغة من الكفّار، واستَخْرَجوا ثلاثةَ ألفاظٍ من القرآنِ الكريم، أي: «عُجَاب: عجيبٌ للغاية» و«هُزُوًا: سُخْرِيةً» و«كُبّارًا: كبيرًا للغاية»، وجاءوا إلى النبيِّ ﷺ وادَّعَوْا أنّ هذه الألفاظَ الثلاثةَ غيرُ فصيحة، ولهذا لو كان القرآنُ المجيدُ كلامَ الله تعالى لَما جاءت فيه هذه الألفاظُ الثلاثةُ غيرُ الفصيحة. فقال النبيُّ ﷺ: مَن يَحكُمُ بأنّ هذه الألفاظَ غيرُ فصيحة؟ قالوا: إنّ فلانًا شيخٌ كبيرٌ، وهو معيارٌ للُغتِنا، فهو لم يَقُلْ يومًا لفظًا غيرَ فصيح أبدًا، وبالمصادَفةِ مَرَّ هذا الرجلُ من هناك، فجاء إلى النبيِّ ﷺ وجلسَ ليُصافحَه، وعندَئذٍ وَقَف النبيُّ ﷺ، وحين وَقَف هو جلسَ النبيُّ ﷺ،

---

(١) تفسير القرطبي.

وهكذا عندَما اضْطُرَّ هذا الشّيخُ إلى الوقوفِ والجلوسِ مراتٍ عديدةً غَضِب وقال: أتتَّخذُني هُزُوًا؟ إنّي شيخٌ كُبّارٌ، وإنّ هذا لَشيءٌ عُجَابٌ! هكذا استَعملَ هذا الشّيخُ دفعةً واحدةً نفسَ الألفاظِ التي كان هؤلاءِ الكفّارُ يعتبرونَها غيرَ فصيحة، ويُعلَمُ منه أنّ استخدامَ هذه الألفاظِ وقتَ الغضبِ وعندَ التعبيرِ عنه مطابِقٌ تمامًا للفصاحة، ولهذا عَمَد النبيُّ ﷺ إلى أن يُثيرَ غَضَبه، وحيثُما استُعمِلتْ هذه الألفاظُ في القرآنِ المَجيد كان المقصودَ منها هو التعبيرُ عن الغضَب، وعلى سَبيل المثال:

١ ـ في هـذه الآيةِ قال الكـفّارُ في غضـبٍ: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

٢ ـ حين يُلقَى بالكفّارِ في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة ستقولُ لهم الملائكةُ في غضبٍ: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

٣ ـ في سُورة «نُوح» حينَ شَعَر سيّدُنا نوحُ عليه السَّلامُ بأنّ قومَه لن يؤمنوا به، رَغْم أنه ظَلَّ يدعوهم إلى الإيمانِ تسعَمائةٍ وخمسينَ عامًا، غَضِب منهم وقال مُبيِّنًا أفعالَهم القبيحةَ في حضرةِ الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا﴾ [نوح: ٢٢].

شأن اللغة العربية المتميز

كلُّ لغةٍ في العالَم تتغيَّرُ قليلًا أو كثيرًا بعدَ كلِّ قرنٍ من الزّمان، ولو عُدْنا إلى الوراءِ أربعةَ قرونٍ، ونظَرْنا في اللُّغةِ الإنجليزيّة في عهدِ الرِّوائيِّ الإنجليزيِّ المعروفِ شيكسبيرَ (Shakespeare)، نجدُ فيها بعضَ الألفاظِ التي لا توجَدُ الآنَ في المعجَم الإنجليزيِّ الحديث، لكنّ اللُّغةَ العربيّةَ ثابتةٌ على وَضْعِها الأصليِّ منذُ

أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزَّمان؛ لأنّها لغةُ القرآنِ الكريم، وستبقَى دائمًا على حالتِها الأَصْليّة، حتى أنّها سيُتحدَّثُ بها في الجنّةِ مثلَما هي في القرآنِ الكريم اليومَ.

إنّ اللُّغاتِ التي تُرجِم إليها القرآنُ الكريمُ تصبحُ الحاجةُ فيها ماسّةً إلى ترجماتٍ جديدةٍ كلَّ قرن، حتى يستطيعَ أهلُ هذه اللُّغة فَهْمَ الترجمةِ بسهولةٍ ويُسْر، باعتبارِ أنّ بعضَ ألفاظِ هذه اللُّغة تصبحُ متروكةً بعدَ كلِّ فترةٍ.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾

٦ ـ حين أعادَ النبيُّ ﷺ بكلماتٍ قاطعةٍ الدعوةَ إلى التوحيد، أصابَ اليأسُ سادةَ الكفّار، فهَبُّوا واقفينَ، وقالوا لبعضِهم: إنّ هذا الرجُلَ ثابتٌ على مهمّتِه بشكلٍ قاطع، ولن يؤثِّرَ فيه أيُّ ضغطٍ أو إغراء، وهدَفُه هو أن نتَّبِعَه نحن أيضًا، ولهذا دعُونَا نذهب، ولا نستمعْ إلى ما يقول، ولْنَثبُتْ على عبادةِ آلهتِنا.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾

٧ ـ قال كفّارُ مكّةَ: إنّنا لم نسمَعْ من آبائنا وأجدادِنا بمِثل هذا الدِّين الذي يَجعَلُ للكائناتِ كلِّها إلهًا واحدًا فقطْ، كما أنّنا لم نسمَعْه من النَّصارى أيضًا وهم أهلُ آخِرِ دينٍ قريب، فهم يعتقدونَ في ثلاثة آلِهة، ولهذا فإنّ هذا الدِّينَ منَ اختراعِ محمّدٍ ﷺ، ولا نحتاجُ إليه.

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾

٨ ـ كان الكفّارُ يغتاظونَ حسَدًا؛ لماذا أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ على محمّدٍ ﷺ بالذات، ولم يختَرْ أحدًا لمنصِبِ النُّبوةِ هذا منّا نحن السادةَ والأغنياءَ؟ فقال اللهُ

تعالى رَدًّا عليهم: إنّ الكفّارَ لا يَحسُدونَ النبيَّ ﷺ فقطْ، وإنّما هم مُبتَلَوْنَ أيضًا بالشكِّ فيما يتعلَّقُ بالقرآنِ الكريم، ولهذا يقولونَ عنه أحيانًا: إنه شعر، وأحيانًا أخرى يقولون: إنه كذبٌ، وأحيانًا يقولون: إنه اختراعٌ وتأليفٌ من سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وأحيانًا أخرى يقولون: إنه سحرٌ. معَ أنّهم لو تَدبَّروا القرآنَ لَعلِموا أنّ الثروةَ والسِّيادةَ ليست ضروريّةً لنَيْل رضَى الله تعالى، وإنّما المطلوبُ هو إخلاصُ القلوب، كما أنّهم لم يَذُوقوا حتّى الآنَ عذابي، وإلّا لَما حَسَدوا النبيَّ ﷺ، ولَما شَكُّوا في القرآنِ المجيد. على أيِّ حالٍ عندَما يواجِهونَ العذابَ سيعرِفونَ الحقيقةَ، وسيَستغيثونَ، لكنّ الاستغاثةَ في ذلك الوقتِ تكونُ غيرَ مقبولة.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾

٩ ـ المرادُ بخزائنِ الرَّحمةِ هنا: خزائنُ النُّبوة[1]، يعني: أنّ هؤلاءِ الكفّارَ لا يملِكونَ خزائنَ النُّبوة، وإنّما مالكُها هو اللهُ تعالى، ويُنعِمُ بها على من يشاء، ولا يملِكُ أحدٌ أن يمنعَه من ذلك.

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾

١٠ ـ مُلكُ السّماواتِ والأرضِ أيضًا ليس لدى الكفّار، وإلّا لو كان لديهم لَصَعِدوا إلى السّماءِ وأمسَكوا بزِمام نظام الكائنات، ولَاختاروا أنبياءَ كما يشاءون، لكنّ مالكَ الكائناتِ كلِّها في الحقيقة هو اللهُ تعالى، وهو المختارُ المطلَق، ويُنعِمُ بمنصِبِ النُّبوةِ على مَن شاء كما يشاء، ولا يحتاجُ إلى مَشُورةٍ من الكفّار.

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

١١ ـ هنا بُشرى تُزَفُّ إلى النبيِّ ﷺ بأنّ كفّارَ مكّةَ الذي يزيدونَ اليومَ عددًا

---

(١) ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: نعمة ربك مفاتيح النبوة»، تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل.

عن المسلمين، ويعمَلونَ جاهدينَ على إيذائهم، سيأتي يومٌ تُفتَحُ فيه مكّةُ، وسيكونُ عدَدُهم قليلًا، وسيعترفونَ بهزيمتِهم المنكَرةِ في هذه البلدة.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾

١٢ ـ في هذه الآياتِ تنبيهٌ للكفّارِ بأنّ قومَ نوحٍ وعادٍ وفِرعونَ وثمودَ وقومَ لوطٍ وأصحابَ الأَيْكةِ من قبْلِهم كذَّبوا الأنبياءَ الكرامَ السابقينَ عليهمُ السّلام، وهؤلاءِ الأقوامُ كانوا أكثرَ عددًا من أهل مكّةَ، ولكنْ حينَ لم يَرجِعوا عن عدائهم للأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ ومخالفتِهم أهلَكْناهم ودمَّرناهم، وبنفسِ الطريقة إنْ لم يرجِعْ أهلُ مكةَ عن معاداةِ النبيِّ ﷺ ومخالفتِه، فيمكنُ أن ينزِلَ العذابُ عليهم أيضًا.

يقال لفِرعونَ: «ذو الأوتاد»؛ لأنه حين كان يُعاقبُ معارضيهِ كان يَدُقُّ في أيديَهم وأرجُلَهم الأوتادَ «المسامير» أولًا حتى لا يستطيعوا حراكًا.

وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾

١٣ ـ كأنّ كفّارَ مكّةَ كانوا ينتظرونَ نفخةَ الصُّورِ إيذانًا بيوم القيامة، حتى يؤمنوا حين يسمَعونَها، ولكنْ ينبغي لهم أن يعلَموا أنّ الناسَ جميعًا سيَفنَوْنَ فورَ نفخةِ الصُّور، ولن تكونَ هناك أيُّ مُهلةٍ لأحدٍ كي يتوبَ، وإذا تاب أحدٌ عندَ رؤيةِ القيامة فلن تُقبَلَ توبتُه.

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾

١٤ ـ لأنّ كفّارَ مكّةَ كانوا لا يؤمنونَ بيوم الحساب، لهذا عندَما يُخوَّفونَ بعذابِ الآخِرة كانوا يقولون ساخرينَ: إنّنا لن نؤمنَ، ولهذا عَجِّلْ لنا بنصيبِنا من العذابِ في هذه الدنيا، فنحن لا نستطيعُ الانتظارَ إلى يوم القيامة.

﴿ ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴾

١٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، اصبرْ على كلام الكفّارِ المؤذي الجارح، وتذكَّرْ في هذا الخصوصِ أحوالَ سيِّدِنا داودَ عليه السَّلام، فقد سَخَّرنا لداودَ عليه السّلامُ الجبالَ والطَّيرَ، وكانوا يسبِّحونَ معَه ليلَ نهارَ، وقد أنعَمْنا عليه بمُلْكٍ قويٍّ وحِكمةٍ وحُسنِ الخطاب، ومعَ ذلك واجَهَ المشاكلَ والمصائبَ، وصَبَرَ عليها، وظلَّ متوجِّهًا إلى الله تعالى في كلِّ حال.

﴿ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾

١٦ ـ يقولُ العلّامةُ الخازنُ: «كان داودُ عليه السَّلامُ قد قَسَم الدّهرَ ثلاثةَ أيام:

يومٌ يقضي فيه بينَ الناس، ويومٌ يَخْلو فيه لعبادةِ ربِّه عزَّ وجَلّ، ويومٌ لنسائه وأشغالِه»[1]، وذاتَ يوم بينَما كان في محرابِه منشغِلًا بالعبادة، إذْ تسلَّل رجُلانِ إليه قفْزًا من على الجدار، ولأنّ البابَ كان مغلَقًا، وهما قد تسَلَّلا قَفْزًا من على الجدار، واعتقَد هو أيضًا أنّهما ربّما يريدانِ قتلَه أو إيذاءه، لهذا كان من الطبيعيِّ أن يخافَ عليه السَّلامُ منهما، لكنّ القادمَيْنِ قالا له: لا تخَفْ، فقد جِئنا لكي تَحكُمَ بينَنا في خصومةٍ، فاحكُمْ بينَنا بالعدلِ والحقِّ، واهدِنا إلى طريقِ العدلِ والإنصافِ المستقيم.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾

١٧ ـ قال واحدٌ منهما: هذا الشخصُ أخي في الدِّين، ولديهِ تسعٌ وتسعونَ نعجةً، ولدَيّ نعجةٌ واحدة، وهو يطلُبُ منِّي أن أُعطيَه نعجتي هذه، وهو حينَ يكلِّمُني يتغلَّبُ علَيّ، ويتحدَّثُ إليّ برُعبٍ وهَيْبةٍ بحيث لا أجرُؤُ على أن أرُدَّ عليه.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ﴾

١٨ ـ أنت أخٌ فقير؛ لأنّ لديك نعجةً واحدةً، وأخوك هذا غنيٌّ؛ لأنّ لديهِ تسعًا وتسعينَ نعجةً، وكان يجبُ عليه أن يساعدَك ويُعطيَك بعضَ النِّعاج من عندِه، ولكنّه بدلًا من ذلك يريدُ أن يستوليَ على نعجتِك. ولمّا لم يستطع الأخُ الغنيُّ الردَّ على هذا الكلام، بل صَمَت وأكَّد صدقَ ما قيل، عندَئذٍ قال سيِّدُنا داودُ عليه السَّلام: لقد ظَلَمك أخوك الغنيُّ، والأغنياءُ كثيرًا ما يظلِمونَ شُركاءَهم الفقراءَ، ويحاولونَ الاستيلاءَ على أموالِهم بشتّى الطُّرق، إلا أنّ أهلَ الإيمانِ والصّالحينَ لا يرتكبونَ مِثلَ هذا الظلم، لكنّ أمثالَ هؤلاءِ المتَّقينَ قليلون.

---

(١) تفسير الخازن وتفسير البغوي.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ﴾

١٩ ـ بعدَ هذه الواقعةِ اعتقَدَ سيّدُنا داودُ عليه السَّلامُ أنه ربَّما ابتلاني اللهُ تعالى، فهذانِ الرجُلانِ قد جاءاني لِأحكُمَ بينَهما، وكنتُ أظنُّ أنّهما جاءا ليؤذِياني يقينًا، وهذا الظنُّ منِّي كان خاطئًا، وهكذا خرَّ سيّدُنا داودَ عليه السَّلامُ ساجدًا مستغفِرًا اللهَ تعالى من خطأِ ظنِّه هذا تائبًا إلى اللهِ منه.

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾

٢٠ ـ إنّ تسَلُّلَ هذَيْنِ الرجُلَيْنِ إلى محرابِ سيّدِنا داودَ عليه السّلامُ قَفْزًا من على الجِدار بدلًا من الدخولِ من الباب، وخَوْفَ سيّدِنا داودَ عليه السّلامُ منهما لمّا رآهُما، وظنَّه أنهما إنّما جاءا ليؤذِياه، كلُّ هذا كان أمرًا فِطْريًّا، ولم يكنْ خطأً، لكنّ سيّدَنا داودَ عليه السَّلامُ بسببِ تقواهُ اعتبَر هذا الظنَّ خطأً وتاب منه، مثلَما يقولُ أبو حَيّانَ الأندَلُسيُّ: «والّذي يذهبُ إليه ما دَلَّ عليه ظاهرُ الآيةِ من أنّ المتسَوِّرينَ المحرابَ كانوا من الإنسِ، دَخَلوا عليه من غيرِ المدخَل، وفي غيرِ وقتِ جلوسِه للحُكم، وأنّه فَزِع منهم ظانًّا أنّهم يغتالونَه، إذْ كان منفردًا في محرابِه لعبادةِ ربِّه. فلمّا اتَّضحَ له أنّهم جاءوا في حكومةٍ، وبَرَز منهم اثنانِ للتّحاكُم، كما قَصَّ اللهُ تعالى، وأنّ داودَ عليه السَّلامُ ظَنَّ دخولَهم عليه ـ في ذلك الوقتِ ومن تلك الجهة ـ إنقاذًا من الله له أن يغتالوه، فلم يقَعْ ما كان ظَنُّه، فاستغفَرَ من ذلك الظّنِّ، حيث أخلفَ ولم يكنْ يقَعُ مظنونُه، وخَرَّ ساجدًا، أو رَجَع إلى الله تعالى فغَفَر له ذلك الظّنَّ»[1].

طَمْأَن اللهُ تعالى سيّدَنا داودَ عليه السَّلامُ إبعادًا لهذه الوساوسِ عنه قائلًا بأنك من المقرَّبينَ إلينا، وقد غَفَرْنا لكَ ذلك الشيءَ الذي ظننتَه خطأً.

لقد قدَّم بعضُ المؤرِّخينَ والمفسِّرينَ، وكذا الكِتابُ المقدَّسُ، واقعةً بألفاظٍ

---

(١) تفسير البحر المحيط.

مختلفةٍ فحواها: أنّ سيّدَنا داودَ عليه السَّلام كان قد رأى امرأةً تغتسلُ، وكانتِ امرأةً جميلةً، فأرسَلَ ممثِّلًا عنه يستدعي هذه المرأةَ إليه، ومارَسَ معَها الفاحشةَ والعياذُ بالله، ثم قَتَل زوجَها وحاوَل أن يتزوَّجَها، ثم نَدِم بعدَ ذلك على هذا الذَّنبِ وتاب منه وغيرُ ذلك، وقد أفاضَ المفسِّرونَ تفصيلًا في الردِّ على هذا الكلام وتفنيدِ الواقعة، ولتجنُّبِ التطويل أكتفي هنا بتقديم ثلاثِ إحالاتٍ مختصَرةٍ في هذا الأمر:

١ ـ يقولُ العلّامةُ فخرُ الدِّين الرازي: «والذي أَدِينُ به وأذهبُ إليه أنّ ذلك باطلٌ يدُلُّ عليه وجوهٌ»(١)، وقد بيّن العلّامةُ الرازي عدةَ أسبابٍ لذلك يمكنُ الاطِّلاعُ عليها في موضعِها.

٢ ـ يقولُ سيّدُنا سعيدُ بن المسيِّب رضي اللهُ عنه: إنّ سيّدَنا عليًّا رضي اللهُ عنه قال: «مَن حَدَّثكم بحديثِ داودَ على ما يَرويه القُصّاصُ جَلدتُه مائةً وستين»(٢).

٣ ـ يقولُ العلّامةُ أبو حَيّانَ الأندَلُسيُّ بعدَ تحقيقِ هذه الواقعة: «ويُعلَمُ قطعًا أنّ الأنبياءَ، عليهمُ السّلامُ، معصومونَ من الخطايا، لا يمكنُ وقوعُهم في شيءٍ منها ضرورةً، إذ لو جَوّزْنا عليهم شيئًا من ذلك، بَطَلت الشّرائعُ، ولم نثقْ بشيءٍ ممّا يَذكُرونَ أنّه أوحَى اللهُ به إليهم، فما حَكَى اللهُ تعالى في كتابِه يمُرُّ على ما أراده تعالى، وما حَكَى القُصّاصُ ممّا فيه غَضٌّ عن منصِبِ النّبوّةِ طرَحْناهُ»(٣).

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾

٢١ ـ الخليفةُ يقالُ لمن يَستعمِلُ السُّلُطاتِ المعطاةَ له في بلدٍ من البلادِ باعتبارِه

---

(١) التفسير الكبير.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير البحر المحيط.

نائبًا عنه، وقد جعَل اللهُ تعالى الإنسانَ خليفةً له على الأرض، وفي هذه الآيةِ أوضَحَ اللهُ تعالى أُولى فرائضِ هذا المنصِب، يعني: الحُكمَ بينَ الناسِ بالحقِّ والإنصاف، وأنْ لا يسمحَ لهوى نفسِه أن يكونَ له أيُّ دخلٍ فيما يَحكُم به؛ لأنّ الذين يتخلَّوْنَ عن العدلِ والإنصافِ ويتَّبعونَ هوى أنفسِهم، ينحرفونَ عن طريقِ الله تعالى، وينسَوْنَ يومَ الحساب، ويكونونَ مستحِقِّينَ للعذابِ الشّديدِ في الآخرة.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

٢٢ ـ خَلَق اللهُ تعالى السماءَ والأرضَ وكلَّ ما فيهما لمقصِدٍ وهدف، وحدَّد لكلِّ شيءٍ دائرةً معيَّنةً له، فمن يعيشُ حياتَه في إطارِ هذه الدائرةِ المحدَّدة له ينالُ الجنةَ في الآخِرة، أمّا مَن يتجاوزُ هذه الدائرةَ فسيدخُلُ جهنَّمَ، إلّا أنّ الكفّارَ لا يؤمنونَ بالآخِرة أصلًا، ولا يبالُونَ بحقٍّ أو باطلٍ في سَبيل جَعْل حياتِهم الدُّنيويّةِ هي الأفضلَ، ولهذا سيُواجِهونَ في الآخِرة عذابًا أليمًا.

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾

٢٣ ـ المتَّقُونَ والصالحونَ في هذه الدُّنيا كثيرًا ما يواجِهونَ المشاكلَ، في حين يعيشُ مثيرو الفِتَنِ ومرتكِبو الفحشاءِ حياةً مرفَّهةً، وهذانِ القسمانِ من الناسِ ليسا مِثلَ بعضِهما، فالمجرمونَ والمطيعونَ لا يتساوَوْنَ في أيِّ حكومةٍ عادلةٍ في هذه الدُّنيا، وبنفسِ الطريقة فإنّ المفسِدينَ والمتَّقينَ ليسوا سواءً في حكومةِ الله تعالى، وسيتَّضحُ الفرقُ بينَهما عندَما يدخُلُ الصالحونَ الجنةَ ويشكُرونَ اللهَ تعالى على ذلك، ويدخُل المفسِدونَ جهنَّمَ يَنُوحونَ على أفعالِهم القبيحة.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾

٢٤ ـ عندَما قُدِّمت الخيولُ الممتازةُ السّريعةُ إلى سيّدِنا سليمانَ عليه السَّلام، انشَغَل بفَحْصِها كثيرًا إلى درجةِ أنه نَسِي صلاةَ العصرِ حتى غَربَتِ الشمس، وليس هناك ذنبٌ في قضاءِ الصّلاة إذا نَسِيَها أحدٌ، لكنّ سيّدَنا سليمانَ عليه السّلامُ لم يتحمَّلْ أن يَحدُثَ هذا منه نظرًا لمنصِبه الرَّفيع، ولذا طلَبَ أن يأتوهُ بالخيولِ ثانيةً وذَبَحَها قُرْبانًا[1]، مثلَما رَوى سيّدُنا أُبَيُّ بنُ كعبٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم ـ في قولِه: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ ـ قال: «قَطَع سُوقَها وأعناقَها بالسَّيف»[2]، وكانت التّضحيةُ بالخيولِ جائزةً في شريعةِ سيّدِنا سليمانَ عليه السَّلامُ مَثَلُها مَثَلُ الماعزِ والجمال، ولهذا لم يُتلِفْ سيّدُنا سليمانُ عليه السَّلامُ الخيولَ بقَتْلِها، وإنّما ذَبَحَها باسم اللهِ تعالى، مثلَما قال العلّامةُ القُرطبيُّ: «لأنّ ذَبْحَها كان مباحًا في شَرعِه فأبدَلَه اللهُ خيرًا منها وأسرَعَ، أَبدِلَ الرّيحَ تجري بأمرِه حيثُ شاء، غُدوُّها شهرٌ ورَواحُها شهرٌ»[3].

---

(١) «وقال الحسن: شغلت سليمان الخيل حتّى فاتته صلاة العصر، فعقر الخيل». القرطبي، سورة سبأ (٣٤): الآية ١٢.

(٢) تفسير الدر المنثور.

(٣) تفسير القرطبي.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

٢٥ ـ تُرى، ماذا كانت تلك الفتنةُ، وأيُّ جسدٍ ذلك الذي كان بلا رُوح؟ ليس في القرآنِ الكريم أو الحديثِ الشّريفِ تفصيلٌ لذلك، ولهذا لا داعيَ للدُّخولِ في تفاصيلِه، ويكفينا فقط اليقينُ على أنّ اللهَ تعالى قد فَتَن سيّدَنا سُليمانَ عليه السَّلامُ وابتلاه بابتلاءٍ جَعَله يستغفرُ اللهَ تعالى بعدَه، لكنّ بعضَ المفسِّرينَ نَقَلوا بعضَ الرواياتِ الإسرائيليّةِ في هذا الشأنِ ممّا يتنافَى معَ شأنِ النُّبوة، ولهذا سأكتفي هنا بحديثٍ صحيح رَبَطَ بعضُ المفسِّرينَ بينَه وبينَ هذه الآية، بدَلًا من الحديثِ عن هذه الإسرائيليّات، واللهُ تعالى يَعلَمُ الحقيقةَ تمامَ العِلم.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال سُليمانُ بنُ داودَ ـ عليهما السّلامُ ـ: لَأطوفَنَّ اللّيلةَ على مائةِ امرأةٍ ـ أو تسعٍ وتسعينَ ـ كلُّهنَّ يأتي بفارسٍ يجاهدُ في سَبيل الله، فقال له صاحبُه: إن شاء الله، فلم يقُلْ: إن شاء الله. فلم يحمِلْ منهُنَّ إلّا امرأةٌ واحدةٌ، جاءت بشِقِّ رجلٍ، والّذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، لو قال: إن شاء الله، لَجاهَدوا في سَبيل الله فُرسانًا أجمَعون»[1]، وفي روايةٍ أخرى: «فقال له صاحبُه: قلْ: إن شاء الله. فنَسِيَ»[2].

يعتقدُ بعضُ المفسِّرينَ، نظرًا لهذا الحديثِ، أنّ المرادَ بالجسدِ الذي لا رُوحَ فيه هنا: ذلك الطِّفلُ غيرُ المكتمِل الذي وضَعتْه إحدى الخادماتِ على كُرسيِّه، وأنّ المرادَ بالفتنةِ والابتلاءِ هنا: هو نسيانُه قولَ: «إن شاء الله»، وما أنْ تَذكَّر حتى رَجَع إلى الله تعالى واستغفَرَه من هذه الهَفْوةِ التي صَدَرت منه، ولو أنّ أحدًا نَسِيَ أداءَ فرضٍ من الفروضِ وأدَّاه قضاءً فليس عليه ذَنْبٌ، ولكنْ تقوى الأنبياءِ عليهم

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ٢٣ برقم ٢٨١٩.

(٢) البخاري، برقم ٦٧٢٠.

السَّلامُ على درجةٍ عاليةٍ من الرِّفعة بحيث يندَمونَ على نسيانِ شيءٍ مستحَبٍّ مِثلَ قول: «إن شاء الله»، ويتوبونَ إلى الله منه.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾

٢٦ ـ يا إلهي، أَنْعِمْ علَيَّ بمُلكٍ لا يتيسَّرُ لأحدٍ من بعدي، يعني: أن يكونَ هذا المُلكُ هو معجِزتي، وبالفعل كان سَفَرُه عليه السَّلامُ مُمتطِيًا ظهرَ الرِّيح معجزةً خاصّةً به، ولكنّ هذا لا يعني أنّ مكانةَ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلامُ أرفَعُ وأعلى من مكانةِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ؛ لأنّ الله تعالى أَنْعَم على النبيِّ ﷺ بمعجزةِ ركوبِ البُراق، وكانت سُرعتُه تَفُوقُ سرعةَ الرِّيح أيضًا.

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾

٢٧ ـ استجابَ اللهُ تعالى دعاءَ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، وأَنْعَم عليه بمُلكٍ كان الرِّيحُ فيه مُسخَّرًا له، فيحمِلُ عرشَه ويَطيرُ به، وأحيانًا يَطيرُ بسُرعةٍ فائقة، وأحيانًا بسُرعةٍ أقلَّ حسَبَ أوامرِ سيّدِنا سُليمانَ عليه السَّلام، كما كان الجِنُّ أيضًا مسخَّرًا له، وكان من بينِهم جنٌّ يقومُ ببناءِ مَبانٍ ضخمةٍ شاهقةِ الارتفاع، وكان منهم من يَغُوصُ في أعماقِ البحارِ ويستخرجُ له اللآلئَ والجواهرَ، وكان من بينِهم الجنُّ المتمرِّدُ المسخَّرُ له، وهم الذين كانوا يُقيَّدونَ بالأغلالِ دائمًا.

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

٢٨ ـ يعني: أنّنا أَنْعَمنا عليكَ بمُلكٍ عظيم، وأعطَيْناكَ معَ ذلك الاختيارَ والسُّلطةَ أن تُعطيَ من تشاءُ من عطائنا لك وتمنَعُ كذلك مَن تشاءُ، كما أنّنا بشَّرناكَ أيضًا بأنّنا لن نُحاسبَك؛ لماذا أعطَيْتَ هذا ومنَعتَ ذاك، يعني: أنك أُعطِيتَ الاختيارَ الكاملَ في التصرُّفِ فيما أعطَيْناك.

اختيار سيدنا سليمان عليه السلام وسلطته

١ ـ يقولُ العلّامةُ شَبير أحمد عُثماني: يعني: لكَ الخِيارُ في أن تُعطيَ أحدًا أو لا تُعطيَهُ، فقد أعطَيْناك بلا حدودٍ، ولم نؤاخِذْكَ بحساب(١).

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو الأعلى المَوْدوديُّ: هذا عطاؤنا بلا حسابٍ، ولك الخِيارُ في أن تُعطيَ من تشاءُ وتمنَعُ من تشاء(٢).

٣ ـ يقولُ المفتي محمَّد شَفيع: يعني: كلُّ ما أعطَيْناك من متاع لم نَجعَلْكَ مجرَّدَ حارسٍ عليه أو مديرًا له مِثلَ باقي الملوك، وإنما جَعَلْناكَ مالكًا له(٣).

٤ ـ يقولُ العلّامةُ عبدُ الماجِد دريا آبادي: يعني: أنك لستَ مجرَّدَ خازنٍ لهذا المالِ والمتاع والجاهِ وأمينًا عليه، وإنما أنت مالكُه، ولكَ الاختيارُ الكاملُ في التصرُّفِ فيه بما تشاء، ولن نُحاسبَك على إعطاءٍ أو منعٍ.

وقدِ اتَّضحَ من هذه الآية أنّ الملوكَ في الشّريعةِ الإسلاميّةِ ليسوا بالضَّرورةِ مجرَّدَ خازنينَ وأُمناءَ دائمًا على خزائنِ البلاد، وإنّما من الممكنِ أن يكونوا مالكينَ وأصحابَ اختيارٍ مطلَقٍ أيضًا(٤).

فإذا كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ مالكًا لخزائنِ نِعَم الله تعالى التي أَنْعَم بها عليه ومختارًا فيها، فما بالُكَ بسيِّدِنا محمدٍ ﷺ وهو سيِّدُ الأنبياءِ والمرسَلين، ألا يكونُ مالكًا لخزائنِ نِعَم الله تعالى التي أَنْعم بها عليه ومختارًا فيها؟ من المؤكَّدِ

---

(١) التفسير العثماني.

(٢) تفسير تفهيم القرآن.

(٣) تفسير معارف القرآن.

(٤) التفسير الماجدي.

أنه ﷺ مالكٌ لعطاءِ الله تعـالى له ومختارٌ فيه كـذلك، يُعـطي من يـشاءُ وبقَدْرِ ما يشاء:

ـ سأقولُ عنه: مالكٌ؛ لأنه حبيبُ المالِك، يعني: ليس بينَ المحِبِّ والمحبوبِ «لي ولك».

ـ عن عُقبةَ بن عامرٍ، أنّ النّبيَّ ﷺ خَرَج يومًا فصَلَّى على أهلِ أُحُدٍ صَلاتَه على الميّت، ثمّ انصَرفَ إلى المِنبَر فقال: «إنّي فَرَطٌ لكم، وأنا شهيدٌ عليكم، وإنّي ـ والله ـ لَأنظُرُ إلى حوضيَ الآنَ، وإنّي أُعطيتُ مفاتيحَ خزائنِ الأرض»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا حُمَيد بن عبدِ الرَّحمن رضي الله عنهُ: سَمِعتُ معاويةَ خطيبًا يقولُ: سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفقِّهُه في الدِّين، وإنّما أنا قاسمٌ واللهُ يعطي»[2].

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾

٢٩ ـ تأمَّلْ معي ما قاله شيخيَ الجَليلُ سيّدُنا ضياءُ الأُمة رحمةُ الله عليه في تفسيرِ هذه الآية: لم يكتفِ بالإنعام عليه بالمُلكِ والسَّلطنةِ والاختيارِ الكامل في التصرُّفِ فيهما فقطْ، وإنّما بشَّرَه أيضًا بأنه مقرَّبٌ غايةَ القُربِ في حضرةِ عزَّتِه تعالى، وأنّ عاقبتَه في غايةِ الحُسن، فإذا كان سيّدُنا سُليمانُ عليه السَّلامُ قد أُنعِم عليه ببِشارةِ حُسنِ العاقبة، فاحكُمْ أنت على أولئك الذين لا يستحيُونَ حين يقولونَ: إنّ النبيَّ عليه أفضَلُ الصّلاة والتسليماتِ لم يكنْ يَعلَمُ من أمرِ عاقبتِه شيئًا[3].

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٧٢ برقم ١٣٤٤.

(٢) البخاري، كتاب العلم، باب ١٤ برقم ٧١.

(٣) تفسير ضياء القرآن.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾

٣٠ ـ يقولُ المفسِّرونَ: «كان أيوبُ نبيًّا من الرُّوم، وكان له أولادٌ ومالٌ كثير، فأذهَبَ اللهُ مالَه فصبَر، ثم أهلَكَ الأولادَ فصبَر، ثم سَلَّط البلاءَ والمرضَ على جسمِه فصبَر، فمرَّ عليه ملأٌ من قومِه فقالوا: ما أصابَه هذا إلّا بذنبٍ عظيم، فعند ذلك تضرَّع إلى اللهِ فكشَفَ عنه ضُرَّه: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣]، أي: أكثرُهم رحمةً فارحَمْني، ولم يُصرِّحْ بالدُّعاءِ ولكنّه وَصَف نفسَه بالعَجْزِ والضّعف، ووَصَف ربَّه بغايةِ الرحمة ليرحمَه، فكان فيه من حُسن التلطُّفِ ما ليس في التصريح بالطَّلب ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: أجَبْنا دعاءه وتضرُّعَه: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ

﴿مِن ضُرٍّ﴾ أي: أزَلْنا ما أصابه من ضُرٍّ وبلاء، ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، قال ابنُ مسعود: مات أولادُه، وهم: سبعةٌ من الذُّكورِ وسبعةٌ من الإناثِ، فلمّا عُوفيَ أُحيُوا له ووَلَدت له امرأتُه سبعةَ بنينَ وسبعَ بنات»[1].

في هذه الآيةِ نَسَب سيّدُنا أيوبُ عليه السَّلامُ متاعبَه وابتلاءاتِه إلى الشّيطان، وفي هذا الخصُوص يقولُ المفسِّرون: إنه على الرَّغم من أنّ الخيرَ والشرَّ من الله تعالى، لكنّ سيّدَنا أيوبَ عليه السَّلامُ نَسَب ابتلاءاتِه إلى الشيطانِ تأدبًا معَ اللهِ تعالى واحترامًا له[2]، مثلَما يقولُ أهلُ العلم: يُنسَبُ كلُّ شيءٍ طيِّبٍ إلى اللهِ تعالى، ويُنسَبُ كلُّ شيءٍ سيِّءٍ للنَّفْسِ أو الشيطان؛ لأنّ الإنسانَ يُرغِّبُ إلى السيِّئة بوساوسِ الشيطان.

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾

٣١ ـ استجابَ اللهُ تعالى لدعاءِ سيّدِنا أيوبَ عليه السَّلام، وأمَرَه أن يَضربَ برجلِه على الأرض، فانفَجرتْ تحتَ قدمِه عينُ ماءٍ بارد اغتَسَل فيها سيّدُنا أيوبُ عليه السلام، فأزاحَ اللهُ عنه بهذا الغُسل أمراضَه الجِسمانيّةَ الظاهريّةَ، وعادت إلى جسدِه الضّعيفِ القوةَ والطاقةَ بشُربِه من ماءِ العين، وتحسَّنت صحتُه حتى صارت أفضَلَ ممّا كانت عليه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

٣٢ ـ أثناءَ فترةِ ابتلاءِ سيّدِنا أيوبَ عليه السَّلامُ مات أولادُه، فأحياهمُ اللهُ له، ورَزَقه المزيدَ منهم، فأَنْعَم عليه بضِعفِ ما كان عندَه من الأولاد.

---

(١) صفوة التفاسير، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٨٤.

(٢) «قال المفسرون: وإنما نسب ذلك إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى، وإن كانت الأشياء كلها خيرها وشرها من الله تعالى». صفوة التفاسير.

وفي هذه الواقعةِ نصيحةٌ عظيمةٌ لأصحابِ العقول، بأنّ الذين يصبِرونَ على البلاءِ يُنزِلُ اللهُ عليهم رحَماتٍ خاصّةً من عندِه.

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

٣٣ ـ أثناءَ فترةِ مرضِ سيّدِنا أيوبَ عليه السَّلام خَرَج من فم زوجتِه الوَفِيّة لفظٌ ربّما جَرَح مشاعرَه أو ثَقُل عليه، وكان سيّدُنا أيوبُ عليه السَّلامُ قد أَقْسم أن يضربَ زوجتَه مائةَ جلدةٍ، ولأنّ زوجتَه كانت لا ذنبَ لها، وقد خَدَمتْه كثيرًا، لهذا هدَى اللهُ تعالى سيّدَنا أيوبَ عليه السَّلامُ إلى حِيلة، يعني: خُذْ مِقَشّةً ذاتَ مائةِ قشّةٍ، واضرِبْها بها مرةً واحدة، وبهذا تَبرُّ بقَسَمِك.

المكانة الشرعية للحيلة وحكمها

يقولُ العلّامةُ سيِّد محمود الآلوسيُّ: «وعندي أنّ كلَّ حِيلةٍ أَوْجبَتْ إبطالَ حكمةٍ شرعيّةٍ لا تُقبَلُ، كحِيلةِ سقوطِ الزَّكاة»[١]، فبعضُ الناسِ يقومونَ بوَهْبِ أموالِهم لزوجاتِهم قبلَ أن يَحُول عليها الحَوْلُ تهرُّبًا من إخراجِ الزّكاة، ثم بعدَ فترةٍ تقومُ الزَّوجةُ بوَهْب هذه الأموالِ إلى زوجِها، وهكذا لا يَحُولُ الحَوْلُ أبدًا على المالِ عندَ الزَّوج أو الزَّوجة، وبالتالي لا تجبُ الزّكاةُ على هذا المال، ومِثلُ هذه الحيلةِ لا تجوزُ قطعًا، ففيها غَصْبٌ لحقِّ الفقراءِ من جانب، ومن جانبٍ آخَرَ تحايلٌ على أحكام الله تعالى.

ولكنْ إن كان الاحتيالُ من أَجْل تجنُّب أمرٍ غيرِ مرغوبٍ وغيرِ مناسب فهو جائزٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى لسيّدنا أيوبَ عليه السَّلامُ في هذه الآية.

---

(١) تفسير روح المعاني.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾

٣٤ ـ يا أَيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، اذكُرْ سيّدَنا إبراهيمَ وسيّدَنا إسحاقَ وسيّدَنا يعقوبَ عليهمُ السَّلام، وأخبِرْ أُمّتَك أنّ الأنبياءَ السابقينَ عليهمُ السَّلامُ أيضًا قد واجَهوا المشاكلَ والمصاعبَ، لكنّهم كانوا أقوياءَ في عبادةِ الله تعالى وطاعتِه، فلم تمنَعْهم مصيبةٌ مهما عَظُمت من طاعةِ الله تعالى، وكانت قلوبُهم حيّةً بصيرةً، ولم يكونوا ينظُرونَ بأعيُنِهم إلى ظاهرِ الأشياءِ فقطْ، ولكنّهم كانوا يتدبَّرونَ حقيقتَه ببصيرةِ قلوبِهم أيضًا، ولهذا كانت قدرةُ الله تعالى تتبدَّى لهم في كلِّ شيء.

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

٣٥ ـ اختارَ اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ لذِكرِ الآخِرة؛ لأنّ مقصِدَهم دائمًا هو لقاءُ الله تعالى والقربُ منه، وسيكونُ الشكلُ العمَليُّ لهذا في الآخِرة، ولهذا كانوا يَذكُرونَ الآخِرةَ، ويُذكِّرونَ الناسَ أيضًا بها، حتى يُطيعوا اللهَ تعالى ويجعَلوا آخِرتَهم أفضَلَ وأحسَن.

وفيه درسٌ في غايةِ الأهميَّة لأهلِ الإسلام، بأنه إذا كان الأنبياءُ الكرامُ عليهم السَّلام ـ وهم المعصُومونَ والمقرَّبونَ من الله تعالى ـ منشغِلينَ تمامَ الانشغالِ بذِكرِ الدارِ الآخِرة، فلا يجوزُ لنا نحن ـ المقصِّرينَ العُصاةَ ـ أن نغفُلَ عنها أبدًا.

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾

٣٦ ـ يعني: في أحوالِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام نصائحُ عظيمةٌ، ولهذا ينبغي للمسلمينَ أن يتدبَّروا في هذه الأحوالِ ويتفكَّروا فيها، وأن يعمَلوا بما فيها من نصائحَ فتحسُنَ آخِرتُهم.

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾

٣٧ ـ بعدَ أنْ ذَكَر اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليه السَّلام بالخيرِ جاء ذِكرُ الأَجْرِ العظيم الذي سيَلقاهُ المؤمنونَ من الأُمة، وهم الذين كانوا يخشَوْنَ اللهَ تعالى في الدُّنيا، فلهم في الآخِرة جَنّاتٌ خالدةٌ، أبوابُها مفتوحةٌ، والملائكةُ يقِفونَ عليها في استقبالِهم، وفي هذه الجنّاتِ كلُّ النِّعَم ووسائلِ الراحةِ التي وَعَدَهم اللهُ بها في الدنيا، كما أنّ هذه النِّعمَ كلَّها دائمةٌ خالدةٌ لا تنتهي أبدًا.

الذين يحتفظونَ بأبوابِ التقوى مفتوحة لهم في الدُّنيا، تُفتَحُ لهم في قبورِهم أيضًا نوافذُ من الجنَّة، وتُفتَحُ لهم في الآخِرة أبوابُ الجنَّة، أمّا الذين يحتفظونَ بأبوابِ الشّيطان مفتوحةً أمامَهم في الدّنيا، تُفتَحُ لهم في قبورِهم نوافذُ من جهنَّم، وتُفتَحُ لهم في الآخِرة أبوابُ النار.

من أي شيء خلقت الجنة؟

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: قلنا: يا رسولَ الله: الجنّةُ ما بناؤها؟ قال: «لبِنةٌ من فضّةٍ ولبِنةٌ من ذهبٍ، ومِلاطُها المِسكُ الأَذْفُر، وحَصْباؤها اللّؤلؤُ والياقوت، وتُربتُها الزَّعفرانُ، مَن يدخُلُها ينعُم ولا يَبْأَس، ويُخلَّدُ ولا يموت، لا تَبلَى ثيابُهم ولا يفنَى شبابُهم»[1].

ستكون الحور غاضة البصر

يعني: أنّ الحُورَ لن يَرْفَعْنَ أنظارَهنَّ إلى غيرِ أزواجِهنَّ، ولن يكونَ في قلوبِهن سوى محبّةِ أزواجِهنَّ.

---

(١) الترمذي، أبواب الجنة، باب ١ برقم ٢٥٢٦.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

٣٨ - بعدَما ذَكَر الأتقياءَ جاء ذِكرُ الطُّغاةِ الذين أنكَروا أحكامَ اللهِ تعالى، وكذَّبوا برُسُلِه، فهؤلاءِ سيَدخُلونَ جهنَّمَ، حيث سيكونُ شرابُهم القَيْحَ والماءَ المَغْلي، وسوف يُسلَّطُ عليهم أنواعٌ أخرى من العذاب، ومن المؤكَّدِ أنّ هذا مصيرٌ في غايةِ السُّوء، ومِهادٌ لا يُطاق.

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾

٣٩ - قال سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «هو أنّ القادةَ إذا دَخَلوا النّارَ ثمّ دَخَل بعدَهم الأَتْباع، قالتِ الخَزَنةُ للقادة: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ يعني: الأَتْباع، والفَوْجُ: الجماعة، ﴿مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: داخلٌ النّارَ معَكم، فقالت السّادة: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾»[1]، ليقضيَ عليهمُ الله، فهؤلاءِ معَنا أيضًا في جهنَّم، وعندَما يسمَعُ المتَّبِعونَ هذا الكلامَ يقولونَ لزُعمائهم: الحقيقةُ أنه لا ترحيبَ بكم أنتم، فلْيقضِ اللهُ عليكم، ولا يَكتُبْ لكم في جهنَّمَ سَعةً أو راحةً، فأنتُم سببُ عذابِنا؛ لأنّكم لو لم تُزيِّنوا الكُفرَ والشِّركَ أمامَنا، ولو لم تقوموا بإغرائنا لَما كفَرْنا وأشرَكْنا، ولَما ابتُلينا بهذا العذاب، ولهذا فإنّ مصيرَنا الآنَ معَكم أيضًا، وهو مصيرٌ في غايةِ السُّوء.

﴿قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾

٤٠ - يستغيثُ الكُفّارُ المتَّبِعونَ بالله تعالى، متَّهِمينَ زُعماءَهم قائلين: يا ربَّنا، لقد أضَلَّنا هؤلاءِ الزُّعماءُ والقادةُ، فآتِهمُ اليومَ ضِعفًا من العذاب: عذابٌ لضلالِهم، وعذابٌ لإضلالِنا.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

٤١ ـ أولئك الذين كانوا يَعتبِرونَ أهلَ الإيمـانِ أشرارًا وإرهابيِّين، وكانوا يسخَرونَ منهم، عندَما يدخُلونَ جهنَّمَ بسببِ طُغيانِهم، ولا يرَوْنَ أهلَ الإيمان معَهم في جهنَّم؛ لأنّهم سيكونونَ قد دَخَلوا الجنّةَ بفَضْل وبركةِ إيمانِهم، عندَئذٍ ستُصيبُهم الدَّهشةُ والحَيْرة، ويُسألُ بعضُهم بعضًا قائلين: إنّنا لا نرى أهلَ الإيمان في جهنَّم، فهل كنّا على خطأٍ حين كنا نسخَرُ منهم في الدّنيا، وهل الحقيقةُ أنّهم هم المستحِقُّونَ للاحترام والإجلال، ولهذا فإنّهم ليسوا في جهنَّمَ اليومَ، أم أنّهم في مكانٍ أو آخرَ في جهنّم فعلًا ولكنَّنا لا نراهم؟

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾

٤٢ ـ هذا صحيحٌ تمامًا بأنّ أهلَ جهنَّم يتشاجَرونَ فيما بينَهم، ويتَّهمُ كلٌّ منهمُ الآخَرَ.

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾

٤٣ ـ قال النبيُّ ﷺ للكفّارِ بأمرِ الله تعالى: لقد جئتُكم لأُبلِّغَكم رسالةَ رحمةِ الله تعالى ولأُنذرَكم من عذابِه، والقيامةُ حقٌّ، وهذا خبرٌ عظيم؛ لأنه في هذا اليوم سيكونُ الحُكمُ بالعدلِ والإنصاف، وستبدأُ الحياةُ الخالدةُ للإنسان، ولكن ما أعجَبَكم أيُّها الناسُ إذ تُعرِضونَ عن هذه الحقيقة.

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴾

٤٤ ـ هذا دليلٌ قاطعٌ على نُبوَّتي، بأنّني أَقُصُّ عليكم نبأَ الملإِ الأعلى وما يدورُ فيه، وهو ما لا يمكنُ أن يَعلَمَه أحدٌ بغيرِ الوَحْي، ومن بينِ ما دار في الملإِ الأعلى هذا الحوارُ الذي دارَ بينَ اللهِ تعالى والملائكةِ قبلَ خَلْقِ الإنسانِ الأوّلِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وهم الذين مرَّ ذِكرُه في الآيةِ رقم **٣٠** من سُورةِ البقرة، أمّا الحوارُ الآخَرُ فهو الذي جاء ذِكرُه في الحديثِ التالي:

ـ يقولُ سيّدُنا معاذُ بن جَبَل: احتبَس عنّا رسولُ الله ﷺ ذاتَ غَداةٍ عن صلاةِ الصُّبح حتّى كِدْنا نتراءى عينَ الشّمس، فخَرَج سريعًا فثَوَّب بالصّلاةِ، فصَلَّى رسولُ الله ﷺ وتجوَّزَ في صلاتِه، فلمّا سَلَّم دعا بصوتِه، قال لنا: «على مَصافِّكم كما أنتم». ثمّ انفتَل إلينا ثمّ قال: «أما إنّي سأُحدِّثُكم ما حبَسَني عنكمُ الغَداةَ، إنّي قمتُ من اللّيل فتوضَّأتُ وصَلَّيتُ ما قُدِّر لي، فنَعَستُ في صَلاتي حتّى استَثْقَلتُ، فإذا أنا بربّي تبارَكَ وتعالى في أحسنِ صورةٍ، فقال: يا محمّد. قلت: لَبَّيْكَ ربِّ. قال: فيمَ يختصمُ الملأُ الأعلى؟ قلت: لا أدري. قالها ثلاثًا، قال: فرأيتُه وَضَع كفَّه بينَ كَتِفيَّ حتّى وَجدتُ بَرْدَ أناملِه بينَ ثَدْييَّ فتَجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعَرفتُ (وفي رواية: فعَلِمتُ) ما في السّمواتِ وما في الأرض[1]، فقال: يا محمّد. قلتُ: لَبَّيْكَ ربِّ، قال: فيمَ يختصمُ

---

(١) الترمذي، برقم **٣٢٣٣**.

الملأُ الأعلى؟ قلت: في الكفّاراتِ، قال: ما هُنَّ؟ قلتُ: مَشْيُ الأقدام إلى الجماعات، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصَّلَوات، وإسباغُ الوضوءِ في المكروهات. قال: ثم فيمَ؟ قلت: إطعام الطّعام ولِينِ الكلام والصّلاةِ باللّيلِ والنّاسُ نيامٌ. قال: سَلْ. قلتُ: اللّهُمَّ إنّي أسأَلُك فعلَ الخيرات وتَرْكَ المنكَرات وحُبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمَني، وإذا أردتَ فتنةَ قومٍ فتوفَّني غيرَ مفتونٍ، أسأَلُك حبَّك وحُبَّ من يُحبُّك وحُبَّ عملٍ يُقرِّبُ إلى حبِّك». قال رسولُ الله ﷺ: «إنّها حقٌّ فادرُسوها ثمّ تَعلَّموها»[١].

وقال الإمامُ الترمذيُّ عن هذا الحديث: «هذا حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ. سألتُ محمّدَ بن إسماعيلَ عن هذا الحديثِ فقال: هذا حديثٌ حسَنٌ صحيحٌ»[٢].

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ قد نالَ عِلمَ كلِّ شيءٍ ببركةِ يدِ القُدرة، وعندَما كرَّر اللهُ تعالى السؤالَ نفسَه، بيَّنَ النبيُّ ﷺ حالَ حوارِ الملائكة. وفي هذا الحديثِ الشّريفِ دعاءٌ خاصٌّ حَثَّ النبيُّ ﷺ الصّحابةَ الكرامَ رضي الله عنهم على حِفظِه وتعليمِه للآخَرين، وقد ذكرتُ هذا الدعاءَ باللّغةِ العربيّة معرَّبًا لكي يتمكَّنَ قارئُ تفسيرِ «إمداد الكَرم» من حِفظِه، أو على الأقل ترديدِه بلسانِه باللُّغةِ العربية[٣]، وهو الذي دعا به نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ بلسانِه قبلَ ١٤٠٠ عام.

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

٤٥ ـ إنّ خبرَ الملأِ الأعلى الذي آتيكُم به، وما أُنذرُكم به من عذابِ يوم القيامة، لا أقولُه من عندِ نفسي، وإنّما يوحَى إليَّ؛ لأنّي نبيُّ الله.

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، سورة ص (٣٨): باب ٣٨ برقم ٣٢٣٥.

(٢) الترمذي، تحت الحديث السابق.

(٣) يقصد المفسر الجليل هنا قارئ تفسير إمداد الكرم باللغة الأردية، وهو الذي أتشرف بترجمته هذه الأيام إلى اللغة العربية (المترجم).

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

٤٦ ـ أمَرَ اللهُ تعالى الملائكَة أنّني سأَخْلُقُ الإنسانَ من الطِّين، وحين أَنفُخُ فيه من رُوحي فعليكم أن تَسجُدوا تعظيمًا لشأنِه، وهكذا حينَ دَبَّت الحياةُ في سيّدِنا آدمَ عليه السلام، وأَنْعم اللهُ تعالى عليه بعِلمٍ خاصٍّ من عندِه، وهو الذي أُمِرت الملائكةُ بالسُّجودِ بسببِه، عندَئذٍ سَجَدت الملائكةُ جميعًا ما عدا إبليسَ، فقدِ استكبَر وأصبحَ من الكافرين.

الروح

المرادُ بالرُّوح: النَّفَسُ الذي يحيا الإنسانُ بدخولِه وخروجِه، وقد نَفَخ اللهُ تعالى في الإنسانِ من رُوحِه، وليس معنَى هذا أنّ الرُّوحَ البشَريّةَ جزءٌ من ذاتِ الله تعالى، وإنّما نِسبتُها إلى الله تعالى هو من بابِ تعظيم شأنِ الرُّوح وتكريمِها، مثلَما يقالُ للكعبة: «بيتُ الله»؛ لأنها ذاتُ مقامٍ عظيم، وهكذا فإنّ الرُّوحَ نعمةٌ خاصّةٌ من الله تعالى.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾

٤٧ ـ كان يمكنُ لله تعالى أن يَخلُقَ الإنسانَ بكلمةِ ﴿كُن﴾، ولكنّه نَسَب خَلْقَه إلى يدَيْه من بابِ إظهارِ عَظَمةِ الإنسان، ثم سَألَ اللهُ تعالى إبليسَ: لقد خَلقتُ الإنسانَ بيدَيَّ، ومنَحتُه شرفَ أن يكونَ أفضَلَ المخلوقاتِ، فلماذا لم تسجُدْ له؟ هلِ استكبَرْتَ أن تسجُدَ له؟ أم أنك تعتقدُ أنك أعلى مقامًا منه؟ فأجابَ إبليسُ قائلًا: لم أسجُدْ لآدمَ لأنّي أفضَلُ منه. وعليه طَرَد اللهُ تعالى إبليسَ من الجنة، ولَعَنه و جَعَله رجيمًا.

ذم التكبر

١ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعود رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الجنَّة مَن كان في قلبِه مثقالُ ذرّةٍ من كِبْرٍ». قال رجلٌ: إنّ الرّجُلَ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسَنًا ونَعْلُه حسَنةً. قال: «إنّ اللهَ جميلٌ يحبُّ الجمالَ، الكبرُ بَطَرُ الحقّ وغَمْطُ النّاس»(١).

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يقولُ اللهُ سبحانه: الكِبرياءُ ردائي والعَظَمةُ إزاري، مَن نازَعَني واحدًا منهما ألقَيْتُه في جهنَّم»(٢).

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من يتواضَعُ لله سبحانَه درجةً يرفَعُه اللهُ به درجةً، ومن يتكبَّرُ على الله درجةً يضَعُه اللهُ به درجةً حتّى يجعَلَه في أسفلِ السّافلين»(٣).

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

٤٨ ـ طلَبَ إبليسُ مُهلةً من الحياةِ إلى يومِ الحَشْر حتى يُفلتَ من الموت؛ لأنّ أحدًا لن يموتَ بعدَ الحَشْر، ولم يمنَحْه اللهُ مُهلةً إلى يوم الحَشْر، وإنّما أمهَلَه إلى وقتٍ معيَّن، يعني: حين تفنَى الكائناتُ كلُّها، سيفنَى إبليسُ حينَئذٍ معَها أيضًا، ويظَلُّ ميتًا لأربعينَ عامًا(٤)، ثم عندَما يُبعَثُ الناسُ ثانيةً سيُبعَثُ إبليسُ أيضًا معَهم.

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٣٩ برقم ١٤٧.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٦ برقم ٤١٧٤.

(٣) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ١٦ برقم ٤١٧٦.

(٤) «عن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما في قوله: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ قال: أراد إبليس أن لا يذوق الموت، فقيل: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعين سنة». ابن أبي حاتم، سورة الحجر (١٥): الآية ٣٨.

ويمكنُ أن تكونَ الحِكمةُ من هذه الحياةِ الطَّويلة التي مَنَحَها اللهُ لإبليسَ هي أن يَبتليَ اللهُ تعالى العبادَ؛ مَن منهم عبدٌ له ومَن منهم عبدٌ للشيطان؟

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

٤٩ ـ قال إبليسُ: يا ربِّي، لأنّك تركتَني في الضَّلالِ عقابًا لي على عَدَم تعظيمي آدمَ عليه السَّلام، لهذا سأنتقمُ من أولادِ آدمَ عليه السلام، وسأُزيِّنُ لهم الأعمالَ السيِّئةَ وأجعَلُها جاذبةً لهم لأُضِلَّهم تأكيدًا، ما عدا عبادَك المخلَصينَ وعبادَك المختارينَ؛ لأنّهم لن ينخَدِعوا بي.

قال سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنّ إبليسَ قال لربِّه: بعزّتِك وجلالِك، لا أبرَحُ أُغوي بني آدمَ ما دامتِ الأرواحُ فيهم، فقال له اللهُ: فبِعزّتي وجلالي لا أبرَحُ أغفِرُ لهم ما استغفَروني»[1].

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾

٥٠ ـ أعلنَ اللهُ تعالى ـ بوضوح ـ أنّ كلَّ أحكامي حقٌّ، وهذا الحُكمُ أيضًا حقٌّ: أنّ من يتَّبعُ الشيطانَ سيَدخُلُ جهنَّمَ معه.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾

٥١ ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ بأمرِ الله تعالى: إنّ المقصودَ من التوحيدِ الذي أدعُوكم إليه هو خيرُكم، وليس لي من وراءِ هذه الدَّعوةِ مصلحةٌ ماديّةٌ أو مطالبُ دُنيَويّة، ولهذا فإنّ كلَّ ما أقولُه لكم لا تكلُّفَ فيه ولا تصنُّع، وإنّما أقولُ لكم ما يأمرُني اللهُ تعالى أن أقولَه، ولا أنقُصُ فيه أو أزيدُ ولو بمقدارِ ذَرّة؛ لأنّ الذي

---

(١) مسند أحمد، ٣: ٤١.

يتكلَّفُ ويتصنَّعُ ويُبالغُ ويُرائي هو الذي يريدُ أن يُحقِّقَ مصالحَ دُنيويّةً من خلالِ خِداعِه للناس، أمّا هَدفي أنا فهو الحصولُ على رضى اللهِ تعالى فقطْ.

بعض الروايات عن التكلف

١ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: «كنّا عندَ عُمرَ فقال: نُهينا عن التَّكلُّف»[١].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا سَلْمانُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يتَكلَّفنَّ أحدٌ للضّيفِ ما لا يَقدِرُ عليه»[٢].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا سَلْمانُ رضي الله عنه: «أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أنْ لا نتكلَّفَ للضَّيفِ ما ليس عندَنا، وأن نُقدِّمَ ما حضَر»[٣]. ويُعلَمُ منه أنّ على الإنسانِ أن يُنفقَ على طعامِه وشرابِه ومسكَنِه وملبَسِه وأمورِ حياتِه الأخرى طِبقًا لاستطاعتِه، وإلّا لو أنفَقَ أكثرَ ممّا يستطيعُ لَرَكِبَتْه الدُّيونُ وواجَهَ المشكلاتِ والمصاعبَ.

٤ ـ يقولُ شقيقٌ: «دخَلتُ أنا وصاحبٌ لي على سَلْمان، فقرَّبَ إلينا خبزًا ومِلحًا، فقال: لولا «أنّ النّبيَّ ﷺ نَهانا عن التّكلّف» تكلَّفْنا لكم. فقال صاحبي: لو كان مِلحُنا فيه سَعْترٌ، فبَعَث بمِطهرتِه إلى البَقّالِ فرَهَنَها وجاء بسَعْترٍ فألقاهُ فيه، فلمّا أكَلْنا، قال لصاحبي: الحمدُ لله الّذي قنَّعنا بما رزَقَنا، فقال سَلمانُ: لو قَنَعتَ بما رُزِقت لم تكنْ مِطهَرتي مرهونةً»[٤].

٥ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه بخصوصِ هذه الآية: «يا أيُّها النّاس، مَن عَلِم شيئًا فلْيَقُلْ به، ومَن لا يَعلَمُ فلْيَقُل: اللهُ أعلم، فإنّ منَ العلمِ أن

(١) البخاري، كتاب الاعتصام، باب ٣ برقم ٧٢٩٣.
(٢) شعب الإيمان، ٧: ٩٤ برقم ٩٥٩٩.
(٣) المرجع السابق، ٧: ٩٤ برقم ٩٦٠١.
(٤) المرجع السابق، ٧: ٩٤ برقم ٩٥٩٨.

يقولَ الرجُل لِما لا يَعلَم: اللهُ أعلم، فإنّ اللهَ قال لنبيِّكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾»[1]، يعني: أنا لا أقولُ شيئًا من عندِ نفسي، وإنّما أقولُ ما يوحَى إليَّ.

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾

٥٢ ـ القرآنُ المجيدُ نصيحةٌ للعالَمينَ جميعًا من أولِه إلى آخرِه، فإذا لم تُسلِّموا بنصائحِه اليومَ، فإنّ يومَ بدر، ويومَ فَتْح مكةَ، أو يومَ القيامة قادمٌ، وقدِ اقتَربَ، وعندَئذٍ ستُشاهدونَ بأنفُسِكم صِدقَ القرآنِ الكريم، وستُسلِّمونَ بصِدقِه على كلِّ حال. يقولُ سيّدُنا الحسَنُ البصريُّ: «يا ابنَ آدم، عندَ الموت يأتيك الخبرُ اليقين»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأربعاء ٢٤ فبراير ٢٠١٠م
الموافق ١٠ ربيعٍ الأول ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتَمل تفسيرُ سُورةِ صَ بفَضْل الله تعالى وكَرمِه في تسعةِ أيام فقط، أي: من ١٥ فبرايرَ إلى ٢٤ فبراير، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) تفسير القرطبي وصفوة التفاسير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «الزُّمَر»، ومعنى الزُّمَر: الجماعاتُ والطّوائفُ المتعدِّدة، وقد وَرَد هذا اللَّفظُ في آيتَيْنِ فقطْ من آياتِ القرآنِ الكريم، وهما: الآيةُ رقم ٧١ والآيةُ رقم ٧٣ من هذه السُّورة.

زمن نزول السورة

كان قَبولُ الإسلام في السَّنواتِ الأُولى منه مرحلةً في غايةِ الصُّعوبة، ومَن يدخُل الإسلامَ كان أقاربُه بصفةٍ خاصّة يَخلُقونَ له المشاكلَ، حتى يصبحَ من الصّعبِ عليه العمَلُ بالإسلام، وفي نهايةِ الأمرِ أجاز اللهُ تعالى للمسلمينَ بأنّ أرضَ الله واسعةٌ، فهاجِروا إلى مكانٍ تستطيعونَ فيه العمَلَ بالإسلام بحُرِّيّة، وهكذا نَزَلت هذه السُّورةُ في الفترةِ التي أَذِنَ فيها النبيُّ ﷺ للمسلمينَ بالهجرة إلى الحبَشة، وكان أولَ مَن هاجَرَ إلى الحبشةِ في السّنةِ الخامسةِ للبَعْثةِ النَّبويّةِ ستةَ عشَرَ فردًا، منهم أربعُ نساءٍ، ومن بينِهنَّ فَلْذةُ كبِدِ نبيِّنا الحبيبِ ﷺ السيِّدةُ رُقَيّةُ رضي اللهُ عنها، والتي قامت بهذه الهجرةِ وهي في سنِّ السابعةَ عشْرةَ أو الثامنةَ عشْرةَ معَ زوجِها سيّدِنا عثمانَ الغنيِّ رضي الله عنه، أمّا القافلةُ الثانيةُ التي هاجَرت إلى الحبشةِ فكانت تضُمُّ ٨٣ فردًا من بينِهم سيّدُنا جعفرٌ الطيَّارُ رضي اللهُ عنه.

مضامين السورة

جاء في بدايةِ هذه السُّورة بيانُ أنّ اللهَ تعالى إنّما أَنْزلَ القرآنَ المجيدَ حتى يُعبَدَ اللهُ تعالى وحدَه، والذين يعبدونَ من دونِ الله آلهةً أخرى، ويأمُلونَ في الحصولِ على القُربِ من الله تعالى بواسطةِ هذه الآلهةِ كاذبونَ جاحدون.

كما جاء في هذه السُّورةِ الاستدلالُ على التوحيدِ بأساليبَ وطُرُقٍ مختلفة، مثلًا: اللهُ تعالى هو الذي خَلَق السّماءَ والأرضَ، وجَعَل تعاقُبَ اللّيلِ والنّهارِ ودَوَرَانَ الشمسِ والقمرِ ملتزِمًا بنظام لم يحدُثْ فيه خلَلٌ مطلقًا.

في هذه السُّورةِ قال اللهُ تعالى مُعرِّفًا بالمشركِ والمؤمنِ: إنّ المشركَ حين تَحِلُّ به مصيبةٌ، ولا يستطيعُ النَّجاةَ منها، يركَبُه الخوفُ، فيدعو اللهَ تعالى، ويعاهدُه على تركِ الشِّرك، لكنْ ما أن يُنجِيَه اللهُ تعالى من المصيبةِ حتى ينسَى ما عاهَدَ اللهَ عليه، ويعودَ إلى شِركِه من جديدٍ، لكنّ أهلَ الإيمانِ يَثبُتونَ على إيمانِهم رَغْم المصاعبِ والمصائب.

في الآيةِ رقم ٥٣ من السُّورة بَثَّ اللهُ تعالى الأملَ في نفوسِ المذنِبينَ بأنْ لا يَيْأَسوا من رحمةِ الله تعالى؛ لأنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرّحمة، ومن يتَّجهُ إلى الله بنيّةٍ خالصةٍ يعفو عنه ويغفرُ له.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
قبلَ صلاةِ الفجر من يوم الجمُعة ٢٦ فبراير ٢٠١٠م
الموافق ١٢ ربيعٍ الأول ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الزُّمَرِ (٣٩)،

مكية (٥٩)، آياتها (٧٥)، ركوعاتها (٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾

١ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المجيدَ على نبيِّنا الحبيبِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، وكلُّ ما جاء فيه حقٌّ وصِدق.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾

٢ ـ المرادُ بالدِّين هنا: العبادةُ، يعني: العبادةُ خاصّةٌ بالله تعالى فقطْ، ولا تليقُ العبادةُ بغيرِه، والمرادُ بالخالصِ هنا: أن يُعبَدَ اللهُ تعالى من أَجْل إرضائه فقطْ، ولا تكونُ إرضاءً لأحدٍ غيرِه؛ لأنه «لا يَقبَلُ من العملِ إلّا ما أَخْلصَ فيه العاملُ لله وحدَه لا شريكَ له»[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

٣ ـ يقولُ الإمامُ البَغويُّ: «قال قَتادةُ: وذلك أنّهم كانوا إذا قيلَ لهم: مَن ربُّكم ومَن خَلَقَكم ومَن خَلقَ السَّمواتِ والأرضَ؟ قالوا: الله، فيقالُ لهم: فما معنى عبادتِكم الأوثانَ؟ قالوا:... ليقرِّبونا إلى الله تقريبًا ويشفَعوا لنا عندَ الله»[٢]، وقد أجابَ القرآن المجيدُ عنه، بأنّ هؤلاءِ المشركينَ كذّابونَ أصلًا؛ لأنه ليس لديهِم أيُّ دليلٍ على ما يعتقدونَ، وهم جاحِدونَ أيضًا؛ لأنّهم يعبُدونَ غيرَ الله تعالى معَ أنه هو الذي خَلَقَهم وليس غيرَه، ولهذا طالما لم يرجِعْ هؤلاءِ عن كذبِهم وجحودِهم لن يَجِدوا الهدايةَ، وحين يَحكُمُ اللهُ تعالى بينَهم يومَ القيامة، سيندَمون على كذبِهم وجُحودِهم.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير معالم التنزيل.

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾

٤ ـ الإنسانُ في حاجةٍ إلى الأولادِ حتى يُدافِعوا عن آبائهم وأُمّهاتِهم فيما لو هَجَم عليهم الأعداءُ، ولكيْ يكونوا عَوْنًا لهم إذا ما حَلَّت الشَّيخوخةُ بهم، ثم يَرِثونَهم إذا ما ماتوا، ويتواصلُ النَّسلُ وتستمرُّ الذُّرِّيّة، لكنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن كلِّ هذه الاحتياجات.

كان بعضُ المشركينَ يعتقدونَ أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وهنا تُخبِرُهم الآيةُ الكريمةُ أنّ اللهَ تعالى واحدٌ أحد، ومنزَّهٌ عن الأولاد، ولو افترَضْنا أنّ اللهَ تعالى يريدُ أن يتَّخذَ ولدًا، فإنه يستطيعُ أن يتَّخذَه ممن يشاءُ من خَلْقِه، ولكنْ ما دليلُكم على أنه اتَّخَذ الملائكةَ أولادًا، وجَعَلَهم إناثًا على وجهِ التحديد؟ كما أنّ من العجيبِ أنكم تُحبُّونَ الذُّكورَ لأنفُسِكم، وتجعلونَ لله تعالى الإناثَ، أليس في هذا إهانةٌ لله تعالى؟

هذا تفكيرُ المشركينَ في الزمنِ القديم وتفكيرُ الجاهلينَ في العصرِ الحديثِ والذين لا يُحبُّونَ الإناثَ، ولكنْ ليس في الإسلام مجالٌ لهذا التفريق، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما معناهُ: لا تَنفِروا من البنات، فأنا أبٌ لعدّةٍ بنات، أو كما قال ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٣٧ للآيةِ رقم ٥٨ من سُورة النَّحل (١٦).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

٥ ـ خَلَق اللهُ تعالى السّماءَ والأرضَ بالحقِّ، يعني: لم يَخلُقْهما عبَثًا وبلا مقصِدٍ أو هدف، وإنّما يصلُ الإنسانُ بالتفكيرِ فيهما والتدبُّر في أمرِهما إلى العِرفانِ بتوحيدِ الله

تعالى، كما أنّ اللهَ تعالى ليس خالقَ الكائناتِ فقطْ، وإنّما مالكُها وحاكمُها كذلك، وقد جَعَل اللّيلَ والنّهارَ يتعاقَبانِ بحيث يُغطِّي ظلامُ اللّيل إذا حَلَّ نورَ النهار، وإذا أشرقَ ضوءُ النهارِ غَطّى على ظلام الليل، وقيَّد دوَرانَ الشمسِ والقمرِ ونظَّمه بحيث لا ينحرفُ أحدُهما عن مسارِه ولا يتجاوزُ مدارَه.

﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾

٦ ـ اللهُ تعالى غالبٌ على الجميع، ولو شاءَ لدمَّر كلَّ من يعصيهِ فورًا وأهلَكَه، ولكنّه يُمْهلُ بغَرَضِ الإصلاح، وحينَ يَرجِعُ مَن طغَى إلى الله تعالى بقلبٍ صادق، فإنّ اللهَ تعالى يعفو عنه، ويستُرُ ما قام به من طُغيانٍ بعفوِه.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ يُدْني المؤمنَ (أي: يومَ القيامة) فيضَعُ عليه كَنَفه، ويستُرُه فيقولُ: أتعرِفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ أيْ ربِّ. حتّى إذا قرَّره بذنوبه ورأى في نفسِه أنّه هلَكَ قال: سَترْتُها عليكَ في الدّنيا، وأنا أغفرُها لكَ اليومَ، فيُعطَى كتابَ حسَناتِه. وأمّا الكافرُ والمنافقونَ فيقولُ الأشهادُ هؤلاءِ الّذين كذَبوا على ربِّهم، ألَا لعنةُ الله على الظّالمين»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فَرَّج عن مسلمٍ كُربةً فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يوم القيامة، ومَن سَتَر مسلمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامة»[٢].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾

٧ ـ لا تزالُ الدَّلائلُ على توحيدِ الله تعالى وعلى قُدرتِه متواصلةً، فالمرأةُ

---

(١) البخاري، كتاب المظالم، باب ١٢ برقم ٢٤٤١، والبخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة هود (١١) برقم ٤٦٨٥.

(٢) البخاري، ٢٤٤٢، كتاب المظالم، باب ٣.

والرجلُ يولَدانِ من الأبوَيْنِ، لكنّ أولَ رجُلٍ، يعني: سيدَنا آدمَ عليه السَّلامُ، خُلِق من طين، بينَما خُلِقت أولُ امرأةٍ، يعني: السيّدةَ حواءَ عليها السَّلامُ، من ضِلْعِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، وهذا دليلٌ عظيمٌ على قُدرةِ الله تعالى، ثم إنه خَلَق ثمانيةَ أزواجٍ من ذكورِ الأنعامِ وإناثها، يعني: الخَروفَ والنَّعجةَ، والجَدْيَ والشاةَ، والثّورَ والبقرةَ، والجملَ والناقةَ، والتي يَحلُّ للإنسانِ أكلُ لحومِها، ولكنّ مشركي مكةَ حَرَّموا بعضَها، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ١٢٨ للآية رقم ١٤٣، ١٤٤ من سُورة الأنعام (٦).

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾

٨ ـ الإشارةُ هنا إلى الأشكالِ التي يتَّخذُها الإنسانُ في بطنِ أُمِّه منذُ أن يكونَ قطرةَ ماء، وإلى أن يصبحَ إنسانًا مكتمِلًا، يعني: أنّ قطرةَ ماءٍ عاديّةً، بل جُرثومةً عاديّةً تتَّخذُ شكلَ الدّم أولًا، ثم تصبحُ مُضْغةً وقطعةً من اللحم، ثم هيكلًا عَظْميًّا يكسوهُ اللَّحمُ والجلدُ، وغيرَ ذلك، كلُّها بتريبٍ نفيس وتطوُّرٍ مُذهلٍ، يدُلُّ على حِكمةِ الله تعالى وقُدرتِه، والمرادُ بالظُّلماتِ الثلاث: ظُلمةُ البطن، وظُلمةُ الرَّحِم، وظُلمةُ ذلك الغلافِ الذي يتكوَّنُ الطِّفلُ بداخلِه في مراحلِه المختلفة.

وفي هذا الإطارِ نَقَل العلّامةُ عبدُ الماجد دريا آبادي واقعةً لطبيبٍ هندوسيٍّ ممتازٍ أَسْلم بعدَ قراءةِ هذه الآية، إذْ قال: لقد كان من المستحيلِ على أيِّ عربيٍّ قبلَ أربعةَ عشَرَ قرنًا من الزمانِ أن يَصِلَ إلى هذه الحقيقةِ الطِّبِّية الدَّقيقة[١]، ولهذا فإنّ القرآنَ الكريمَ ـ بالفعل ـ ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى.

لا يستطيعُ الإنسانُ البقاءَ على قَيْدِ الحياة بغيرِ هواء، ولكنْ تَصوَّرْ قُدرةَ الله تعالى كيف يَصِلُ الهواءُ إلى داخلِ ثلاثةِ حُجُبٍ؟ ثم إنه لا يوجَدُ أيُّ ثُقبٍ في بَيْضِ

---

(١) التفسير الماجدي.

الطُّيور، ومعَ ذلك تحيا في هذا البَيْضِ فراخُ الطُّيورِ لعدّةِ أيام قبلَ أن تَخرُجَ إلى دنيانا، سبحانَ الله.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾

٩ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ بأنّ ربَّكم هو الذي خَلَق الإنسانَ كاملًا من قطرةِ ماء، وكلُّ الكائناتِ تحتَ حُكمِه، ولا يستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سواه، فماذا دهاكم حتى تترُكوا خالقَكم الحقيقيَّ، وتسيروا في الضّلالِ خلفَ الآخَرين؟

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾

١٠ ـ عندَما يحبُّ الإنسانُ شيئًا ما فإنّ له فيه فائدةً، وإذا كَرِه شيئًا ما فإنّه يخشَى أن يَلحقَه منه ضَرَرٌ، لكنّ اللهَ تعالى ليس في حاجةٍ إلى نَفْع من أحدٍ، كما لا يمكنُ لأحدٍ أن يَضُرَّه، لأنه القادرُ المطلَق، وهو المستغني، والدُّنيا كلُّها في حاجةٍ إليه ومرهونةٌ بفضلِه، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى حين يحبُّ شيئًا لأحدٍ ما فإنّ في هذا الشيءِ فائدةً للإنسان، وإذا كَرِه له شيئًا فهذا يعني أنّ فيه ضَرَرًا للإنسان، وعلى سَبيل المثال يَكرَهُ اللهُ تعالى لعبادِه الكُفرَ؛ لأنّ عَدَمَ كفرِهم يعني نجاتَهم من جهنَّم، ويحبُّ لعبادِه أن يكونوا شاكرينَ حتى يدخُلوا الجنّةَ.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ رَوى عن اللهِ تعالى، أنه قال: «يا عبادي، إنّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعَلتُه بينَكم محرَّمًا فلا تَظالَموا. يا عبادي، كلُّكم ضالٌّ إلّا من هدَيتُه فاستَهْدُوني أهدِكم. يا عبادي، كلُّكم جائعٌ إلّا من أطعَمْتُه فاستَطْعِموني أُطعِمْكم. يا عبادي، كلُّكم عارٍ إلّا من كسَوتُه فاستَكسُوني أكْسُكُم. يا عبادي، إنّكم تُخطئونَ باللّيلِ والنّهار وأنا أغفرُ الذّنوبَ جميعًا فاستغفِروني أغفِرْ لكم. يا عبادي، إنّكم لن تبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني ولن تبلُغوا نَفْعي فتنفَعوني. يا عبادي، لو

أنّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في مُلكي شيئًا. يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ ما نَقَص ذلك من مُلكي شيئًا. يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطَيْتُ كلَّ إنسانٍ مسألتَه ما نقَصَ ذلك ممّا عندي إلّا كما ينقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِل البحرَ. يا عبادي، إنّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم ثمّ أُوفّيكم إيّاها، فمَن وَجَد خيرًا فلْيحمَدِ الله، ومن وَجَد غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلّا نفسَه»[1].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

١١ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أسرارَ قلوبِكم، وحين تَرجِعونَ إلى حضرةِ الله تعالى يومَ القيامة فسيكشفُ كلَّ أعمالِكم أمامَكم، وسيعاقبُكم طبقًا لها. في ذلك اليوم يكونُ كلُّ إنسانٍ مسئولًا عن أعمالِه، ولن يحمِلَ أوزارَ أحدٍ آخَرَ، إلّا أنّ الذين يُضِلُّونَ الآخَرينَ سيَحمِلونَ أوزارَ أنفسِهم، ومعَها أوزارٌ تَعدِلُ ذنوبَ أولئك الذين كانوا سببًا في إضلالِهم، ولكنْ لن تَنقُصَ أوزارُ هؤلاءِ المضَلَّلين، وسيَحمِلونَ وِزرَ ضلالِهم على كلِّ حال، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «مَن دعا إلى هُدًى كان له من الأجرِ مثلُ أُجورِ مَن تَبِعه لا ينقُصُ ذلك من أجورِهم شيئًا، ومَن دعا إلى ضلالةٍ كان عليه من الإثمِ مِثلُ آثام مَن تَبِعَه لا ينقُصُ ذلك من آثامِهم شيئًا»[2].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٢.

(٢) مسلم، كتاب العلم، باب ٦ برقم ٢٦٧٤.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾

١٢ ـ عندَما كان أحدُ مشركي مكّةَ يمُرُّ بمشكلةٍ صعبة، ولا يجدُ سَبيلًا إلى النَّجاةِ منها، كان يلجَأُ إلى اللهِ تعالى مستغيثًا به، وحين يُيسِّرُ اللهُ تعالى أمرَه، ويُنْجيه من مشكلتِه، ينسَى ما كان فيه من مشاكلَ، وينسَى نُصرةَ الله له، ثم يعودُ إلى الشِّركِ ثانيةً ليُضِلَّ الناسَ، وعليه قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قلْ لذلك الجاحدِ المشرِك: إنّ عليك أن تستفيدَ مما بقيَ من حياتِك التي لا تمثِّلُ سوى أيام قلائلَ، وإن لم تَتُبْ من الشِّركِ، فستَخلُدُ في جهنَّم.

﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

١٣ ـ في الآيةِ السّابقةِ جاء ذِكرُ شخصٍ يتذكَّرُ اللهَ تعالى وقتَ المصيبة، وما أن تزولَ عنه هذه المصيبةُ حتى يعودَ إلى شِركِه من جديدٍ، وفي هذه الآيةِ جاء ذِكرُ شخصٍ يقومُ اللَّيلَ عبادةً، ويخافُ من عذابِ الآخِرة، ويبقَى دائمًا على أملٍ في رحمةِ الله تعالى، هذانِ الشّخصانِ لا يمكنُ أن يكونا متساويَيْنِ، وبنفسِ الطريقة لا يمكنُ أن يستويَ صاحبُ العِلم معَ الذي لا عِلمَ لدَيْه، لكنّ أصحابَ العقولِ فقطْ هم الذين يُدرِكونَ هذه الحقيقةَ، وهم الذين يستفيدونَ من النَّصيحةِ الكامنةِ فيها يقينًا.

يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ دَخَل على شابٍّ وهو في الموت، فقال: «كيف تَجِدُك؟». قال: والله يا رسولَ الله إنّي أرجو اللهَ وإنّي أخافُ ذنوبي. فقال رسولُ الله ﷺ: «لا يجتمعانِ في قلبِ عبدٍ في مِثلِ هذا الموطِن إلّا أعطاه اللهُ ما يَرجو وآمَنَه ممّا يَخافُ»[1].

---

(١) الترمذي، أبواب الجنائز، باب ١١ برقم ٩٨٣.

والحقيقةُ أنّ الأملَ في رحمةِ الله تعالى والخوفَ من غضَبه علامةُ الإيمانِ الكامل، ولمزيدٍ من الشّرح لهذه الحقيقة تدبَّرْ هذا القولَ لسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنه: «لو نادَى مُنادٍ من السّماء: يا أيُّها النّاس! إنّكم داخلونَ الجنّةَ كلُّكم إلّا رجلًا واحدًا، لَخِفتُ من (غضَبِه) أن أكونَ أنا هو، ولو نادى مُنادٍ: أيُّها النّاسُ! إنّكم داخلونَ النّارَ إلّا رجلًا واحدًا، لرجَوْتُ (من رحمتِه) أن أكونَ أنا هو»[1]، وقد قال النبيُّ ﷺ: «لو يَعلَمُ المؤمنُ ما عندَ الله من العقوبة ما طَمِع بجَنّتِه أحدٌ، و لو يَعلَمُ الكافرُ ما عندَ الله من الرّحمةِ ما قَنَط من جنّتِه أحدٌ»[2].

فضل صلاة التهجد

- يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَبَسةَ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «أقربُ ما يكونُ الرّبُّ من العبدِ في جوفِ اللّيل الآخِر، فإنِ استَطعتَ أن تكونَ ممّن يَذكُرُ اللهَ في تلك السّاعةِ فكنْ»[3].

- يقولُ سيّدُنا بلالٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عليكم بقيام اللّيل فإنّه دَأْبُ الصّالحينَ قبْلَكم، وإنّ قيامَ اللّيلِ قُربةٌ إلى الله ومَنْهاةٌ عن الإثمِ وتكفيرٌ للسّيّئات ومَطرَدةٌ للدّاءِ عن الجسد»[4].

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾

---

(١) كنز العمال، ١٢: ٦٢٠ برقم ٣٥٩١٦.
(٢) مسلم، كتاب التوبة: باب ٤ برقم ٢٧٥٥.
(٣) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٨ برقم ٣٥٧٩.
(٤) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠١ برقم ٣٥٤٩.

فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢١﴾

﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

١٤ ـ قال النبيُّ ﷺ بأمرِ اللهِ تعالى لأهلِ الإيمان أنِ اتَّخِذوا من التَّقوى طريقًا؛ لأنّ الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ في هذه الدُّنيا أَعَدَّ اللهُ تعالى لهم في الآخِرة أجرًا عظيمًا، فإذا كان من الصعبِ على أحدٍ أن يعمَلَ بالإيمانِ والتّقوى في وطنِه، فإنّ أرضَ الله تعالى واسعةٌ غايةَ الوُسعة، ولهذا يستطيعُ أن يهاجرَ إلى مكانٍ يَسهُلُ عليه فيه العملُ بالإسلام. ورَغْمَ أنّ الهجرةَ من الوطنِ والرحيلِ عنه من أَجْلِ الإسلام فقط أمرٌ في غايةِ الصُّعوبة، لكنّ الذين يصبِرونَ على هذه المِحنةِ يَجْزيهم اللهُ تعالى في الآخِرة أَجْرَهم بغيرِ حساب.

يقولُ المفسِّرونَ: «نَزَلت في جعفرِ بن أبي طالبٍ وأصحابه حين عَزَموا على الهجرةِ إلى أرضِ الحبشةِ، والغَرَضُ منها التأنيسُ لهم والتنشيطُ إلى الهجرة»[1].

---

(١) صفوة التفاسير.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «تُنصَبُ الموازينُ، فيؤتَى بأهل الصَّدَقةِ فيُوفَّوْنَ أُجورَهم بالموازين، وكذلك الصّلاةُ والحجُّ، ويُؤتَى بأهل البلاءِ فلا يُنصَبُ لهم ميزانٌ ولا يُنشَرُ لهم ديوانٌ ويُصَبُّ عليهمُ الأجرُ بغيرِ حسابٍ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] حتّى يتمنَّى أهلُ العافية في الدّنيا أنّ أجسادَهم تُقرَضُ بالمقاريضِ ممّا يذهَبُ به أهلُ البلاءِ من الفَضْل»[١].

ـيقولُ الإمامُ الحُسَين بنُ عليٍّ رضي اللهُ عنهما: سَمِعتُ جَدّي رسولَ الله ﷺ يقول: «أدِّ الفرائضَ تكنْ من أعبَدِ النّاس، وعليك بالقُنوع تكنْ من أغنَى النّاس، يا بُنَيَّ، إنّ في الجنّةِ شجرةً يقالُ لها: شجرةُ البَلْوى، يُؤتَى بأهلِ البلاء فلا يُنصَبُ لهم ميزانٌ ولا يُنشَرُ لهم ديوانٌ، يُصَبُّ عليهم الأجرُ صبًّا»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه :«كلُّ مُطيعٍ يُكالُ له كيلًا ويُوزَنُ له وزنًا إلّا الصابرينَ، فإنّه يُحثَى لهم حَثْيًا»[٣].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

١٥ ـ يا مشركي مكةَ، إنّني لا أَدعوكم أنتمُ فقطْ لكي تكونوا مسلمينَ، وأن تكونَ عبادتُكم خالصةً لله تعالى، وإنّما أنا نفسي أولُ المسلمينَ، وأعبُدُ اللهَ تعالى وحدَه، وبعدَها أدعوكم أنتم إلى ذلك.

وتفسيرُ ذلك هو أنّ النبيَّ ﷺ أولُ المسلمينَ في أُمّتِه، وهذا ليس بالأمر الجديد، فكلُّ نبيٍّ يكونُ أولَ مسلم في أُمّتِه؛ لأنّ كلَّ حُكم يَنزِلُ أولًا على النبيِّ، فيؤمنُ هو به أولًا، ثم يُبلِّغُه أُمتَه، وبالتالي فإنّ بقيّةَ الناسِ بالنِّسبة إلى النبيِّ قد

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير القرطبي.
(٣) تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل.

أسلَموا بعدَه، وله تفسيرٌ آخَرُ وهو: أنّ النبيَّ ﷺ أولُ مسلم في المخلوقاتِ كلِّها[١]، وتأكيدًا لهذا التفسيرِ تأمَّلْ أحاديثَ النبيِّ ﷺ التاليةَ:

ـ «كنتُ أوّلَ النّبيِّينَ في الخَلْق و آخِرَهم في البعث»[٢].

ـ عن ابن عَبّاس رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كنتُ نبيًّا وآدمُ بينَ الرُّوح والجَسَد»[٣].

ـ قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أوّلُ ما خَلَق اللهُ تعالى: نُوري»[٤].

يُعلَمُ من هذه الأحاديثِ أنّ النبيَّ ﷺ هو أولُ من خُلِق، وأولُ من آمَن باللهِ تعالى، حتى أنّ سيّدَنا جِبريلَ وسيّدَنا مِيكائيلَ عليهما السَّلامُ لم يكونا قد خُلِقا بعدُ عندما كانت رُوحُ النبيِّ ﷺ المباركةُ ساجدةً أمامَ الله تعالى، وقد بيَّن العلّامةُ الآلوسيُّ هذا الأمرَ بأسلوبٍ جميلٍ فقال: «فأولُ رُوح ركَضَتْ في ميدانِ الخضوع والانقيادِ والمحبّة رُوحُ نبيِّنا صلى اللهُ عليه وآله وسلم، وقد أسلَم نفسَه لمولاهُ بلا واسطة، وكلُّ إخوانِه الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسّلامُ إنّما أَسْلَموا نفوسَهم بواسطتِه عليه الصّلاةُ والسلام، فهو المرسَلُ إلى الأنبياءِ والمرسَلين عليهم الصّلاةُ والسّلامُ في عالَم الأرواح، وكلُّهم أُمّتُه»[٥].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

١٦ ـ النبيُّ ﷺ معصومٌ من الذُّنوب، لهذا من المستحيلِ صدورُ عِصيانٍ لله

---

(١) «أول من أسلم يوم الميثاق فيكون سابقًا على الخلق كلهم». البحر المحيط، سورة الأنعام (٦): الآية ١٤.

(٢) كنز العمال، ١١: برقم ٣٢١٢٦.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦٠٩، كنز العمال، ١١، برقم ٣١٩١٧.

(٤) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ١٦٣.

(٥) تفسير روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ٣٥.

تعالى منه ﷺ، كما أنه لن يكونَ له ﷺ عذابُ يومَ القيامة، بل على العكسِ من ذلك، سيَرفَعُ اللهُ العذابَ عن أعدادٍ لا حصرَ لها من المذنِبينَ بشفاعتِه ﷺ، ولكنّ المقصودَ من ذِكرِ النبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ هو إخبارُ مشركي مكَة والمسلمينَ أنّني وإن كنتُ سيّدَ الأنبياءِ والمرسَلينَ، لكنْ بالرَّغم من ذلك لوِ افترَضْنا أنّني عصَيْتُ أيَّ أمرٍ لله تعالى، فإنّي أخافُ أن أُعذَّبَ يومَ القيامة، فما بالُك بالآخَرينَ، كيف يكونُ حالُهم؟

﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

١٧ ـ حينَ دعا أهلُ مكّةَ النبيَّ ﷺ إلى دينِ آبائهم وأجدادِهم رَدَّ عليهم النبيُّ ﷺ قائلًا: أنِ اعبُدوا ما شئتُم، ولكنْ تذكَّروا أنّ الشِّركَ خُسرانٌ عظيم، وإنْ لم ترجِعوا عن شِركِكم، فلن تستَطِيْعوا إنقاذَ أنفسِكم من خُسرانِ جهنَّم، كما لن تَستَطِيْعوا إنقاذَ أهليكم أيضًا، بل على العكسِ سيُلقَى بالجميع في جهنَّم، حيث تُحيطُ بكم جميعًا النارُ من فوقِكم ومن أسفلَ منكم، ومن كلِّ اتِّجاه، ولهذا عليكم بتقوى اللهِ تعالى ولا تعبُدوا سِواه، لكي تُنقذوا أنفسَكم من هذا العذاب.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴾

١٨ ـ لا يعبدُ أحدٌ الشيطانَ، وإنّما يقومُ الشيطانُ بترغيبِ الناس في عبادةِ غيرِ الله، ولهذا قيل لعبادةِ غيرِ الله: عبادةُ الشّيطان. على أيِّ حال الذين يرفُضونَ ترغيبَ الشّيطانِ وإغراءاتِه، ويَرجِعونَ إلى الله تعالى، هؤلاءِ لهم البُشْرى بالجنّة.

﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾

١٩ ـ يعني: العقلاءُ هم الذين يسمَعونَ ما يقالُ بتدبُّر، ويعمَلونَ بأحسنِ ما فيه، ولهذا يستحِقّونَ هدايةَ اللهِ تعالى.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾

٢٠ ـ الشَّخصُ الذي جَعَل من نفسِه مستحِقًّا لجهنَّمَ بطُغيانِه المستمرِّ، وحَكَم اللهُ تعالى أيضًا في شأنِه بالعذابِ الأبَديِّ، لا يمكنُ لأحدٍ مهما كان أن يُنقذَه من جهنَّم. يقولُ العلّامةُ البغَويُّ: «قال ابنُ عبّاس رضي اللهُ عنهما: يريدُ أبا لهبٍ ووَلَدَه»(١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾

٢١ ـ اللهُ تعالى أَنْزلَ من السماءِ ماءً في صُورةِ المطر، وأجرَى الماءَ عيونًا من الأرض، ثم أَنْبتَ من هذا الماءِ زَرْعًا مختلفَ الألوانِ والطَّعم، ثم ينضَجُ الزَّرعُ وبعدَها يَذبُلُ ويصفَرُّ لونُه، وفي النِّهاية يتآكلُ هذا الزَّرعُ ويتناثَرُ وينتهي.

في هذه الآيةِ نصيحةٌ عظيمة، وهي أنه مثلَما يَنبُتُ الزَّرعُ في الأرض، ثم يعيشُ حياتَه اليانعةَ لأيام يفنَى بعدَها، كذلك الإنسانُ فانٍ أيضًا، ولهذا لا ينبغي أن يتعلَّقَ قلبُه بالدُّنيا كأنه سيَخلُدُ فيها، وإنما ينبغي أن يكونَ كالمسافرِ يواصلُ سفَرَه في الدُّنيا، ويجتهدُ في الوصولِ إلى منزلِه الدائم، يعني: الحصولَ على رضا اللهِ تعالى.

أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ

---

(١) تفسير معالم التنزيل.

ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

٢٢ ـ من يفتحُ اللهُ تعالى قلبَه للإسلام يسيرُ في نورِ ربِّه على طريقِ الهداية، إلى أن يصلَ إلى الجنة، أمّا من قَسَتْ قلوبُهم، ولم يَدخُلْ إليها ذِكرُ الله تعالى ولا نورُ الإسلام، فإنّهم يسيرونَ على طريقِ الهلاك في ظُلُماتِ الضَّلال، ويَصِلونَ في النِّهايةِ إلى جهنَّم. هذا النّوعانِ من الناس لا يمكنُ أن يكونا متساوِيَيْنِ، لأنّ طريقَ كلٍّ منهم مختلفٌ، أحدُهما يتَّجهُ إلى الجنَّة، والآخرُ متَّجهٌ إلى جهنَّم.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «تلا رسُولُ الله ﷺ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ قلنا: يا رسولَ الله، كيف انشراحُ صدرِه؟ قال: «إذا دَخَلَ النُّورُ القلبَ انشَرحَ وانفَسَح»، قلنا: يا رسولَ الله، فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخلود، والتّجافي عن دارِ الغرور، والتّأهُّبُ للموتِ قبلَ نزولِ الموت»[1].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾

٢٣ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المَجيدَ، وهو أفضَلُ الكلام وخيرُه، وآياتُه يشبهُ بعضُها بعضًا في الفصاحةِ والبلاغةِ والوعظِ والنَّصيحةِ والعِلم والحِكمةِ والحقِّ

---

(١) معالم التنزيل.

والصِّدق، فلا تجدُ ضعفًا أبدًا في ألفاظِه أو معانيه، وجاء فيه ذِكرُ العقائدِ والوقائع المختلفة، بطُرُقٍ عديدةٍ، مرّاتٍ ومراتٍ، حتى يستوعبَه الناسُ جيِّدًا، وقد بَلَغ أثرُ القرآنِ الكريم إلى درجةِ أنه إذا جاء فيه ذِكرُ العذابِ الإلهيِّ طَرَأ خوفٌ عظيمٌ على المتَّقينَ بحيث تقشَعرُّ جلودُهم، وإذا جاء فيه ذِكرُ العذابِ الإلهيِّ رَقَّت قلوبُهم ولانَتْ، وتمايَلوا من فَرْطِ المحبة.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: كنّا جلوسًا معَ رسولِ الله ﷺ تحت شجرةٍ، فهاجت ريحٌ فوقَعَ ما كان عليها من وَرَقٍ نَخِرٍ وبقيَ ما كان من وَرَقٍ أخضرَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما مَثَلُ هذه الشّجرة؟»، فقال القوم: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «مَثَلُها مَثَلُ المؤمنِ، إذا اقشَعَرّ من خشيةِ الله عزَّ وجلّ وَقَعت عنه ذنوبُه وبَقِيت له حسَناتُه»[1].

ـ يَروي مالكُ بنُ دينار قائلًا: «قال موسى عليه السّلامُ: يا ربِّ، أين أَبْغيك؟ قال: ابغِني عندَ المنكسِرةِ قلوبُهم»[2].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

٢٤ ـ القرآنُ المَجيدُ كتابُ هدايةٍ من الله تعالى، فمن تدبَّره من أَجْل الوصولِ إلى الحقِّ، يَفتَحُ اللهُ تعالى له أبوابَ الهداية، فيؤمنُ، أمّا من يُعرِضُ عنه بسببِ تعصُّبِه وتكبُّرِه وصَلَفِه، يترُكه اللهُ تعالى يَعْمَهُ في الضّلال. واضحٌ أنّ من يُعرِضُ عن القرآنِ المجيد ويُحرَمُ من رحمةِ الله تعالى، فإنّ أحدًا لا يهديه.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

٢٥ ـ يَنقُلُ محمد عليّ الصابونيُّ في هذا الخصُوص قولَ المفسِّرين بأنّ

---

(١) شعب الإيمان، ١: ٤٩٢ برقم ٨٠٤.

(٢) حلية الأولياء، ٢: ٤١٣ برقم ٢٧٧٧.

«الوجهَ أشرَفُ الأعضاء، فإذا وَقَع الإنسانُ في شيءٍ من المخاوفِ فإنه يَجعَلُ يدَه وقايةً لوجهِه، وأيدي الكفّارِ مغلولةٌ يومَ القيامة، فإذا أُلقُوا في النارِ لم يجِدوا شيئًا يتَّقونَها به إلا وجوهَهم»[١]. كما نَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ الأقوالَ المختلفةَ، وخلاصتُها ما قاله عطاءٌ وابنُ زَيْد: «يُرمَى به مكتوفًا في النار، فأولُ شيءٍ تمَسُّ منه النّارُ وجهُه. وقال مجاهدٌ: يُجَرُّ على وجهِه في النّار. وقال مُقاتلٌ: هو أنّ الكافرَ يُرمَى به في النّارِ مغلولةً يداه إلى عنُقِه»[٢]، وسيقالُ لهم: ذُوقوا الآنَ عذابَ ظُلمِكم في جهنَّم.

ومقصودُ الآيةِ هو الإخبارُ بأنّ الظالمَ العاصيَ الذي سيُلقَى به في جهنَّمَ لا يمكنُ أن يستويَ معَ ذلك المؤمنِ الذي ستَصحَبُه الملائكةُ إلى الجنّة.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

٢٦ ـ كذَّبتِ الأُممُ السابقةُ أيضًا أنبياءهم، وكانوا في ذلك يظُنُّونَ أنّهم أصحابُ ثروةٍ عظيمةٍ وأبناءُ قبائلَ كبيرة، ولن يستطيعَ أحدٌ إلحاقَ الأذى بهم، ولكنْ حين يأتيهم العذابُ بَغْتةً على خلافِ توقُّعاتِهم، يصيبُهم الهلاكُ والدّمارُ والخِزْيُ في هذه الدنيا، أمّا العذابُ الذي ينتظرُهم في الآخِرة فهو عذابٌ عظيم.

في الآيةِ تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ أنهم يُكذِّبونَ النبيَّ ﷺ تكبُّرًا بأموالِهم ومكانتِهم بينَ قبائلِهم، لَيْتَهم يَعتبِرونَ من المصائرِ التي آلَتْ إليها الأُممُ السّابقة، وإلّا فحين يأخُذُهم اللهُ تعالى لن تنفعَهم حينَئذٍ أموالُهم ولا مكانتُهم ولا قبائلُهم بشيءٍ، وهذا بالفعل هو الذي حدَث، فقد أصابَهم الخِزيُ والذُّلُّ في يوم بدرٍ أولًا، وفي فتح مكّةَ انهارَت كلُّ قلاع آمالِهم.

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

٢٧ ـ الكتابُ الذي أَنْزلَه اللهُ تعالى على النبيِّ ﷺ اسمُه القرآنُ الكريم، ومعناه: الكتابُ المقروءُ والأكثرُ قراءةً في الدُّنيا كلِّها، وفيه كلُّ أنواع الأمثلةِ حتى يستطيعَ أن يفهمَه بنو الإنسانِ كلٌّ على قَدْرِ استطاعتِه، ويحصُلُ منه على النَّصيحة.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

٢٨ ـ هذا القرآنُ باللُّغةِ العربيّة، وهي اللُّغةُ الأمُّ للمخاطَبينَ الأُوَل للإسلام. واللُّغةُ العربيّةُ مكانةٌ متميِّزةٌ بين لُغاتِ الدُّنيا كلِّها بفَضْل وُسعتِها، ولا نظيرَ لها باعتبارِ فصاحةِ القرآنِ الكريم وبلاغتِه، كما أنّ كلَّ ما جاء في القرآنِ المجيدِ حقٌّ، سواءٌ كان فيما يتعلَّقُ بفصاحةِ الألفاظِ وبلاغتِها، أو بحقيقةِ المعاني وصِدقِها، ولا مجالَ فيه لأيِّ اختلافٍ أو عَيْبٍ ونقص.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ﴾

٢٩ ـ ضَرَب اللهُ تعالى في هذه الآيةِ مَثلًا بسيطًا سَهْلَ الفَهْم بغَرَضِ توضيح الفرقِ بينَ الشِّركِ والتوحيد، أي: بغُلام له أكثرُ من سيِّد، وكلُّ سيّدٍ من أسيادِه يريدُ أن يكونَ هذا الغُلامُ وَفِيًّا له هو، وأن يُنفِّذَ أوامرَه هو أولًا، وقد يَحدُثُ في بعضِ الأحيان أن يأمُرَه أكثرُ من سيّدٍ في وقتٍ واحد بتنفيذِ ما يريدونَ، وغلامٍ آخَرَ له سيّدٌ واحدٌ فقط، يأمُرُه في وقتٍ واحدٍ بأمرٍ واحدٍ، فهل يمكنُ أن يستويَ هذانِ الغلامان؟ بالقَطْع لا، فالغلامُ الذي يَملِكُه أكثرُ من سيّدٍ يكونُ دائمًا في قلقٍ واضْطِراب، ولا يستطيعُ أن يُرضيَ سادتَه جميعًا، بينَما الغلامُ الآخَرُ لا يصعُبُ عليه إرضاءُ سيّدِه الوحيد.

وبنفسِ الطريقة، فإنّ المشركَ يؤمنُ بأكثرَ من إلهٍ، ويظَلُّ دائمًا في قلقٍ واضطراب، فأحيانًا يقفُ أمامَ إلهِ المطر، وأحيانًا أمامَ إلهِ الرزق، وحينَ لا يتحقَّقُ كلُّ ما يريدُه من

هذه الآلهة يَرجِع إلى ربِّه الحقيقيِّ، وإذا انتهَت مشكلتُه وتيسَّرَ أمرُه عاد إلى الشِّركِ مضْطَربًا، بينَما المؤمنُ يوقنُ بربٍّ واحدٍ رحيم، ويَخِرُّ ساجدًا له في كلِّ أمرٍ من البداية إلى النِّهاية مطمئنًّا راضيًا.

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

٣٠ ـ الحمدُ والثَّناءُ كلُّه لله تعالى الذي أفهَمَنا التوحيدَ بما ضَرَب لنا من مثالٍ سَهْل بسيط، لكنّ المشركينَ معَ ذلك لا يفهَمونَ، ويظَلُّونَ مستغرِقينَ في شِركِهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾

٣١ ـ يقولُ العلّامةُ الخازنُ: «إنّهم كانوا يتربَّصُونَ برسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم موتَه، فأَخْبر اللهُ تعالى أنّ الموتَ يَعُمُّهم جميعًا فلا معنى للتربُّصِ وشَماتةِ الفاني بالفاني»(١).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾

٣٢ ـ سيصِلُ الأمرُ بينَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام وأقوامِهم يومَ القيامةِ إلى حدِّ الجَدَل والخِصام، فما أن يَرى أحدُ الطُّغاةِ من أقوامِهم مصيرَه السَّيِّئَ حتى يحاولَ أن يختلقَ عُذرًا قائلًا: يا ربَّنا، لقد كنّا على استعدادٍ للإيمانِ بك، ولكن لم يأْتِنا رسولٌ منك. وعليه سيقولُ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام: لقد أَبْلغْناكَ رسالةَ الله تعالى، ولكنَّك كذَّبتَنا. وعندَئذٍ ستَشهَدُ الأُمةُ المسلمةُ أنّ هؤلاءِ الأقوامَ الطُّغاةَ يكذِبون، فقد أَبْلغَهم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام ـ بالفعل ـ رسالَتك، ولكنّهم كذَّبوهم عامِدينَ، ويمكنُك الرجوعُ في ذلك إلى الآيةِ رقم ١٤٣ من سُورة البقرة.

---

(١) تفسير الخازن.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

٣٣ ـ الأكثرُ ظُلمًا: ذلك الشّخصُ الذي يَنسُبُ الكذبَ إلى الله تعالى، يعني: يَجعَلُ لله تعالى أولادًا، أو يتَّخذُ له شريكًا، وإذا جاءه الدِّينُ الحقُّ كذَّبَ به، فإذا لم تكنْ جهنَّمُ هي عاقبةَ أمثالِ هؤلاءِ المنكِرين، فماذا تكونُ عاقبتَهم إذًا؟

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾

٣٤ ـ جاء النبيُّ ﷺ بدِينِ الحقِّ، والسُّعداءُ الذين قَبِلوا هذا الدِّينَ مخلِصينَ من قلوبِهم هم الصَّالحونَ المتَّقون، وسيغفِرُ اللهُ تعالى لهم ما وَقَع منهم من ذنوبٍ حالَ كُفرِهم، وكذلك تقصيرَهم حالَ إسلامِهم، وسيَجْزِيهم أجرًا عظيمًا على كلِّ أعمالِهم

الصّالحة، وسيُعطيهم ربُّهم في الجنّةِ كلَّ ما يريدون.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾

٣٥ ـ يقولُ أبو السُّعود: «تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ عمّا قالت له قُريشٌ: لَتكُفَّنَّ عن شَتْم آلهتِنا، أو لَيُصيبَنَّك منها خَبَلٌ أو جنون»(١)، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ ردًّا عليهم وتسريةً عن قلبِ حبيبِه النبيِّ ﷺ، يعني: أنّ كفّارَ مكّةَ يخوِّفونَك من هذه الآلهةِ التي لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ولهذا لا تُبالِ بتهديداتِهم، فإنّ اللهَ تعالى يكفيكَ حافظًا.

مثلَما نجَّى اللهُ تعالى سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ من النَّمرودِ ورجالِه، ونجَّى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ من فِرعَونَ ورجالِه، كذلك سيحفَظُكَ اللهُ تعالى من شرِّ كفّارِ قُريش، وإن لم يَرجِعْ هؤلاءِ الكفّارُ عن أفعالِهم القبيحةِ فإنّ اللهَ تعالى غالبٌ على الجميع، وقادرٌ على الانتقام من الكفّار.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

٣٦ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، سَلِ الأصنامَ التي يُخوِّفُك منها مشركو مكّةَ: مَنِ الذي خَلَق السماواتِ والأرضَ؟ وسيُجيبونَك يقينًا: اللهُ تعالى هو الذي خَلَق السّماواتِ والأرضَ، ثم سَلْهم ثانيةً: لو أرادَ اللهُ تعالى أن يَبتليَني بشيءٍ، هل تستطيعُ آلهتُكم أن تَرفَعَ عنّي هذا الابتلاءَ؟ أو لو أنّ اللهَ تعالى أراد أن يُنعِمَ علَيَّ برحمةٍ من عندِه، هل تستطيعُ آلهتُكم أن تَمنَعَ هذه الرحمةَ؟

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قالوا: لا تَدفَعُ شيئًا قدَّرَه اللهُ، ولكنّها تشفَعُ، فنزَلتْ

---

(١) صفوة التفاسير.

﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾»[(١)]، يعني: لا حاجةَ لشفاعةِ آلهتِكم، واللهُ تعالى يكفيني، وأنا أتوكَّلُ عليه ويتوكَّلُ عليه كلُّ أهلِ الإيمانِ أيضًا.

﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾

٣٧ ـ يعني: إذا لم تَقبَلوا دعوتي، وأصرَرتُم على البقاءِ على شِركِكم، فأنتم وشأنُكم، فلْتَبْقُوا على شِركِكم كما تريدونَ، أمّا أنا فقائمٌ على التوحيدِ في كلِّ حال، وستعلَمونَ أنتم أيضًا عن قريبٍ هل يَنزِلُ عذابُ الخِزْيِ في الدنيا، والعذابُ الدائمُ في الآخِرة، علَيّ أنا، أم عليكم؟ والتاريخُ شاهدٌ على أنّ سلسلةَ نزولِ العذابِ على المشركينَ بدَأَتْ معَ غزوةِ بدر، وفي يوم فَتْح مكّةَ تمزَّقتْ بالُوناتُ تكبُّرِهم، وصار العذابُ الدائمُ في الآخِرة مقدَّرًا عليهم بسببِ كُفرِهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾

٣٨ ـ كان النبيُّ ﷺ يحزَنُ كثيرًا على ضلالِ أهلِ مكّةَ، وفي هذه الآيةِ تسرِيةٌ عن قلبِه ﷺ بأنّ اللهَ تعالى أَنْزلَ عليك القرآنَ المَجيدَ حتى تُرشدَ الناسَ إلى طريقِ الهداية، وقد أدَّيتَ أيُّها النبيُّ الكريمُ ﷺ فَرْضَ تبليغ القرآنِ الكريم، والآنَ إذا اختار أحدٌ طريقَ الهدايةِ ففيه خيرٌ له وفائدةٌ، وإذا اختار أحدٌ طريقَ الضّلالِ فإنّ الضَّررَ يقَعُ عليه هو، وهو المسئولُ عن ذلك، ولن تُسألَ عن ضلالِه، ولهذا لا تغتَمَّ ولا تحزَنْ.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنّما مَثَلي ومَثَلُ النّاسِ كمَثَل رجُلٍ استَوْقدَ نارًا، فلمّا أضاءت ما حولَه جَعَل الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الّتي تقَعُ في النّارِ يقَعْنَ فيها، فجَعَل يَنزِعُهنَّ ويَغلِبنَه فيَقتَحِمْنَ فيها،

(١) تفسير القرطبي.

فأنا آخِذٌ بحُجزكم عن النّار، وأنتم تقتَحِمونَ فيها»[1].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَـٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾

٣٩ ـ كثيرًا ما يُستعمَلُ لفظا: النفسِ والرُّوح بمعنًى واحد، وقَبْضُ الرُّوح هنا في صُورتَيْن، الأولى: قَبْضُ الرُّوح للأبد، أي: حتى قيام الساعة، والمرادُ منه الموت، والصُّورةُ الثانية هي: قَبْضُ الرُّوح مؤقَّتًا لعدّةِ ساعات، والمرادُ منه النَّومُ.

وبعدَ التوضيح المذكورِ يصبحُ معنى الآية: أنّ الله تعالى يَقبِضُ ـ إلى الأبد ـ أرواحَ أولئك الذين حَلَّ موعدُ موتِهم الحقيقيِّ، وأما الذين لم يَحِنْ وقتُ موتِهم

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٢٦ برقم ٦٤٨٣.

الحقيقيِّ فإنّ اللهَ تعالى يَقبِضُ أرواحَهم بشكلٍ مؤقَّتٍ في النوم، ومَن يتقرَّرُ موتُه يموتُ عندَئذٍ في حالِ نومه، وتُمسَكُ رُوحُه إلى الأبدِ فلا تعودُ إليه حتى يوم القيامة، أمّا الأرواحُ الأخرى فتعودُ إلى أصحابِها إلى وقتٍ محدَّد، وكأنّ النَّومَ واليَقَظةَ نموذجانِ للموتِ والحياة، والذين يتدبَّرونَ الأمرَ يجِدونَ فيه آياتٍ على قُدرةِ الله تعالى، بمعنى: أنّ الذي يمكنُه أن يوقِظَ بعدَ الإنامةِ يمكنُه أيضًا الإحياءُ بعدَ الموت.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾

٤٠ ـ كان مشركو مكّةَ يؤمنونَ بأنّ الأصنامَ شُفعاءُ لهم عندَ الله تعالى، ولهذا قال لهم النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: إنّ الأصنامَ التي جعَلتُموها شفعاءَ لكم عندَ الله تعالى لا تَملِكُ شيئًا، بل إنّها لا تَملِكُ من الشُّعورِ ما يمكِّنُها من أن تَسمعَ استغاثتَكم بها أو تفهُّمَها، فكيف إذًا ستَشفَعُ لكم؟ ولهذا اسمَعوا جيِّدًا ما أقولُه لكم، إنّ أمرَ الشفاعةِ كلَّه في يدِ الله تعالى فقطْ، وهو مالكُ السّماواتِ والأرضِ، ولن يستطيعَ أن يَشفَعَ إلّا أولئك الذين يأذَنُ اللهُ لهم بالشَّفاعة، فهل لديْكُم دليلٌ على أنّ اللهَ تعالى قد أَذِن لأصنامِكم أن تَشفَعَ لكم؟ فإذا لم يكنْ لدَيْكم دليلٌ على هذا فاتَّقوا اللهَ وخافوهُ؛ لأنّكم جميعًا ستَرجِعونَ في يومٍ من الأيام إلى اللهِ تعالى وتمثُلونَ في حضرتِه، فبأيِّ وجهٍ ستلقَوْنَه إذًا؟

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾

٤١ ـ كان مشركو مكّةَ يُنكِرونَ الآخرةَ والتوحيدَ، ولهذا إذا تحدَّث أحدٌ من المسلمينَ أمامَهم عن توحيدِ الله عزَّ وجَلّ، فإنّ ذلك كانَ يثقُلُ عليهم، أمّا إذا ذَكرَ أحدٌ ممَّن على شاكلتِهم الأصنامَ فإنّهم كانوا يتمايَلون فرحًا وسرورًا.

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

٤٢ ـ حينَ كان المشركونَ يُجادلونَ تأييدًا للشِّركِ وخلافًا للحقِّ، فإنّ النبيَّ ﷺ كان يندهشُ لتصرُّفِهم هذا، فماذا دَهَى عقولَهم؟ ألا يستطيعونَ إدراكَ الفرقِ بينَ الله تعالى القادرِ المطلَق وأصنامِهم التي صَنَعوها بأيديهم؟ وعليه قال اللهُ تعالى مُسَرِّيًا عن النبيِّ ﷺ: لا تحزَنْ من جِدالِهم ولا تقلَقْ منه، ولكنْ فوِّضْ أمرَهم إلى اللهِ تعالى، وادعُ اللهَ تعالى؛ لأنه هو القادرُ المطلَق، ويَعلَمُ تمامَ العلم ظاهرَ الناسِ وباطنَهم، وهو الذي سيَحكُمُ في اختلافاتِهم بالحقِّ.

﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾

٤٣ ـ كان المشركونَ يُنكرونَ الآخِرةَ، ولهذا كانوا يسخَرونَ من أهلِ الإيمانِ بأنه إذا كانتِ القيامةُ لن تأتيَ أصلًا، فمن أينَ سيأتي العذابُ إذًا؟ ولكنْ حينَما يُكشَفُ عن سيّئاتِ هؤلاءِ الظّالمينَ أمامَ أعيُنِهم يومَ القيامة، وحين يُحيطُ بهم من كلِّ جانبٍ ذلك العذابُ الذي كانوا لا يؤمنونَ به، بل وكانوا يسخَرونَ منه، عندَئذٍ ترتجفُ الأرضُ تحتَ أقدامِهم، ولو كانوا في ذلك الوقتِ يملِكونَ أموالَ الدُّنيا كلَّها ومتاعَها، وبل وأضعافَ ذلك أيضًا، لِيفتَدُوا أنفُسَهم من هذا العذابِ بهذا المالِ والمتاع لَفَعلوا، ولكنَّهم لن يستطيعوا الإفلاتَ منه، لأنه أولًا لن يكونَ لدى أحدٍ في الآخِرة مالُ الدُّنيا ومتاعُها، وعلى افتراضِ أنّ أحدًا لدَيْه بالفعل خزائنُ الدنيا، فسوف تُرَدُّ عليه غيرَ مقبولةٍ؛ لأنّ عِملةَ ميدانِ الحَشْر ليست أموالَ الدُّنيا ومتاعَها، وإنّما الأعمالُ الصّالحة.

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إن النبيَّ ﷺ قال: «يقالُ للكافرِ يومَ القيامة: أرأيتَ لو كان لك مِلءُ الأرضِ ذهبًا، أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقالُ له: كذَبْتَ، قد سُئلتَ أيسرَ من ذلك (أي: أن تؤمنَ باللهِ تعالى)»[1]، أي: ولكنَّك لم تؤمنْ، فكيف ستُنفقُ مِلءَ الأرضِ ذهبًا؟

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٤٤ ـ كثيرًا ما يَحدُثُ أنه عندَما يُبتَلى الإنسانُ بشيءٍ ما فإنه يَضْطرِبُ ويخافُ ويلجَأُ إلى اللهِ تعالى يستغيثُ به، وعندَما يُنجِّيهِ اللهُ تعالى من هذا الابتلاءِ فإنه يجحَدُه قائلًا: لقد أُوتيتُ هذه النِّعمةَ على عِلمٍ عندي وحِكمةٍ، أو يقول: إنّ اللهَ راضٍ عنّي، ولهذا أَنْعَم عليّ بهذه النِّعمة، معَ أنّ الأمرَ ليس مثلَما يفهَمُ الإنسانُ، فإنّ هذه النِّعمةَ تكونُ بغَرَضِ ابتلائه، وإن لم يؤَدِّ شُكرَها فستكونُ هذه النِّعمةُ بمثابةِ النِّقمةِ عليه والمصيبة، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يفكّرونَ في هذا الابتلاء، ويظَلُّونَ يَعْمَهونَ في ضَلالِ أفكارِهم غيرِ الناضجة.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

٤٥ ـ المرادُ منه: الأُممُ السابقة، أو أنها إشارةٌ بشكلٍ خاصٍّ إلى قارونَ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الآياتِ من ٧٦ إلى ٨١ من سُورة القَصَص (٢٨).

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾

٤٦ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ بأنّ الأُممَ السابقةَ التي طَغَت وجَحَدت، قد رأيتُم

---

(١) مسلم، كتاب المنافقين، باب ١٠ برقم ٧٠٨٥، ٧٠٨٦.

في أسفارِكم التِّجاريّةِ قُراها ومساكَنها التي دَمَّرها اللهُ تعالى عقابًا لهم على أفعالِهم القبيحة، والآنَ إنْ لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن ظُلمِكم فسيَنزِلُ العذابُ عليكم قريبًا، ومثلَما لم تستطع الأُممُ السّابقةُ الإفلاتَ من العذابِ، لن تستطيعوا أنتم أيضًا الإفلاتَ منه، وبالفعل، يشهَدُ التاريخُ على أنّ الذين استمَرُّوا على طُغيانِهم في شبهِ الجزيرةِ العربيّة إمّا أنهم قُتِلوا في المعارك، أو أنّهم رَحَلوا عنها إلى بلادٍ أخرى.

﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

٤٧ ـ زيادةُ الرِّزقِ ونقُصانُه ليس دليلًا على أنّ صاحبَه مقبولٌ أو مردودٌ، وإنّما الفقرُ والغِنى كلَيْهما ابتلاءٌ للإنسان، والمقبولُ عندَ الله تعالى هو الذي يتَّقي اللهَ في الحالتَيْنِ ولا يعصيه.

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن سَرَّه أن يستجيبَ اللهُ له عندَ الشّدائدِ والكُرَبِ فلْيُكثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاء»[1].

قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٢.

وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

٤٨ ـ يقولُ الإمامُ ابنُ كَثِير: «هذه الآيةُ الكريمةُ دعوةٌ لجميع العُصاةِ من الكَفَرةِ وغيرِهم إلى التَّوبةِ والإنابة، وإخبارٌ بأنّ اللهَ يغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا لمَن تابَ منها ورَجَع عنها، وإن كانت مهما كانت وإن كثُرَتْ وكانت مِثلَ زَبَدِ البحر»[1]، يعني: أولئك الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم، أو أولئك المسلمينَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بكثرةِ ذنوبِهم، لا ينبغي أن يعتقِدوا أنّهم مُذْنِبونَ إلى أقصَى درجة، فكيف تُغفَرُ ذنوبُهم؟ وإنّما إذا قَبِلوا الإسلامَ بقلوبٍ صادقة، أو تابوا من ذنوبِهم، فإنّ اللهَ سيغفِرُ ذنوبَهم، ولهذا لا تَيْأَسوا من رحمةِ الله تعالى؛ لأنّ رحمتَه واسعةٌ لا حدَّ لوُسعتِها.

رحمة الله تعالى

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان فيمَن كان قبلَكم رجلٌ قَتَل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسألَ عن أعلمِ أهل الأرض فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه فقال: إنّه قَتَل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فهل له من توبةٍ؟ فقال: لا، فقَتَلَه فكمَّل به مائةً، ثمّ سأل عن أعلم أهلِ الأرض فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ فقال: إنّه قَتَل مائةَ نفسٍ فهل له من توبةٍ؟ فقال: نَعْم، ومَن يَحُولُ بينَه وبينَ التّوبةِ؟ انطلِقْ إلى أرضِ كذا

---

(١) تفسير ابن كثير.

وكذا فإنّ بها أناسًا يعبُدونَ اللهَ فاعبُدِ اللهَ معَهم ولا تَرجِعْ إلى أرضِك، فإنّها أرضُ سوءٍ. فانطَلَقَ حتّى إذا نَصفَ الطّريقَ أتاه الموتُ، فاختَصَمتْ فيه ملائكةُ الرّحمةِ وملائكةُ العذاب، فقالت ملائكةُ الرّحمة: جاء تائبًا مُقبِلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكةُ العذاب: إنّه لم يعمَلْ خيرًا قطُّ. فأتاهم مَلَكٌ في صورةِ آدميٍّ فجَعَلوهُ بينَهم (أي: جعلوه حاكمًا بينَهم)، فقال: قِيسوا ما بينَ الأرَضينَ فإلى أيّتِهما كان أدنى فهو له. فقاسُوه فوجَدوهُ أدنى إلى الأرضِ الّتي أراد فقبضَتْه ملائكةُ الرّحمة»[1]. ويقولُ الإمامُ البخاريُّ في نهايةِ هذا الحديث: «فاختَصَمت فيه ملائكةُ الرّحمةِ وملائكةُ العذاب، فأوحَى اللهُ إلى هذه أن تَقرَّبي، وأوحَى اللهُ إلى هذه أن تَباعَدي، وقال: قيسوا ما بينَهما، فوجَد إلى هذه أقربَ بشِبرٍ، فغُفِر له»، يعني: أنّ رحمةَ الله واسعةٌ إلى درجةِ أنه لو تاب قاتلُ المائةِ فإنّ اللهَ يعفو عنه، ولهذا لا ينبغي أن يَيْأَسَ أحدٌ من رحمةِ الله تعالى.

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو يَعلَمُ المؤمنُ ما عندَ الله من العقوبة ما طَمِع بجنّتِه أحدٌ، و لو يَعلَمُ الكافرُ ما عندَ الله من الرّحمةِ ما قَنَط من جنّتِه أحدٌ»[2].

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

٤٩ - التوبةُ التي وَردتِ الإشارةُ إليها في الآيةِ السّابقة جاء التأكيدُ عليها هنا بألفاظٍ صريحةٍ واضحة، بأنْ تُوبوا إلى اللهِ تعالى قبلَ أن يأتيَكم العذابُ، وكونوا عبادًا طائعينَ له، ولكنْ إن لم تَتُوبوا وجاءَكم العذابُ، فلن يُساعدَكم أحدٌ، يعني: أنّ التّوبةَ التي تكونُ في الوقتِ الأخيرِ لا تُقبَل.

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٦ برقم ٣٤٧٠، ومسلم، كتاب التوبة، باب ٨ برقم ٧٠٠٨.
(٢) مسلم، كتاب التوبة، باب ٤ برقم ٦٩٧٩.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

٥٠ ـ أَنْزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ لهدايـتِكم، فأسرِعوا إلى العمَلِ به، فمن الممكنِ أن يأتيَكم العذابُ بَغْتةً، ويُهلِكَكم ويُدمِّرَكم.

﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾

٥١ ـ حين يَرى الكفّارُ سُوءَ عاقبتِهم في ميدانِ الحَشْر يتحسَّرونَ قائلين: ليتَنا لم نقصِّرْ فيما يتعلَّقُ بتوحيدِ الله عزَّ وجلّ، ولم نَسخَرْ من أنبيائه الكرام عليهمُ السلام، لمّا رأينا هذا العذابَ، ولكنّ الأسفَ والحسرةَ والنَّدمَ لا فائدةَ منها إذْ ذاك.

﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

٥٢ ـ سيقولُ الكفّارُ عندَما يرَوْنَ عذابَهم في ميدانِ الحشر: لو هدانا اللهُ تعالى لكُنّا من المتَّقين، ولكنّ اللهَ تعالى لم يُنعِمْ علينا بالهداية أصلًا، فما ذَنبُنا نحن في هذا إذًا؟ ثم يتمنَّوْنَ ليتَنا نُمنَحُ فرصةَ العودةِ ثانيةً إلى الدنيا، لَكُنّا من الصالحين. فيقولُ اللهُ تعالى ردًّا عليهم: إنّ كلَّ هذا حُجَجٌ واهيةٌ وأعذارٌ تختَلِقُونَها، معَ أنّ رسُلي قد جاءتْكم، ورأيتُم المعجِزاتِ منهم، ولكنَّكم تكبَّرتُم، وأنكرتُم عامِدين، ولهذا لا مجالَ لأن يُعطَى أحدٌ مُهلةً أخرى.

﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾

٥٣ ـ الذين يشركونَ معَ الله تعالى ويجعَلونَ له ولدًا، ويُنكرونَ رسُلَ الله إليهم، إنما يَفْتَرونَ على اللهِ الكذبَ، وليس لديهِم أيُّ دليلٍ على صِدق ما يقولونَ، ولهذا ستسوَدُّ وجوهُهم يومَ القيامة حينَ يرَوْنَ عذابَ كذِبهم هذا.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

٥٤ ـ الذين يُنكرونَ أحكامَ الله تعالى ويحتَقِرونَ الناسَ هم المتكبِّرون، وهؤلاء مصيرُهم جهنَّمُ.

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

٥٥ ـ الذين يتَّقونَ الله ويَقْضُونَ حياتَهم في العملِ الصّالح، هم المُفلِحونَ في الآخِرة، وسيكونونَ محفوظينَ من كلِّ حُزنٍ وألمٍ.

﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

٥٦ ـ الذين يُنكرونَ آياتِ الله تعالى لا يَضُرُّونَ اللهَ شيئًا، بل ولا يستطيعونَ ذلك، وإنما يَجلُبونَ لأنفُسِهم الضَّررَ والخُسرانَ بارتكابِهمُ العِصيانَ.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

٥٧ ـ يقولُ سيِّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «إنّ المشركينَ مِن جَهْلِهم دَعَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم إلى عبادةِ آلهتِهم وأن يعبُدوا معه إلهَه،

فنزلت»[1]، فقال النبيُّ ﷺ ردًّا عليهم: هذا من المستحيل؛ لأنّ هذا هو الذي أُوحيَ به إليَّ وإلى الأنبياءِ الكرام السابقينَ من قَبْلي عليهمُ السّلام، بأنّ مَن يُشرِكْ يَضِعْ عمَلُه، وسيكونُ من الخاسرين. والخطابُ في هذه الآية رَغْم أنه للنبيِّ ﷺ، لكنّه ـ في الأصل ـ تنبيهٌ للأُمة؛ لأنّ كلَّ نبيٍّ يكونُ معصومًا من الشِّركِ ومنَ ارتكابِ الذنوبِ الأخرى، ولا يعبُد أحدًا إلا اللهَ تعالى.

أحدُ أسبابِ نَعْتِ المشركينَ هنا بالجَهْل هو: أنهم لا يعلَمونَ حتى هذا القَدْرَ البسيطَ من أنّ الدَّعوةَ إلى التوحيدِ لم يَقُمْ بها النبيُّ ﷺ فقطْ، وإنّما قام بها كلُّ الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السّلامُ أيضًا، والسببُ الثاني هو: أنهم أيضًا لا يعلَمونَ أنّ الذي يدعو الآخَرينَ إلى التوحيدِ كيف يكونُ هو نفسُه مُشرِكًا.

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

٥٨ ـ المشركونَ لم يَقدُروا اللهَ حقَّ قَدْرِه باتِّخاذِهم شركاءَ له تعالى، معَ أنّ السماءَ والأرضَ يومَ القيامة ستكونانِ في قَبْضةِ قُدرتِه، لهذا فإنّه ليس له شريكٌ، ولا هو يحتاجُ إلى شريكٍ أصلًا، واليومَ أيضًا مالكُ السماءِ والأرضِ هو اللهُ تعالى يقينًا، ولكنْ جاء ذِكرُ يوم القيامةِ في هذه الآيةِ لأنّ الكفارَ أيضًا سيُشاهدونَ يومَ القيامة أنّ مالكَ السّماءِ والأرضِ هو اللهُ تعالى فعلًا.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السّمواتِ بيمينِه، ثمّ يقولُ: أنا المَلِك، أين ملوكُ الأرض؟»[2].

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الزمر (٣٩) برقم ٤٨١٢.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾

٥٩ ـ حين يُنفَخُ في الصُّورِ لأولِ مرةٍ ستفنَى المخلوقاتُ كلُّها، لكنّ بعضًا منها سيبقَى حيًّا، وهو الذي تختلفُ حولَه أقوالُ المفسِّرينَ مثلَ: سيِّدِنا جِبريلَ وسيِّدِنا ميكائيلَ وسيِّدِنا إسرافيلَ وسيِّدِنا مَلَكِ الموت وغيرِهم عليهم جميعًا السَّلامُ، ولكنّهم أيضًا سيموتونَ قَبْلَ نفخةِ الصُّورِ الثانية؛ لأنّ كلَّ نفسٍ ذائقةُ الموت، ثم سيُبعَثُ الناسُ من جديدٍ فورَ صدورِ النَّفخةِ الثانية، ويَنظُرونَ متعجِّبينَ مندهشين.

يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «بينَ النَّفْختَيْنِ أربعون»[1].

﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

٦٠ ـ الأرضُ التي نعيشُ عليها اليومَ ستفنَى، وسيَخلُقُ اللهُ تعالى أرضًا جديدةً غيرَها، ورَغْم أنه ستكونُ هناك شمسٌ أيضًا، لكنّ اللهَ تعالى سيتجَلَّى بشكلٍ خاصٍّ بحيث تضيءُ أرضُ القيامةِ بنُورِ العدلِ والإنصاف، وستوضَعُ أمامَ كلِّ شخصٍ صحيفةُ أعمالِه، وسيُبيِّنُ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السّلامُ كيف كانت دعوتُهم وكيف كان رَدُّ فعلِ أقوامِهم، وستُنكِرُ بعضُ الأُمم دعوةَ أنبيائهم الكرام عليهمُ السّلام، وعندَئذٍ ستشهَدُ الأُمةُ المحمَّديّةُ قائلةً: إنّ هذه الأُمةَ تكذِب؛ لأنّ النبيَّ الخاتَمَ سيّدَنا محمدًا ﷺ أخبَرَنا أنّ الأنبياءَ الكرامَ جميعًا عليهمُ السّلام قد أَدَّوْا حقَّ الدّعوةِ، وهؤلاءِ قد كذَّبوهم عامِدين، كما أنّ الملائكةَ وأعضاءَ الجسَدِ الإنسانيِّ ستشهَدُ أيضًا، وكلُّ الأحكام ستكونُ مَبْنيّةً على العدلِ والإنصاف، ولن يقَعَ ظُلمٌ على أحد؛ لأنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَ الناسِ كلَّها، وهو ليس في حاجةٍ إلى صُحُفِ الأعمالِ أو

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الزمر (٣٩) برقم ٤٨١٤.

شهادةِ أحدٍ، ولكنْ سيُقدَّمُ الشُّهودُ إتمامًا للحُجّةِ وتحقيقًا لمقتَضياتِ العدل.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾

٦١ ـ سيتمُّ تقسيمُ الكفّارِ إلى مجموعاتٍ طبقًا لدرجةِ كُفرِهم، ثم يُدفَعُ بهم باتّجاهِ جهنَّم، وحين تَصلُ هذه المجموعاتُ عندَ جهنَّمَ تُفتَحُ لهم أبوابُها، وتَسألُهم الملائكةُ حُرّاسُ جهنَّمَ قائلين: ألم يأتِكم رسولٌ؟ وألم يُنذِركم من هذا العذاب؟ وهنا يُضْطَرُّونَ إلى الاعترافِ والتسليم بأنّنا قد جاءنا رسولٌ بالفعل، لكنْ كنّا خائبين إذْ لم نُطِعْ ما قال، فأدَّى ذلك إلى صُدورِ حُكم من اللهِ تعالى علينا بالعذاب.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا﴾

٦٢ ـ سيُقسَّمُ المتَّقونَ إلى مجموعاتٍ طبقًا لدرجةِ إيمانِهم، ثم يؤخَذونَ إلى الأبوابِ المختلفةِ للجنّة، حيث ستكونُ الملائكةُ في استقبالِهم وتُفتَحُ أبوابُ الجنّةِ لهم، فيُسلِّمونَ عليهم، ويقومونَ على خِدمتِهم.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

٦٣ ـ حين يصِلُ أهلُ الجنةِ إلى الجنةِ سيَشكُرونَ اللهَ عزَّ وجَلّ الذي صَدَقَ وعدَه وجَعَل المتَّقينَ مُلّاكًا للجنّة، وسيُقيمونَ حيثُ يشاءون في المكانِ المخصَّص لهم في الجنة، ولا قَيْدَ عليهم مطلَقًا في هذا، وسيُمكِنُهم الذهابُ كلّما شاءوا للقاءِ الآخَرينَ من أهلِ الجنة، إنّ أَجْرَ الذين يعمَلونَ الصّالحاتِ سيكونُ عظيمًا فعلًا.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٦٤ ـ سيتَحلَّقُ الملائكةُ حولَ العرشِ عندَ الحساب، ويُسبِّحونَ ربَّهم، وحين يَحكُمُ بينَ الناسِ بالحقِّ والإنصافِ يقولونَ جميعًا: الحمدُ لله ربِّ العالَمين.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بيزْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاءِ من يوم الاثنين ٨ مارس ٢٠١٠م
الموافق ٢٢ ربيعٍ الأول ١٤٣١هـ.

بفَضْل الله وكرَمِه اكتَملَ تفسيرُ سورةِ الزُّمَر في عشَرة أيام فقطْ، أي: من ٢٦ فبراير إلى ٨ مارس، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٠) سُورَةُ غَافِرٍ

هذه السُّورةُ مكِّية، ولها اسمانِ؛ الأولُ هو: «المؤمن»، والثاني هو: «غافِر»، أمّا «المؤمنُ» فهو مأخوذٌ من الآية رقم **٢٨** من السُّورة، وأمّا «غافر» فمأخوذٌ من الآيةِ رقم **٣** منها.

مضامين السورة

ـ جاء الإعلانُ صراحةً وبشكلٍ واضح في أولِ هذه السُّورةِ بأنّ القرآنَ المجيدَ ليس من كلام بشَرٍ، وإنما أَنْزلَه اللهُ تعالى، وشأنُه تعالى أنه رحيمٌ، يعفو عمَّن يتُوبُ، أمّا من يتجبَّرُ ويَطْغَى فيعاقبُه عقابًا قاسيًا.

ـ فيها تسرِيةٌ عن قلبِ النبيِّ الكريم ﷺ بأنْ لا تهتمَّ يا رسولَ الله ﷺ بمخالفةِ الكفّارِ لك، فقد خالَـفَت الأُممُ السّابقةُ أيضًا أنبياءَهم الكرامَ عليهم السّلام، ولمّا لم يعودوا عن طُغيانِهم دمَّرهم اللهُ وأهلَكَهم، ولهذا على مُشركي مكةَ أن يتعقَّلوا، وأن يَعتبِروا من مصيرِ الأُمم السّابقة، وإلّا فسينزِلُ العذابُ عليهم أيضًا، أمّا الذين يؤمنونَ فسوف يَغفِرُ اللهُ ذنوبَهم، وستدعو ملائكةُ العرشِ لهم ولآبائهم وذُرِّيّاتِهم.

ـ الرجلُ المؤمنُ الشُّجاعُ الذي سُمِّيت هذه السُّورةُ نسبةً إليه كان من قوم فِرعَوْنَ وأخاه في الوَطَن، وكان قد آمَن بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ، لكنّه لم يكنْ قد

أعلنَ إيمانَه بعدُ، في تلك الفترةِ استدْعَى الفِرعَونُ رجالَ بَلاطِه للاجتماع بهم، ودُعِيَ ذلك الرجلُ إلى الاجتماع أيضًا، وفي هذا الاجتماع قال فِرعونُ: إنّ موسى عليه السَّلامُ ساحرٌ، ويريدُ أن يُبدِّلَ دينَكم، وينشُرَ الفتنةَ والفسادَ في بلادِكم، ولهذا يجبُ أن تَقتُلوه. وعندَئذٍ وَقَف الرجلُ المؤمنُ وأخَذ يَخطُبُ مُدافِعًا عن سيِّدِنا موسى عليه السَّلام فقال: أيُّ قانونٍ خالَفَه سيِّدُنا موسى عليه السَّلام، وتريدونَ قَتْلَه عقابًا له على مخالفتِه هذه؟ اترُكوه في حالِه، فإنْ كان كاذبًا فلن ينتشرَ دِينُه ولن يَكتملَ، وسيموتُ من نفسِه وينتهي، وإن كان صادقًا فعليكم أن تَخافوا من عذابِ الله، وأن تَعتبِروا من هلاكِ الأُمم السّابقة، وإلّا فلن تستطيعوا أنتم أيضًا الإفلاتَ من هذا العذاب. وكان خطابُ هذا الرجُل المؤمنِ مؤثِّرًا ومُدَلِّلًا إلى درجةٍ جَعَلت الصَّمتَ يعُمُّ المجتمِعينَ، ولم يؤيِّدْ أحدٌ منهم موضوعَ قتَلْ سيّدِنا موسى عليه السلام.

ـ جاء في هذه السُّورة بيانٌ للتوحيد والآخِرة بطُرُقٍ وأساليبَ متعدِّدة، مَثَلُها مَثَلُ السُّوَرِ المكِّيّةِ الأخرى، كما جاء فيها تخويفٌ من عذابِ الآخِرة للذين لن يؤمنوا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٩ مارس ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ ربيعٍ الأول ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ غَافِرٍ (٤٠)،

مكية (٦٠)، آياتها (٨٥)، ركوعاتها (٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾

﴿حمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى ورسولِه ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجع الحاشيةَ الأُولى من سُورة البقرة.

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

٢ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للطُّغاةِ من جانبٍ بأنّ الجميعَ سيعودونَ يومًا إلى حضرةِ الله تعالى، وسيُحاسِبُهم حسابًا عسيرًا، ومن جانبٍ آخَرَ فيها بُشرى للمذنِبينَ بأنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، وما أن يتوبَ العبدُ إلى الله توبةً صادقةً حتى يَغفِرَ له فورًا كلَّ ذنوبِه، ويبدَأُ الإنسانُ حينَئذٍ رحلةً لحياةٍ جديدة، وتأمَّلْ في الواقعةِ التاليةِ أثَرَ صفاتِ الله تعالى التي وَرَد ذِكرُها في هذه الآية:

خطابٌ يمتلئُ نُصحًا من سيِّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنه

يقولُ الإمامُ ابنُ كَثير: «كان رجلٌ من أهلِ الشّام ذو بأسٍ، وكان يَفِدُ إلى عُمرَ بن الخطّاب رضيَ اللهُ عنه، فَفقَده عُمرُ فقال: ما فَعَل فلانٌ ابنُ فلانٍ؟ فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، يُتابع في هذا الشّراب. قال: فدَعَا عُمرُ كاتبَه، فقال: اكتُبْ: «مِن عُمرَ بن الخطّاب إلى فلانِ ابنِ فلانٍ، سَلامٌ عليك، [أمّا بعدُ]: فإنّي أحمَدُ إليكَ اللهَ الّذي لا إلَه إلّا هو، ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾. ثمّ قال لأصحابه: ادعوا اللهَ لأخيكم أن يُقبِلَ بقلبه، وأن يتوبَ اللهُ عليه. فلمّا بَلَغ الرّجلَ كتابُ عُمرَ جَعَل يقرأه ويُرَدِّدُه، ويقول: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾، قد حَذَّرني عقوبتَه ووَعَدني أن يغفرَ لي. ورواه الحافظ أبو نُعَيمٍ من حديثِ جعفرِ بن بُرْقان، وزاد: «فلم يَزَل يُردِّدُها على نفسِه، ثمّ بَكَى ثمّ نَزَع فأحسَنَ النَّزْعَ، فلمّا بَلَغ عُمرَ [رضي اللهُ عنه] خبرُه قال: هكذا فاصنَعوا، إذا رأيتُم أخاكم زَلَّ زلَّةً فسدِّدوه ووَفِّقوه، وادعُوا اللهَ له أن يتوبَ عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشّيطانِ عليه»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾

٣ ـ النِّقاشُ والجِدالُ بالتي هي أحسَنُ من أَجْل إثباتِ الحقِّ أمرٌ طيِّبٌ، لكنّ الكفّارَ يجادِلونَ من أَجْل إثباتِ بُطلانِ آياتِ القرآنِ لا أكثَر، ومعَ ذلك كان كفّارُ مكّةَ يتنقلونَ بينَ المُدنِ المختلفة بحُرِّيةٍ تامّة، ويجْنُونَ مكاسبَ طائلةً من التجارة، ويعيشونَ حياةً مرفَّهةً، ولم يَنزِلْ عليهم العذابُ.

وفي هذه الآيةِ يُخبِرُ اللهُ تعالى المسلمينَ عن طريق نبيِّه ﷺ بأنْ لا يتَسلَّلْ إليكم اعتقادٌ خاطئٌ بأنّ اللهَ تعالى راضٍ عن هؤلاءِ الكفّار، ولهذا أَنْعَم عليهم بحياةٍ رَغدةٍ مرَفَّهة، وإنما أمهَلَهم اللهُ تعالى ليبتَليَهم، وإنْ لم يُصلِحوا أنفُسَهم فلن يُفلِتوا من العقابِ على ظُلمِهم. وهكذا أسلَمَ أكثرُ أهلِ مكّة، ومن بقيَ منهم على كُفرِه إمّا أنه قُتِل في المعارك، أو أنه اضْطُرَّ إلى الرحيل عن مكةَ ـ وهي وطنُه ـ بعدَ فتْحِها.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

٤ ـ كذَّبتْ أقوامٌ كثيرةٌ قبلَ كفّارِ مكةَ بأنبيائهم، وجادَلوهم بالباطلِ من أَجْل إبطالِ الحقِّ الذي جاءوا به، ولمّا لم يستطيعوا تقديمَ دليلٍ معقولٍ ضدَّ الحقِّ تآمَروا على إيذاءِ رسُلِهم جسَديًّا، بل وتآمَروا على قَتْلِهم كذلك، وقد أهلَكَهم اللهُ تعالى ودمَّرهم عقابًا لهم على ذلك، وبنفسِ الطريقة إنْ لم يَرجِعْ كفّارُ مكّةَ عن مخالفةِ النبيِّ ﷺ ومعاداتِه فسوف يَنزِلُ عليهم أيضًا العذابُ في هذه الدُّنيا، وأمّا الآخِرةُ فحُكمُها قاطعٌ، يعني: من يموتُ على الكُفرِ فمصيرُه جهنَّم.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

٥ ـ جاء في هذه الآياتِ ذِكرٌ لما يفعَلُه دائمًا الملائكةُ التي تَحمِلُ عرشَ الله،

وكذا الملائكةُ التي تَطُوفُ به، فهم من ناحيةٍ دائمًا رَطِبو اللِّسانِ بذِكرِ الله تعالى وحَمْدِه والثناءِ عليه وعلى عِلمِه وفضلِه، ومن ناحيةٍ أخرى يَدْعُونَ بالمغفرةِ للذين آمَنوا، حتى يَقبَلَ اللهُ تعالى توبتَهم، ويُنجِّيَهم من عذابِ جهنَّم.

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

٦ ـ تقولُ الملائكة: يا الله، أَنْعِمْ على أهلِ الإيمان بجَنّاتٍ خالدة، وأدخِلْ مَن صَلَح من آبائهم وأجدادِهم وأزواجِهم وذُرِّيّاتِهم الجنّةَ، والمرادُ بقولِه ﴿صَلَحَ﴾: المؤمنُ المذنِب؛ لأنّ المؤمنَ الصّالحَ سيُغفَرُ له تلقائيًّا.

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «فهذه الآيةُ تدُلُّ على أنّ اللهَ تعالى يُعطِي درجاتِ الكاملينَ مَن لم يَبلُغْ درجتَهم ولم يَعمَلْ مِثلَ أعمالِهم من آبائهم وأزواجِهم وذُرِّياتِهم تطييبًا لقلوبِهم وتعظيمًا لشأنِهم بشرطِ إيمانِهم»(١)، مثلَما قال اللهُ تعالى في موضع آخَرَ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]. يعني: أنّ الأولادَ الذين يكونُ آباؤهم في أعلى درجاتِ الجنّة، سنَرفَعُ درجاتِ أولادِهم المؤمنينَ لنُلحِقَهم بآبائهم.

ويُعلَمُ من هاتَيْنِ الآيتَيْنِ أنّ قَرابةَ أهلِ الإيمانِ ونَسَبَهم سيكونُ مفيدًا، وقد قال النبيُّ ﷺ: «كلُّ نَسَبٍ وسَبَبٍ منقطعٌ يومَ القيامة إلّا نَسَبي وسَبَبي»(٢).

يقولُ العلّامةُ ثناءُ الله باني بتي: «فعلى هذا، معنى الحديثِ: كلُّ نَسَبٍ وسببٍ منقطِعٌ إلّا سببي ونسبي ولو بواسطة، يعني: نَسَبي ونسبَ أبنائي وإن سَفُلوا، وسببي

(١) التفسير المظهري، سورة الرعد (١٣): الآية ٢٣.

(٢) كنز العمال، برقم ٣٢٦٤٨، ٣٧٥٨٧، ومستدرك الحاكم، ٣: ١٥٣.

ومن له مني سببٌ... فكأنّ المرادَ: أنّ قَراباتِ الكفّار ومُوالاتَهم تنقطعُ دونَ قَراباتِ المؤمنينَ ومُوالاتِهم، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] وحلُّ هذا الإشكال عندي أنّ المؤمنينَ كلَّهم أبناءُ لرسولِ الله ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]»[1].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

٧ ـ ثم تزيدُ الملائكةُ في الدُّعاءِ قائلين: يا الله، احفَظِ المؤمنينَ من كلِّ سُوء، واعفُ عمّا وَقَع منهم من أخطاءٍ، وهذا سيكونُ فوزًا عظيمًا لهم، ويُمكِنُهم الحصولُ عليه بفَضْلٍ خاصٍّ منك.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ

---

(١) التفسير المظهري، سورة الرعد (١٣): الآية ٢٣.

ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِي بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾

٨ ـ حين يُلقَى بالكفّارِ في جهنَّم يومَ القيامةَ يندَمونَ أشدَّ النَّدم، وسيَغضَبُونَ من أنفسِهم أشدَّ الغضَبِ لأنّهم أنكَروا التوحيدَ، وعندَئذٍ ستُذكِّرُهم الملائكةُ أنه مثلَما أنتم غاضبونَ من أنفسِكم اليومَ فإنّ اللهَ تعالى كان يغضَبُ منكم أكثرَ من هذا حينَ كنتُم تُدعَوْنَ إلى التوحيدِ وتُنكِرون، ودخولُكم جهنَّمَ اليومَ إنّما هو نتيجةُ غضبِ الله عليكم.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾

٩ ـ المرادُ بالمَوْتةِ الأولى منَ الموتتَيْنِ هو: حالةُ النُّطفةِ التي لا رُوحَ فيها حين كانت في بطنِ الأم، وعبَّر عنها بالموتِ، أمّا الموتةُ الثانيةُ فالمرادُ منها نهايةُ الحياةِ الدُّنيويّةِ للإنسان. والمرادُ بالحياةِ الأُولى من الحياتَيْنِ: الحياةُ الدنيا، والمرادُ بالحياةِ الثانية: الحياةُ الآخِرة، مثلما قال اللهُ تعالى في سُورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

الحالاتُ الثلاثُ الأُولى من الحالاتِ الأربع فيما يتعلَّقُ بالموتِ والحياةِ يَعترفُ بها حتّى الكفّارُ أيضًا، إلا أنّهم يُنكرونَ الحياةَ الآخرةَ، لكنْ حين يشاهدُ الكفّارُ الحياةَ الآخِرةَ بأنفُسِهم بعدَ الموتِ، سيَعترِفونَ جميعًا أنّهمُ ارتكَبوا بالفعل ذنبًا عظيمًا لمّا لم يعترِفوا بالآخِرة، فهل هناك سَبيلٌ من السُّبلِ يُمكنُهم من خلالِه النَّجاةُ

من هذا العذاب؟ وستأتيهم الإجابةُ: الآنَ لا يُمكنُكم الإفلاتُ من العذاب، وسببُ ذلك: أنّكم أنكَرتُم دعوةَ الأنبياءِ والعلماءِ لكم في الدُّنيا إلى الإيمانِ باللهِ الواحد، وحين رَغَّبكم الشّيطانُ في الشِّركِ ودعاكم إليه قَبِلتُم دعوتَه فورًا، فعاقَبَكم اللهُ تعالى على ذلك بأنْ حَكَم عليكم بعذابِ جهنَّم، وحُكمُه تعالى لا يمكنُ أن يتَحدّاه أحدٌ، ولهذا فإنّ مصيرَكم الدائمَ الآنَ هو جهنَّم.

من هم الخوارج؟

حين طالتِ الحربُ بينَ سيّدِنا عليٍّ وسيّدِنا معاويةَ رضي اللهُ عنهما احتَكَما إلى سيّدِنا أبي موسى الأشعريِّ وسيّدِنا عَمْرِو بن العاصِ رضي اللهُ عنهما، ورَضِيا بما سيحكُمانِ به، في ذلك الوقتِ كانت في الكوفةِ جماعةٌ من الزُّهّادِ تمرَّدتْ على طاعةِ سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه بحُجّةِ أنّ الحُكمَ لا يكونُ إلّا للهِ تعالى فقطْ، فلماذا قَبِلَ سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه بتحكيم هذَيْنِ الرجُلَيْنِ؟ وعليه قال سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: إنّ ما يقولُه هؤلاءِ صحيح، ولكنّ معناه خطأٌ، أي: (كلمةُ حقٍّ يُرادُ بها باطل).

كان تَعدادُ هؤلاءِ الزُّهادِ حوالي اثنَيْ عشَرَ ألفًا، وقد أعلَن هؤلاءِ خروجَهم على طاعةِ سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه ومخالفتَه، فنَصَحَهم سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه بالرُّجوع عن تشدُّدِهم وإرهابِهم، ولمّا لم يَرجِعوا حارَبَهم سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه في النَّهرَوانِ بالقُربِ من بغدادَ، وفي هذه المعركةِ قُتِل أكثرُ الخوارج هؤلاءِ، وبالنَّظَر إلى هذه الآيةِ فإنّ عقيدةَ الخوارج هي أنّ الحُكمَ لله تعالى فقطْ، ولهذا فإنْ حَكَمَ غيرُهُ فهو كافر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾

١٠ ـ اللهُ تعالى يُريكُم آياتِ توحيدِه، ومن بينِها أنه يُنزِلُ من السماءِ الماءَ فيهيِّئُ لكم به الرِّزقَ من الأرض، لكنّ الذين يستفيدونَ من النّصيحةِ في هذه

الآياتِ هم فقطِ الذين يحاولونَ البحثَ عن الحقِّ، وأمّا الذين لا يتدبَّرونَ هذه الآياتِ فيظَلُّونَ دائمًا يَعْمَهونَ في الضَّلال.

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾

١١ ـ هنا تنبيهٌ لأهلِ الإيمانِ أن يَثْبُتوا على عبادةِ الله وحدَه بكلِّ إخلاص، وواضحٌ أنّ الكفّارَ لن يُعجبَهم هذا الكلامُ، ولكنّ أهلَ الإيمانِ لا يُبالونَ بهم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

١٢ ـ ذَكَرتْ هذه الآيةُ ثلاثَ صفاتٍ لله تعالى:

ـ اللهُ تعالى بذاتِه رفيعُ الشّأن، ويُنعِمُ على الناسِ بالدرجاتِ الرفيعة.

ـ اللهُ تعالى مالكُ كلِّ شيءٍ، وقد ذَكَر العرشَ فقطْ لأنّ العرشَ يُحيطُ بكلِّ شيءٍ في السّماءِ والأرض، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ـ اللهُ تعالى يُنزِلُ وحيَه بفَضْلِه على من يشاءُ من عبادِه، ويُزيِّنُ ناصيتَه بتاج النُّبوّة، ثم يُرسِلُه لهدايةِ الناس، ولكي يُنذرَهم من يوم القيامة، وهو اليومُ الذي سيَلقَى فيه بنو الإنسانِ جميعًا ربَّهم بصحائفِ أعمالِهم من أَجْل الحساب.

﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ ﴾

١٣ ـ سيَخرُجُ الناسُ جميعًا من قبورِهم، ويَظهَرونَ يومَ القيامة كما ستَظهَرُ أعمالُهم أيضًا، ولن يخفَى على اللهِ شيءٌ منهم، فالظاهرُ والباطنُ بالنِّسبةِ لله تعالى سواءٌ، يعني: أنه يَرى الناسَ في قبورِهم أيضًا، ويَعرِفُ كذلك أسرارَ قلوبِهم، ولكنّ

هؤلاءِ الناسَ الذين لم نكنْ قد رأيناهم من قبلُ سيَظهَرونَ أمامَنا يومَ القيامةِ أيضًا، وسوف نَرى أعمالَهم التي كانت خافيةً علينا في الدنيا.

﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

١٤ ـ الحقيقةُ أنّ المُلكَ اليومَ أيضًا للهِ تعالى يقينًا، إلّا أنّ كثيرًا من الناسِ في أيامِنا هذه لا يعترفونَ بهذا المُلكِ لله تعالى، ولكنّهم سيُشاهِدونَ بأنفُسِهم يومَ القيامة أنّ المُلكَ ـ فعلًا ـ لله تعالى وحدَه، وأنه هو الغالبُ على الجميع.

«ينادي اللهُ سبحانَه والناسُ بارزونَ في أرضِ المحشَر: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ﴾؟ ويَسكُتُ الخلائقُ هَيْبةً لله تعالى وفزَعًا، فيجيبُ تعالى نفسُه قائلا: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾»[1].

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: «يُحشَرُ النّاسُ على أرضٍ بيضاءَ مِثلَ الفضّةِ لم يُعْصَ اللهُ جلّ وعزّ عليها، فيؤمَرُ منادٍ ينادي: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾، فيقولُ العبادُ مؤمنُهم وكافرُهم: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، فيقولُ المؤمنونَ هذا الجوابَ سرورًا وتلذُّذًا (لأنّهم كانوا يعتقدونَ بهذا في الدنيا)، ويقولُه الكافرونَ غمًّا وانقيادًا وخضوعًا (لأنهم كانوا يُنكِرونَ هذه العقيدةَ في الدنيا)»[2].

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

١٥ ـ سيُحاسَبُ كلُّ فردٍ يومَ القيامة على حسَبِ أعمالِه، سواءٌ بالثوابِ أو بالعقاب، ولن يُظلَمَ أحدٌ ولو بمقدارِ ذَرّة، كما أنّ مرحلةَ الحسابِ هذه ستكتملُ بسرعةٍ كبيرة، فاللهُ تعالى سريعُ الحساب، وهنا يتبادَرُ إلى الذِّهنِ تصوُّرٌ فَحواهُ: أنّ

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

حسابَ بشَرٍ لا حصرَ لهم منذُ سيّدِنا آدمُ عليه السّلامُ وحتى يوم القيامة، ثم فحصُ سجِلِّ حياةِ كلِّ إنسانٍ كاملًا سيَستغرِقُ وقتًا طويلًا، ولكنّ من الجهلِ قياسَ أفعالِ الله تعالى على أفعالِنا، فهو القادرُ المطلَق، ولا يغفُلُ عن إنسانٍ حالَ حسابِه لإنسانٍ غيرِه، وكما أنّ الشمسَ تُنيرُ كلَّ شيءٍ في العالَم في نفسِ الوقت، كذلك يُفيضُ اللهُ تعالى على كلِّ إنسانٍ في العالَم في نفسِ الوقت، وإذا كان مَلَكُ الموتِ لا يَجِدُ صعوبةً في قَبْضِ الأرواح من مختلفِ أرجاءِ العالَم في وقتٍ واحد، فإنّ اللهَ تعالى ـ وهو خالقُ مَلَكِ الموت ـ لا يحتاجُ إلى أيِّ وقتٍ لكي يحاسبَ الدّنيا كلَّها، فوُسعةُ الزّمانِ والمكانِ تنطوي أمامَ قُدرتِه، وحين يريدُ تعالى فعلَ شيءٍ فإنه فقطْ يقولُ: ﴿كُن﴾ فيكونُ على الفَوْر، ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، وقد جاء في الحديثِ الشّريفِ بأنّ اللهَ تعالى «يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في مقدارِ نصفِ يومٍ من أيّام الدّنيا»[1]، وجاء في حديثٍ آخَرَ أنه تعالى: «يُحاسِبُ الكلَّ في مقدارِ حَلْبِ شاةٍ»[2].

في هذه الأحاديثِ الشّريفةِ إظهارٌ لمشيئةِ الله تعالى وإرادتِه، وإلّا فإنه تعالى ليس في حاجةٍ لأيِّ وقتٍ، مثلَما سُئل سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنه: «كيف يُحاسِبُ ربُّنا الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد؟ قال الإمام عليٌّ كرَّم اللهُ وجهَه: كما يَرزُقُهم في وقتٍ واحد يُحاسِبُهم في وقتٍ واحد»[3]، وكما أنّ اللهَ تعالى يَرى الناسَ جميعًا في وقتٍ واحد، ويَعلَمُ أفكارَهم وما يدورُ في خَلَدِهم، ويَسمَعُ دعاءَهم في نفسِ الوقت، كذلك يستطيعُ أن يُحاسبَهم أيضًا في وقتٍ واحد.

---

(١) صفوة التفاسير، سورة الأنعام (٦): الآية ٦٢.

(٢) روح المعاني، سورة الأنعام (٦): الآية ٦٢.

(٣) تفسير الشعراوي، سورة الأنعام (٦): الآية ٦٢.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ﴾

١٦ - في هذه الآيةِ بيانٌ لأهوالِ القيامة، حتى يَرجِعَ الناسُ عن عصيانِ الله تعالى خوفًا منها.

إنّ قيامَ السّاعةِ أمرٌ يقينيٌّ، ويمكنُ أن تقومَ في أيِّ لحظةٍ، وبالتالي فهي قريبةٌ للغاية، فينبغي لكلِّ واحدٍ منّا التوبةُ من ذنوبه على الفَوْر، إذْ منَ الممكنِ أن تقومَ السّاعةُ في اللَّمحةِ التالية، ولا يَجِدُ فرصةً للتوبةِ، وإذا لم تَقُمِ الساعةُ في اللَّمحةِ التالية، فمنَ الممكنِ أن يأتيَكَ الموتُ، وهو بالنِّسبةِ لك قيامةٌ؛ لأنّ بابَ التوبةِ بالنِّسبة لك يُغلَقُ معَ الموت، ولو وَقَع موتُك على الكُفرِ والشِّرك - والعياذُ بالله - فليست هناك أيُّ صورةٍ لنجاتِك، والقيامةُ تقتربُ منّا كلَّ لحظةٍ أكثرَ من سابقتِها، وما أحسَنَ ما قال الشاعرُ:

- أيُّها الغافل، إنّ كلَّ ساعةٍ تناديكَ قائلةً: لقد أنقَصَ الفَلَكُ من عُمرِك ساعةً أخرى.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾

١٧ - سيَطرَأُ على الناسِ خوفٌ شديدٌ بسببِ أهوالِ القيامة، بحيثُ تكادُ قلوبُهم تترُكُ صدورَهم وتقفزُ إلى حلوقِهم، ولكنْ لا تستطيعُ الخروجَ، كما لا تستطيعُ أن تعودَ إلى أماكنِها مرةً أخرى، وستقفُ القلوبُ والعقولُ والأجسادُ والأرواحُ في عَجْزٍ شديدٍ كأنّها صورةُ الصَّمتِ من الحَيْرةِ والاضطراب، وفوقَ هذا لن يكونَ للظالمينَ، أي: الكفّارِ والمشركين، أيُّ مُعِينٍ أو شَفيع يستطيعُ أن يُمدَّ له يدَ العَوْن، أمّا أهلُ الإيمانِ فسيكونُ لديهِم كثيرٌ من المعاوِنينَ مثلَ الأنبياءِ والعلماءِ والشُّهداءِ والحُفّاظِ والأولادِ الذين ماتوا صغارًا والصَّدَقاتِ والزَّكواتِ وغيرِها، وكلُّها ستأخُذُ بيدِهم إلى الجنّة، وستكونُ سببًا في دخولِهم فيها.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ﴾

١٨ ـ اللهُ تعالى لا يَعلَمُ تمامَ العِلم أقوالَ الناسِ وأفعالَهم فقطْ، وإنّما يَعلَمُ تمامَ العِلم كذلك إشاراتِ أعيُـنِهم والأفكارَ في أدمِغَتِهم، ولهذا لا مجالَ لأيِّ سوءِ فَهْم في حُكمِه، وسيكونُ كلُّ حُكمٍ من أحكامِه حقًّا، لكنّ الذين يَدعُونَهم من دونِ الله لا يَعلَمونَ شيئًا عن أيِّ شيء، كما أنّهم لا طاقَة لديهم لمحاسبةِ أحد، فكيف سيَحكُمونَ إذًا، وكيف سيُنفِّذونَ أحكامَهم؟

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ﴾

١٩ ـ كان العربُ جميعًا ينظُرونَ إلى قُريشٍ نظرةَ تقديرٍ واحترام بسببِ قيامِهم على أمرِ الكعبة، وكان هؤلاءِ يَعتبرونَ أنفُسَهم عُظَماءَ بسببِ هذه المكانةِ وهذه السِّيادة، ولهذا كان من الصَّعبِ عليهم للغايةِ أن يَقبَلوا بطاعةِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، والذي هو بالنِّسبة إليهم فقيرٌ وحيدٌ.

في هذه الآية تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّهم قد رأَوْا بأنفُسِهم خلالَ أسفارِهم التِّجاريةِ قُرًى كان أهلُها أكثرَ قوةً من كفّارِ مكّةَ، والآثارُ الباقيةُ اليومَ من قصورِهم وقلاعِهم الفَخْمةِ المدمَّرة تشهَدُ على سابقِ قوّتِهم وعظَمتِهم، ولكنْ حينَ جاءتهم رُسُلُهم بالآياتِ البيِّنات، وكذَّبهم هؤلاءِ، دَمَّرهم اللهُ تعالى وأهلَكَهم بسببِ ذنوبِهم، ولم يستطعْ أحدٌ أن يُنْجِيَهم من قَبْضةِ الله تعالى، وبنفسِ الطريقة إنْ لم تَرجِعوا أنتم عن طُغيانِكم فمنَ الممكنِ أن يَنزِلَ العذابُ عليكم أيضًا، ثم لن يكونَ هناك من يستطيعُ إنقاذَكم من عذابِ الله تعالى.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

٢٠ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بالمعجزاتِ والتَّوراةِ إلى الفِرعَونِ وقارونَ وهامانَ، وحين لم يَستطيعوا جوابًا عن هذه المعجِزاتِ والدَّلائل، قالوا عنه عليه السَّلام: إنه كاذبٌ وساحرٌ. كان فِرعونُ وهامانُ من أهل مِصرَ، والمرادُ هنا كلُّ قومِهما، وأمّا قارونُ فكان من بني إسرائيلَ، وكان ابنَ عمٍّ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وكان قارونُ قد آمَن بسيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في البداية، وكان يقرَأُ التَّوراةَ أيضًا بطريقةٍ جميلة، ولكنّه أصبح فيما بعدُ منافقًا مِثلَ السامِريِّ بسببِ المالِ والثَّروة، وأصبح رفيقًا لفِرعَونَ.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾

٢١ ـ كان الفِرعونُ وقتَ مولدِ سيّدنا موسى عليه السَّلامُ قد أصدَرَ حُكمَه بقتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ، لكنّ اللهَ تعالى أنقَذَ سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ من خِطّةِ قتلِه، والأكثرُ من هذا أنه تعالى هيَّأَ أمرَ تربيةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ في بيتِ

الفِرعَونِ نفسِه، ولمزيدٍ من التفصيل راجع الحواشيَ من ٢١ إلى ٢٢ للآياتِ من ٣٨ إلى ٤٠ من سُورة طه (٢٠).

ثم إنه حينَ أعلَن سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ نُبوّتَه، وأَجْرى اللهُ تعالى على يدَيْه المعجِزاتِ لفِرعَون، عندَئذٍ أصدَرَ الفرعونُ مرةً ثانية حُكمَه بقتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ بإصرارٍ من قومِه، لكنّ اللهَ تعالى أفشَلَ مؤامرتَهُ هذه، وفي نهايةِ الأمرِ غَرِق فرعونُ ورجالُه في الماء، ونَجَا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ وقومُه من فِرعونَ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾

٢٢ ـ دعا الفِرعونُ رجالَ بَلاطِه للاجتماع بهم، وقال لهم: لو أنّنا ترَكْنا موسى عليه السَّلامُ على قَيْدِ الحياة، فإنّني أخشَى أن يُبدِّلَ دينَكم، أو أن يُثيرَ الفتنةَ والفسادَ في بلادِكم، ولهذا من الأفضَلِ أن تسمَحوا لي أن أقتُلَ موسى عليه السَّلامُ، وبلا شكٍّ يستطيعُ موسى عليه السَّلامُ أن يدعوَ ربَّه أيضًا، ولكنْ ماذا يُمكنُه أن يفعَلَ لي، لأنّني أنا الربُّ الأعلى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

٢٣ ـ حين عَلِم سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ بأنّ الفِرعونَ يريدُ قتلَه، دعا اللهَ تعالى أن يحفَظَه من شرِّ كلِّ متكبِّر لا يؤمنُ بيوم الحساب، واستجابَ اللهُ تعالى دعاءه، فأَغْرقَ الفرعونَ، ونَجَّى سيّدَنا موسى عليه السَّلام.

عندَ خَطَرِ الأعداءِ دعا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ربَّه بأنْ يحفَظَه ويُعيذَه، ونبيُّنا الكريمُ ﷺ أيضًا في مِثلِ هذه الأوقاتِ كان يلجَأُ إلى اللهِ تعالى ويدعوه بأنْ يحفَظَه، جنبًا إلى جنبٍ معَ توظيفِ كلِّ الوسائل المادِّيَّة، مثلَما رَوى سيّدُنا أبو بُردةَ

عن أبيه رضي اللهُ عنهما، أنّ النبيَّ ﷺ كان إذا خافَ قومًا قال: «اللّهُمّ إنّا نجعلُكَ في نحورِهم، ونعوذُ بك من شرورِهم»(١).

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ﴾

٢٤ ـ هذا هو الرجُلُ المؤمنُ، وهو الذي سُمِّيت هذه السُّورةُ باسمِه، وكان من بني جِلدةِ الفِرعَون، وكان قد آمَن بسيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولكنّه لم يكنْ قد أعلَن إيمانَه بعدُ، وفي تلك الأثناءِ دعا الفِرعونُ رجالَ البَلاطِ إلى الاجتماع به،

---

(١) أبو داود، كتاب الوتر، باب ٣٠ برقم ١٥٣٧.

ودُعيَ ذلك الرجلُ إلى الاجتماع أيضًا، وفي هذا الاجتماع قال فِرعونُ: إنّ موسى عليه السَّلامُ ساحرٌ، ويريدُ أن يُبدِّلَ دينَكم، وينشُرَ الفتنةَ والفسادَ في بلادِكم، ولهذا يجبُ أن تقتلوه. وعندَئذٍ وَقَف الرجلُ المؤمنُ وأخَذ يخطُبُ مُدافِعًا عن سيّدِنا موسى عليه السَّلام، فقال: أيُّ قانونٍ خالَفَه سيّدُنا موسى عليه السَّلام، وتريدونَ قتلَه عقابًا له على مخالفتِه هذه؟ اترُكوه في حالِه، فإنْ كان كاذبًا فلن ينتشرَ دِينُه ولن يكتملَ، وسيموتُ من نفسِه وينتهي، وإن كان صادقًا فعليكم أن تَخافوا من عذابِ الله، وأن تَعتبروا من هلاكِ الأُمم السابقة، وإلّا فلن تستطيعوا أنتم أيضًا الإفلاتَ من هذا العذابِ. وكان خطابُ هذا الرجُل المؤمنِ مؤثِّرًا ومدَلَّلًا إلى درجةٍ جَعَلت الصّمتَ يعُمُّ المجتمِعينَ، ولم يؤيِّدْ أحدٌ منهم موضوعَ قتلِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام.

ورَغْمَ أنّ العذابَ الذي أُنذِر سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ به سيَظهَرُ كاملًا في الآخِرة، ولكنّ جزءًا منه ظَهَر في هذه الدُّنيا، حيث أُغرِق به الفرعونُ ورجالُه، أمّا الجزءُ الباقي فسيُكتملُ في الآخِرة حين سيُلقَى بكلِّ هؤلاءِ في نارِ جهنَّم.

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

٢٥ ـ هذا الرجلُ المؤمنُ قال لقومِه: لكم الغَلَبةُ والسُّلطةُ في مِصرَ اليوم، وجيوشُ هذه البلادِ وأموالُها وثَرَواتُها في أيديكم، لكنّكم بقَتْلِكم رجلًا بغيرِ حقٍّ تَستنزِلونَ عليكم عذابَ الله تعالى، وإذا جاء عذابُ الله تعالى فمَن ذلك الذي يمكنُه أن يُنجيَكم منه؟ وعليه قال الفِرعونَ: إنّني على أيِّ حال أُقدِّمُ إليكم الرأيَ الذي أرى فيه خيرَكم، يعني إنْ لم يُقتَلْ موسى عليه السَّلامُ فسوف يُبدِّلُ دينَكم، أو يثيرُ الفتنةَ والفسادَ في بلادِكم.

﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾

٢٦ ـ وأضاف هذا الرجُلُ المؤمنُ قائلًا لقومِه: اللهُ تعالى لا يريدُ ظلمًا لعبادِه، لكنّ الذين يختارونَ طريقَ الطُّغيان والضَّلالِ فإنّ اللهَ تعالى يُعاقبُهم تحقيقًا لمقتَضياتِ العدلِ والإنصافِ، مثلَما أَنْزلَ العذابَ على قوم نوح وعادٍ وثمودَ والأقوام الأخرى لمّا طَغَوْا، ولهذا أخشَى إنْ أقمتُم على مخالفةِ سيّدِنا موسى عليه السّلام أن يُنزِلَ العذابَ عليكم أيضًا.

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

٢٧ ـ المرادُ بيوم التَّنادِ: يومُ القيامة، حيث سيُنادي الملائكةُ قائلينَ: لقد ذُبِح الموتُ، ولهذا فإنّ أهلَ الجنةِ سيَخلُدونَ فيها إلى الأبد، وسيَخلُدُ أهلُ النارِ فيها إلى الأبدِ أيضًا. يقولُ المفسِّرون: إنه حين يؤتَى بأهلِ النارِ إلى النار، ويَسمَعونَ أصواتَ جهنَّمَ المؤلمةَ، سيحاولونَ الفِرارَ والهربَ عائدينَ، لكنّ الملائكةَ ستُحيطُ بهم من كلِّ جانب، ولن يكونَ هناك من يُمكنُه إنقاذُهم.

وقد بيَّن هذا الرجُلُ المؤمنُ تفاصيلَ القيامة أمامَ قومِه من أَجْل أن يهتَدوا ويعودوا عن ضَلالِهم، لكنّ الذين يُصِرُّونَ على الضلالِ عامدينَ فإنّ اللهَ تعالى يترُكُهم حَيارَى في ضَلالِهم عقابًا لهم، ثم لن يستطيعَ أحدٌ أن يَهديَهم بعدَ ذلك.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾

٢٨ ـ يعني: أنّ سيّدَنا يوسُفَ عليه السَّلامُ قد جاء إلى آبائكم وأجدادِكم على أرضِ مِصرَ هذه قبلَ سيّدِنا موسى عليه السلام، وقد عَرَض عليهمُ الآياتِ البيِّناتِ على نُبوّتِه، على سَبيل المثال: شَهِد طفلٌ وليدٌ ببراءتِه، وفَسَّر سيّدُنا يوسُفُ

عليه السَّلامُ الأحلامَ تفسيرًا صادقًا، وتدبَّر أمرَ إنقاذِ أهلِ مِصرَ من عذابِ المجاعةِ والقَحْط، وجَعَل مِصرَ نموذَجًا للعدلِ والإنصافِ ورَغَدِ العيش، لكنّ كثيرينَ من آبائكم وأجدادِكم ظَلُّوا مُبتَلَيْنَ بالشكِّ فيما يتعلَّقُ بنُبوّتِه، وحين توفِّي سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، وانتشَرَ الفقرُ في مِصرَ وسادها سوءُ الحـال، أبدَوْا أسَفَهم الشديـدَ ضاربينَ كفًّا بكفٍّ، بأنّ وجودَ سيّدِنا يوسُفَ عليه السلام كان باعثَ رحمةٍ لهم، ولن يأتيَ رسُولٌ عظيمٌ ثانيةً مثلُ هذا الرسول، يعني: أنّهم ظَلُّوا يَستهينونَ بقَدْرِه وهو حيٌّ بينَهم، وبعدَ وفاتِه أعلَنوا مسبَقًا فيما يتعلَّقُ بالنبيِّ التالي أنه لن يأتيَ نبيٌّ مِثلُ هذا النبيِّ، حتى وإنْ جاء نبيٌّ أقلُّ منه درجةً، فلا حاجةَ إلى الإيمانِ به، وقد حَكَم اللهُ تعالى فيما يتعلَّقُ بهؤلاءِ المُجادِلينَ بغيرِ حقٍّ أنّ الذين يشُكُّونَ فيما يتعلَّقُ بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام بلا سببٍ، ويتجاوَزونَ الحدودَ في مخالفتِهم عامدينَ، فإنّ اللهَ تعالى يترُكُهم يَعْمَهونَ في ضلالِهم.

﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾

٢٩ ـ الذين يُجادلونَ في آياتِ الله تعالى ويكذِّبونَ بها بغيرِ دليلٍ عَقْليٍّ أو سَنَدٍ سَماويٍّ أُناسٌ في غايةِ التكبُّرِ والعناد، يَمقُتُهم اللهُ تعالى ويَمْقتُهم المؤمنونَ أيضًا؛ لأنّهم أغلَقوا في وجهِ أنفسِهم أبوابَ الهداية بسببِ طُغيانِهم، وبنفسِ الطريقة مَن ينكرُ آياتِ الله تعالى عامدًا، ويتمرَّدُ على أحكامِه، فقد أغلَقَ على نفسِه بابَ الهداية، ويكونُ مِثلُ هذا الشّخص وكأنّ اللهَ تعالى قد طَبَع على قلبه.

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴾

٣٠ ـ قال الفِرعونُ لوزيرِه هامان: ابْنِ لي صَرْحًا عاليًا أصعَدُ عليه وأنظُرُ من

أبوابِ السّماءِ إن كان هناك إلهُ موسى عليه السَّلامُ أم لا؟ ولكنّي أظُنُّ أنه لا يوجَدُ هناك أيُّ إلهٍ غيري، فأنا ربُّكم الأعلى، وموسى عليه السَّلامُ لا شكَّ يكذِبُ.

الحقيقةُ أنّ فِرعونَ كان طاغيةً متكبِّرًا إلى درجةِ أنّ سيّئاتِه كانت تبدو له حسناتٍ، ومن يَبلُغْ من الظالمينَ هذا المدى في طُغيانِه لا يوفَّقْ إلى الطّريقِ المستقيم، ولهذا فَشِلت مؤامَراتُ الفِرعونِ جميعًا، وغَرِق هو في البحر، في حينَ نَجّى اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ من شرِّ فِرعونَ كلِّه.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِىٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِى لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِى بِهِۦ عِلۡمٌ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِىٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ فِى ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِىٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

٣١ ـ في الآيةِ رقم ٢٩ قال الفِرعونُ لقومِه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فرَدَّ عليه الرجلُ المؤمنُ قائلًا: إنّ الفِرعونَ نفسَه ليس على هدًى، فكيف يُرشِدُكم إلى طريقِ الهداية، لهذا اتَّبِعوني، وأنا أدُلُّكم على طريقِ الهداية، وهو الطريقُ نفسُه الذي يدعوكم إليه سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ، ويُعلَمُ منه أنه مثلَما أنّ طاعةَ النبيِّ طاعةُ الله تعالى، فإنّ اتّباعَ العلماءِ أيضًا اتّباعٌ للنبيِّ؛ لأنّ الرجُلَ المؤمنَ كان قد آمَنَ بسيّدِنا موسى عليه السَّلام من قبلُ، وهو الآنَ يُعلنُ إيمانَه.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾

٣٢ ـ هذه الحياةُ الدُّنيا عارضةٌ مؤقَّتة، ومُتَعُها أيضًا عارضةٌ مؤقَّتة، ولهذا فإنه ليس من العقلِ أبدًا التغاضي عن الحياةِ الخالدةِ في الآخِرة من أَجْل هذه الفائدةِ العارضة المؤقَّتة، فالذين يَنْسَوْنَ الآخرةَ وينهمِكونَ دائمًا في الاستمتاع بهذه الدنيا سيُواجِهونَ في الآخِرة آلامًا لا نهايةَ لها:

ـ الآنَ نقولُ مضْطَرِبينَ خائفينَ: إننا سنموتُ، ولكنْ إن لم نجِد الراحةَ بعدَ الموت فأينَ سنذهبُ؟

﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

٣٣ ـ منِ ارتكَبَ سيّئةً يُجزى بما يستحِقُّه بقَدْرِها، ولن يُظلَمَ أبدًا، لكنّ المؤمنَ الذي يعمَلُ الصّالحات، سواءٌ كان ذكرًا أو أُنثى، سيَدخُلُ الجنّةَ، ويُنعِمُ اللهُ تعالى عليه بنِعَمٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى من فضلِه وكرَمِه.

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

٣٤ ـ قال ذلك الرجلُ المؤمنُ لقومِه: إنّني أعجَبُ لحالِكم، أنا أَدعوكُم إلى التوحيدِ حتى تتحقَّقَ لكم النَّجاةُ من جهنَّم، وأنتم تدعونَني إلى الشِّركِ الذي يؤدِّي إلى جهنَّم. وفي الآيةِ التالية وَضَّح هذا الأمرَ بشكلٍ أكبرَ قائلًا: إنّني أَدعوكُم إلى اللهِ الغالبِ على الجميع، والذي يَعفُو عن أخطاءِ أهلِ الإيمان، لكنَّكم تُريدونَ منِّي أن أكفُرَ باللهِ الغالب الغَفّار، وأُشرِكُ معَه من ليس عندي دليلٌ عليه، ما أعجَبَ هذه الحماقةَ منكم! فأنا أَدعوكُم إلى ما فيه خيرُكم، وأنتم مُصِرُّونَ على القضاءِ علَيَّ معَكم.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

٣٥ ـ الحقيقةُ أنّ الآلهةَ الباطلةَ التي تدعونَني إليها لا تستحِقُّ أن تُسمَّى آلهةً أصلًا، ولا تستحِقُّ بالتالي أيَّ عبادة، ولهذا لا فائدةَ منَ الاستعانةِ بهم في الدنيا، ولا هي في الآخِرة تستطيعُ أن تمُدَّ يَد العونِ لأحدٍ أو تُنصفَه، والحقيقةُ أنّنا جميعًا سنَرجعُ إلى الله يومًا ما، وهو الغالبُ على الجميع، والقادرُ على حسابِ كلِّ شخصٍ طِبقًا لأعمالِه سواءٌ بإثابتِه أم بعقابِه، والذين يتجاوَزونَ الحدَّ في عصيانِه مصيرُهم جهنَّمُ يقينًا.

﴿ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

٣٦ ـ قال الرجلُ المؤمنُ لقومِه: إنّني أتوكَّلُ على اللهِ وأعتمدُ عليه بشكلٍ كامل، ولكنِ اسمَعوني جيِّدًا، لئِن لم تَرجِعوا عن شِركِكم، فسينزِلُ عليكم قريبًا العذابُ الإلهيُّ، وعندَها ستتذكَّرونَ قولي هذا لكم، وستقولونَ: إن الرجُلَ المؤمنَ كان يقولُ الحقَّ، ولكنّ تصديقَكم في ذلك الوقتِ لن يُفيدَكم بشيءٍ.

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾

٣٧ ـ عندَما أعلَن هذا الرجُلُ المؤمنُ إيمانَه أخَذ الفِرعونُ ورجالُه يتآمَرونَ على قتلِه، لكنّ اللهَ تعالى حَفِظَ الرجُلَ المؤمنَ من مؤامراتِهم، وحينَ لم يَرجِعوا عن هذا التآمُرِ أَغْرقَ اللهُ تعالى الفِرعونَ ورجالَه والمؤمنينَ به جميعًا في البحر.

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

٣٨ ـ في هذه الآيةِ ذِكرٌ لعذابَيْنِ، عذابٍ يُنفَّذُ على أهل النارِ ليلَ نهارَ، والعذابُ الثاني هو الذي سيكونُ بعدَ قيام الساعة حينَ يُدخِلُهم اللهُ تعالى جهنَّمَ.

يقولُ المفسِّرونَ: «المرادُ بالنارِ هنا: نارُالقبرِ وعذابُهم في القبور»[١]، ويقولُ الإمامُ ابنُ كَثير: «وهذه الآيةُ أصلٌ كبيرٌ في استدلالِ أهلِ السُّنّةِ على عذابِ البَرْزَخ في القبور»[٢].

ما المراد بالقبر؟

المرادُ بالقَبْر ليس تلك الحُفرةَ التي يُدفَنُ فيها الميِّتُ فقطْ؛ لأنّ مِثلَ هذا القبرِ لا يتيسَّرُ لكلِّ فرد، وإنّما المرادُ منه أيضًا: ذلك المكانُ الذي تكونُ فيه أجزاءُ الإنسانِ الأَصْليّة بعدَ موتِه، سواءٌ كان ذلك في الترابِ أم في الماءِ أم حتى في بطنِ حيَوان.

ما المراد بالميت في القبر؟

ليس المرادَ بالميِّتِ في القبرِ ذلك الجَسَدُ الذي كان به معَنا في الدُّنيا فقطْ؛

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير ابن كثير.

لأنّ هذا الجسَدَ تأكُله الأرضُ بعدَ فترةٍ، كما أنّ الموتَى الذين يُحرَقُونَ أو تأكُلُهم الحيَواناتُ المفترِسةُ تنتهي أجسادُهم، فأيُّ جسدٍ إذًا سيتِمُّ تعذيبُه في القبرِ أو تنعيمُه؟ وجوابُه: أنّ علاقةً خاصّةً تظَلُّ قائمةً بينَ الرُّوح وأجزاءِ الإنسانِ الأَصْليّة، ومن خلال هذه العلاقةِ يكونُ الشُّعورُ بالسَّعادةِ أو الألم، مثلَما يسافرُ شخصٌ في منامِه إلى بلدٍ آخرَ، وهناك يصيبُه حُزنٌ أو فَرَحٌ، في مِثل هذه الحالةِ لا يكونُ جسَدُ الإنسانِ معَه، ولكنّه معَ ذلك يَشعُرُ بالألم أو الفَرَح، وبنفسِ الطريقة فإنّ الجسَدَ المعدومَ الذي لم يَعُدْ له أثرٌ يشعُرُ بالألم أو الفرحةِ بسببِ هذه العلاقةِ الخاصّةِ لروحِه معَ أجزائه الأَصْليّة.

العذاب في القبر

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قُبِر الميّتُ ـ أو قال: أحدُكم ـ أتاهُ مَلَكان أسوَدانِ أزرَقانِ يقالُ لأحدِهما: المُنكَر والآخَرِ: النَّكير، فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرّجُل؟ فيقولُ: ما كان يقولُ، هو عبدُ الله ورسولُه أشهَدُ أنْ لا إلَه إلّا الله وأنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه. فيقولانِ: قد كنّا نَعلَمُ أنّك تقولُ هذا. ثمّ يُفسَحُ له في قبرِه سبعونَ ذراعًا في سبعينَ ثمّ يُنوَّرُ له فيه ثمّ يقالُ له: نَمْ. فيقولُ: أرجِعُ إلى أهلي فأُخبِرُهم، فيقولانِ: نَمْ كنَوْمةِ العروسِ الّذي لا يوقظُه إلّا أحَبُّ أهلِه إليه، حتّى يبعثَه اللهُ من مَضجَعِه ذلك. وإنْ كان منافقًا قال: سَمِعتُ النّاسَ يقولونَ فقلتُ مِثلَه، لا أدري. فيقولانِ: قد كنّا نَعلَمُ أنّك تقولُ ذلك. فيقالُ للأرض: التئِمي عليه. فتلتئمُ عليه، فتختلفُ فيها أضلاعُه، فلا يزالُ فيها معذَّبًا حتّى يبعَثَه اللهُ من مَضجَعِه ذلك»[1].

---

(١) الترمذي، أبواب الجنائز، باب ٧٠ برقم ١٠٧١.

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ رضي اللهُ عنه: دَخَل رسولُ الله ﷺ مصَلّاهُ، فرأى ناسًا كأنّهم يكتَشِرونَ، قال: «أمَا إنّكم لو أكثَرتُم ذِكرَ هاذم اللّذّاتِ لَشَغَلَكم عمّا أرى، فأكثِروا من ذِكرِ هاذم اللّذّاتِ الموتِ فإنّه لم يأتِ على القبرِ يومٌ إلّا تكلَّم فيه فيقولُ: أنا بيتُ الغُربة، وأنا بيتُ الوَحْدة، وأنا بيتُ التُّراب، وأنا بيتُ الدُّود...»، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنّما القبرُ روضةٌ من رياضِ الجنّة أو حُفرةٌ من حُفَرِ النّار»[1]، وقال عُبَيدُ بن عُمرَ رضي الله عنه: «إنّ القبرَ لَيقولُ: يا ابنَ آدم! ماذا أعدَدتَ لي؟ ألم تَعلَمْ أنّي بيتُ الغُربة وبيتُ الدُّودِ وبيتُ الوَحْدة؟»[2].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهلِ الجنّةِ فمِن أهلِ الجنّة، وإن كان من أهلِ النّارِ فمِن أهلِ النّار، فيقال: هذا مقعَدُك حتّى يبعَثَك اللهُ إلى يوم القيامة»[3].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا البَراءُ بنُ عازبٍ رضي اللهُ عنه: خرَجْنا معَ رسولِ الله ﷺ في جَنازةِ رجُلٍ من الأنصار، فانتَهيْنا إلى القبرِ ولمّا يُلحَدْ، فجلسَ رسولُ الله ﷺ وجلسنا حولَه كأنّما على رءوسِنا الطّيرُ، وفي يدِه عودٌ ينكُتُ به في الأرض، فرَفَع رأسَه فقال: «استعيذوا بالله من عذابِ القبر» ـ مرَّتَيْنِ أو ثلاثًا ـ زاد في حديثِ جَريرٍ ها هنا ـ وقال: «وإنّه لَيسمَعُ خَفْقَ نعالِهم إذا وَلَّوْا مُدبِرين...»، قال هَنّادٌ: قال: «يأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه فيقولانِ له: من رَبُّك؟ فيقول: ربّيَ الله. فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: دينيَ الإسلام. فيقولانِ له: ما هذا الرّجلُ الّذي بُعِث فيكم؟ قال: فيقولُ: هو رسولُ الله ﷺ...، فينادي مُنادٍ من السّماء: أنْ قد صَدَق عبدي فافرِشُوه من الجنّةِ،

---

(١) الترمذي، أبواب القيامة، باب ٢٦ برقم ٢٤٦٠.

(٢) كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ١٨.

(٣) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٩ برقم ١٣٧٩.

وافتَحوا له بابًا إلى الجنّةِ وألبِسوه من الجنّة». قال: «فيأتيهِ من رَوْحِها وطيبِها». قال: «ويُفتَحُ له فيها مدَّ بصرِه». قال: «وإنّ الكافرَ». فذَكَر موتَه، قال: «وتُعادُ رُوحُه في جسدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلسانِه فيقولان: مَن ربُّك؟ فيقول: هاه هاه هاه، لا أدري. فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولانِ: ما هذا الرّجلُ الّذي بُعِث فيكم؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدري. فينادي مُنادٍ من السّماء: أنْ كَذَب فافرِشوه من النّارِ وألبِسوه من النّار، وافتَحوا له بابًا إلى النّار». قال: «فيأتيه من حرِّها وسَمُومِها». قال: «ويُضَيّقُ عليه قبرُه حتّى تختلفَ فيه أضلاعُه»[١].

الإثابة في القبر

١ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُمّتي أُمّةٌ مرحومةٌ، مُتَابٌ عليها، تَدخُلُ قبورَها بذنوبِها، وتَخرُجُ من قبورِها لا ذنوبَ عليها، تُمحَّصُ عنها ذنوبُها باستغفارِ المؤمنينَ لها»[٢].

٢ ـ رُويَ عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أبا هريرةَ، عَلِّم النّاسَ القرآنَ وتعلَّمْه، فإنّك إن مِتَّ وأنت كذلك زارَتِ الملائكة قبرَك كما يُزارُ البيتُ العتيق»[٣].

٣ ـ رُويَ عن سيّدنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجُلَ لَـتُرفَعُ درجتُه في الجنّة فيقول: أنّى هذا؟ فيقالُ: باستغفارِ وَلَدِك لك»[٤].

---

(١) أبو داود، كتاب السنة، باب ٢٣ برقم ٤٧٥٣.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.

(٣) كنز العمال، ١٠: ٢٥٩.

(٤) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

قرأتُ سابقًا أنّ الجنّةَ تُعرَضُ على أهلِ الجنّة في القبرِ صباحًا ومساءً، ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ درجاتِ الأبِ في الجنّة ترتفعُ باستغفارِ ابنِهِ له، والمسلمُ الذي يُصلّي الصَّلواتِ الخمسَ طِبقًا للمذهبِ الحَنفيِّ، ويَقْرَأُ في التشهدِ الأخير: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، فلأنه سيقرأُ هذا الدُّعاءَ مرتَيْنِ في الركعاتِ الأربع من السُّنّةِ غير المؤكَّدة، وبالتالي يستغفرُ لأبيه تسعَ عشْرةَ مرةً في صلواتِ اليوم الواحد، وهو ما يجعَلُ درجاتِ والدِه في الجنّة ترتفعُ كلَّ يوم تسعَ عشْرةَ درجةً، ولهذا ينبغي لكلِّ أبٍ أن يجعَلَ من أبنائه مصلِّين، وبهذا يكونُ قد أدَّى حقَّ التربيةِ من جانبٍ، ومن جانبٍ آخَرَ هيَّأَ لنفسِه سببًا لارتفاع درجاتِه في الجنّة.

الاستعاذة من عذاب القبر

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: «كان رسولُ الله ﷺ يدعو: «اللّهُمَّ إنّي أعوذُ بك من عذابِ القبر، ومن عذابِ النّار، ومن فتنةِ المَحْيا والمَماتِ، ومن فتنةِ المسيح الدَّجّال»[(١)].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: قالت أُمُّ حَبيبةَ زوجُ النّبيِّ ﷺ: اللهمَّ أمتِعْني بزَوْجي رسولِ الله ﷺ وبأبي أبي سُفيانَ وبأخي معاويةَ. قال: فقال النّبيُّ ﷺ: «قد سألتِ اللهَ لِآجالٍ مضروبةٍ وأيّام معدودةٍ وأرزاقٍ مقسومةٍ، لن يُعجِّلَ شيئًا قبلَ حِلِّه أو يؤخِّرَ شيئًا عن حِلِّه، ولو كنتِ سألتِ اللهَ أن يُعيذَكِ من عذابٍ في النّار أو عذابٍ في القبر كان خيرًا وأفضَلَ»[(٢)].

٣ ـ سألتِ السيّدةُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها رسولَ الله ﷺ عن عذابِ القبر، فقال: «نَعمْ، عذابُ القبرِ». قالت عائشةُ ـ رضي الله عنها ـ: فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٧ برقم ١٣٧٧.

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب ٧ برقم ٦٧٧٠.

بعدُ صلّى صلاةً إلّا تعوَّذَ من عذابِ القبر[١].

٤ ـ كان سيّدُنا سعدٌ رضي اللهُ عنه «يأمُرُ بخمسٍ ويَذكُرُهنَّ عن النّبيِّ ﷺ أنّه كان يأمُرُ بهِنّ:

ـ اللّهُمّ إنّي أعوذُ بك من البُخْل.

ـ وأعوذُ بكَ من الجُبْن.

ـ وأعوذُ بك أن أُرَدَّ إلى أرذَلِ العمُر.

ـ وأعوذُ بك من فتنةِ الدّنيا، يعني: فتنةَ الدّجّال.

ـ وأعوذُ بك من عذابِ القبر»[٢].

٥ ـ ذهبَ سيّدُنا حَسَنٌ البصريُّ في جَنازة، وحين دُفِنَ الميِّتُ وأُهيلَ عليه الترابُ بَكَى الحَسَنُ البصريُّ حتى ابتَلَّ الترابُ بدموعِه، ثم قال: أيُّها الناسُ، القبرُ نهايةُ الدنيا، والقبرُ بدايةُ الآخِرة، كم هي حماقةٌ أن تفخَروا بما نهايتُه القبر، ولماذا لا تخافونَ أنتم من تلك الدُّنيا التي أولُ منازِلِها القبرَ[٣].

صوت عذاب القبر

إنْ قال أحدٌ: إنّني لم أسمَعْ صوتًا من قبرٍ أبدًا، فالردُّ عليه هو أنّ عالَمَ البَرْزَخ عالَمٌ آخَر، ليس في مقدورِنا فَهْمُ أحوالِه وإدراكُها، لكنْ يمكنُنا أن نتصوَّرَه من هذا المثالِ بأنّ الشّخصَ النائمَ قد يواجهُ في منامِه مثلًا مناظرَ مؤلمةً وأحوالًا خطيرةً، فيشعرُ بالألم والضِّيقِ الشديد، لكنّ الشّخصَ المستيقِظَ بجانبِه لا يشعرُ أبدًا بهذا الألم

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٦ برقم ١٣٧٢.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣٧ برقم ٦٣٦٥.

(٣) تفسير روح البيان، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٣.

والضِّيقِ الذي يعانيه هذا الشَّخصُ النائم، وبنفسِ الطريقة، فنحنُ لا نشعُرُ بعذابِ أهل القبور، ولكنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهم السَّلامُ يمكنُهم مشاهدةُ عذابِ القبر.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: مرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حيطانِ المدينة أو مكّةَ، فسَمِع صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدُهما لا يَستترُ من بولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنّميمة». ثمّ دعا بجَريدةٍ فكَسَرها كِسْرتَيْنِ، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بنُ ثابتٍ رضي اللهُ عنه: بينَما النّبيُّ ﷺ في حائطٍ لبني النّجّار على بغلةٍ له ونحن معَه، إذْ حادَتْ به فكادت تُلقيه، وإذا أقبرٌ ستّةٌ أو خمسةٌ أو أربعةٌ ـ قال: كذا كان يقول الجُرَيريّ ـ فقال: «مَن يَعرِفُ أصحابَ هذه الأقبُر؟»، فقال رجلٌ: أنا، قال: «فمتى ماتَ هؤلاء؟»، قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «إنّ هذه الأُمّةُ تُبتَلَى في قبورِها، فلولا أنْ لا تدافَنوا لَدعوتُ اللهَ أن يُسمِعَكم من عذابِ القبرِ الّذي أسمَعُ منه». ثمّ أَقْبل علينا بوجهِه فقال: «تعوَّذوا بالله من عذابِ النّار»، قالوا: نعوذُ بالله من عذابِ النّار، فقال: «تعوَّذوا بالله من عذابِ القبر»، قالوا: نعوذُ بالله من عذابِ القبر، قال: «تعوَّذوا بالله منَ الفِتَن ما ظَهَر منها وما بَطَن». قالوا: نعوذُ بالله من الفِتَن ما ظَهَر منها وما بطَن، قال: «تعوَّذوا بالله من فتنةِ الدّجّال»، قالوا نعوذُ بالله من فتنةِ الدّجّال[٢].

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾

٣٩ ـ حين يشتدُّ تبادُلُ الاتّهاماتِ في جهنَّمَ بينَ الزُّعماءِ والقادةِ الكفّارِ وبينَ

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧ برقم ٧٢١٣.

منِ اتَّبعوهم، سيقولُ المتَّبِعونَ لقادتِهم: كنتُم في الدنيا تَدَّعونَ ادّعاءاتٍ كبيرةً بأنّ الحياةَ هي هذه الدُّنيا فقطْ، وليس هناك قيامةٌ، وحتى لو جاءتِ القيامةُ أيضًا، فسنكونُ أقوياءَ هناك مثلَما نحن أقوياءُ هنا، وسوف نُساعدُكم، ولهذا عليكُم أن تُوفوا بوعدِكم وأن تساعدونا، فإن كنتُم لا تستطيعونَ إنهاءَ هذا العذابِ كلِّه، على الأقلِّ خفِّفوا فيه ولو قليلًا، أو تحمَّلوا أنتم عنّا بعضًا منه؛ لأننا قدِ اختَرْنا الكُفرَ بتأثيرٍ من ترغيبِكم لنا فيه، وبتأثيرٍ من كونِكم سادةً لنا.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾

٤٠ ـ سيُجيبُ القادةُ المتكبِّرونَ على متَّبِعيهم قائلين: لو كان لنا من الأمرِ شيءٌ هنا لَكان أولَ شيءٍ نفعَلُه هو أن نخفِّفَ عن أنفُسِنا من العذاب، ولكنَّنا هنا لا نملِكُ أيَّ طاقةٍ على ذلك، ولقد أصدَرَ اللهُ تعالى حُكمَه بعقابِنا بالعدلِ والإنصاف، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يتَحدَّى حُكمَه، ولهذا سنبقَى جميعًا هنا في جهنَّم معًا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

٤١ ـ ثم يلتقي أهلُ جهنَّمَ جميعًا ويستغيثونَ بحُرّاسِ جهنَّم من الملائكةِ قائلينَ: إنّنا مُبتلَوْنَ بالعذابِ المتواصِل بسببِ كُفرِنا وشِركِنا، فهل يمكنُكم أن تدعوا اللهَ لنا أن يخفِّفَ عنا من عذابِنا شيئًا؟

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾

٤٢ ـ سيُجيبُهم حُرّاسُ جهنَّم من الملائكةِ قائلينَ: نحن مُعيَّنُونَ هنا لكي نُعذِّبَكم، وليس من عمَلِنا الشّفاعةِ لأحدٍ، والحقيقةُ أنّ الشّفاعةَ من أعمالِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ

السّلام، وقد جاءوا إليكم من اللهِ تعالى بمعجِزاتٍ واضحة، وأنذروكم من عذابِ الآخِرة هذا، لكنَّكم كذّبتُموهم عامِدينَ، ولهذا لا مَجالَ لاعتذارِكم هنا أبدًا، ونحن أيضًا لا يُمكنُ أن نتجرَّأَ بالدُّعاءِ للطُّغاةِ أمثالِكم، كما أنه ليس مسموحًا لنا أصلًا بأنْ ندعوَ للكفّارِ والمشركين، وإنما يُمكنُكم إذا أردتُم أن تدعوا اللهَ مباشرةً وانظُروا ماذا يكون، ولكنّ دعاءَ الكفّارِ يومَ القيامة يَضِيعُ سُدًى؛ لأنهم قيلَ لهم في الدنيا مراتٍ عديدةً وبكلِّ وضوح: إنّ هذه الحياةَ هي وقتُ التوبةِ والإيمان، ولن يُقبَلَ دعاءٌ يومَ القيامةِ بغيرِ إيمان.

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾

٤٣ ـ اللهُ تعالى يساعدُ رسُلَه والمؤمنينَ به بدلائلَ واضحةٍ غايةَ الوضوح، بحيثُ لوِ اجتَمعَ الكفّارُ جميعًا على أن يُقدِّموا ما ينقُضُ هذه الدَّلائلَ فلن يستطيعوا، وفي

ميدانِ الصِّراع بينَ الحقِّ والباطلِ كانت الغَلَبةُ السياسيّةُ أيضًا لأكثرِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام، فانتَصَر سيِّدُنا موسى عليه السَّلامُ في مواجهةِ الفِرعَونِ ورجالِه، وانتَصَر سيِّدُنا محمدٌ ﷺ في مواجَهةِ المشركينَ العرب، وحصَلَ على النَّصرِ السياسيِّ أيضًا، لكنّ الأنبياءَ الكرام عليهم السَّلامُ الذين لم يُكتَبْ لهمُ النَّصرُ السياسيُّ لحِكمةٍ عندَ الله تعالى أَنْعم اللهُ تعالى عليهم أيضًا بالثَّباتِ في أداءِ واجبِهم وتنفيذِ مهمّتِهم، بحيث لم تستطعْ جبالُ المصائبِ والآلام أن تُقلِّلَ من معنويّاتِهم أو تُحبِطَهم.

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

٤٤ ـ عندَما يحاولُ الكفّارُ والمشركونَ اختلاقَ الأعذارِ يومَ القيامة بأنّهم لم يأتِهْم نبيٌّ، ولهذا لم يستطيعوا الإيمانَ، عندَئذٍ تقفُ الملائكةُ المكلَّفونَ بكتابةِ صحائفِ الأعمالِ بأمرٍ من الله تعالى، وتُعلِنُ على الملأِ أنّ هؤلاءِ الكفّارَ والمشركينَ كاذبون، ولا حقَّ لهم بالتقدُّم بأيِّ عُذر؛ لأنّنا نشهَدُ أنّ الرُّسُلَ قد بَلَّغوهم رسالةَ توحيدِ الله تعالى، لكنّ هؤلاءِ لم يكذِّبوهم عامدينَ فقطْ، وإنّما آذَوْهم بمختلَفِ أنواع الإيذاءِ، ولهذا فإنّ هؤلاءِ يستحِقُّونَ اليومَ مصيرًا في غايةِ السوءِ مثلَ اللَّعنةِ وجهنَّم.

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

٤٥ ـ يعني: أنّنا قد أعطَيْنا سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ التَّوراةَ، وجَعَلنا بني إسرائيلَ الوارثينَ للتَّوراةِ من بعدِه، ولكنّ الذين حَصَلوا على النَّصيحةِ والهدايةِ من التَّوراةِ كانوا أصحابَ العقولِ تأكيدًا، وهكذا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد أَنْزلنا القرآنَ المجيدَ هدايةً كاملةً للبشَرِ جميعًا، لكنْ يحصُلُ على الهدايةِ والنّصيحةِ منه أصحابُ العقولِ يقينًا.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾

٤٦ ـ يقولُ العلّامةُ الرازي في تفسيرِ لفظِ ذَنْب: «والطاعِنونَ في عصمةِ الأنبياء عليهمُ السَّلام يتمسَّكونَ به، ونحن نحمِلُه على التَّوبةِ عن تَرْكِ الأَوْلى والأفضَل»[1].

في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى مُسَرِّيًا عن قلبِ النبيِّ ﷺ: اصبِرْ على إيذاءِ الكفّار والمشركينَ لكَ، واستمرَّ على الاستغفارِ من كلِّ ما هو خلافُ الأَوْلى الذي قيلَ له مجازًا: ذنبٌ باعتبارِ درجةِ تَقْواكَ الرَّفيعة، وإنْ لم يكنْ ذنبًا باعتبارِ الشريعة، وكنْ دائمًا رطبَ اللِّسانِ بحمدِ الله تعالى والثّناءِ عليه، وكنْ على يقينٍ من أنّ وعدَ الله تعالى بالنَّصرِ والمَدَد صادقٌ، وسيفشَلُ هؤلاءِ الكفّارُ والمشركونَ قريبًا، وسينتصرُ الإسلامُ في نهايةِ الأمر.

والاستغفارُ لا يكونُ لمجرَّدِ أنّ الشّخصَ قدِ ارتكَبَ ذنبًا، وإنّما يكونُ أيضًا لرَفْع الدَرجاتِ والقُرْبِ الإلهيِّ، ولهذا فإنّ ذنوبَ المذنبينَ تُغفَرُ بالاستغفار، ولكنْ عندَما يَستغفِرُ الصّالحونَ تُرفَعُ به درَجاتُهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقول: «والله إنّي لَأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعين مرّةً»[2].

يقولُ العلّامةُ أحمدُ الصّاوي المالكيُّ: «والمقصودُ من هذا الأمرِ تعليمُ الأُمّةِ ذلك وإلّا فرسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم معصومٌ من الذُّنوبِ جميعًا صغائرَ وكبائرَ قبلَ النُّبوةِ وبعدها على التحقيقِ كجميع الأنبياء»[3].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

٤٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إنّ مشركي مكّةَ يجادلونَ في أحكام الله تعالى

(١) التفسير الكبير.
(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٦٣٠٧.
(٣) حاشية الصاوي وصفوة التفاسير.

بغيرِ دليلٍ عَقْليٍّ أو سَنَدٍ إلهيّ؛ لأنّهم يَطمَعونَ في قلوبِهم بأنْ يصبحوا قادةً وعُظَماءَ، ويخشَوْنَ إن آمَنوا بك أن تنتهيَ سيطرتُهم وسيادتُهم وزعامتُهم، ولكنّ زعامتَهم هذه لن تدومَ، لأنّك ستفتَحُ مكةَ بعدَ ذلك، والذي لم يكنْ قد أَسْلم حتى ذلك اليوم سيُواجهُ الهزيمةَ، لهذا لا تُبالِ بمخالفتِهم لك، واستَعِذْ باللهِ تعالى من شرِّهم، وكما حَفِظَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلام من شرِّ فِرعَونَ ورجالِه، سيحفَظُكَ أنت أيضًا من مؤامراتِ المشركين.

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

٤٨ ـ كان مشركو مكةَ يعتقدونَ أنّ اللهَ تعالى هو خالقُ الأرضِ والسّماءِ، لكنّهم لم يكونوا يؤمنونَ بالإحياءِ ثانيةً يومَ القيامة، وفي هذه الآيةِ يُخبِرُهم اللهُ تعالى أنّ الذي يستطيعُ أن يَخلُقَ هذه الأرضَ الواسعةَ وهذه السماءَ العالية، لا يَصعُبُ عليه أبدًا خَلْقُ الإنسانِ الذي لا يتَعدَّى طولُه عدةَ أقدام قليلةٍ مرةً ثانيةً، ولكنّ أكثرَ الناسِ لا يحاولونَ فَهْمَ هذه الحقيقة.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

٤٩ ـ مثلَما لا يستوي الأعمى والبصيرُ، كذلك لا يمكنُ أن يستويَ المؤمنُ والكافر، ولا الصّالحُ والطالح، يعني: إنسانٌ يعيشُ حياةً طاهرةً مبنيّةً على الحقِّ والإنصاف، ولا يغتصبُ حقَّ أحدٍ، وإنسانٌ آخَرُ يعيشُ حياةً يملأُها الظلمُ والتعدِّي والفُحشُ، ويغتصبُ حقوقَ الناس، هذانِ لا يمكنُ أن يكونا متساويَينِ. ولكنّنا نَرى أنّ الشخصَ الصّالحَ غالبًا يحيا في ضِيقٍ من العيش، بينَما يعيشُ الشّخصُ السيِّئُ حياةً رَغِدةً، ولهذا فإنّ العدلَ والإنصافَ يقتَضيانِ حَتْميّةَ مجيءِ يومٍ يثابُ فيه الشخصُ الصّالحُ على أعمالِه الصّالحة، ويعاقَبُ فيه الشّخصُ السيِّئُ على أعمالِه

السيِّئة، لكنّ قليلًا من الناسِ هم الذين يتدبَّرونَ هذه الحقيقةَ ويؤمنونَ بالآخِرة، في حينَ أنّ أكثرَ الناسِ لا يتدبَّرونَ آياتِ القُدرة ولا يتأمَّلونَ فيها، ويظَلُّونَ محرومينَ من الإيمانِ بالقيامة. على أيِّ حال سواءٌ آمَن مَن آمَن وأنكَر مَن أنكر ستقومُ الساعةُ يقينًا، فهذا حُكمُ الله القاطعُ الذي لا مجالَ لأيِّ شكٍّ فيه.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

٥٠ ـ قيلَ في تفسيرِ هذه الآية: «أي: ادعوني أُجِبْكم فيما طلبتُم وأُعطِكم ما سألتُم، وإنّ الذين يتكبَّرونَ عن دعاءِ الله سيَدخُلونَ جهنَّمَ أذِلّاءَ صاغرين»[١]، وهناك تفسيرٌ آخَرُ وهو: «اعبُدوني أتقبَّلُ عبادتكم، وإنّ الذين يستكبرونَ عن عبادتي سيدخُلونَ جهنَّمَ داخِرين»[٢].. والحقيقةُ أنّ كلا التفسيرَيْنِ يَحمِلانِ المعنى نفسَه؛ لأنّ الدُّعاءَ أيضًا عبادةٌ، مثلَما يقولُ سيّدُنا النُّعمانُ بنُ بشِير رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدُّعاءُ هو العبادة». ثمّ قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾»[٣].

فضل الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدّعاءُ مُخُّ العبادة»[٤].

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٢ برقم ٣٣٧٢.

(٤) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٢ برقم ٣٣٧١.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس شيءٌ أكرمَ على الله تعالى من الدُّعاء»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن فُتحَ له منكم بابُ الدُّعاءِ فُتحتْ له أبوابُ الرّحمةِ، وما سُئل الله شيئًا يعني أحبَّ إليه من أن يُسألَ العافيةَ». وقال رسولُ الله ﷺ: «إنّ الدّعاءَ ينفَعُ ممّا نزل وممّا لم يَنزِلْ، فعليكم عبادَ الله بالدُّعاء»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الدُّعاءُ سلاحُ المؤمنِ وعمادُ الدّين ونورُ السّمواتِ والأرض»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يتنزَّلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدّنيا حين يبقَى ثُلثُ اللّيلِ الآخِر، فيقولُ: من يدعوني فأستجيبَ له، من يسألُني فأُعطيَه، من يستغفرُني فأغفِرَ له؟»[4].

يفرح اللهُ بدعاء العبد

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «سَلُوا اللهَ من فَضْلِه، فإنّ اللهَ عزَّ وجلّ يحبُّ أن يُسألَ، وأفضَلُ العبادةِ انتظارُ الفَرَج»[5].

ـ يقولُ سيّدُنا سَلْمانُ الفارسيُّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ حَيِيٌّ

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١ برقم ٣٣٧٠.
(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠١ برقم ٣٥٤٨.
(٣) الترغيب والترهيب، كثرة الدعاء، ٢: ٤٧٩، والمستدرك للحاكم، ١: ٦٦٩.
(٤) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٥ برقم ٧٤٩٤.
(٥) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٥ برقم ٣٥٧١.

كريمٌ يستحي إذا رَفَع الرّجلُ إليه يَدْيه أن يَرُدَّهما صُفرًا خائبتَيْنِ»[١].

يغضب الله من ترك الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن لم يسألِ اللهَ يغضَبْ عليه»[٢].

ادع الله بخير الدنيا والآخرة

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ ذَهَب ذاتَ يوم لعيادةِ صحابيٍّ في مرضِه وقال له: «هل كنتَ تدعو بشيءٍ أو تسألُه ايّاه؟»، قال: نعم. كنتُ أقول: اللّهمّ ما كنتَ مُعاقبي به في الآخِرة، فعجِّلْه لي في الدّنيا، فقال رسولُ الله ﷺ: «سبحانَ الله! لا تُطيقُه ـ أو: لا تستطيعُه ـ أفلا قلتَ: اللّهُمَّ آتِنا في الدّنيا حسَنةً وفي الآخرةِ حسَنةً وقِنا عذابَ النّار؟»، قال: فدعا اللهَ له، فشفاه[٣].

ـ سأل سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه سيّدَنا أنسَ بنَ مالكٍ رضي اللهُ عنه قائلًا: أيَّ دعاءٍ كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ منه؟ قال: كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ من هذا الدعاء: «اللّهُمَّ آتِنا في الدّنيا حسَنةً وفي الآخِرة حسَنةً وقِنا عذابَ النّار»[٤].

أوقات قبول الدعاء وأحواله

هناك بعضُ الأوقاتِ وبعضُ الأحوالِ والمقاماتِ التي يؤمَّلُ أن يكونَ

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠٤ برقم ٣٥٥٦.
(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٣٣٧٣.
(٣) مسلم، كتاب الذّكر والدعاء، باب ٧ برقم ٦٨٣٥.
(٤) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٣٦٢ برقم ١٥١٩.

الدعاءُ فيها أكثرَ قَبولًا واستجابةً، على سَبيل المثال عندَ السَّحورِ والإفطارِ، وبينَ الأذانِ والإقامة، وفي مكةَ والمدينةِ وبيتِ المقدِس، وفي حالةِ المرضِ والاضطرارِ وغيرِها، وإليك بعضَ الأحاديثِ والمأثورِ فيما يتعلَّقُ ببعضِها:

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن سَرَّه أن يستجيبَ اللهُ له عندَ الشّدائدِ والكُرَبِ فلْيُكثِرِ الدُّعاءَ في الرَّخاء»(١).

- يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي اللهُ عنه: قيل: يا رسولَ الله، أيُّ الدّعاءِ أسمع؟ قال: «جوفُ اللّيلِ الآخِرِ ودُبُرَ الصّلواتِ المكتوبات»(٢).

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أقرَبُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ، فأكثِروا الدّعاءَ»(٣)، أي: وأنتم ساجدون.

- رَوى شَهْرُ بن حَوْشَب «أنّ أُمَّ الدّرداءِ قالت له: يا شَهْر، ألا تجدُ القُشَعْريرةَ؟ قلتُ: نعم. قالت: فادعُ الله، فإنّ الدّعاءَ مستجابٌ عندَ ذلك»(٤).

أسباب عدم قبول الدعاء

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أيُّها النّاسُ، إنّ اللهَ طيِّبٌ لا يَقبَلُ إلّا طيّبًا، وإنّ اللهَ أمَرَ المؤمنينَ بما أمَرَ به المرسَلينَ فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾. ثمّ ذَكَر الرّجُلَ يُطيلُ السّفَرَ أشعَثَ أغبرَ يمُدُّ

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٩ برقم ٣٣٨٢.
(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٧٨ برقم ٣٤٩٩.
(٣) مسلم، كتاب الصلاة، باب ٤٢ برقم ١٠٨٣.
(٤) تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢): الآية ١٨٦.

يدَيْه إلى السّماءِ، يا ربِّ يا ربِّ، ومطعَمُه حرامٌ ومشرَبُه حرامٌ وملبَسُه حرامٌ وغُذِيَ بالحرام فأنّى يُستجابُ لذلك؟»(١).

ـ سُئل سيّدُنا إبراهيمُ بنُ أدهمَ: «ما بالُنا ندعو فلا يُستجابُ لنا؟ قال: لأنّكم عرفتُم اللهَ فلم تُطيعوه، وعرفتُم الرّسولَ فلم تتَّبِعوا سُنَّته، وعرفتُم القرآنَ فلم تعمَلوا به، وأكلتُم نِعَمَ الله فلم تُؤدُّوا شُكرَها، وعرفتُم الجنّةَ فلم تَطلُبوها، وعرفتُم النّارَ فلم تهرُبوا منها، وعرفتُم الشّيطانَ فلم تُحاربوه ووافقتُموه، وعرفتُم الموتَ فلم تستعِدُّوا له، ودفنتُم الأمواتَ فلم تَعتبِروا، وتركتُم عيوبَكم واشتَغَلتُم بعيوبِ النّاس»(٢).

الصلاة والسلام على النبي ﷺ في الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «كلُّ دعاءٍ محجوبٌ حتّى يُصلّيَ على محمّدٍ وآلِ محمّدٍ ﷺ»(٣)، وهكذا عندَما نُصلِّي على النبيِّ ﷺ يرتفعُ الحجابُ ويُقبَلُ الدُّعاء، وحينَ لا يُصلِّي على النبيِّ ﷺ لا يُقبَلُ الدعاء.

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه: «إنّ الدّعاءَ موقوفٌ بينَ السّماءِ والأرض لا يصعَدُ منه شيءٌ حتّى تُصلّيَ على نبيِّك ﷺ»(٤).

ـ يقول أبو سُليمانَ الدارانيُّ: «مَن أراد أن يسألَ اللهَ حاجَته فلْيُكثِرْ من الصّلاةِ على النّبيّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم ثمّ يسألِ اللهَ حاجتَه ولْيَختِمْ بالصّلاة على النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فإنّ اللهَ يَقبَلُ الصلاتَيْنِ، وهو أكرمُ من أن يَدَعَ ما بينَهما»(٥).

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب ١٩ برقم ٢٣٤٦.

(٢) تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢): الآية ١٨٦.

(٣) مجمع الزوائد، ١٠: ١٦٠، والمعجم الأوسط، برقم ٧٢٥.

(٤) الترمذي، أبواب الصلاة، باب ٣٥٢ برقم ٤٨٦.

(٥) رد المحتار، سنن الصلاة، ١، ٥٢٠، ودلائل الخيرات، فضائل الصلاة.

ـ بعضُ الأعمالِ يكونُ مقبولًا، والبعضُ الآخَرُ يكونُ مردودًا، ما عدا الصّلاةَ والسَّلامَ على النبيِّ ﷺ، فإنّ اللهَ يَقبَلُه، ولهذا غالبًا يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: «وكلُّ الأعمالِ فيها المقبولُ والمردودُ إلّا الصّلاةَ على النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم فإنّها مقبولةٌ غيرُ مردودةٍ... رُويَ عن ابن عَبّاس رضي الله عنهما: إذا دعوتَ اللهَ عزَّ وجَلّ فاجعَلْ في دعائك الصّلاةَ على النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فإنّ الصّلاةَ عليه مقبولةٌ، واللهُ سبحانَه أكرمُ مِن أن يَقبَلَ بعضًا ويرُدَّ بعضًا»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا فَضالةُ بن عُبيدٍ رضي اللهُ عنه: بيْنَا رسولُ الله ﷺ قاعدًا إذْ دخَلَ رجلٌ فصَلّى فقال: اللّهُمَّ اغفِرْ لي وارحَمْني. فقال رسولُ الله ﷺ: «عَجِلتَ أيُّها المصَلّي؟ إذا صلَّيتَ فقَعَدتَ فاحمَدِ اللهَ بما هو أهلُه وصلِّ عليَّ ثمّ ادْعُهُ»، قال: ثمّ صَلّى رجلٌ آخَرُ بعدَ ذلك فحَمِد اللهَ وصَلّى على النّبيِّ ﷺ، فقال له النّبيُّ ﷺ: «أيّها المصلّي، ادعُ تُجَبْ»[2]، ويُعلَمُ منه أنّ ذِكرَ الله تعالى بعدَ الصلاةِ بصوتٍ مرتفع، وكذا الصّلاةُ والسَّلامُ على النبيِّ ﷺ أمرٌ منه ﷺ، وسببٌ في قَبولِ الدّعاءِ؛ لأنّ الرجُلَيْنِ كانا يدعوانِ بصوتٍ عالٍ، ولهذا سَمع الصّحابةُ الكرامُ كلماتِهما ونَقَلوها في الحديث.

آثار الدعاء المقبول

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِن مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رَحِمٍ، إلّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمّا أن يُعجِّلَ له دعوتَه، وإمّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرة، وإمّا أن يَصرِفَ عنه من السُّوءِ مِثلَها»، قالوا: إذًا نُكثرَ يا رسولَ الله، قال: «اللهُ أكثر»[3].

---

(١) رد المحتار، سنن الصلاة، ١: ٥٢٠.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٦٤ برقم ٣٤٧٦.

(٣) الترغيب والترهيب، باب كثرة الدعاء، ٢: ٤٧٨، ومسند أحمد، ٢: ٤٤٨، وموطأ الإمام مالك، كتاب القرآن، باب ٨، ومستدرك الحاكم، ١: ٦٧٠.

ـ يَروي سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله رضي اللهُ عنهما حديثًا عن النبيِّ ﷺ يقولُ في آخِره: «فلا يَدَعُ اللهُ دعوةً دعا بها عبدُه المؤمنُ إلّا بيَّنَ له إمّا أن يكونَ عَجَّل له في الدّنيا، وإمّا أن يكونَ ادَّخَر له في الآخِرة، قال: فيقولُ المؤمنُ في ذلك المقام: يا ليتَه لم يكنْ عُجِّل له شيء من دعائه»[1]، وفي حاشية الترغيبِ: «أي: كنتُ أتمنَّى أن لا يُجيبَ في حياتي لتنفعَني اليومَ في آخِرتي»[2].

طريقة الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا دعوْتَ اللهَ فادْعُ ببطونِ كفَّيْك، ولا تَدْعُ بظهورِهما، فإذا فرغتَ فامسَحْ بهما وجهَك»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس: «إذا رَفَع يدَيْه حَذْوَ صدرِه فهو الدُّعاء»[4].

ـ «فيرفَعُ يدَيْه (في الدُّعاء) حِذاءَ صدرِه باسطًا كفَّيْه نحوَ السّماء، ويكونُ بينَهما فُرجةٌ وإن قَلَّت، ومَسْحُ الوجهِ عَقِبَه سُنّة»[5].

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطاب: «كان رسولُ الله ﷺ إذا رَفَع يدَيْه في الدّعاءِ لم يَحُطَّهما حتّى يمسَحَ بهما وجهَه»[6].

قول «آمين» في نهاية الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا أبو زُهيرٍ رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلةٍ

(١) المستدرك للحاكم، ١: ٦٧١ برقم ١٨١٩.

(٢) الترغيب والترهيب، باب كثرة الدعاء، ٢: ٤٧٩، في ملاحظة توضيحية.

(٣) ابن ماجه، أبواب الدعاء، باب ١٣ برقم ٣٨٦٦.

(٤) عمدة القاري شرح البخاري، كتاب الدعوات، باب رفع الأيدي في الدعاء، ٢٢: ٣٠١.

(٥) حاشية الطحاوي، سنن الصلاة.

(٦) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١ برقم ٣٣٨٦.

فأتَيْنا على رجلٍ قد أَلَحَّ في المسألةِ، فوقفَ النّبيُّ ﷺ يستمعُ منه، فقال النّبيُّ ﷺ «أوجَبَ إن خَتَم». فقال رجلٌ من القوم: بأيّ شيءٍ يَختِمُ؟ قال: «بآمينَ، فإنّه إنْ خَتَم بآمينَ فقد أوجَبَ». فانصَرفَ الرّجلُ الّذي سألَ النّبيَّ ﷺ فأتى الرّجلَ فقال: اختِمْ يا فلانُ بآمين، وأبشِرْ (أي: بقَبولِ الدُّعاء)»[١].

يتبدل القدر بأثر من الدعاء

ـ يقولُ سيّدُنا ثَوْبانُ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجلَ لَيُحرَمُ الرّزقَ بالذّنبِ يصيبُه، ولا يَرُدُّ القَدَرَ إلّا الدُّعاء، ولا يزيدُ في العمُرِ إلّا البِرّ»[٢].

ويُعلَمُ من هذا الحديثِ أنّ اللهَ تعالى يبدِّلُ قَدَرَ الإنسانِ بالدُّعاء، ولهذا كان سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه يَطُوفُ بالكعبةِ ويبكي قائلًا، فيما رَواه أبو عثمانَ النَّهْدي: «اللّهُمَّ إن كنتَ كتبتَني في أهلِ السّعادة فأثبِتْني فيها، وإن كنتَ كتبتَني في أهل الشّقاوةِ والذّنبِ فامحُني وأثبِتْني في أهلِ السّعادةِ والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاءُ وتُثبِتُ، وعندَك أُمُّ الكتاب»[٣]. وهذا العبدُ الفقيرُ أيضًا يقتدي بسيّدِنا عُمرَ بن الخطابِ رضي الله عنه ويقولُ: «اللّهُمّ إن كنتَ كتبتَني في أهلِ السّعادةِ فأَثْبِتْني فيها، وإن كنتَ كتبتَني في أهلِ الشّقاوةِ والذّنبِ فامحُني وأَثْبِتْني في أهلِ السّعادةِ والمغفرة، فإنّك تمحو ما تشاءُ وتُثبِت، وعندَك أُمُّ الكتاب».

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ١٦٧ برقم ٩٣٨.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٢٧٧، والمستدرك للحاكم، ١: ٦٧٠، وصحيح ابن حبان، ٢: ٨٩ برقم ٨٦٩.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الرعد (١٣): الآية ٣٩.

شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾

٥١ ـ جَعَل اللهُ تعالى اللّيلَ مظلِمًا حتى يستريحَ الناسُ فيه، وجَعَل النهارَ مضيئًا حتى يبحثَ الناسُ فيه عن أرزاقِهم، واللهُ تعالى رحيمٌ بعبادِه غايةَ الرَّحمة، فقد هيَّأَ للناسِ راحتَهم والبحثَ عن أرزاقِهم، لكنّ أكثرَ الناسِ معَ ذلك لا يشكرونَ اللهَ تعالى، ويعبدونَ من دونِه مَن لم يُحسِنْ إليهم أبدًا.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

٥٢ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكةَ بأنّ اللهَ تعالى هو خالقُ كلِّ شيء، وهو ربُّ كلِّ شيءٍ أيضًا، ولهذا لا أحدَ غيرُه يستحِقُّ العبادةَ، فلماذا لا تعبدونَ هذا الخالقَ الحقيقيَّ، وفي أيِّ ضلالٍ تَعْمَهونَ بعدَما تركتموه؟ الحقيقةُ أنكم لا تتدبَّرونَ في نِعَم الله تعالى وآياتِه، وتُصِرُّونَ على التقليدِ الأعمى لآبائكم وأجدادِكم، ولهذا تُنكِرونَ توحيدَ الله تعالى وآياتِه، والذين لم يتدبَّروا في آياتِ الله تعالى من قَبْلِكم

أنكَروا آياتِ الله تعالى أيضًا، وظلُّوا يَعْمَهونَ في الضّلالِ طيلةَ الحياة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾

٥٣ ـ جَعَل اللهُ تعالى الأرضَ مكانَ استقرارٍ للإنسان، وجَعَل السماءَ سقفًا يستَظِلُّونَ به، وأَنْعَم عليه بالرِّزقِ الحلال، والأحياءُ الأخرى أيضًا شُرَكاءُ في هذه النِّعَم، لكنّ اللهَ تعالى أَنْعم على الإنسانِ بشكلٍ وصورةٍ لا يشاركُه فيها غيرُه، وهذا هو السببُ أنّ حيَواناتٍ ضخمةً مثلَ الفيل والجَمَل، وحيَواناتٍ مفترِسةً مثلَ الأسودِ والنمورِ تخضَعُ للإنسانِ أيضًا.

شكل الإنسان وصورته هي الأجمل

ـ «كان عيسى بنُ موسى الهاشميُّ يحبُّ زوجتَه حبًّا شديدًا، فقال لها يومًا: أنتِ طالقٌ ثلاثًا إن لم تكوني أحسَنَ من القمر، فنَهَضت واحتَجَبتْ عنه، وقالت: طلّقتَني!. وبات بليلةٍ عظيمةٍ، فلمّا أصبح غدا إلى دارِ المنصور، فأخبَرَه الخبرَ، وأظهَر للمنصورِ جَزَعًا عظيمًا، فاستَحضَر الفقهاءَ واستَفْتاهم، فقال جميعُ مَن حضَر: قد طَلّقت، إلّا رجلًا واحدًا من أصحابِ أبي حنيفةَ، فإنّه كان ساكتًا. فقال له المنصور: ما لكَ لا تتكلّم؟ فقال له الرّجلُ: بسم الله الرّحمن الرّحيم: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١-٤]. يا أميرَ المؤمنين، فالإنسانُ أحسَنُ الأشياء، ولا شيءَ أحسَنُ منه. فقال المنصورُ لعيسى بن موسى: الأمرُ كما قال الرّجلُ، فأَقْبِلْ على زوجتِك»[١].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة التين (٩٥): الآية ٤.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ حاتم رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا قاتَلَ أحدُكم أخاه فلْيجتَنِبِ الوجهَ[1] فإنّ اللهَ خَلَق آدمَ على صُورتِه»[2]. اللهُ تعالى نورُ السّماءِ والأرض، وليس كمِثلِه شيءٌ، ثم إنّ المرادَ بأنه خَلَق الإنسانَ على صُورتِه، ونَفَخ فيه من رُوحِه هو تكريمُ الإنسانِ واحترامُه.

ـ من عَظَمةِ شكلِ الإنسان وصُورتِه أيضًا: أنّ كلَّ الأحياءِ تَحْني وجهَها إلى أسفلَ من أَجْل تناولِ الطعام وشُربِ الماء، بينَما يدُ السيّدِ الإنسانِ هي التي تَرفَعُ الطعامَ والشرابَ إلى فمِه ليتناولَه، حتى لا تنحنيَ رأسُ الإنسانِ أمامَ طعام وشراب، وإنما تنحني أمامَ الله تعالى فقطْ، وهو خالقُه الأصليُّ ومعبودُه الحقيقيُّ.

ـ إنّك لم تُخلَقْ للأرضِ ولا للسماء، الدُّنيا كلُّها في خِدمتِك، ولستَ أنت في خدمةِ الدنيا.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٥٤ ـ يَنقُل الدكتورُ وَهْبة الزُّحَيْلي روايةً عن سيّدِنا عبدِ الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «أنّ الوليدَ بن المُغيرةِ وشَيْبةَ بن ربيعةَ قالا: يا محمَّد، ارجِعْ عمّا تقولُ بدينِ آبائك، فأنْزلَ اللهُ: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾»[3]، وحينَئذٍ قال النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: لقد مُنِعتُ من عبادةِ آلهتِكم، وأنْ أخضَعَ لربِّ العالمينَ جميعًا فقطْ، كما أنّ آياتٍ عديدةً واضحةً على توحيدِ الله تعالى قد جاءتني، بحيث لا يمكنُ لي أن أُفكِّرَ مجرَّدَ تفكيرٍ في عبادةِ آلهتِكم.

---

(١) مسلم، برقم ٦٦٥٤.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ٣٢ برقم ٦٦٥٥.

(٣) التفسير المنير.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾

٥٥ - من بينِ معاني خَلْقِ الإنسانِ من الطِّين: أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ الإنسانَ الأولَ سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من الطِّين، وأنتم أولادُ آدمَ عليه السَّلامُ هذا، وبالتالي فإنّ أصلَكم أنتم أيضًا هو الطِّين، والمعنى الثاني: أنّ ما تتغذَّوْنَ عليه من ثمارٍ وخُضرَواتٍ مخلوقةٌ من الأرض، والحيَواناتُ التي تأكلونَ لحومَها أيضًا تتغذَّى وتكبَرُ على منتجاتِ الأرض، والنُّطفةُ تتكوَّنُ من هذه الأغذية، وهي التي تستقرُّ في رَحِم الأُمِّ وتكونُ سببًا في ولادةِ الإنسان، وبالتالي فإنّ أصلَكم من الطِّينِ أيضًا. على أيِّ حال خَلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ الأولَ من الطِّين مباشرةً، وخَلَق أولادَ آدمَ من الطِّين أيضًا ولكنْ بشكلٍ غيرِ مباشر، وفي الحالتَيْنِ يكونُ أصلُ الإنسانِ هو الطِّينَ.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾

٥٦ - يا أولادَ آدم، خَلَقَ اللهُ تعالى أباكم سيّدَنا آدمَ عليه السَّلامُ من الطِّين، وبَدأَ خَلْقَكم من النّطفة، ثم خلَقَكم أطفالًا بعدَ أن تتحوَّلَ النُّطفةُ إلى قطعةٍ من الدَّم واللَّحم، حتى تُدركوا أنّ اللهَ تعالى خَلَقَ - من قطرةِ ماءٍ لا روحَ فيها - الدَّمَ، ثم اللحمَ، ثم نَفَخ فيه الرُّوحَ وجَعَله إنسانًا حيًّا، وبنفسِ الطريقة ينفُخُ الرُّوحَ في الإنسانِ الميِّت ويُحييه من جديدٍ.

رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن مسعودٍ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحَدكم يُجمَعُ خَلْقُه في بطنِ أُمِّه (نُطفةً) أربعينَ يومًا، ثمّ يكونُ عَلَقةً (دمٌ سَميكُ القِوام) مثلَ ذلك، ثمّ يكونُ مُضْغةً (قطعةً من اللَّحم) مِثلَ ذلك، ثمّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيؤمَرُ بأربع كلماتٍ، ويقالُ له: اكتُبْ عمَلَه ورزقَه وأجَلَه وشَقِيٌّ أو سعيدٌ. ثمّ يُنفَخُ فيه الرُّوح»[١].

---

(١) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ٦ برقم ٣٢٠٨.

ويُعلَمُ منه أنّ الملائكةَ تَعلَمُ بإخبارِ الله تعالى لها أنّ الطِّفلَ الذي في بطنِ أُمِّه عندَما يأتي إلى الدُّنيا كيف سيكونُ عمَلُه، وما هو رزقُه (مستوى المالِ والثروةِ والعِلم والحِكمة)، ومتى سيموتُ، وهل يكونُ شقيًّا أم سعيدًا. وكما أنّ الملائكةَ تعرِفُ هذا بإخبارِ الله تعالى لها، فإنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ وأولياءَ اللهِ الكرامَ يعلَمونَ من الغَيْبِ بإخبارِ الله تعالى لهم عن طريقِ المعجِزاتِ والكرامات. وللمزيدِ من التفصيل راجعْ تفسيرَ الآية ٣٤ من سُورة لُقمان (٣١).

يقولُ سيّدُنا الحارثُ بنُ مالكٍ الأنصاريُّ رضي اللهُ عنه: مرَرْتُ بالنبيِّ ﷺ فقال: «كيف أصبحتَ يا حارث؟»، قلت: أصبحتُ مؤمنًا حقًّا، فقال: «انظُرْ ما تقول، فإنّ لكلِّ شيءٍ حقيقةً، فما حقيقةُ إيمانِك؟»، قلت: قد عزَفَتْ نَفْسي عن الدنيا وأسهَرْتُ لذلك ليلي وأظمَأْتُ نهاري (يعني: صُمتُ وأصبح حاليَ الآنَ) وكأنّي أنظُر إلى عرشِ ربِّي بارزًا وكأني أنظُرُ إلى أهلِ الجنّة يتَزاوَرونَ فيها، وكأني أنظُرُ إلى أهلِ النار يتضاغَوْنَ فيها، فقال: «يا حارث، عرَفْتَ فالزَمْ»[1]. وفي حديثٍ آخَر، قال النبيُّ ﷺ للحارثِ بن مالكٍ الأنصاريِّ: «أنت امرُؤٌ نوَّر اللهُ قلبَه»[2].

﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

٥٧ ـ ثم إنّ بعضًا منكم يموتُ في مرحلةِ الشّباب، والبعضُ الآخَرُ في مرحلةِ الشّيخوخة، والبعضُ يموتُ قبلَ ذلك، وهكذا فإنّ كلَّ واحدٍ منكم يعيشُ إلى نهايةِ العمُرِ المحدَّدِ له، ثم يموتُ بعدَه، والهدفُ من الإخبارِ بهذا التفصيل هو أنه كما أنّ اللهَ تعالى خَلَقَكم لأولِ مرّة من الطِّينِ والنُّطفة، فلا يَصعُبُ عليه إحياؤكم من

---

(١) كنز العمال، ١٣: ٣٥١ برقم ٣٦٩٨٨، والمعجم الكبير، ٢: ٣٦٣ برقم ٣٢٨٩.
(٢) كنز العمال، ١٣: ٣٥٢ برقم ٣٦٩٨٩.

جديدٍ بعدَ الموت، بل إنه حين يريدُ أمرًا ما فإنه فقطْ يقولُ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ هذا الأمرُ على الفَوْرِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾

٥٨ ـ يعني: ما أعجَبَ مشركي مكةَ الذين يجادلونَ في آياتِ الله تعالى رَغْمَ الأدِلَّةِ الواضحة، ويَعْمَهون في ضلالٍ مُبين.

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾

٥٩ ـ الذين كذَّبوا القرآنَ الكريمَ والكُتُبَ السَّماويةَ من قبلِه، حين توضَعُ القيودُ والأغلالُ في أعناقِهم يومَ القيامة، ويُلقَى بهم أولًا في ماءٍ يَفُور، ثم يُسحَبُونَ منه ليُلقَى بهم في نارِ جهنَّم، عندَئذٍ سيشعُرونَ بحماقتِهم، ولكنْ بلا جَدْوى؛ لأنّ أبوابَ التوبةِ يومَ القيامة تكونُ قد أُغلِقت.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

٦٠ ـ حين يُلقَى بالمشركينَ في جهنَّم سيُسألونَ: أين أولئك الذين أشركتُموهم معَ الله تعالى؟ ادعوهُم إليكم ليُنجُوكم من هذا العذاب. لكنّ حقيقةَ الحال قدِ اتَّضحَتْ أمامَهم في ذلك الوقت، ولذا سيقولون: أيُّ مدَدٍ سيُقدِّمونَه لنا اليومَ؟ فهم أنفُسُهم يحترقونَ الآنَ في جهنَّم، ولهذا لا نَراهم الآنَ. وحين يَيْأَسُ المشركونَ من آلهتِهم الباطلةِ سيحاولونَ الكذِبَ قائلينَ بأنّهم لم يكونوا يعبُدونَ أيَّ شيءٍ في الدنيا.

يقولُ العلّامةُ ابنُ كَثير: «فقالوا: تعالَوْا فلْنَجْحَد، فيَجْحَدونَ، فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم وتشهَدُ أيديهم وأرجُلُهم ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٤٢]»[1] بأنّ ألسِنَتهم قد قالت كذبًا، وهم ـ في الحقيقة ـ كانوا يشركونَ باللهِ في الدُّنيا.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾

٦١ ـ لأنّ الكفّارَ أيضًا ينكرونَ النُّبوةَ والتوحيدَ مِثلَ المشركين، ويفخَرونَ بالمالِ والثَّروةِ الدُّنيويّة، ويحتفلونَ بعِصيانِهم لله تعالى، لهذا تسوَدُّ قلوبُهم، ويُحرَمونَ من التوفيقِ إلى قَبولِ الحقِّ، فيَترُكُ اللهُ تعالى الكفّارَ يَعْمَهونَ في ضَلالِهم عقابًا لهم على هذا، ويُدخِلُهم يومَ القيامة في جهنَّم، حيث يظَلُّونَ يُعذَّبونَ إلى الأبدِ نتيجةَ تكبُّرِهم.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

٦٢ ـ قال اللهُ تعالى للنبيِّ الكريم ﷺ أنِ اصبِرْ على مخالفةِ المشركينَ لك، وما وَعدْناك به من تعذيبِ المشركينَ ونَصْرِ الإسلام حقٌّ كلُّه، وسيتحقَّقُ كلُّه يقينًا، سواءٌ تحقَّق بعضُه في وجودِك مِثلَ: نَصْرِ بدرٍ وفَتْح مكةَ وغيرِهما، أو تحقَّق بعدَ انتقالِك

---

(١) تفسير ابن كثير، سورة الأنعام (٦): الآية ٢٣.

إلى الرفيقِ الأعلى مثلَ: النَّصرِ الذي حازَه الإسلامُ في عهدِ الخلفاءِ الراشدينَ، ولو حَدَث أنْ لم يُعاقَبْ مشركٌ في الدُّنيا لحِكمةٍ عندَ الله فلن يستطيعَ الإفلاتَ في الآخِرةِ من عذابِنا؛ لأنّ الجميعَ سيعودونَ إلى الله تعالى في نهايةِ الأمر، ونحن نَعلَمُ تمامَ العِلم أعمالَهم، وسنُعاقبُهم طِبقًا لجرائمِهم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾

٦٣ ـ يعني: أن الرُّسُلَ الذين أرسَلْناهم من قَبْلِك ذكَرْنا لكَ بعضَهم، وبعضُهم لم نَذكُرُه لكَ إلى الآنَ، ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أنه لم يَذكُرِ الأنبياءَ الآخَرينَ بعدَ نزولِ هذه الآية، وإنّما يُعلَمُ تَعدادُ الأنبياءِ في الأحاديثِ بأنّ اللهَ تعالى قد ذَكَر الأنبياءَ جميعًا إجمالًا أو تفصيلًا، مثلَما قال اللهُ تعالى في سورةِ هود: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]، ودليلُ هذا أيضًا أنّ الأنبياءَ الكرامَ جميعًا عليهمُ السّلامُ قد صَلَّوْا وراءَ النبيِّ ﷺ في المسجدِ الأقصى ليلةَ المعراج.

يقولُ ابنُ كَثير: «عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، كم الأنبياءُ؟ قال: مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفًا»، قلتُ: يا رسولَ الله، كم الرُّسُلُ منهم؟ قال: ثُلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَر»(١).

ويَبلُغُ عددُ الأنبياءِ الذين وَرَد ذِكرُهم وقَصَصُهم في القرآنِ الكريم **٢٥** نبيًّا ورسولًا، يعني: سيّدُنا آدمُ، وسيّدُنا إدريسُ، وسيّدُنا نوحٌ، وسيّدُنا هودٌ، وسيّدُنا صالحٌ، وسيّدُنا إبراهيمُ، وسيّدُنا لوطٌ، وسيّدُنا إسماعيلُ، وسيّدُنا إسحاقُ، وسيّدُنا يعقوبُ، وسيّدُنا يوسُفُ، وسيّدُنا أيوبُ، وسيّدُنا شُعَيبٌ، وسيّدُنا موسى، وسيّدُنا

(١) تفسير ابن كثير، سورة النساء (٤): الآية ١٦٤.

هارونُ، وسيّدُنا يونُسُ، وسيّدُنا داودُ، وسيّدُنا سُليمانُ، وسيّدُنا إلياسُ، وسيّدُنا اليَسَعُ، وسيّدُنا زكريّا، وسيّدُنا يحيى، وسيّدُنا عيسى، وسيّدُنا ذو الكِفْل، عليهم جميعًا السَّلامُ، وسيّدُ الأنبياءِ جميعًا سيّدُنا محمّدٌ ﷺ[١].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

٦٤ ـ لم تكنْ لدى مشركي مكةَ النِّيةُ أصلًا للإيمان، ومعَ ذلك كان أكثرُهم يظّلُّ يطلُبُ معجزاتٍ جديدةً، وعليه قال اللهُ تعالى: إنّ أيَّ رسولٍ لا يُمكنُه تقديمُ معجزةٍ برغبتِه بغيرِ إذنٍ من الله تعالى، ولكنّ هذا لا يعني أبدًا أنّ النبيَّ ليس قادرًا على أن يُقدِّمَ معجزةً؛ لأنّ المعجزاتِ التي مَنَح اللهُ تعالى النبيَّ الاختيارَ والقُدرةَ على إظهارِها يستطيعُ النبيُّ أن يأتيَ بها، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه عنه سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «هل ترَوْنَ قِبلتي ها هنا؟ واللهِ ما يخفَى عليَّ ركوعُكم ولا خشُوعُكم، وإنّي لَأراكم وراءَ ظهري»[٢]، والركوعُ يقالُ للصُّورةِ الظاهريّةِ للصلاة، بينَما يقالُ الخشوعُ للكيفيّةِ الباطنيّةِ لها، ولهذا فإنّ النبيَّ ﷺ كان يستطيعُ رؤيةَ المصَلِّينَ وراءَه بعدَ وقوفِه للإمامة ووجهُه للقِبلة، وكانت هذه معجزةً يستطيعُ النبيُّ ﷺ الإتيانَ بها في كلِّ وقت، مثلَما أننا قادرونَ على الإتيانِ بالعمَل الذي منَحَنا اللهُ الاختيارَ والقُدرةَ على القيام به، ولمزيدٍ من التفصيل عن المعجِزات التي كانت تُطلَبُ طلبًا راجِع الآيةَ رقم ٥٩ من سُورةِ الإسراء، وكذا الحاشيةُ رقم

---

(١) «هذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن، وهم: آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم». تفسير ابن كثير، سورة النساء (٤): الآية ١٦٤.

(٢) البخاري، كتاب الأذان، باب ٨٨.

٥٧، وبخصوصِ المعجزاتِ الأخرى راجع الآيَةَ رقم ٧ من سُورةِ الرَّعد (١٣) وكذا الحاشيةُ رقم ٩.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

٦٥ ـ المنكِرونَ في هذه الدُّنيا جادَلوا الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام وخاصَمُوهم وكذَّبوهم، ولكنْ حين جاء وقتُ انتقام الله تعالى لم يستطعْ أحدٌ أن يُنقذَ هؤلاءِ المنكِرينَ، وهكذا حينَ يأتي يومُ القيامة، ويُحكَمُ بينَهم بالحقِّ، سيظَلُّ عُبّادُ الباطل عندَئذ في خسارةٍ دائمة؛ لأنّ أهلَ الحقِّ سيُنجِيهم اللهُ تعالى.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

٦٦ ـ خَلَق اللهُ تعالى الإنسانَ ولم يَترُكْه بلا عَوْنٍ أو مَدَد، وإنّما أرسَلَ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ لهدايتِه، وخَلَق الأنعامَ لكي يعيشَ حياةً ماديّةً مناسبة، وبعضُ هذه الأنعام يأكلُ الإنسانُ لحومَها، ويشربُ ألبانَها، ويصنَعُ من أصوافِها وأوبارِها ملابسَ

ثقيلةً تُدفئُه، وكذا أحذيةٌ يرتديها، وبعضُ هذه الأنعام يستعملُها الإنسانُ في نَقْل بضائعِه التجاريّةِ التي يحتاجُ إلى نَقْلِها من مكانٍ إلى آخَرَ، بل ويركَبُ عليها ويَطوي أسفارًا بعيدةً لتحقيقِ المقاصدِ الدِّينيّة والدُّنيويّة.

لقد أقام اللهُ تعالى ثلاثةَ أرباع الأرض على الماء، بحيث تَجري فيها السُّفُنُ ليسافرَ فيها الإنسانُ ويحمِلُ عليها أمتعتَه بكلِّ سهولةٍ ويُسر.

لقد سَخَّر اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ في الكائناتِ للإنسان، فمن جانبٍ وَفْرةُ النِّعم على الإنسان، ومن جانبٍ آخَرَ في كلِّ نعمةٍ آيةٌ على قدرةِ الله تعالى، ولو تدبَّر الإنسانُ هذه النِّعمَ فإنّ هذه الآياتِ واضحةٌ غايةَ الوضوح، بحيث لا يستطيعُ أن يُنكِرَ ولو واحدةً منها، فإذا لم يؤمنِ الإنسانُ بتوحيدِ الله تعالى بالرَّغم من ذلك، فماذا نفعَلُ له إن لم نقُمِ المآتمَ على عقلِه؟

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

٦٧ ـ في هذه الآيةِ تنبيهٌ للكُفّارِ أنهم قد رأَوْا خلالَ أسفارِهم التجاريّةِ تلك القُرى التي كان أصحابُها أكثرَ منهم عددًا وقوةً، وتشهدُ أطلالُ قصورِهم وقلاعِهم المدمَّرةِ اليومَ على عَظَمتِهم وقوّتِهم، ولكنْ عندما نَزَل عليهم العذابُ بسببِ كُفرِهم وشِركِهم لم تستطعْ أعدادُهم ولا قوّتُهم ولا مكاسبُهم ولا مُنشَآتُهم أن تُنجيَهم من العذاب، وبنفسِ الطريقة لو لم يَرجِعْ كفّارُ مكةَ أيضًا عن شِركِهم وكُفرِهم، فلن تستطيعَ قبائلُهم ولا مكانتُهم ولا عنادُهم أن تُنجيَهم من العذاب.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٦٨ ـ عندَما جاء الأنبياءُ الكرامُ السابقونَ عليهمُ السَّلامُ إلى أقوامِهم بالآياتِ

البيِّنات، ودَعَوْهم إلى الإيمانِ بالتوحيدِ والنُّبوة، أخَذوا يتفاخَرونَ بعلومِهم الماديّةِ وفنونِهم ونظريّاتِهم الباطلة، ويحتقرونَ تعاليمَ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام ويسخَرونَ منهم، ولكنْ عندما أحاطَ بهم عذابُ عبادتِهم الباطلَ، شَعَروا بأنّهم كانوا ـ بالفعل ـ على الباطل، وأنّهم كانوا يَسخَرونَ من الأنبياءِ عليهمُ السَّلام وتعاليمِهم بغيرِ حقّ، ولهذا ينبغي لمشركي مكةَ أن يأخُذوا منهم العِبرةَ.

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

٦٩ ـ عندَما يرى المشركونَ العذابَ يترُكونَ الشِّركَ ويُقِرُّونَ بالتوحيد، ولكنّ الإيمانَ في ذلك الوقتِ لن يُفيدَهم بشيءٍ، وسيَمكُثونَ في خسارةٍ دائمة؛ لأنّ سُنّةَ الله منذُ الأزلِ أنّ إيمانَ أحدٍ بعدَ رؤيتِه العذابَ لن يكونَ مقبولًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الثلاثاء ٣٠ مارس ٢٠١٠م
الموافق ١٤ ربيعٍ الثاني ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتَمل تفسيرُ سُورةِ «غافرٍ» في واحدٍ وعشرينَ يومًا فقطْ، أي: من ٩ مارسَ حتى ٣٠ مارس، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٤١) سُورَةُ فُصِّلَتۡ

هذه السُّورةُ مكِّية، ولها اسمانِ، الأولُ: «حمٓ السَّجدةُ»، و«حمٓ» هي الآيةُ الأولى من هذه السُّورة، وجاءت معَها «السَّجدةُ» لأنّ هناك سجودًا بعدَ الآية رقم ٣٨ من السُّورة، أمّا الاسمُ الثاني فهو «فُصِّلت»، وهو مأخوذٌ من الآية الثالثةِ من السُّورة.

وقت نزول السورة

نَزَلت هذه السُّورةُ بعدَ إسلام سيّدِنا حمزةَ رضي الله عنه، في ذلك الوقتِ كان عددُ المسلمينَ في مكّةَ قد بَدأ يزدادُ، وكان كفّارُ مكةَ يشعُرونَ بالقلقِ من هذا.

ـ نَقَل المفسِّرونَ فيما يتعلَّقُ بتفسيرِ هذه السُّورة رواياتٍ متشابهةَ المعنى، وإليك خلاصةَ الرواياتِ التي نَقَلَها الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ الآية الخامسة من السُّورة:

ذاتَ مرّة كان سادةُ مكّةَ يجلسونَ في المسجدِ الحرام، وكان النبيُّ ﷺ يجلسُ في رُكنٍ من أركانِ المسجد، في هذه الأثناءِ قال عُتبةُ بن رَبيعةَ لقُريشٍ: لو أذِنتُم لي أن أذهبَ إلى محمدٍ وأتفاوضَ معَه، وأَعرِضَ عليه بعضَ المقترَحات، فربَّما وافقَ وتخلَّى عن مخالفتِنا. ووافقَت قُريشٌ على ما قال، وأرسَلَتْ عُتبةَ بنَ رَبيعةَ إلى النبيِّ الكريم ﷺ ممثِّلًا لها، وهكذا ذَهَب عُتبةُ بنُ رَبيعةَ إلى النبيِّ ﷺ وقال في ثنايا حديثِه معه: يا ابنَ أخي، إنّ مقامَك هامٌّ بينَنا باعتبارِ النَّسَبِ والعائلة،

لكنّك خَلَقتَ تشتُّتًا وتفرُّقًا بينَ بني قومِك، وقلتَ عنّا وعن آبائنا وأجدادِنا: إنّهم كفّار! وها أنا ذا جئتُك ببعضِ المقترَحاتِ لإنهاءِ هذا التّفرُّق، ومن الممكنِ أن تَقبَلَ أحدَها، فينتهيَ هذا الوضعُ، وهذه المقترَحاتُ هي:

١ ـ إن كان هدفَك من هذه الدعوةِ الجديدةِ هو الحصُولُ على المال، جمَعْنا لكَ مالًا بحيث تصبحُ أغنَى منّا جميعًا.

٢ ـ وإن كنتَ تريدُ بها الزواجَ منَ امرأةٍ ما فنحن على استعدادٍ لأَنْ نُزوِّجَك بعشْرِ نساءٍ ممّن تحبُّ من قُريش.

٣ ـ وإن كان بكَ مَسٌّ من الجنِّ ولا تستطيعُ أن تتخلَّصَ منه، طلَبْنا لك أفضَلَ الأطباءِ وأمهرَهم، وعالَجْناك على نفَقتِنا الخاصة.

٤ ـ وإن كنتَ تريدُ سيادةً جعَلْناكَ سيّدًا علينا، لا نقرِّرُ أمرًا بدونِك.

٥ ـ وإن كنتَ تريدُ مُلكًا وحُكمًا جَعَلْناك مَلِكًا وحاكمًا علينا، بشرطِ أن تتخَلَّى عن هذا الدِّينِ الجديد.

ظَلَّ النبيُّ ﷺ يستمعُ إلى ما يقولُه عُتبةُ في اطمئنانٍ، وحينَ انتَهى عُتبةُ من حديثِه قال النبيُّ ﷺ: يا عُتبة، اسمَعْ لِما أقول. وأخَذَ النبيُّ ﷺ يَتْلو من بدايةِ هذه السُّورة حتى وَصَل إلى الآيةِ رقم ١٣ منها: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾، وما أنْ سَمِع عُتبةُ هذه الآيةَ حتى اعتَراه خوفٌ واضطراب، فنهَضَ، ووَضَع يدَه على فم النبيِّ ﷺ قائلًا: أستَحْلِفُكَ بما بينَنا من رَحِم أن تتوقَّفَ ولا تقرأِ المزيدَ، وإلّا هلَكْنا نحن.

ثم عاد عُتبةُ بنُ رَبيعةَ إلى قُريش، فتهامَسَ سادةُ قُريشٍ فيما بينَهم قائلين: لا والله، ما هذا عُتبةُ الذي عرَفْناه، فوجهُه متغيِّرٌ، ويبدو وكأنّ سِحرَ محمدٍ قد أثَّر عليه. على أيِّ

حال، عندما جَلَس عُتبةُ في المجلسِ معَهم سألوه: ماذا سمِعتَ هناك؟ أجاب: واللهِ لقد سَمِعتُ كلامًا لم أسمَعْ مثلَه من قبلُ، فواللهِ ما هو بشِعر، ولا هو بسِحر، ولا هو من قولِ الكُهّان، وأنتم جميعًا تعلَمونَ أنّ محمدًا ﷺ عندما يتكلَّمُ لا يكذِبُ (يعني: أنّ كلَّ ما يَخرُجُ من لسانِه ﷺ يتحقَّقُ كاملًا)، فخِفتُ أن يَنزِلَ عليكم العذاب.

يا قُريش، واللهِ إنّ الذي سَمعتُه لا بدَّ أن يظهَرَ أثرُه ذاتَ يوم، ولهذا أطيعوني واترُكوه في حالِه، فإنْ غَلَبت عليه العربُ نجَوْتُم من التَّورُّطِ في قتلِ أخيكم، وإن غَلَب هو على العربِ يكونُ مُلكُه مُلكَكم، ومقامُه مقامَكم، وتكونونَ أسعدَ الناسِ به، وعليه قالت قُريش: يا عتبةُ، لقد سَحَرَك في نهايةِ الأمر. فقال عُتبةُ: على أيِّ حال أخبَرتُكم بما أرى، وافعَلوا ما شئتُم[1].

---

(١) «حدّثني يزيد بن زيادٍ، عن محمّد بن كعبٍ القرظي، قال: حدّثت أن عتبة بن ربيعة ـ وكان سيّدًا ـ قال يومًا وهو جالسٌ في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحده: يا معشر قريشٍ، ألا أقوم إلى محمّدٍ فأكلّمه وأعرض عليه أمورًا لعلّه يقبل بعضها، فنعطيه أيّها شاء ويكفّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلّمه. فقام إليه عتبة حتّى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنّك منّا حيث قد علمت من السِّطة في العشيرة، والمكان في النّسب، وإنّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيمٍ، فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلّك تقبل منّا بعضها. قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع». قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالًا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون من أكثرنا أموالًا. وإن كنت تريد به شرفًا سوّدناك علينا، حتّى لا نقطع أمرًا دونك. وإن كنت تريد به ملكًا ملّكناك علينا. وإن كان هذا الّذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطّبّ، وبذلنا فيه أموالنا حتّى نبرّئك منه، فإنّه ربّما غلب التّابع على الرّجل حتّى يداوى منه، أو كما قال له. حتّى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم. قال: «فاستمع منّي» قال: أفعل. قال: «بسم الله الرحمن الرحيم. ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ * بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ ثمّ مضى رسول الله ﷺ =

مضامين السورة

ـ في هذه السُّورةِ جاءتِ الدّعوةُ إلى العقائدِ الأساسيّةِ في الإسلام، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والرّسالةَ والقرآنَ والآخرةَ، مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ الأخرى، كما جاء فيها تنبيهٌ لأهل مكةَ بأنّ الأُممَ السابقةَ عليكم مِثلَ: عادٍ وثمودَ وغيرِهما ممَّن كذَّبوا أنبياءَهم الكرامَ عليهمُ السَّلام، أهلَكْناهم ودمَّرناهم، معَ أنّ هؤلاءِ الأقوامَ كانوا أكثرَ منكم قوةً، وأنتم أيضًا إنْ لم تَرجِعوا عن طُغيانِكم وعنادِكم فستُواجِهونَ مِثلَ هذا العذابِ أيضًا.

ـ عندَما تشهدُ أعيُنُ الكفّارِ وجُلودُهم وآذانُهم عليهم في ميدانِ الحَشْر، سيقولُ الكفّارُ لأعضائهم هذه: لماذا شَهِدتُم علينا؟ وستُجيبُهم أعضاؤهم: لقد أنطَقَنا اللهُ تعالى، وشَهِدنا عليكم بأمرِه، ولهذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يمنَعَنا من هذا.

ـ كان الناسُ يرغَبونَ إلى الإسلام متأثّرينَ بتعاليم القرآنِ الكريم، وكان هذا الأمرُ يزعجُ الكفّارَ كثيرًا، ولهذا كانوا يقولونَ لبعضِهم: عليكم أن تُثيروا ضَجّةً وصَخَبًا كلّما قَرأَ المسلمونَ القرآنَ، فلا تسمَعوه ولا يسمَعْه غيرُكم، فلا يتأثَّرَ أحدٌ منه ويَقبَلَ الإسلامَ.

= فيها يقرأها عليه. فلمّا سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يسمع منه، ثمّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السّجدة منها، فسجد ثمّ قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك»، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعضٍ: أقسم ـ يحلف بالله ـ لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الّذي ذهب به. فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي قد سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قطّ، والله ما هو بالسّحر ولا بالشّعر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلّوا بين الرّجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الّذي سمعت نبأٌ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم، وكنتم أسعد النّاس به. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم». تفسير ابن كثير، سورة فصلت (٤١): الآية ٥.

ـ جاء في السُّورةِ بيانٌ تفصيليٌّ للإنعاماتِ التي يُنعِمُ اللهُ تعالى بها على أهل الاستقامة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صلاة الظهر من يوم الثلاثاء ٣٠ مارس ٢٠١٠م
الموافق ١٤ ربيعٍ الثاني ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ فُصِّلَتْ (٤١)،

مكية (٦١)، آياتها (٥٤)، ركوعاتها (٦)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾

﴿حمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى وبينَ رسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

٢ ـ هذا فَضْلٌ عظيمٌ من اللهِ تعالى بأنْ أَنْزل القرآنَ الكريمَ لهدايةِ عبادِه، فقد جاء في آياتِه الحديثُ عن الحقِّ والباطل، والخيرِ والشرِّ، بتفصيلٍ وتوضيح

أكبرَ، بحيثُ لا يبقَى هناك أيُّ مجالٍ للشكِّ أو الإبهام، كما أنّ القرآنَ المجيدَ باللُّغةِ العربيّة، وهي اللُّغةُ الأُمُّ للمخاطَبين الأُوَل به، وسُنّةُ اللهِ تعالى هي أن يُرسِلَ كلَّ نبيٍّ إلى قومِه بلُغتِهم، حتى يُبيِّنَ لهم رسالتَه بكلِّ وضوح: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولكنْ معَ ذلك يستفيدُ منه أولئك الذين لديهِم ثروةٌ من العلم والفَهْم؛ لأنّ الحَمْقَى والجُهلاءَ لا يقدِّرونَ أيَّ نعمة.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

٣ ـ الذين يعمَلونَ بتعاليم القرآنِ الكريم يُبشِّرُهم القرآنُ الكريمُ بالجنّة، والذين يَضربونَ بتعاليمِه عُرضَ الحائطِ يُنذرُهم القرآنُ الكريمُ بعذابِ جهنَّم، لكنّ أكثرَ الناسِ معَ ذلك لا يستمعونَ إلى القرآنِ بتمعُّنٍ وتدبُّر، ويظَلُّونَ يَعمَهونَ في ضلالِهم بسببِ إعراضِهم عنه.

﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾

٤ ـ عندما كان النبيُّ ﷺ يدعو المشركينَ إلى القرآنِ المَجيد كانوا يُجيبونَه: لقد حَفِظنا دينَ آبائنا وأجدادِنا في قلوبِنا، ثم أحَطْنا قلوبَنا بكثيرٍ من الأَغْلِفةِ والحُجُب بحيث لا يمكنُ لدعوتِك أن تصلَ إليها، ثم إنّنا اصْطَنَعْنا عامدينَ ثِقْلًا في أسماعِنا بحيث لا نلتفتُ إلى دعوتِك أصلًا، والحقيقةُ أنّ دينَ آبائنا بمَثابةِ حجابٍ بينَنا وبينَك لا يمكنُ أن تُزيحَه أو تُمزِّقَه، ولهذا أنت تترُكُنا في حالِنا، ونحن أيضًا نترُكُك في حالِك.

﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

٥ ـ عندَما وَضَع مشركو مكّةَ حجابَ التعصُّبِ على أعيُنِهم صَدًّا لدعوةِ النبيِّ ﷺ لهم، وأنكَروا كلَّ ما يقولُه ﷺ بسببِ تكبُّرِهم، لقَّن اللهُ تعالى نبيَّه ﷺ التواضُعَ، مثلَما قال سيّدُنا الحَسنُ البصريُّ رضي الله عنه بأنّ اللهَ تعالى هَدَى النبيَّ ﷺ إلى التواضُع بهذه الآية[1]، يعني: قُلْ لهم: لستُ جِنًّا ولا مَلاكًا، وإنما أنا بشَرٌ مِثلُكم، إلّا أنّ الفرقَ هو أنّ اللهَ تعالى أرسَلَ إليَّ الوحيَ حتى أُخبِرَكم أنّ إلهَكم واحدٌ، وهو اللهُ تعالى فقطْ، فاعبُدوه، وادعوه أن يغفرَ لكم ذنوبَكم، وهذه أيضًا ليست بالدَّعوةِ التي لا يستوعبُها عقلُ البشَر، لهذا لا تُصِمُّوا آذانكم عنها عامدينَ، واسمَعوا ما أقولُه لكم وتدبَّروه.

عندَما يَستعمِلُ نبيٌّ من الأنبياءِ عليهم السَّلامُ لنفسِه بدافع التواضُع أو التقوى لفظًا ما، يبدو في الظاهرِ أدنَى من مقامِه ومرتبتِه، يكونُ على أُمتِه أن تَحتاطَ أشدَّ الاحتياطِ في استعمالِ هذا اللَّفظ، خَشْيةَ أن يَضِيعَ إيمانُهم باستعمالِه، وعلى سبيل المثال: استَعملَ بعضُ الأنبياءِ لأنفُسِهم لفظَ «ظالم» لفعلِهم ما هو خلافُ الأَوْلى، فإذا أطلَق أحدٌ من الأُمةِ لفظَ «ظالم» على النبيِّ، أو قال عن نبيِّ آخِرِ الزّمانِ ﷺ: إنه بشَرٌ مِثلُنا، فإنّ في ذلك إهانةً للنبيِّ، ولا شكَّ أنّ نبيَّنا الحَبيبَ ﷺ بشَرٌ أيضًا وإنسانٌ مَثَلُه مَثَلُ باقي الأنبياءِ الكرام عليهم جميعًا السَّلام، لكنّه ليس بشَرًا مِثلَنا، وإنّما بشَريّتُه أرفَعُ وأعلى من بشَريّة بني الإنسانِ جميعًا، بحيثُ لا يمكنُ أن يدَّعيَ أحدٌ من الأنبياءِ الآخَرينَ عليهم السَّلامُ، ولا أحدٌ من الصّحابةِ الكرام عليهم رِضوانُ الله جميعًا أنه يتَساوَى معَه في البشَريّة، بَلْهَ أنْ يدَّعيَ ذلك

---

(١) تفسير القرطبي.

أحدٌ من عامّةِ الناس، وهذا هو السببُ في أنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم أرادوا وِصالَ الصّيام (يعني: أن يَصِلوا يومَ الصّوم بما يَليهِ دونَ أن يتناولوا شيئًا بينَهما) لَمّا رأَوا النبيَّ ﷺ يَصِلُ صيامَه، «فشَقَّ عليهم، فنَهاهم. قالوا: إنّك تُواصلُ. قال: «لستُ كهيئتِكم، إنّي أظَلُّ أُطعَمُ وأُسقى»[1]، وفي حديثٍ آخر: «إنّي لستُ مِثلَكم، إنّي أُطعَمُ وأُسقَى». وفي حديثٍ آخَرَ: قال رسولُ الله ﷺ: «وأَيُّكم مِثلي؟ إنّي أَبيتُ يُطعِمُني ربّي ويَسقيني»[2]. ولمزيدٍ من التفصيلِ راجع الحاشيةَ رقم ٨٤ للآية رقم ١١٠ من سُورة الكهف (١٨).

﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾

٦ ـ سيكونُ الهلاكُ للمشركينَ يومَ القيامة؛ لأنّهم لم يُشركوا باللهِ تعالى فقطْ، وإنّما أنكَروا الآخرةَ أيضًا، ولم يكونوا يؤدُّونَ الزّكاةَ، يعني: لم يكونوا يُطهِّرونَ أموالَهم بإخراج الزّكاةِ والصَّدَقاتِ منها، كما أنّهم لم يُطهِّروا أنفُسَهم من الشِّركِ بالإقرارِ بالتوحيد.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾

٧ ـ أجرُ الأعمالِ الصّالحةِ لأهلِ الإيمان لا ينتهي أبدًا، وأحدُ معانيهِ أنّ الأجرَ الذي سيَلقَوْنَه في الآخرةِ لن ينتهيَ أبدًا، والمعنى الآخَرُ: أنّ المؤمنَ إن لم يستطعْ أن يواصلَ في أيام مرضِه أوِ اضطرارِه ما كان يفعَلُه في أيام صحّتِه من الأعمالِ الصّالحة، لن تنتهيَ سلسلةُ أجرِه برَغْم ذلك، وإليك بعضَ الأحاديثِ النَّبويّة في هذا الخصوصِ فتأمَّلْها:

---

(١) البخاري، كتاب الصوم، باب ٢٠ برقم ١٩٢٢.

(٢) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٦.

١ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاصِ رضي اللهُ عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ العبدَ إذا كان على طريقةٍ حسَنةٍ من العبادة، ثمّ مَرِض، قيلَ للمَلَكِ الموكَّلِ به: اكتُبْ له مِثلَ عمَلِه إذا كان طليقًا، حتّى أُطلقَه، أو أَكفِتَه إليّ»[١].

٢ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا ابتَلَى اللهُ العبدَ المسلمَ ببلاءٍ في جسَدِه، قال للمَلَك: اكتُبْ له صالحَ عملِه الّذي كان يعمَلُ، فإنْ شَفَاهُ، غَسَله وطهَّره، وإنْ قَبَضَه، غَفَر له ورَحِمَه»[٢].

٣ ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ غيرَ مرةٍ أو مرَّتينِ يقول: «إذا كان العبدُ يعمَلُ عملًا صالحًا فشَغَله عنه مرضٌ أو سفَرٌ كُتِبَ له كصالحِ ما كان يعمَلُ وهو صحيحٌ مقيمٌ»[٣].

٤ ـ يقولُ سيّدُنا عُقبةُ بنُ عامرٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس من عَمَلِ يومٍ إلّا وهو يُختَمُ عليه، فإذا مَرِض المؤمنُ، قالتِ الملائكةُ: يا ربَّنا، عبدُك فلانٌ قد حبَسْتَهُ (أي: بسببِ المرضِ)، فيقولُ الرّبُّ عزَّ وجلّ: اختِموا له على مِثل عملِه حتّى يبرَأ أو يموتَ»[٤].

٥ ـ يقولُ سيّدُنا عُتبةُ بن مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «عَجَبٌ للمؤمنِ وجَزَعِه من السَّقَم، ولو يَعلَمُ ما له في السَّقَم أحَبَّ أن يكونَ سقيمًا الدَّهرَ»، ثمّ إنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ رَفَع رأسَه إلى السّماءِ فضَحِك، فقيل: يا رسولَ الله، ممَّ رَفعتَ إلى السّماء فضحِكتَ؟ فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «عَجِبت من مَلَكيْنِ كانا يلتمِسانِ

---

(١) مسند أحمد، ١: ٢٠٣.

(٢) مسند أحمد، ٣: ٢٥٨.

(٣) أبو داود، كتاب الجنائز، باب ٢ برقم ٣٠٩١.

(٤) مسند أحمد، ٤: ١٤٦.

عبدًا في مصَلًّى كان فيه ولم يَجِداه فرَجَعا فقالا: يا ربَّنا، عبدُك فلانٌ كنّا نكتبُ له في يومِه وليلتِه عمَلَه الّذي كان يعمَلُ فوجَدْناه قد حَبَسْتَه في حبالِك، قال اللهُ تبارك وتعالى: اكتُبوا لعبدي عمَلَه الّذي كان يعمَلُ في يومِه وليلتِه ولا تنقُصوا منه شيئًا وعلَيَّ أجرُه ما حَبَسْتُه وله أجرُ ما كان يعمل»[1].

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)﴾

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

٨ ـ هنا تنبيهٌ لمشركي مكّةَ: أتُنكِرونَ اللهَ تعالى وتجعَلونَ له أندادًا، وهو الذي خَلَق هذه الأرضَ الواسعةَ في يومَيْنِ فقط؟ ولو لم يَخلُق الأرضَ لَما كنتُم أنتم موجودينَ ولا آلهتُكم، ولهذا عليكُم أن تتعقَّلوا وترجِعوا إلى اللهِ تعالى خالِقِكم الحقيقيِّ، فهو ربُّ العالَمينَ جميعًا.

---

(١) مجمع الزوائد، ٢: ٣٠٤.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

٩ ـ اللهُ تعالى هو الذي نَصَب على الأرضِ رواسيَ ثقيلةً حتى لا تنحرفَ عن مدارِها هنا أو هناك، وجَعَل فيها بركاتٍ لا تُحصَى، يعني: أَوْدعَ في الأرضِ البترولَ والغازَ والماءَ والذهبَ والفضّةَ وغيرَها من الثَّرواتِ المعدِنيّة التي لا تنتهي من أَجْل فائدتِكم أنتم، ثم جَعَل في الأرضِ صَلاحيةً ومقدرةً بحيث يَحصُلُ منها كلُّ مخلوقٍ على غذائه طبقًا لحاجتِه، وقد خَلَق اللهُ تعالى الأرضَ أولًا في يومَيْن، وفي باقي الأيام هيَّأَ لأهلِ الأرض نظامَ الغذاء، وهكذا اكتَملَ خَلْقُ الأرضِ وتهيئةُ الأشياءِ الأخرى المتعلِّقة بها في أربعةِ أيام.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾

١٠ ـ ثم التَفتَ اللهُ تعالى إلى السّماءِ التي كانت بمَثابةِ الدُّخَان، ثم أَمَرَ اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ أنْ كُونا موجودَيْنِ سواءٌ رضيتُما أم لم ترضَيا، فقالت الأرضُ والسماءُ: إنّنا حاضرتانِ برضائنا، ومستعِدّتانِ لتنفيذِ كلِّ أحكامِك. يقولُ المفتي أحمدُ يار خان نَعيمي: إنّ مادةَ السّماءِ هي أَبْخِرةُ الماء، وكانت في شكلِ الدُّخَان، ومادةُ الأرضِ زَبَدُ الماءِ الذي كان في مكانِ الكعبة[1].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

١١ ـ ثم جَعَل اللهُ تعالى سبعَ سماواتٍ في يومَيْن، وجَعَل كلَّ سماءٍ مقيَّدةً بنظام بعَيْنِه، وزيَّن السماءَ الدُّنيا بالنجوم، وجَعَلَها قويّةً مُحكَمةً بغيرِ أعمدةٍ بحيث

(١) تفسير نور العرفان.

لا تسقُطُ، وعيَّن لحراستِها ملائكةً بحيثُ لا يمكنُ لأحدٍ أن يتدخَّلَ فيها، وقد اكتَمل خَلْقُ السماءِ والأرضِ كلَيْهما في ستةِ أيام.

ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَق، ويستطيعُ أن يَخلُقَ الكائناتِ كلَّها في لمحةٍ واحدة بقوله: «كُنْ»، فلماذا استَغرقَ ستةَ أيام في خَلْقِ السّماءِ والأرضِ إذًا؟ معَ أنّ الشمسَ لم تكنْ قد خُلِقت حتى ذلك الوقتِ، بحيث يمكنُ تحديدُ اليوم بطلوعِها وغروبِها. والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ تمامَ العلم حقيقةَ كلِّ هذه الأمورِ وحِكمتَها، ولا يَخْلو أيُّ فعلٍ من أفعالِه من حِكمة، ولكنْ إن لم نَفهَمْ نحن الحِكمةَ من وراءِ عملٍ من الأعمال، فإنّ من الفرضِ علينا أن نؤمنَ به ودونَ تردُّد.

ـ يُعلَمُ من سُورةِ النازِعاتِ أنّ اللهَ تعالى خَلَق الأرضَ بعدَ السماء: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ويُعلَمُ من هذه الآياتِ أنه خَلَق الأرضَ قبلَ السماءِ، والمرادُ منه أنه خَلَق أصلَ الأرضِ ومادّتَها قبلَ السّماء، لكنّه مدَّ الأرضَ وسَوّاها ونَصَب الجبالَ عليها وهيَّأَ فيها الغذاءَ وغيرَ ذلك بعدَ خَلْقِ السَّماء.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾

١٢ ـ يا أيّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لو أنّ كفّارَ مكةَ لم يؤمنوا برَغْم آياتِ خَلْقِ السماءِ والأرضِ الواضحة فنبِّهْهم إلى أنّهم إن لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم وعنادِهم، فسنُنزِلُ عليهم عذابًا مِثلَ عذابِ عادٍ وثمودَ.

وقد أورَدْنا في التعريفِ بهذهِ السُّورةِ روايةً تفصيليّةً فيما يتعلَّقُ بالآياتِ الثلاثَ عشْرةَ الأُولى منها فارجِعْ إليها.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾

١٣ ـ كلُّ الرُّسُلِ الذين جاءوا واحدًا تِلوَ الآخَر إلى قومِ عادٍ وثمودَ أو المناطقِ المحيطة بهم كانوا جميعًا يَدْعونَ إلى التوحيد، وحاولوا بمختلفِ الطُّرقِ أن يُفهِموهم أنِ اعبُدوا اللهَ وحدَه، كما أخبَروهم أنّ كلَّ الرُّسُلِ الذين جاءوا من قبلِنا جاءوا بدعوةِ التوحيد، وكلُّ الرُّسُلِ الذين سيأتونَ بعدَنا ستكونُ هذه هي دعوتَهم أيضًا بأنْ لا تعبُدوا إلّا اللهَ وحدَه، ولم يكنِ الكفّارُ يستطيعونَ الردَّ على ما يقولُه الرسُلُ، وبالتالي كانوا يختلقونَ الأعذارَ بأنّ الرسُلَ يمكنُ أن يكونوا ملائكةً فقطْ، ولو أنّ اللهَ تعالى يريدُ هدايتَنا لَأرسَلَ إلينا الملائكةَ رسُلًا، أمّا أنتم فبشَرٌ مِثلُنا، ولهذا فإنّنا لسنا على استعدادٍ للإيمانِ بكم.

لماذا لم يجعل الله تعالى الملائكة أنبياء؟

لو أنّ اللهَ تعالى أرسَلَ مَلَكًا نبيًّا لَكان لذلك صورتانِ، الأولى: أن يأتيَ هذا المَلَكُ في صورتِه الأَصْليّة، وفي هذه الحالةِ لن يستطيعَ الناسُ الاستفادةَ منه لهَيْبتِه وجلالِه، وإنما سيَفنَوْنَ فورَ رؤيتِهم له، والثانية: أن يأتيَ المَلَكُ في صورةِ رجُلٍ مثلَما كان سيّدُنا جِبريلُ الأمينُ عليه السَّلامُ يأتي إلى سيّدِنا محمدٍ ﷺ، ورآه الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم في شكلِه الإنسانيِّ، وفي هذه الحالةِ كان الكفّارُ سيعترضونَ قائلينَ: إنه بَشرٌ مِثلُنا، فلماذا لم يجعَل الملائكةَ رسُلًا إلينا؟

وردًّا على هذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[الإسراء: ٩٥]، يعني: لو أنّ الملائكةَ

يسكنونَ الأرضَ لَأرسَلَ اللهُ تعالى أنبياءَ من الملائكةِ يقينًا، لكنّ الذين يعيشونَ على الأرضِ هم بنو الإنسان، ولهداية الإنسانِ يلزَمُ أن يكونَ الرسُولُ إنسانًا، لكي يقدِّم بأقوالِه وأفعالِه نموذَجًا وأُسوةً تكونُ وسيلةً لهدايةِ الآخَرين.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

١٤ ـ كان الناسُ من قوم عادٍ يتميَّزونَ بطولِ القامةِ وقوّةِ البَدَن، ولهذا كانوا يَعتبِرونَ أنفُسَهم عُظَماءَ والآخَرينَ حُقَراء، فقال لهم سيّدُنا هودٌ عليه السلام: إنْ لم تَرجِعوا عن نشرِ الفسادِ في الأرضِ وعن طُغيانِكم فسيَنزِلُ عليكم العذابُ، وهنا قالوا له غاضبينَ: إنّنا أقوى من الجميع، ولهذا لا يستطيعُ أحدٌ أن يَضُرَّنا، وإنْ كنتَ صادقًا فيما تدَّعيه فأْتِنا بالعذابِ الذي تُنذِرُنا به الآنَ.

وَضَّح لهم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلامُ أنْ عليكم أن تتعَقَّلوا، فالذي خَلَقَكم وجَعَلَكم أقوياءَ هو نفسُه أقوى منكم. ولكنْ حينَ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم، وظَلُّوا يُنكرونَ آياتِ الله تعالى دائمًا، عندَئذٍ أرسَلَ اللهُ تعالى عليهم عاصفةً شديدةً استمرَّتْ ثمانيةَ أيام دمَّرت كلَّ شيء، وخَلَّفت وراءَها هؤلاءِ الناسَ جُثَثًا متناثرةً على الأرضِ كجذوعِ نَخْلٍ مقطوعة. هذا الخِزيُ لاقَوْه في الحياةِ الدنيا، وسيكونُ عذابُ الآخِرة أكثرَ منه خِزيًا وإذلالًا، ولن يستطيعَ أحدٌ أن يَمُدَّ لهم يدَ العونِ هناك.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾

١٥ ـ اللّيلُ والنّهارُ ليسا منحوسَيْنِ في ذاتِهما، والمرادُ بالأيام النَّحِساتِ في هذه الآيةِ الكريمة: أنّ العذابَ كان قد نَزَل على قوم عادٍ في تلك الأيام، وعليه كانت هذه الأيامُ بالنِّسبة لهم نَحِساتٍ، ولم تكنِ الأيامُ سببًا في العذاب، وإنّما كان

طُغيانُهم وعِصيانُهم هو السببَ، ولو كانت الأيامُ نَحسًا في ذاتِها لَنزَلَ العذابُ أيضًا على الأقوام الأخرى معَ قوم عادٍ، لكنّ ذلك لم يَحدُثْ.

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

١٦ ـ هَدَى سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ قومَ ثمودَ إلى الطريقِ القويم بأمرِ الله تعالى، وأوضَحَ لهم الفَرْقَ بينَ الحقِّ والباطل وضوحَ الشّمس، لكنَّهم تَركوا نورَ الهدايةِ وفَضَّلوا البقاءَ في ظُلُماتِ الضّلال، مما كان سببًا في نزولِ عذابِ الصاعقة عليهم، والذي دمَّرهم وأهلَكَهم، إلّا أنّ الذين آمَنوا بسيّدِنا صالح عليه السَّلامُ نَجّاهم اللهُ تعالى من العذابِ معَ سيّدِنا صالح عليه السَّلام.

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

١٧ ـ سيؤتَى يومَ القيامة بأعداءِ الله تعالى إلى النار، وعندَما يقتربونَ من نارِ جهنَّم يوقَفونَ جميعًا ويُجمَعونَ في مكانٍ واحدٍ حيث يُحاسَبُون، وحينَ يحاولونَ الكذبَ تشهدُ على أفعالِهم القبيحة آذانُهم وأعيُنُهم وجُلودُهم.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

١٨ ـ سيقولُ أعداءُ اللهِ تعالى لآذانِهم وأعيُنِهم وجلودِهم: لقد أشرَكْنا في الدُّنيا من أَجْل أن نُجنِّبَكم مشَقّةَ العبادة، ولِتعيشوا حياةً مُرفَّهة، واليومَ أيضًا كنّا نكذبُ من أَجْل أن نُنجيَكم من نارِ جهنَّم، فما الذي دعاكم إلى قولِ الصِّدق؟ والأمرُ المُدهِشُ أنّكم لم تقولوا شيئًا قطُّ في الدُّنيا، فمِن أين لكم هذه القدرةُ على الكلام؟ وعندَئذٍ تقولُ لهم أعضاؤهم: لقد أَنْعم اللهُ تعالى علينا اليومَ بالقُدرةِ على النُّطقِ أيضًا مثلَما أَنْعم على كلِّ شيءٍ بالقُدرةِ على النُّطق، وهدانا إلى قولِ الصِّدق، والذي خَلَقَكم أولَ مرةٍ وأَنْعم عليكم بالقُدرةِ على النُّطق، هو الذي أحياكُم اليومَ وأعطانا أيضًا المقدِرةَ على النُّطقِ معَكم، فهو القادرُ المطلَق، وهو القادرُ على كلِّ شيءٍ وقتَما يشاء.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١٩ ـ عندَما كنتُم تفعَلونَ السيِّئاتِ كنتُم تستَتِرونَ من الناس حتى لا يُصيبَكم الخِزيُ والعار، وكنتُم تظُنُّونَ ـ خطأً ـ أنّ اللهَ تعالى لا يَعلَمُ كثيرًا ممّا تفعَلون، ولهذا لن يُعاقبَكم، لكنّكم نَسِيتُم أنّ أعضاءَ أجسادِكم، يعني: آذانَكم وأعيُنَكم وجلودَكم تَراكم في كلِّ وقتٍ وحين، وحينَ ستشهَدُ عليكم هذه الأعضاءُ يومَ القيامة بأمرٍ من الله تعالى، وتظهَرُ ما ارتكبتُم من السيِّئات، فكيف سيكونُ حالُكم عندَئذٍ؟ لهذا ينبغي لأهلِ الإيمان أن يتذكَّروا أنّ أعضاءَ أبدانِهم شهودُ عِيانٍ عليهم، وهم معَهم في كلِّ وقت، بل إنّ أجزاءَ الأرضِ وأوقاتَ اللّيل والنهارِ شاهدةٌ عليكم أيضًا، وستشهَد على أعمالِكم في حضرةِ الله تعالى يومَ القيامة.

يقولُ سيّدُنا مَعقِلُ بن يَسَار رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس من يومٍ يأتي على ابنِ آدمَ إلّا يُنادَى فيه: يا ابنَ آدم، أنا خَلْقٌ جديدٌ، وأنا فيما تعمَلُ غدًا عليك شهيدٌ، فاعمَلْ فيَّ خيرًا أشهَدْ لك به غدًا، فإنّي لو قد مَضَيْتُ لم تَرَني أبدًا، ويقولُ اللّيلُ مِثلَ ذلك»[١].

حاسبوا أنفسكم على أعمالكم كل يوم

يقولُ سيّدُنا عُمرُ الفاروقُ رضي اللهُ عنه: «حاسِبوا أنفسَكم قبلَ أن تُحاسَبوا»[٢]، يعني: حاسِبوا أنفُسَكم اليومَ في هذه الدُّنيا قبلَ أن يُحاسبَكم اللهُ تعالى غدًا يومَ القيامة.

كلُّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا يحاسِبُ نفسَه على كلِّ عملٍ من أعمالِه، على سَبيل المثال: يُحاسِبُ الإنسانُ نفسَه فيما يكسَبُ وفيما يُنفِقُ، ويُعَدُّ كشفُ حسابٍ من مكسَبِه وخسارتِه، بل إنه يقومُ بعمليّةِ جردٍ لكلِّ هذا ويحفَظُها في خزنتِه، ثم بعدَ ذلك يُعِدُّ خِطةَ إجراءاتٍ يتَّخذُها لكي يحقِّقَ الأهدافَ المرسومةَ في ضوءِ كلِّ هذا، ومِثلُ هذا الشّخصِ ينجَحُ في أعمالِه في النّهاية.

لكنْ ما أعجَبَ الإنسانَ الذي لا يُحاسِبُ نفسَه على حياتِه! معَ أنه لو لم تكنِ الحياةُ لَما كان الدّخلُ والإنفاقُ، ولَما كان الحسابُ بالتالي، ولهذا فإنّ الإنسانَ الذي لا يحاسِبُ نفسَه على حياتِه، ولا يُعِدُّ كشْفَ حسابٍ لحسَناتِه وسيّئاتِه، ولا يُعِدُّ قائمةً بالإجراءاتِ التي يجبُ أن يتَّخذَها من أَجْل تحقيقِ مقاصدِ الحياة، مِثلُ هذا الشخصِ لا ينجَحُ في أعمالِ الحياة.

في بريطانيا، الذي لا يُقدِّمُ كشْفَ حسابٍ لدَخلِه ومصروفاتِه، ولا يعمَلُ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة فصلت (٤١): الآية ٢٢.

(٢) حلية الأولياء، ١: ٨٨.

على جَرْد حساباتِه، سيواجهُ إفلاسًا شديدًا حين يُمسِكُ به رجالُ الضّرائب، حتى أنه قد يفقدُ في ذلك مسكَنَه الشخصيَّ. الشخصُ الذي أعطَتْه الحكومةُ البريطانيّةُ الجِنسيّةَ البريطانيَّة تحاسبُه على دَخْلِه ومصروفاتِه أيضًا.

وكذلك اللهُ تعالى سيُحاسِبُ الإنسانَ الذي أَنْعَم عليه بالحياة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، ورَغْم أنّ اللهَ تعالى هو أكبرُ وأعظَمُ محاسبٍ، لكنّه معَ ذلك وَضَع على كتِفِ كلِّ إنسانٍ اثنَيْنِ من المحاسِبين، يُدوِّنانِ كلَّ حركةٍ من حركاتِه، مثلَما قال سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «إنّ معَ كلِّ إنسانٍ مَلَكَيْنِ، أحدُهما: عن يمينِه يكتُبُ حسَناتِه، والآخَرُ عن يسارِه يكتُبُ سيّئاتِه»[1].

ولبيانِ تصوُّرِ الحسَناتِ والسيِّئاتِ أضربُ لك هنا مثالًا، فالشخصُ الذي يَبلُغُ من العمُرِ ثلاثينَ عامًا، عندما نُخرِجُ من هذا العمُرِ ثلاثةَ عشَرَ عامًا هي مرحلةُ الطفولة، سيبقَى من عمُرِه سبعةَ عشَرَ عامًا، وهي التي سيُسأَلُ عنها، فإذا ضرَبْنا سبعةَ عشَرَ (١٧) في ثلاثِمائةٍ وخمسةٍ وستينَ (٣٦٥) يومًا يكونُ الناتجُ ستةَ آلافٍ ومائتَيْنِ وخمسةِ أيام (٦٢٠٥)، والآنَ إذا كذَبَ شخصٌ كذبةً واحدةً كلَّ يوم، كتب في صحيفةِ أعمالِه ٦٢٠٥ ذنوب، وإذا تَرَكَ شخصٌ في كلِّ يوم صلاةً واحدةً كان في صحيفةِ أعماله ٦٢٠٥ ذنوب، ولو لسوءِ الحظِّ تَرَكَ شخصٌ الصَّلَواتِ الخمسَ كلَّ يوم ولم يُصَلِّها، كان في صحيفةِ أعمالِه ٣١٠٢٥ ذنبًا، وعلى العكسِ من ذلك، فإنّ الذي صَلّى الصَّلواتِ الخمسَ كلَّ يوم يكونُ في صحيفةِ أعماله ٣١٠٢٥ حسنةً، والشخصُ الذي بَلَغ الستينَ من العمُر يبقَى في عمُرِه ٤٧ عامًا بعدَ إنزال ثلاثةَ عشَرَ عامًا منه هي مرحلةُ الطفولة، وإذا ضرَبْنا ٤٧ عامًا في ٣٦٥

---

(١) التفسير الكبير، سورة الأنعام (٦): الآية ٦١.

يـومًا لاستطَعْنا أن نتصوَّرَ سيِّئـاتِنا وحسَناتِنا.

يتصوَّرُ بعضُ الحَمْقَى أنّ السَّرِقةَ والكذبَ وغيرَها ذنوبٌ، بينَما ترْكُ الصلاةِ وعَدَمُ أداءِ الزكاة وغيرِها ليست ذنوبًا، ولهؤلاء أُقدِّمُ هذه الواقعةَ:

حَدَثت هذه الواقعةُ أيامَ مرحلةِ تعليمي، حيث سَأَلني رجلٌ ثَرثارٌ: سيَدخُلُ الصالحونَ الجنّة، وسيَدخُلُ الأشرارُ النار، فأين يذهبُ ذلك الذي لم يفعَلْ حسَنةً ولم يرتكبْ سيِّئة؟ قلت له: مِثلُ هذا الشخصِ لا يمكنُ أن يكونَ موجودًا. قال: ها أنا أمامَك، فأنا لم أفعَلْ حَسنةً أبدًا، ولم أرتكِبْ ذنبًا قطُّ. قلتُ له: من الممكن أن تتساوَى حسَناتُ أحدٍ معَ سيّئاتِه، ولكنْ ليس من الممكنِ أن يكونَ هناك مُكَلَّفٌ مَن لم يعمَلْ حسَنةً ولم يرتكبْ سيِّئةً، ومعَ ذلك لو كنتَ مُصِرًّا على ما تدَّعي فأخبِرْني إذًا: هل تُصلِّي أم لا؟ إن كنتَ تُصلِّي فأنت تعمَلُ الحسَنةَ، وإن كنتَ لا تُصلِّي فانت ترتكبُ السيِّئةَ والذَّنب، فأخبِرْني إذًا ماذا تفعل؟ سَمِع الرجلُ ما أقولُ ولم يَنبِسْ ببنتِ شَفَةٍ!

اليومُ الذي يمضي لا يعودُ أبدًا في هذه الحياة، لكنّه سيعودُ تأكيدًا يومَ القيامة، وسيشَهُد على كلِّ مَن عمِلَ حسَنةً أو ارتكبَ سيّئةً في ذلك اليوم، ولهذا مثلَما يحاسِبُ التاجرُ نفسَه عندَ النوم على ما فَعَل طيلةَ اليوم، ويقومُ بتحليل مبيعاتِه ومشتَرَياتِه، فإنّني ألتمسُ من كلِّ مسلم أن يُلقيَ نظرةً كلَّ يوم عندَ نومِه على يومِه كلِّه، ويُحاسِبَ نفسَه كم من الحسَناتِ فَعَل اليومَ، وكم من السيِّئاتِ ارتكَبَ؟

فإن كنتَ لم ترتكبْ سيّئةً طُولَ اليوم فتقبَّلْ تهنئةً منِّي بأنّ ذلك اليومَ يومُ عيدٍ لك... وإن كنتَ قدِ ارتكبتَ ذنوبًا في ذلك اليوم فإنّ أفضَلَ شيءٍ هو أن تتوبَ على

الفَوْرِ من كلِّ هذه الذنوب، وإن لم تستطعْ أن تتوبَ فَوْرًا عن كلِّ ذنوبِك وتُقلعَ عنها جميعًا، فاعزِمْ على أن تُقلعَ كلَّ يوم عن ذنبٍ منها، واللهُ تعالى سيُنعمُ عليك بالاستقامة... ولو ـ لا قَدَّر اللهُ ـ لم تفعَلْ في هذا اليوم ولو حسَنةً واحدةً فإنّي ألتمسُ منك على وَجْهِ السّرعةِ أنِ انهَضْ من فراشِك على الفَوْر وتوضَّأْ وصلِّ صلاةَ العشاءِ قبلَ أن تنام، فمنَ الممكنِ أن تكونَ هذه الليلةُ هي آخِرَ ليلةٍ في حياتِك، وهكذا يكونُ آخِرَ أعمالِك هو صلاةُ العشاء، ومن الممكنِ جدًّا أن يغفرَ اللهُ لك ببركة هذا كلَّ ما لم تُصَلِّه في حياتِك:

ـ أيُّها النائمُ اسجُدْ لربِّك ثم نَمْ، فمَن يدري أتصبحُ أم لا تصبح.

ـ ومن يَدري هل يأتي الصباحُ أم لا، وتكونُ أنت تحتَ التراب.

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

٢٠ ـ يظُنُّ المنكرونَ عن اللهِ تعالى أنه لا يَعلَمُ أكثرَ أعمالِهم، وقد أهلَكَهم ظنُّهم الباطلُ وعقيدتُهم الفاسدةُ هذه، ولهذا السببِ خَسِروا كثيرًا، وأُلقيَ بهم في جهنَّم.

الإنسانُ الذي يعتقدُ أنّ اللهَ تعالى يَرى كلَّ أعمالِه، مِثلُ هذا الإنسانِ يخافُ منَ ارتكابِ السيّئةِ؛ لأنه يَعلَمُ أنّ السيِّئةَ التي سيَرتكبُها يَعلَمُها اللهُ تعالى، وسيُحاسبُه عليها، لكنّ الإنسانَ الذي يعتقدُ أنّ اللهَ تعالى لا يَعلَمُ شيئًا عن سيّئاتِه، وأنّ أحدًا لن يحاسبَه عليها يتجرَّأُ على ارتكابِ السيِّئاتِ حتى يَطْغَى، وهذا الطُّغيانُ هو الذي يصلُ به إلى جهنَّم. على أيِّ حال، حُسنُ الظنِّ بالله تعالى من الإنسانِ يؤدِّي به إلى الحسَنةِ والنَّجاة، وسوءُ الظنِّ بالله تعالى من الإنسانِ يدفَعُ به إلى الضّلالِ والهلاك.

أحسنوا الظن بالله

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ حُسنَ الظّنّ بالله تعالى من عبادةِ الله»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبدِ الله رضي الله عنهما: «سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ قبلَ موتِه بثلاثةِ أيّامٍ يقول: «لا يموتَنَّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظّنَّ بالله عزَّ وجلّ»(٢).

ـ كان سيّدُنا يزيدُ بنُ أسودَ مريضًا، فذَهَب سيّدُنا واثلةُ بنُ أَسْقَع لعيادتِه وسألَهُ: كيف ظنُّك بالله؟ قال: ظنّي بالله ـ والله ـ حَسَنٌ، قال: فأبشِرْ، فإنّي سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال اللهُ جلَّ وعلا: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، إن ظنَّ خيرًا وإنْ ظنَّ شرًّا»(٣).

ـ وفي روايةٍ أخرى: فقال واثلةُ: كيف ظنُّك بالله؟ قال: اعترضَتْني ذنوبٌ لي أشفَيْتُ على هَلَكةٍ، ولكنْ أرجو رحمةَ الله، فكبَّر واثلةُ وكبَّرَ أهلُ البيتِ بتكبيرِهِ وقال: اللهُ أكبر، سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلّ: أنا عندَ ظنِّ عبدي بي، فلْيَظُنَّ بي ما شاء»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا سعيدُ بن المسيِّب: إنّ عُمرَ بنَ الخطّاب رضي الله عنه اشتَكَى، فدَخَل عليه النّبيُّ ﷺ يعوُدُه فقال: «كيف تَجِدُكَ يا عُمر؟»، فقال: أرجو وأخافُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتَمعَ الرّجاءُ والخوفُ في قلبِ مؤمنٍ إلّا أعطاهُ اللهُ الرّجاءَ وأمَّنه الخَوْفَ»(٥).

---

(١) المستدرك للحاكم، ٤: ٢٦٩ برقم ٧٦٠٤.

(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٩ برقم ٧٢٣١.

(٣) صحيح ابن حبان، ٢: ١٣ برقم ٦٤٠.

(٤) شعب الإيمان، الإمام البيهقي، ٢: ٦ برقم ١٠٠٦.

(٥) المرجع السابق، الإمام البيهقي، ٢: ٥ برقم ١٠٠٣.

﴿ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾

٢١ ـ عندَما يصبِرُ الإنسانُ على مصيبةٍ حلَّتْ به في الدُّنيا يرفَعُ اللهُ مصيبتَه، ويُنعمُ عليه بالأَجْرِ العظيم في الآخِرة، وعندَما يتُوبُ الإنسانُ من ذنوبِه يغفرُ اللهُ تعالى ذنوبَه، ولكنْ عندَما سيُلقى بالمُنكِرِ في جهنَّمَ يومَ القيامة، فسواءٌ صَبَر في جهنَّم أمِ استغاثَ وأثارَ ضجّةً، سيَخلُدُ في جهنَّمَ إلى الأبد، ولئنِ استغفَرَ وطلَبَ العفوَ وهو في جهنَّم فلن يعفوَ اللهُ عنه؛ لأنّ الصَّبرَ وطلَبَ العفوِ يتعلَّقانِ بدارِ العمل، حيث ظَلَّ هو غافلًا فيها عن ذكرِ الله تعالى ومستغرِقًا في عصيانِه، أمّا الآخِرةُ فهي دارُ الجزاء، حيث يعاقَبُ كلُّ منِ ارتكَبَ أفعالًا قبيحةً على أفعالِه.

﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

٢٢ ـ المرادُ بالقُرَناءِ في هذه الآيةِ الكريمة هم: رُفقاءُ السُّوءِ أشباهُ الشياطين، والذين كانوا يُزيِّنونَ لهم كلَّ أعمالِهم السيِّئةِ في ماضيهم ومستقبَلِهم ومَن حولَهم، حتى يَغُوصوا في أوحالِ الذنوب، وهكذا ـ بسببِ عصيانِهم المستمرِّ ـ نَزَل عليهم العذابُ مثلَما نَزَل على الأُمم السابقة، وأصبحوا بذلك من الخاسرينَ أيضًا.

قال اللهُ تعالى في سُورةِ الزُّخرُف: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف: ٣٦]، يعني: أنّ الشخصَ الذي يُعرِضُ عن ذِكرِ الله تعالى وتوحيدِه عامدًا يصحَبُه بسببِ طُغيانِه رُفقاءُ سُوءٍ مثلَ الشياطين، يبذُلونَ قُصارى جُهدِهم لإضلالِه، لكنّ الشّخصَ الذي يؤمنُ بتوحيدِ الله تعالى ويَذكُرُه، يصحَبُه بفَضْلِ حُسن نيّتِه رُفقاءُ طيِّبونَ يشغَلونَه دائمًا بالحسَنات.

ويُعلَمُ منه: أنّ صَديقَ السُّوءِ من عذابِ الله تعالى، وأنّ صَديقَ الخيرِ من رحمةِ الله تعالى، وكما أنّ الشياطينَ يزيِّنونَ السيّئاتِ للإنسان، كذلك فإنّ الأنبياءَ والصّالحينَ يزيِّنونَ الحسَناتِ أمامَ الإنسان، ولهذا فإنّ منَ الفائدةِ للإنسانِ ومنَ الفَرْضِ عليه أن يَعرِفَ صَديقَ الخيرِ من صديقِ السُّوء، وأن يبقَى بعيدًا عن مجتَمعاتِ السُّوء.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾

٢٣ - لم يكنْ لدى مُشركي مكّةَ أيُّ ردٍّ على فصاحةِ ألفاظِ القرآنِ الكريم وبلاغتِه، ولا على صِدقِ القرآنِ الكريم ونَجابتِه، وكان أصحابُ العقلِ السَّليم يرغَبُونَ تدريجيًّا إلى القرآنِ الكريم ويَميلونَ إليه، وكان هذا الشيءُ مزعِجًا لمشركي مكّةَ، ولهذا قال بعضُهم لبعضٍ: حين يقرَأُ المسلمونَ القرآنَ عليكم بإثارةِ الضَّجيج والصَّخَب، بحيث تَغلِبُ أصواتُكم على تلاوةِ القرآن، فلا يستطيعُ الناسُ سَماعَ رسالةِ القرآنِ الخالبةَ للألباب.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «قال أبو جَهْل: إذا قَرأَ محمدٌ فصِيحوا في وجهِه حتى لا يَدري ما يقولُ ﷺ»(١).

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

٢٤ ـ يا أَيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، هؤلاءِ الناسُ يُحدِثون خَلَلًا في تلاوةِ القرآنِ الكريم وتبليغِه، وهذا عمَلٌ منهم في غايةِ السُّوء، وهل هناك أسوأُ من أن لا يسمَعوا ما فيه النّصيحةُ، ولا يترُكونَ الفرصةَ لأحدٍ غيرِهم أن يسمَعَه؟ الحقيقةُ أنهم أعداءُ الله تعالى ومُنكِرونَ لآياتِه، ولذلك سنُذيقُهم عذابًا شديدًا، ولأنّهم لم يَرجِعوا عن إنكارِهم للقرآنِ الكريم، لهذا واجَهوا عذابًا شديدًا أهلَكَهم فعلًا في ميدانِ بَدْر، ومن بقيَ منهم اضْطُرَّ إلى الرَّحيل عن مكةَ يومَ فَتْحِها، وسوف يَذُوقونَ العذابَ الحقيقيَّ كاملًا عندَما يُلقَى بهم في نارِ جهنَّمَ للأبد.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

٢٥ ـ حين يُلقَى بالكفّارِ والمشركينَ في جهنَّمَ يقولونَ لله تعالى: أمّا نحن فقد وصَلْنا إلى جهنَّمَ بسببِ حُمقِنا وجَهْلِنا وتقليدِنا الأعمى يقينًا، لكنْ أرِنا أولئك الشياطينَ والزُّعماءَ الكفّارَ الذِين جَعَلونا مستحِقِّينَ للعذابِ بترغيبِهم لنا، حتى نُخْجِلَهم ونُفرِغَ عليهم ما في صدورِنا من غضَبٍ، فنَضَعَهم تحتَ أقدامِنا، نَطَأَهم بها ونُذِلَّهم إذلالًا. ورَغْمَ أنّ الذين أضَلُّوهم من الجنِّ والإنسِ سيكونونَ في ذلك الوقتِ يحترقونَ في جانبٍ آخَرَ من جهنَّم، ولكنْ لأنّهم لا يرَوْنَهم في ذلك الوقتِ لذلك يَطلُبونَ رؤيتَهم. ويُعلَمُ من الآياتِ الأُخرى أنه سيكونُ في جهنَّمَ وقتٌ يلتقي فيه الزُّعماءُ الكفّارُ ومتَّبِعوهم، وفي ذلك الوقتِ يتخاصَمونَ معَ بعضِهم، ويُعلِنُ كلٌّ منهم براءَته من الآخَر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

٢٦ ـ في الآياتِ السّابقةِ جاء ذِكرُ المصيرِ السّيِّئِ للكفّار، وفي هذه الآياتِ يَذكُرُ اللهُ تعالى حُسنَ عاقبةِ أهلِ الإيمان الذين يُقِرُّونَ بألسنتِهم أنّ ربَّهم هو اللهُ تعالى، ويَثبُتُونَ على هذه العقيدةِ طُولَ عمُرِهم.

المرادُ بالاستقامةِ هنا: أنْ يتجنَّبَ المسلمُ في عقائدِه وأعمالِه الإفراطَ والتفريطَ، ويبقَى دائمًا ثابتًا عليها برَغْم المشاكلِ والمصائب، ودرجةُ الاستقامةِ عندَ أهل التصوُّف أرفَعُ من الكرامة.

يقولُ سيّدُنا سُفيانُ بن عبدِ الله الثَّقَفيُّ: قلتُ: يا رسولَ الله، قلْ لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بعدَكَ ـ وفي حديثِ أبي أُسامة: غيرَكَ ـ قال: «قُل: آمَنتُ بالله فاستَقِمْ»[1].

يقولُ الدكتور وَهْبة الزُّحَيْلي: «أي: تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ بما يَشرَحُ صدورَهم ويدفَعُ عنهم المخاوفَ والأحزانَ كالبِشارة بالنَّجاة في مواطنَ ثلاثة: عندَ الموت، وفي القبر، وعندَ البَعْثِ، وإزالةِ الخوفِ من أمورِ الآخِرة، وإذهابِ الحُزنِ عمّا فاتَهم من أمورِ الدُّنيا من أهلٍ ومالٍ ووَلَد»[2]، وسيُطمئنُهم بأنّ الجنةَ التي وُعِدتُموها أبوابُها مفتوحةٌ لكم، وهي تنتظرُكم.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

٢٧ ـ عن ثابتٍ البُنَاني، أنّه قَرأَ حمٓ السَّجدةَ حتى بَلَغ إلى قولِه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ فقال: بَلَغنا أنّ العبدَ المؤمنَ حين يُبعَثُ من قبرِه يتلقَّاه

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١٣ برقم ١٥٩.

(٢) التفسير المنير.

المَلَكانِ اللَّذانِ كانا معَه في الدنيا فيقولان: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، وأبشِر بالجنة التي كنتَ تُوعَدُ. قال: فيؤمِّنُ اللهُ خوفَه ويُقِرُّ عينَه[١].

ونحن كنّا أصدقاءكم في الدُّنيا، وكنّا نضَعُ في قلوبِكم كلامًا طيِّبًا، ونحفَظُكم من الشّياطين، وها نحن في الآخِرة أيضًا أصدقاؤكم، ونُبشِّرُكم أنّ الجنّةَ التي أعَدهَّا اللهُ تعالى لكم ستَنالونَ فيها كلَّ ما تَطلبُون، حتى أنّكم لن تُضْطَرُّوا إلى طلبِ شيءٍ، وإنّما سيُقدَّمُ إليكم فَوْرَ أن يَخطُرَ ببالِكم.

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

٢٨ ـ إنه لَشرَفٌ عظيمٌ أن يكونَ أهلُ الإيمانِ ضيوفًا على اللهِ في الجنّة، فضيافةُ الدُّنيا تكونُ لأيام معدودة، ولكنْ ما أعظَمَ شأنَ ضيافةِ الله تعالى الدائمةِ إلى الأبد! كما أنه عندما يَحُلُّ أحدٌ ضيفًا على أحدٍ في الدُّنيا، فإنّ أهلَ بيتِ المُضيفِ يبذُلونَ له أكثرَ ممّا اعتادوا عليه لأنفُسِهم منَ استعداداتٍ في الضيافة، والآنَ لك أن تتصوَّر كيف ستكونُ حالُ الاستعداداتِ الخاصّةِ التي يُجهِّزُها اللهُ تعالى لأهلِ الإيمانِ في الجنّة؟ وإليكَ بعضَ الأحاديثِ في هذا الخصُوص:

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ عزَّ وجلّ: أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بشر»[٢].

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المؤمنُ إذا اشتَهَى الوَلَدَ في الجنّةِ كان حَمْلُه ووَضْعُه وسِنُّه في ساعةٍ كما يشتهي»[٣].

---

(١) التفسير المظهري.
(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١ برقم ٧١٣٢.
(٣) الترمذي، أبواب الجنة، باب ٢٣ برقم ٢٥٦٣.

- يروي الإمامُ البيهقيُّ عن سيّدِنا ابن مسعودٍ رضي الله عنه، أنّ رسولُ الله ﷺ قال: «إنّك لَتنظُرُ إلى الطّيرِ في الجنّة فتشتهيه فيَخِرُّ بينَ يدَيْك مَشْوِيًّا»(١).

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

٢٩ - في الآياتِ السّابقةِ ذُكِر الأجرُ العظيمُ لذلك الرجُل المؤمنِ الذي يظَلُّ دائمًا عاملًا بأحكام الله تعالى بعدَ أن يؤمنَ بالله تعالى، والحقيقةُ أنّ هذه سعادةٌ

(١) البعث والنشور، البيهقي: ٢٠٥ برقم ٣١٨.

عُظمى، ولكنّ فَضْلَ الرجلِ المؤمنِ الذي جاء ذِكرُه في هذه الآية هو الأعظَمُ والأرفع؛ لأنه لا يكونُ مسلمًا يعمَلُ الصّالحاتِ بنفسِه فقطْ، وإنّما يدعو الآخَرينَ أيضًا إلى اللهِ تعالى، وهذه مهمةٌ عظيمةٌ أرسَلَ اللهُ تعالى من أَجْلِها الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام، مثلَما قال اللهُ تعالى عن نبيِّنا الحبيب ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[الأحزاب: ٤٥-٤٦].

أمّا الدَّرجةُ التاليةُ بعدَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام في تبليغ الإسلام فهي: للعلماءِ الذين هم وَرَثةُ مهمّةِ الأنبياء.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَن سَلَك طريقًا يبتغي فيه علمًا سَلَكَ اللهُ به طريقًا إلى الجنّة، وإنّ الملائكةَ لَتضَعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلم، وإنّ العالِمَ لَيستغفِرُ له مَن في السّمواتِ ومَن في الأرض حتّى الحِيتانُ في الماءِ، وفَضْلُ العالِم على العابدِ كفَضْل القمرِ على سائرِ الكواكب، إنّ العلماءَ وَرَثةُ الأنبياء، إنّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنّما وَرَّثوا العلم، فمَن أخَذَ به أخذ بحظٍّ وافرٍ»[١].

ـ يقولُ النبيُّ ﷺ: «علماءُ أُمّتي كأنبياءِ بني إسرائيل»، أي: «في صِدقِ طلبِ الحقِّ بالإعراضِ عن الكونَيْنِ والتوجُّهِ إلى الله تعالى»[٢]، وألفاظُ هذا الحديثِ الشّريفِ ليست ثابتةً عن النبيِّ الكريم ﷺ، ولكنّ أهلَ العلم يعترفونَ بها باعتبارِ معناها؛ لأنّ العلماءَ فعلًا هم وَرَثةُ الأنبياء.

---

(١) الترمذي، أبواب العلم، باب ١٩ برقم ٢٦٨٢.

(٢) تفسير روح البيان، سورة الأنبياء (٢١): الآية ٢٤.

﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾

٣٠ - الحَسنةُ والسَّيِّـئَةُ لا يَستويانِ، وربّما لا يشعُرُ الإنسانُ بذلك بشكلٍ مؤقَّت، ولكنْ لا يمكنُ أن تستويَ الحسنَةُ والسَّيِّئَةُ باعتبارِ النتائج والآثارِ المترتِّبة عليهما؛ لأنّ الحسَنةَ تجعَلُ الإنسانَ - في النِّهاية - محبوبًا لدى اللهِ تعالى ولدى خَلْقِه أيضًا، ويَشعُرُ فاعلُها برضًى وطُمَأْنينةٍ في قلبِه، في حينَ أنّ السَّيِّئَةَ تجعَلُ الإنسانَ مذمومًا عندَ الله تعالى وعندَ خَلْقِه أيضًا، ويَشعُرُ فاعلُها بنَدَم واضطرابٍ في قلبِه.

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾

٣١ - في هذه الآية عَلَّم اللهُ تعالى الدُّعاةَ إلى الحقِّ - عن طريقِ النبيِّ الكريم ﷺ - أن لا يقابِلوا السيّئةَ بالحسَنةِ فقطْ، وإنّما بحسَنةٍ على أعلى مستوًى، يعني: لو أنّ شخصًا أساءَ إليك وعَفوْتَ عنه فإنّ هذه مجرَّدُ حسَنة، لكنّ الحسَنةَ من المستوى الرَّفيع هي أن تَنْسَى إساءةَ مَن أساء إليك، وتقفَ بجانبه في وقتِ شدائدِه، ستكونُ نتيجةُ ذلك أنّ عدوَّك إذا لم يكنْ في قلبِه مَرضُ التعصُّب سيكونُ ممتَنًّا لك، ويصيرُ صديقًا مقرَّبًا إليك.

لكنّ العفوَ عن العدوِّ والإحسانَ إليه ليس بالأمرِ السهل، وإنّما عمَلٌ يحتاجُ إلى شجاعةٍ وتضحيةٍ كبيرة، وينجَحُ في هذا الأمرِ أولئك السُّعداءِ الذين لديهِم الهِمّةُ والعَزْمُ على الصَّبر على الشدائد، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾[الشورى: ٤٣].

- يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قال ابنُ عبّاسٍ: هو الرّجلُ يَسُبُّ الرّجلَ، فيقولُ الآخَرُ: إن كنتَ صادقًا فغفَر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفَر اللهُ لك. وكذلك يُروَى في الأثر: أنّ

أبا بكرٍ الصّدِّيقَ رضي الله عنه قال ذلك لرجلٍ نال منه»[١]، ولمزيدٍ من التفصيل عن تفسير هذه الآيةِ راجع الحاشيةَ رقم **٥٤** للآية رقم **٩٦** من سورة المؤمنون **(٢٣)**.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

٣٢ ـ يا بنيَ الإنسان، إذا وَسْوسَ الشّيطانُ إلى قلوبِكم بشيءٍ فاستعيذوا بالله تعالى؛ لأنّ الشّيطانَ عدوٌّ مُبينٌ لكم، وهو معَكم في كلِّ وقت، ولا ترَوْنَه أنتم، لكنّه يراكم في كلِّ وقتٍ وفي كلِّ مكان، ويَعلَمُ ما في قلوبِكم أيضًا، حتى أنه كان يَعلَمُ بما رآه نبيٌّ جليلُ القَدْرِ مثلَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في منامِه، وهي الرؤيا التي رأى فيها إشارةً إلى أنه يَذبَحُ سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلام، كما أنّ الشيطانَ لا يأتيكم في صُورةِ العدوِّ، وإنّما في صُورة الصَّديقِ المحِبِّ ويَخدَعُكم بذلك، ولهذا استعيذوا بالله للنَّجاة من فِتَنِه ووَساوسِه، فاللهُ دائمًا معَكم، وهو يسمَعُ دعاءنا أيضًا، كما أنه يَعرِفُ الشّيطانَ تمامَ المعرفة، ولهذا قال سيّدُنا ذو النُّون المصريُّ رحمةُ الله عليه: «إن كان هو يراكَ من حيثُ لا تراه فاستَعِنْ بمن يَراهُ من حيث لا يراه، وهو اللهُ القهّارُ السّتار»[٢]، أعوذُ بالله من الشيطانِ الرَّجيم، آمين.

ـ يقولُ سيّدُنا سُليمانُ رضي الله عنه: استَبَّ رجُلانِ عندَ النّبيّ ﷺ ونحن عندَه جلوسٌ، وأحدُهما يسُبُّ صاحبَه مُغضَبًا قدِ احمَرَّ وجهُه، فقال النّبيُّ ﷺ: «إنّي لأعلَمُ كلمةً لو قالها لَذهبَ عنه ما يَجِدُ، لو قال: أعوذُ بالله من الشّيطانِ الرّجيم»[٣].

ـ أعطَى اللهُ تعالى الشيطانَ من القوةِ ما يمكِّنُه من معرفةِ الأفكارِ التي تثورُ في أعماقِ قلبِ الإنسانِ أيضًا، فإذا كان عِلمُ الشّيطانِ واسعًا إلى هذا الحدِّ، وهو

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) التفسير المظهري، سورة الأعراف (٧): الآية ٢٧.

(٣) البخاري، كتاب الأدب، باب ٧٦ برقم ٦١١٥.

الذي يُضِلُّ الناسَ، فما بالُك بعِلم الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وهم أفضَلُ من الجنِّ والإنسِ والملائكةِ جميعًا، وهم الذين يُخرِجونَ الناسَ من ضلالِ الشيطان إلى نورِ الهداية؟

قرين النبي ﷺ من الجن مسلم

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما منكم من أحدٍ إلّا وقد وُكِّل به قَرينُه من الجنّ». قالوا: وإيّاك يا رسولَ الله؟ قال: «وإيّايَ إلّا أنّ اللهَ أعانَني عليه فأَسْلم فلا يأمُرُني إلّا بخيرٍ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «فُضِّلتُ على آدمَ بخَصْلتَيْنِ:

١ ـ كان شيطاني كافرًا فأعانَني اللهُ عليه حتّى أَسْلم، وكنَّ أزواجي عَوْنًا لي.

٢ ـ وكان شيطانُ آدمَ كافرًا، وكانت زوجتُه عَوْنًا على خطيئتِه»(٢).

ـ يقولُ القاضي عِياضٌ، والعلّامةُ النَّوويُّ: «واعلَمْ أنّ الأُمةَ مجتمِعةٌ على عصمة النبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم من الشيطانِ في جسمِه وخاطرِه ولسانِه»(٣).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

٣٣ ـ إنّ تعاقُبَ اللّيلِ والنهارِ، وانضباطَ الشمسِ والقمرِ في مدارِهما، وعَدَمَ

---

(١) مسلم، كتاب المنافقين، باب ١٦ برقم ٢٨١٤.

(٢) جمع الجوامع، ٥: ٢٣٨ برقم ١٤٧٩٦، وكنز العمال، ١١: ٤١٣ برقم ٣١٩٣٦.

(٣) شرح صحيح مسلم، الإمام النووي، ٩: ٩٣ برقم ٢٨١٤.

انحرافِهما عنه ولو قَدْرَ شعرةٍ، آياتٌ كلُّها على قُدرةِ الله تعالى وتوحيدِه، فلقد أَلْزَم اللهُ تعالى الشمسَ من أَجْلِ فائدتِكم بمدارٍ لو نَزَلت عنه قليلًا لَاحترقَ بحرارتِها كلُّ مَن على الأرضِ ومات، ولوِ ارتفَعَت عن مدارِها قليلًا لَتجمَّدتِ الدُّنيا كلُّها من البرودة، والشمسُ والقمرُ مخلوقانِ أيضًا مِثْلكم، وملتزمانِ بحُكم الله تعالى أيضًا، ولهذا فهما لا يستحِقّانِ أن تَسجُدوا لهما، وإنّما المستحِقُّ للسُّجودِ هو اللهُ تعالى وحدَه، وهو الذي خَلَق كلَّ هذه المخلوقات.

يقولُ عُبَّادُ الشمسِ والقمر: إنّ الهدفَ من عبادتِنا لهذه الأشياءِ هو عبادةُ الله تعالى فقطْ، ويُنبِّهُهم اللهُ تعالى في هذه الآيةِ بأنّكم إذا كنتُم تعبُدونَ اللهَ فعلًا فاعبدوه وحدَه، فالشمسُ والقمرُ لا يستحِقّانِ العبادةَ.

﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾

٣٤ ـ يا أَيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لو أعرَضَ هؤلاءِ عن عبادةِ الله تعالى برَغْم الآياتِ الواضحةِ على توحيدِه وقُدرتِـه فلا تهتمَّ بهم، فإنّ شأنَ عَظمةِ الله تعالى وعُلُوِّه أنّ أعدادًا لا تُحصى من الملائكة المقرَّبين رَطِبو اللِّسانِ دائمًا بتسبيحِه، فلا يتعَبونَ أبدًا ولا يمَلُّون، وإن لم يعبُدْ هؤلاءِ الطُّغاةُ اللهَ تعالى فإنّ ذلك لا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، وإنّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم بهذا، وهذه آيةُ سجدةٍ، يعني: أنّ السُّجودَ واجبٌ بعدَ تلاوةِ هذه الآية.

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾

٣٥ ـ يعني: انظُرْ إلى الأرضِ التي تكونُ في أيام الجفافِ كالموتَى صامتةً عاجزةً، وقُدُراتُها مدفونةٌ بداخلِها لا يراها أحدٌ، ولكنْ حين تُمطِرُها السّماءُ، تدِبُّ

فيها الحياةُ فجأةً بحيثُ تَسُودُ الخُضرةُ مِن حولِها، وتُثمرُ ثمارُها ومحاصيلُها، ولئن تدبَّرتَ هذا المثالَ لَوجدتَ أنّ هذا أيضًا آيةٌ على قدرةِ الله تعالى وتوحيدِه، وهو الذي مَنَح هذه الأرضَ الجافّةَ الميِّتةَ الحياةَ واليُنوعةَ والتَّجدُّدَ، وهو الذي سيُحيي الموتَى أيضًا يومَ القيامة؛ لأنه هو القادرُ على كلِّ شيء.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

٣٦ ـ لِيفعَلِ الذين ينحرفونَ عن آياتِ الله تعالى ما يشاءونَ في مخالفةِ القرآنِ الكريم؛ لأنّ هذه الدُّنيا دارُ العمَل، وقد أعطَى اللهُ تعالى كلَّ شخصٍ الاختيارَ في فعل الحسَنةِ أو السيِّئة، ولكنّ عليهم أن يتذكَّروا أنّ أعمالَهم القبيحةَ لا تَخفَى على الله تعالى، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من العذابِ الإلهيِّ، ولهذا ينبغي لهم أن يقرِّروا بعدَ تفكيرٍ وتدبُّرٍ من يكونُ الأفضَلَ يومَ القيامة؟ الذي سيحترقُ في جهنَّمَ بتحريفِه القرآنَ الكريمَ، أم الذي سيَدخُلُ الجنةَ بعمَلِه بالقرآنِ الكريم؟

﴿ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾

٣٧ ـ القرآنُ المجيدُ كتابُ حِكمةٍ وعزّةٍ وكرامة، وقد أنْزلَه اللهُ تعالى وتعهَّدَ بحِفظِه، مثلَما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ولهذا فإنّ القرآنَ الكريمَ بمثابةِ القَلْعةِ الحَصِينةِ التي لا يستطيعُ الباطلُ أن يُلحِقَ بها أيَّ ضَررٍ من أيِّ جانب، وقد أنكَر الكفّارُ القرآنَ الكريمَ تعصُّبًا، لكنّهم لا يستطيعونَ التغييرَ والتعديلَ في ألفاظِه، ولا يستطيعونَ تكذيبَ تعاليمِه وأحكامِه، فالأشياءُ التي قال عنها القرآنُ الكريمُ: إنها حقٌّ، لا يمكنُ أن تكونَ باطلًا أبدًا، والأشياءُ التي قال

عنها: إنها باطلٌ، لا يمكنُ أن يُثبِتَ أحدٌ أنها حقٌّ، ولمزيدٍ من التفصيل عن فَضْل القرآنِ الكريم راجِع الآيةَ رقم ٩ من سُورة الحِجْر (١٥) وكذا حاشيتُها.

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

٣٨ ـ في هذه الآيةِ تسرِيةٌ عن النبيِّ ﷺ بأنّ ما يقولُه الكفّارُ من كلام يؤذي قلبَك، كقولِهم: إنك ساحرٌ ومجنون! ليس بالأمرِ الجديد، فقد قيل للأنبياءِ السّابقينَ عليهم السَّلامُ مِثلُ هذا الكلام الجارح، فاصبرْ عليهم، فإنْ لم يَتُبْ هؤلاءِ الكفّارُ ويطلُبوا العفوَ والمغفرةَ، فسيُعذَّبونَ عذابًا شديدًا.

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾

٣٩ ـ لم يكنْ كفّارُ مكّةَ على استعدادٍ للإيمانِ بالقرآنِ الكريم بسببِ طُغيانِهم وعنادِهم، وكثيرًا ما كانوا يَعترِضونَ على القرآنِ الكريم باعتراضاتٍ عجيبةٍ وغريبةٍ بقَصْد السُّخْرِية منه، ومن هذه الاعتراضاتِ: لماذا لم يَنزِلِ القرآنُ الكريمُ بلغةٍ أعجميّة؟[1].

في هذه الآيةِ رَدَّ الله سبحانه وتعالى عليهم قائلًا: لو أَنْزلنا القرآنَ الكريمَ بلُغةٍ أعجميّةٍ لَاعترَضوا قائلينَ: إنّ هذا لَأمرٌ عجيب، فالرسولُ عربيٌّ والقومُ عربٌ، ولكنّ الكتابَ عَجَميٌّ، وكيف يفهَمونَ تفصيلاتِ هذا الكتابِ ويعمَلونَ بما فيه وهم لا يعرِفونَ لغتَه أصلًا؟ الحقيقةُ أنّ في نيّتِهم فُتورًا وتعصُّبًا، والآنَ القرآنُ الكريمُ باللُّغةِ العربيّة التي هي لغتُهم الأُمُّ، لكنّهم معَ ذلك لا يؤمنونَ به، فكيف يؤمنونَ به إذا كان قد نَزَل بلغةٍ أعجميّةٍ إذًا؟

---

(١) «ذكروا أن الكفار كانوا يقولون لتعنتهم: هلاّ نزل القرآن بلغة العجم؟». صفوة التفاسير.

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾

٤٠ ـ القرآنُ الكريمُ بالنِّسبةِ لأهلِ الإيمان كتابُ هدايةٍ وشفاءٍ من أولـه إلى آخِره، يُرشدُهم في كلِّ مناحي الحياة، ويُنجِّيهم من كلِّ الأمراضِ والشُّبُهات، ولأنّ الكفّارَ لا يريدونَ أصلًا فَهْمَ القرآنِ الكريم، لهذا أَغْلَق آذانَهم ثِقْلٌ من التعصُّب، وغطّى على أعيُنِهم ظلامُ العنادِ والتعنُّت، ولا يسمَحونَ لصوتِ القرآنِ الكريم بالوصُولِ إلى قلوبِهم وعقولِهم، وبالتالي فإنّ مِثلَ تلاوةِ القرآنِ عليهم كشخصٍ ينادى عليه من بعيدٍ، فيتناهَى صوتٌ ضعيفٌ إلى سَمْعِه، ولكنّه لا يتمكَّنُ من فَهْم ما يقالُ له.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

٤١ ـ لمّا نَزَل القرآنُ المَجِيدُ انقَسَم أهلُ مكةَ إلى فريقَيْنِ، الأقَلِّيةُ الذين آمَنوا به، والأكثريّةُ الذين أثاروا من حولِه الشُّبُهاتِ والشكوكَ، عامِدينَ أو غيرَ عامدين، ورفَضُوا الإيمانَ به، وفي هذه الآيةِ الكريمة يُطَمْئنُ اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بأنْ لا تحزَنْ ولا تغتمَّ، فقد حَدَث مِثلُ هذا معَ الأنبياءِ السابقينَ عليهمُ السَّلام مِثلَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، واللهُ تعالى يُمهِلُ كلَّ قومٍ إلى حدٍّ معيَّنٍ حتى يُصلِحوا من أنفُسِهم، لكنّ الذين لا يَرجِعون عن طُغيانِهم برَغْم ذلك، فقد حَدَّد اللهُ تعالى لهم ـ طِبقًا لطُغيانِهم ـ نوعيّةَ العذابِ الذي سيَلقَوْنَه، وكذا وقتَ نزولِ العذاب عليهم، فأَنْزل اللهُ تعالى بعضَ العذابِ على بعضِ الأقوام في هذه الدنيا، وأخَّر عذابَ أقوامٍ آخَرينَ كاملًا إلى يوم القيامة. على أيِّ حال، هذا حُكمُ الله تعالى، ولو لم يكنْ مقرَّرًا من قبلُ لأُهْلِكَ المنكِرُونَ على الفَوْر.

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

٤٢ ـ الذي يعمَلُ الصّالحاتِ يحظَى بالأَجْرِ العظيم عليها، ومن يرتكبُ الذُّنوبَ يُعاقَبُ عليها يقينًا، ولهذا ينبغي لكلِّ شخصٍ أن يَعرِفَ ما يفيدُه وما يَضُرُّه، وأن يعمَلَ ما يفيدُه، واللهُ تعالى لا يظلِمُ أحدًا، فإذا أدخَلَ أحدًا جهنَّمَ فهذا يعني أنه دَخَلَها بوَبالِ ذنوبِه هو لا غيرُ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾

٤٣ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قالوا: يا محمَّد، إنْ كنتَ نبيًّا فخبِّرْنا متى قيامُ

الساعة؟ فنَزَلت»[١]، يعني: أنّ الرُّجوعَ يكونُ إلى اللهِ تعالى في معرفةِ علم قيام الساعة؛ لأنّ عِلمَه تعالى محيطٌ بكلِّ شيء، حتى أنه يَعلَمُ بخروج الثمراتِ من الأكمام، ويَعلَمُ حَمْلَ الأُنثى ووقتَ وَضْع هذا الحَمْلِ أيضًا، ولا يمكنُ أن يَعلمَ أحدٌ شيئًا من هذا إلا بإخبارِ اللهِ تعالى له.

يقولُ العلّامةُ الصّاوي في تفسيرِ هذه الآية: «إنّ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم لم يَخرُجْ من الدُّنيا حتى اطَّلعَ على ما كان وما يكونُ وما هو كائنٌ، ومن جملتِه: وقتُ الساعة، ولكنْ أُمِر بكِتمانِه فلا يفيدُ السائلَ عنه شيئًا... بأنّ صاحبَ الكشفِ عَلِم بإلهام منَ الله تعالى لبعضِ جُزئيّاتٍ فقطْ...»[٢]، ولمزيدٍ من التفصيل عن تفسيرِ هذه الآية راجعْ حاشيةَ الآية رقم ٣٤ من سُورة لقمان (٣١).

الاستعداد ليوم القيامة

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه: «إنّ رجُلًا سألَ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم عن السّاعة، فقال: متى السّاعةُ؟ قال: «وماذا أعدَدتَ لها؟»، قال: لا شيء، إلّا أنّي أُحبُّ اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، (وفي روايةٍ أخرى: ما أعددتُ لها من كثيرِ صلاةٍ ولا صومٍ ولا صَدَقةٍ، ولكنّي أُحبُّ اللهَ ورسولَه)[٣]، فقال: «أنت معَ مَن أحبَبْتَ ـ قال أنسٌ رضي الله عنه: فما فَرِحنا بشيءٍ فَرَحَنا بقولِ النّبيّ ﷺ: «أنت معَ من أحبَبْتَ» (يعني يومَ القيامة) ـ قال أنسٌ رضي الله عنه: فأنا أُحبُّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم وأبا بكرٍ وعُمرَ رضي الله عنهما، وأرجو أن أكونَ معَهم بحبّي إيّاهم وإن لم أعمَلْ بمثلِ أعمالِهم[٤].

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين.

(٣) البخاري، برقم ٦١٧١.

(٤) البخاري، فضائل أصحاب النبي، باب ٦ برقم ٣٦٨٨.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾

٤٤ ـ سيُسألُ المشركونَ يومَ القيامةِ في جهنَّم: أين الذين أشرَكتُموهم معَ اللهِ تعالى اليومَ؟ نادُوهم حتى يُخلِّصوكم من هذا العذاب. وسيُجيبُ المشركونَ: إنّنا لا نراهُم اليومَ هنا أو هناك، لكنَّنا على يقينٍ من أنه لا شريكَ لله أبدًا، وقد كنّا على خطأٍ في الدنيا، ولهذا نعترفُ مرارًا أنه ليس منّا اليومَ من يقولُ بالشِّركِ معَ الله.

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

٤٥ ـ حين يَفتقدُ المشركونَ الشُّفعاءَ المُزَوَّرينَ جميعًا عندَ الضَّرورة، وهم الذين كان المشركونَ يعبُدونَهم في هذه الدنيا ويتوقَّعونَ منهم العَوْنَ والشَّفاعةَ، عندَئذٍ يتيقَّنونَ من أنه لا سَبيلَ إلى النّجاةِ من العذابِ الآنَ؛ لأنّ هذا عقابُهم على عبادتِهم للباطل، ولا بدَّ أنْ ينالوهُ على أيِّ حال.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾

٤٦ ـ عندما يكونُ الكفّارُ والطُّغاةُ في حالةٍ معيشيّةٍ مرفَّهة، فإنّهم ـ من أَجْل المزيدِ من هذه الرَّفاهية ـ يُكثِرونَ من الدُّعاء، بحيث لو كان الأمرُ بيدِهم لَاستَأْثَروا بنِعَم الدُّنيا كلِّها لأنفُسِهم فقطْ، وعندَما يصيبُهم الضُّرُّ يَيْأَسُونَ من رحمةِ الله تعالى إلى درجةِ أنهم إمّا أن يَظلِموا الآخَرينَ ويَعتَدوا عليهم، أو أن يَصِلَ الحالُ بهم إلى درجةِ الانتحار، بينَما أهلُ الله يكونونَ في حالِ الرفاهية مطمئنِّينَ دائمًا بشُكرِ الله تعالى على نِعَمِه، وفي أيام الشدائدِ يَظَلُّونَ دائمًا آمِلينَ في رحمةِ الله تعالى.

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

٤٧ ـ حين يُصيبُ الكافرَ الضُّرُّ، ولا تنفعُ معه أيُّ وسيلةٍ دُنيويّة، فإنه عندَئذٍ

يدعو اللهَ تعالى، ولكنْ حينَ يُزيحُ اللهُ عنه ما أصابه ويُنعِمُ عليه برَغَدِ العيش يقول: لقد كان هذا نتيجةَ عِلمي ومهارتي وخِبرتي، وهي التي أَخْرجَتْني من هذه المصيبة، وإذا كان اللهُ هو الذي أزاحَها عنِّي فذلك كان تشجيعًا لي بما أستحِقُّه بسببِ عظَمتي وجاهي في الدنيا، ثم يَدَّعي ـ معَ ذلك ـ قائلًا: إنّني لا أعتقدُ أنّ الساعةَ ستقومُ أبدًا، وحتى إنْ قامت الساعةُ فإنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ علَيَّ بمقامٍ رفيع في الآخِرةِ أيضًا مثلَما أَنْعم عَليَّ بالعظَمةِ والجاهِ في الدُّنيا، في حينَ أنّ هذا غباءٌ وحُمقٌ من الكفّار، إذ إنّ كُفرَ الكفّارِ وشِركَهم، وكذا ذنوبُهم، ستُكشَفُ كلُّها يومَ القيامة أمامَهم، وسوف يُسلَّطُ عليهم عذابٌ أليمٌ عقابًا لهم على كلِّ هذا.

﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴾

٤٨ ـ عندَما يُنعِمُ اللهُ تعالى على كافرٍ أو طاغيةٍ بنعمةٍ فإنه يتكبَّرُ وينسَى إحسانَ الله وفَضْلَه، ويُعرِضُ عن الحقِّ ويَستغرقُ في طُغيانِه، وعندَما يُصيبُ الإنسانَ ضُرٌّ فإنه يصيرُ عاجزًا متواضِعًا، ويُكثِرُ من الدُّعاءِ ويُطيلُه، ولا يخجَلُ من نفسِه، فبأيِّ وجهٍ يدعو اللهَ تعالى؟ ولكنْ للأسفِ الشّديد هذا الضَّعفُ موجودٌ في معظَم بني الإنسان.

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴾

٤٩ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّكم ـ بسببِ تعصُّبكم وعنادِكم ـ تقولونَ: إنّ القرآنَ المجيدَ ليس كلامَ الله تعالى، ولهذا لا تؤمنونَ به، ولكنْ حينَ يَثبُتُ يومَ القيامةِ أنّ القرآنَ المَجيدَ بالفعلِ كلامُ الله تعالى، وأنّكم لم تُنكروه فقطْ، وإنّما تجاوَزتُم كلَّ الحدودِ في مخالفتِه، فمَن سيكونُ عندَئذٍ أكثرَ منكم ضلالًا؟ ولكم أن تتصوَّروا أنتم إلى أيِّ مدًى سيكونُ مصيرُكم المُخيف؟

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

٥٠ ـ الحقائقُ والآياتُ التي بيَّنَها القرآنُ الكريمُ في أرجاءِ الدُّنيا من نظام الشّمسِ والقمرِ وغيرِهما، والمراحلُ المختلفةُ لخَلْقِ الإنسان، وكذا الحياةُ الإنسانيّةُ، لو تدبَّرَها كفّارُ مكّةَ وتمعَّنوا فيها لَما أنكَروا القرآنَ المَجيدَ، ولكنّ تعصُّبَهم وتكبُّرَهم حَرَمَهم من موهبةِ معرفةِ الحقِّ. على أيِّ حال، سنُريكُم عن قريبٍ آياتٍ واضحةً في أرجاءِ الدنيا، يعني: الفتوحاتِ الإسلاميّةَ خارجَ شبهِ الجزيرةِ العربيّة، وفي داخلِها أيضًا، يعني: انتصارَ بدرٍ وفَتْحَ مكّةَ، بحيث لن يكونَ أمامَكم سوى التسليم بأنّ القرآنَ المجيدَ كتابٌ على الحقِّ فعلًا، وأنّ الفتوحاتِ التي تنبَّأَ بها ثَبَت ـ بالفعل ـ صِدقُها.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

٥١ ـ هنا تنبيهٌ للكفّارِ وطَمْأنةٌ للنبيِّ ﷺ بأنّ اللهَ تعالى شاهدٌ على كلِّ شيء، فهو يرى تكذيبَ الكفّار، ويشهَدُ كذلك على دعوةِ النبيِّ ﷺ، أفلا تكفي شهادتُه تعالى؟ وهو الذي يقولُ مِرارًا: إنّ القرآنَ المجيدَ حقٌّ، وإنه كلامُ اللهِ تعالى يقينًا؟

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾

٥٢ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تـحزَنْ ولا تغتَمَّ لمـخالفةِ الكفّارِ لك، فقد خَدَعتْهم أنفُسُهم فيما يتعلَّقُ بلقاءِ ربِّهم، أي: بعقيدةِ الآخِرة، ولهذا ليس في قلوبِهم خوفٌ من الحساب، ولا يشعرونَ بالحاجةِ إلى التدبُّرِ في القرآنِ المجيد، ولكنّ عليهم أن يسمَعوا جيِّدًا ما أقول، سيُحاسَبونَ يقينًا على إنكارِهم للقرآنِ

الكريم، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من قَبْضةِ الله تعالى؛ لأنه تعالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ، ولا يوجَدُ شيءٌ خارجَ قبضةِ قُدرتِه.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الفجر من يوم الخميس ٨ أبريل ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ ربيعٍ الثاني ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتملَ تفسيرُ سُورة «فُصِّلت» بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في تسعةِ أيام فقط، أي: من ٣٠ مارسَ حتى ٨ أبريل، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٢) سورة الشورى

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «الشُّورى»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم ٣٨ منها.

مضامين السورة

ـ نَزَلت هذه السُّورةُ في مكّةَ قبلَ الهجرة، وجاء الخطابُ فيها لأهلِ مكّةَ بصفةٍ عامّة، وفيها شُرِحت لهؤلاءِ العقائدُ الأساسيّةُ للإسلام.

ـ مثلَما أَنْزل اللهُ تعالى الوحيَ على الرسُلِ السابقينَ بلُغاتِهم القوميّة، كذلك أَنْزلَ القرآنَ الكريمَ على سيّدِنا محمدٍ ﷺ باللُّغةِ العربيّة، لكي لا تُواجِهَ المخاطَبينَ الأُوَلَ له أيُّ صعوبةٍ في فَهْم رسالةِ الإسلام.

ـ لو أراد اللهُ تعالى لَجَعلَ الناسَ كلَّهم أُمةً واحدة، ولَما اختَلفَ أحدٌ معَ أحدٍ، ولكنِ اقتَضَت حِكمةُ الله تعالى أن يُعطيَ كلَّ شخصٍ العقلَ والشُّعورَ والحقَّ في الاختيار، ثم بعدَ ذلك يَرى مَن منهم يختارُ طريقَ الحقِّ برضاهُ فيستحِقُّ بذلك الجنّةَ، ومَن منهم يختارُ طريقَ الباطلِ برضاهُ فيستحِقُّ بذلك جهنَّمَ.

ـ الإسلامُ ليس دينًا جديدًا، وإنّما هو الدِّينُ نفسُه الذي دَعا إليه من قبلُ سيّدُنا نوحٌ وسيّدُنا إبراهيمُ وسيّدُنا موسى وسيّدُنا عيسى عليهم جميعًا السَّلامُ، ولكنّ منَ الصَّعبِ جدًا على مشركي مكةَ أن يترُكوا آلهةً متعدِّدةً ويؤمنوا بإلهٍ واحدٍ فقطْ.

ـ من صفاتِ أهلِ الله الذين تعهَّد اللهُ تعالى بأنْ يؤْجِرَهم أنّهم يقرِّرونَ أمورَهم بالتشاورِ فيما بينَهم، وهذه أيضًا هي سُنّةُ النبيِّ ﷺ، بأنه إذا عَرَض أمرٌ هامٌّ معقَّدٌ كان يستدعي الصّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم ويتشاوَرُ معَهم ثم يُصدِرُ قرارَه.

ـ في هذه السُّورةِ تنبيهٌ للناسِ بأنْ يُطيعوا أحكامَ الله تعالى قبلَ يوم القيامة، وإلّا فلن يكونَ لهم مَلاذٌ في ذلك اليوم.

ـ ليس لدى بشَرٍ المقدِرةُ على أن يُكلِّمَ الله تعالى بشكلٍ مباشر، وإنّما يختارُ اللهُ تعالى من عبادِه من يشاءُ للنُّبوة، ويُنزِلُ عليه الوحيَ، ثم يَهدي هذا النبيُّ الناسَ إلى طريقِ الهداية عن طريقِ الوَحْي، وقد أرسَلَ اللهُ تعالى الرسُلَ قبلَ ذلك أيضًا من بني الإنسان، والآنَ ما العَجَبُ إنِ اختارَ من أهلِ مكةَ إنسانًا للنُّبوة؟

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعد فَجْر يوم الخميس ١ أبريل ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ ربيعٍ الثاني ١٤٣١هـ.

* * *

سُورَةُ الشُّورَىٰ (٤٢)،

مكية (٦٢)، آياتها (٥٣)، ركوعاتها (٥)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾

﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾

١ - في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ خمسةُ حروفٍ مقطَّعةٍ، وهي سِرٌّ بينَ الله تعالى ورسُولِه ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ الأُولى من سُورة البقرة.

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

٢ - يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، أَنْزلَ اللهُ تعالى على الرسُلِ من قبلِك الصَّحائفَ والكُتبَ عن طريقِ الوحي، مثلَما أَنْزل عليك القرآنَ المجيدَ عن طريقِ الوحي.

تعريف الوحي

المرادُ بالوَحْيِ في الشريعة هو: ذلك الكلامُ الذي يَنزِلُ من قِبَلِ اللهِ تعالى على أنبيائه الكرام عليهمُ السَّلام، سواءٌ نَزَل ذلك الوحيُ عن طريقِ المَلَك، أو بطريقٍ آخَرَ غيره.

حديث فيما يتعلق بالوحي

ـ تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ تعالى عنها: إنّ الحارثَ بنَ هشامٍ ـ رضي الله عنه ـ سَألَ رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوَحيُ؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مِثلَ صَلْصلةِ الجَرَس ـ وهو أشدُّه عليَّ ـ فيَفصِمُ عنّي وقد وَعَيْتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّلُ ليَ المَلَكُ رجُلًا فيُكلِّمُني فأَعِي ما يقول». قالت عائشةُ رضي اللهُ عنها: ولقد رأيتُه يَنزِلُ عليه الوحيُ في اليوم الشّديدِ البَرْد، فيَفصِمُ عنه وإنّ جبينَه لَيتفصَّدُ عَرَقًا[1].

أشكال نزول الوحي

جاء في هذا الحديثِ بيانٌ لصُورتَيْنِ من صُوَر الوَحْي؛ لأنّ الوحيَ يَنزِلُ في هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ كثيرًا، وفي هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ يَنزِلُ الوحيُ عن طريقِ المَلَك، أمّا الصورةُ الأُولى فلا يَظهَرُ فيها المَلَك، وإنّما لا يَسمَعُ سوى صوتِ جَرَسٍ. وأمّا في الصُّورةِ الثانية فيَنزِلُ المَلَكُ في شكلِ إنسان، وكان يَظهَرُ للحاضِرينَ في ذلك الوقت، وبالإضافة إلى هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ، فإنّ اللهَ تعالى يُنزِلُ كلامَه على قلبِ النبيِّ بالشكلِ الذي يريدُه، مثلًا:

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٢ برقم ٢.

الكلام المباشر

مثلَما كلَّم اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بشكلٍ مباشِرٍ وبغيرِ مَلَكٍ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، كذلك كَلَّم اللهُ تعالى حبيبَه النبيَّ ﷺ بشكلٍ مباشِرٍ ليلةَ المعراج، وأَنْعم عليه بهديّةٍ خمسينَ صلاةً، وباقتراحٍ من سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ خفَّف اللهُ تعالى الصَّلواتِ إلى خمسٍ فقطْ، وعَفَا عن خمسٍ وأربعينَ صلاةً[1].

كما أنّ اللهَ تعالى قال للنبيِّ الكريم ﷺ: «إنّي فَرضتُ على أُمّتِك خمسَ صلواتٍ، وعَهِدتُ عندي عهدًا أنّه مَن جاء يحافظُ عليهِنَّ لوَقْتِهنّ أدخَلتُه الجنّةَ، ومن لم يُحافظْ عليهِنّ فلا عهدَ له عندي»[2].

---

(١) «ودنا الجبّار ربّ العزّة، فتدلّى، حتّى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله فيما أوحى إليه خمسين صلاةً على أمّتك كلّ يومٍ وليلةٍ. ثمّ هبط حتّى بلغ موسى فاحتبسه موسى، فقال: يا محمّد، ماذا عهد إليك ربّك؟ قال: عهد إليّ خمسين صلاةً كلّ يومٍ وليلةٍ. قال: إنّ أمّتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفّف عنك ربّك وعنهم... فقال وهو مكانه: يا ربّ، خفّف عنّا، فإنّ أمّتي لا تستطيع هذا. فوضع عنه عشر صلواتٍ، ثمّ رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردّده موسى إلى ربّه حتّى صارت إلى خمس صلواتٍ، ثمّ احتبسه موسى عند الخمس، فقال: يا محمّد، والله لقد راودت بني إسرائيل قومي على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه، فأمّتك أضعف أجسادًا وقلوبًا وأبدانًا وأبصارًا وأسماعًا، فارجع فليخفّف عنك ربّك... فقال: يا ربّ، إنّ أمّتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبدانهم فخفّف عنّا، فقال الجبّار: يا محمّد. قال: لبّيك وسعديك. قال: إنّه لا يبدّل القول لديّ، كما فرضت عليك في أمّ الكتاب ـ قال ـ فكلّ حسنةٍ بعشر أمثالها، فهي خمسون في أمّ الكتاب وهي خمسٌ عليك. فرجع إلى موسى فقال كيف فعلت؟ فقال: خفّف عنّا، أعطانا بكلّ حسنةٍ عشر أمثالها. قال موسى: قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، ارجع إلى ربّك فليخفّف عنك أيضًا. قال رسول الله ﷺ: يا موسى، قد والله استحييت من ربّي ممّا اختلفت إليه. قال: فاهبط باسم الله. قال: واستيقظ وهو في مسجد الحرام». البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٧ برقم ٧٥١٧.

(٢) أبو داود، كتاب الصلاة، باب ٩.

الكلام في المنام

قال النبيُّ ﷺ: «أتاني اللّيلةَ ربّي تبارك وتعالى في أحسَنِ صورةٍ ـ قال: أحسَبُه قال: في المنام ـ فقال: يا محمّد، هل تدري فيمَ يَختصمُ الملأُ الأعلى؟ قال: قلت: لا، قال: فوضَعَ يدَه بينَ كتِفَيَّ حتّى وجَدتُ بَرْدَها بينَ ثَدْيَيّ، فعَلِمتُ ما في السّماواتِ وما في الأرض»[١].

نزول الأمين جبريل

يقولُ الإمامُ أحمدُ القسطَلّاني: «وقد ذَكَر ابنُ عادل في تفسيرِه: أنّ جِبريلَ ـ عليه السّلام ـ نَزَل على النبيِّ ﷺ ـ أربعةَ وعشرينَ ألفَ مرة، ونَزَل على آدمَ اثنتَيْ عشْرةَ مرةً، وعلى إدريسَ أربعَ مرات، وعلى نوح خمسينَ مرةً، وعلى إبراهيمَ اثنتَيْنِ وأربعينَ مرة، وعلى موسى أربعَمائةِ مرة، وعلى عيسى عشْرَ مرّات»[٢].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٣ ـ جَعَل اللهُ تعالى الإنسانَ هو الأفضَلَ بينَ المخلوقاتِ جميعًا، ثم أَنْعَم عليه بمختلفِ أنواع النِّعَم، ومعَ ذلك فإنّ أكثرَ الناسِ غايةٌ في الجحود، حيث يُشركونَ بالله تعالى ويجعَلونَ له ولدًا، وهذا منتَهى سوءِ الأدبِ معَ الله تعالى، بحيثُ لو غَضِب لَانشقَّتِ السماءُ من جلالِه، ولَهلَكَ أهلُ الأرض جميعًا، لكنّه تعالى رحيمٌ وحليم، ولا يسارعُ إلى الأَخْذ، وإنّما يُمهِلُ الناسَ ليتوبوا ويُصلحوا من أنفُسِهم، مثلَما رُوي عن سيّدِنا أبي موسى الأشعريِّ رضي اللهُ عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، برقم ٣٢٣٣.

(٢) المواهب اللدنية، ١: ٢١٠: مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

«ما أحدٌ أصبرُ على أذًى سَمِعَه من الله، يدّعونَ له الولَدَ، ثمّ يُعافيهم ويَرزُقُهم»[1].

كما أنّ الملائكةَ يظَلُّونَ دائمًا رَطِبي اللِّسانِ بحمدِ الله تعالى والثّناءِ عليه، ويدعونَ اللهَ بالمغفرةِ لأهلِ الإيمانِ الذين يعيشونَ على الأرض، وهم الذين يتوقّفُ غضَبُ الله تعالى ببرَكتِهم، ويَحصُلُ الكفّارُ أيضًا على فرصةٍ لإصلاح أحوالِهم والتّوبةِ من ذنوبِهم.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾

٤ ـ هنا طَمْأَنةٌ للنبيِّ الكريم ﷺ بأنّ الذين يترُكونَ اللهَ تعالى ويتّخذونَ من دونِه أولياء، يراقبُ اللهُ تعالى أعمالَهم القبيحةَ، وسوف يُعاقَبُونَ على أعمالِهم هذه، ولكنْ لا تحزَنْ ولا تغتَمَّ على كُفرِهم وشِركِهم؛ لأنك أدَّيتَ حقَّ التبليغ والدعوة، فإذا استمرُّوا على ضَلالِهم برغْم كلِّ هذا فهم المسئولونَ عن أعمالِهم، ولن تُسألَ أنت عن ضَلالِهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾

٥ ـ أوّلُ المخاطَبينَ لأيِّ نبيٍّ هم أولئك الذين أُرسِل إليهم هذا النبيُّ، وأَنْزل إليه الوحيَ أيضًا بلغةِ هؤلاء القوم، حتى يستطيعوا فَهْمَ الكلام بسهولةٍ ويُسر، مثلما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، مثلَما أرسَلْنا كلَّ رسُولٍ بلغةِ قومِه، أَنْزَلنا عليكَ القرآنَ الكريم باللُّغةِ العربيّةِ كذلك، حتى تُنذِرَ به أهلَ مكّةَ والمحيطينَ بهم من

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣ برقم ٧٣٧٨.

عذابِ الله تعالى، ولا يجدوا أيَّ صعوبةٍ في فَهْم ما تقولُ لهم.

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾

٦ ـ نبيُّنا الحَبيبُ سيّدُنا محمدٌ ﷺ أُرسِل نبيًا إلى الناسِ جميعًا، ولكنّ دعوتَه ﷺ تشتملُ على ثلاثِ مراحل، دعا في المرحلةِ الأولى أقاربَه الأقربينَ إلى الإسلام، ثم في المرحلةِ الثانية دَعا أهلَ جزيرةِ العربِ، ثم بعدَ ذلك وفي المرحلةِ الثالثة بَدأَ عملَ الدّعوةِ في البلادِ المجاورة.

يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، أَنْذِرْ ـ في المرحلةِ الثانيةِ من الدَّعوة ـ كلَّ أهلِ مكّةَ وأهلِ جزيرةِ العرب، وخوِّفْهم من يوم القيامة وهو قادمٌ لا مَحالةَ، وسوف يُجمَعُ في ذلك اليوم كلُّ البشَرِ من لَدُنْ سيّدِنا آدمَ عليه السّلام إلى كلِّ مَن يأتي حتى يوم القيامة مُسْلمًا وكافرًا، ثم بعدَ أنْ يحاسَبوا يُقسَّمونَ إلى فريقَيْنِ: فريقٍ يستحِقُّ الجنّةَ ببركةِ أعمالِه الصّالحة، والفريقُ الآخَر يستحِقُّ جهنَّمَ بشُؤْم أعمالِه السيِّئة، وكما أنّ الحسَنةَ والسيِّئةَ في الدُّنيا شيئان لا ثالث لهما، كذلك في الآخِرة مصيرانِ لا ثالثَ لهما وهما: الجنّةُ والنار، والأعرافُ ليست مستقرًّا مستقلًّا، والذين ينتظرونَ فيه سيَدخُلونَ الجنةَ في نهايةِ الأمر.

ليس بين الحسنة والسيئة في الدنيا شيء ثالث

هذه واقعةٌ حَدَثت لي وأنا في مرحلةِ التعليم، حيث سألَني رجلٌ ثَرْثارٌ: سيَدخُلُ الصّالحونَ الجنّةَ، وسيَدخُلُ الأشرارُ النارَ، فأين يذهبُ ذلك الذي لم يفعَلْ حسَنةً ولم يرتكبْ سيِّئة؟ قلتُ له: مِثلُ هذا الشخصِ لا يمكنُ أن يكونَ موجودًا. قال: ها أنا أمامَك، فأنا لم أفعَلْ حسَنةً أبدًا، ولم أرتكبْ ذنبًا قطُّ. قلتُ له: من الممكنِ أن تتساوى حسَناتُ أحدٍ معَ سيّئاتِه، ولكنْ ليس من الممكنِ أن يكونُ هناك لم يعمَلْ

حسَنةً ولم يرتكبْ سيِّئةً، ومعَ ذلك لو كُنتَ مُصِرًّا على ما تَدَّعي فأخبِرْني إذًا: هل تُصلِّي أم لا؟ إن كنتَ تُصلِّي فأنت تعمَلُ الحسَنةَ، وإن كنتَ لا تُصلِّي فانت ترتكبُ السيِّئةَ والذَّنب، فأخبِرْني إذًا ماذا تفعَلُ؟ سَمِع الرجلُ ما أقولُ ولم يَنْبِسْ ببنتِ شَفَةٍ.

والهدفُ من بيانِ هذه الواقعة هنا أنّ بعضَ الجُهَلاءِ يعتقدونَ أنّ السَّرقةَ والكذبَ وغيرَهما ذنوبٌ، بينَما تَرْكُ الصّلاةِ وعَدَمُ أداءِ الزّكاة وغيرُهما ليست ذنوبًا، معَ أنه مثلَما أنّ ارتكابَ الأشياءِ التي حرَّمها اللهُ تعالى يُعَدُّ ذنبًا، كذلك فإنّ عَدَمَ فعلِ الأشياءِ التي فَرَض اللهُ فعلَها يُعَدُّ ذنبًا أيضًا.

أهل الأعراف بين الجنة والنار

بينَ الجنةِ والنارِ حجابٌ يقالُ للجزءِ العُلويِّ منه: الأعرافُ، حيث يقفُ عليه بعضُ الناس، وعندَ أكثرِ المفسِّرين هؤلاءِ هم: الذين تتساوَى حسَناتُهم معَ سيِّئاتِهم، ولَمّا يدخلوا الجنّةَ بعدُ، ولكنّهم يأمُلونَ في دخولِها، وحينَ ينظُرُ أهلُ الأعرافِ إلى أهلِ الجنّة يَدْعونَ لهم بالسّلامة، وحينَ ينظُرونَ إلى أهلِ النارِ يستعيذونَ بالله من عذابِهم، وفي نهايةِ الأمر يُسمحُ لأهلِ الأعراف أيضًا بدخولِ الجنّةِ برحمةِ الله تعالى[1]، أمّا أهلُ الإيمانِ الذين تكونُ سيّئاتُهم كثيرةً فسيَدخُلونَ الجنةَ بعدَ أن يُكمِلوا العقابَ المقرَّرَ لهم في النار، وأمّا أهلُ الأعرافِ الذين تستوي حسَناتُهم وسيّئاتُهم فسيَدخُلونَ الجنةَ قبلَهم.

---

(١) «إنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال: أولئك أصحاب الاعراف لم يدخلوها وهم يطمعون... إنهم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: سلام عليكم، وإذا صرفوا أبصارهم إلى يسارهم نظروا أهل النار وتعوذوا بالله من منازلهم، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم ربهم وقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فإني قد غفرت لكم». تفسير ابن كثير، سورة الأعراف (٧): الآية ٤٦.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا تحزَنْ ولا تغتمَّ على الذين لا يستمعونَ إلى ما تقول، ويَضِلُّونَ في الكفرِ والشِّركِ عامِدين؛ لأنّ اللهَ تعالى لو شاء لَجمَعَ كلَّ هؤلاءِ على الهدى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، يعني: يجعَلُ الناسَ جميعًا مسلمين، ولا يكونُ هناك كافرٌ واحد، لكنّ حِكمتَه تقتضي أن لا يُجبرَ أحدًا من الناسِ طالما أعطاهم العقلَ والشعورَ، وإنّما يَرى مَن منهم يَقبَلُ الحقَّ ويجعَلُ مِن نفسِه مستحِقًّا لرحمةِ الله تعالى، ومَن منهم يختارُ طريقَ الظُّلم والتعدِّي، ويُبعِدُ نفسَه عن رحمةِ الله تعالى، ولن يكونَ لأمثالِ هؤلاءِ الظالمين يومَ القيامة صديقٌ أو مُعين.

يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إنّ المقصِدَ من إرسالِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ هو أنْ يرشِدوا الناسَ إلى طريقِ الهداية، ثم ينظروا، مَن منهم يَقبَلُ الهدايةَ برضاه، ومن يرفضُها؟ ولو لم يكنِ المقصودُ هو ابتلاءَ الناسِ لَما كانت هناك حاجةٌ إلى إرسالِ الأنبياءِ والرسُل عليهم جميعًا السَّلام، فاللهُ تعالى يستطيعُ أن يهديَ الناسَ جميعًا بأمرٍ واحدٍ منه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

٨ ـ يعني: الوليُّ الأَصْليُّ والحقيقيُّ هو اللهُ تعالى الذي يُحيي الموتى، والقادرُ على كلِّ شيء، وليس لأحدٍ غيرِه القُدرةُ نفسُها، كما أنه لا أحدَ غيرَه يستحِقُّ أن يكونَ الوليّ الحقيقيَّ، فلماذا يتَّخذُ المشركونَ الآخَرينَ أولياءَ إذًا؟

وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾

٩ ـ كلُّ إنسانٍ في هذه الدُّنيا يدَّعي أنّ دينَه صحيح، وباقيَ الأديانِ خطأٌ، ولهذا أرسَلَ اللهُ تعالى كلامَه الأخيرَ، أي: القرآنَ الكريمَ، حتى يهتديَ به الناسُ ويتخلَّصوا من اختلافاتِهم هذه، والآنَ إذا ظَهر أيُّ اختلافٍ بينَ أهل الإيمانِ فإنّهم يَرجعونَ إلى القرآنِ الكريم من أَجْل إزالةِ هذا الاختلاف، ولكنّ الاختلافَ الذي بيْنَ المسلم والكافرِ أمرُه إلى اللهِ تعالى؛ لأنّ الكافرَ لا يؤمنْ بالقرآنِ المَجِيد، واللهُ تعالى هو الذي سيفصِلُ في هذا الاختلافِ يومَ القيامة.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

١٠ ـ أعلَن نبيُّنا الحبيبُ ﷺ في ألفاظٍ واضحةٍ أنّ الحُكمَ النهائيَّ في أيِّ أمرٍ للهِ تعالى ربِّي، وقد توكَّلتُ عليه من قبلُ، وسأظَلُّ أرجِعُ إليه هو مستقبلًا أيضًا.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

١١ ـ خَلَق اللهُ تعالى أزواجَكم من جنسِكم، حتى تسكُنوا إليهنَّ من جانبٍ، وتستمرَّ سلسلةُ أنسالِكم من جانبٍ آخَرَ، كما أنه تعالى خَلَق الحيَواناتِ أزواجًا أيضًا، وذلك لكي يستمرَّ نَسْلُها أيضًا لتلبيةِ احتياجاتِ الإنسان في الحياة. ويُعلَمُ منه أنّ زواجَ الإنسانِ في هذه الدُّنيا بمن ليس من جنسِه أمرٌ غيرُ جائز، إلّا أنّ أهلَ الإيمانِ سيتزوَّجونَ في الجنةِ من غيرِ جنسِهم، أي: من الحُورِ العِين.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾

١٢ ـ اللهُ تعالى مالكُ خزائنِ الأرضِ والسماء، وهو الذي يَبسُطُ وسائلَ الرِّزقِ لمن يشاء، ويُضيِّقُها على مَن يشاءُ أيضًا، ولهذا فإنّ سَعةَ الرزقِ وضِيقَه يَرجِعُ إلى إرادةِ الله سبحانه وتعالى ومشيئتِه، وهو الذي يَعرِفُ تمامًا الحِكمةَ الحقيقيّةَ من وراءِ ذلك، ولكنْ ليس معنى هذا أنّ مَن لدَيْهِ سَعةٌ في الرِّزقِ يعني أنّ اللهَ راضٍ عنه، وأنّ مَن لدَيْه ضِيقٌ في الرِّزق يعني أنّ اللهَ غاضبٌ عليه؛ لأنّ هناك كثيرًا من المنكرينَ كان لديهم وَفْرةٌ في الأرزاقِ مثلَ قارونَ وفِرعَون، وكثيرًا من الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلامُ والصّالحينَ لم يكنْ لديهم من ثَرواتِ الدنيا وأموالِها إلّا القليلُ، والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى يَرضَى عمَّن يُطيعُه، سواءٌ كان غنيًّا أم فقيرًا.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾

١٣ ـ الإسلامُ ليس دينًا جديدًا، وإنّما هو نفسُ الدِّين الذي دَعا إليه سيّدُنا نوحٌ وسيّدُنا إبراهيمُ وسيّدُنا موسى وسيّدُنا عيسى عليهمُ السَّلام، ولكنْ من الصَّعبِ جدًّا على مشركي مكةَ أن يترُكوا آلهةً متعدِّدةً ويؤمنوا بإلهٍ واحدٍ فقطْ، لكن الذين يَرجِعونَ إلى الله تعالى بنيّةٍ خالصة يختارُهم اللهُ تعالى لتوحيدِه، ويَجعَلُهم يسيرونَ على طريقِ الهداية.

دين الأنبياء جميعًا كان واحدًا

كانت دعوةُ الأنبياءِ جميعًا الأساسيّةُ مبنيّةً على التوحيد، ولكنْ معَ وجودِ بعضِ الاختلافاتِ في بعضِ الأحكام والأعمالِ بسببِ اختلافِ الظروفِ والعصور، مثلَما يتّضِحُ من الآيتيْنِ التاليتَيْنِ:

- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

١٤ ـ يقولُ أبو السُّعود: «بَلَغ قُريشًا قبلَ مبعَثِ رسولِ الله ﷺ أنّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رُسُلَهم فقالوا: لَعَن اللهُ اليهودَ والنّصارى، أَتَتْهم الرسُلُ فكذَّبوهم، فواللهِ لئنْ

أتانا رسولٌ لَنكونَنَّ أهدى من اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: فلمّا جاءهم محمدٌ ﷺ أشرَفُ المرسَلين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي: ما زادَهم مجيئُه إلّا تباعُدًا عن الهدى والحقِّ وهَرَبًا منه ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أي: نَفَروا منه بسببِ استكبارِهم عن اتِّباع الحقِّ، وعُتوِّهم وطُغيانِهم في الأرض»[1].

ويقولُ الإمامُ القُرطبيُّ: «إنّ قُريشًا كانوا يتمنَّوْنَ أن يُبعَثَ إليهم نبيٌّ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾[2]، فكما أنّ الأقوامَ السابقةَ قدِ اختَلفوا معَ أنبيائهم، وأظهَروا شكوكًا وشُبُهاتٍ كثيرةً حولَ الكتُبِ التي نَزَلت عليهم، بنفسِ الطريقة خالَفَت قُريشٌ النبيَّ ﷺ، وأثاروا الشُّبُهاتِ والشكوكَ حولَ القرآنِ المَجيد، ولم يكنِ السَّببُ وراءَ هذا الاختلافِ والافتراقِ هو الجهلَ أو سُوءَ الفَهْم، بل إنّهم كانوا يَعلَمونَ جيّدًا أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ صادقٌ وأمين، وليس في القرآنِ الكريم ما يُخالفُ العقلَ، ولكنّهم لم يؤمنوا بسيّدِنا محمدٍ ﷺ بسببِ التكبُّرِ والعِناد والحسدِ فقطْ، وقد قرَّر اللهُ تعالى مسبَقًا أنْ يؤخِّرَ حسابَ قُريشٍ ويُمهِلَهم حتى يَتُوبوا إليه، أو أن يُخرجَ من أصلابِهم من يَقبَلُ الإسلامَ، ولو لم يُقرِّرِ اللهُ تعالى هذا من قَبلُ لَابتلاهم فورًا بالعذابِ بسببِ تعصُّبِهم هذا.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

١٥ ـ في هذه الآيةِ عشْرُ جُمَلٍ، وكلُّ جُملةٍ لها موضوعٌ مستقِلٌّ بذاتِه، ورَغْم أنّ الخطابَ في هذه الآيةِ للنبيِّ ﷺ، لكنّ حُكمَها عامّ، يعني: أنّ على

---

(١) صفوة التفاسير، سورة فاطر (٣٥)، الآية ٤٢.

(٢) تفسير القرطبي، سورة البقرة (٢)، الآية ٨٩.

الأُمّةِ المسلمةِ أن تبذُلَ قُصارى جُهدِها في أن تُنفِّذَ هذه الأحكامَ اتِّباعًا لنبيِّهم الحبيبِ ﷺ، وإليك تعريفًا مختصرًا بهذه الجُمَلِ العَشْر:

١ ـ الدَّعوةُ إلى الدِّين

انقسَم أهلُ الكتابِ إلى فِرَقٍ عديدة، ودعوةُ القرآنِ الكريم ثقيلةٌ على المشركين، فكان ﷺ يدعوهم إلى الاتِّفاقِ والتوحيد، ويُخبِرُهم أنّ القرآنَ المجيدَ يدعو إلى الدِّين نفسِه الذي دعا إليه الأنبياءُ السابقونَ عليهمُ السّلام، والعالَمُ اليومَ أيضًا منقسِمٌ إلى فِرَقٍ عديدة، والفَرضُ علينا أن نواصلَ سلسلةَ الدَّعوةِ إلى الإسلام بالحِكمةِ والموعِظةِ الحسَنةِ والدَّلائلِ الدامغة، اتِّباعًا لسُنّةِ نبيِّنا الحَبيب ﷺ.

٢ ـ الاستقامةُ:

النبيُّ ﷺ ثابتٌ ومستقيمٌ على أحكام الدِّين الذي يدعو الناسَ إليه مثلَما أمَرَه اللهُ تعالى، وأمامَ أهميّةِ هذا الأمرِ من الله تعالى إليكَ هذا الحديثَ الشّريفَ فتأمَّلْه. قال النبيُّ ﷺ: «شيَّبَتْني هودٌ وأخَواتُها»، فقيل له: لم ذلك يا رسولَ الله؟ فقال: «لأنّ فيها ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾»[1].

لقد جَعَلتْ عظَمةُ هذه الآيةِ الكريمةِ وجَلالُها النبيَّ ﷺ في غايةِ الفِكْرِ والقلق، حتى ابيَضَّ شَعرُه المبارك؛ لأنه ليس منَ السّهلِ الاستقامةُ تمامَ الاستقامة طبقًا لحُكم الله تعالى، ولا يستطيعُ ذلك إلّا الأنبياءُ الكرامُ والصّالحونَ. على أيِّ حال، ينبغي للأمةِ كلِّها أن تَبذُلَ قُصارى جُهدِها كلٌّ حسَبَ طاقتِه من أَجْل الاستقامةِ والثّباتِ على أحكام اللهِ عزَّ وجل.

٣ ـ البراءةُ من المشركين:

لو أراد المشركونَ يا رسولَ الله ﷺ تحقيقَ ما يرغَبونَ بالتهديدِ أو بالترغيب،

---

(١) تفسير روح البيان.

فلا تبالِ بهم حَسَب السابق، ولا تتفاوَضْ أو تتنازَلْ عن شيءٍ يترتَّبُ عليه الإساءةُ إلى الإسلام، واليومَ أيضًا ينبغي للمسلمينَ الاحتفاظُ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ معَ غيرِ المسلمين، لكنْ على أن لا يقوموا بخُطوةٍ يترتَّبُ عليها الإساءةُ إلى الإسلام.

٤ ـ الإيمانُ بالكُتب السَّماوية:

يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قُلْ صراحةً: إنّني أومنُ بكلِّ الكتُبِ والصُّحفِ التي أَنْزلَها اللهُ تعالى، وبنفسِ الطريقة: من الفَرْض على كلِّ مسلم أيضًا أن يؤمنَ بكلِّ هذه الكتُبِ والصُّحفِ التي أَنْزلَها اللهُ تعالى.

٥ ـ الحُكمُ بالعدلِ والإنصاف:

لقد أُمِرتُ أن أعدِلَ بينَكم وأُنصِفَ، يعني: أعدِلُ بينَكم جميعًا دونَ تمييزٍ بينَكم، سواءٌ كنتُم فقراءَ أم أغنياءَ، وعربًا أم عَجَمًا، ومن أقاربي أم غيرِ أقاربي. وإليكَ في هذه الخصوص بعضَ الأمثلةِ من سيرةِ النبيِّ ﷺ التي هي بمثابةِ الأُسوةِ الحسَنةِ للناس جميعًا:

ـ عن عائشةَ ـ رضي الله عنها ـ أنّ قُريشًا أهمَّهم شأنُ المرأةِ المخزوميّةِ الّتي سَرَقت، فقالوا مَن يُكلِّمُ فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يَجترئُ عليه إلّا أسامةُ بنُ زيدٍ، حِبُّ رسول الله ﷺ؟ فكَلَّمه أُسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتشفَعُ في حدٍّ من حدودِ الله». ثمّ قام فاختَطَب، ثمّ قال: «إنّما أهلَكَ الّذين قبلَكم أنّهم كانوا إذا سَرَقَ فيهم الشّريفُ تَرَكوه، وإذا سَرَق فيهم الضَّعيفُ أقاموا عليه الحدَّ، وايْمُ الله، لو أنّ فاطمةَ ابنةَ محمّدٍ سَرَقتْ لَقطعتُ يدَها»[1].

ـعن أُسَيْد بن حُضَيرٍ ـ رجلٌ من الأنصار ـ قال: بينَما هو يحدِّثُ القومَ ـ وكان

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٦ برقم ٣٤٧٥.

فيه مزاحٌ ـ بَيْنا يُضحِكُهم، فطَعَنه النّبيُّ ﷺ في خاصرتِـه بعُودٍ، فقال: أَصْبِرْني. فقال: «اصْطَبِرْ». قال: إنّ عليكَ قميصًا وليس عليّ قميصٌ، فرَفَع النّبيُّ ﷺ عن قميصِه فاحتَضَنَه وجَعَل يُقبِّلُ كَشْحَه، قال: إنّما أردتُ هذا يا رسولَ الله[1].

ـ يقولُ المؤرِّخونَ: إنه في يوم بَدْرٍ كان في يدِ النبيِّ ﷺ سهمٌ، وكان يَنظِمُ صفوفَ المجاهدينَ بالإشارةِ بهذا السَّهم، ومرَّ النبيُّ ﷺ من أمام أحدِ الصُّفوفِ فرأى سَوَّادَ بنَ غُزَيّةَ يقفُ متقدِّمًا عن مكانِه في الصَّفِّ، فوخَزَه النبيُّ ﷺ بهذا السَّهم وخزةً خفيفةً قائلًا: «اسْتوِ يا سَوَّاد»، فقال: يا رسولَ الله، أوجَعْتَني وقد بَعَثَك اللهُ بالحقّ والعدلِ، قال: فأَقِدْني. فكشَفَ رسولُ الله ﷺ عن بطنِه، وقال: «استَقِدْ»، قال: فاعتَنَقَه فقَبَّلَ بطنَه: فقال: «ما حمَلَك على هذا يا سَوّادُ؟»، قال: يا رسولَ الله، حَضَر ما ترى، فأردتُ أن يكونَ آخِرَ العهدِ بك أن يمَسَّ جِلدي جِلدَك. فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير[2].

٦ـ اللهُ تعالى ربُّ الجميع:

اللهُ تعالى هو الذي خَلَقَ الناسَ جميعًا، مُسلمَهم وكافرَهم، وعربيَّهم وعجَميَّهم، وهو ربُّهم جميعًا، وهو وحدَه الذي يستحِقُّ العبادةَ، وليس هناك ربٌّ سواه، كما أنّ أحدًا غيرَه لا يستحِقُّ العبادةَ.

٧ ـ الثوابُ والعقابُ على الأعمال:

كلُّ إنسانٍ يتحمَّلُ مسئوليةَ أعمالِه، ولا يمكنُ في عدالةِ الله تعالى أن يُذنبَ أحدٌ ويعاقَبَ آخرُ على هذا الذَّنب، لهذا إنْ عَمِلنا الصالحاتِ سنَحظَى بالأَجْرِ العظيم عليها، وإنْ عمِلتُم السِّيئاتِ فستعاقَبونَ أنتم عليها.

---

(١) أبو داود، كتاب الأدب، برقم ٥٢٢٤.

(٢) السيرة النبوية، ابن هشام، ٢: ١٩٥.

٨ ـ الجِدالُ عن عنادٍ وتعنُّت:

إذا ظَلَلتُم على عنادِكم وتعنُّتِكم برَغْم وضوح الحقِّ، فلا حاجةَ إذًا لتضييع الوقتِ في هذا النقاشِ والجدال.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ثَعلبةَ الخُشَنيُّ: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ائْتَمِروا بالمعروف وتَناهَوا عن المنكَر، حتّى إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا ودُنيا مؤْثَرةً وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليك بخاصّةِ نفْسِك ودع العوامَّ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: بينما نحن عندَ رسولِ الله ﷺ نتذاكَرُ ما يكون، إذ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَمِعتُم بجبَلٍ زال عن مكانِه، فصَدِّقوا، وإذا سَمِعتُم برجُلٍ تغيَّر عن خُلُقِه، فلا تُصدِّقوا به، وإنّه يصيرُ إلى ما جُبِل عليه»[2]، وسنَدُ هذا الحديثِ صحيح.

٩ ـ يومُ القيامة:

المرادُ بالقيامة: أنه سيأتي يومٌ ـ بالضَّرورة ـ تفنَى فيه هذه الكائناتُ وكلُّ شيءٍ فيها، ولن يبقَى سوى اللهِ تعالى الأزليُّ الأبَديُّ، وهو الذي سيُحيي الموتَى من جديد، ثم ستُنصَبُ عدالةُ هذا القادرِ المطلَق، حيث سيُقدَّمُ فيها سِجِلٌّ كاملٌ لحياةِ كلِّ إنسان، وسيكونُ الحُكمُ بدخولِه الجنةَ أو النارَ طبقًا لأعمالِه، والإيمانُ بيوم القيامة من العقائدِ الأساسيّةِ في الإسلام، ولا يمكنُ أن يكونَ الإنسانُ مسلمًا كاملًا بغيرِ الإيمانِ به.

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المائدة (٥) برقم ٣٠٥٨.

(٢) مسند أحمد، ٦: ٤٤٣، ومجمع الزوائد، ٧: ١٩٦.

١٠ ـ العدالةُ الإلهيّة:

اليومَ يُمعنُ الطُّغاةُ في عنادِهم وتعنُّتِهم، ويُنكرونَ الآخِرةَ، ولكنْ حين يُبعَثونَ بعدَ موتِهم ويُجمَعونَ في ميدانِ الحَشْر، وتُنصَبُ عدالةُ اللهِ تعالى، فسيُسألونَ: هلِ الآخِرةُ حقٌّ؟ وسيقولونَ حالفينَ: إنه لا شكَّ في أنَّها حقٌّ، وكيف لهم أن يُنكروا حقيقةً تراها أعيُنُهم وتُطبَّقُ عليهم بشكلٍ عمَليّ، لكنّ الإقرارَ والاعترافَ في ذلك اليوم لا يفيدُ بشيءٍ؛ لأنّ وقتَ التوبةِ يكونُ قدِ انتهى.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تزولُ قَدَما ابنِ آدم يومَ القيامة من عندِ ربِّه حتّى يُسألَ عن خمسٍ:

١ ـ عن عُمُرِه فيما أفناه.

٢ ـ وعن شبابِه فيما أبلاه.

٣ ـ وعن مالِه من أين اكتَسَبه.

٤ ـ وفيما أنفَقَه.

٥ ـ وماذا عَمِل فيما عَلِم»[١].

كيفية المثول في العدالة الإلهية

«ذاتَ مرّة جاء سُليمانُ بنُ عبدِ المَلِك إلى المدينةِ المنوَّرة، وسَأل سيّدَنا أبو حازم رحمةُ الله عليه: كيف سيكونُ مشهَدُ المثولِ في المحكمةِ الإلهيَّة يومَ القيامة؟ فأجابَه أبو حازم قائلًا: سيكونُ حالُ الرجُلِ الصالح كرجُلٍ خَرَج في سَفَر طويلٍ

(١) الترمذي، أبواب القيامة، باب ١ برقم ٢٤١٦.

بغَرَضِ التجارة، وبعدَ فترةٍ عاد إلى بيتِه بعدَ أن حقَّق ربحًا وَفيرًا، فسَعد به أهلُ بيتِه كثيرًا، وسَعِد هو بأهلِ بيتِه أيضًا، يعني: أنّ كلَيْهما سعيدٌ بلقاءِ كلٍّ منهما الآخَرَ وبالتّجارةِ الرّابحة، وهكذا يومُ القيامة يَفرَحُ العبدُ عندما يَرى رحمةَ الله تعالى، ويَفرَحُ اللهُ تعالى بحسَناتِ عبدِه، مِثلُ هذا الرجُلِ سعيدِ الطالع سيتمتَّعُ بنِعمَ الجنّة، أمّا الرجلُ الطّالحُ فسيكونُ حالُه كغلام سَرَقَ مالَ سيِّدِه وهَرَب، وأرسَلَ سيّدُه من يَقبِضونَ عليه، وبالفعلِ يَقبِضونَ على الغُلام اللِّصِّ ويعودونَ به، وعندَئذٍ يندَمُ الغلامُ على حَماقتِه، ويغضَبُ سيّدُه على خيانتِه، وهكذا يومَ القيامة يكونُ حالُ الرجلِ الطالح، نادمًا على حماقاتِه، ويكونُ اللهُ تعالى غاضبًا من جحودِه، وسيُلقَى بهذا الأحمقِ في عذابِ جهنَّم. وبينَما كان أبو حازم رحمةُ الله عليه يُواصلُ حديثَه إذْ بسُليمانَ بن عبدِ المَلِكِ ينفجرُ باكيًا ويقول: ما أحسَنَ أن أعرِفَ حالي، في أيِّ صورةٍ من هاتَيْنِ الصُّورتَيْنِ سأمْثُلُ أمامَ الله تعالى! فقال أبو حازم: ما أيسَرَ أن تعرِفَ هذا، فقد قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، فيمكنُك أن تُحلِّلَ أعمالَك بنفسِك لتَعرِفَ إن كنتَ من الصّالحينَ أم من الطّالحين؟ فقال سُليمان: لو أنّ المصيرَ متوقِّفٌ على الأعمالِ فلماذا رحمةُ الله إذًا؟ فرَدَّ عليه أبو حازم قائلًا: اطلُبْ إجابةَ هذا السؤالِ أيضًا من القرآنِ الكريم، إذ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، يعني: لكي تَجعَلَ من نفسِك مستحِقًّا لرحمةِ الله تعالى فإنّك في حاجةٍ إلى الأعمالِ الصّالحة وصُحبةِ الصالحين»[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

١٦ ـ الذين تَدبَّروا في القرآنِ الكريم من أهلِ مكّةَ آمَنوا بصِدقِ الإسلام،

---

(١) حلية الأولياء، ٣: ٢٧١. و ضيائے حرم

لكنّ الذين ظَلُّوا يُحاجُّونَ ضدَّ الإسلام بسببِ تعصُّبهم لا أكثرَ، فإنّ حُجَجَهم عندَ الله باطلةٌ، وقدِ استَحقُّوا العذابَ الشّديدَ من اللهِ تعالى بسببِ تعصُّبِهم.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾

١٧ ـ أَنْزل اللهُ تعالى الحِكمةَ والشّريعةَ معَ القرآنِ المَجيد، وهي التي جاء فيها بيانٌ مفصَّلٌ وقاطعٌ وبشكلٍ دقيقٍ للعقائدِ والأعمالِ والحقوقِ والفرائضِ والعدلِ والمساواة، بحيثُ لا تكونُ هناك أيُّ حاجةٍ إلى زيادةٍ فيها أو نُقصان، ولهذا على الإنسانِ العاقل أن يُسرعَ إلى العمل بهذا الدِّين قبلَ مجيءِ يوم القيامة، لأنه بعدَ قيام الساعةِ لن يُمهَلَ أحدٌ لكي يتوبَ أو يعمَلَ صالحًا، ومَن يدري؟ لعلّ الساعةَ قدِ اقتربَتْ كثيرًا، وحتى لو كان يومُ القيامة لا يزالُ بعيدًا، فإنّ قيامةَ كلٍّ منكم، أي: موتَه، يمكنُ أن تقومَ في أيِّ وقتٍ، ولهذا أصْلِحوا أنفُسَكم قبلَ موتِكم.

﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾

١٨ ـ الذين لا يؤمنونَ بيوم القيامةِ لا يخافونَه، ولهذا يقولونَ على سَبيل السُّخْرية: لو أنّ القيامةَ ستأتي فعلًا، فلمَ لا تأتي سريعًا؟وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ لأمثالِ هؤلاءِ بأنّ إنكارَ يوم القيامةِ ضلالٌ كبير؛ لأنّ القيامةَ حقٌّ، وستأتي لا مَحالةَ، ولهذا فإنّ أهلَ الإيمانِ يحذّرونَ من أهوالِها.

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾

١٩ ـ اللهُ تعالى قويٌّ تمامَ القوة، وغالبٌ على الجميع، ولو شاء لَعاقَبَ مُنكري القيامةِ فورًا، لكنّه رحيمٌ بعبادِه، يُمهِلُهم ليتوبوا، ويهيِّئُ لهم أرزاقَهم أيضًا.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾

٢٠ ـ الشّخصُ الذي يريدُ الحسَناتِ لآخِرتِه يوفِّقُه الله تعالى إلى مزيدٍ من الحسَنات، ويزيدُ في الآخِرة ثوابُ كلِّ حسنةٍ من عشَرةِ أضعافٍ إلى أضعافٍ كثيرة لا حصرَ لها، أمّا الشخصُ الذي يكونُ طالبًا لهذه الدُّنيا فقطْ، ويَنسَى الآخرةَ، فإنه يَحُوزُ بعضًا من الدنيا، لكنّه لن يَحُوزَ في الآخِرة سوى جهنَّمَ؛ لأنه لم يعمَلْ للآخِرةِ شيئًا.

دار الجزاء

حياتُنا تشتملُ على جُزأَين، أحدُهما: دُنيَويٌّ، والآخَرُ: أُخْرَويٌّ. فالحياةُ

الدنيا هي دارُ العمَل، وهي التي نعمَلُ فيها، بينَما الحياةُ الآخِرةُ هي دارُ الحسابِ والجزاء، وهي التي نُحاسَبُ فيها على أعمالِنا، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «الدُّنيا مزرعةُ الآخِرة»[1]، يعني: أنّ مِثلَ هذه الحياةِ الدُّنيويّة كمزرعةٍ يتوقَّفُ زراعتُها علينا نحن، وبالتالي فنحن الذين نختارُ أيَّ محصولٍ نَزرَعُ. على أيِّ حال، النتيجةُ واضحةٌ، فلئنْ زَرعْنا أعمالًا حسَنةً فستكونُ ثمارُها غدًا يومَ القيامة ثمارًا طيِّبةً، وإنْ زَرعْنا أعمالًا سيِّئةً فستُزعِجُنا ثمارُها المريرةُ غدًا أيضًا، وقد قال النبيُّ ﷺ: «نِعْمَتِ الدّارُ الدّنيا لمن تَزوَّد منها لآخِرتِه»[2].

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

٢١ ـ الشِّركُ والضّلالُ الذي ابتُلي به كفّارُ مكّةَ غيرُ مسموح به في دينِ الله تعالى، ولم يكنْ له مجالٌ في تعاليم سيّدِنا إبراهيمَ وسيّدِنا إسماعيلَ عليهما السَّلام، وإنّما كان ذلك نتيجةً لتقليدِ كفّارِ مكّةَ الأعمى لآبائهم وأجدادِهم والخضوع لترغيبِ الشّياطينِ لهم، وكان هذا طُغيانًا كبيرًا منهم، بحيث لو أنّ اللهَ تعالى لم يكنْ قد قرَّر بالفعلِ مسبَقًا أن يكونَ العذابُ الأليم لهؤلاءِ في الآخِرة، لأهلَكَهم ودمَّرهم فورًا في هذه الدنيا.

﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

٢٢ ـ الظالمونَ والمشركونَ اليومَ يُنكرونَ يومَ القيامة، بل ويَسْخَرونَ من

---

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق.

عذابِها، ولكنْ عندَما يشاهِدونَ بأنفُسِهم حقيقةَ الأمرِ يومَ القيامة سيَعتريهم الخوفُ الشّديدُ من عقابِهم على طُغيانِهم، ولكنْ لن يكونَ لهذا الخوفِ إذْ ذاك فائدةٌ؛ لأنّ القيامةَ دارُ الحساب، حيث يُعاقَبونَ فيه على أفعالِهم القبيحةِ على أيِّ حال، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من هذا العقاب، أمّا المؤمنونَ الصّالحونَ فسوف يتفضَّلُ اللهُ تعالى عليهم بالفَضْلِ العظيم، وسيكونونَ سُعداءَ في الجنّة، وسوف يُنعِمُ اللهُ عليهم فيها بكلِّ ما يريدونَ، حتى أنه سيُنعِمُ على أهلِ الجنّةِ برؤيتِه تعالى، وهذا هو الفلاحُ العظيمُ والبُشْرى الحقيقيّةُ لأهلِ الجنة.

أحَبُّ شيءٍ إلى قلوبِ أهل الجنّة في الجنةِ هو رؤيةُ الله تعالى، مثلَما يقولُ سيّدُنا صُهَيْبٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ ـ قال: يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تريدونَ شيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنَّة وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيُكشَفُ الحجابُ، فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النَّظَرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلّ»[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

٢٣ ـ حين دَعَا النبيُّ ﷺ أهلَ مكّةَ إلى الإسلام خالَفوهُ وعادَوْه، فكانوا يؤْذُونَ النبيَّ ﷺ، ومن يَقبَلُ الإسلامَ منهم يتعدَّوْنَ عليه ويظلِمونَه، إلى درجةِ أنّ الأمرَ كان يَصِلُ إلى حدِّ القتلِ والنَّهب، وبرَغْم إيذاءِ أهل مكةَ للنبيِّ ﷺ إلّا أنه ظلَّ ثابتًا على دعوتِه، فاعتَقَد المشركونَ أنّ النبيَّ ﷺ قد بدأَ هذه الدعوةَ بغَرَضِ تحقيقِ مصالحَ ماليّة، ورَدًّا على هذا قال لهمُ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: إنّ الإسلامَ الذي

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم ٤٤٩.

أدعوكم إليه ليس وراءَه دافعُ المصلحةِ الماليّةِ أو الطَّمعُ في السُّلطة، وإنّما المقصودُ منه خيرُكم وهدايتُكم، وأنا لا أطلبُ عليه أجرًا منكم، ولكنّي أريدُ أن أُعرِّفَكم بحقِّ القرابةِ بأنْ تتعاملوا معي وفيما بينَكم بالحبِّ والمَودّة؛ لأنّنا جميعًا أقاربُ، ولئن لم تَقبَلوا الإسلامَ فلا تعتَدُوا على مَن يُسلمُ منّا، فنحن - في النِّهاية - أقاربُ على كلِّ حال، وإن كنتُم ترَوْنَ أنّ مِن حقِّكم الدَّعوةَ إلى الشِّرك، فينبغي أن يكونَ لنا نحن أيضًا الحقُّ في الدعوةِ إلى التوحيد، ولم تكنْ مطالبةُ النبيِّ ﷺ هذه من أَجْل نفسِه، وإنما كانت لرِضا الله تعالى ولهدايةِ أهلِ مكةَ أنفُسِهم.

هذا، وقد جاء هذا المفهومُ في سُورة الفُرقانِ بشكلٍ أكثرَ وضوحًا، حيث قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]، يعني: لستُ أطلبُ منكم مالًا، ولكنْ من شاء منكم اختارَ طريقَ هدايةِ ربِّه، وحقَّق الفوزَ والنجاحَ لنفسِه، وهذا أجرٌ يكفيني، وقد جاء ذِكرُ مهمةِ دعوةِ الأنبياء السابقينَ عليهمُ السَّلامُ في الآياتِ: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ من سُورة الشعراءِ بنفسِ الطريقة، مثلَما ذَكَر اللهُ تعالى هذا القولَ لسيّدِنا نُوح عليه السَّلام: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، يعني: لستُ في حاجةٍ إلى المالِ والثّروةِ الدُّنيويّة، وإنّما أنا طالبُ الثوابِ والأَجْر الأُخرَويِّ.

يتصوَّرُ بعضُ الناسِ أنّ النبيَّ ﷺ طلَبَ من محبةَ قَرابتِه أجرًا، يعني: محبةَ سيِّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه ومحبّةَ السيّدةِ فاطمةَ الزَّهراءِ رضي اللهُ عنها ومحبّةَ سيِّدِنا الحَسَن وسيّدِنا الحُسَين رضي اللهُ عنهما، وهذا لا يليقُ بشأنِ النبيِّ ﷺ، فإذا لم يطلُبِ الأنبياءُ السابقونَ من أقوامِهم أجرًا، فكيف يطالبُ سيّدُ الأنبياءِ والمرسَلينَ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ بمحبةِ أولادِه أجرًا على دعوتِه إلى الإسلام؟ كما أنّ هذه السُّورةَ

نَزَلت في مكّةَ، ولم يكنْ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه قد تزوَّج بالسيّدةِ فاطمةَ رضيَ اللهُ عنها حتى ذلك الوقتِ، فكيف يمكنُ أن يأتيَ ذِكرُ سيّدِنا الحَسَن والحُسَين رضي اللهُ عنهما إذًا؟ ثم إنّ هذا الخطابَ للكفّارِ الذين لم يكونوا يريدونَ رؤيةَ النبيِّ ﷺ أصلًا، فكيف يمكنُ أن يُحبَّ هؤلاءِ أولادَ النبيِّ ﷺ؟ ولكنّ هذا لا يعني مطلقًا أنّ محبةَ أهلِ البيت لا أهميّةَ لها، فالحقيقةُ أنّ آلَ بيتِ النبيِّ ﷺ الأطهارَ هم أرفَعُ بني الإنسانِ شرفًا باعتبارِ الحسَبِ والنَّسَب، ومحبَّتُهم وتعظيمُهم جزءٌ من إيمانِ كلِّ مسلم، فيُصلِّي ويُسلِّمُ عليهم في كلِّ صلاة، ويدعو لهم بالبركة.

يقولُ شيخُ طريقتي سيّدُنا ضياءُ الأُمةِ رحمةُ الله عليه، في تفسيرِ هذه الآية: إنّ محبَّةَ آلِ البيتِ الأطهارِ هي إيمانُنا بلا شكٍّ، وهذه المحبّةُ ليست أجرًا للنبيِّ ﷺ على رسالتِه ودعوتِه، وإنّما هي ثمرةُ شجرةِ الإيمان، وعَبَقُ تلك الوردة، وبَريقُ تلك الشمس، وحيثُما يكونُ الإيمانُ تكونُ محبّةُ آلِ بيتِ المصطفى ﷺ يقينًا[1].

فضائل آل النبي ﷺ الأطهار وآل البيت

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنهما: رأيتُ رسولَ الله ﷺ في حَجّتِه يومَ عَرَفةَ وهو على ناقتِه القَصْواءِ يخطُبُ، فسَمِعتُه يقول: «يا أيُّها النّاس، إنّي قد تركتُ فيكم ما إنْ أخَذتُم به لن تَضِلّوا: كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بنُ الأرقم: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسَّكتُم به لن تَضِلّوا بعدي، أحدُهما أعظمُ من الآخَر: كتابُ الله، حبلٌ ممدودٌ من السّماءِ إلى الأرض، وعترتي أهلُ بيتي، ولن يَتفرَّقا حتّى يَرِدا عليَّ الحوضَ، فانظُروا كيف تَخلُفوني فيهما»[3].

---

(١) تفسير ضياء القرآن.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣١ برقم ٣٧٨٦.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣١ برقم ٣٧٨٨.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَثَلُ أهلِ بيتي مَثَلُ سفينةِ نوحٍ، من رَكِب فيها نَجا، ومن تخَلّف عنها غَرِق»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا الحُسَينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الإسلامُ عُريانٌ، فلباسُه الحياءُ، وزِينتُه الوفاء، ومروءتُه العمَلُ الصّالح، وعِمادُه الوَرَعُ؛ ولكلِّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الإسلام حُبُّ أصحابِ رسولِ الله صلّى الله عليه وآلِه وسلّم وحبُّ أهلِ بيتِه»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَحِبّوا اللهَ لِما يَغْذُوكم من نِعَمِه، وأَحِبُّوني بحبِّ الله، وأحِبُّوا أهلَ بيتي لحُبّي»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا زيدُ بنُ الأرقم رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن كنتُ مَوْلاه فعليٌّ مَوْلاه»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا أُسامةُ بن زَيْد رضي الله عنهما: طَرَقتُ النّبيَّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ في بعضِ الحاجة، فخَرَج النّبيُّ ﷺ وهو مشتمِلٌ على شيءٍ لا أدري ما هو، فلمّا فَرَغتُ من حاجتي قلتُ: ما هذا الّذي أنتَ مشتمِلٌ عليه؟ قال: فكشَفَه، فإذا حَسَنٌ وحُسَينٌ عليهما السّلامُ على وِرْكَيْه، فقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللّهُمَّ إنّي أُحبُّهما فأَحِبَّهما وأَحِبَّ مَن يُحِبُّهما»(٥).

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

٢٤ ـ اللهُ تعالى خيرُ الشاكرينَ والمقدِّرين، فالذي يعمَلُ حسنةً يرضَى اللهُ عنه،

---

(١) المعجم الكبير، ٢: ١٧٩ برقم ٢٥٧٠.
(٢) كنز العمال، ١١: ٥٣٩ برقم ٣٢٥٢٣.
(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣١ برقم ٣٧٨٩.
(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١٩ برقم ٣٧١٣.
(٥) الترمذي،أبواب المناقب، باب ٣٠ برقم ٣٧٦٩.

ويزيدُ في حُسنِها، يعني: لو وَقَع منه تقصيرٌ في عَمَل الحسَنة فإنه يعفو عن هذا التقصير، كما أنه يزيدُ ثوابُه وأجرُه في الآخِرة أيضًا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

٢٥ ـ كان مشركو مكّةَ يقولونَ: إنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ هو الذي يؤلِّفُ القرآنَ من عندِه، ثم يَنسُبُه إلى اللهِ تعالى، ولهذا افتَرى على اللهِ كذبًا والعياذُ بالله، وفي هذه الآية إبطالٌ لادِّعاءِ المشركينَ هذا بأنّ القرآنَ المجيدَ كلامُ الله تعالى، ولا يستطيعُ إنسانٌ الإتيانَ بمِثل هذا الكلام، وهذا دليلٌ بيِّنٌ على أنّ سيّدَنا محمّدًا ﷺ نبيٌّ حقًا؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يُجري كلامَه على لسانِ كاذب، وبفَرْضِ المستحيل لو أنّ النبيَّ ﷺ لم يكنْ نبيًا حقًّا لَطَبعَ اللهُ تعالى على قلبِه، ولَمَا أَجْرى كلامَ الحقِّ على لسانِه؛ لأنّ شأنَ اللهِ تعالى أنه يُثبِتُ الحقَّ بالدَّلائل القاطعة، ويُجبرُ الباطلَ في النِّهايةِ على الفرار، وهذا هو ما حَدَث فعلًا، إذْ رَفرفَتْ رايةُ الحقِّ على شبهِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها بعدَ عدّةِ سنواتٍ، واختفى الباطلُ وغاب.

اللهُ تعالى يَعلَمُ عِلمَ اليقينِ أحوالَ القلوب، ويختارُ للنُّبوة مَن لدَيْه الأهليّةُ الكاملةُ للقيام بمسئوليّاتِها، وخاصّةً فيما يتَعلَّقُ بالنبيِّ ﷺ لا يجبُ أن يكونَ لدى المشركينَ أدنَى شكٍّ، لأنّهم كانوا ينادُونَه بالصّادقِ الأمين، ومعَ ذلك إنْ كان لديهِم شكٌّ في أنّ القرآنَ المجيدَ ليس كلامَ الله تعالى فلْيأَتوا بكلام مِثلِه، أو لِيخضَعوا له ويُسلِّموا به.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

٢٦ ـ اللهُ تعالى رحيمٌ بعبادِه غايةَ الرَّحمة، فالذين يتوبونَ إليه بنيّةٍ خالصةٍ يَقبَلُ اللهُ تعالى توبتَهم، ويَعْفو عن أخطائهم رَغْم معرفتِه بكلِّ شيء.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «للهُ أشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِه المؤمن من رجُلٍ في أرضٍ دَوِيّةٍ مُهلِكةٍ معَه راحلتُه عليها طعامُه وشرابُه، فنام فاستَيْقظَ وقد ذهبتْ، فطَلَبها حتّى أدرَكَه العطشُ، ثمّ قال: أرجِعُ إلى مكاني الّذي كنتُ فيه فأنامُ حتّى أموتَ. فوَضَع رأسَه على ساعدِه ليموتَ، فاستَيْقظَ وعندَه راحلتُه وعليها زادُه وطعامُه وشرابُه، فاللهُ أشَدُّ فرحًا بتوبةِ العبدِ المؤمنِ من هذا براحلتِه وزادِه»[1]، ولمزيدٍ من التفصيل عن التوبةِ راجعْ تفسيرَ الآية رقم ١٧ من سُورة النِّساء (٤).

﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾

٢٧ ـ اللهُ تعالى يَقبَلُ دعاءَ المؤمنينَ وأعمالَهم الصّالحةَ، ويزيدُ من فَضْلِه وكرَمِه في أَجْرِهم وثوابِهم، لكنّ الذين يُنكِرونَ اللهَ تعالى، ويَقْضُونَ حياتَهم كلَّها في عصيانِه، يكونُ من الطبيعيِّ أن يُواجِهَ هؤلاءِ العقابَ على طُغيانِهم وتعنُّتِهم، ولمزيدٍ من التفصيل عن الدّعاءِ راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٦٠ من سُورة غافر (٤٠).

﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾

٢٨ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم أحوالَ عبادِه، ولو أعطَى كلَّ العبادِ المالَ الكثيرَ والثَّروةَ الوفيرةَ لتكبَّرَ الناسُ وأصابَهم الغُرورُ، ولَما اهتمَّ أحدٌ بغيرِ نفسِه، وإنّما كان كلٌّ منهم سيحاولُ قدرَ جُهدِه أن يتغلَّبَ على الآخَر، وبذا ينشُر القتلَ والنَّهبَ والسَّلبَ في الأرضِ، ولهذا فإنّ اللهَ تعالى قد أعطَى لكلِّ واحدٍ رزقًا مختلفًا عن الآخَرِ لحِكمةٍ عندَه.

---

(١) مسلم، كتاب التوبة، باب ١ برقم ٦٩٥٥.

يقولُ قَتادةُ في تفسيرِ هذه الآية: «كان يقالُ: خيرُ العيش ما لا يُلهيك ولا يُطغِيك»(١).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

٢٩ ـ مِن آياتِ رحمةِ الله تعالى أيضًا أنه في أيام القَحْطِ عندَما يتطايَرُ الترابُ من الأرضِ بَدلًا من أن يَنبُتَ فيها الزَّرعُ، ويطغَى اليأسُ على الناسِ بسببِ محدوديَّةِ وسائلِ الرِّزق، عندَئذٍ يُرسلُ اللهُ تعالى أمطارَ الرحمةِ من عندِه، فتَنبُتُ الزُّروع وتَعُمُّ اليُنوعةُ الحقولَ، ويشعُر الناسُ ـ عندَها ـ بسعادةٍ كبيرة، وهناكَ حِكمةٌ في نزولِ الغَيْث (أمطارِ الرحمة) بعدَ الجَفاف، وسَعةِ العيش بعدَ ضِيقِه، وهي أنّ الناسَ يشعُرونَ بنِعَم الله عليهم، بأنه تعالى هو الوليُّ الحقيقيُّ والمدبِّرُ الأَصْلي، وهو المستحِقُّ لكلِّ حمدٍ وثناء.

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾

٣٠ ـ من آياتِ قُدرةِ الله تعالى أيضًا أنه خَلَق أرضًا واسعةً عريضةً وسماءً لا حدَّ لوُسعتِها، ثم خَلَق منَ الملائكةِ والبشَرِ والأنعام والجنِّ وغيرِهم ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وجَعَل الملائكةَ في السّماء، بينَما جَعَل الأحياءَ الأُخرى في الأرض، ثم سيأتي يومٌ يجمَعُ اللهُ تعالى فيه كلَّ هؤلاءِ الأحياءِ المنتشِرينَ في ميدانِ الحشر، وهذا ليس بالأمرِ العسير على اللهِ تعالى، لأنه كما أنه قادرٌ على أن ينشُرَ مخلوقاتِه، قادرٌ أيضًا على جَمْعِهم.

---

(١) تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري.

وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾

٣١ ـ المصائبُ التي تَحِلُّ عليكم هي عقابٌ لكم على أفعالِكمُ القبيحة، معَ أنّ الله تعالى يعفو عن كثيرٍ من ذنوبِكم، ولو يؤاخِذُكم فورًا على كلِّ ذنبٍ ترتكبونَه لَما بقيَ منكم أحدٌ على الأرض.

يقولُ الإمامُ البَيْضاويُّ: «والآيةُ مخصوصةٌ بالمجرِمين، فإنّ ما أصابَ غيرَهم فلأسبابٍ أُخَرَ، منها تعريضُه للأجرِ العظيم بالصّبرِ عليه»[1].

ويَنقُلُ الإمامُ الخازنُ في تفسيرِ هذه الآية قولَ سيّدِنا عِكرِمةَ: «ما من نَكْبةٍ أصابت عبدًا فما فوقَها إلّا بذنبٍ لم يكنِ اللهُ لِيغفرَ له إلّا بها أو درجةٍ لم يكنِ اللهُ

---

(١) تفسير البيضاوي.

ليرفَعه لها إلّا بها»[١]، يعني: تُرفَعُ درجاتُ الصّالحينَ مقابلَ هذه المصيبة، وتُغفَرُ ذنوبُ المذنِبينَ بها.

مصائب أهل الإيمان

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما يصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ ولا حُزنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتّى الشَّوكةُ يُشاكُها، إلّا كفَّر اللهُ بها من خطاياه»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُصِبْ منه»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الدّنيا سِجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر»[٤].

ـ قال إبراهيمُ بن مَهْديٍّ السُّلَميُّ ـ عن أبيه، عن جَدِّه، وكانت له صحبةٌ من رسول الله ﷺ، قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنّ العبدَ إذا سَبَقت له من اللهِ منزلةٌ لم يَبلُغْها بعمَلِه ابتلاهُ اللهُ في جسَدِه أو في مالِه أو في وَلَدِه»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله رضي الله عنه: أتَيتُ النّبيَّ ﷺ في مرضِه وهو يوعَكُ وَعْكًا شديدًا، وقلت: إنّك لَتوعَكُ وعكًا شديدًا. قلتُ: إنّ ذاك بأنّ لك أجرَيْنِ.

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤١.

(٣) البخاري، كتاب المرضى، باب ١ برقم ٥٦٤٥.

(٤) مسلم، كتاب الزهد، باب ٥٣ برقم ٧٤١٧.

(٥) أبو داود، كتاب الجنائز، باب ٢٠ برقم ٣٠٩٠.

قال: «أَجَل، ما من مسلمٍ يصيبُه أذًى، إلّا حاتَّ اللهُ عنه خطاياه، كما تَحَاتُّ ورقُ الشّجر»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: ألا أُخبِرُكم بأفضلِ آيةٍ في كتابِ الله تعالى حدّثنا بها رسولُ الله ﷺ؟ «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وسأُفسّرُها لك يا عليّ: ما أصابَكم من مرضٍ، أو عقوبةٍ، أو بلاءٍ في الدّنيا، فبِما كَسَبتْ أيديكم، واللهُ تعالى أكرَمُ من أن يُثنِّيَ عليهم العقوبةَ في الآخِرة، وما عَفَا اللهُ تعالى عنه في الدّنيا، فاللهُ تعالى أحلَمُ من أن يعودَ بعدَ عفْوِه»(٢).

وهذه الآيةُ عندَ سيّدِنا عليٍّ رضي الله عنه أفضَلُ آيةٍ؛ لأنّ الذنوبَ التي يعفُو اللهُ عنها في هذه الدنيا بسببِ تكليفٍ أو ألمٍ يصيبُ المذنبَ لا يُعاقَبُ عليها في الآخِرةِ ثانية.

مصائب الأطفال والمجانين

المصائبُ التي تَحِلُّ بالأطفالِ والمجانين تكونُ سببًا في الأَجْرِ والثوابِ لوالديهم بشَرْطِ أن يَصبِرِ الوالدانِ، حتى أنه إذا مات طفلٌ صغيرٌ وصَبَر والداه أعدَّ اللهُ تعالى لهما قصرًا في الجنة.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى الأشعريُّ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا مات ولدُ العبدِ قال اللهُ لملائكتِه: قَبَضْتُم ولَدَ عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: قَبضتُم ثمرةَ فؤادِه؟ فيقولون: نعم. فيقولُ: ماذا قال عبدي؟ فيقولونَ: حَمِدك واستَرجَعَ. فيقولُ اللهُ: ابْنُوا لعَبْدي بيتًا في الجنّة وسَمُّوه بيتَ الحَمْد»(٣).

---

(١) البخاري، كتاب المرضى، باب ٢ برقم ٥٦٤٧.

(٢) مسند أحمد، ١: ٨٥.

(٣) الترمذي، أبواب الجنائز، باب ٣٦ برقم ١٠٢١.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

٣٢ ـ اللهُ تعالى قادرٌ مطلَقٌ، عندَما يُعاقِبُ المجرمينَ لا يستطيعونَ الإفلاتَ من قَبْضتِه تعالى، كما أنه لا يوجَدُ مُعينٌ لهم ولا وَليٌّ يمكنُه أن يُفلِتَهم من قَبْضتِه تعالى.

﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾

٣٣ ـ السفنُ الشِّراعيّةُ آيةٌ من آياتِ قدرةِ الله وحِكمتِه، وهي تسيرُ في البحرِ كأنها الجبالُ والقصُورُ، وتنقُلُكم أنتم وأمتعتَكم وبضائعَكم من مكانٍ إلى آخرَ، لكنْ لو أراد اللهُ تعالى وأوقفَ الرِّيحَ عن الجَرْيِ، فإنّ هذه السُّفنَ ستتوقَّفُ على سطح البحر، وإنْ شاء أرسَلَ عليها ريحًا عاصفًا تُغرِقُ السَّفينةَ ومَن يركَبونَها بسببِ أفعالِهمُ القبيحة، لكنّ اللهَ تعالى يعفو عن ذنوبٍ كثيرة، والذين يتفكَّرونَ في كلِّ هذه الآياتِ هم الذين يشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، ويصبِرونَ على البلاء.

اليومَ بدلًا من السُّفنِ الشِّراعيّة القديمة، تسيرُ في البحارِ السُّفنُ ذاتُ المحرِّكات، فتبدو وكأنّ مدينةً كاملةً تسيرُ، لكنْ حين يُرسِلُ اللهُ تعالى الطُّوفانَ فإنّ هذه السُّفنَ الكبيرةَ تواجِهُ صعوباتٍ جَمّةً.

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ﴾

٣٤ ـ الذين يجادلونَ في آياتِ الله تعالى ولا يؤمنونَ بها برَغْم هذه الآياتِ الواضحة، عليهم أن يَعلَموا أنه حينَ يأتي العذابُ من اللهِ تعالى لن يَجِدوا عندَئذٍ سبيلًا إلى الفرار.

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

٣٥ ـ في هذه الآيةِ أوضَحَ اللهُ تعالى الفَرْقَ بينَ أجرِ وثوابِ الآخِرة ومالِ ومتاع الدنيا، يعني: أنّ ما لدَيْكمُ اليومَ إنّما هو مالُ الدنيا ومتاعُها وزينتُها، ومنَ الممكنِ أن

يَحدُثَ زِلزالٌ في ليلتِكم هذه، فيدمِّرَ كلَّ مالِكم ومتاعِكم هذا، وتبقَوْا أنتم لمجرَّدِ التّسوُّل، كما أنّ من الممكنِ أيضًا أن يقعَ موتُكم في ليلتِكم هذه، وبالتالي تؤولُ أموالُكم وأمتعتُكم إلى آخَرينَ غيرِكم، وإن بَقِيتُم على قَيْدِ الحياة، وبَقِيت أموالُكم وأمتعتُكم في أيديكم، فإنّكم ستموتونَ حتمًا في يومٍ من الأيام؛ لأنّ وجودَ هذه الكائناتِ وكلِّ شيءٍ فيها مؤقَّتٌ وعارضٌ، وسيفنَى كلُّه في يوم من الأيام، لكنّ النِّعَمَ التي أعَدَّها اللهُ تعالى لأهلِ الإيمان في الآخِرة، أفضَلُ بمراحلَ من مالِ الدُّنيا ومتاعِها، والأهمُّ من هذا أنّها دائمةٌ خالدة، وستبقَى دائمًا معَ أهل الإيمان، فلا زِلزالَ في الجنة، ولا يموتُ أحدٌ فيها، ألا تُدرِكونَ الفرقَ بينَ زينةِ الدنيا المؤقَّتةِ العارِضة ونِعَم الجنّةِ الدائمةِ الخالدة؟

- رُويَ عن أسدِ الله تعالى سيّدِنا عليٍّ رضي الله عنه أنه «تصَدَّق أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه بمالِه كلِّه، فلامَه جَمْعٌ، فنَزَلت هذه الآيةُ»[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾

٣٦ - جاء في هذه الآياتِ بيانٌ لصفاتِ أهلِ الإيمانِ الذين أعَدَّ اللهُ تعالى لهم في الآخِرة أفضَلَ النِّعَم وأدوَمَها، منها مثلًا: أنهم يتوكَّلونَ على ربِّهم، ويجتنبونَ كبائرَ الذُّنوبِ والفواحش، وحين يغضَبونَ يَعْفُونَ. وإليك بعضَ التفصيلِ عن الصِّفات المذكورة:

التوكل على الله

التوكُّلُ على اللهِ تعالى جزءٌ من الإيمان، بمعنى: أن يكونَ هناك يقينٌ راسخٌ على أنّ أمرَ اللهِ نافذٌ وقاطع، وأنّ النَّجاحَ والفشَلَ في يدِ الله تعالى، ووراءَ كلِّ

(١) التفسير المظهري وتفسير القرطبي.

منهما حِكمةٌ للهِ تعالى، وأنّ الاعتمادَ على الأسبابِ الماديّةِ بشكلٍ كاملٍ باعتبارِ أنّ هذا هو كلُّ شيءٍ للحصولِ على الهدفِ يُعَدُّ عقيدةَ كُفر، كما أنّ التخَلِّيَ عن الأَخْذِ بالأسبابِ هكذا بدونِ داعٍ بدعوى التوكُّل يُعَدُّ ذنبًا أيضًا، ولهذا فإنّ مفهومَ التوكُّل هو الاجتهادُ الكاملُ أولًا في الأَخْذ بالأسبابِ الماديّة الضَّروريّة، ولكنْ على ألّا نعتمدَ في النتائج على الأسباب، وإنّما على اللهِ تعالى، وبهذا تظَلُّ همةُ المسلمينَ مرتفعةً، ويشمَلُهم اللهُ تعالى برحمتِه ونَصْرِه، في حينَ أنّ الكافرَ يعتمدُ على الأسبابِ فقط، ويشعُر بالقلقِ النَّفسيِّ دائمًا بسببِ فُقدانِه للرُّوحانيّات، ونُقدِّمُ هنا ثلاثةَ أمثلةٍ للنبيِّ ﷺ في هذا الخصوص:

١ ـ حينَ كان النبيُّ ﷺ يَنوِي الخروجَ للحربِ، كان يستعِدُّ لها، ويُشكِّلُ مجلسًا استشاريًّا لهذا الأمرِ، ويتخيَّرُ الزّمانَ والمكانَ والطّريقَ والمجاهدينَ، وكذلك يتدبَّرُ أمرَ المطايا، وفي ميدانِ الحرب يتمُّ تشكيلُ الجنودِ في صفوفٍ، وباختصارٍ: فإنه ﷺ كان يتدبَّرُ كلَّ الأسبابِ الضَّروريّةِ لتحقيقِ الانتصارِ في الحرب، ثم يرفَعُ يدَ السُّؤالِ إلى الله تعالى قائلًا: «اللّهُمَّ... اهزِمْهم وانصُرْنا عليهم»[1].

٢ ـ عندَ الهجرةِ من مكّةَ المكرَّمةِ إلى المدينةِ المنوَّرة أَعدَّ النبيُّ ﷺ الناقةَ للركوب، وكذا زادَ السَّفَر، كما اختارَ رفيقَ السَّفَر أيضًا، ثم اصطَحَبَ سيّدَنا أبا بكر الصِّدِّيق رضي اللهُ تعالى في ظلام اللّيل ولَجأَ إلى غارِ ثَوْر، حتّى لا يراه كُفّارُ مكّةَ، وهكذا بعدَ الأَخْذِ بكلِّ الأسبابِ الماديّةِ الضّروريّةِ دعا اللهَ قائلًا: «اللّهُمّ أَعِنّي على هَوْلِ الدُّنيا وبَوائقِ الدّهرِ ومصائبِ اللّيالي والأيّام... اللّهُمَّ اصحَبْني في سَفَري... وإلى النّاسِ فلا تَكِلْني»[2].

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب ١١٢ برقم ٢٩٦٦.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير، المجلد ٢: ٣: ١٧٨.

وهكذا عندَما خَرَجت جماعةٌ من كفّارِ مكّة تبحَثُ عن النبيِّ ﷺ، ووَصَلت إلى بابِ غارِ ثَوْر، قال سيّدُنا أبو بكرٍ رضي اللهُ عنه للنبيِّ ﷺ: لو أنّ أحدَهم نَظَر تحتَ قدمَيْهِ لَأبصَرَنا، فقال: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما؟»[1]، أي: فقال ﷺ مبيِّنًا التوكُّلَ على اللهِ بألفاظٍ قاطعة: «ما ظنُّك يا أبا بكرٍ باثنَيْنِ، اللهُ ثالثُهما؟»، يعني: إننا قد أكمَلْنا الأَخْذَ بكلِّ الأسبابِ الممكنة وتوكَّلْنا على الله، وهو الذي يحفَظُنا، وهكذا خَلَق اللهُ أسبابًا رَآها الكفّارُ فعادوا من حيثُ جاءوا، وذلك حينَ قَيَّض حمامتَيْنِ ببَيْضِهِما، وكذا شُبّاكُ العنكبوتِ على بابِ الغار، وبالتالي أنقَذَ اللهُ تعالى سيّدَنا محمدًا ﷺ وسيّدَنا أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله تعالى عنه من أيدي الكفّار.

٣ ـ عن أنسِ بن مالكٍ رضي اللهُ عنه قال: قال رجلٌ: يا رسولَ الله، أَعقِلُها وأتوكّلُ أو أُطلِقُها وأتوكَّل؟ قال: «اعقِلْها وتوكَّلْ»[2]، حتى لا يَسرِقَها لصٌّ.

٤ ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطاب رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لو أنّكم كنتُم تَوكّلونَ على الله حقَّ توكُّلِه لَرُزقتُم كما تُرزَقُ الطّيرُ؛ تَغْدو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا»[3]، والمرادُ بالتوكُّلِ في هذا الحديثِ ليس تَرْكَ العمل، وإنما فيه دليلٌ على بَذْلِ الجُهدِ والسَّعي من أَجْل الحصُولِ على الرِّزق، مثلَما أنّ الطيورَ تَخرُجُ أولًا باحثةً عن رِزقِها، وعندَئذٍ تعودُ في المساءِ مليئةً بطونُها، ولو بَقِيت الطّيورُ في أعشاشِها ولم تَخرُجْ منها لَما أتاها الرِّزقُ طائرًا إليها.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: «الدَّوابُّ هو: كلُّ ما دَبَّ من الحيَوان، فكلُّه لا يَحمِلُ رزقَه، ولا يدَّخرُ إلّا ابنُ آدمَ والنّملُ والفأر»[4]، وهذه

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٢ برقم ٣٦٥٣.
(٢) جامع الترمذي، أبواب صفة القيامة، باب ٦٠ برقم ٢٥١٧.
(٣) الترمذي، أبواب الزهد، باب ٣٣ برقم ٢٣٤٤.
(٤) تفسير القرطبي، سورة العنكبوت (٢٩): الآية ٦٠.

الأحياءُ الثلاثةُ تأكلُ قليلًا، وتفكِّرُ كثيرًا في الجَمْع والتخزين.

كبائر الذنوب

الذنبُ يقالُ لمُخالفةِ حُكم الله تعالى وحُكم رسولِه الكريم ﷺ، والذنوبُ التي يُحدَّدُ لها حدٌّ، أو جاء الوعيدُ بالعذابِ عليها في الآخِرة، يقالُ لها: كبائرُ الذنوب، وما عداها صغائرُ الذُّنوب.

وكبائرُ الذُّنوبِ كثيرةٌ للغاية، على سبَيل المثال: الشِّركُ بالله وقَتلُ النفْسِ بغيرِ حقٍّ والانتحارُ وارتكابُ الفاحشةِ واللِّواطُ وقَذْفُ المحصَناتِ كذبًا وعقوقُ الوالدَيْن وأكلُ مالِ اليتيم وتَرْكُ الفرائضِ (الصّلاةِ والصِّيام والزَّكاةِ وغيرِها) وحِفظُ القرآنِ الكريم ثم نسيانُه، والسِّحرُ وشربُ الخمرِ وشهادةُ الزُّور وحَرْقُ الحيَوانِ وسبُّ الصّحابةِ الكرام وإهانةُ العلماءِ الكرام وأكلُ لحمِ الخِنزير أو لحمِ المَيْتة بلا عُذرٍ شَرْعيٍّ وغيرُها.

وصغائرُ الذُّنوبِ أيضًا كثيرةٌ جدًا، على سَبيل المثال: النظرُ إلى المرأةِ الأجنبيَّة والخَلوةُ بها ومصادقةُ الفُسّاقِ واستقبالُ القِبلةِ حالَ رَفْع الحاجةِ وتَرْكُ الواجباتِ وغيرُها.

والإنسانُ الذي يجتنبُ كبائرَ الذنوبِ ويؤدِّي ما عليه من الفروضِ والواجبات، يَغفرُ اللهُ تعالى له صغائرَ ذنوبِه، كما أنه لا يجبُ الاستهانةُ أيضًا بصغائرِ الذنوب؛ لأنّ الإصرارَ عليها والمداومةَ على فعلِها يَجعَلُها كبيرةً، ومثالُ الذنبِ الصَّغير والذَّنبِ الكبير مِثلُ جَمْرةٍ صغيرةٍ من النار وجمرةٍ كبيرةٍ منها، فالإنسانُ لا يستطيعُ تحمُّلُ أذى أيٍّ منهما، ويمكنُ لكلٍّ منهما (يعني: سواءٌ كانت جمرةً كبيرةً أم شرارةً صغيرةً) أن تكونَ سببًا في احتراقِ بيتٍ بأكمَلِه، والفرقُ

بينَهما فقَطْ هو أنّ الجمرةَ الكبيرةَ تحرقُ أسرعَ، بينَما الجَذْوةُ الصَّغيرةُ تحرِقُ البيتَ بأكمَلِه إذا تمّ تجاهلُها.

مسمى الفحشاء

المرادُ به: الزِّنا، وهو من كبائرِ الذُّنوب، ولمزيد من التفصيل راجع الحاشيةَ رقم ٢ للآية رقم ٢ من سُورة النُّور (٢٤).

العفو عند الغضب

من صفاتِ أهل الإيمانِ أيضًا أنه حين يُسيءُ إليهم الجُهَلاءُ ويَجرَحونَ قلوبَهم، فإنّهم لا يسارعونَ إلى الغضبِ وردِّ السِّبابِ والشتائم، وإنما يعفُونَ عن هؤلاءِ الجُهَلاء، ويَدْعونَ لهم بالسّلامةِ ويعتزلونَهم، مثلَما قال اللهُ تعالى في سُورة الفرقان: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. وإليك بعضَ الأمثلةِ على هذا:

ـ تقولُ أمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها: «وما انتَقَم رسولُ الله ﷺ لنفسِه في شيءٍ قطّ، إلّا أن تُنتهَكَ حُرمةُ الله، فيَنتقِمُ بها لله»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي الله عنهما: شتَمَ رجلٌ من المشركينَ أبا بكرٍ رضي الله عنه، فلم يَرُدَّ عليه شيئًا؛ فنَزَلتِ الآية[2].

ـ قال ابنُ عبّاسٍ: «هو الرّجلُ يسُبُّ الرّجلَ فيقولُ الآخَرُ: إن كنتَ صادقًا فغَفَر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا فغَفَر اللهُ لك. وكذلك يُروى في الأثرِ: أنّ أبا بكرٍ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٠ برقم ٦١٢٦.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الشورى (٤٢)، الآية ٣٧.

الصِّدِّيقَ رضي اللهُ عنه قال ذلك لرجُلٍ نالَ منه»[١].

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي الله عنها، عن رسولُ الله ﷺ: «لم يكنْ فاحشًا ولا متفحِّشًا ولا صَخّابًا في الأسواق، ولا يَجْزي بالسّيِّئةِ السّيِّئةَ، ولكنْ يعفو ويصفَح»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «صِلْ مَن قَطَعك، وأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وقُلِ الحقَّ ولو على نفسِك»[٣].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

٣٧ ـ جاء في هذه الآيةِ بيانٌ لأربع صفاتٍ من صفاتِ أهل الإيمان، من بيْنِها: أنّهم يتشاوَرونَ فيما بينَهم، وكان النبيُّ ﷺ يستشيرُ في كلِّ الأمورِ الهامّة، على سَبيل المثال: تشاوَرَ النبيُّ ﷺ حولَ أَسْرى بدرٍ وحولَ حَفْر الخَنْدقِ في موقع غزوةِ الأحزاب، وقد أورَدَ كُتّابُ السِّيرة النَّبويّة جميعًا هذه الأمورَ في كتُبِهم.

كلُّ كلام النبيِّ ﷺ يكونُ وَحْيًا من الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤]. ومعَ ذلك أمَرَ اللهُ تعالى النبيَّ الكريمَ ﷺ بقولِه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، حتى يَعلَمَ المسلمونَ أهميّةَ التشاوُر، كما أنّ تشاوُرَ النبيِّ ﷺ معَهم يُسعِدُ قلوبَهم ويطيِّبُ خاطرَهم.

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «ما أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بالمشاوَرةِ لحاجةٍ منه إلى

---

(١) تفسير القرطبي، سورة حم السجدة (٣٢): الآية ٣٤.

(٢) الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ٦٩ برقم ٢٠١٦.

(٣) كنز العمال، ٣: ٣٥٩ برقم ٦٩٢٩.

رأيِهم، وإنّما أراد أن يُعلِّمَهم ما في المشاوَرةِ من الفَضْل، ولتُقتدَى به أُمّتُه من بعدِه... قال ابنُ عَطِيّة: والشُّورى من قواعدِ الشّريعة وعزائم الأحكام؛ مَن لا يستشيرُ أهلَ العِلم والدِّين فعَزْلُه واجبٌ، هذا ما لا خلافَ فيه»[1].

ـ يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال «المستشارُ مؤتمَنٌ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا استشارَ أحدُكم أخاه فلْيُشِرْ عليه»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا مَعْدانُ بنُ أبي طلحةَ رضي الله عنه: «إنّ عُمرَ بنَ الخطّاب خَطَب يومَ الجمُعةِ فذَكَر نبيَّ الله ﷺ وذَكَر أبا بكرٍ، قال: إنّي رأيتُ كأنّ ديكًا نَقَرني ثلاثَ نَقَراتٍ، وإنّي لا أراهُ إلّا حضورَ أَجَلي وإنّ أقوامًا يأمرونَني أن أستَخلِفَ، وإنّ اللهَ لم يكنْ لِيُضيِّعَ دِينَه ولا خلافتَه ولا الّذي بَعَث به نبيَّه ﷺ، فإنْ عَجِل بي أمرٌ فالخلافةُ شُورى بينَ هؤلاءِ السّتّةِ الّذين توفِّي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ»[4].

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾

٣٨ ـ من صفاتِ أهلِ الإيمان أيضًا أنّهم حين يَعتدِي عليهمُ المتكبِّرونَ فإنّهم يقتَصُّونَ منهم بقَدْرِ ما ألحَقوا بهم من ضَرَر، يعني: يقتَصُّونَ بقَدْرِ ما لَحِقَ بهم من ضَرَرٍ ماليٍّ أو جِسْمانيّ؛ لأنّ الذي يقتصُّ بما يزيدُ عن حقِّه يُعَدُّ من الظالمين، ولكنْ لو رأى مؤمنٌ أنّ الأمورَ ستنصلحُ، ولن يزيدَ الفسادُ إذا هو عَفَا عن الضَّررِ الذي

---

(١) تفسير القرطبي، سورة آل عمران(٣): الآية ١٥٩.
(٢) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٣٧ برقم ٣٧٤٥.
(٣) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٣٧ برقم ٣٧٤٧.
(٤) مسلم، كتاب المساجد، باب ١٧ برقم ١٢٥٨.

لَحِق به، فإنه ـ في هذه الحالة ـ إذا تَحكَّم في نفسِه وعَفَا برَغْم قُدرتِه على القِصَاص والإذْنِ له بذلك، فإنّ هذا منه عملٌ عظيمٌ سيَجزيهِ اللهُ تعالى عليه خيرَ الجزاء.

حكم العفو والانتقام

لو غَلَب الظنُّ بأنّ العفوَ عن الظالم سيزيدُه تكبُّرًا وظُلمًا، فالانتقامُ (القِصَاصُ) منه أفضَلُ، وذلك حتى يأمَنَ الناسُ من شرِّه وظُلمِه، وإذا أصلَح ظالمٌ نفسَه، ولم يَعُدْ هناك احتمالٌ بأنْ يعودَ إلى ظلمِه مستقبَلًا فإنّ العفوَ عنه هو الأفضَلُ.

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٣٩ ـ أيًا كان الظالم، سواءٌ كان هو البادئَ بالاعتداء، أو الذي تجاوَزَ في الانتقام والقِصَاص، كلاهما ظالمٌ، واللهُ تعالى لا يحبُّ الظالمين.

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾

٤٠ ـ حين يقتَصُّ المظلومونَ من الظالمينَ بقَدْرِ ظُلمِهم فهذا حقٌّ لهم، ولا سبيلَ إلى اللَّوم عليهم، فالمستحِقُّ للَّوم والعذابِ الأليم هم أولئك الذين يبدَأونَ بالاعتداءِ على الأَبرِياءِ المسلمين وظُلمِهم، وينشُرونَ الفسادَ في الأرض.

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾

٤١ ـ للمظلوم الحقُّ في الاقتصاصِ من الظالم، لكنّه لو صَبَر برَغْم مَقدرتِه على القِصَاصِ والانتقام وعَفَا عن الظالم، فإنّ هذا منه عمَلٌ عظيمٌ يحتاجُ إلى عزيمةٍ قويّة، ويستحِقُّ عليه الأَجْرَ العظيمَ من الله تعالى.

ـ قال كفّارُ مكّةَ عن النبيِّ ﷺ: ساحرٌ ومجنون! وقاطَعوه اجتماعيًّا، وتآمَروا

على قتله ﷺ، وأجبَروه على الهجرةِ من مكّةَ، وقَتَلوا عمَّه سيّدَنا حمزةَ رضي الله عنه، ومَثَّلوا بجُثّتِه ومَضَغوا كبِدَه، ولكنْ حين فَتَح النبيُّ ﷺ مكةَ بعدَ ثماني سنوات، خَطَب في أعدائه الألِدّاءِ هؤلاءِ قائلًا: «يا معشَرَ قُريشٍ، ما ترَوْنَ أنّي فاعلٌ فيكم؟»، قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخ كريمٍ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقولُ كما قال أخي يوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، اذهَبوا وأنتم الطُّلَقاءُ»[1]، وهذا المثالُ الرائعُ من حُسن الأخلاقِ والعفوِ المثاليِّ الذي ضَرَبه النبيُّ ﷺ في هذا الخصُوص لا نجدُ له مثيلًا في التاريخ الإنسانيِّ كلِّه، ولذلك لمَّا رأى أهلُ مكةَ هذا الكرمَ العظيمَ منه ﷺ تقدَّموا منه أفواجًا، وقَبِلوا الإسلامَ على يدَيْه الطاهرتَيْنِ ﷺ.

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ اسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ

---

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٨: ١٨.

إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾

٤٢ ـ اللهُ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بمخلوقاتِه، وقد أرسَلَ أنبياءه الكرامَ عليهمُ السَّلامُ لهدايةِ بني الإنسانِ، فوَضَّحوا لهم طريقَ الحقِّ وطريقَ الباطل وعاقبةَ كلٍّ منهما، ومعَ ذلك فإنَّ الذين يُعرِضونَ عن الهدايةِ عامدينَ فإنَّ اللهَ تعالى لا يُجبِرُهم على قَبولِ الهداية، وإنّما يترُكُهم يَعْمَهونَ في الضَّلالِ كما يريدون، وواضحٌ أنّ أحدًا لن يساعدَ مَن لا يَقبَلُ هدايةَ الله تعالى.

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾

٤٣ ـ عندما يرى الظالمونَ عذابَ جهنَّمَ يومَ القيامة يندَمون، ويتمنَّوْنَ لو أنّهم حصَلوا على فُرصةٍ للعودةِ ثانيةً إلى الدُّنيا فلن يعصُوا اللهَ عندَئذٍ أبدًا، لكنّ يومَ القيامة هو يومُ الحسابِ والعقابِ والثَّواب، ولا مجالَ بعدَه للعودةِ إلى الدُّنيا ثانيةً.

﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾

٤٤ ـ عندَما يَثبُتُ جُرمُ متَّهمٍ في المحكمة، ويُعلنُ القاضي أنه مجرمٌ، ولهذا تعتقلُه الشُّرطةُ، في ذلك الوقتِ لا يجرُؤُ هذا المجرمُ على أن يَرفَعَ بصرَه وينظُرَ إلى أقاربِه وأصدقائه الموجودينَ معَه في المحكمة، وإنّما يَحْني رأسَه في خَجَل، وينظُرُ من طرفٍ خَفيٍّ إلى رجالِ الشرطة متى يأتونَ إليه وكيف سيعتَقِلونَه.

سيكونُ حالُ الظالمينَ يومَ القيامة مِثلَ هذا تقريبًا، فالذين تَقرَّر أن يَدخُلوا

جهنَّمَ تكونُ رءوسُهم مَحْنيّةً من الذلِّ والخَجَل، وينظُرونَ إلى جهنَّمَ بطَرْفٍ خَفِيٍّ وهم يرتعدونَ خوفًا، يترقَّبونَ متى وكيف سيُلقَى بهم في جهنَّم.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾

٤٥ ـ بعدَما يَصِلُ أهلُ الإيمانِ إلى الجنّة ينظُرونَ إلى جهنَّم، فيرَوْنَ أولئك الذين تَقرَّر عليهمُ العذابُ الدائم، ويقولون: ما أحمَقَ هؤلاءِ الناسَ الذين ظلَموا أنفُسَهم، ووضَعوا أهليهم أيضًا على طريقِ الظلم! ممّا كان نتيجتُه اليومَ أنّهم في خُسرانٍ مُبين، وكذلك أهلُوهم أيضًا.

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾

٤٦ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجعْ تفسيرَ الآية رقم ٤٤ المرتبطةِ بما قبلَها.

﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾

٤٧ ـ هنا دعوةٌ لمُنكري التوحيدِ لقَبولِ الإسلام، حتى يؤمنوا قبلَ قيام الساعة؛ لأنّ الإيمانَ لن يكونَ مقبولًا إذا جاء به أحدٌ في ذلك اليوم، وهذا اليومُ قادمٌ لا مَحالةَ ولا يمكنُ التخلُّصُ منه، ولن يكونَ هناك مَلاذٌ من عذابِ ذلك اليوم، كما لن يكونَ هناك أيُّ شخصٍ يمكنُه أن يُزحزِحَ هذا العذابَ أو يوقِفه، ولن يستطيعَ المجرمونَ يومَئذٍ إنكارَ ما ارتكبوه من أفعالٍ قبيحة؛ لأنّ أعضاءَ أبدانِهم ستكونُ شاهدَ عِيانٍ عليهم.

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾

٤٨ ـ هنا تسرِيةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ، بأنّهم إنْ لم يؤمنوا بكَ برَغْم دعوتِك لهم فلا تحزَنْ ولا تغتَمَّ، فأنت لستَ مسئولًا عن عَدَم إيمانِهم، وإنّما كانت مسئوليّتُك أن تُبلِّغَهم رسالةَ الإسلام، وقد فَعلتَ ذلك وأدَّيتَ حقَّه، والآنَ إنْ لم يؤمنوا فلن تُسألَ عن ذلك، وهمُ المسئولونَ عن كُفرِهم.

﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾

٤٩ ـ هنا بيانٌ لنقطةِ ضعفٍ في بني الإنسانِ عمومًا، يعني: عندَما يُنعِمُ اللهُ تعالى على الإنسانِ بنعمةٍ رحمةً منه لا تَسَعُه الدُّنيا من الفَرْحة، ويأخُذُ في التكبُّر، وعندَما تَحِلُّ عليه مصيبةٌ نتيجةَ أفعالِه القبيحة ينسَى كلَّ نِعَم الله عليه ويَصِلُ به الحالُ إلى درجةِ الجحود، لكنّ شأنَ أهلِ الإيمان أنّهم يشكرونَ اللهَ تعالى إذا أَنْعم عليهم، ويصبِرونَ على ما يَحِلُّ بهم من آلامٍ ومصائبَ.

يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عَجَبًا لأمرِ المؤمن، إنّ أمرَه كلَّه خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلّا للمؤمن، إن أصابَتْه سَرّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرّاءُ صَبَر فكان خيرًا له»[١].

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾

٥٠ ـ الحاكمُ الحقيقيُّ للسماءِ والأرضِ هو اللهُ تعالى، يهَبُ لمن يشاءُ بنينَ، أو بناتٍ، أو كلَيْهما معًا، أو يَحرِمُه من كلَيْهما أيضًا، ويجعَلُه عقيمًا لا يُنجبُ. على

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٩٩٩.

أيِّ حال، هو القادرُ المطلَق، ويَعلَمُ تمامَ العِلم مَن يُعطي، وماذا يُعطي.

في هذه الآيةِ ذَكَر اللهُ تعالى البناتِ أولًا، وفي هذا الخصُوصِ يقولُ سيّدُنا واثِلةُ بن أَسْقَع رضي اللهُ عنه: «إنّ مِن يُمنِ المرأةِ تبكيرَها بالأُنثى قبلَ الذَّكَر»[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾

٥١ ـ اللهُ تعالى نورُ السّماواتِ والأرض، وعرشُه (حُكمُه) محيطٌ بالسّماواتِ والأرض، وبالرَّغْم من ظهورِه الشّديدِ هذا إلا أنه ليس في طاقةِ بشَرٍ أن يستطيعَ ـ ببشَريّـتِه الدُّنيويّة ـ رؤيةُ الله تعالى، أو أن يُكلِّمَه بغيرِ حجاب، كما أنّ البشَريّةَ الدُّنيويّةَ ليس لديها الأهليّةُ ولا المقدِرةُ أن يتزوَّجَ صاحبُها بمخلوقٍ نُورانيٍّ رُوحاني.

لكنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ على الإنسانِ في الجنة ببشَريّةٍ خاصّة، لا يحتاجُ معَها إلى بيتِ الخلاء، ولن يَشِيخَ معَها أيضًا، وسيتمكَّنُ من الزَّواج من غيرِ البشَر، أي: من الحُورِ العِين، وبفَضْل هذه البشَريّةِ الخاصّة سيتمكَّنُ أيضًا من رؤيةِ الله تعالى، وهكذا عندَما صَعِدَ النبيُّ ﷺ في ليلةِ المعراج فوقَ السّماوات، كان في بَشريّةٍ خاصّةٍ استطاع معَها ﷺ أن يَرى اللهَ تعالى، وأن ينالَ شرفَ تكليمِه مباشرةً، ولمزيدٍ من التفصيل عن رؤيةِ الله تعالى ليلةَ المعراج راجع الحاشيةَ رقم **٩١** للآية رقم **١٠٣** من سُورة الأنعام (**٦**)، وكذا الحاشيةُ رقم **٧١** للآية رقم **١٤٣** من سُورة الأعراف (**٧**).

نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ سيِّدُ الأنبياءِ والمرسَلينَ عليهمُ السَّلامُ جميعًا، ولهذا فإنّ بشَريّتَه الدُّنيويّةَ هي الأعلى والأفضَلُ بينَ بني الإنسانِ جميعًا أيضًا، وهذا هو السببُ في أنه حينَ واصَلَ الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم الصِّيامَ (يعني: وَصَلوا اليومَ بما يليه صائمينَ دونَ أن يتناولوا شيئًا بينَهما) لمَّا رأَوا النبيَّ ﷺ يَصِلُ الصيام، فشَقَّ

---

(١) تفسير القرطبي.

عليهم، فنَهاهم. قالوا: إنّك تُواصلُ. قال: «لستُ كهيئتِكم، إنّي أظَلُّ أُطعَمُ وأُسقَى». وفي حديثٍ آخَرَ: «إنّي لستُ مِثلَكم، إنّي أُطعَمُ وأُسقَى». وفي حديثٍ آخَرَ، قال رسولُ الله ﷺ: «وأيُّكم مِثلي؟ إنّي أَبيتُ يُطعِمُني ربّي ويَسقيني»[1].

﴿إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾

٥٢ ـ اختارَ اللهُ تعالى مِن بينِ بني الإنسانِ مَن أرسَلَهم إليهم أنبياءَ كرامًا عليهمُ السَّلامُ لهدايتِهم، وقد ذَكَرتْ هذه الآيةُ ثلاثَ وسائلَ من بينِ الوسائل التي يُحبُّها اللهُ تعالى لإنزالِ الوحي على قلوبِ الأنبياء، وذلك لكي يُبلِّغوا البشَرَ رسالةَ الله تعالى:

الوسيلة الأولى

يُلقي اللهُ تعالى في رُوعِ النبيِّ رسالتَه بما لا يَحتاجُ معَه إلى سَماع بأُذُنٍ أو رؤيةِ متكلِّمٍ، ومثلُ هذا الوحي يكونُ في حالةِ اليَقظةِ وفي حالةِ النَّوم أيضًا، ومثالُ حالةِ اليقَظة: سيِّدُنا داودُ عليه السَّلامُ الذي ألقَى اللهُ تعالى في قلبِه الزَّبورَ وحيًا.

أمّا حالةُ النَّوم فمِثالُها سيِّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الذي أُوحيَ إليه في المنام بأنْ يَذبَحَ سيِّدَنا إسماعيلَ. يقولُ العلّامةُ محمَّد عليّ الصّابوني: «بيَّن تعالى في الآيةِ أنّ كلامَه لعبادِه على ثلاثةِ أوجُه، أحدُها: الوحيُ بطريقِ الإلهام أو المنام، والآخَرُ: أن يُسمِعَه كلامَه من وراءِ حجاب، والثالث: الوحيُ بواسطةِ المَلَك، وهذا خاصٌّ بالإنبياء، والثاني: خاصٌّ بموسى وبمحمّدٍ، إذْ كلَّمه اللهُ ليلةَ الإسراء، وأمّا الأولُ فيكونُ للأنبياءِ والأولياء. وقال الصّاوي: وقد يقَعُ الإلهامُ لغيرِ الأنبياءِ كالأولياءِ،

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ١١ برقم ٢٥٦٦، والبخاري، كتاب الصوم، باب ٢٠ برقم ١٩٢٢.

غيرَ أنّ إلهامَ الاولياءِ قد يَختلطُ به الشَّيطانُ؛ لأنّهم غيرُ معصومينَ، بخلافِ الأنبياءِ فإلهامُهم محفوظٌ منه»(١).

الوسيلة الثانية

يُوحي اللهُ تعالى إلى النبيِّ من وراءِ حجابٍ، مثلَما كَلَّم سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ فوقَ جبلِ الطُّور، وقد سَمِعه سيّدُنا موسى عليه السَّلام، لكنّه لم يَرَهُ، ولهذا طلَبَ منَ اللهِ أن يتَجلَّى له، فجاءه الجوابُ بالنَّفي. يقولُ العلّامة محمّد عليّ الصّابوني: إنّ هذا الوحيَ «خاصٌّ بموسى وبمحمّدٍ»(٢).

الوسيلة الثالثة

يُرسِلُ اللهُ تعالى المَلَكَ (يعني: سيّدَنا جِبريلَ عليه السَّلام)، وهو يُبلِّغُ رسالةَ الله تعالى إلى النبيِّ، وله صورتانِ، الصُّورةُ الأُولى: لا يَظهَرُ فيها المَلَكُ، وإنما يَسمَعُ صوتَ جَرَسٍ فقطْ، والصُّورةُ الثانية: هي التي يأتي فيها المَلَكُ في صُورةِ إنسان، ويَراهُ الحاضرونَ أيضًا. يقولُ العلّامةُ محمَّد عليّ الصّابونيُّ عن الوسيلة الثالثة: «وهذا خاصٌّ بالأنبياء»(٣).

ولمزيدٍ من التفصيل عن الوحيِ راجعِ الحاشيةَ رقم ٢ من هذه السُّورة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾

٥٣ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، مثلَما أرسَلْنا الوحيَ من عندِنا إلى الأنبياءِ

---

(١) صفوة التفاسير.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

والرُّسُلِ من قبلِك، أَنْزلنا عليكَ القرآنَ المَجيدَ أيضًا بنفسِ الطريقة.

في هذه الآيةِ عبَّر اللهُ تعالى عن القرآنِ المَجيد بالرُّوح، ويُعلَمُ منه أنه مثلَما أنّ الرُّوحَ هي السببُ في حياةِ الجسَد، فإنّ القرآنَ المجيدَ كذلك هو السببُ في حياة قلبِ الإنسان، ومثلَما يَجعَلُ المطرُ الأرضَ السَّبِخةَ البُورَ الجافّةَ تعودُ إلى الحياة ويمنَحُها الطَّراوةَ واليُنوعَة، كذلك القرآنُ المجيدُ يُحيي القلوبَ الميِّتةَ والغافلةَ بمعرفةِ الله تعالى وذِكرِه.

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾

٥٤ ـ هذه خلاصةُ ما كتَبَه العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي في تفسيرِ هذا الجزءِ من الآية:

«في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي﴾، ولم يقُلْ: «ما كنتَ تَعلَمُ»، يعني: أنه لم يَنْفِ العلمَ، وإنّما نفَى الدِّرايةَ، ومعنى الدِّراية: أن تَعرِفَ شيئًا بعَقْلِك، ولهذا يكونُ معناه: أنك لم تكنْ تَعلَمُ من نفسِك القرآنَ والإيمانَ قبلَ نزولِ القرآن، صحيحٌ أنك كنتَ تَعلَمُه إجمالًا بإخبارِ الله لك، ولكنّ العلمَ التفصيليَّ أُعطِيَ لك بعدَ البَعْثةِ النَّبويّة»[1].

النبي منزه عن الكفر والشرك قبل بعثته

كلُّ نبيٍّ يكونُ منزَّهًا عن الكُفرِ والشِّركِ منذ مَولدِه، وهذا هو السببُ في أنّ الكفّارَ حين خالَفوا أنبياءَهم، اتَّهموهم باتِّهاماتٍ عديدة، لكنْ لم تَتَّهِمْ أُمةٌ نبيَّها قائلةً: إنك كنتَ قبلَ البَعْثةِ النَّبويّة تعبدُ الأصنامَ مثلَنا. وفي هذا الخصوصِ ذَكَر

---

(١) تفسير تبيان القرآن، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

العلّامةُ القُرطبيُّ قصّةَ بَحِيرا الراهبِ الذي التقاهُ النبيُّ ﷺ وهو طفلٌ أثناءَ سفرِه مع عمِّه أبي طالبٍ، حيث رأى بَحِيرا الراهبُ علاماتِ النُّبوة فيه ﷺ، فطَلَب منه على سَبيل الاختبارِ أن يُقسِمَ باللّاتِ والعُزَّى. وهنا قال العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقولُه في قصّة بَحِيرا حينَ استَحْلفَ النّبيَّ ﷺ باللّاتِ والعُزَّى إذْ لقِيَه بالشّام في سَفْرتِه مع عمِّه أبي طالبٍ وهو صبيٌّ، ورأى فيه علاماتِ النُّبوّة فاختَبَره بذلك، فقال له النّبيُّ ﷺ: لا تَسألْني بهما، فوالله ما أبغضَتُ شيئًا قطُّ بُغضَهما»(١).

إيمان النبي قبل البعثة النبوية

يقولُ العلّامةُ سيِّد الآلوسيُّ: «إنّ الأنبياءَ عليهمُ السَّلامُ جميعًا قبلَ البَعْثة مؤمنونَ لعِصمتِهم عن الكُفرِ بإجماع مَن يعتَدُّ به»(٢).

ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قال القاضي أبو الفَضْل عِيَاضٌ: وأمّا عِصمتُهم من هذا الفنِّ قبلَ النُّبوّةِ فللنّاسِ فيه خلافٌ، والصّوابُ أنّهم معصومونَ قبلَ النُّبوّةِ من الجَهْل بالله وصفاتِه والتّشكُّكِ في شيءٍ من ذلك. وقد تَعاضَدَت الأخبارُ والآثارُ عن الأنبياءِ بتنزيهِهم عن هذه النَّقيصة منذُ وُلِدوا، ونَشْأتِهم على التّوحيدِ والإيمان»(٣).

ويقولُ العلّامةُ غُلام رسُول سَعِيدي: «أجمَعَ المتقدِّمونَ والمتأخِّرونَ على أنّ النبيَّ يكونُ مؤمنًا بمولدِه، ولا يمكنُ أن يعيشَ لحظةً بغيرِ إيمان»(٤).

ويقولُ سيِّد أبو الأعلى المَوْدودي: «كلُّ الأنبياءِ حَصَلوا على الإيمانِ بالغَيْبِ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

(٢) تفسير روح المعاني، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الشورى (٤٢): الآية ٥٢.

(٤) تفسير تبيان القرآن، سورة طه (٢٠): الآية ١٣.

قبلَ النُّبوةِ بتدبُّرِهم وتأمُّلِهم وتفكيرِهم، ثم أَنْعم اللهُ تعالى عليهم بالإيمانِ بالشّهادةِ حالَ إنعامِه عليهم بمنصِبِ النُّبوة»[١].

وفي موضع آخَرَ يقولُ سيّد أبو الأعلى المَوْدودي: «يُعلَمُ من أولِ آيةٍ نَزَلت في القرآنِ المجيد، يعني ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ أنّ النبيَّ ﷺ قبلَ نزولِ الوَحْي عليه كان يَعرِفُ أنّ اللهَ تعالى ربُّه، وكان يؤمنُ به كذلك، ولذا لم تكنْ هناك حاجةٌ أبدًا إلى أن يقولَ: من ربُّك، وإنما قيل: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾»[٢].

العلم بكونه نبياً قبل البعثة

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: قالوا: يا رسولَ الله، متى وَجَبتْ لك النُّبوَّة؟ قال: «وآدمُ بينَ الرُّوح والجسَد»[٣].

يقولُ سيّدُنا جابرُ بن سَمُرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّي لَأعرِفُ حَجَرًا بمكّةَ كان يُسلِّمُ عليَّ قبلَ أن أُبعَثَ، إنّي لَأعرِفُه الآنَ»[٤]. تُرى، بأيِّ ألفاظٍ كان الحَجَرُ يُسلِّمُ على النبيِّ ﷺ؟ لاحِظْ هنا مثالًا على ذلك. قال سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: «كنتُ معَ النّبيِّ ﷺ بمكّةَ، فخَرَجْنا في بعضِ نواحيها، فما استقبَلَه جبلٌ ولا شجرٌ إلّا وهو يقولُ: السّلامُ عليك يا رسولَ الله»[٥].

يقولُ الإمامُ القسطَلّانيُّ: «وأَخْرَج البيهقيُّ، من طريقِ العلاءِ بن جاريةَ الثّقفيِّ، عن بعضِ أهلِ العلم، أنّ رسولَ الله ـ ﷺ ـ حين أراد اللهُ كرامتَه وابتداءه بالنُّبوةِ كان

---

(١) تفهيم القرآن، سورة هود (١١): الآية ٢٨.

(٢) تفهيم القرآن، سورة العلق (٩٦): الآية ١.

(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ١ برقم ٣٦٠٩، وكنز العمال، برقم ٣١٩١٧.

(٤) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٥٩٣٩.

(٥) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٦ برقم ٣٦٢٦.

لا يمُرُّ بحَجَرٍ ولا شجرٍ إلّا سَلَّم عليه وسَمِع منه، فيَلتفِتُ رسولُ الله ـ ﷺ ـ خَلْفَه وعن يميـنِه وعن شمالِه فلا يَرى إلّا الشجرَ وما حولَه من الحجارة وهي تُحييهِ بتحيّةِ النُّبوة: السلامُ عليكَ يا رسولَ الله، الحديثَ»[١].

بحيرا الراهب

ذَكَر هذه القصّةَ الإمامُ الترمذيُّ والمؤرِّخونَ الآخَرونَ، وخلاصَتُها: أنه عندَما بَلَغ النبيُّ ﷺ الثانيةَ عشْرةَ من عمُرِه «خَرَج أبو طالبٍ إلى الشّام وخَرَج معَه النّبيُّ ﷺ في أشياخٍ من قُريشٍ، فلمّا أشرَفوا على الرّاهبِ هَبَطُوا فحَلُّوا رحالَهم، فخَرَج إليهم الرّاهبُ، وكانوا قبلَ ذلك يمُرّونَ به فلا يَخرُجُ إليهم ولا يَلتفِتُ. قال: فهم يَحُلُّونَ رحالَهم، فجَعَل يتَخلَّلُهم الرّاهبُ حتّى جاء فأخَذَ بيدِ رسولِ الله ﷺ، قال: هذا سيّدُ العالَمين، هذا رسولُ ربِّ العالَمين، يبعَثُه اللهُ رحمةً للعالَمين. فقال له أشياخٌ من قُريشٍ: ما عِلمُك؟ فقال: إنّكم حين أشرَفتُم من العقَبةِ لم يبقَ شجرٌ ولا حجرٌ إلّا خَرَّ ساجدًا، ولا يسجُدانِ إلّا لنبيٍّ، وإنّي أعرِفُه بخاتَم النُّبوّةِ أسفلَ من غُضروفِ كتِفِه مثلَ التُّفّاحة. ثمّ رَجَع فصَنَع لهم طعامًا، فلمّا أتاهم به وكان هو في رعيةِ الإبلِ، قال: أرسِلوا إليه، فأَقْبلَ وعليه غَمامةٌ تُظِلُّه، فلمّا دنا من القوم وَجَدَهم قد سَبَقُوه إلى فَيْءِ الشّجرة، فلمّا جَلَس مال فيءُ الشّجرةِ عليه، فقال: انظُروا إلى فيءِ الشّجرةِ مال عليه. قال: فبينَما هو قائمٌ عليهم وهو يناشدُهم أنْ لا يذهبوا به إلى الرّوم فإنّ الرُّومَ إذا رأَوْه عَرَفوه بالصّفة فيقتلونَه، فالتفَتَ فإذا بسبعةٍ قد أَقْبلوا من الرّوم فاستقبَلَهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا أنّ هذا النّبيَّ خارجٌ في هذا الشّهرِ، فلم يبقَ طريقٌ إلّا بُعِث إليه بأناسٍ، وإنّا قد أُخبِرْنا خبَره بُعِثْنا إلى طريقِك هذا، فقال: هل خلفَكم أحدٌ هو خيرٌ

---

(١) المواهب اللدنية، ١: ٢٠٠.

منكم؟ قالوا: إنّما أُخبِرنا خبَرَه بطريقِك هذا. قال: أفرأيتُم أمرًا أراد اللهُ أن يَقضيه، هل يستطيعُ أحدٌ من النّاس ردَّه؟ قالوا: لا. قال: فبايَعُوه وأقاموا معَه، قال: أَنشُدُكم اللهَ أَيُّكم وَلِيُّه؟ قالوا: أبو طالبٍ، فلم يزَلْ يُناشدُه حتّى رَدَّه أبو طالبٍ، وبَعَث معَه أبو بكرٍ بلالًا وزوَّده الرّاهبُ من الكعكِ والزَّيت»[1].

النبيُّ الذي يكونُ على عِلم بنبوَّتِه من قَبْلِ خَلْق سيّدِنا آدمَ عليه السَّلام، النبيُّ الذي كانت أحجارُ مكةَ المكرَّمةِ تُناديه: «يا رسولَ الله» قبلَ البَعْثة النَّبويّة، والنبيُّ الذي شَهِد بنُبوّتِه الراهبُ النَّصرانيُّ قبلَ أن يُبعَثَ نبيًّا وهو لا يزالُ في الثانيةَ عشْرةَ من عمُرِه، إن كان مِثلُ هذا النبيِّ لا يَعلَمُ بنُبوّتِـه وإيمانِه، فمن غيرُه يَعلَمُ إذًا؟

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

٥٥ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لقد جَعَلْنا القرآنَ المجيدَ نُورًا، يُخرِجُ من ظُلُماتِ الجهالة، ويَهدي إلى نورِ الهداية، والذين يتدبَّرونَ فيه بقَصْدِ طلبِ الهداية نضيءُ لهم طريقَ الهداية، والذين يُلقُونَ بالقرآنِ الكريم خَلْفَ ظهورِهم بدافِع من تعصُّبِهم وعنادِهم، فإنّنا نترُكُهم يَعْمَهونَ في ضلالِهم عقابًا لهم على هذا الإعراضِ عن القرآن.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾

٥٦ ـ بلا أدنى شكٍّ، أنت تَدعو إلى الإسلام، وهذا هو الطريقُ المستقيم، وهذا هو الطريقُ الذي يقودُ الإنسانَ إلى اللهِ المالكِ الحقيقيِّ لكلِّ شيءٍ في السماواتِ والأرض.

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦٢٠.

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾

٥٧ ـ في هذه الآية بُشرى للمطيعينَ ووعيدٌ شديدٌ للعاصِين، يعني: أنّ الحُكمَ في الأمورِ كلِّها يومَ القيامة يكونُ لله تعالى، وأحكامُ الله تعالى كلُّها تتطابقُ تمامًا معَ العدلِ والإنصاف، ولهذا فمنَ الطبيعيِّ أن يَستحِقَّ الصالحونَ الجنّةَ، ويستحِقَّ العُصاةُ جهنَّمَ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ فجر يوم الثلاثاء ٢٠ أبريل ٢٠١٠م
الموافق ٦ جمادى الأولى ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتمَلَ تفسيرُ سُورةِ الشُّورى بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في اثنَيْ عشَرَ يومًا فقط، أي: من ٨ أبريل إلى ٢٠ أبريل، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❊ ❊ ❊

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٣) سورة الزخرف

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الزُّخرُف»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٣٥** منها.

مضامين السورة

ـ الأُممُ السابقةُ سَخِروا من أنبيائهم الكرام عليهم السَّلامُ فأهلَكَهم اللهُ تعالى، لكنّ محاولاتِ النَّصيحةِ والهداية لكفّارِ مكّةَ لا تزالُ مستمرّةً برَغْم مخالفتِهم وتجاوزِهم الحدودَ، وذلك لكي يتعقَّلوا ويَعتبروا من الأُمم السابقة، وإذا لم يستفيدوا من هذه المُهْلةِ فسيَنزِلُ عليهم العذابُ مِثلَ الأُمم السابقةِ أيضًا.

ـ كان مشركو مكّةَ يعترِفونَ بأنّ اللهَ تعالى هو الذي خَلَق الأرضَ والسماء، وجَعَل فيها موائدَ من نِعَمٍ لا حصرَ لها، لكنّهم بَلَغوا من جُحودِهم مبلَغًا جَعَلَهم يجعَلونَ لله ولدًا، معَ أنّ اللهَ تعالى منزَّهٌ عن الولد.

ـ جاء في هذه السُّورةِ دعاءُ السَّفَر، وينبغي حِفظُه: **«سبحانَ الّذي سَخَّر لنا هذا وما كنّا له مُقْرِنينَ. وإنّا إلى ربِّنا لَمُنقَلِبون»**.

ـ ما كان أعجَبَ مشركي مكّةَ، كانوا يُحبُّونَ لأنفُسِهم البَنينَ، وفي نفسِ الوقت يجعَلونَ الملائكةَ بناتِ الله تعالى! فهل لديهم دليلٌ على أنّ الملائكةَ إناثٌ؟ أم أنّهم كانوا موجودينَ حين خَلَق اللهُ تعالى الملائكةَ، ورأَوْا عندَها أن الملائكةَ إناثٌ بالفعل؟

ـ كان من بينِ اعتراضاتِ مشركي مكّةَ أنه إذا كان اللهُ تعالى مُنزِلَ القرآنِ لا مَحالةَ، فلماذا لم يُنزِلْه على سيّدٍ من سادةِ مكّةَ أو الطائف، ولماذا أَنْزلَه على يتيم لا حِيلةَ له؟ وجاء الردُّ على هذا الاعتراضِ في هذه السُّورة بأنّ النُّبوةِ نعمةٌ من نِعَم اللهِ تعالى، ليس في اختيارِ البشَرِ تقسيمُها أو توزيعُها على أحدٍ، وإنّما هذا الاختيارُ عندَ الله تعالى فقطْ، وهو يَعلَمُ تمامَ العِلم مَن هو أهلٌ لهذه النِّعمة.

ـ جاء الحديثُ في هذه السُّورةِ عن العقائدِ الأساسيّةِ في الإسلام، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والرسالةَ والآخِرةَ، مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ الأخرى.

ـ جاء في هذه السُّورةِ تنبيهٌ للظالمينَ بأنّهم إنْ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فسيُواجِهونَ عذابًا أليمًا يومَ القيامة، وهناك سيكونُ أصدقاؤهم أيضًا أعداءً لهم، لكنّ المتَّقينَ سيظَلُّونَ بعضُهم لبعضٍ أصدقاءَ هناك أيضًا، ولن يُصيبَهم خوفٌ أو حُزنٌ بفَضْلٍ من اللهِ تعالى وكرَمٍ منه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاةِ عصرِ الحادي والعشرين من أبريل ٢٠١٠م
الموافقَ ٧ جمادى الأولى ١٤٣١هـ.

* * *

سُورَةُ الزُّخْرُفِ (٤٣)،

مكيةٌ (٦٣)، آياتها (٨٩)، ركوعاتها (٧)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

﴿حمٓ ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعاتٌ، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجعِ الحاشيةَ الأولى من سُورة البقرة.

﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾

٢ ـ القرآنُ المجيدُ كتابٌ مُنيرٌ وواضحٌ مِثلَ الشمس، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ أو ارتياب.

﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

٣ ـ أَنْزلَ اللهُ تعالى الوحيَ على كلِّ نبيٍّ بلُغةِ قومِه، والمخاطَبونَ الأُوَلُ للقرآنِ المجيدِ كانوا العربَ، ولهذا أَنْزلَ اللهُ تعالى القرآنَ المَجيدَ باللُّغةِ العربيّة، حتى لا يواجِهوا أيَّ صعوبةٍ في فَهْمِه.

﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾

٤ ـ القرآنُ المَجيدُ مُثبَتٌ عندَ الله تعالى في اللَّوح المحفوظ، وشأنُه رفيعٌ غايةَ الرِّفعة، وتعاليمُه تمتلئُ حِكمةً.

﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾

٥ ـ بَلَغ أهلُ مكّةَ المدى في تجاوزِهم الحدَّ، فالإنسانُ الذي كانوا يَعتبِرونَه حتى أمسِ هو الصّادقَ الأمينَ، يقولونَ عنه اليومَ: إنه ساحرٌ ومجنون! وبالتالي كان يجبُ أن تتوقَّفَ سلسلةُ نزولِ القرآنِ المَجيدِ عليهم بسببِ تعنُّتِهم وعنادِهم، وأن يُترَكوا يَعمَهُونَ في الضَّلال، لكنّ اللهَ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمة بِعبادِه، وسواءٌ آمَن أهلَ مكةَ أم لم يؤمنوا، فسيُنزِلُ اللهُ تعالى القرآنَ كاملًا، وسوف تستمرُّ سلسلةُ الوعظِ والنَّصيحة، حتى يهتديَ به من يتدبَّرُ فيه، أمّا الذين يُصِرُّونَ على عنادِهم وتَعنُّتِهم، فيكونُ هذا القرآنُ حُجّةً عليهم.

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٦ ـ هنا طَمْأنةٌ للنبيِّ ﷺ بأنه إذا كان كفّارُ مكّةَ يَسخَرونَ منك فإنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد سَخِرت الأُمَم السابقةُ من أنبيائهم الكرام عليهمُ السَّلامُ الذين أُرسِلوا من قَبلِك، ولكنْ في نهايةِ الأمر نَجَحت مهمّةُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام.

﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

٧ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنه قد مَضَت من قَبْلِكم أُممٌ كانوا أكثرَ مِنكم قوةً وعددًا ومالًا، وقد سَخِروا من الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام فأُهلِكوا، وقد جاء بيانُ أمثلةِ هؤلاءِ الأُمم في القرآنِ الكريم من قبلُ، وقد رأى أهلُ مكّةَ أثناءَ أسفارِهم التِّجاريّة قُراهم المدمَّرةَ، ولهذا إنْ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فسوف نُهلِكُهم أيضًا، وقد رأتِ الدُّنيا أنّهم قد أُهلِكوا في الغَزَواتِ المختلفة، وفي النِّهاية جاء يومٌ رَفْرفَتْ فيه رايةُ الإسلام على الجزيرةِ العربيّة كلِّها.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٨ ـ كان مشركو مكّةَ يَعترِفونَ بأنّ الله تعالى هو خالقُ الأرضِ والسّماءِ والمخلوقاتِ الأخرى، لكنَّهم جَعَلوا له شركاءَ من أَجْل ضروريّاتِ الحياة، وفي هذه الآيةِ يقالُ لهم: إنّ الذي خَلَق هذه الأرضَ العظيمةَ وهذه السّماءَ العاليةَ هو الغالبُ على الجميع، وهو ـ وحدَه ـ الذي يَستحِقُّ العبادة.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

٩ ـ في هذه الآياتِ ذَكَر اللهُ تعالى قُدرتَه ونِعَمَه حتى يتدبَّرَ الإنسانُ فيها ويشكُرَ اللهَ تعالى عليها. على سَبيل المثال: هَيّأَ اللهُ تعالى للإنسانِ في الأرضِ كلَّ

الوسائل التي تجعَلُه يعيشُ حياةً مطمئنّةً ومُريحةً حالَ استعمالِها، تمامًا مثلَما يشعُرُ الطِّفلُ بالراحةِ في مهدِه، كما أنّ اللهَ تعالى عرَّفَ الإنسانَ على طُرُقٍ ووسائلَ في الأرضِ يستطيعُ من خلالِها الوصُولَ إلى أهدافِه الدِّينيّةِ والدُّنيويّة.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾

١٠ ـ وهذا أيضًا من فَضْلِ اللهِ تعالى بأنه يُنزِّلُ المطرَ بصفةٍ عامّةٍ بالقَدَرِ الذي يستفيدُ منه العبادُ والبلاد، ولكنّه في بعضِ الأحيانِ أيضًا يُنبِّهُ الإنسانَ بسنواتِ قَحْطٍ ومَجاعة، وبسُيولٍ جارفةٍ كطُوفانِ نوح، حتى يشعُرَ الإنسانُ بأنّ نظامَ هذا المطرِ بيَدِ الله تعالى، فيُنزِّلُه عن طريقِ حَمْلِ الرِّيح للسُّحُبِ حيث يشاء، ولا تستطيعُ أيُّ حكومةٍ في هذه الدُّنيا أن تُغيِّرَ وِجهةَ الهواءِ والسُّحُبِ عَنْوةً إلى بلدِها، كما لا تستطيعُ أن توقفَ تقدُّمَ الأعاصيرِ والسُّيولِ إلى بلدِها أيضًا.

﴿فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾

١١ ـ في هذه الآيةِ بيَّنَ اللهُ تعالى مثالًا على إحياءِ الموتَى، يعني: الأرضُ المَيْتةُ الجافّةُ التي لا أثرَ لخُضرةٍ فيها، ويتطايَرُ الغبارُ والترابُ في كلِّ جانبٍ من فوقِها، ولكنْ حينَ تُمطرُها أمطارُ الرَّحمةِ تخضَرُّ هذه الأرضُ وتَيْنَعُ وتَنبُتُ فيها الزُّروعُ والمحاصيلُ، وتغطِّي الخُضرةُ الأرضَ كلَّها، وبنفسِ الطريقة عندَما تقتربُ القيامةُ ستكونُ المخلوقاتُ كلُّها قد ماتت وصارَتْ ترابًا، ولم يَبْقَ للحياة أيُّ أثرٍ في أيِّ مكان، وعندَما ينفُخُ سيّدُنا إسرافيلُ عليه السَّلامُ في الصُّور بأمرِ الله تعالى يَخرُجُ الموتَى جميعًا من قبورِهم مثلَما تَخرُجُ النباتاتُ من الأرض، وتمتلئُ الأرضُ بالبشَرِ في كلِّ مكان.

سَأل سيّدُنا أبو رَزِين العُقَيليُّ رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ قائلًا: يا رسولَ الله،

كيف يُحيي اللهُ الموتَى؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقِه؟ قال: «أَما مرَرْتَ بوادي أهلِكَ مَحْلًا؟»، قال: بلى، قال: «أَما مَرْرتَ به يهتَزُّ خَضِرًا؟»، قال: قلتُ: بلى، قال: «ثمّ مرَرتَ به مَحْلًا؟»، قال: بلى، قال: «فكذلك يُحيي اللهُ الموتَى، وذلك آيتُه في خَلْقِه»[1].

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾

١٢ ـ وجودُ الذَّكَرِ والأُنثى في كلِّ زوجٍ من بني الإنسانِ والحيَواناتِ الأخرى حقيقةٌ معروفة، يَعلَمُها كلُّ شخصٍ منذُ الزمنِ القديم، بينَما يعودُ اكتشافُ المذكَّرِ والمؤنَّث في النَّباتاتِ إلى القرنِ التاسعَ عشَرَ، لكنّ القرآنَ الكريمَ قد أعلنَ ـ قبلَ ألفٍ وأربعِمائة عام ـ أنّ في النباتاتِ مذكَّرًا ومؤنَّثًا أيضًا، وأنّ البذورَ تَنبُتُ وتُثمرُ من عمليّةِ التلقيح بينَهما، وهذا دليلٌ قاطعٌ على أنّ القرآنَ المَجِيدَ ليس من كلام البشَر، وإنّما هو كلامُ الله تعالى؛ لأنه لم يكنْ أحدٌ يَعلَمُ حتى وقتِ نزولِ القرآن الكريم أنّ في النباتاتِ أيضًا ذَكَرًا وأُنثى، بل إنّ القرآنَ الكريمَ ذَكَر أزواجًا لم يكنِ الناسُ يعلَمونَ عنها شيئًا حتى الآنَ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ رقم **٥** للآية رقم **٣** من سُورة الرعد (**١٣**).

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾

١٣ ـ إنّكم تركَبونَ الخُيولَ والجِمالَ وتسافرونَ عليها في البرّ، معَ أنّ هذَيْنِ النَّوعَيْنِ من الحَيواناتِ يتميَّزانِ بضخامةِ الجُثّة والقوةِ الكبيرة، لكنّ اللهَ تعالى سَخَّرها لكم، وتُسافرونَ في البحارِ عن طريقِ السُّفُن، والتي أوحَى اللهُ تعالى بصناعتِها إلى سيّدِنا نوحٍ عليه السلام: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [المؤمنون: ٢٧]،

---

(١) مسند أحمد، ٤: ١١ برقم ١٥٧٦١.

وكانت هذه هي وسائلُ السّفَرِ في الزَّمنِ القديم، واليومَ أيضًا تُستخدَمُ الجِمالُ والخيولُ والمراكبُ في السَّفَرِ والتنقُّل في بعضِ مناطقِ الدُّولِ الفقيرة، لكنّ العقلَ الإنسانيَّ قدِ اختَرع في هذا العصرِ ثلاثَ وسائلَ جديدةٍ للسفَر، يعني: القطارَ والسّيارةَ والحافلةَ للسفَر في البرِّ، والسُّفنَ الضَّخمةَ والعَبّاراتِ للسفَرِ في البحر، والطائراتِ للسفَرِ في الجوّ، والعقلُ الإنسانيُّ أيضًا من عطاءِ الله تعالى، ولهذا فإنّه ينبغي لنا أن نَذكُرَ نعمةَ الله علينا عندما نستخدمُ أيَّ وسيلةٍ من وسائلِ السَّفر، فهو الذي سَخَّر هذه الوسيلةَ لنا، ولو لم يُنعِم اللهُ تعالى علينا بنعمةِ العقلِ والذِّهن وقُدرتِهما لَما استطَعْنا ترويضَ الخيولِ والجِمال، ولَما استطَعْنا اختراعَ وسائلِ السفَرِ الأخرى، ولهذا علينا أن نَقرأَ دعاءَ السَّفر عندَ بدايةِ سَفَرِنا، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ كان إذا سافَرَ فركبَ راحلتَه كبَّر ثلاثًا ويقولُ: «﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾»(١).

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

١٤ ـ في الجزءِ الأوّل من دعاءِ السَّفَرِ نَعترِفُ بإحسانِ الله تعالى علينا بأنّه هو الذي سَخَّر لنا هذا المركَبَ، وفي الجزءِ الثاني من الدُّعاءِ نُقِرُّ بسَفَرِ الآخِرة، يعني: أن هناك سفَرًا آخَرَ قادمًا بعدَ سفَرِ هذه الدُّنيا هو سَفَرُ الآخِرة، والذي سنَمثُلُ بعدَه في حضرةِ ربِّنا جَلَّ وعلا، ولهذا يجبُ أن لا نرتكبَ في سَفَرِنا الدُّنيويِّ هذا ما يكونُ سببًا في نَدَمِنا وخَجَلِنا في سَفَرِ الآخِرة.

وفيه تنبيهٌ للإنسان بأنْ يتذكَّرَ معَ كلِّ سفرٍ من أسفارِ الدُّنيا سَفَرَ الآخِرةِ أيضًا، وهو سَفَرٌ على أيِّ حال قادمٌ لا مَحالةَ.

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ٤٦ برقم ٣٤٤٧.

﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾

١٥ ـ الأولادُ جزءٌ من آبائهم وضرورةٌ لهم أيضًا، لكنّ الله تعالى منزَّهٌ عن الولَدِ، والمشركونَ جاحِدونَ غايةَ الجحود، فهم ـ من ناحية ـ يَعترِفونَ بأنّ الله تعالى خالقُ الكلِّ، ومن ناحيةٍ أُخرى يُهينُونَه بأنْ جَعَلوا له بناتٍ.

أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

﴿ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴾

١٦ ـ المشركونَ يُحبُّونَ لأنفُسِهم البَنينَ فقطْ، ويكرَهونَ البناتِ، لكنَّهم يجعَلونَ البناتِ لله تعالى، معَ أنّ الله تعالى منزَّهٌ عن الوَلَدِ أصلًا، فلا وَلدٌ ولا بنت، وكان ينبغي للمشركينَ ـ إن كانوا لا بدَّ جاعلينَ لله ولدًا ـ أن يُحِبُّوا له تعالى ما يحبُّونَ لأنفُسِهم، ولكنْ كم هو ظُلمٌ عظيمٌ وعَدَمُ إنصافٍ لا مثيلَ له بأنّهم يُثبتُونَ لله تعالى ما يكرَهونَه لأنفُسِهم.

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

١٧ ـ المشركونَ يجعَلونَ البناتِ لله تعالى، وقد بَلَغت بهمُ الكراهيَةُ للبناتِ أنّهم كانوا إذا وُلِد لأحدِهم بنتٌ يَسْوَدُّ وجهُه من الحُزنِ والغضَب، فهو يَعُدُّ البنتَ ذُلًّا له، بل إنّ بعضَ القبائِل كانت تَدفُنُ البناتِ أحياءً.

لقد أحسَنَ الإسلامُ إلى المرأةِ إحسانًا ما بعدَه إحسانٌ، فقدِ اقتَلَع هذا التقليدَ القبيحَ من جذورِه، بحيث لم تقَعْ بعدَ الإسلام ولو حادثةٌ واحدةٌ لدَفْن البناتِ أحياءً، ولمزيدٍ من التفصيل عن الحالِ السيِّئ للبنتِ قبلَ الإسلام وفَضْلِها بعدَه راجعِ الحاشيةَ رقم ٣٧ للآية رقم ٥٨ من سُورة النَّحل (١٦).

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

١٨ ـ هنا بيانٌ لنقطتَيْ ضعفٍ فِطريَّتَيْنِ في المرأة، يعني: أنّها منذُ طفولتِها تكونُ مُغرَمةً بالزِّينة والحُلِيّ، ولهذا أجازَ لها الإسلامُ لُبسَ الذَّهبِ والحرير، ولكنّ كثيرًا منهُنَّ يُصبِحْنَ أكثرَ رقةً في مِزاجِهنَّ بسببِ الإغراقِ في التزيُّن، وهنَّ أكثرُ ضعفًا من الأصل مقارنةً بالرجُل، ولهذا فإنّ المرأةَ أكثرُ اضطرابًا وخوفًا، سواءٌ في مجالِ الحربِ أم في مجالِ البحثِ والتمحيص، وتتخلّفُ عن الرجُل في القوّةِ الجَسَديّةِ والقُدرةِ على النِّقاش والجَدَل، وهذا لا يمنَعُ من وجودِ بعضِ النِّساء اللائي يتميَّزْنَ بالشَّجاعةِ الفائقةِ والقوّةِ الجَسديّة، ولا يَضطَرِبْنَ من شيءٍ، لكنّ أكثريّةَ النساءِ يَضْطَرِبْنَ ويَخَفْنَ.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ لُبسَ الحُليِّ جائزٌ للنساء؛ لأنّ اللهَ تعالى قد جَعَل الحُليَّ للنساءِ أمرًا فِطْريًّا.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال:

«حُرِّم لباسُ الحريرِ والذَّهبِ على ذكورِ أُمّتي، وأُحِلَّ لإناثِهم»[١].

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾

١٩ ـ كان المشركونَ يدَّعونَ أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى، وفي هذه الآيةِ جاء الردُّ على ادِّعائهم هذا بأنّ الملائكةَ عبادُ الله المطيعونَ، وهم ليسوا نساءً ولا رجالا[٢]، وإنّما هم مخلوقاتٌ نُورانيّة، وما هو الدَّليلُ لدى المشركينَ على أنّ الملائكةَ إناثٌ؟ فإنْ لم يكنْ لديهم أيُّ دليلٍ نَقْليٍّ على هذا، فهل كانوا موجودينَ عندما خَلَق اللهُ الملائكةَ، ورأَوْا بأنفُسِهم أنّ الملائكةَ إناثٌ بالفعل؟ فإنْ لم يكونوا هناك وقتَها، ومعَ ذلك يَدَّعُونَ أنّ الملائكةَ إناثٌ، فإنّ شهادتَهم هذه ستُكتَبُ في صحائفِ أعمالِهم، وسوف يُسأَلونَ يومَ القيامة: على أيِّ أساسٍ ادَّعَوا هذا؟

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

٢٠ ـ من بينِ الأدِلّةِ التي كان المشركونَ يَستدِلُّونَ بها على شِركِهم: أنّهم يعبُدونَ الأصنامَ منذُ أجيالٍ عديدةٍ مضَتْ، فإنْ لم يكنِ اللهُ تعالى يحبُّ عبادتَنا هذه لَما أمكَنَنا القيامُ بها أبدًا، ولهذا فإنّ هذا يدُلُّ على أنّ اللهَ تعالى يحبُّ عبادتَنا هذه، ولهذا لم يمنَعْنا منها أو يوقِفْنا عنها.

في هذه الآيةِ جاء الردُّ ببُطلانِ ادِّعاءِ المشركينَ هذا بأنّ ما يقولونَ إنّما هو مجرَّدُ تخمينٍ وقياسٍ خاطئٍ من عندِ أنفُسِهم، وليس لديهم أيُّ دليلٍ معقولٍ عليه، ولو سَلَّمْنا بهذا المنطِق المزعوم للمشركينَ، فإنّ هذا يعني أنّ اللهَ تعالى أيضًا

---

(١) الترمذي، أبواب اللباس، باب ١ برقم ١٧٢٠.
(٢) تفهيم القرآن والتفسير العثماني.

يحبُّ تلك المظالمَ التي يرتكبُها قومٌ من الأقوام منذُ أجيالٍ عديدة كالسَّرِقة وقَطْع الطريق والقَتْل والسَّلْب والنَّهب، بالقَطْع لا، صحيحٌ أنّ اللهَ تعالى قادرٌ مطلَق، ولا يمكنُ أن يَحدُثَ شيءٌ بغيرِ قُدرتـِه ومشيئتِه، ولكنّ حِكمةَ الله تعالى ومشيئتَه تقتضي أن يفعَلَ الناسُ ما أمَرَهم اللهُ به برِضاهم وعن اختيارٍ منهم، وأن يَجتنِبوا كذلك وبنفسِ الطريقة ما أمَرَهم اللهُ تعالى باجتنابِه.

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾

٢١ ـ عندَما كان المشركونَ يُسألونَ: ما الدَّليلُ العَقْليُّ عندَكم على عبادتِكم الأوثانَ، وعلى أنّ الملائكةَ بناتُ الله تعالى؟ هل نَزَل عليكم ـ قبلَ القرآنِ ـ كتابٌ جَعَلَكم تُصِرُّونَ على هذا الشِّركِ العظيم؟ وعندَما لا يستطيعُ المشركونَ الردَّ بدليلٍ عَقْليٍّ أو نَقْليٍّ فإنّهم ـ في نهايةِ الأمر ـ يقولونَ: لقد وجَدْنا آباءنا وأجدادَنا يفعَلونَ هذا، ونحن نسيرُ على هَدْيِهم.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾

٢٢ ـ في هذه الآيةِ تَسْرِيةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنه إذا كان سادةُ مكّةَ وأغنياؤها لم يؤمنوا، ومُصِرِّينَ على تقليدِ آبائهم وأجدادِهم، فلا تنزعِجْ من هذا، فإنّ أولَ مَن كذَّب بالرُّسلِ والأنبياءِ الذين أرسَلْناهم من قَبْلِك في أيِّ مكانٍ كانوا هم الأغنياءُ والمرفَّهونَ في تلك الأماكن؛ لأنّهم يشعُرونَ بخطَرٍ مُحدِق على رفاهيَتِهم وحياتِهم المليئةِ باللَّهوِ والعَبَث، ولهذا فإنّهم لم يكونوا يتدبَّرونَ في دعوةِ نبيِّهم، وإنّما كانوا يُنكِرونَها بدافع من تعصُّبِهم وعنادِهم ليس إلّا.

غالبًا ما يكونُ أولَ المؤمنينَ بأيِّ نبيٍّ هم الضُّعفاءُ والفقراءُ من قومِه، فهمُ الذين يستمعونَ إلى دعوتـِه بتَمعُّنٍ وتدبُّر، ويؤمنونَ به بعدَ ذلك، بل إنّ من الأدِلّةِ

على صِدقِ أيِّ نبيٍّ أنّ الفقراءَ المساكينَ يكونونُ أولَ المؤمنينَ به، مثلَما سَألَ هِرَقْلُ أبا سفيانَ عن النبيِّ ﷺ، فيما رواه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما، أنّ أبا سُفيانَ بنَ حربٍ أخبَره أنّ هِرَقْلَ أرسَلَ إليه في ركبٍ من قُريشٍ... وسألتُك: أشرافُ النّاسِ اتَّبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكَرتُ أنّ ضُعفاءهم اتّبعوه، وهم أتباعُ الرُّسُل[1].

﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

٢٣ ـ قال نبيُّ اللهِ تعالى للمشركين: ألن تتّبِعوني حتى وإن أخبرتُكم بطريقٍ أفضَلَ من طريقِ آبائكم وأجدادِكم؟ فقالوا له: إنّنا لسنا على استعدادٍ لأنْ نترُكَ تقليدَ آبائنا وأجدادِنا ونتّبعَ دينَك أيًا كان الأمرُ.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾

٢٤ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، الأقوامُ التي كَذَّبت أنبياءها من قَبْلِك كان مصيرُهم في غايةِ السُّوء، وبنفسِ الطريقة لا تهتمَّ بكفّارِ مكّةَ، ولئنْ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم فسوف ننتقمُ منهم أيضًا.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٦ برقم ٧.

وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾

٢٥ ـ عندما رأى سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أباه العُرْفيَّ، يعني: عمَّه آزرَ، وقومَه مُبتَلَيْنَ بعبادةِ الأوثان، سأَلهم: لماذا تعبدونَ الأوثانَ؟ وهل عندَكم دليلٌ على صدقِ ما تفعَلون؟ فأجابوه بأنّهم وجَدوا آباءهم وأجدادَهم يعبُدونَ الأوثانَ، وعليه قال لهم سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلام: تقليدُ الآباء والأجدادِ تقليدًا أعمى ليس دليلًا على حَقّانيّةِ أيِّ شيءٍ وصدقِه، والحقيقةُ أنّ الأصنامَ لا تستحِقُّ العبادةَ أصلًا، ولهذا أنا بريءٌ منها، وعليكم أنتم أيضًا أن تُفكِّروا جيِّدًا: هل تليقُ العبادةُ بشيءٍ صنَعتُموهُ أنتم بأيديكم، أم يليقُ بها اللهُ تعالى الذي خَلَق السماءَ والأرض؟ ولهذا سواءٌ اقتَنَعتُم أم لم تَقْتنِعوا، فإنّني لن أعبدَ إلّا ذلك الذي خَلَقَني، وهو الذي سيَهديني، ويُثبِّتُني على الهداية.

ويُعلَمُ منه أنه لو كان التقليدُ الأعمى للآباءِ والأجدادِ حُجّةً لَما تحَدَّى سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ تقليدَ قومِه، ولهذا فإنّ التقليدَ الصَّحيحَ هو ذلك: الذي يكونُ لمن يسيرُ على طريقِ الحقِّ، أمّا من يكونُ ضالًّا في نفسِه فلا يمكنُه هدايةُ أحدٍ غيرِه، مثلَما يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: أن رسولَ الله ﷺ قال: «لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنّما الطّاعةُ في المعروف»[1].

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

٢٦ ـ لو أنّ مشركي مكّةَ يريدونَ التقليدَ فلا ينبغي لهم تقليدُ آبائهم وأجدادِهم،

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٨ برقم ٤٧٦٥.

وإنّما عليهم تقليدُ أشرفِ أجدادِهم سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ، الذي كان موحِّدًا في ذاتِه، وأوصى الأجيالَ من بعدِه بوصيّةِ التوحيد، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقد أبقَى اللهُ تعالى وصيّةَ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ هذه مستمرَّةً في أولادِه، حتى أنه وقتَ بَعْثةِ النبيِّ الكريم ﷺ كان هناك بعضُ الموحِّدينَ الذين كانوا يَرجِعونَ إلى اللهِ تعالى، برَغْم مرورِ قرونٍ عديدةٍ على الوصيَّة.

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾

٢٧ ـ كان لقُريشٍ مكّةَ مكانةٌ متميِّزةٌ بينَ قبائلِ الجزيرةِ العربيّةِ كلِّها لكونِها القائمةَ على أمرِ الكعبة، وكانت لهم بذلك فوائدُ دُنيويّةٌ عديدةٌ أيضًا، ولكنَّهم خَدَعوا بهذه النِّعَم الدُّنيويّةِ كثيرًا إلى درجةِ أنهم تَرَكوا التوحيدَ واتَّبعوا عبادةَ الأوثان، إلى أنْ جاءهم النبيُّ ﷺ ومعَه القرآنُ المجيد، وبيَّن لهم ـ بكلِّ وضوح ـ رسالتَه، فقالوا له: إنّ هذا القرآنَ سِحرٌ، ونحن لهذا لسنا على استعدادٍ للإيمانِ به.

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَ﴾

٢٨ ـ كان أولَ اعتراضٍ لمشركي مكّةَ هو أنّ النبيَّ ينبغي أن يكونَ من الملائكة، وأنه لا يمكنُ لبشَرٍ أن يكونَ نبيًّا، وحينَ قيل لهم ردًّا على هذا: إنّ الأنبياءَ الذين أُرسِلوا من قبلُ إلى البشَرِ كانوا بشَرًا مِثلَهم، عندَئذٍ قالوا: لو كان اللهُ تعالى مُرسِلًا بَشرًا بالضَّرورة لَأرسَلَ سيّدًا من سادةِ مكّةَ أو الطائفِ الأغنياء، فلماذا أرسَلَ يتيمًا مسكينًا نبيًّا؟ وفي هذه الآيةِ ردٌّ عليهم بأنّ النُّبوةَ نعمةٌ من نِعَم اللهِ تعالى ورحمةٌ منه، وليس لدى أحدٍ منكم الاختيارُ على تقسيمِها، واللهُ تعالى ليس مُلزَمًا بمَشُورتِكم،

فهو يَعرِفُ كلَّ إنسانٍ تمامَ المعرفة، وهو الذي يُنعِمُ بالنُّبوةِ على مَن يراه أهلًا لها.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾

٢٩ ـ ليس في الدُّنيا إنسانٌ يستطيعُ أن يعمَلَ بنفسِه كلَّ ضَروريّاتِ الحياة، على سَبيل المثال: الطّعامُ والشرابُ واللِّباسُ والمنازلُ والسَّيارةُ والبترولُ وغيرُها، ولهذا فَرَّق اللهُ تعالى بينَ الناسِ في المالِ والثَّروةِ والعقلِ والذِّهن، حتى يستطيعَ كلٌّ منهم أن يُفيدَ الآخَرَ طِبقًا لمَقْدرتِه وموهبتِه، ولو أنّ الناسَ جميعًا متساوونَ في المالِ والثَّروةِ والعقلِ والذِّهن لَما استطاع أحدٌ أن يُفيدَ الآخَرَ، على سَبيل المثال: لو أنّ الناسَ جميعًا زُرّاعٌ فمَن يَنسُجُ الملابسَ إذًا؟ ولو أنّ الناسَ جميعًا أساتذةٌ في المدارس، فمن يُعالجُهم في المستشفياتِ إذًا؟ على أيِّ حال، إذا لم يكنْ لأولئك المشركينَ دَخلٌ في تقسيم المالِ والثَّروةِ والعقلِ والفَهْم بينَ الناس، وإذا كان هذا التقسيمُ لا يكونُ إلّا بمشيئةِ الله تعالى فقط، فهو وحدَه إذًا الذي يُنعِمُ بالنُّبوة ـ التي هي أعلى درجةٍ في الإنسانيّة ـ ويَقسِمُها طبقًا لرِضاهُ ومشيئتِه، ولا يحتاجُ إلى الاستئذانِ من المشركينَ وسؤالِهم إنْ كان يُرسلُ نبيًّا من سادةِ الطائفِ أم يُرسلُ غيرَه.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

٣٠ ـ المرادُ بالرَّحمةِ هنا: النُّبوَّة، يعني: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، إنّ النُّبوةَ التي أنعَمْنا عليكَ بها لَهي أفضَلُ من كلِّ أموالِ الدنيا وثرواتِها التي يَجمَعُها هؤلاءِ الدُّنيويّونَ، والإيمانُ بنُبوّتِك أيضًا أفضَلُ من مالِ ومتاعِ أهلِ الدُّنيا هؤلاء.

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

٣١ ـ لا أهميّةَ لمالِ الدُّنيا وثَرَواتِها، ولا للذهبِ والفضّةِ عندَ الله تعالى، ولو لم يكنِ احتمالُ أن يَكفُرَ الناسُ لَأعطى الكفّارَ من المالِ والثروةِ بحيثُ تكونُ بيوتُهم وفُرُشُهم وسَلالمُهم وسُقُفُهم وأبوابُهم كلُّها من الذَّهبِ والفضّة.

ـ يقولُ سيّدُنا سَهلُ بن سَعْدٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لو كانتِ الدُّنيا تَعدِلُ عندَ الله جناحَ بَعُوضةٍ ما سَقَى كافرًا منها شَرْبةَ ماءٍ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: إنه حَضَر عندَ النبيِّ ﷺ «وإنّه لَعلى حَصِيرٍ ما بينَه وبينَه شيءٌ، وتحتَ رأسِه وسادةٌ من أَدَمٍ حَشْوُها ليفٌ، وإنّ عندَ رِجلَيْهِ قَرَظًا مَضْبورًا، وعندَ رأسِه أُهُبًا معلَّقةً، فرأيتُ أثرَ الحَصِير في جَنْبِ رسول الله ﷺ فبكَيْتُ، فقال: «ما يُبكيك؟». فقلت: يا رسولَ الله، إنّ كسرى وقَيْصرَ فيما هما فيه، وأنت رسولُ الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «أما تَرضَى أن تكونَ لهما الدُّنيا ولك الآخِرةُ؟»»[2].

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

٣٢ ـ كلُّ مالِ الدُّنيا ومتاعِها عارضٌ مؤقَّتٌ وخادع، ومحبّةُ هذه الأشياءِ تكونُ في قلوبِ الغافلينَ عن ربِّهم فقطْ، إلّا أنّ نِعَمَ الآخِرةِ دائمةٌ خالدة، وهي خاصّةٌ بأولئك الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى.

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه: «ارتَحَلتِ الدّنيا مُدبِرةً، وارتَحَلتِ الآخِرةُ مُقبِلةً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بَنُونَ، فكونوا من أبناءِ الآخِرة ولا تكونوا من أبناءِ الدّنيا،

---

(١) الترمذي، أبواب الزهد، باب ١٣ برقم ٢٣٢٠.

(٢) مسلم، كتاب الطلاق، باب ٥ برقم ٣٦٩٢.

فإنّ اليومَ عَملٌ ولا حساب، وغدًا حسابٌ ولا عمَل»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عليٌّ رضي اللهُ عنه عن الدنيا: «ليِّنٌ مَسُّها قاتلٌ سُمُّها»[٢].

وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

٣٣ ـ الشَّخصُ الذي يَذكُرُ اللهَ تعالى ولا يَعصيهِ لا يقتربُ الشّيطانُ منه، لكنّ الذي يُعرِضُ عن ذِكرِ الله تعالى ويُصبحُ عبدًا لشهَواتِه، فمنَ الواضح أنه هو الذي اختارَ طريقَ الشّيطان، ولهذا يتجاهَلُه توفيقُ الله تعالى، ويصيرُ الشّيطانُ قرينَه وصديقَه، فيُرغِّبُه دائمًا في ارتكابِ السُّوء، وهذا الشّيطانُ قد يكونُ من الجِنِّ، فيُلقي بالوساوسِ في قلبِه، وقد يكونُ هذا الشّيطانُ من الإنسِ أيضًا، فيَحُضُّه دائمًا على فعلِ السُّوءِ ليلَ نهارَ.

﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

٣٤ ـ الذين يَترُكونَ اللهَ تعالى ويُصادقونَ الشّياطينَ، تُحيطُ بهم الشّياطينُ من

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤.

(٢) التفسير الكبير، سورة آل عمران (٣): الآية ١٨٥.

كلِّ جانب، بحيثُ لا يدَعونَهم يذهبونَ إلى الطريقِ المستقيم، وإنّما تُزيِّنُ الشّياطينُ لهمُ السيِّئاتِ بحيث يتصوَّرُ هؤلاءِ الضّالُّونَ منَ الناسِ أنّهم هم المهتَدُون.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾

٣٥ ـ عندَما يُبعَثُ ذلك الرجُلُ الضالُّ يومَ القيامة، يَأخُذُ في توبيخ قرينِه الشّيطانِ قائلًا: ليتَنا كنّا بعيدينَ عن بعضِنا بحيث لم نَلتقِ في حياتِنا أبدًا، فأنت قرينُ سُوء، وقد أفسَدْتَ آخِرتي. ولكنّ النَّدمَ يومَ القيامة لا طائلَ من ورائه، وسيقالُ لهم: كنتُم شُركاءَ في مظالم الدنيا، لهذا ستكونونَ شُركاءَ الآنَ في العذابِ أيضًا.

ومن يعصي الله تعالى اليومَ برُفقتِه للضالِّين، عليه ـ بأسرع ما يمكنُ ـ أن يبتعدَ عن هذه البيئةِ والصُّحبةِ السيِّئة، وإلّا فإنه لن تكونَ هناك أيُّ فائدةٍ لتَلاوُمِكم وتوبيخ بعضِكم بعضًا يومَ القيامة، وإنّما ستأخُذُكم جميعًا الملائكةُ وتُلقي بكم في جهنَّم.

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾

٣٦ ـ يعني: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد بَلَّغتَ الرِّسالةَ حقَّ التبليغ، أمّا الذين يَنكَبُّونَ على ضلالِهم صُمٌّ وعُمْيٌ، ولا يؤمنونَ بك، فلا تحزَنْ عليهم ولا تغتمَّ من أَجْلِهم؛ لأنهم هم الذين وَضَعوا على أعيُنِهم وآذانِهم غشاوةً وحِجابًا من الضَّلالِ الصَّريح والعنادِ السافر.

﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴾

٣٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لئنْ لم يَرجِعْ كفّارُ مكّةَ عن طُغيانِهم لَانتقَمْنا منهم على وجهِ اليقين، والعذابُ الذي توعَّدناهم به سيَنزِلُ عليهم تأكيدًا، ولكنّ هناك وقتًا محدَّدًا لعذابِ كلِّ فرد، فالبعضُ سيَلقَى مصيرَه أمامَك، مثلَما حَدَث

في غزوةِ بدر، والبعضُ سيُعذَّبُ بعدَ انتقالِك للرَّفيقِ الأعلى، والذين أعطَيْناهم مُهلةً في هذه الدُّنيا لحِكمةٍ عندَنا، لن يستطيعَ مجرمٌ منهم أن يُفلتَ من العقابِ يومَ القيامة بأيِّ حالٍ من الأحوال؛ لأنّ اللهَ تعالى قادرٌ على المخلوقاتِ جميعِها.

﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

٣٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لا شكَّ أنك جادٌّ في سَيْرِك على الطريقِ القويم، فتمسَّكْ بقوّةٍ بهذا القرآنِ المجيدِ الذي يُنزَّلُ عليك، وإذا لم يؤمنْ كفّارُ مكّةَ بالقرآنِ المَجيد فلا تَقْلقْ بشأنِهم، فهم مسئولونَ عن أفعالِهم القبيحة.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

٣٩ ـ رَغْمَ أنّ القرآنَ الكريمَ باعِثٌ على النصيحةِ والعزّةِ للناسِ جميعًا، لكنْ جاء ذِكرُ اسم النبيِّ ﷺ لأنّ هذا الكتابَ الشّريفَ العزيزَ قد أُنزِل عليه ﷺ، وذَكَر قومَه لأنّ المخاطَبينَ الأُوَلَ للقرآنِ الكريم هم أهلُ الجزيرةِ العربيّة، وهذا أيضًا شرفٌ خاصٌّ بهم بأنْ أُنزِل القرآنُ الكريمُ بلُغتِهم.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «والصَّحيحُ أنه شَرفٌ لمن عَمِلَ به، كان من قُريشٍ أو من غيرِهم»[(١)].

﴿ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

٤٠ ـ سيُسألُ النبيُّ ﷺ يومَ القيامة: ماذا فَعَل الناسُ معَه عندَما دعاهم إلى القرآنِ المجيد؟ وسيُسأَلُ المسلمونَ بأنّ الله تعالى شرَّفَهم بكتابٍ عظيم الشّأن هو القرآنُ الكريم الذي يَحْوي بداخلِه نظامًا لهدايةِ بني الإنسانِ جميعًا، فإلى أيِّ مدًى عَمِلوا بالقرآنِ المَجيدِ هذا؟ وما الدَّورُ الذي قاموا به في تبليغ نُورِ الهدايةِ للآخرين؟

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿ وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

٤١ ـ في هذه الآيةِ أُمِر النبيُّ ﷺ أن يَسألَ الأنبياءَ السابقينَ عليهمُ السَّلام، وليس معنى هذا ـ والعياذُ بالله ـ أنّ النبيَّ ﷺ كان يشُكُّ فيما يتعلَّقُ بالتوحيد، على العكسِ من ذلك، فقد كان ﷺ على يقينٍ كاملٍ بالتوحيد، كما كان على يقينٍ كاملٍ أيضًا بأنّ الأنبياءَ السّابقينَ عليهمُ السَّلامُ كانوا موحِّدينَ كذلك، وإنّما المقصودُ من هذه الآيةِ ـ في الأصل ـ هو إخبارُ المشركينَ بأنه إذا سَألَ النبيُّ ﷺ الأنبياءَ السابقينَ عليهمُ السَّلام، أو الذين اتَّبعوهم على حقٍّ، فسيكونُ الجوابَ هو أنّ اللهَ تعالى لم يجعَلْ أحدًا غيرَه إلهًا، فعلى أيِّ أساسٍ يعبُدُ المشركونَ الأصنام؟

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾

٤٢ ـ عندَما ذَهَب سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ـ بأمرِ الله تعالى ـ إلى فِرعَونَ ورجالِه، وأخبرَهم أنه رسولٌ من اللهِ تعالى، وقدَّم لهم معجزةَ العصَا واليدِ البيضاء،

تيقَّن هؤلاءِ ـ من قلوبِهم ـ أنّ هذا ليس سِحرًا، مثلَما مرَّ في الآيةِ رقم **١٤** من سُورةِ النَّمل (**٢٧**)، لكنَّهم من بابِ طَمْأنةِ عامّةِ الناس لديهِم سَخِروا من هذه المعجزاتِ مُدَّعينَ أنها ليست حقيقيّةً، وإنّما هي سِحرٌ وخيالٌ، وأنّهم أيضًا يستطيعونَ أن يقدِّموا مِثلَها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

٤٣ ـ لقد أرى اللهُ تعالى معجِزاتٍ عظيمةً عديدةً لِفرعَونَ ورجالِه، ولكنْ حينَ لم يؤمنوا برَغْم ذلك سَلَّط عليهم أنواعًا مختلفةً من العذابِ حتى يَعتبِروا ويَرجِعوا عن طُغيانِهم، وقد جاء ذِكرُ هذه الأنواع من العذابِ في الآيةِ رقم **١٣٣** من سُورةِ الأعراف (**٧**)، وعلى سَبيل المثال: نَزَل المطرُ بغَزارةٍ بحيث أَغرَقَ كلَّ شيء، ووَصَلتْ مياهُ الأمطارِ حتّى أعناقِهم، ثم دَمَّر الجَرادُ محاصيلَهم، ثم أَقَضَّت مضاجعَهم كثرةُ القُمَّل في ملابسِهم ورءوسِهم وأبدانِهم، ثم تَسلَّلتِ الضَّفادعُ بكثرةٍ إلى بيوتِهم وأطعِمتِهم وفُرُشِهم، بحيث حَرَّمت عليهمُ الطّعامَ والشرابَ والنَّومَ، ثم تبدَّلت مياهُ الشّربِ في آبارِهم وبيوتِهم وفي كلِّ مكانٍ إلى دماءٍ، وكادت أرواحُهم تَزهَقُ من شدّةِ العطش، لكنّهم حينَ لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم بعدَ كلِّ هذا أَغرقَهم اللهُ في الماء.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

٤٤ ـ نَزَل بفِرعونَ ورجالِه أنواعٌ مختلفةٌ من العذابِ ممّا ذَكَرْناهُ في الحاشيةِ السابقة، وكانوا كلَّما نَزَل عليهم عذابٌ جاءوا إلى سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ وقالوا: إنَّ ربَّك رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، وقد وَعَدَك أن يَستجيبَ لدعائك، وأن يَرفَعَ العذابَ عمَّن يَقبَلُ الهدايةَ، ولهذا ادعُ لنا ربَّكَ، فإنْ رَفَع عنا هذا العذابَ بدُعائك

فسوف نؤمنُ ونهتدي يقينًا، ولكنّ هؤلاءِ كانوا في غايةِ الجُحود وخُلْفِ العهد، إذْ كلَّما يَسَّر اللهُ مشكلةً حَلَّت بهم بفَضْلِ دعاءِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، خَلَفوا وعودَهم فورًا ولم يؤْمنوا.

﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾

٤٥ ـ حينَ رُفِع العذابُ بفَضْل دعاءِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام خَشِي فِرعونُ أن يَميلَ قومُه إلى سيّدِنا موسى عليه السَّلام، ولهذا قال لقومِه في خطابٍ خاصٍّ مبيِّنًا أهميَّتَه وفَضْلَه: إنّكم تَعلَمونَ جيِّدًا أنّي مَلِكُ مِصرَ، وقد شقَقْتُ جداولَ وأنهارًا من نهرِ النِّيل أيضًا، وهي تَجري من تحتِ قصوري، ولهذا فإنّ موسى عليه السَّلامُ لا يساوي شيئًا قياسًا بي، فهو عبدٌ فقيرٌ، وكانت في لسانِه لَكْنةٌ من قبلُ، ولهذا لم يكنْ يستطيعُ الكلامَ بشكلٍ طبيعيٍّ، والآنَ يقولُ كلامًا عجيبًا وغريبًا لا نفهَمُه. الحقيقةُ أنّ هذا الشَّخصَ يريدُ أن يُخرِجَنا من بلادِنا ويَستوليَ هو عليها، ولهذا عليكم أن تتجنَّبوا ما يقولُ.

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

٤٦ ـ كان من الشائع في عصرِ الفِرعَونِ أنّ من يُعيِّنُه المَلِكُ ممثِّلًا خاصًّا له يَلبَسُ أساورَ من ذهبٍ، ويُعطَى له كتيبةٌ من الشَّبابِ يكونونَ معَه دائمًا، فقال فِرعونُ لقومِه مشيرًا إلى هذا الجانبِ: لو أنّ ربَّ العالَمينَ أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ نبيًّا له، لَكانت في يدِه أساورُ من ذَهَبٍ، معَ أنّ لُبسَ الأساورِ الذَّهبيّة قد يكونُ علامةً على الثَّراء، ولكنْ ليس دليلًا على النُّبوة؛ لأنّ النُّبوةَ نعمةٌ خاصّةٌ يُنعِمُ بها اللهُ تعالى على مَن يشاء. ثم قَدَّم الفِرعونُ هذا الدَّليلَ ضدَّ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ قائلًا: لو أنّ موسى عليه السَّلامُ نبيٌّ حقًّا لَكانت معَه جماعةٌ من الملائكةِ تشهَدُ بنُبوّتِه،

معَ أنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ كانت معَه ملائكةٌ لم يكونوا يستطيعونَ رؤيتَهم، ولو أنّهم جاءوا في شكلِ بشَرٍ لَاعتَرضَ الناسُ قائلين: إنّهم بشَرٌ وليسوا ملائكةً.

﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

٤٧ ـ لقد جَعَل الفِرعونُ بكلامِه المعسول قومَه يقتنِعونَ بأنّ الفِرعونَ وحدَه مُحِبٌّ لخيرِهم، بل إنّ أولئك الذين توَلَّد في قلوبِهم جانبٌ من التعاطُفِ معَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام قدِ اقتنَعوا هم أيضًا بكلام الفِرعَون، وكان المصريُّونَ من قبلُ يعيشونَ حياتَهم في فسقٍ وفجورٍ ومعصيةِ الله عزَّ وجَلّ، ولهذا أثَّر عليهم كلامُ الفِرعَونِ بسهولةٍ وبشكلٍ كبير، وظلُّوا قائمينَ على عصيانِهم.

﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٤٨ ـ ظَلَّ فِرعونُ ورجالُ قومِه يُخلِفُونَ وعودَهم وعهودَهم معَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام بشكلٍ مستمرٍّ، وحينَ وَصَل طُغيانُهم وعصيانُهم منتهاهُ عاقَبَهم اللهُ تعالى بإغراقِهم جميعًا في الماء، وجَعْلِهم عِبرةً وآيةً لكلِّ الأجيالِ التي تأتي من بعدِهم.

وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾

﴿ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾

٤٩ ـ هناك رواياتٌ مختلفةٌ فيما يتعلَّقُ بنزولِ هذه الآياتِ، وخُلاصتُها أنّ النبيَّ ﷺ تَلا هذه الآيةَ أمامَ المشركينَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقال عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى الذي كان كافرًا يومَئذٍ: هل هذه الآيةُ لنا ولآلهتِنا أم لكلِّ الأقوام؟ فقال النبيُّ ﷺ: إنّها للجميع. وعليه قال ابنُ الزِّبَعْرَى: معنى هذا أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ هو الآخَرُ سيَدخُلُ جهنَّم، والعياذُ بالله؛ لأنه يُعبَدُ أيضًا، وفي رأيك أنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ أفضَلُ من أصنامِنا، فإذا كان سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ سيَدخُلُ جهنَّمَ فلا حَرَجَ إذًا، سنكونُ نحن أيضًا معَه. سَمِع المشركونَ هذا فصاحوا فَرِحينَ وأثاروا صَخَبًا وضَجّة، وعليه قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: الشخصُ الذي يحبُّ أن يَترُكَ الناسُ اللهَ تعالى ويعبُدونَه هو، سيكونُ هو ومَن يتَّبِعُه في جهنَّم، لكنّ سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ لم يَأمُرْ أحدًا أبدًا أن يعبُدَه، بل إنه كان دائمًا يدعو إلى التوحيد، ولهذا فلا ذنبَ لسيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ فيما فَعَلوا، والذَّنبُ هو ذنبُ أولئك الذين عبَدوه من بعدِه. ورَغْم أنّ المشركينَ كانوا يَعرِفونَ هذه الحقيقةَ بأنّ أمرَ الأصنام مختلفٌ عن أمرِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، لكنْ لأنّهم كانوا متطرِّفينَ في عداوتِهم للإسلام ومخالفتِهم له، لهذا كانوا كثيرًا ما يختلقونَ الحِيَلَ والأسبابَ وينهمِكونَ في الجِدالِ والخِصام.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

٥٠ ـ لقد خَلَقْنا سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ، وجَعَلْناه آيةً لبني إسرائيلَ على قُدرتِنا، وقد أنعَمْنا عليه بمعجزاتٍ عظيمة، كان من خلالِها يعيدُ البصرَ إلى مَن وُلِد أعمى، ويُبرئُ الأكمَهَ والأبرَصَ، ويُحيي الموتَى، لكنّه ـ بالرَّغم من كلِّ هذا ـ كان عبدًا مقدَّسًا مُطيعًا لنا، وقد دعا دائمًا إلى التوحيد، ولم يَدَّعِ الأُلوهيّةَ أبدًا.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

٥١ ـ يعني: مثلَما خَلَقْنا سيّدَنا عيسى عليه السَّلامُ بغير أبٍ، نستطيعُ كذلك إذا أرَدْنا أن نَخلُقَ الملائكةَ الذين يَخلُفونَـكم في الأرضِ بدَلًا من أولادِكم، ومعَ ذلك لن يكونَ سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ مستحِقًّا للعبادة، كما لن تكونَ الملائكةُ بذلك مستحِقّةً للعبادةِ أيضًا، وإنّما الذي تليقُ العبادةُ به هو اللهُ تعالى وحدَه الذي خَلَقَ الجميعَ.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾

٥٢ ـ أحدُ التفاسيرِ لهذه الآية أنّ نزولَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ علامةٌ على قُربِ قيام السّاعة. يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقال ابنُ عبّاسٍ ومجاهدٌ والضّحّاكُ والسُّدِّيُّ وقَتادةُ أيضًا: إنّه خروجُ عيسى عليه السَّلامُ، وذلك من أعلام السّاعة؛ لأنّ اللهَ يُنزِّلُه من السّماءِ قُبَيْلَ قيام السّاعة، كما أنّ خروجَ الدّجّالِ من أعلام السّاعة. وقَرأَ ابنُ عبّاسٍ وأبو هريرةَ وقَتادةُ ومالكُ بنُ دينارٍ والضّحّاكُ «وإنّه لَعَلَمٌ للسّاعةِ» (بفتح العَيْنِ واللّام) أي: أَمَارةٌ»[1].

وتفسيرٌ آخَرُ لهذه الآية، هو: أنّ ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ دليلٌ على وجودِ القيامة، يعني: مثلَما أنّ ولادةَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ أمرٌ خارقٌ

---

(١) تفسير القرطبي.

للعادة، لكنّه حَدَث بالفعل، كذلك فإنّ إحياءَ الموتَى من جديدٍ رَغْم أنه أيضًا خارقٌ للعادة، لكنّه سيَحدُثُ تأكيدًا؛ لأنّ هذا هو حُكمُ الله تعالى، وهو القادرُ على كلِّ شيء.

ونَقَل العلّامةُ القُرطبيُّ في هذا الخصوصِ هذا القولَ: «إنّ إحياءَ عيسى الموتَى دليلٌ على الساعةِ وبَعْثِ الموتَى»[1]، يعني: أنه إذا كان سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ يستطيعُ أن يُحييَ الموتَى، فإنّ اللهَ تعالى الذي هو خالقُ سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ يستطيعُ أن يُحييَ الناسَ جميعًا يومَ القيامة، ولهذا فإنّ قيامَ الساعةِ أمرٌ يقينيٌّ، ولا مجالَ لأيِّ شكٍّ فيه.

نزول سيدنا عيسى عليه السلام

يقولُ العلّامةُ الزَّمخشَريُّ في تفسيرِ الآية رقم ٤٠ من سُورة الاحزاب: «فإنْ قيل: كيف كان آخِرَ الأنبياء وعيسى يَنزِلُ في آخِرِ الزَّمان؟ قلت: معنى كونِه آخِرَ الأنبياء أنه لا يُنبَّأُ أحدٌ بعدَه، وعيسى ممَّن نُبِّئ قبلَه، وحين يَنزِلُ يَنزِلُ عاملًا على شريعةِ محمّد، مصَلِّيًا إلى قِبلتِه، كأنه بعضُ أُمّتِه»[2]، مثلَما جاء الأنبياءُ جميعًا عليهم السَّلامُ إلى المسجدِ الأقصَى ليلةَ المعراج، وصَلُّوْا جماعةً وراءَ نبيِّنا ﷺ، معَ أنّهم بُعِثوا أنبياءَ من قبلِه.

بعض الأحاديث النبوية عن نزول سيدنا عيسى عليه السلام

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «والّذي نَفْسي بيدِه، لَيوشِكَنَّ أنْ يَنزِلَ فيكم ابنُ مريَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فيكسِرُ الصّليبَ، ويقتُلُ الخِنزير،

---

(١) تفسير القرطبي.

(٢) تفسير الكشاف.

ويضَعُ الجِزْيَة، ويَفيضُ المالُ حتّى لا يَقبَلَه أحدٌ، حتّى تكونَ السَّجدةُ الواحدةُ خيرًا من الدُّنيا وما فيها»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقومُ السّاعةُ حتّى يَنزِلَ فيكمُ ابنُ مريَمَ حَكَمًا مُقسِطًا، فيكسِرُ الصَّليبَ، ويقتُلُ الخِنزير، ويضَعُ الجِزْيةَ، ويَفِيضُ المالُ حتّى لا يَقبَلَه أحدٌ»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كيف أنتم إذا نَزَل ابنُ مريَمَ فيكم وإمامُكم منكم؟»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي الله عنه: «اطَّلَع النّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: «ما تَذاكَرون؟». قالوا: نَذكُرُ السّاعةَ. قال: «إنّها لن تقومَ حتّى ترَوْا قبلَها عشْرَ آياتٍ». فذكَر الدُّخَانَ والدَّجّالَ والدّابّةَ وطلوعَ الشّمسِ من مغربِها ونُزولَ عيسى ابن مريَم ﷺ ويَأجُوجَ ومَأْجوجَ وثلاثةَ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغربِ وخَسْفٌ بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من اليمنِ تَطرُدُ النّاسَ إلى محشَرِهم»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا نُواسُ بن سَمْعانَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ صباح: «إذا بَعَث اللهُ المسيحَ ابنَ مريَمَ فيَنزِلُ عندَ المنارةِ البيضاءِ شَرْقيَّ دمشقَ بينَ مَهرُودتَيْنِ واضعًا كفَّيْه على أجنحةِ مَلَكَيْنِ إذا طَأطأَ رأسَه قَطَر، وإذا رَفَعه تحَدَّر منه جُمَانٌ كاللُّؤلؤ»(٥).

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥١ برقم ٣٤٤٨.
(٢) البخاري، كتاب المظالم، باب ٣١ برقم ٢٤٧٦.
(٣) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥١ برقم ٣٤٤٩.
(٤) مسلم، كتاب الفتن، باب ١٣ برقم ٧٢٨٥.
(٥) مسلم، كتاب الفتن، باب ٢٠ برقم ٧٣٧٣.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس بيني وبينَه نبيٌّ ـ يعني عيسى ـ وإنّه نازلٌ، فإذا رأيتُموه فاعرِفوه، رجُلٌ مربوعٌ إلى الحُمرةِ والبياضِ بينَ مُمَصَّرتَيْنِ كأنّ رأسَه يَقطُرُ وإن لم يُصِبْه بَلَلٌ، فيقاتلُ النّاسَ على الإسلام، فيَدُقُّ الصّليبَ ويقتُلُ الخِنزيرَ ويضَعُ الجِزْيَةَ، ويُهلِكُ اللهُ في زمانِه المِلَلَ كلَّها إلّا الإسلامَ، ويُهلِكُ المسيحَ الدّجّالَ فيَمكُثُ في الأرضِ أربعينَ سنةً ثمّ يُتَوفّى فيُصلّي عليه المسلمون»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه: «مكتوبٌ في التّوراةِ صفةُ محمّدٍ: وعيسى ابنِ مريَمَ يُدفَنُ معَه. قال: فقال أبو مودودٍ: وقد بقي في البيتِ موضعُ قبرٍ»[2].

﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

٥٣ ـ يعني: عليكم أن تختاروا اتِّباعَ نبيِّ الله ﷺ، فهذا هو الطريقُ المستقيم، وابتَعِدوا عن الشّيطانِ؛ لأنه لكُم عدوٌّ مُبين.

﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

٥٤ ـ حَرَّفَ اليهودُ في التوراةِ بعدَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وانقَسَموا ـ بسببِ ذلك ـ إلى فِرَقٍ عديدةٍ، ثم جاءهم سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ بالمعجزاتِ الواضحة، وقال لبني إسرائيلَ: لقد جئتُ إليكم بالإنْجِيل مبعوثًا من اللهِ تعالى نبيًّا، وذلك لكي أُوضِّحَ لكم بشكلٍ كاملٍ حقيقةَ كلِّ المسائلِ الأساسيّةِ الخاصّةِ بالأعمالِ والعقائد التي اختَلفتُم فيها، ولهذا ينبغي أن تتّقوا اللهَ وتعبُدوه هو وحدَه؛ لأنّ هذا هو الصِّراطُ المستقيم.

---

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب ١٤ برقم ٤٣٢٤.

(٢) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٣ برقم ٣٦١٧.

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

٥٥ ـ هناك آراءٌ مختلفةٌ لدى أهلِ الكتابِ فيما يتعلَّقُ بسيّدِنا عيسى عليه السَّلام، فقد قَلَّل اليهودُ من شأنِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام إلى درجةٍ بَلَغتْ حدَّ الإجرام، وبدَلًا من أن يَعترِفوا بمولدِه المُعجِز، اتَّهموا السيّدةَ مريَمَ كذبًا وزُورًا، وحاولوا فاشلينَ قَتْلَ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، كما أخطَأَ النَّصارى أيضًا في فَهْم مولدِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام المعجِز وضَلُّوا في ذلك، معَ أنّ مثالَ خَلْقِ سيّدِنا آدمَ عليه السَّلامُ بغيرِ أبٍ وأُمٍّ كان أمامَهم، ولكنّهم برَغْم ذلك جَعَلوا من سيّدِنا عيسى عليه السَّلامُ لُغزًا عجيبًا، فهو عندَ فرقةِ النُّسْطُوريّة النَّصرانيّة ابنُ الله تعالى، وعندَ فرقةِ المَلْكانيّةِ النَّصرانيّة ثالثُ ثلاثةٍ آلهة، وعندَ الفرقةِ اليَعقوبيّةِ النَّصرانيّة اللهُ نفسُه. وباختصار: فقد فَرَّط اليهودُ في شأنِ سيّدِنا عيسى عليه السَّلام، بينَما أَفْرطَ النَّصارى فيما يتعلَّقُ به[1].

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

٥٦ ـ عندَما يُنذَرُ الظالمونَ بالعذاب، فلأنَّهم يُنكرونَ القيامةَ، لهذا يظَلُّونَ في انتظارِ متى تقومُ الساعةُ حتى يرَوْها بأعيُنِهم فيؤمنوا بها، ولكنْ ينبغي لهم أن يَعلَموا أنَّ الساعةَ ستقومُ بَغْتةً، ولن يكونَ لديهم عِلمٌ مُسبَقٌ بها، والإيمانُ الذي يكونُ بعدَ رؤيةِ القيامة لن يكونَ مقبولًا، وسوف يندَمونَ عندَئذٍ كثيرًا، ولهذا ينبغي لهم أن يتوبوا قبلَ قيام الساعة. ولمزيدٍ من التفصيل عن قيام الساعةِ بَغْتةً راجع الحاشيةَ رقم **٣٢** للآية رقم **٤٩** من سُورة يس (**٣٦**).

---

(١) «اختلف الأحزاب بينهم. وقال قتادة: أي: ما بينهم، فاختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى عليه السّلام. فاليهود بالقدح والسّحر. والنّصارى قالت النّسطوريّة ـ منهم ـ: هو ابن الله. والملكانيّة: ثالث ثلاثةٍ. وقالت اليعقوبيّة: هو الله، فأفرطت النّصارى وغلت، وفرّطت اليهود وقصّرت». تفسير القرطبي، سورة مريم (**١٩**): الآية **٣٧**.

يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «مِن أشراطِ السّاعة أن يَقِلَّ العلمُ، ويَظهَرَ الجَهْلُ، ويظهَرَ الزّنا، وتكثُرَ النّساءُ ويَقِلَّ الرّجالُ، حتّى يكونَ لخمسينَ امرأةً القيِّمُ الواحد»[1].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

٥٧ ـ الذين يَتصادقونَ فيما بينَهم من أَجْل الأهدافِ والمصالح الدُّنيَويّة، ولا يُبالونَ في سَبيل ذلك بالحلالِ والحرام، ستنتهي صَداقتُهم هذه يومَ القيامة، ليس هذا فقطْ، وإنّما سيُعادي كلٌّ منهم الآخَرَ، وعلى العكسِ من هؤلاءِ فإنّ الذين يتَصادَقونَ فيما بينَهم إرضاءً لله تعالى، ويتَّقونَ اللهَ تعالى دائمًا، ستبقَى صَداقتُهم يومَ القيامة، وسيُعِينُ كلٌّ منهمُ الآخَرَ.

ويَنقُلُ الحافظُ ابنُ أبي حاتم في تفسيرِ هذه الآيةِ قولَ سيّدِنا عليٍّ رضي اللهُ عنه «﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، قال: خليلانِ مؤمنان، وخليلانِ كافران، فتُوفِّي أحدُ المؤمنَيْنِ وبُشِّر بالجنّة فذَكَر خليلَه، فيقولُ: اللّهُمّ، إنّ فلانًا خليلي كان يأمُرُني بطاعتِك وطاعةِ رسولِك، ويأمُرُني بالخيرِ وينهاني عن الشّرّ، ويُنبّئُني أنّي مُلاقيك، اللّهُمَّ فلا تُضِلَّه بعدي حتّى تُريَه مِثلَ ما أَريْتَني، وترضَى عنه كما رَضِيتَ عنّي، فيقالُ له: اذهَبْ، فلو تَعلَمُ ما لهُ عندي لَضَحِكْتَ كثيرًا وبكَيْتَ قليلًا. قال: ثمّ يموتُ الآخَرُ، فتجتمعُ أرواحُهما، فيقال: لِيُثْنِ أحدُكما على صاحبِه، فيقولُ كلٌّ واحدٍ منهما لصاحبِه: نِعمَ الأخُ، ونِعمَ الصّاحبُ، ونِعمَ الخليلُ. وإذا مات أحدُ الكافرَيْنِ وبُشِّر بالنّار ذَكَر خليلَه فيقول: اللّهُمَّ إنّ خليلي فلانًا كان يأمُرُني بمعصِيتِك ومعصيةِ رسولِك، ويأمُرُني بالشّرِّ ويَنْهاني عن الخير، ويُخبِرُني أنّي غيرُ مُلاقيك، اللّهُمَّ فلا تَهْدِه بعدي حتّى تُريَه مِثلَ ما أَرَيْتَني وتَسخَطَ

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ٢١ برقم ٨١.

عليه كما سَخِطتَ علَيَّ. قال: فيموتُ الكافرُ الآخَرُ، فيُجمَعُ بينَ أرواحِهما فيقال: لِيُثْنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحبِه. فيقولُ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبِه: بئسَ الأخُ، وبئسَ الصّاحبُ، وبئسَ الخَليلُ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ أعمالَكم تُعرَضُ على أقاربِكم وعشائرِكم من الأمواتِ، فإن كان خيرًا استَبْشِروا به، وإن كان غيرَ ذلك، قالوا: اللهُمَّ لا تُمِتْهم، حتّى تَهديَهم كما هدَيْتَنا»[٢].

الحب في الله تعالى

١ ـ عن أبي هريـرةَ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لو أنّ عبدَيْنِ تَحابّا في الله، واحدٌ بالمشرقِ وآخَرُ بالمغرب، لَجَمعَ اللهُ بينَهما يومَ القيامة، يقولُ: هذا الذي كنتَ تُحبُّه فيَّ»[٣].

٢ ـ قال اللهُ تعالى في الحديثِ القُدسيِّ: «وَجَبتْ محَبَّتي للمتحابِّينَ فيَّ والمتجالسينَ فيَّ والمُتزاوِرينَ فيَّ والمُتباذِلينَ فيَّ»[٤].

٣ ـ قال رسولُ الله ﷺ فيما رواهُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «إنّ اللهَ يقولُ يومَ القيامة: أين المتَحابُّونَ بجَلالي؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظِلّي يومَ لا ظِلَّ إلّا ظِلّي»[٥].

٤ ـ قال النبيُّ ﷺ فيما رَواهُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: «إنّ رجُلًا زار أخًا له في قريةٍ أخرى، فأرصَدَ اللهُ له على مَدرَجتِه مَلَكًا، فلمّا أتَى عليه قال: أين تريدُ؟ قال:

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم، ١٨٥١٩: سورة الزخرف (٤٣): الآية ٦٧.

(٢) مسند أحمد، ٣: ١٦٥.

(٣) كنز العمال، ٩: ٤ برقم ٢٤٢٤٦.

(٤) مسند أحمد، ٥: ٢٣٣.

(٥) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٦.

أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لكَ عليه من نعمةٍ تَرُبُّها؟ قال: لا، غيرَ أنّي أحبَبْتُه في الله عزَّ وجلّ. قال: فإنّي رسولُ الله إليك بأنّ اللهَ قد أحبَّك كما أحبَبْتَه فيه»[1].

٥ ـ يُروى عن سيّدِنا أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، أنّ رجُلًا كان عندَ النّبيِّ ﷺ، فمرَّ به رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، إنّي لَأُحبُّ هذا. فقال له النّبيُّ ﷺ: «أعْلمته؟». قال: لا. قال: «أعلِمْهُ». قال: فلَحِقَه فقال: إنّي أُحبُّك في الله. فقال: أحبَّك الّذي أحببتَني له[2].

يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٢ برقم ٢٥٦٧.

(٢) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١١٢ برقم ٥١٢٥.

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾

٥٨ ـ الذين يؤمنونَ بالقرآنِ الكريم، ويعمَلونَ بأحكامِه، سيُبشَّرونَ يومَ القيامة بأنْ لا خوفٌ عليكم، ولا أنتم تحزَنون، فادخُلوا الجنّةَ أنتم وأزواجُكم الأخيارُ وأصدقاؤكم وأحِبّاؤكم المتَّقُونَ بفرحةٍ وسرور، وهناك ستَجِدونَ كلَّ ما تشتَهون في أطباقٍ وكؤوسٍ من ذهبٍ تسعَدُ بها قلوبُكم وأعيُنُكم.

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

٥٩ ـ سيَجعَلُ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ مالكينَ للجنّة بفَضْلِ أعمالِهم الصّالحة، وسيَخلُدونَ فيها إلى الأبد، ويستمتِعُونَ فيها بكلِّ أنواع الفواكهِ والثِّمار.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

٦٠ ـ المُجرِمونَ سيَخلُدونَ في جهنَّمَ إلى الأبد، ولن يَنقُصَ من عذابِهم شيئًا، كما أنّهم لن يستطيعوا الخروجَ من جهنَّم، ولهذا سيُصيبُهم اليأسُ فيبقَوْنَ فيها.

﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

٦١ ـ أوضَحَ اللهُ تعالى طريقَ الحقِّ والباطِل وجَعَله في وضوح النّهارِ عن طريقِ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، وأعلَن أنّ من يختارُ الباطلَ سيَدخُلُ جهنَّم، ولهذا فإنّ الذين يعصُونَ الله ويَدخُلونَ جهنَّم، سيكونُ هذا ظلمًا منهم لأنفُسِهم، وليس ظلمًا من اللهِ لهم.

﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾

٦٢ ـ مالكٌ هو: اسمُ المَلاكِ الذي يُراقبُ جهنَّمَ ويَحرُسُها، وعندَما لا يَجدُ أهلُ النارِ سبيلًا للخروج من جهنَّمَ يستغيثونَ بمالكٍ (خازنِ جهنَّم) قائلينَ: يا مالكُ، قُلْ

لربِّكَ أن يُميتَنا حتى نتخلَّص من هذا العذابِ ونستريحَ منه، وسيُجيبُهم مالكٌ: الآنَ لا تستطيعونَ الخروجَ من جهنَّم، كما أنّ الموتَ أيضًا لن يأتيَكم، وستَظلُّونَ مبتَلَيْنَ بهذا العذابِ إلى أبدِ الآبِدين.

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

٦٣ ـ حين يَصرُخُ أهلُ جهنَّم ويستغيثونَ يقولُ اللهُ تعالى لهم: لقد جاءَتْكم رسُلُنا بالحقِّ، وأوضَحوا لكُم الحقَّ من الباطل، لكنّ أكثرَكم، يعني: سادتكم وزعماءكم رَفضُوا قَبولَ الحقِّ؛ لأنه كان يتعارَضُ معَ رَغَباتِهم النَّفسانيّة، وأمّا أنتم فقدِ اتَّبعتُم سادتَكم وزعماءَكم دونَ تفكيرٍ أو تدبُّر، ولهذا فإنّ بعضَكم لقِيَ هذا المصيرَ بإنكارِه، وبعضُكم لقِيَه بتقليدِه الأعمى.

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾

٦٤ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «قال مُقاتِلٌ: نَزَلت في تدبيرِهم بالمكرِ بالنّبيِّ ﷺ في دارِ النَّدوة، حين استقَرَّ أمرُهم على ما أشار به أبو جَهْلٍ عليهم أن يَبرُزَ من كلِّ قبيلةٍ رجلٌ ليشترِكوا في قَتْلِه، فتَضعُفَ المطالبةُ بدَمِه، فنَزَلت هذه الآية، وقَتَل اللهُ جميعَهم ببدرٍ»[1]، فقال اللهُ تعالى ردًّا على تآمُرِهم هذا: لقد حَكَمْنا بحفظِ حبيبِنا الكريم ﷺ بشكلٍ قاطع، وهكذا جاء به اللهُ تعالى إلى المدينةِ المنوَّرة سالمًا، وأهلَكَ السادةَ المتآمِرينَ في غزوةِ بدر.

﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

٦٥ ـ هل كان كفّارُ مكةَ يظُنُّونَ أنّ مؤامراتِهم الخَفِيّةَ على النبيِّ ﷺ وتَهامُسَهم

---

(١) تفسير القرطبي.

ضدَّه يخفَى علينا ولا نَعلَمُه؟ بالقَطْع لا، فنحن نَعلَمُ تمامَ العِلم ما تُخفيه صدورُهم، كما أنّ ملائكَتنا بالإضافةِ إلى هذا تكونُ معَهم كلَّ وقتٍ وحين، بل ويُسجِّلون كتابةً كلَّ مؤامراتِهم.

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾

٦٦ ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ للمشركين: بفَرْضِ المستحيل، لو أنّ الله تعالى ولدًا أو بناتٍ، فأنا أولُ من يعبُدُه، وبما أنّني لا أعبُدُ أولادَه، فهذا يعني ـ بوضوح ـ أنه منزَّهٌ عن الوَلَد.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

٦٧ ـ اللهُ تعالى خالقُ السماءِ والأرضِ ومالكُهما، وهو منزَّهٌ عن الوَلَد، وكلُّ شيءٍ يحتاجُ إليه، ولا يحتاجُ هو إلى أحدٍ، وإنّما هو المستغني والقادرُ المطلَق.

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾

٦٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إذا لم يَقبَل المشركونَ الحقَّ برَغْم وضوحِه، وظَلُّوا منهمِكينَ في مشاغِلِهم الدُّنيَويّة، ومُصِرِّينَ على نظريّاتِهم الباطلة، فلا تُبالِ بتعنُّتِهم وعنادِهم ولا بمُخالفتِهم لك، ولا تحزَنْ ولا تغتمَّ على عَدَم إيمانِهم، وعندَما يأتي يومُ القيامة، سيَرَوْنَ بأنفُسِهم مصيرَ أفعالِهم القبيحة.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

٦٩ ـ اللهُ تعالى وحدَه هو الذي تليقُ العبادةُ به في الأرضِ والسَّماء، فالملائكةُ يعبُدونَه في السَّماء، وقد عبَدَه في الأرضِ كلُّ الأنبياءِ والرسُلِ عليهمُ السلام، ولهذا

فإنّ الملائكةَ وسيّدَنا عيسى عليهمُ السَّلامُ ليسوا أولادًا لله تعالى، وإنما هم عِبَادٌ مُطيعونَ له.

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

٧٠ ـ اللهُ تعالى صاحبُ البركةِ التي ما بعدَها بَرَكة، وحُكمُه يشمَلُ كلَّ شيءٍ في السّماءِ والأرض، ويَعلَمُ وقتَ قيام الساعة، وهو الذي سيأتي بها لوقتِها، وستَمثُلونَ جميعًا في حضرةِ الله تعالى في ذلك اليوم، حيثُ سيُحاسبُكم على أعمالِكم ويُثيبُكم أو يُعاقبُكم طِبقًا لها.

﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

٧١ ـ أولئك الذين يَعبُدُهم المشركونَ تارِكينَ اللهَ تعالى لن يكونوا شُفَعاءَ لهم أبدًا، ولن يُسمَح بالشَّفاعةِ إلّا لمَن شَهِد بتوحيدِ الله تعالى وصَدَّق به من قلبِه، وأمضَى حياتَه في العمَلِ بأحكام الله تعالى وطِبقًا لها، وهذا سيُشفَعُ فقط للمذنِبينَ الذين تكونُ خاتمتُهم على الإيمان، ورَغْم أنّ المشركينَ يعبُدونَ الملائكةَ وسيّدَنا عيسى عليهمُ السَّلام، وسيُسمَحُ لهؤلاءِ بالشَّفاعةِ أيضًا، لكنّهم لن يَشفَعوا للمشركين؛ لأنه لا تجوزُ الشّفاعةُ لمشركٍ أو كافر.

رُوي عن سيّدِنا عثمانَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «يشفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياءُ ثمّ العلماءُ ثمّ الشُّهداء»[1].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

٧٢ ـ إذا كان كفّارُ مكةَ يعترِفونَ أنّ خالقَهم هو اللهُ تعالى، فماذا دَهَى عقولَهم حتى تَرَكوا نورَ التوحيدِ وأخذوا يَعْمَهونَ في ظُلُماتِ الشِّرك؟

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾

٧٣ ـ أوضَحَ النبيُّ الكريمُ ﷺ الحقَّ من الباطلِ بشكلٍ كامل، ولكنْ حينَ لم يؤثِّرْ هذا في مشركي مكةَ قال النبيُّ ﷺ: يا إلهي، هؤلاءِ المشركونَ في غايةِ التعصُّبِ والتعنُّت، ولا يؤمنونَ. فأحبَّ اللهُ تعالى من نبيِّه الحبيبِ ﷺ هذا الكلامَ الذي يَملَأُهُ التعاطُفُ والألمُ وأقسَمَ به.

﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

٧٤ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تهتمَّ بعنادِهم وتعنُّتِهم، وادْعُ اللهَ لهم بالسَّلامة، لكنَّهم لو أساءوا في الحديثِ إليك فاعتزِلْهم، وإن لم يَرجِعوا عن شِركِهم فسيرَوْنَ عاقبتَهم السيِّئة قريبًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة المغربِ من يوم الاثنين ١٧ مايو ٢٠١٠م
الموافق ٤ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتَمَل تفسيرُ سورة الزُّخرُف في ستةٍ وعشرينَ يومًا، أي: من ٢١ أبريل إلى ١٧ مايو، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ

هذه السُّورةُ مكِّيّة، واسمُها «الدُّخَانُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ العاشرةِ منها.

فضل سورة الدخان

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن قَرأَ حـمٓ الدُّخَانَ في ليلةٍ أصبح يَستغفِرُ له سبعونَ ألفَ مَلَكٍ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من قَرأَ حـمٓ الدُّخَانَ في ليلةِ الجمُعة غُفِر له»(٢).

القرآن المجيد

في بدايةِ هذه السُّورة جاء بيانٌ لفَضْل القرآنِ المَجيد، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْزله في ليلةٍ مبارَكة، وفي نهايةِ السُّورة جاء بيانٌ لحِكمةِ لغةِ القرآنِ المجيد، يعني: أنّ اللهَ تعالى أَنْزله باللُّغةِ العربيّة حتى يَسهُلَ فهمُه على المخاطَبينَ الأُوَلِ له.

توحيد اللهٰ تعالى

بعدَ بيانِ فضلِ القرآنِ المَجيد في الآياتِ الأُولى من السُّورة وُجِّهتِ الدَّعوةُ

---

(١) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٨ برقم ٢٨٨٨.

(٢) الترمذي، فضائل القرآن، باب ٨ برقم ٢٨٨٩.

بالتوحيدِ إلى أهل مكّةَ، بأنّ اللهَ تعالى تكَرَّم على الناسِ وأرسَلَ إليهم الأنبياءَ والرسُلَ لهدايتِهم، وهو أيضًا ربُّ السماءِ والأرض، وهو أيضًا ربُّكم وربُّ آبائكم وأجدادِكم، ولا تَليقُ العبادةُ بغيرِه، فإنْ كنتُم برَغْم ذلك تشُكُّونَ في التوحيد فتذكَّروا أنه عندَما يأتي العذابُ ستكونونَ على استعدادٍ للإيمان، ولكنّ الإيمانَ في ذلك الوقتِ لن يكونَ مقبولًا، ولن تتمكّنوا من الإفلاتِ من العذاب، ولهذا عليكم أن تتعَقَّلوا من الآنَ وتَرجِعوا إلى خالقِكم الحقيقيِّ.

غرق فرعون

جاء التنبيهُ لأهلِ مكّةَ بأنّ فِرعونَ أيضًا كان يتفاخَرُ بجيشِه وحكومتِه ومالِه وثروتِه، ولكنْ عندَما بَلغ المدَى في مخالفةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام أَغْرقَه اللهُ تعالى هو وجيشَه في البحر، وآلَتْ حدائقُه وقصورُه إلى غيرِه، وبنفسِ الطريقة إنْ لم تُقدِّروا سيّدَنا محمّدًا ﷺ حقَّ قَدْرِه فستزولُ شمسُ تقدُّمِكم في هذه الحياةِ الدنيا، ولن تفيدَكم في الآخِرة صَداقاتُ شِركِكم وكُفرِكم، وإنّما ستُسحَبُونَ جميعًا على وجوهِكم وتُلقَوْنَ في جهنَّم.

فوز المتقين

الذين يتَّقونَ اللهَ تعالى ويخشَوْنَه، ويعيشونَ حياتَهم طبقًا لأحكامِه، يُدخلُهم اللهُ تعالى في الآخِرة في جنّةٍ يَخلُدونَ فيها إلى أبدِ الآبِدين آمِنينَ مطمئِّنِّينَ بكلِّ عزٍّ وعظَمةٍ وشأن، وسيكونُ هذا هو فضلَ الله عليهم، وهو الفوزُ العظيم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ ظُهرِ يوم الثلاثاء ١٨ مايو ٢٠١٠م
الموافق ٥ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

سُورَةُ الدُّخَانِ (٤٤)،

مكية (٦٤)، آياتها (٥٩)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

﴿حمٓ﴾

١ ـ هذه من الحروف المقَطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجعِ الحاشيةَ الأُولى من سُورةِ البقرة.

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

٢ ـ القرآنُ المَجيدُ كتابٌ بيِّنٌ وواضحٌ وضوحَ النّهار، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ وشُبهةٍ.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾

٣ ـ يعني: أنّ هذا ليسَ من كلام البشَر، وإنّما نحنُ الذين أَنْزلناه، وقد أَنْزلناهُ في ليلةٍ مبارَكة، والمرادُ باللّيلةِ المباركةِ عندَ بعض المفسِّرين: ليلةُ النِّصفِ من شعبانَ، لكنّ أكثرَ المفسِّرينَ على أنها ليلةُ القَدْر، وهي في العَشْرِ الأواخِر من رمضان، والقولُ الثاني أقربُ إلى القياس؛ لأنّ القرآنَ المَجيدَ نَزَل في رمضانَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ليلةُ البراءةِ (ليلةُ النِّصفِ من شعبان)

ليلةُ النِّصفِ من شعبانَ ليلةٌ مباركةٌ غايةَ البرَكة، كما أنّها ليلةُ النَّجاةِ من الذُّنوبِ، وقد جاء بيانُ فَضْلِها في الأحاديثِ النَّبويّةِ الشّريفة، وإليك بعضَها فتدبَّرْها:

ـ تقولُ أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضي اللهُ عنها: فَقَدتُ رسولَ الله ﷺ ليلةً، فخَرَجْتُ، فإذا هو بالبَقيع، فقال: «أكنتِ تخافينَ أن يَحِيفَ اللهُ عليكِ ورسولُه؟». قلت: يا رسولَ الله، إنّي ظَننْتُ أنّك أتيْتَ بعضَ نسائك. فقال: «إنّ اللهَ عزّ وجَلَّ يَنزِلُ

ليلةَ النّصفِ من شعبانَ إلى السّماءِ الدّنيا فيَغفِرُ لأكثرَ من عددِ شعرِ غَنَم كلبٍ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا كانت ليلةُ النّصفِ من شعبانَ فقُوموا ليلَها وصُوموا يومَها، فإنّ اللهَ يَنزِلُ فيها لغروبِ الشّمسِ إلى سماءِ الدّنيا فيقول: ألا مِن مُستغفرٍ فأغفِرَ له؟ ألا مُسترزِقٌ فأرزُقَه، ألا مُبتلًى فأُعافيَه، ألا كذا ألا كذا؟ حتّى يَطلُعَ الفجرُ»(٢).

وسوف يأتي الحديثُ عن ليلةِ القَدْرِ في تفسير سُورةِ القَدْر.

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾

٤ ـ الحِكمةُ من نزولِ القرآنِ الكريم أن يتَّضحَ الحقُّ من الباطل، ويُعرَفُ عُبّادُ الباطلِ بعاقبتِهم الوَخِيمة في الوقتِ المناسب، حتى إذا لم يَرجِعوا عن باطلِهم تقومُ عليهم الحُجّة.

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

٥ ـ في هذه اللَّيلةُ يُصدِرُ اللهُ تعالى أحكامَه فيما يتعلَّقُ بأمورِ السَّنةِ المُقبلة، ثم يُعهَدُ بهذه الأحكام إلى الملائكةِ المختصِّينَ، وأحكامُ اللهِ تعالى قاطعةٌ ومُطابِقةٌ للحِكمة، ولا مجالَ فيها للتبديلِ أو التعديل.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

٦ ـ من فَضْلِ اللهِ تعالى ورحمتِه وكرَمِه أنه أرسَلَ الرُّسُلَ لهدايةِ بني الإنسان، وهم الذين يبيِّنونَ أحكامَ اللهِ تعالى للناسِ بكلِّ وضوح.

---

(١) الترمذي، أبواب الصوم، باب ٣٩ برقم ٧٣٩.

(٢) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ١٩١ برقم ١٣٨٨.

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

٧ ـ أيها المشركونَ، لو كنتُم حقًّا على يقينٍ من أنّ اللهَ تعالى هو ربُّ كلِّ شيءٍ في الأرضِ والسَّماء، وأنه هو ربُّكم وربُّ آبائكم وأجدادِكم، وأنه هو مالكُ حياتِكم وموتِكم أيضًا، فيجبُ أن تكونوا على يقينٍ أيضًا من أنّ العبادةَ لا تَليقُ بغيرِ الله تعالى، ولكنّ الحقيقةَ هي أنّكم تَعترِفونَ باللهِ تعالى ربًّا لكم وخالقًا في وقتِ البلاء فقطْ، وما أن يزولَ البلاءُ حتى تَرجِعوا إلى الشِّرك، وهذا يعني أنكم في شكٍّ من توحيدِ الله تعالى، وأنّكم لا تتفكَّرونَ بشكلٍ جَدّيٍّ، وإنّما الأمرُ مجرَّدُ تمثيليّة، تَعترِفونَ عندَ البلاء، وتنسَوْنَ عندَ الرَّخاء.

﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾

٨ ـ ذاتَ مرّة أصاب مكّةَ قحطٌ شديدٌ بحيث كان الغبارُ يتطايَرُ في كلِّ مكان حتى غَطّى وجوهَ الناس جميعًا، وكان هذا الغبارُ يبدو للناسِ كأنه دُخَانٌ من شدّةِ الجوع، ولمّا ضاقَتْ قُريشٌ بهذا العذابِ الأليم جاء بعضُ سادتِها إلى النبيِّ ﷺ وطَلَبوا منه أن يدعوَ اللهَ تعالى لقومِه الذين أشرَفوا على الهلاك بأنْ يُنجِّيَهم اللهُ من هذا العذاب، وأنّهم عندَئذٍ سيؤمنونَ به.

﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾

٩ ـ نَزَل المطرُ ببركةِ دعاءِ النبيِّ ﷺ، وانتَهَت سَنَةُ القَحْط، لكنّهم لم يَثبُتوا على ما وَعَدوا به، وعادوا إلى شِركِهم، وقد جاء هنا بيانُ حقيقةٍ فَحْواها أيَّ نصيحةٍ سيستفيدُ بها هؤلاءِ من تَبِعاتِ القَحْطِ والمجاعة؟ وهنا يمكنُ تقديمُ عدّةِ تأويلات، على سَبيل المثال: أنّ هذا القَحْطَ لم يكنْ عقابًا على كُفر، وإنما يَحِلُّ

القحطُ في أماكنَ متفرِّقةٍ من العالَم في أوقاتٍ متفرِّقة، لكنّ هؤلاءِ كانوا في غايةِ العناد، بحيث أعرَضوا عن رسولِ الله ﷺ، وهو الذي يَظهَرُ صِدقُه كوَضَح النهار، وحينَ لم يستطيعوا تقديمَ أيِّ تأويل له وَصَل بهم الحالُ إلى حدِّ التعنُّتِ، فقالوا: هذا رجلٌ مجنون، أو أنه يعمَلُ على تفرِقتِنا بإيحاءٍ من أحدِ أعدائنا.

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾

١٠ ـ وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فقد زالَ العذابُ بفَضْل دعاءِ النبيِّ ﷺ، لكنّهم لم يؤمنوا، فانتَقَم اللهُ تعالى من قُريشٍ على إيذائهم للنبيِّ ﷺ وللمسلمين معَه، وأخَذَهم يومَ بدرٍ أخذًا بحيث قُتِل منهم سبعونَ رجلًا، ومعَ أنّ الله تعالى سيأخُذُهم يومَ القيامة بهذه الشِّدة، لكنّ هذا الأَخْذَ سيكونُ عامًّا، وسيشمَلُ كلَّ العُصاة، أمّا الأَخْذُ في بدرٍ فقد كان خاصًّا بقُريش.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾

١١ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بالإشارةِ إلى فِرعونَ بأنّ اللهَ تعالى قد أرسَلَ من قَبْلِكم رسولًا كريمًا، يعني: سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ ابتلاءً لقوم فِرعونَ، ومعَ أنّ الله تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم ظاهرَ وباطنَ كلِّ شخص، إلّا أنّ الحِكمةَ منَ ابتلائه أن يَعلَمَ الناسُ مَن على الحقِّ ومَن على الباطل، كما أنّ الحُجّةَ بذلك تقومُ عليه يومَ القيامة، فلا يستطيعُ أن يقولَ: إنّهم لم يأتِهم رسولٌ يُنذرُهم، وبنفسِ الطريقة أرسَلَ اللهُ تعالى الآنَ رسُولًا كريمًا إلى كفّارِ مكّةَ، يعني: سيّدَنا محمدًا ﷺ، ولهذا ينبغي لأهلِ مكّةَ أن يَعتبِروا من العاقبةِ السيِّئة لقوم فِرعونَ، وألّا يُخالفوا النبيَّ الكريمَ ﷺ، حتى لا يَجعَلوا من أنفُسِهم مستحِقِّينَ للعذابِ الإلهيِّ.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

١٢ ـ استعبَدَ الفِرعونُ قومَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام، يعني: بني إسرائيلَ، وأَنْزل بهم من الظُّلم أنواعًا، فقال سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ للفِرعَوْن: لقد أرسَلَني اللهُ تعالى إليكَ بالمعجِزاتِ الواضحات، وأنا رسُولُه الأمينُ، وأنا أُخبِرُك بما يأمُرُني به اللهُ تعالى، لا أَزيدُ فيه ولا أنقُصُ، وهكذا فإنّ حُكمَ الله تعالى هو أنْ لا تطغَى، وأن تُعتِقَ بني إسرائيلَ وتُرسلَهم معي.

﴿وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾

١٣ ـ عندَما طالَبَ سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ الفِرعونَ بأن يُعتِقَ بني إسرائيلَ ويُرسِلَهم معَه، استَشاطَ الفِرعونُ غضبًا وقال: من تكونُ أنت حتى تتدخَّلَ في حُكمي؟ اصمُتْ وإلّا رجَمتُك. قال سيّدُنا موسى عليه السَّلام: إنّي مُستعيذٌ بالله تعالى ربِّي وربِّكم، وأنا واثقٌ تمامًا في حمايتِه وحِفظِه لي، ولهذا عليكَ أن تَحفَظَ لسانَك في حديثِك معي، وإنْ لم تؤمنْ بي فلكَ ما تريدُ، ولكنِ ابتعِدْ عنِّي، فإذا حاولتَ التعدِّيَ علَيّ فستكونُ عاقبتُك وخيمةً.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾

١٤ ـ لم يَرجِعْ فِرعونُ عن طُغيانِه برَغْم رؤيتِه للمعجزات، وعندَئذٍ دعا سيّدُنا موسى عليه السَّلامُ ربَّه قائلًا: إنّ هؤلاءِ مُجرِمونَ عُتاةٌ وعُصاةٌ عنيدون، ولن يؤمنوا، والحُكمُ لكَ الآنَ، فماذا أفعَلُ؟ وعليه أمَرَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ أنِ اخرُجْ ببني إسرائيلَ ليلًا، وسوف يتعقَّبُكم فِرعونُ بجنودِه، ولكنْ لا تخَفْ، فسوف ينشَقُّ البحرُ أمامَك طريقًا ببرَكةِ عصاك، وستَعبُرُ إلى الشاطئِ الآخَرِ بسَلام، وسيَغرَقُ فِرعونُ وجنودُه في البحر.

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾

١٥ ـ عندما غَرق الفِرعونُ وجيشُه في البحرِ لم تنفَعْه حدائقُه ولا عيونُه وحقولُه وقصورُه وكلُّ متاعِه وأدواتُ لَهْوِه وعبَثِه بشيءٍ، بل إنّ اللهَ تعالى جَعَلَها ميراثًا لآخَرينَ غيرِه.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾

١٦ ـ عندَما يُتوفَّى إنسانٌ رحيمٌ خَدومٌ يبكي عليه الناسُ جميعًا، ويتأسَّفُونَ على فراقِه، ويبدو وكأنّ السماءَ والأرضَ والدُّنيا كلَّها حزينةٌ على هذا الفِراق، وعلى العكسِ من ذلك عندَما يموتُ ظالمٌ أو مُعْتدٍ يشعُرُ الناسُ بالراحةِ والسَّعادة، ولا تَذرِفُ عينٌ ولو دمعةً واحدةً عليه، وكانت نهايةُ الفِرعَونِ أيضًا مثارَ عبرةٍ بحيث لم يأسَفْ على غَرَقِه مَلَكٌ في السّماء، ولم يتألَّمْ على فِراقِه أحدٌ في الأرض، وإنّما كان الجميعُ سُعَداءَ لأنّ اللهَ خَلَّصَهم من ظالم، كما أنّ ظُلمَ فِرعونَ كان كثيرًا إلى الحدِّ الذي لم يُعطِه اللهُ تعالى مُهلةً طويلةً للبقاءِ على قَيْدِ الحياة.

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِن مؤمنٍ إلّا وله بابان: بابٌ يَصعَدُ منه عمَلُه، وبابٌ يَنزِلُ منه رِزقُه، فإذا ماتَ بَكَيا عليه، فذلك قولُه عزّ وجلّ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾»[١].

ـ ويقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقال مجاهدٌ: إنّ السّماءَ والأرضَ يَبْكِيانِ على المؤمنِ أربعينَ صباحًا. قال أبو يحيى: فعَجِبتُ من قولِه، فقال: أتعجَبُ! وما للأرضِ لا تبكي على عبدٍ يَعمُرُها بالرُّكوع والسّجود! وما للسّماءِ لا تبكي على عبدٍ كان لتسبيحِه وتكبيرِه فيها دَوِيٌّ كدَوِيِّ النَّحْل! وقال عليٌّ وابنُ عبّاسٍ رضيَ الله عنهما:

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، باب ٤٤ برقم ٣٢٥٥.

إنّه يبكي عليه مُصَلّاه من الأرضِ ومَصعَدُ عملِه من السّماء. وتقديرُ الآية على هذا: فما بَكَتْ عليهم مَصاعدُ عمَلِهم من السّماءِ ولا مواضعُ عبادتِهم من الأرض... ثم قرَأَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ثم قال: ألا إنّهما لا يَبكِيانِ على الكافر»[1].

فإذا ثار في ذهنِ أحدٍ تَصوُّر أنّ الأرضَ والسماءَ لا لُغةَ لهما، وأنّنا لم نَرَهما أبدًا يَبكِيان، فإنّ الجوابَ عن هذا هو: أن لكلِّ شيءٍ في هذه الكائناتِ شعورًا وإحساسًا خاصًّا به، ويُعبِّرُ عن أحاسيسِه ومشاعرِه أيضًا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، ويُعلَمُ منه أنّ كلَّ شيءٍ يسبِّحُ اللهَ تعالى، وبنفسِ الطريقة كلُّ شيءٍ يبكي أيضًا، ولكنْ ليس لدَيْنا المقدرةُ على أنْ نسمعَ صوتَه أو أن نفهَمَ ما يقول، إلّا أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السّلام وأولياءَ الله تعالى يستطيعونَ سَماعَ صوتِه وفهم ما يقولُ أيضًا، وإليك في هذا الخصوصِ بعضَ الأحاديثِ النّبويّة فتدبَّرْها:

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «ولقد كنّا نسمَعُ تسبيحَ الطّعام وهو يؤكَلُ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن سَمُرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّي لَأعرِفُ حجرًا بمكّة كان يُسلِّمُ علَيَّ قبلَ أن أُبعَثَ، إنّي لَأعرِفُه الآنَ»[3].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبد الله رضي الله عنه: إنّ النّبيَّ ﷺ كان يقومُ يومَ الجمُعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ، فقالتِ امرأةٌ من الأنصار ـ أو رجلٌ ـ: يا رسولَ الله،

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الدخان (٤٤): الآية ٢٩.

(٢) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٧٩.

(٣) مسلم، كتاب الفضائل، باب ١ برقم ٢٢٧٧.

ألا نجعَلُ لك مِنبَرًا؟ قال: «إن شئتُم». فجَعَلوا له منبَرًا، فلمّا كان يومُ الجمُعةِ دَفَع إلى المِنبَر، فصاحَتِ النّخلةُ صياحَ الصّبيِّ، ثمّ نَزَل النبيُّ ﷺ فضَمَّه إليه تئنُّ أنينَ الصّبيِّ الّذي يُسكَّن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تَسمَعُ من الذِّكرِ عندَها»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: مرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حيطانِ المدينة أو مكَّة، فسَمِع صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدُهما لا يَستترُ من بَوْلِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمة». ثمّ دعا بجريدةٍ فكسَرَها كِسْرتَيْن، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كِسرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»(٢)؛ لأنّ الأغصانَ الخضراءَ تُسبحُ اللهَ تعالى، ويكونُ التخفيفُ في عذابِ أهل القبور ببركةِ تسبيحِها لله تعالى، مثلَما قال الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال أيضًا: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨].

وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرۡعَوۡنَۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيٗا مِّنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٞاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ

(١) البخاري، كتاب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٥٨٤.
(٢) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

١٧ ـ كان الفِرعَونُ يَدَّعي الأُلوهيَّة، وكان طاغيةً ظالمًا، ولم يَستعبِدْ بني إسرائيلَ فقطْ، وإنّما سَلَّط عليهم عذابًا مُسيئًا مُخزِيًا، وكان يَذبَحُ الأطفالَ الصِّغارَ من بني إسرائيلَ، ولكنْ عندما تجاوَزَ ظلمُه كلَّ الحدودِ أَغْرقَ اللهُ تعالى الفِرعونَ وجيشَه في البحر، وأنقَذَ بني إسرائيلَ من ظُلمِه، وفي هذا درسُ عبرةٍ لكفّارِ مكّةَ، بأنّ مُلكَ فِرعَونَ وجيشِه كان كبيرًا للغايةِ قياسًا بكفّارِ مكّةَ، ولكنْ حينَ أخَذَه اللهُ تعالى أَغْرقَه ذليلًا حقيرًا، ونَجَّى بني إسرائيلَ في عزٍّ وكرامة، وإذا لم يَرجِعْ كفّارُ مكةَ أيضًا عن مُضايقةِ المسلمينَ فإنّ اللهَ تعالى سيَنصُرُ المسلمين، ولن يَجنيَ الكفّارُ سوى الفشلِ والخَيْبة.

﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

١٨ ـ رَغْم أنّ الأُمةَ المحمَّديةَ هي أفضَلُ الأُمم، لكنّ اللهَ تعالى فَضَّل بني إسرائيلَ على كلِّ البشَرِ في ذلك الوقت؛ لأنّ اللهَ تعالى كان يَعلَمُ أنّ بني إسرائيلَ من ذُرِّيةِ الأنبياء، وأنه سيَبعَثُ منهم أنبياءَ عديدينَ.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴾

١٩ ـ كلُّ نعمةٍ تكونُ ابتلاءً، فالذين يشكرونَ اللهَ على نِعَمِه يزيدُ اللهُ في نِعَمِه عليهم، والذين لا يُقدِّرونَ نِعَمَ اللهِ حقَّ قَدْرِها، ولا يحقِّقونَ مقتَضَياتِها، فإنّ اللهَ تعالى يَستَرِدُّ نِعَمَه منهم، وفي هذه الآيةِ إشارةٌ إلى هذه الحقيقة، يعني: أنّ اللهَ تعالى نَجَّى بني

إسرائيلَ من الفِرعَون، وأَنْزل عليهم المَنَّ والسَّلوى، وشرَّفهم بمعجزاتِ سيّدِنا موسى عليه السَّلام وبغيرِها من النِّعَم الكثيرة، والتي كانت بمثابةِ الابتلاءِ لبني إسرائيلَ.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾

٢٠ ـ كان كفّارُ مكةَ مُنكِرينَ للآخِرة مِثلَ فِرعونَ تمامًا، وكانوا يقولونَ للمسلمين: عندما يموتُ الإنسانُ في هذه الدُّنيا فهذا هو موتُه الأولُ والأخير، ولن يَحيا بعدَ ذلك أبدًا، ولو كان ما تقولونَ حقًّا من أنّ الساعةَ قائمةٌ لا مَحالةَ، وفيها سوف يُحيي اللهُ تعالى الجميعَ ثانيةً، فَلْتُحيِ آباءنا وأجدادَنا أولًا لنرى، حتى أنّ أبا جهلٍ قال: «يا محمّد، إن كنتَ صادقًا في قولِك فابعَثْ لنا رجُلَيْنِ من آبائنا: أحدُهما قُصَيُّ بنُ كلاب، فإنه كان رجلًا صادقًا؛ لنسألَه عما يكونُ بعدَ الموت»[1].

وجوابًا عن هذا فإنّ أولَ شيءٍ هو لو أنّ اللهَ تعالى أحيا آباءَ الكفّارِ وأجدادَهم بناءً على طلبِهم، وأتَى هؤلاءِ بعدَ إحيائهم وقَصُّوا عليهم أحوالَهم بعدَ الموت، فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا بالغَيْب، معَ أنّ مقصِدَ الله تعالى أن يؤمنَ الناسُ بالأخبارِ التي يأتي بها أنبياؤه الكرامُ عليهمُ السَّلامُ دونَ أن يرَوْا شيئًا. والأمرُ الثاني: هو أنّ مسلمًا لم يَدَّعِ أبدًا أنّ الموتَى سيَبعَثُونَ في هذه الدنيا، وإنّما يقولُ المسلمونَ: إنّ الإحياءَ ثانيةً سيكونُ بهدفِ الثوابِ والعقاب، وهذا سيكونُ في الآخِرة.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

٢١ ـ مثلَما كان يقالُ: كسرى، لمَلِكِ إيران، وقَيْصر، لمَلِكِ الرُّوم، كذلك كان يقالُ لمَلِكِ اليمنِ وحَضْرَموتَ: تُبَّع، وفي هذه الآيةِ الكريمة تنبيهٌ للكفّارِ بأنّ قومَ تُبَّعٍ ومَن قبلَهم قومَ فِرعونَ وعادًا وثمودَ وغيرَهم كانوا أكثرَ منهم قوةً، وأفضلَ

(١) تفسير القرطبي.

منهم باعتبارِ المالِ والثَّروةِ الدُّنيويّة، وحين طَغَى هؤلاءِ دمَّرهم اللهُ تعالى بسببِ جرائمِهم، فيا أهلَ مكّة، ماذا تمثِّلونَ أنتم قياسًا بهذه الأقوام القويّة؟ لئن لم تَرجِعوا عن طُغيانِكم فسيُهلِكُكم اللهُ كذلك.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

٢٢ ـ لم يَخلُقِ اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ ومَن فيهِنَّ لمجرَّدِ التَّرفيه والتَّسلية، وإنّما خَلَقَهم لهدفٍ خاصٍّ وصادق، وإذا كان كلُّ شيءٍ في هذه الكائناتِ، سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، لم يُخلَقْ عَبثًا بغيرِ هدف، فهل يمكنُ أن يكونَ خَلْقُ أشرفِ المخلوقاتِ السيِّد الإنسانِ بلا مقصِدٍ أو هدف؟ والحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى قد أعطى الإنسانَ الحياةَ الأُولى بغَرَضِ الابتلاء، أمّا الحياةُ الثانيةُ فهي بغَرَض الحساب، ولو لم يكنِ الثوابُ والعقابُ في الآخِرة، لَما اكتَملَ الهدفُ من خَلْق هذه الدنيا، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يفهَمونَ هذه الحِكمةَ.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

٢٣ ـ كانت مطالبةُ الكفّارِ في الآية رقم ٣٦ هي أنه: إذا كنتُم صادقينَ في مسألةِ الإحياءِ ثانيةً فأَحيُوا آباءنا وأجدادَنا أولًا، ورَدَّ اللهُ تعالى عليهم بأنّ لِيومِ القيامةِ وقتًا محدَّدًا، وسيُفصَلُ فيه بينَ الناسِ جميعًا؛ من كان منهم على الحقِّ ومن كان على الباطل، ويومُ القيامة قادمٌ لا مَحالةَ، سواءٌ صَدَقتُم أم لم تَصدُقوا، ولكنّه سيأتي في موعدِه المحدَّدِ له، وفي ذلك اليوم لن يستطيعَ أحدٌ أن يساعدَ أحدًا سوى أهل الإيمانِ الذين سيَأذَنُ اللهُ تعالى لهم ـ برحمةٍ منه ـ في الشَّفاعة، وهؤلاءِ هم الذين سيستطيعونَ الشَّفاعةَ لإخوانِهم وأخواتِهم من أهلِ الإيمان.

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ

إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾

٢٤ - في هذه الآية يُعرَضُ على مُنكري الإسلام مناظرُ من عذابِ جهنَّم، حتى يعودوا إلى نُورِ الإيمانِ بدلًا من الإغراقِ في ظُلماتِ الضَّلال.

الزَّقُّومُ شجرةٌ في جهنَّم تتميَّزُ بمرارتِـها الفائقة ورائحتِها السيِّئة وأشواكِها المُدبَّبة، وطعامُ أهل جهنَّم فيها هو هذه الشّجرة، وحين يُطعَمُونَ شجرةَ الزَّقُّوم ستَغْلي بطونُهم من داخلِها مثلَما يَغلي المعدِنُ المذابُ والماءُ الساخن.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «لو أنّ قطرةً من الزَّقُّوم قَطَرت في دارِ الدّنيا لأفسَدت على أهلِ الدّنيا معايشَهم، فكيف بمن يكونُ طعامَه؟»[١].

﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

٢٥ - سيَصدُرُ الحُكمُ لخَزَنةِ جهنَّم أنْ أمسِكوا بهذا الطاغيةِ واسحَبوه في وَسَطِ جهنَّم، وأطعِموه الزَّقُّومَ، وصُبُّوا فوقَ رأسِه الماءَ المَغْليَّ.

---

(١) الترمذي، صفة جهنم، باب ٤ برقم ٢٥٨٥.

﴿ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴾

٢٦ ـ ثم سيُقالُ لهم لمزيدٍ من الإذلالِ والتحقير: كنتُم معزَّزينَ مكرَّمينَ في الدنيا، وكنتُم تنظُرونَ إلى المسلمينَ باحتقارٍ، والآنَ ذُوقوا عذابَ طُغيانِكم في جهنَّم التي كنتُم تَشُكُّونَ في وجودِها.

﴿ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

٢٧ ـ والذين كانوا يتَّقونَ اللهَ تعالى في هذه الدنيا ويخشَوْنَه على عكسِ أهلِ جهنَّم، سيَستقِرُّونَ في الآخِرة بينَ حدائقَ وعيونٍ في الجنّة، وهناك لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون، وسيَلبَسونَ ثيابًا قيِّمةً من الحرير، ويجلسونَ متقابِلينَ أمامَ بعضِهم، ويَسعَدونَ بلقائهم فيما بينَهم وحديثِ بعضِهم إلى بعض، وسيُزوَّجونَ من حُورٍ عِينٍ ذواتِ عيونٍ كعيونِ الغزال.

﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾

٢٨ ـ الفاكهةُ التي تَثُورُ الرغبةُ في تناولِها في قلوبِ أهلِ الجنّة يطلُبونَها، ثم لا يتفكَّرونَ بشأنِها؛ إنْ كانت موجودةً بالفعل أم لا؛ لأنَّ الفاكهةَ بكلِّ أنواعِها وأقسامِها متوفِّرةٌ هناك، وفي كلِّ وقت، مثلَما قال القاضي ثناءُ الله باني بتي فيما نَقَله عن سيّدِنا عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: «ما في الدنيا تمرةٌ حُلوةٌ ولا مُرّةٌ إلّا وهي في الجنةِ، حتى الحَنْظَل»[1].

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

٢٩ ـ لن يموتَ أهلُ الجنّةِ في الجنّةِ أبدًا، ولن يموتوا سوى الموتةِ الأُولى

---

(١) التفسير المظهري، سورة الدخان (٤٤): الآية ٥٥.

فقطِ التي تَحدُثُ في الدنيا لمرّةٍ واحدة، ثم بعدَ ذلك سيفنَى الموتُ إلى الأبد.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا صار أهلُ الجنّةِ إلى الجنّة، وأهلُ النّارِ إلى النّار، جيءَ بالموتِ حتّى يُجعَلَ بينَ الجنّةِ والنّار، ثمّ يُذبَحُ، ثمّ يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنّةِ لا موتَ، يا أهلَ النّارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم. ويزدادُ أهلُ النّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ينادي مُنادٍ: إنّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسقَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تَحيُوا فلا تموتوا أبدًا، وإنّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرَموا أبدًا، وإنّ لكم أن تَنعُموا فلا تبتَئِسوا أبدًا»[٢].

﴿ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

٣٠ ـ لا يمكنُ لأحدٍ اليومَ مهما بَلَغ في تَقْواهُ أن يَدَّعيَ أنّ أعمالَه الصّالحةَ كاملةٌ من كلِّ جانبٍ ولا يوجَدُ أيُّ نقصٍ فيها، لكنْ من فَضْل الله تعالى وكرَمِه يومَ القيامةِ أنه يَقبلُ أعمالَ الصّالحين، ويُنجِّيهم من عذابِ جهنَّم، ويُدخِلُهم في جنّةٍ يَسُودُها الرَّبيعُ من كلِّ جانب، وهذا هو الفوزُ العظيمُ لهم.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «لن يَدخُلَ أحدًا منكم عمَلُه الجنّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال «ولا أنا، إلّا أن يتغمَّدَني اللهُ منه بفضلٍ ورحمةٍ»[٣].

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٥١ برقم ٦٥٤٨.

(٢) مسلم، صفة الجنة، باب ٨ برقم ٧١٥٧.

(٣) مسلم، صفات المنافقين، باب ١٧ برقم ٧١١٦.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

٣١ ـ يا أَيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد أَنْزلنا عليكَ القرآنَ الكريمَ بلُغتِك الأُمِّ، حتى يَسهُلَ على أهلِ مكّةَ فَهْمُه بسهولة، ولكنْ إنِ انحَرفوا عن القرآنِ عامدينَ برَغْم هذا فلا تُبالِ بهم، وإنّما انتظِرْ منَ اللهِ تعالى الأَجْرَ والثوابَ على تبليغِك رسالتَه، وسوف يُنعِمُ اللهُ تعالى عليك بالفَوْزِ قريبًا، ولْينتظِرِ الكفّارُ عقابَ تعنُّتِهم، وسيكونُ الفشَلُ والخَيْبةُ من نصيبِهم قريبًا.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاء من يوم الأحد ٢٣ مايو ٢٠١٠م
الموافق ١٠ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتَملَ تفسيرُ سُورةِ الدُّخَان بفَضْل الله وكرَمِه في خمسةِ أيام فقط، أي: من ١٨ مايو إلى ٢٣ مايو، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٥) سورة الجاثية

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «الجاثية»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم **٢٨** منها، وجاء الحديثُ فيها عن القرآنِ المَجيدِ والتوحيدِ والآخِرة، شأنُها في ذلك شأنُ السُّوَرِ المكِّيةِ الأخرى.

القرآن المجيد

القرآنُ المجيدُ ليس كلامًا شخصيًّا من النبيِّ ﷺ، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، وهو هدايةٌ كلُّه، ومن يعمَلونَ بأحكامِه لهم البُشْرى بالجنة، ومن يُنكرونَها لهم عذابٌ أليم. وكلُّ كلام القرآنِ الكريم حقٌّ، ويَخلُقُ البصيرةَ، وهو الذي يُرشدُ الناسَ جميعًا إلى طريقِ الهدايةِ والرَّحمة، لكنْ يحظَى بهدايـتِه ورحمتِه أولئك الذين يؤمنونَ به؛ لأنّ المعتادَ هو أنّ الذي لا تثقُ فيه لا تَعترِفُ حتى بالطيِّبِ مما يقول.

التوحيد

إنّ خَلْقَ السماواتِ والأرض، وخَلْقَ الإنسانِ والحيَوان، ونُزولَ المطرِ من السماء، وإحياءَ الأرضِ المَيْتةِ به، وتسييرَ السَّحابِ وغيرَ ذلك، بمثابةِ الآياتِ التي تدُلُّ على قدرةِ الله ووَحْدانيّـتِه، لكنْ يهتدي بهذه الآياتِ فقطْ أولئك الذين يبحثونَ بصِدقٍ وإخلاصٍ عن الإيمانِ واليقين، ولديهِم العقلُ السَّليمُ كذلك؛ لأنّ غيرَ المخلصينَ فيما

يطلُبون، والمحرومينَ من العقلِ السَّليم، لا يُحقِّقونَ نجاحًا، مثلَما أنّ القرآنَ الكريمَ هدايةٌ لكلِّ البشَر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لكنْ يستفيدُ منه فقطِ الذين تمتلئُ قلوبُهم بتقوى اللهِ وخَشْيتِه ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، يعني: المخلصينَ الصّادقينَ في تحصيلِ الهدايةِ من القرآنِ المجيد.

الآخرة

عندَما كانت تُتلَى على كفّارِ مكّةَ تلك الآياتُ التي تَذكُرُ إحياءهم من جديدٍ يومَ القيامة، لم يكنْ لديهِم أيُّ دليلٍ على إنكارِهم القيامةَ، ولهذا كانوا يكتَفُونَ بقولِهم: لو كان ادِّعاؤك هذا صادقًا، يعني: أنّ القيامةَ قادمةٌ لا مَحالةَ، وهي التي سيحيا فيها الخَلْقُ جميعًا من جديد، فأحيوا آباءنا وأجدادَنا أولًا، إلى درجةِ أنّ أبا جهلٍ قال: «يا محمد، إن كنتَ صادقًا في قولِك فابعَثْ لنا رجُلَيْنِ من آبائنا: أحدُهما قصَيُّ بنُ كلاب، فإنه كان رجُلًا صادقًا؛ لِنسألَه عما يكونُ بعدَ الموت»[1].

وردًّا على هذا فإنّ الأمرَ الأوّلَ هو لو أنّ اللهَ تعالى أحيا آباءَ الكفّارِ وأجدادَهم بناءً على طلبِهم، وأتَى هؤلاءِ بعدَ إحيائهم وقَصُّوا عليهم أحوالَهم بعدَ الموت، فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا بالغَيْب، معَ أنّ مقصِدَ الله تعالى أن يؤمنَ الناسُ بالأخبارِ التي يأتي بها أنبياؤه الكرامُ عليهمُ السَّلام دونَ أن يرَوْا شيئًا. والأمرُ الثاني هو: أنّ مسلمًا لم يَدَّعِ أبدًا أنّ الموتَى سيُبعَثُونَ في هذه الدنيا، وإنّما يقولُ المسلمون: إنّ الإحياءَ ثانيةً سيكونُ بهدفِ الثوابِ والعقاب، وهذا سيكونُ في الآخِرة.

فضل بني إسرائيل

أَنْعم اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ بنِعَمٍ خاصّةٍ عديدة، على سَبيل المثال: أرسَلَ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الدخان (٤٤): الآية ٣٦.

إليهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، أولُهم: سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، وآخِرُهم سيّدُنا عيسى عليه السَّلامُ، وأَنْزلَ عليهم الكتُبَ السَّماويةَ، كما أعطاهم المُلكَ في الدنيا أيضًا، وهيَّأَ لهم الأشياءَ الطاهرةَ لطعامِهم، على سَبيل المثال: أَنْعم عليهم بأرضِ الشام وفِلَسطينَ الخَصْبةِ التي تُنتجُ ألوانًا من الفاكهةِ والثمارِ وأنواعًا عديدةً من الخُضْروات، وأَنْعم عليهم بالمَنِّ والسَّلوى في ميدانِ التِّيه، ورَغْم أنّ الأُمةَ المُحمَّديةَ هي الأفضَلُ بَين الأُمم جميعًا، لكنّ اللهَ تعالى فَضَّل بني إسرائيلَ على الأقوام كلِّها في ذلك الزمن.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ شروق يوم الثلاثاء ٢٥ مايو ٢٠١٠م
الموافق ١٢ جُمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الجَاثِيَة (٤٥)،

مكية (٦٥)، آياتها (٣٧)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

﴿حمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقَطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل راجعِ الحاشيةَ الأولى من سُورةِ البقرة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

٢ ـ هنا تنبيهٌ للكفّارِ بأنّ القرآنَ الكريمَ ليس كلامًا شخصيًّا من النبيِّ ﷺ، وإنّما هو كلامُ الله تعالى، ولهذا آمِنوا به وحاوِلوا تجميلَ آخِرتِكم، وإنْ لم تؤمنوا به فاللهُ غالبٌ على الجميع، ولن تستطيعوا الإفلاتَ من العقاب.

﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

٣ ـ إنّ خَلْقَ السماواتِ والأرض، وخَلْقَ الإنسانِ والحيَوان، وتعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهار، ونُزولَ المطرِ من السماءِ، وإحياءَ الأرضِ المَيْتةِ به، وتسييرَ السَّحابِ وغير ذلك بمثابةِ الآياتِ التي تدُلُّ على قُدرةِ الله ووَحْدانيّتِه، لكنْ يهتدي بهذه الآياتِ فقطْ أولئك الذين يبحثونَ بصِدقٍ وإخلاصٍ عن الإيمانِ واليقين، ولديهم العقلُ السَّليمُ كذلك؛ لأنّ غيرَ المخلصينَ فيما يطلُبونَ، والمحرومينَ من العقلِ السَّليم لا يُحقِّقونَ نجاحًا، مثلَما أنّ القرآنَ الكريمَ هدايةٌ لكلِّ البشَر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، لكنْ يستفيدُ منه فقطِ الذين تمتلئُ قلوبُهم بتقوى الله وخَشْيتِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، يعني: المخلصينَ الصادقينَ في تحصيلِ الهدايةِ من القرآنِ المجيد.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

٤ ـ بَيَّن اللهُ تعالى الدَّلائلَ على توحيدِه في القرآنِ المجيد، والآنَ إذا لم يؤمنْ كفّارُ مكّةَ بآياتِ الله تعالى، فبأيِّ آيةٍ أو أمرٍ بعدَ ذلك سيؤمنونَ؟ يعني: ليس هناك دليلٌ أكبرُ ولا أعظَمُ من دليلِ الله تعالى، ولهذا فإنّهم لن يؤمنوا.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾

٥ ـ الذين تكونُ عقائدُهم فاسدةً، وتكونُ أعمالُهم سيِّئةً، فإنّ مصيرَهم هو الهلاك.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

٦ ـ الذين يسمَعونَ آياتِ الله تعالى ثم يتكبَّرونَ برَغْم ذلك، ويُصِرُّونَ على كُفرِهم، ومعنى هذا أنهم يَحتقِرونَ آياتِ الله تعالى، ولا يَقبَلونَ على أنفُسِهم أن

يتدبَّروه، وكأنّ سمَاعَهم له وعَدَمَ سماعِهم سواءٌ، لهذا يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، بشِّرْ هؤلاءِ المتكبِّرينَ المتَعجْرِفينَ المعانِدينَ بالعذابِ الأليم.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾

٧ ـ المتكبِّرونَ لا يسمَعونَ كلامَ الله تعالى بدايةً، وإنّما يُثيرونَ صَخَبًا وضجيجًا، حتى لا يسمَعَه أحدٌ آخَرُ أيضًا، وإذا عَلِموا بأيِّ آيةٍ: أوَّلوها تأويلًا خاطئًا، وسَخِروا من القرآنِ كلِّه، ولهؤلاءِ المتعنِّتينَ المتكبِّرين في قبورِهم عذابُ الخِزْي(١)، وينتظرُهم في الآخِرة عذابُ جهنَّمَ العظيم، حيث لن يُفيدَهم هناك مالُ الدنيا ومتاعُها، كما لن ينفَعَهم أولئك الذين اتَّخذوهم أولياءَ من دونِ الله.

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾

٨ ـ القرآنُ المجيدُ هدايةٌ كلُّه، ومن يعمَلونَ بأحكامِه لهم البُشْرى بالجنَّة، ومن يُنكرونَها لهم عذابٌ أليم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ

(١) ذو إهانة في القبور، التفسير المظهري، سورة الجاثية (٤٥): الآية ٩.

مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

٩ ـ البحرُ أيضًا نعمةٌ من نِعَم اللهِ تعالى التي لا تُحصَى، وقد أَوْقَف اللهُ تعالى مياهَه العميقَة بحيث تستطيعُ المراكبُ والسُّفنُ أن تسبحَ فوقَ سطحِه بسهولةٍ ويُسر، وأنتم أيضًا تسافرونَ في تلك المراكبِ والسُّفُن، وتنقُلون بها بضائعَكم التِّجاريّةَ أيضًا من مكانٍ إلى آخَر، ولو جَعَل اللهُ تعالى سطحَ البحرِ صُلبًا صُلدًا، وجَعَل الأعاصيرَ تهُبُّ عليه بشكلٍ مستمرٍّ، فسيكونُ من الصَّعبِ على المراكبِ والسُّفنِ عندَئذٍ السَّيرُ بسهولة، كلُّ هذه النِّعم والتسهيلاتِ أُعطِيَتْ لكم لتشكُروا اللهَ تعالى.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

١٠ ـ سَخَّر اللهُ تعالى كلَّ شيءٍ في السماءِ والأرضِ لخِدمتِكم، والشمسُ والقمرُ والمطرُ والرِّياحُ والأنهارُ وغيرُها، كلُّها نافعةٌ لكم، ولا حقَّ لكم فيها أصلًا، وإنّما هي من فَضْل الله تعالى وكرَمِه عليكم، وفي كلِّ شيءٍ في هذه الكائناتِ آياتٌ لا حصرَ لها لمن يتفكّرون.

فضل التفكر والتأمل في الكائنات

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ساعةٌ من عالِمٍ متّكىءٍ على فراشِه ينظُرُ فى عِلمِه خيرٌ من عبادةِ العابدِ سبعينَ عامًا»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «التّفكُّرُ

(١) كنز العمال، ١٠: ١٥٤ برقم ٢٨٧٨٩.

في عَظَمةِ الله وجنَّتِه ونارِه ساعةً خيرٌ من قيام ليلةٍ، وخيرُ النّاس المتفكِّرونَ في آلاءِ الله، وشرُّهم مَن لا يتفكَّرُ في آلاءِ الله»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «تَفكَّروا في كلِّ شيءٍ، ولا تَفكَّروا في ذاتِ الله تعالى»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «تفكَّروا في الخَلْقِ ولا تَفكَّروا في الخالق، فإنّكم لاتَقدِرونَ قَدْرَه»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «تَفكَّروا في خَلْقِ الله ولا تَفكَّروا في الله فتَهلِكوا»[٤].

ـ يقولُ العلّامةُ البَيْضاويُّ: «وهو أفضَلُ العباداتِ كما قال عليه الصَّلاةُ والسلام: لا عبادةَ كالتَّفكُّر»[٥].

لمحة فكرية

وحالُنا اليومَ من الغَفْلةِ فيما يتعلَّقُ بأفضَلِ العبادات هذه أنّ غيرَ المسلمينَ صَعِدوا إلى القمرِ، بينَما تُمثِّلُ رؤيةُ هلالِ العيدِ بالنِّسبة لنا نحن ـ المسلمينَ ـ مشكلةً عَويصة. الأقوامُ غيرُ المسلمة وَصلتْ إلى قمّةِ العلم والتكنولوجيا بتفكُّرِها وتدبُّرِها في الكائنات، بينَما نحن المسلمينَ لا نزالُ يشُدُّ بعضُنا بعضًا إلى الخَلْف:

ـ الأسفُ ليس لأنّنا أصبَحْنا فاقدي الحِسِّ والشُّعور، ولكنّ الأسفَ لأنّنا لا نشعرُ بأنّنا فقَدْنا الحسَّ والشُّعور.

---

(١) جمع الجوامع، ٤: ١٢٧ برقم ١٠٧١٦.
(٢) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٥.
(٣) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٦.
(٤) الجامع الصغير، ١: ٢٠١ برقم ٣٣٤٧.
(٥) تفسير البيضاوي، سورة آل عمران (٣): الآية ١٩١.

ـ وا حَسْرتاه، فلقد فَقَدتِ القافلةُ متاعَها، وفَقَدت قلوبُ أهلِ القافلة الإحساسَ بالخسارة.

وطالَما كان المسلمونَ يتفكَّرونَ في الكائناتِ ويتدبَّرونَها، كانوا يُحسِنونَ إلى الدُّنيا باختراعاتٍ جديدةٍ دائمًا، وكانت الدُّنيا تتغنَّى بعظَمتِهم، ولكنْ حينَ أخلَى المسلمونَ وِفاضَهم من التفكُّرِ والتدبُّر، أصبح الذُّلُّ وسُوء السُّمعةِ مقدَّرًا لهم.

ـ كانوا معزَّزينَ على مرِّ التاريخ بإسلامِهم، ونحن صِرنا أذِلّاءَ بهَجْرِنا للقرآن.

ـ ولو أنّنا لم ننسَ درسَ القرآن، لَما أرانا الزَّمانُ هذا الوقتَ الذي نحياه.

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

١١ ـ لم يكنْ كفّارُ مكّةَ يعتبِرونَ من أيام عذابِ الأقوام السابقة، كما لم يكونوا يخافُونَ من عذابِ الله تعالى، بل إنّهم كانوا يعمَلونَ دائمًا على إيذاءِ من يَقبَلُ الإسلامَ، وفي مِثل هذه الحالاتِ كان من الطبيعيِّ أن يَثُورَ حماسُ شخصيّاتٍ إسلاميّةٍ قويّةِ الشَّكِيمةِ وشُجاعةٍ مِثلَ سيّدِنا عُمرَ وسيّدِنا حمزةَ رضي اللهُ عنهما، بحيث يتأهَّبانِ للانتقام، مثلَما يقولُ مُقاتل: «شَتَم رجلٌ من كفّارِ قُريشٍ عُمرَ بمكّةَ فهَمّ أن يَبطِشَ به، فأمَرَ اللهُ بالعفوِ والتّجاوزِ وأَنْزلَ هذه الآيةَ»[1]، وكأنّ النبيَّ ﷺ قال: لم يُؤذَنْ لنا إلى الآنَ بالردِّ على القوةِ بالقوّةِ، ولهذا عليكم بالصَّبرِ والعفوِ أيضًا، وحين يأتي الوقتُ المناسبُ سيُعاقِبُهم اللهُ تعالى على أفعالِهم القبيحة، وسيُنعِمُ عليكم بالأَجْرِ والثوابِ على صَبْرِكم.

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

١٢ ـ الذي يعمَلُ الصّالحاتِ سيَحظَى بالأجرِ العظيم عليها، والذي يرتكبُ

---

(١) التفسير الكبير، سورة الجاثية (٤٥): الآية ١٤.

الذنبَ سيُواجِهُ العقابَ على ذلك، ولهذا ينبغي لكلِّ شخصٍ أن يُميِّزَ جيِّدًا بينَ ما ينفَعُه وما يَضُرُّه، ويفعَلُ ما يراهُ مفيدًا له؛ لأنّنا جميعًا سنَرجِعُ إلى الله في يومٍ من الأيام، وسوف يُحاسبُنا على أعمالِنا سواءٌ بالعقابِ أم بالإثابة.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾

١٣ ـ أَنْعم اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ بنِعَمٍ خاصّةٍ عديدة، على سَبيل المثال: أرسَلَ إليهم عددًا كبيرًا من الأنبياء، أولُهم سيّدُنا يوسُفُ عليه السَّلام، وآخِرُهم سيّدُنا عيسَى عليه السلام، وأَنْزل عليهم الكتُبَ السَّماويةَ، كما أعطاهم المُلكَ في الدُّنيا أيضًا، وهيَّأَ لهم الأشياءَ الطاهرةَ لطعامِهم، على سَبيل المثال: أَنْعم عليهم بأرضِ الشام وفِلَسطينَ الخَصْبةِ التي تُنتجُ ألوانًا من الفاكهةِ والثمارِ وأنواعًا عديدة من الخُضْرواتِ، وأَنْعم عليهم بالمنِّ والسَّلوى في ميدانِ التِّيه.

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

١٤ ـ رَغْم أنّ الأُمةَ المحمَّديةَ هي أفضَلُ الأُمم، لكنّ اللهَ تعالى فضَّلَ بني إسرائيلَ على كلِّ الأقوام في ذلك الوقت.

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

١٥ ـ أعطَى اللهُ تعالى بني إسرائيلَ الإرشاداتِ الواضحةَ والدَّلائلَ البيِّنةَ فيما يتعلَّقُ بدينِهم، بحيث لم يبقَ فيه مجالٌ للشكِّ أو الغموض، بل إنّ اللهَ تعالى قد بيَّن لهم آياتٍ واضحةً غايةَ الوضوح عن نبيِّ آخِرِ الزّمانِ سيّدِنا محمدٍ ﷺ، بحيث أنّهم كانوا يَعرِفونَ النبيَّ ﷺ بشكلٍ يقينيٍّ، لكنّهم بالرَّغْم من هذا العِلم اختَلَفوا فيما بينَهم بسببِ تحاسُدِهم وعنادِهم، إلى درجةِ أنهم افترَقوا إلى فِرَقٍ عديدة، وسوف يَحكُمُ اللهُ

تعالى يومَ القيامةِ في اختلافاتِهم؛ مَن كان منهم على الحقِّ، ومَن كان على الباطل.

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

١٦ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد وجَّهناكَ إلى طريقِ الدِّين الواضح وثبَّتناكَ عليه، ولهذا فإنّنا نأمُرُ أُمّتَك عن طريقِك أن يتَّبِعوا شريعتَك ويَثبُتوا عليها، وأن لا يتَّبعوا رَغَباتِ الجاهلين. يقولُ العلّامةُ البَيْضاويّ: «آراءُ الجُهّالِ التابعةُ للشَّهَوات، وهم رؤساءُ قُريش، قالوا له: ارجِعْ إلى دينِ آبائك»[١].

ورَغْم أنّ الخطابَ هنا في الظاهرِ للنبيِّ الكريم ﷺ، لكنّ المرادَ أُمةُ النبيِّ ﷺ؛ لأنه لا احتمالَ مطلقًا لأنْ يَترُكَ النبيُّ ﷺ الشريعةَ ويتَّبعُ هوى الجاهلين.

﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

١٧ ـ رَغْمَ أنّ الخطابَ هنا في الظاهرِ للنبيِّ ﷺ، لكنّ المرادَ هنا أُمّتُه، يعني: لو أنّ المسلمينَ ضاقوا بظُلم كفّارِ مكّةَ فمالوا إلى هواهم، فإنّهم لا يستطيعونَ إنقاذَ المسلمينَ من العذابِ يومَ القيامة، بل إنّهم لن يكونوا أوفياءَ معَ المسلمين في هذه الدنيا أيضًا؛ لأنّ الظالمينَ دائمًا يساعدُ بعضُهم بعضًا، لهذا ينبغي للمسلمينَ أن يتَّقوا اللهَ تعالى ويتَّخِذوه وحدَه وليًّا لهم؛ لأنّ اللهَ تعالى هو وحدَه وليُّ المتَّقينَ في هذه الدنيا وفي الآخِرة أيضًا.

﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

١٨ ـ كلُّ كلام القرآنِ الكريم حقٌّ، ويَخلُقُ البصيرةَ، وهو الذي يُرشدُ الناسَ جميعًا إلى طريقِ الهدايةِ والرحمة، لكنْ يحظَى بهدايتِه ورحمتِه أولئك الذين يؤمنونَ به؛ لأنّ المعتادَ هو أنّ الذي لا تثقُ فيه لا تعترفُ حتى بالطيِّب مما يقولُ.

---

(١) تفسير البيضاوي، سورة الجاثية (٤٥): الآية ١٨.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

١٩ ـ عندَما كان كفّارُ مكةَ يُنذَرونَ بعذابِ الآخِرة فإنّهم كانوا يقولون: الأمرُ الأولُ هو أنّ القيامةَ لن تأتيَ، وحتى ولو قامتِ الساعةُ فإنّنا سنكونُ هناك الأفضَلَ منكم أيضًا مثلَما كنّا الأفضَلَ منكم في هذه الدنيا، وفي هذه الآيةِ توضيحٌ أنّ المؤمنَ والكافرَ لا يَستوِيان.

دنيا المؤمن والكافر وآخرتهما

شخصٌ يقضي حياتَه كلَّها في فعلِ السُّوء، ويَهِيلُ تلالَ الظُّلم على الناس، وشخصٌ آخَرُ يقضي حياتَه مؤمنًا في فعلِ الخير، ويتعاطفُ معَ المظلومينَ ويواسيهم، ثم حينَ يأتي وقتُ الحسابِ يُساوَى بينَهما! اللهُ تعالى لا يفعَلُ ذلك أبدًا؛ لأنه يتنافَى معَ العدلِ والإنصاف، وإنّما مثلَما أنّ عمَلَ هذينِ لم يكنْ واحدًا في حياتِهما، كذلك لا يمكنُ أن يكونَ مصيرُهما بعدَ موتِهما واحدًا، ولهذا فإنّ الظالمينَ والأشرارَ الذين يظُنُّونَ أنّهم سيُحشَرونَ أيضًا معَ الصّالحين يُخطئونَ في ظنِّهم هذا ويُسيئونَ فيه، إذ إنهم ـ بذلك ـ يعيشونَ في جنّةِ الحَمْقَى، وبهذا لا يُستبعَدُ من أمثالِ هؤلاءِ مِثلُ هذا الكلام البعيدِ عن العقل.

الفرق بين موت المؤمن وموت الكافر

ـ يَروي سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «الميّتُ تَحضُرُه الملائكة، فإذا كان الرّجلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيّتُها النّفسُ الطِّيِّبةُ كانت في الجَسدِ الطّيّب، اخرُجي حميدةً وأَبْشِري برَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غضبان، فلا يزالُ يقالُ

لها ذلك حتّى تَخرُجَ، ثمّ يُعرَجُ بها إلى السّماءِ فيُفتَحُ لها، فيقال: مَن هذا؟ فيقولون: فلانٌ. فيُقال: مرحبًا بالنّفسِ الطّيِّبة، كانت في الجسدِ الطَّيِّب، ادخُلي حَميدةً، وأَبْشِري برَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غضبان. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتّى يُنتَهى بها إلى السّماءِ التي فيها اللهُ عزَّ وجلَّ. وإذا كان الرّجلُ السُّوءُ قال: اخرُجي أيّتُها النّفسُ الخَبيثةُ كانت في الجسدِ الخَبيث، اخرُجي ذَميمةً وأَبْشِري بحميمٍ وغَسّاقٍ، وآخَرَ من شكلِه أزواجٌ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتّى تَخرُج، ثمّ يُعرَجُ بها إلى السّماءِ فلا يُفتَحُ لها، فيقال: من هذا؟ فيقالُ: فلانٌ. فيقالُ: لا مرحبًا بالنّفسِ الخبيثةِ كانت في الجسدِ الخبيث، ارجِعي ذَميمةً، فإنّها لا تُفتَحُ لكِ أبوابُ السّماء، فيُرسَلُ بها من السّماءِ ثمّ تصيرُ إلى القبر»[1].

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

٢٠ ـ خَلَقَ اللهُ تعالى السّماواتِ والأرضَ بحِكمةٍ بحيثُ يقرُّ الإنسانُ العاقلُ ـ بمجرَّدِ أنْ يراها ـ بقُدرةِ الله تعالى وحِكمتِه، وقد هيَّأَ اللهُ تعالى في هذه الكائناتِ كلَّ الوسائلِ الضَّروريّة لنُموِّ الإنسانِ وتطوُّرِه، ثم أرسَلَ لهدايةِ بني الإنسانِ الأنبياءَ

---

(١) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣١ برقم ٤٢٦٢.

والرُّسُلَ، حتى يوضِّحوا لهم الحقَّ من الباطل، كما أنه تعالى أَنْعم على الإنسانِ بالعقل حتى يختارَ طريقَ الحقِّ أو طريقَ الباطل بمَحْضِ إرادتِه ورضاه، ولتحقيقِ هذا المقصِد خَلَق السماءَ والأرضَ وخَلَق حياةَ الإنسانِ وموتَه، حتى يُحاسِبَ كلَّ إنسانٍ على أعمالِه حسابًا كاملًا في الآخِرة، والظُّلمُ أيضًا يَحدُثُ معَ الناس في هذه الدنيا، ولكنّ خصُوصيّةَ الآخِرة أنه لا يُظلَمُ فيها أحدٌ ولو بمقدارِ ذَرّة.

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

٢١ ـ الذي يُلقي بأحكام اللهِ تعالى خَلْفَ ظهرِه، ويصيرُ عبدًا لشهَواتِه، يكونُ كأنه قدِ اتَّخذَ من شهَواتِه إلهًا، والشّخصُ الذي يتَّبعُ هواه معَ أنه يَعلَمُ أنه ـ بذلك ـ يُخالفُ أحكامَ الله تعالى، وبرَغْم ذلك يختارُ طريقَ الضَّلال، يترُكه اللهُ تعالى يَعْمَهُ في ضلالِه، فتَفقِدُ حواسُّه من كثرةِ ضلالِه واستمرارِه كلَّ مقدرةٍ لها بحيث تصبحُ أُذُنُه فاقدةً لأيِّ استعدادٍ لسَماع الحقِّ، وأمثالُ هؤلاءِ لا تحاولُ قلوبُهم فَهْمَ الحقِّ وإدراكَه، ولا تَملِكُ أعيُنُهم الهمّةَ على رؤيةِ الحق، وباختصار: فإنّ الشّخصَ الذي لا يَقبَلُ هدايةَ الله تعالى يظَلُّ محرومًا إلى الأبدِ من الهداية، لأنه ليس هناك أكبرُ من الله ولا أعظَمُ منه حتى يُمكنَه أن يَهديَه، ولهذا ينبغي له أن يَبتعدَ عن هواه، وأن يَقبَلَ نصيحةَ الله تعالى.

يقولُ العلّامة القُرطبي: «وقال سَهْلُ بن عبد الله التُّسْتَريُّ: هواكَ داؤك، فإنْ خالفتَه فدواؤك. وقال وَهْبٌ: إذا شَككتَ في أمرَيْنِ ولم تَدْرِ خيرَهما فانظُرْ أبعدَهما من هواك فأْتِه»[1].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الجاثية (٤٥): الآية ٢٣.

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

٢٢ ـ كان كفّارُ مكّةَ يتصوَّرونَ أنّ هذه الحياةَ الدُّنيا هي الأُولى والأخيرةُ أيضًا، وليس بعدَها أيُّ حياةٍ أخرى، وأنّ السببَ في حياتِهم هو الوالدانِ، والسببُ في موتِهم هو الزّمن، فالإنسانُ يَهرَمُ بمرورِ الزّمن ثم يموتُ، وهكذا تتواصَلُ سلسلةُ الحياةِ والموت، والحقيقةُ أنه ليس لديهِم أيُّ دليلٍ علميٍّ على إنكارِهم للقيامة، وإنّما هم يظُنُّونَ لا أكثرَ بأنّهم لن يُبعَثوا من جديد.

لا تسبوا الدهر

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ: يَسُبُّ بنو آدمَ الدّهرَ، وأنا الدّهرُ، بيدي اللّيلُ والنّهار»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال اللهُ عزّ وجلّ: يؤذيني ابنُ آدم (يعني: يسيءُ الأدبَ معي)، يَسُبُّ الدّهرَ، وأنا (خالقُ) الدَّهرِ، بيَديَ الأمرُ، أُقلِّبُ اللّيلَ والنّهار»[٢].

كان العربُ في الجاهليّة إذا حَلَّت بهم مصيبةٌ نَسَبوها إلى الدَّهر، مثلَما نُسِبَ الموتُ في هذه الآيةِ إلى الدَّهر، معَ أنّ اللهَ تعالى هو مُنزِّلُ الحوادثِ والمصائب، ولكنّهم يُقرُّونَ بأنّ فاعلَها هو الدَّهرُ.

في هذه الآيةِ مُنِعوا من سبِّ الدَّهر؛ لأنّ ما يعتقدونَ أنه الدَّهرُ هو اللهُ تعالى، وبالتالي فإنّ معنى ذلك أنّهم يَسُبُّونَ اللهَ تعالى، فقيلَ لله تعالى ـ مجازًا طِبقًا لِما تَعارَفوا عليه بينَهم ـ: الدَّهرُ، معَ أنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى ليس هو الدَّهرَ، وإنّما هو خالقُ الدَّهرِ.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٠١ برقم ٦١٨١.

(٢) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الجاثية (٤٥): الآية ٢٤ برقم ٤٨٢٦.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

٢٣ ـ عندَما كانتْ آياتُ القرآنِ الكريم التي ذُكِر فيها موضوعُ إحيائهم من جديدٍ تُتلَى عليهم، وبما أنّهم ليس لديهِم أيُّ دليلٍ على إنكارِهم للقيامة، فإنّهم كانوا يقولونَ فقط: لو أنّ دعواكَ هذه صادقةٌ بأنّ الساعةَ لا بدَّ آتيةٌ، وهي التي سيُبعَثُ فيها الجميعُ بعدَ موتهم، فابعَثْ أولًا آباءنا وأجدادَنا أمامَ أعيُـنِنا، إلى درجةِ أنّ أبا جهلٍ قال: يا محمّدُ إن كنتَ صادقًا في قولِك فابعَثْ لنا رجُلَيْنِ من آبائنا: أحدُهما قُصَيُّ بن كِلاب، فإنه كان رجلًا صادقًا؛ لِنسألَه عما يكونُ بعدَ الموت[1].

والأمرُ الأولُ بخصوصِ الردِّ على هؤلاءِ هو أنه لو أحيَيْنا آباءَ هؤلاءِ الكفّارِ وأجدادَهم بناءً على مطالبتِهم، وأتّى هؤلاءِ بعدَ إحيائهم وقَصُّوا عليهم أحوالَهم بعدَ الموت، فإنّهم معَ ذلك لن يؤمنوا بالغَيْب، معَ أنّ مقصِدَ الله تعالى أن يؤمنَ الناسُ بالأخبارِ التي يأتي بها أنبياؤه الكرامُ عليهمُ السَّلامُ دونَ أن يرَوْا شيئًا. والأمرُ الثاني هو أنّ مسلمًا لم يَدَّعِ أبدًا أنّ الموتَى سيُبعَثُون في هذه الدنيا، وإنّما يقولُ المسلمونَ: إنّ الإحياءَ ثانيةً سيكونُ بهدفِ الثوابِ والعقاب، وهذا سيكونُ في الآخِرة.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

٢٤ ـ يعني: مثلَما أنّ اللهَ تعالى أعطاكم الحياةَ الأُولى، سيَبعَثُكم من جديدٍ يومَ القيامة، وليس هناك أدنَى شكٍّ في مجيءِ القيامة، لكنّ أكثرَ الناسِ لا يَعرِفونَ هذه الحقيقةَ، معَ أنّ القيامة هي: ذلك اليومُ الذي سيُحاسَبُ فيه الناسُ جميعًا على كلِّ أعمالِهم حسابًا كاملًا.

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الدخان (٤٤): الآية ٣٦.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

٢٥ ـ الذين يعبُدونَ الباطلَ ولا يؤمنونَ بيوم القيامة، سيكونونَ في خُسرانٍ مُبين حين تقومُ السّاعةُ، وسيندَمونَ قائلينَ: ليتَنا لم نُنكِر القيامةَ عندَما كنّا في الدنيا.

﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

٢٦ ـ سيكونُ الناسُ يومَ القيامة مُلقَيْنَ جاثِينَ على رُكَبِهم بسببِ أهوالِ القيامة والخَوْفِ منها، ثم سيُدعَوْنَ إلى الحسابِ على أعمالِهم، وسيُحكَمُ بما يناسبُ أعمالَهم ثوابًا وعقابًا.

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

٢٧ ـ رَغْم أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم أعمالَ كلِّ إنسان، لكنّه عيَّن ملائكةً يُسجِّلونَ على الإنسانِ كلَّ ما يعمَلُ ويحفَظُونه لديهم بغَرَضِ إقامةِ الحُجّةِ عليه،

ثم سيَعرِضُونَ كلَّ ما كتَبوه يومَ القيامة وبكلِّ صِدقٍ وأمانة، ولن يكونَ فيه أيُّ زيادةٍ أو نُقصان، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

٢٨ ـ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصّالحاتِ يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامة في رحمته، أي: في الجنّة، والفَوْزُ العظيمُ والنّجاحُ الباهرُ في ذلك اليوم هو أن يؤْذَنَ للإنسانِ بدخولِ الجنّة.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

٢٩ ـ سيقولُ اللهُ تعالى للكفّارِ يومَ القيامة: ألم تَأتِكم رُسُلي، وتَتْلوا عليكم آياتي؟ لكنَّكم استكبرتُم عندَئذٍ، وأعرَضتُم عن آياتي؛ لأنّكم كنتُم مُجرِمينَ طُغاةً، ولهذا عليكم أن تَذوقوا اليومَ عقابَ إجرامِكم.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

٣٠ ـ عندما كان يقالُ لكم: إنّ وعدَ الله حقٌّ، وليس من شكٍّ في أنّ الساعةَ ستقوم، كنتُم تقولون: إنّنا لَسْنا على يقينٍ من قيام الساعة، ولا يتَعدَّى الأمرُ سوى خيالٍ يُراودُنا أحيانًا بأنه ربَّما تقومُ الساعة.

ومُنكِرو القيامة قسمانِ، أحدُهما: هم الذين يُنكرونَها إنكارًا تامًّا، والثاني

هو: الذين يَشُكُّونَ في قيامِها من عَدَمِه، وكلاهما سواءٌ من حيثُ النَّتيجةُ؛ لأنه ما لم يكنْ هناك يقينٌ على قيام السّاعةِ لن يَشعُرَ الإنسانُ بمسئوليّةِ الحساب، وقد جاء هنا ذِكرُ القسم الثاني.

﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٣١ ـ عندَما تظهَرُ أعمالُ مُنكري القيامةِ السيِّئة وكذا نتائجُها السيِّئةُ أيضًا، سيُحيطُ بهم عذابَ القيامة عندَئذٍ، معَ أنهم كانوا يَشُكُّوْنَ في القيامةِ وعذابِها، وكانوا يَسخَرونَ منها.

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

٣٢ ـ سيقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ لمن كانوا يُنكرونَها: لقد جاءكم الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام، وأخبَروكم بأنّ الساعةَ ـ لا بدَّ ـ آتيةٌ، وهي التي ستَمثُلونَ فيها في حضرةِ ربِّكم ويُحاسِبُكم على أعمالِكم، لكنّكم نَسِيتُم دعوتَهم، ولهذا فإنّنا اليومَ نَنْساكم كما نَسِيتُم أحكامَنا في حياتِكم الدُّنيا، وسنُلقي بكم في جهنَّمَ متجاهِلينَ إياكم، ولن تَجِدوا لكم أيَّ نصير.

﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

٣٣ ـ يعني: أنّ الحياةَ الدُّنيا قد خَدَعتْكم إلى درجةِ أنّكم لم تُنكروا آياتِ الله تعالى فقطْ، وإنّما كنتُم تَسخَرونَ منها أيضًا، ولهذا سيُلقَى بكم في جهنَّمَ خالدينَ فيها عقابًا لكم على جُرمِكم هذا، ثم لن تَخرُجوا من جهنَّمَ بعدَ ذلك، كما لن تُقبَلَ توبتُكم؛ لأنه لن يُمنَحَ أحدٌ يومَ القيامة فُرصةً لِأن يتوبَ.

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

٣٤ - المستحِقُّ الحقيقيُّ لكلِّ حمدٍ وثناءٍ هو اللهُ تعالى؛ لأنه ربُّ السماواتِ والأرض، وله الكِبرياءُ والعَظَمةُ في السماءِ والأرض أيضًا:

- يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يقولُ اللهُ سبحانَه: الكِبرياءُ رِدائي والعَظَمةُ إزاري، مَن نازَعَني واحدًا مُنهما أَلْقَيْتُه في جهنَّم»[1].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إِمداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العشاءِ من يوم الجمُعة ٢٨ مايو ٢٠١٠م
الموافق ١٥ جُمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتَملَ تفسيرُ سُورةِ الجاثية في ثلاثةِ أيام فقط، أي: من ٢٥ من شهر مايو إلى ٢٨ من نفسِ الشهر، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦) سُورَةُ الأَحْقَافِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها: «الأحقافُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ رقم **٢١** من السُّورة، وجاء في السُّورةِ بيانٌ لأدِلّةٍ عديدةٍ فيما يتعلَّقُ بالتوحيدِ والقرآنِ المَجيدِ والنُّبوّة والرِّسالة والدِّين والآخِرة، مَثَلُها في ذلك مَثَلُ السُّوَرِ المكِّيةِ الأخرى.

التوحيد

في بداية هذه السُّورةِ وُجِّهَتِ الدَّعوةُ بالتفكيرِ إلى المشركين، بأنّ الأصنامَ التي تتَّخذونَها شُركاءَ لله تعالى وتعبُدونَها، هل خَلَقت أيَّ جُزءٍ في الأرضِ والسماء؟ وواضحٌ أنه لا حظَّ للأصنام في خَلْقِ الأرضِ والسماء، وإنما خالقُها هو اللهُ تعالى فقطْ ولا غيرُه، فلماذا إذًا تشركونَ بالله تعالى؟ لو أنّ لدَيْكم أيَّ روايةٍ نقلًا عن كتابٍ سَماويٍّ سابق، أو عن نبيٍّ آخَرَ، جاء فيها تعليمُ الشِّرك، فأَرُوني إياها، ولكنْ بما أنه ليس لديْكُم أيُّ دليلٍ عَقْليّ أو نَقْليٍّ على شِركِكم، فلماذا إذًا تظلِمونَ أنفُسَكم وتُفسِدونَ آخِرتكم؟

القرآن المجيد

كان كفّارُ مكّةَ يقولونَ عن القرآنِ المَجيدِ أحيانًا: إنه سِحرٌ، حتى لا يتفكَّرَ الناسُ في آياته أو يتدبَّروها، وأحيانًا أخرى كانوا يقولونَ عنه: إنّ النبيَّ يؤلِّفُه من عندِ

نفسِه ثم يَنسُبُه إلى الله تعالى، وعليه قال لهمُ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى: لو أنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ الله تعالى، وأنا الذي أؤلِّفُه من عندِ نفسي وأنسُبُه إلى اللهِ تعالى كما تقولون، فإنّ هذا جُرمٌ عظيمٌ منِّي، وبالتالي سأتحمَّلُ أنا عقابَه، ولن تستطيعوا أنتم إنقاذي منه، ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، القرآنُ كلامُ الله تعالى يقينًا، واللهُ نفسُه شاهدٌ كافٍ على صِدقِه، كما أنه شاهدٌ أيضًا على المؤامراتِ التي تَحيكونَها ضدَّ القرآنِ المجيد، ويَعلَمُها تمامَ العلم، ولهذا لن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ على جرائِمِكم.

الرسالة النبوة

عندَما أعلَن النبيُّ الكريمُ ﷺ نُبوَّتَه اعترَضَ أهلُ مكّةَ بأنك بشَرٌ مِثلُنا تأكُلُ وتشربُ وتمشي هنا وهناك، فكيف يمكنُ أن تكونَ رسولًا؟ ولو أنّ اللهَ تعالى مرسِلٌ رسولًا من البشَر لا مَحالةَ، لَأرسَلَ مجموعةً من الملائكة يَمكُثونَ معَك دائمًا، ويؤكِّدونَ على صِدقِك أمامَ الناس، وعليه قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، قل لهم: لَسْتُ أولَ رسولٍ ولا أنا بِدْعٌ منهم، وإنّما قد جاء رُسُلٌ كثيرونَ من قَبْلي، وكانوا جميعًا بشَرًا مِثْلي، وقد أرسَلَهم اللهُ تعالى، وكانوا يَدْعُونَ إلى التوحيدِ أيضًا، وقد أرسَلَني اللهُ تعالى أيضًا مِثلَهم، وأنا لستُ مختلفًا عنهم، فلما تعترضونَ علَيّ أنا بالذات كلَّ هذه الاعتراضات؟

دين الإسلام

برَغْم المخالفةِ الشَّديدة إلّا أنّ الإسلامَ قد أثَّر في الناس، وكان سادةُ مكّةَ يشجِّعونَ متَّبِعيهم على الثَّباتِ على الكُفرِ قائلين: لو أنّ الإسلامَ أمرٌ طيِّبٌ لَما دَخَلَه سوى الفقراءِ والمساكينِ والعَبيدِ والمحتاجينَ فقطْ، ولكنّا نحن أولُ الداخِلينَ فيه؛ لأنّنا سادةُ قومِنا ومفكِّروهم، ولدَيْنا خبرةٌ عظيمة، ونمتلكُ من المقدِرةِ ما

يمكِّنُنا من معرفةِ الحَسَن من القبيح، ولكنَّنا لا نَرى فيه شيئًا حسَنًا، ولهذا لم نَقبَلْه، وبالتالي لا تَقترِبوا منه أنتم أيضًا.

الآخرة

ألم يكنْ كفّارُ مكّةَ يتفكَّرونَ بأنّ اللهَ تعالى الذي خَلَق مخلوقاتٍ عظيمةَ مِثلَ الأرضِ والسماء، ولم يُصِبْه أيُّ تعبٍ أو نَصَب في خَلْقِها، هل يَصعُبُ عليه أن يُحييَ إنسانًا بسيطًا صغيرًا من جديدٍ بعدَ موتِه، معَ أنه قادرٌ على كلِّ شيء؟ وقد كان الكفّارُ يعتقدونَ أنّ هذه الدُّنيا هي كلُّ شيءٍ، ولهذا كانوا يُنكرونَ الآخرةَ، ولكنْ حينَ يُعرَضُونَ على نارِ جهنَّم يومَ القيامة ويُسألون: أليست هذه هي جهنَّمَ التي كنتُم تُنكرونَها؟ عندَئذٍ يَحلِفونَ معترِفينَ أنّ القيامةَ - بالفعل - حقٌّ، وأنّنا كنّا مخطئين، لكنّ الاعترافَ حينَئذٍ لن يُنجِّيَ أيَّ كافرٍ من العذاب.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظُّهر من يوم السبت ٢٩ مايو ٢٠١٠م
الموافق ١٦ جُمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

* * *

سُورَةُ الأَحْقَافِ (٤٦)،

مكية (٦٦)، آياتها (٣٥)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

﴿حمٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعاتٌ، وهي سِرٌّ بينَ اللهِ تعالى ورسوله الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجعِ الحاشيةَ رقم ١ من سُورةِ البقرة.

﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾

٢ ـ خَلَق اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ وكلَّ شيءٍ بينَهما بطريقةٍ كاملةٍ ورائعةٍ بحيث يُضطَرُّ كلُّ عقلٍ سَليم يتدبَّرُ فيها ويتأمَّلُها إلى الإقرارِ بوَحْدانيّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه.

لقد خَلَق اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ لمقصِدٍ صادقٍ وحقٍّ، وهو أن يستقِرَّ فيها الإنسانُ ويُبتَلى؛ من يكونُ على الحقِّ، ومن يكونُ على الباطل؟

لقد خَلَق اللهُ تعالى الأرضَ والسماءَ وما بينَهما لوقتٍ محدَّدٍ، وحين ينتهي هذا الوقتُ المحدَّدُ ستفنَى الأرضُ والسَّماءُ، ويفنَى كلُّ شيءٍ بينَهما، وستُخلَقُ أرضٌ جديدةٌ وسماءٌ أُخرى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعْرِضُونَ ﴾

٣ ـ بَعَث اللهُ تعالى الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ إلى الناسِ ليبشِّروا الذين يعمَلونَ الصالحاتِ بالجنّة، ويُنذِروا الذين يرتكبونَ السيِّئاتِ بعذابِ جهنَّم، لكنّ الناسَ أعرَضوا عن تعاليم الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، فاستَحقُّوا بذلك جهنَّمَ.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

٤ ـ هنا دعوةٌ بالتفكيرِ إلى المشركين، بأنّ الأصنامَ التي تتَّخذونَها شُركاءَ لله تعالى وتعبدونَها، هل خَلَقتْ أيَّ جزءٍ في الأرضِ والسَّماء؟ وواضحٌ أنه لا حظَّ

للأصنام في خَلْقِ الأرضِ والسَّماء، وإنما خالقُها هو اللهُ تعالى فقطْ ولا غيرُه، فلماذا إذًا تُشركونَ باللهِ تعالى؟

ولو أنّ لدَيْكم أيَّ روايةٍ نقلًا عن كتابٍ سَماويٍّ سابق، أو عن نبيٍّ آخَرَ، جاء فيها تعليمُ الشِّرك فأَرُوني إياها، ولكنْ بما أنه ليس لدَيْكم أيُّ دليلٍ عَقْليٍّ أو نَقْليٍّ على شِرككم، فلماذا إذًا تَظلِمونَ أنفُسَكم وتُفسِدونَ آخِرتكم؟

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾

٥ ـ يعني: أنّ أكثرَ الناسِ ضلالًا هو ذلك الشَّخصُ الذي يَترُكُ اللهَ تعالى ويعبُدُ مَن لا يستطيعونَ سَماعَ استغاثتِه إذا استغاثَ بهم، وإنْ سَمِعوا استغاثَتَهُ فليس لَدَيْهِم المقدرةُ على أن يُغيثوه، وبالتالي فإنّ عبادةَ أمثالِ هذه الآلهةِ العاجِزةِ الصَّماءِ ليس ضَلالًا فقطْ، وإنّما أقصَى درجاتِ الحُمقِ والغَفْلةِ والجهل.

﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

٦ ـ الأشياءُ التي تُعبَدُ في هذه الدنيا مِن دونِ الله تعالى ستُعلِنُ براءَتها من المؤمنينَ بها يومَ القيامة في ميدانِ الحَشْر قائلةً بأنّنا لم نَدَّعِ أبدًا أنّنا آلهةٌ، كما أنّنا لا نَعلَمُ شيئًا عن عبادةِ هؤلاءِ لنا، وإذا اعتقَد هؤلاءِ أنّنا آلهةٌ فهذا كذبٌ صَريحٌ منهم، وهم المسئولونَ عنه.

والمشاهَدُ في هذا الدُّنيا أيضًا أنّ من ينضَمُّ إلى المُفسِدينَ ويرتكبُ الخطأَ مِثلَهم، فإنه يتحمَّلُ عقابَ خطأِه بنفسِه حين يُمسِكُ به، ويتَخلَّى عنه حينَئذٍ أولئك المفسِدونَ قائلين: إنّنا لا علاقةَ لنا به، وقد أخطَأَ هو، ولكنّه يتَّهمُنا كذبًا وزُورًا.

والمرادُ بشُركاءِ الله تعالى في هذه الآيةِ ليس الملائكةَ والأنبياءَ؛ لأنّ هؤلاءِ كانوا يَعرِفونَ بعبادةِ المشركين، فكيف يُنكرونَ عبادتَهم؟ كما أنّ هذه الآيةَ مكّية، والخطابُ فيها لمشركي مكّةَ، ولم يكنْ مشركو مكةَ يؤمنونَ بالأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، فكيف يمكنُ أن يعبُدوا الأنبياءَ؟ هذه الآيةُ بمثابةِ اللُّمحةِ الفِكْريّةِ لأولئك الذين يعتقدونَ بشفاعةِ الأصنام عندَ الله تعالى، وينبغي لهم أن يترُكوا الأصنامَ من فَوْرِهم، ويتَّبِعوا أهلَ الله، يعني: الأنبياءَ والعلماءَ والشُّهداءَ والحُفّاظَ الذين يَهْدُونَ إلى الصِّراطِ المستقيم في هذه الدُّنيا، وسيَشفَعونَ في الآخِرة لأهلِ الإيمان.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

٧ ـ القرآنُ المَجيدُ كتابُ حقٍّ، وعندَما كان النبيُّ ﷺ يَتْلو آياتِه على كفّارِ مكّةَ ويَدْعوهم إلى التوحيد، وبما أنّهم لم يكنْ لديهِم أيُّ دليلٍ ينفي التوحيدَ، ولم يكونوا يريدونَ التَّخلّيَ عن عبادةِ الأوثان، لهذا كانوا يقولونَ: إنّ هذا سِحرٌ مُبين، ولهذا لا تقترِبوا منه، وإلّا سيُضِلُّكم بسِحرِه عن دينِ آبائكم وأجدادِكم.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

٨ ـ كان كفّارُ مكّةَ يقولونَ عن القرآنِ المَجيدِ أحيانًا: إنه سِحرٌ، حتى لا يتفكَّرَ الناسُ في آياتِه أو يتدبَّروها، وأحيانًا أُخرى كانوا يقولونَ عنه: إنّ النبيَّ يؤلِّفُه من عندِ نفسِه ثم يَنسُبُه إلى الله تعالى، وعليه قال لهمُ النبيُّ ﷺ: لوِ (افترَضنا) أنّ هذا القرآنَ ليس كلامَ الله تعالى، وأنا الذي أؤلِّفُ (هذا القرآنَ) من عندِ نفسي وأَنسُبُه إلى اللهِ تعالى كما تقولون، فإنّ هذا جُرمٌ عظيمٌ منِّي ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾[هود: ٣٥]، وبالتالي سأتحمَّلُ أنا عقابَه، ولن تستطيعوا أنتم إنقاذي منه، ولكنِ اسمَعوا جيِّدًا، القرآنُ كلامُ الله تعالى يقينًا، واللهُ نفسُه شاهدٌ

كافٍ على صِدقِه، ولا حاجةَ إلى شاهدٍ بعدَه، كما أنه شاهدٌ أيضًا على المؤامراتِ التي تَحِيكونَها ضدَّ القرآنِ المَجيد، ويَعلَمُها تمامَ العلم، ولهذا لن تستطيعوا الإفلاتَ من العقابِ على جرائمِكم، إلّا أنّكم لو تُبتُم إلى الله تعالى فسيعفُو عنكم؛ لأنه رحيمٌ غايةَ الرَّحمة، وغفورٌ غايةَ الغُفران.

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾

٩ ـ عندَما أعلَن النبيُّ الكريمُ ﷺ نُبوَّتَه اعتَرضَ أهلُ مكّةَ بأنك بشَرٌ مِثلُنا تأكُل وتشربُ وتمشي هنا وهناك، فكيف يمكنُ أن تكونَ رسُولًا؟ ولو أنّ اللهَ تعالى مُرسِلٌ رسُولًا من البشَرِ لا مَحالةَ، لَأرسَلَ مجموعةً من الملائكةِ يمكُثونَ معك دائمًا، ويؤكِّدونَ على صِدقِك أمامَ الناس، وعليه قال اللهُ تعالى: يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قلْ لهم: لستُ أولَ رسولٍ ولا أنا بِدْعٌ منهم، وإنّما قد جاء رسُلٌ كثيرونَ من قَبْلي، وكانوا جميعًا بشَرًا مِثلي، وقد أرسَلَهم اللهُ تعالى، وكانوا يَدْعُونَ إلى التوحيد أيضًا، وقد أرسَلَني اللهُ تعالى أيضًا مِثلَهم، وأنا لستُ مختلفًا عنهم، فلماذا تعترِضُونَ علَيَّ أنا بالذاتِ كلَّ هذه الاعتراضات؟

﴿ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾

١٠ ـ المفهومُ الظاهرُ لهذه الآية هو أنّ النبيَّ ﷺ قال لكفّارِ مكةَ: إنّي لا أعلَمُ ماذا سيَحدُثُ معي ولا ماذا سيَحدُثُ معَكم في الآخِرة؟

ومعنى الدِّراية: الحصُولُ على معرفة شيءٍ بعقلِك ومَنطِقِك، وقد جاء نَفْيُ الدِّرايةِ في هذه الآية، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ لم يَعرِفْ شيئًا عن طريقِ العقل والقياسِ عن آخرتِه وآخِرةِ الكفّار، إلّا أنّ اللهَ تعالى أَطْلَعَه يقينًا ـ عن طريقِ الوحيِ ـ بمصيرِه ومصيرِ الكفّار، وبالتالي يصبحُ مفهومُ هذه الآية هو: أنّني لا أعرِفُ بعَقْلي آخِرتي

وآخِرتكم، وإنّما أعرفُ فقطْ ما يُطلِعُني اللهُ تعالى عليه عن طريقِ الوحي، وأنا أتَّبِعُه لا أكثرَ ولا أقلَّ، إذْ يمكنُ أن يُخطِئَ قياسي، لكنْ لا مجالَ للشكِّ ولو بمقدارِ ذرّةٍ في عِلم الوحي، ولهذا فإنّني أيضًا أُحذِّرُكم من أنّكم إنْ لم تعمَلوا طِبقًا للعلم الذي يَنزِلُ علَيَّ فلن تستطيعوا الإفلاتَ من عذابِ جهنَّم، ولأنّ هذه الآيةَ نَزَلت في مكةَ، لهذا أذكُرُ هنا بعضَ الآياتِ المكِّيّةِ التي تدُلُّ على أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ عاقبتَه وعاقبةَ الآخَرينَ أيضًا.

ـ ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ * وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٢-٧٣]، وهاتانِ آيتانِ من سورةِ الزُّمر، وقد نزَلت هذه السُّورةُ في مكةَ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ على يقينٍ من أنّ الكفّارَ سيَدخُلونَ جهنَّم، وسيَدخُلُ المتَّقونَ الجنّةَ، رَغْمَ أنه ﷺ كان يعيشُ حِينئذٍ في مكةَ.

ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣-١٤]، وهاتانِ آيتانِ من سُورةِ الأحقاف، وقد نَزَلت في مكّةَ، ولك أن تتصوَّرَ أنّ عامّةَ المؤمنينَ الثابِتينَ على الإيمانِ سيَدخُلونَ الجنّةَ، فكيف يكونُ أعظمُ مؤمنٍ وسيّدُ الأنبياءِ الكرام عليه السَّلامُ سيّدُنا محمّدٌ ﷺ لا يَعرِفُ آخِرتَه أو مصيرَه، هل يمكنُ هذا؟

ـ ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ * وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤-٥]، وهاتانِ آيتانِ من سُورةِ الضُّحى، وهي سُورةٌ نَزَلت في مكّةَ، وفيها بَشَّر اللهُ تعالى النبيَّ ﷺ بأنّ كلَّ خطوةٍ من خُطاك تتقدَّمُ بك إلى الفَوْزِ والفلاح، وسوف تصِلُ في

النِّهايةِ إلى المنزِل الذي يُرضيكَ ويُسعِدُك حينَ تراه، فكيف يمكنُ أن يَجهَلَ هذا النبيُّ مستقبَلَه؟

علم المستقبل والآخرة في الأحاديث النبوية

١ - يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي اللهُ عنه: إنّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم صَعِدَ أُحُدًا وأبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ، فرَجَف بهم، فقال: «اثبُتْ (يا جَبَلَ) أُحُد فإنّما عليك نبيٌّ وصِدِّيقٌ وشهيدانِ»[1]، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ رضيَ اللهُ عنه سيموتُ مِيتةً طبيعيّةً، وأنّ سيّدَنا عُمرَ وسيّدَنا عثمانَ رضي اللهُ عنهما سوف يُستشهَدانِ.

٢ - قبلَ معركةِ بدرٍ بيوم واحدٍ عايَنَ النبيُّ ﷺ مكانَ المعركة وقال، فيما رواهُ سيّدُنا أَنَسُ بن مالكٍ رضي الله عنه، عن سيّدِنا عُمرَ رضي الله عنه: «هذا مصرَعُ فلانٍ غدًا إن شاء الله». قال: فقال عُمرُ: فوالّذي بَعَثَه بالحقّ، ما أخطَأُوا الحدودَ الّتي حدَّ رسُولُ الله ﷺ»[2].

٣ - يقولُ سيّدُنا البَراءُ بنُ عازبٍ رضيَ اللهُ عنه: أَمَرَنا رسولُ الله ﷺ بحَفْرِ الخَنْدق، قال: وعَرَض لنا صخرةٌ في مكانٍ من الخَنْدق لا تأخُذُ فيها المَعاوِل، قال: فشَكَوْها إلى رسولِ الله ﷺ، فجاء رسولُ الله ﷺ، قال عوفٌ: وأحسَبُه قال: وَضَع ثوبَه ثمّ هَبَط إلى الصّخرة، فأخَذ المِعوَلَ فقال: «بسم الله» فضَرَب ضربةً فكُسِر ثُلُثُ الحَجَر، وقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ الشّام، والله إنّي لَأُبصِرُ قصورَها الحُمرَ من مكاني هذا». ثمّ قال: «بسم الله» وضَرَب أُخرى فكُسِر ثُلُثُ الحَجَر، فقال: «اللهُ

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٧٥.
(٢) مسلم، كتاب الجنة، باب ١٧ برقم ٧٢٢٢.

أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ فارسَ، والله إنّي لَأُبصِرُ المدائنَ، وأُبصِرُ قصرَها الأبيضَ من مكاني هذا»، ثمّ قال: «بسم الله» وضَرَب ضربةً أخرى فقَلَع بقيّةَ الحَجَر فقال: «اللهُ أكبر، أُعطِيتُ مفاتيحَ اليمن، والله إنّي لَأُبصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا»(١)، ويشهَدُ التاريخُ أنّ هذه المناطقَ كلَّها فُتِحت في عهدِ الخلافةِ الراشدة.

٤ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال حين سُئل عن المقام المحمود في الآيةِ رقم ٧٩ من سُورةِ الإسراء: «هو المقامُ الذي أشفَعُ لأُمّتي فيه»(٢).

٥ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: حدّثنا محمّدٌ ﷺ قال: «إذا كان يومُ القيامة ماجَ النّاسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتُونَ آدمَ فيقولون: اشفَعْ لنا إلى ربِّك. فيقول: لستُ لها، ولكنْ عليكم بإبراهيمَ فإنّه خليلُ الرّحمن. فيأتُونَ إبراهيمَ فيقولُ: لستُ لها، ولكن عليكُم بموسى فإنّه كَلِيمُ الله. فيأتُونَ موسى فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكُم بعيسى، فإنّه رُوحُ الله وكلِمتُه. فيأتُونَ عيسى فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكم بمحمّدٍ ﷺ، فيأتُوني فأقولُ: أنا لها. فأَستَأْذِنُ على ربِّي فيُؤذَنُ لي، ويُلهِمُني محامدَ أحمَدُه بها لا تَحضُرني الآنَ، فأحمَدُه بتلك المحامِد وأخِرُّ له ساجدًا، فيقال: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعْطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي، فيقالُ: انطلِقْ فَأَخْرِجْ من كان في قلبِه مثقالَ شعيرةٍ من إيمانٍ، فأَنْطَلِقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ، فأقولُ: يا ربِّ، أُمّتي أُمّتي. فيقالُ: انطلِقْ

---

(١) مسند أحمد، ٤: ٣٠٣.

(٢) مسند أحمد، ٢: ٤٤١.

فأَخْرِجْ منها مَن كان في قلبه مثقالُ ذرّةٍ أو خَرْدلةٍ من إيمانٍ. فأَنطلِقُ فأفعَلُ، ثمّ أعودُ فأحمَدُه بتلك المحامد، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك، وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربّ، أُمّتي أُمّتي. فيقولُ: انطلِقْ فأَخْرِجْ مَن كان في قلبِه أدنَى أدنى أدنى مثقالِ حبّةِ خَرْدلٍ من إيمانٍ فأَخْرِجْه من النّار. فأنطَلِقُ فأفعَلُ» ... «ثمّ أعودُ الرّابعةَ فأحمَدُه بتلك، ثمّ أَخِرُّ له ساجدًا، فيقالُ: يا محمّد، ارفَعْ رأسَك وقُلْ يُسمَعْ لك، وسَلْ تُعطَهْ، واشفَعْ تُشفَّعْ. فأقولُ: يا ربِّ ائْذَنْ لي فيمن قال: لا إله إلّا الله. فيقولُ: وعزّتي وجَلالي وكبريائي وعَظَمتي لَأُخرِجَنَّ منها من قال: لا إلهَ إلَا الله»(١).

٦ ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أنا سيّدُ وَلَد آدمَ ولا فَخْرَ، وأنا أوّلُ مَن تنشَقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامة ولا فَخْرَ، وأنا أوّلُ شافعٍ وأوّلُ مُشفَّعٍ ولا فَخْر، ولواءُ الحمدِ بيدي يومَ القيامة ولا فَخْر»(٢).

٧ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرِو بن العاصِ رضيَ اللهُ عنهما: «إنَّ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم تلا قولَ الله تعالى في ابراهيمَ عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ [إبراهيم: ٣٦] الآيةَ ـ وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] فرَفَع يدَيْه وقال: «اللّهُمَّ أُمّتي أُمّتي» وبَكى، فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يا جِبريلُ، اذهَبْ الى محمّدٍ ـ وربُّك أعلم ـ فاسأَلْه: ما يُبكيك؟ فأتاه جِبريلُ عليه السَّلامُ فسأَلَه، فأَخْبَره

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب ٣٦ برقم ٧٥١٠، ومسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٤ برقم ١٩٣.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣٠٧.

رسولُ الله ﷺ بما قال، وهو أعلَمُ، فقال الله: يا جِبريل، اذهَبْ إلى محمّدٍ فقُلْ: إنّا سنُرضيك في أُمّتِك و لا نَسُوءُك"[١]، ويتوافَقُ مفهومُ هذا الحديثِ معَ الآيةِ القرآنيّةِ التي يقولُ اللهُ تعالى فيها: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

٨ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «آتي بابَ الجنّةِ يومَ القيامة فأستفتحُ، فيقولُ الخازن: مَن أنت؟ فأقولُ: محمّدٌ. فيقول: بكَ أُمِرت، لا أفتَحُ لأحدٍ قبلَكَ»[٢].

٩ ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ فاطمةَ سيّدةُ نساءِ أهلِ الجنّة، وإنّ الحَسَن والحُسَينَ سيّدا شبابِ أهلِ الجنّة»[٣].

١٠ ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: كنتُ معَ رسولِ الله ﷺ، إذْ طَلَع أبو بكرٍ وعُمرُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «هذانِ سيّدا كهولِ أهل الجنّةِ من الأَوّلينَ والآخِرينَ إلّا النّبيِّينَ والمرسَلين (لأنّ مرتبةَ النبيِّينَ أرفَعُ من هؤلاءِ جميعًا)، يا عليُّ، لا تُخبِرْهما»[٤]، وفي روايةٍ أخرى: «لا تُخبِرْهما يا عليُّ ما داما حيَّيْنِ»[٥].

١١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتاني جِبريلُ فأخَذَ بيدي فأراني بابَ الجنّةِ الّذي تَدخُلُ منه أُمّتي»، فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، وَدِدتُ أنّي كنتُ معَك حتّى أنظُرَ إليه (أي: إلى وجهِك)، فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنّك يا أبا بكرٍ أوّلُ مَن يَدخُلُ الجنّةَ من أُمّتي»[٦].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٧ برقم ٤٩٩.
(٢) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٥ برقم ٤٨٦.
(٣) الترمذي، كتاب المناقب، باب ٣٠ برقم ٣٧٨١.
(٤) الترمذي، كتاب المناقب، باب ١٦ برقم ٣٦٦٥.
(٥) ابن ماجه، كتاب السنة، باب ١١ برقم ٩٥.
(٦) أبو داود، كتاب السنة، باب ٨ برقم ٤٦٥٢.

١٢ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ عَوْف رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أبو بكرٍ في الجنّةِ، وعُمرُ في الجنّة، وعثمانُ في الجنّة، وعليٌّ في الجنّة، وطلحةُ في الجنّة، والزُّبَيْرُ في الجنّة، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوْفٍ في الجنّة، وسعدٌ في الجنّة، وسَعِيدٌ في الجنّة، وأبو عُبَيدةَ بنُ الجَرّاح في الجنّة»[1].

ويُعلَمُ من الأحاديثِ النَّبويّة المذكورةِ أنّ أعدادًا لا تُحصَى من أهل الإيمانِ سيَدخُلُونَ الجنّةَ بشفاعةِ النبيِّ ﷺ، ولهذا فإنّ الاعتقادَ عن النبيِّ الذي يُبشِّرُ متَّبعيهِ بالجنّةِ أنه لا يَعلَمُ شيئًا عن عاقبتِه أمرٌ في غاية الظُّلم والإجحاف.

يقولُ سيّد محمودٍ الآلوسيُّ: «أكثرُ المحقِّقينَ استَبْعَدوا هذا القولَ واحتَجُّوا بأنّ النبيَّ لا بدَّ أن يَعلَمَ من نفسِه كونَه نبيًّا، ومتَى عَلِم ذلك عَلِم أنه لا يَصدُرُ عنه الكبائرُ وأنه مغفورٌ له، وإذا كان كذلك امتَنَع كونُه شاكًّا في أنه هل هو مغفورٌ له أم لا، وبأنه لا شكَّ أنّ الأنبياءَ أرفَعُ حالًا من الأولياء، وقد قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فكيف يُعتقَدُ بقاءُ الرسولِ وهو رئيسُ الأنبياءِ وقُدوةُ الأولياء شاكًّا في أنه هل هو من المغفورينَ أم لا»[2].

والقولُ الذي اختارَه سيّد محمود الآلوسيُّ هو «أنّ المعنى على نَفْي الدِّرايةِ من غيرِ جهةِ الوَحْي، سواءٌ كان الدِّرايةُ تفصيليّةً أو إجماليّةً، وسواء كان ذلك في الأمورِ الدُّنيويّة أو الأُخرَويّة، وأعتقدُ أنه ﷺ لم يَنتقلُ من الدُّنيا حتى أوتيَ منَ العِلمِ بالله تعالى وصفاتِه وشؤونِه والعلم بأشياءَ يُعَدُّ العلمُ بها كمالًا ما لم يؤتَهُ أحدٌ غيرُه من العالَمين»[3].

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٢٥ برقم ٣٧٤٧.
(٢) تفسير روح المعاني، سورة الأحقاف (٤٦): الآية ٩.
(٣) المرجع السابق.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾

١١ ـ يعني: أنتم تُنكرونَ القرآنَ المجيدَ لأنّكم تعتقدونَ أنه ليس كلامَ الله تعالى، لكنّكم لم تتفكَّروا أبدًا إنْ ثَبَت خطأُ ما تعتقدون، وثَبَت أنّ هذا الكتابَ منَ الله تعالى، وظَلَلتُم أنتم مُصِرِّينَ على إنكارِكم، فماذا سيكونُ مصيرُكم؟

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

١٢ ـ جاء مِثلُ هذا المفهوم من قبلُ في سُورةِ الشُّعراء، حيث قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ١٩٦-١٩٧]، يعني: أنّ ذِكرَ القرآنِ المجيدِ موجودٌ في الكُتبِ السَّماويّةِ السابقة، وأنّ علماءَ بني إسرائيلَ يعلَمونَ هذا تمامَ العِلم.

وللتأكيدِ على هذه الدَّعوى اتَّصل مشركو مكةَ بعُلماءِ اليهود مثلَما يَنقُلُ العلّامةُ القُرطبيُّ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عَبّاس رضي اللهُ عنهما قولَه: «بَعَث أهلُ مكّةَ إلى اليهودِ وهم بالمدينة يسألونَهم عن محمّدٍ عليه السّلامُ، فقالوا: إنّ هذا لزَمانُه، وإنّا لَنجدُ في التّوراةِ نعتَه وصِفتَه»[1]، ومن الممكنِ جدًا أن يكونَ عبدُ الله بنُ سَلَام قال لمشركي مكّةَ حينَذاكَ: لو التقيتُ سيّدَنا محمدًا ﷺ، وثَبَت أنّ ما تقولونَه عنه وعن كتابِه صحيحٌ، فسأُومِنُ به، وهو ما حَدَث بالفعلِ بعدَ ذلك حينَ هاجَرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة، فأَسْلَم سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه في أولِ لقاءٍ له معَ النبيِّ ﷺ، لكنّ مشركي مكّةَ لم يُظهِروا هذا الكلامَ خوفًا من أن يُسْلِمَ أهلُ مكةَ إذا سَمِعوه، وأن يكونَ القرآنُ الكريمُ قد أشار إلى إرادةِ سيّدِنا عبدِ الله بن سَلَام رضي اللهُ عنه في الماضي، أو قَبولِه الإسلامَ عمليًّا في المستقبَل، يعني: إذا

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الشعراء (٢٦): الآية ١٩٧.

كان عبدُ الله بنُ سَلَام قد صَدَّقني أمامَكم، وأظهَر عَزْمَه على الإيمانِ بي، فإن لم تؤْمنوا أنتم برَغْم كلِّ هذا، فماذا سيكونُ مصيرُكم؟ واللهُ أعلمُ بالصَّواب.

كما أنّ في هذه الآيةِ تنبيهًا لكفّارِ مكةّ بأنّ نزولَ القرآنِ المَجيدِ ليس شيئًا جديدًا، فقد نَزَلتِ التَّوراةُ من قبلُ على سيّدِنا موسى عليه السَّلام، وآمَنَتْ به بنو إسرائيلَ، وبنفسِ الطريقة نَزَل القرآنُ المَجيدُ على النبيِّ ﷺ، فينبغي لكمُ الإيمانُ به أيضًا، وإنْ أصرَرتُم على تكبُّرِكم وظُلمِكم، فستُحرَمونَ إلى الأبدِ من هدايةِ الله تعالى.

ذم الظلم

ـ يقولُ سيّدُنا أبو ذَرٍّ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال فيما رَوى عن اللهِ تبارَكَ وتعالى: «يا عبادي، إنّي حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجَعلتُه بينَكم محرَّمًا فلا تَظالَموا»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلمَ، فإنّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قبلَكم حَمَلهم على أنْ سَفَكوا دماءَهم واستَحَلُّوا محارمَهم»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومن فَرَّج عن مُسلمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن سَتَر مسلمًا سَتَره اللهُ يومَ القيامة»(٣).

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٢.
(٢) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٦.
(٣) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٨.

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «... ولْيَنصُر الرّجلُ أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلْيَنْهَه، فإنّه له نَصْرٌ، وإن كان مظلومًا فلْيَنْصُرْه»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتَدرُونَ ما المُفلِس؟»، قالوا: المُفلسُ فينا مَن لا درهمَ له ولا مَتَاع. فقال: «إنّ المُفلسَ مِن أُمّتي يأتي يومَ القيامة بصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا وقَذَف هذا وأكَلَ مالَ هذا وسَفَك دمَ هذا وضَرَب هذا (في الدُّنيا) فيُعطَى هذا من حسَناتِه وهذا من حسَناتِه، فإن فَنِيَتْ حسَناتُه قبْلَ أن يُقضَى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرِحَتْ عليه ثمّ طُرِح في النّار»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا النُّعمانُ بن بَشِير رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائم على حدودِ الله والواقع فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَموا على سفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلَها، فكان الّذين في أسفلِها إذا استَقَوْا من الماءِ مَرُّوا على مَن فوقَهم فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرْقًا (أي: فستمُرُّ المياهُ منه بسهولة)، ولم نُؤْذِ مَن فوقَنا. فإنْ يترُكوهم وما أرادوا هَلَكوا جميعًا، وإنْ أخَذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعًا»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا عَدِيٌّ رضي الله عنه: إنه سَمِع من رسولِ الله ﷺ قولَه: «إنّ اللهَ عزَّ وجلّ لا يُعذّبُ العامّةَ بعمَلِ الخاصّةِ حتّى يرَوُا المنكَر بينَ ظَهْرانِيهم وهم قادرونَ على أن يُنكروه فلا يُنكروه، فإذا فَعَلوا ذلك عَذَّب اللهُ الخاصّةَ والعامّةَ»(٤).

الظالمونَ والإرهابيُّونَ موجودونَ في كلِّ عصر، ولكنّ المسئوليةَ الجماعيّةَ لكلِّ قوم هي أنْ لا يتستَّروا عليهم، وإنّما أنْ يكشِفوهم، وأن لا يَحمُوهم، وإنّما

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٦ برقم ٦٥٨٢.

(٢) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٩.

(٣) البخاري، كتاب الشركة، باب ٦ برقم ٢٤٩٣.

(٤) مسند أحمد، ٤: ١٩٢.

أنْ يُسْلِموهم إلى القانون، ويتَّخذوا كلَّ التدابيرِ التي من شأنِها أن تُثبِّطَ هِمَمَهم، وبالتالي يَطهُرُ المجتمعُ كلُّه من الظُّلم، أمّا حين يَتستَّرُ قومٌ على المجرمينَ، فإنّ الجرائمَ تضربُ المجتمعَ كلَّه تدريجيًّا، وتصبحُ حياةُ كلِّ فردٍ فيه عذابًا.

يقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي: «إنّ المرادَ من الظُّلم هاهنا: الشِّركُ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣]، والمعنى: أنّه تعالى لا يُهلِكُ أهلَ القُرى بمجرَّدِ كونِهم مشركينَ إذا كانوا مُصلِحينَ في المعاملاتِ فيما بينَهم، والحاصلُ أنّ عذابَ الاستئصال لا يَنزِلُ لأَجْل كونِ القوم معتقِدينَ للشِّركِ والكُفر، بل إنّما يَنزلُ ذلك العذابُ إذا أساءوا في المعاملاتِ وسَعَوْا في الإيذاءِ والظُّلم. ولهذا قال الفقهاءُ: إنّ حقوقَ الله تعالى مَبْناها على المُسامحة والمساهَلة. وحقوقُ العبادِ مَبْناها على الضِّيق والشُّحّ. ويقالُ في الأثَر: المُلكُ يبقَى معَ الكُفر ولا يبقَى معَ الظُّلم، فمعنى الآية: وما كان ربُّك ليُهلِكَ القُرى بظُلمٍ، أي: لا يُهلِكهُم بمجرَّدِ شِركِهم إذا كانوا مصلِحينَ يعامِلُ بعضُهم بعضًا على الصَّلاح والسَّداد. وهذا تأويلُ أهلِ السُّنّة لهذهِ الآية، قالوا: والدَّليلُ عليه: أنّ قومَ نُوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولُوطٍ وشُعَيبٍ إنّما نَزَل عليهم عذابُ الاستئصالِ لمَّا حَكَى اللهُ تعالى عنهم من إيذاءِ النّاس وظُلم الخَلْق»[١].

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴿١١﴾ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ

(١) التفسير الكبير، سورة هود (١١): الآية ١١٧.

ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾

١٣ ـ برَغْم المخالفةِ الشَّديدة إلّا أنّ الإسلامَ قد أثّر في الناس، وكان سادةُ مكّةَ يشجِّعونَ متّبعيهم على الثَّباتِ على الكُفرِ قائلينَ: لو أنّ الإسلامَ أمرٌ طيِّبٌ لَما دَخَله سوى الفقراءِ والمساكينِ والعَبيد والمحتاجين فقط، ولكُنّا نحن أولَ الداخلينَ فيه؛ لأنّنا سادةُ قومِنا ومفكّروهم، ولدَيْنا خبرةٌ عظيمة، ونمتلكُ من المقدرةِ ما يُمكّنُنا من معرفةِ الحَسَن من القَبيح، ولكنّنا لا نَرى فيه شيئًا حسَنًا، ولهذا لم نَقبَلْه، وبالتالي لا تقترِبوا منه أنتم أيضًا.

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾

١٤ ـ لم يستطعْ كفّارُ مكّةَ ـ بسببِ تعصُّبِهم وتكبُّرِهم ـ الاهتداءَ بالقرآنِ المَجيد، ولذلك سيقولونَ الآنَ: هذا القرآنُ كذبٌ قديم، وقدِ اعتمَدَ كثيرونَ من قبلِك على مِثل هذا الكذب، يعني: أنّ كفّارَ مكّةَ لم يُنكِروا القرآنَ المجيدَ فقطْ، وإنّما قالوا عن كلِّ الكتُبِ السَّماويّة التي سبقَتْه: إنّها كذبٌ.

﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

١٥ ـ هنا تنبيهٌ لكفّارِ مكّةَ بأنّ القرآنَ الكريمَ ليس كذبًا قيلَ من قبلُ، وإنّما هو صِدقٌ وحقٌّ أَزليّ؛ لأنّ التوراةَ قد نَزَلت من قبلِه بمئاتِ السِّنين، وكانت تَهدي الناسَ، وبشَّرت كذلك بنزولِ القرآنِ المَجيد، والقرآنُ الكريمُ كتابٌ سَماويٌّ مِثلُ التَّوراة، ويُصدِّقُ التوراةَ أيضًا.

مثلَما أنّ التوراةَ حَمَلت رسالةَ رحمةِ الله تعالى إلى بني إسرائيلَ بلُغتِهم، كذلك القرآنُ يا أهلَ مكّةَ، فهو رسالةُ الرَّحمةِ من الله تعالى إليكم، وباللُّغةِ العربيّةِ لُغتِكم الأُمِّ، ويُنذِركُم من العاقبةِ الوخيمةِ للظُّلم، ويُبشِّرُكم بالأَجْر الطيِّب على الأعمالِ الصالحة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

١٦ ـ يعني: أنّ الذين آمَنوا، ثم ثَبَتوا على إيمانِهم، سيَدخُلونَ الجنّةَ بلا خوفٍ أو حُزن.

والمرادُ بالاستقامةِ هنا هو: أن يَحفَظَ المسلمُ عقائدَه وأعمالَه من الإفراطِ والتفريط، ويَظلَّ قائمًا عليها عاملًا بها رَغْمَ المصاعبِ والمشكلات، والاستقامةُ عندَ الصُّوفيّة درجةٌ أعلى من الكرامة.

يقولُ سيّدُنا سُفيانُ بن عبدِ الله الثَّقفيُّ: قلتُ: يا رسولَ الله، قلْ لي في الإسلام قولًا لا أسألُ عنهُ أحدًا بعدَك ـ وفي حديثِ أبي أُسامةَ: غيرَك ـ قال: «قُلْ: آمَنتُ بالله فاستَقِمْ»[1].

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ١٣ برقم ١٥٩.

ويقـولُ الدكتـورُ وَهْبة الزُّحَيلي: «أي: تتنزَّلُ عليـهمُ الملائـكةُ بما يَـشرَحُ صدورَهم ويدفَعُ عنهم المخاوفَ والأحزانَ، كالبِشارةِ بالنَّجاة في مواطنَ ثلاثةٍ: عندَ الموت، وفي القبرِ، وعندَ البعثِ، وإزالةِ الخوفِ من أمورِ الآخرة، وإذهابِ الحُزنِ عمّا فاتَهم من أمورِ الدنيا من أهلٍ ومالٍ ووَلَد»[1].

ويقولُ ثابتٌ البُنانيُّ حين قرأ حـم السَّجدةَ حتى بَلَغ إلى قولِه تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: بَلَغَنا أنّ العبدَ المؤمنَ حينَ يُبعَثُ من قبرِه يتَلقّاهُ المَلَكانِ اللذانِ كانا معَه في الدنيا فيقولانِ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، وأبشِرْ بالجنّةِ التي كنتَ توعَدُ. قال: فيؤمِّنُ اللهُ خوفَه ويُقِرُّ عَيْنَه[2] وقد كنّا في الدُّنيا أصدقاءكم، وكنّا نُلقي في قلوبِكم الكلامَ الطيِّب، ونحفَظُكم من الشّياطين، وها نحن في الآخِرة أيضًا أصدقاؤكم، وقد بُشِّرتُم بأنّ اللهَ تعالى قد قَبِل أعمالَكم، وستَخلُدونَ في الجنةِ أجرًا عليها.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾

١٧ ـ لحُسن معاملةِ الوالدَيْنِ في النِّظام الأخلاقيِّ للإسلام أهميّةٌ كبرى، فكما أنّ اللهَ تعالى مستحِقٌّ للعبادة، فإنّ الوالدَيْنِ أيضًا يستحِقّانِ حُسنَ المعاملة؛ لأنه إذا كان الخالقُ الحقيقيُّ للإنسانِ هو اللهَ تعالى، فإنّ السببَ الظاهريَّ لمجيءِ هذا الإنسانِ إلى الدُّنيا هو الوالدانِ، وبنفسِ الطريقة فإنّ الرازقَ الحقيقيَّ للإنسانِ هو اللهُ تعالى، ولكنّ السَّببَ الظاهريَّ لهذا الرِّزق هو الوالدانِ اللّذانِ لا يَألُوانِ جُهدًا من أَجْل خيرِ أبنائهما رَغْمَ ما يواجِهان مِن مشكلاتٍ ومصاعبَ، ولهذا يحِقُّ لهما أن لا يتوانَى أبناؤهما عن خِدمتِهما.

---

(١) التفسير المنير، سورة حـم السجدة (٣٢): الآية ٣٠.

(٢) التفسير المظهري، السورة نفسها والآية.

حقوق الوالدين وفضلهما

١ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضيَ اللهُ عنهما: قال رجلٌ للنّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: أُجاهدُ؟ قال: «ألكَ أبَوانِ» (أي: على قيدِ الحياة)؟ قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهِدْ»(١)، وطالما لم يكنِ الجهادُ فَرْضَ عينٍ لا يجوزُ للأبناءِ المشاركةُ في الجهادِ إلّا بإذْنِ الوالدَيْن.

٢ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي اللهُ عنهُما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِن ولدٍ بارٍّ ينظُر إلى والدَيْهِ نظرةَ رحمةٍ إلّا كَتَب اللهُ له بكلِّ نظرةٍ حَجّةً مبرورةً»، قالوا: وإن نَظَر كلَّ يومٍ مائةَ مرّةٍ؟ قال: «نعم»، (سيكونُ له هذا الثوابُ مقابلَ كلِّ نظرةٍ) اللهُ أكبرُ وأطيَبُ»(٢).

٣ ـ قال رسولُ الله ﷺ، فيما رواه عنه سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: «نَوْمُك على السِّرير بِرًّا بوالدَيْك تُضحِكُهما ويُضحِكانِك أفضَلُ من جهادِك بالسّيفِ في سَبيل الله عزَّ وجلّ»(٣).

٤ ـ يقولُ سيّدُنا مالكُ بن رَبيعةَ رضي اللهُ عنه: بينَما نحنُ عندَ النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم إذ جاءه رجلٌ من بني سَلِمةَ، فقال: يا رسولَ الله، أبقيَ من بِرَّ أبوَيَّ شيءٌ أَبَرُّهما به من بعدِ موتِهما؟ قال: «نعم: الصّلاةُ عليهما، والاستغفارُ لهما، وإيفاءٌ بعهودِهما من بعدِ موتِهما، وإكرامُ صديقِهما، وصِلةُ الرَّحِم الّتي لا توصَلُ إلّا بهما»(٤).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٥٩٧٢.
(٢) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب البر برقم ٤٩٤٤.
(٣) تفسير الدر المنثور، سورة الإسراء (١٧): الآية ٢٣.
(٤) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ٢ برقم ٣٦٦٤.

٥ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ العبدَ لَيموتُ والداهُ أو أحدُهما، وإنّه لَهما لَعاقٌّ، فلا يَزالُ يدعو لهما ويستغفرُ لهما حتّى يَكتُبَه اللهُ بارًّا»[١].

٦ ـ عن محمدِ بن النُّعمانِ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلَّم قال: «مَن زار قبرَ والدَيْه أو أحدَهما في كلِّ جمُعةٍ مرّةً غَفَر اللهُ له وكُتِبَ بَرًّا»[٢].

٧ ـ قال النبيُّ الكريمُ ﷺ: «لا يَرى وجهي (أي: يومَ القيامة) ثلاثةُ أقوامٍ، أحدُها: العاقُّ لوالدَيْه، والثّاني: تاركُ سُنَّتي، والثّالثُ: مَن ذُكِرتُ عندَه فلم يُصَلِّ علَيّ»[٣].

٨ ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رجُلًا قال: يا رسولَ الله، ما حقُّ الوالدَيْنِ على ولدِهما؟ قال: «هما جنَّتُك ونارُك»[٤]، يعني: أنّ طاعةَ الوالدَيْنِ وإرضاءهما يأخُذانِ به إلى الجنَّة، وعِصيانُهما وإيذاءُ مشاعرِهما يمكنُ أن يكونَ سببًا في دخولِه جهنَّمَ.

٩ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ مِن أكبرِ الكبائرِ أن يَلعَنَ الرّجلُ والدَيْه»، قيل: يا رسولَ الله، وكيف يَلعَنُ الرّجلُ والدَيْه؟ قال: «يَسُبُّ الرّجلُ أبا الرّجُل فيَسُبُّ أباه، ويَسُبُّ أُمَّه [فيَسُبُّ أُمَّه]»[٥]، يعني: لو لم يبدَأِ الشخصُ الأولُ بالسَّبِّ والشَّتم لَما سَبَّ الشخصُ الثاني والدَي الشخصِ الأولِ وشتَمَهما، ولهذا فالأمرُ وكأنّ الشخصَ الأوّلَ قد سَبَّ والدَيْهِ وشتَمَهما بنفسِه؛ لأنه كان سببًا في أن يَسُبَّهما آخَرُ ويَشتُمُهما، ولاحِظْ هنا عَظَمةً أُخرى للإسلام في

---

(١) مشكاة المصابيح، كتاب الآداب، باب البر برقم ٤٩٤٢.
(٢) مشكاة المصابيح، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور برقم ١٧٦٨.
(٣) تفسير روح البيان، سورة الأحزاب (٣٣): الآية ٥٦.
(٤) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٢.
(٥) البخاري، كتاب الأدب، باب ٤ برقم ٥٩٧٣.

هذا الأمرِ، وهو أنّ الإسلامَ يَعتبِرُ سَبَّ والدَي أيِّ شخصٍ في نفسِ سُوءِ من يَسُبُّ والدَيْه بنفسِه.

١٠ ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه: ذَكَر رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم الكبائرَ، فقال: «الشِّركُ بالله، وقتْلُ النّفس، وعقوقُ الوالدَيْن»، فقال: «ألا أُنبّئُكم بأكبرِ الكبائر؟ قال: قولُ الزُّور»، أو قال: «شَهادةُ الزُّور»[١].

احترام الوالدين أمر بارز في الكتاب المقدس أيضًا

١ ـ احترِمْ والدَيْكَ يُكتَبْ لك العُمرُ الطَّويلُ والحياةُ الهانئة في الجنَّة[٢].

٢ ـ الشخصُ الذي يُهينُ والدَيْه يُقتَل؛ لأنه قد أهانَ لحمَه ودَمه[٣].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾

١٨ ـ درجةُ الأبِ من بَيْنِ الوالدَيْنِ عاليةٌ باعتبارِ الطاعة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه سيّدُنا عبدُ الله بن عَمْرو: «رِضا الرّبِّ في رضا الوالد، وسَخَطُ الرّبِّ في سَخَطِ الوالد»[٤]، ولكنْ باعتبارِ حُسنِ المعاملة فإنّ درجةَ الأُمِّ هي الأعلى؛ لأنّها ـ برَغْم أنها رقيقةُ البُنْيانِ كامرأة ـ إلا أنها حَمَلتْ طفلَها في بطنِها تسعةَ أشهر، ثم تحمَّلت آلامَ الولادة، وظَلَّت تُرضعُه لَبَنها لفترةٍ طويلة، في حينَ أنّ الأبَ لا يمُرُّ بهذه المراحل أصلًا، ولهذا جَعَل الرَّسولُ الكريمُ ﷺ فَضْلَ الأُمِّ أكبرَ بثلاثِ درجاتٍ من الأب، بمعنى: أنّ الوالدَ يستحِقُّ **٢٥** في المائة من حُسن المعاملة، بينَما تستحِقُّ الأُمُّ **٧٥** في المائةِ منها.

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٦ برقم ٥٩٧٧.

(٢) سفر الخروج: ٢٠: ١٢.

(٣) الأحبار: ٢٠: ٩.

(٤) الترمذي، أبواب البر، باب ٣ برقم ١٨٩٩.

فضل الأم

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: جاء رجُلٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، مَن أحقُّ بحُسنِ صحابتي؟

قال: «أُمُّك».

قال: [ثمّ] من؟

قال: «[ثمّ] أُمُّك».

قال: ثمّ من؟

قال: «[ثمّ] أُمُّك».

قال: ثمّ من؟

قال: «ثمّ أبوك»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عَبّاس رضي اللهُ عنهما: إنّ رجلًا أتَى النّبيَّ صلّى اللهُ عليه وآله وسلّم، فقال: إنّي نَذَرتُ إنْ فَتَح اللهُ عزَّ وجلَّ عليكَ مكّةَ أن آتيَ البيتَ فأُقبّلَ أسفَلَ الأُسكُفّة، فقال: «قبّلْ قدمَيْ أُمِّك وقد وَفَّيتَ نَذْرَك»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الجنّةُ تحتَ أقدام الأُمّهات»(٣).

ـ عن بُرَيْدةَ رضي الله عنه، أن رجلًا كان في الطوافِ حاملًا أُمَّه، فسأل النبيَّ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٢ برقم ٥٩٧١.

(٢) عمدة القاري، كتاب الأدب، باب ٢، ٢٢: ٨٢.

(٣) كنز العمال، ١٦: ٤٦١ برقم ٤٥٤٣٩.

صلى الله عليه وآلِه وسلَّم: هل أدَّيتُ حقَّها؟ قال: «لا، ولا بَرَكةً واحدةً (طلقةً واحدةً)»[(١)].

ـ تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي اللهُ عنهما: قَدِمَتْ علَيّ أُمّي وهي مُشركةٌ في عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فاستفتَيْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، قلتُ: إنّ أُمّي قَدِمت وهي راغبةٌ، أفأَصِلُ أُمّي؟ قال: «نعَمْ، صِلي أُمَّك»[(٢)].

ـ «حُكيَ أنّ رجلًا جاء إلى الأُستاذِ أبي إسحاقَ، فقال: رأيتُ البارحةَ في المنام أنّ لحيتَك مُرصَّعةٌ بالجواهرِ واليواقيت، فقال: صَدقتَ، فإني البارحةَ مَسَحتُ لحيتي تحتَ قدم والدتي قبلَ أن نِمتُ، فهذا من ذاك. ويباشرُ ابنُ إسحاقَ خدمتَها بيدِه ولا يفوِّضُها إلى غيره؛ لأنه ليس بعارٍ للرجُل أن يَخدِمَ معلِّمَه وأبوَيْهِ وسلطانَه وضَيْفَه، ولا يؤمُّه للصَّلاة وإن كان أفقهَ منه، أي أعلمَ بالفقهِ من الأبِ، ولا يمشي أمامَهما إلّا أن يكونَ لإماطةِ الأذى عن الطريق، ولا يتصدَّرُ عليهما في المجلس، ولا يَسبِقُ عليهما في شيءٍ، أي في الأكل والشربِ والجلوس والكلام وغير ذلك»[(٣)].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو طُفَيلٍ رضي الله عنه: «رأيتُ النّبيَّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم يَقسِمُ لحمًا بالجِعِرّانة، قال أبو الطُّفَيل: وأنا يومَئذٍ غلامٌ أحملُ عظمَ الجَزُور، إذْ أَقْبَلَت امرأةٌ حتّى دَنَت إلى النّبيِّ صلى الله عليه وآلِه وسلَّم، فبَسَطَ لها رداءَه، فجلَسَتْ عليه، فقلت: من هي؟ فقالوا: هذه أُمُّه الّتي أرضَعتْه»[(٤)].

---

(١) مجمع الزوائد، ٨: ١٣٧.

(٢) البخاري، ٢٦٢٠، كتاب الأدب، باب ٣.

(٣) تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ٢٣.

(٤) أبو داود، كتاب الأدب، باب ١١٨ برقم ٥١٤٤.

ـ عندما كانت أُمُّ النبيِّ ﷺ من الرِّضاعةِ السيِّدةُ حليمةُ السَّعديّةُ رضي الله عنها تأتي إليه، كان نبيُّنا الحَبيبُ ﷺ يقفُ احترامًا لها، ويَفرِشُ لها رداءه لتجلسَ عليه[١]، فإذا كان مقامُ الأُمِّ من الرَّضاعة، أي: التي أرضَعَتْ لبنَها للطِّفل لا أكثرَ، عظيمًا إلى هذا الحدِّ، فكم يكونُ عظيمًا مقامُ الأُمِّ الحقيقيّةِ يا ترى؟

ـ في السَّنَة السادسةِ للهجرةِ اصْطَحَب النبيُّ ﷺ ألفًا وأربعَمائةِ صحابيٍّ متَّجِهينَ إلى مكةَ بغَرَضِ أداءِ العُمرة، فلما مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم في عُمرةِ الحُدَيْبيَة ـ بالأبواءِ ـ قال: «إنّ اللهَ قد أَذِنَ لمحمدٍ في زيارةِ قبرِ أُمِّه»، فأتاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم فأصلَحَه وبَكَى عندَه، وبكَى المسلمونَ لبُكاءِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلَّم، فقيل له،فقال: «أدركَتْني رحمتُها فبكَيْتُ»[٢].

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

١٩ ـ أقلُّ مدةٍ للحَمْل هي ستةُ أشهر، وجاء هنا بيانٌ لفترةِ الحَمْل والرَّضاعةِ مجتمعةً بثلاثينَ شهرًا، يعني: عامان ونصفُ العام، وقد جاء في الآية رقم **٢٣٣** من سُورة البقرةِ والآية رقم **١٤** من سُورة لُقمانَ أنّ مدةَ الرَّضاعةِ عامان، وبالتالي يتبقَّى ستةُ أشهرٍ بعدَ عامَي الرَّضاعة، وهي أقلُّ مدةٍ للحَمْل.

لبن الأم

أكثرُ مَن لهُ الحقُّ في لبنِ الأُمِّ هو مولودُها الصَّغير، وأكثرُ مَن تستحِقُّ أن

---

(١) «عن عطاء بن يسار رضي الله عنه، قال: جاءت حليمة أمّ النبي رضي الله عنها، فقام لها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبسط لها رداءه فجلست عليه». سبل الهدى والرشاد، ١: ٤٨٦.

(٢) كتاب الطبقات الكبير، ابن سعد، ١: ٩٥.

تُرضعَ المولودَ الصَّغيرَ هي أُمُّه، وإرضاعُ الطِّفل داخلٌ في فطرةِ كلِّ أُمٍّ وفي طبيعتِها ومِزاجِها، وهذه الفطرةُ موجودةٌ حتى في الحيَوانات، وبسببِها تُرضعُ الحيَواناتُ صغارَها من ألبانِها وتشعُر في ذلك بسكينةٍ وطُمَأْنينة.

الحكمة في لبن الأم

١ ـ لبنُ الأُمِّ خالٍ تمامًا من الجراثيم، ولهذا لا يكونُ سببًا في أيِّ مرض؛ لأنه يَدخُلُ من صَدْرِ الأُمِّ إلى جوفِ الطِّفل مباشرةً، بينَما يمُرُّ لبنُ البقرِ أو الماعزِ بعِدّةِ مراحلَ، ويتنقلُ بينَ عدّةِ آنية، ويمكنُ أن تُصيبَه الجراثيمُ في أيِّ مرحلةٍ من هذه المراحل، مما قد يَجعَلُه مُضِرًّا بصحةِ الطِّفل.

٢ ـ لبنُ الأُمِّ يكونُ معتدِلًا في درجةِ حرارتـِه، فلا هو بالباردِ ولا هو بالساخن، وإنّما يتناسَبُ تمامًا مَع مِزاج الطِّفل، بينَما تقومُ الأُمُّ بتسخينِ لبنِ البقرِ أو الغنم، مما قد يجعَلُه مُضِرًّا بصحةِ الطِّفل إذا ما حَدَث خَللٌ في درجةِ حرارتـِه.

٣ ـ الأُمُّ التي تُرضعُ صغيرَها من لبنِها تقِلُّ نسبةُ إصابتِها بسرطانِ الثَّدي، وتزدادُ هذه النِّسبةُ عندَ الأُمّهاتِ اللاتي لا يُرضِعنَ أطفالَهنَّ من لبنِهنَّ.

٤ ـ لبنُ الأُمِّ هو أفضَلُ غذاءٍ للمولودِ الصَّغير، ففيه كلُّ العناصرِ التي يحتاجُها الطِّفلُ حديثُ الولادة، ولا يمكنُ أن يكونَ أيُّ لبنٍ صناعيٍّ بديلًا عن لبنِ الأُمِّ.

٥ ـ الأُمّهاتُ لا يُوفِّرْنَ لأطفالِهنَّ عن طريقِ إرضاعِهنَّ الغذاءَ الجَسديَّ فقط، وإنّما ينقُلنَ إليهم أيضًا التقاليدَ الوطنيّةَ والأخلاقيّاتِ والعاداتِ الطيِّبةَ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «حقُّ الوَلَدِ على والدِه أن يُحسِنَ اسمَه، ويُحسنَ مُرضعَه، ويُحسنَ أدبَه، فإنّه مسئولٌ عنه يومَ القيامة ومؤاخَذٌ بالتّقصيرِ فيه»[1]؛ لأنّ الأخلاقَ الطيِّبةَ للأُمِّ تنتقلُ

---

(١) روح البيان، سورة البقرة (٢): الآية ١٠٨.

إلى الطِّفل عن طريقِ اللَّبن، مثلَما قال رسولُ الله ﷺ: «الرَّضَاعُ يُغيِّرالطِّباع»[1]، ونحن في أيامِنا هذه نشكو من أنّ أجيالَنا الجديدةَ تبتعدُ شيئًا فشيئًا عن تقاليدِنا الوطنيّةِ وأخلاقيّاتِنا الأُسَريّة وعاداتِنا الطيِّبة، ومن بينِ أسبابِ هذا كلِّه أنّ الأُمّهاتِ تَركْنَ إرضاعَ أطفالِهنَّ من لبَنِهنَّ، والبيتُ التالي للشاعرِ أكبر إله آبادي يعكسُ هذا الأمرَ. يقول:

ـ ماذا يَرِثُ الطِّفلُ من عـاداتِ أُمِّه وأبيه؟ فاللَّبنُ صـناعيٌّ معلَّبٌ، والتعليمُ حكوميٌّ!

مدة إرضاع الطفل

حقُّ الطِّفل أن يـتِمَّ إرضاعُه لعامَيْنِ مثلَما قال القرآنُ الكريم: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، والإسلامُ لا يُحبّذُ فِطامَ الطِّفل قبلَ عامَيْن، ولهذا قرَّر سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه مِنحةً للأطفال منذُ ولادتِهم، حتى لا تلجَأَ أمٌّ إلى فِطام طفلِها قبلَ مرورِ عامَيْنِ طمعًا في المِنحة، وتفصيلُ ذلك فيما يلي:

منحة المولود حديث الولادة

يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي اللهُ عنه: «قَدِمت رُفقةٌ من التُّجّار، فنَزَلوا المُصَلَّى، فقال عُمرُ لعبدِ الرّحمن بن عَوْفٍ: هل لكَ أن نَحرُسَهمُ اللّيلةَ من السَّرِق؟ فباتا يَحرُسانِهم ويُصلِّيان ما كتَبَ اللهُ لهما، فسَمع عُمرُ بكاءَ صبيٍّ فتوجَّه نحوَه، فقال لأُمِّه: اتَّقي اللهَ وأحسِني إلى صبيِّك، ثمّ عاد إلى مكانِهِ فسَمع بكاءَه فعادَ إلى أُمِّه

---

(١) روح البيان، سورة الأنعام (٦): الآية ١٥٠.

فقال لها مِثلَ ذلك، ثمّ عاد إلى مكانِه، فلمّا كان في آخِرِ اللّيل سَمع بكاءَه فأتَى أُمَّه فقال: ويْحَكِ، إنّي لَأراكِ أُمَّ سَوءٍ، ما لي أرى ابنَك لا يقَرُّ منذُ اللّيلة؟ قالت: يا عبدَ الله، قد أَبْرَمْتَني منذ اللّيلة، إنّي أُرِيغُه عن الفِطام فيأبَى، قال: ولمَ؟ قالت: لأنّ عُمرَ لا يَفرِضُ إلّا للفَطْم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: وَيْحَكِ لا تُعجِلِيه، فصلّى الفجرَ وما يَستبينُ النّاسُ قراءتَه من غَلَبةِ البكاء، فلمّا سَلَّم قال: يا بؤسًا لعُمر، كم قَتَل من أولادِ المسلمين، ثمّ أمَرَ مُناديًا فنادى: ألا لا تُعجِلوا صبيانَكم عن الفِطام، فإنّا نفرضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام، وكَتَب بذلك إلى الآفاق: إنّا نَفرضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام»[١].

وهكذا كان سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه أولَ حاكم في تاريخ الإنسانيّة يقومُ بإجراءِ فَرْضٍ حكوميٍّ للطِّفل منذُ ولادتِه، ولكنْ للأسفِ الشديد الأطفالُ الفقراءُ في العالَم الإسلاميِّ اليومَ محرومونَ من هذه النِّعمة، بينَما يستفيدُ منها الأطفالُ الأغنياءُ في العالَم غيرِ الإسلاميِّ.

منظمة الصحة العالمية

منظَّمةُ الصِّحةِ العالميّة إحدى هيئاتِ الأُمم المتَّحدة الخاصّة بالصِّحة، وقد أُسِّست هذه المنظَّمةُ في السابع من أبريلَ عام ١٩٤٨م، وقد جاء بيانُ الهدفِ من إنشاءِ هذه المنظَّمة في ميثاقِها أنْ يتيسَّرَ لكلِّ أفرادِ العالَم مستوًى مرتفعٌ من الصِّحة، وطبقًا لدُستور المنظَّمة فإنّ تعريفَ الصِّحة ليس أنْ لا يكونَ الإنسانُ ضعيفًا أو مريضًا فقطْ، وإنّما يَحُضُّ على الرِّعايةِ البدَنيّة والذِّهنيّة والاجتماعيّة

---

(١) الطبقات لابن سعد، ٣: ٢٨٠، وسيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي، ٦٢، والفاروق عمر لمحمد حسين هيكل، ٢: ١٩٥، والمصنف لعبد الرزاق، ٥: ٣١١ برقم ٩٧١٧، والفاروق للعلامة شبلي النعماني، ٣٣٠.

بشكلٍ كامل، وهذه المنظَّمةُ تَتْبَعُ جمعيّةَ الصِّحةِ العالَميّة التي تضُمُّ في عُضويّتِها ١٩٢ دولةً.

طبقًا لتقرير منظمة الصحة العالمية الصادر في ٢٠٠٢م

ـ لبنُ الأُمِّ يهيِّئُ أفضلَ غذاءٍ لنموِّ الطِّفل، كما أنه يهيِّئُ أيضًا وفي نفسِ الوقتِ فوائدَ غذائيّةً متنوِّعةً تناسبُ تمامًا احتياجاتِ الطِّفل المتنوِّعة، ولبنُ الأُمِّ يحتوي على غذاءٍ مُقَوٍّ ومقدارٍ مناسب من المعادِن في السّتّةِ أشهرٍ الأولى من حياةِ الطفل، إذا يتميَّزُ هذا اللبنُ بعناصرَ تزيدُ المناعةَ وتُقوّي الحمايةَ للطِّفل، وتحميهِ من أنواع البكتيريا المختلفة ومنَ الجراثيم الطُّفَيْليّة والمُعْدِيَة، والعناصرُ المكوِّنةُ لهذا اللَّبن تزيدُ في النموِّ المناسبِ لنظام الدِّفاع الذاتيِّ لدى الطِّفل، ولهذا فإنه ـ بناءً على الأدِلّة المتوفِّرة ـ تَنصَحُ منظَّمةُ الصِّحةِ العالَميّة بأنْ لا يُزاحمَ أيَّ غذاءٍ آخَرَ لبنَ الأُمِّ في تغذيةِ الطِّفل في الشهورِ السّتّةِ الأُولى من عُمُرِه، وأن يستمرَّ هذا الحالُ لعامَيْنِ كاملَيْن، ومعنى أن يكونَ لبنُ الأُمِّ هو الغذاءَ الوحيدَ هو أن لا يُقدَّمَ للطِّفل أيُّ طعام أو شرابٍ آخَرَ سوى هذا اللَّبن، وبشكلٍ عام فإنّ لبنَ الأُمِّ في كلِّ حالٍ هو الأسهَلُ والأكثرُ صحةً والأرخَصُ في نفسِ الوقت، ويناسبُ الاحتياجاتِ الغذائيّةَ الضَّروريّةَ للطِّفل تمامًا.

ـ إنّ تقليلَ كمّيةِ لبنِ الأُمِّ المعطَاة للطِّفل، وخاصّةً في السّتّةِ أشهرٍ الأُولى التي لا يشاركُ لبنَ الأُمِّ فيها غذاءٌ آخَرُ، يَحمِلُ في طَيّاتِه أخطارًا تسبِّبُ وَفَياتٍ وأمراضًا للأطفال، وخاصّةً في الدولِ النامية، حيث يؤدِّي إلى إصابة الأطفالِ بالإسهال وبأمراضِ الجهاز التنفُّسيِّ، كما ثَبَت أيضًا أنّ لبنَ الأُمِّ يلعبُ دورًا هامًّا

في تطوُّرِ الجهاز العصَبيِّ لدى الأطفال، وخصوصًا أولئك الأطفالَ الذين وُلدوا قبلَ إتمام تسعةِ أشهر، أو ذوي الوَزْن الثَّقيل أو ناقصي الوزن، أمثالُ هؤلاءِ يكونُ لبنُ الأُمِّ بالنِّسبة لنموِّ جهازِهم العصَبيِّ غايةً في الأهمية[1].

وهنا أمرٌ يستحِقُّ التمعُّنَ أنّ منظَّمةَ الصِّحة العالميّة قد أوصَتْ عام ٢٠٠٢م بعدَ سنواتٍ من البحثِ أنّ لبنَ الأُمِّ ضروريٌّ للطّفل حتى عُمرِ سنتَيْنِ، في حينَ أنّ القرآنَ الكريمَ قد أعلَن قبلَ ١٤٠٠ عام:

١ ـ ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

٢ ـ ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤]، وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الإسلامَ هو دينُ الفِطرة، وأنّ القرآنَ الكريمَ هو كلامُ الله تعالى.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾

٢٠ ـ سِنُّ الأربعينَ هو الفترةُ الذَّهبيّةُ في عُمرِ الإنسان، حيث يكونُ عقلُ الإنسانِ فيها ناضجًا تمامًا فلا تَغلِبُ عليه عواطفُه وانفعالاتُه، وإنّما يَسترشِدُ بالعقل والتجارِبِ، ولا يجدُ صعوبةً في التمييزِ بينَ الحقِّ والباطل، ولكنْ إذا وَضَع على عقله غشاوةً من الجَهْل والتعصُّبِ عامدًا متعمِّدًا، فلا علاجَ له عندَئذٍ.

ويَنقُل سيِّد محمودٍ الآلوسيُّ حديثًا هو: «إنّ الشّيطانَ يجُرُّ يدَه على وجهِ مَن زادَ على الأربعينَ ولم يَتُبْ ويقولُ: بأبي، وجهٌ لا يُفلح»[2].

---

(١) (WHO **2002** p **56**- lack of Breast-feeding).

(٢) تفسير روح المعاني، سورة الأحقاف (٤٦): الآية ١٥.

ورُويَ عن سيّدِنا ابن عَبّاس رضي اللهُ عنهما مرفوعًا أن «مَن أتى عليه الأربعونَ سَنةً فلم يَغلِبْ خيرُه شَرَّه فلْيتجَهَّزْ إلى النّار»(١).

سن النبوة عمومًا هو الأربعون عامًا

يقولُ أكثرُ المفسِّرينَ في خصوصِ هذه الآية: إنّ الأنبياءَ يُبعَثُونَ عندَ سنِّ الأربعين، رَغْم أنّ من الأنبياءِ مَن بَعَثهم اللهُ تعالى قبْلَ سنِّ الأربعين، مِثلَ سيّدِنا عيسى وسيّدِنا يوسُفَ وسيّدِنا يحيى عليهم جميعًا السَّلامُ، وهذا إظهارٌ لقدرةِ الله تعالى، لكنّ سُنّةَ اللهِ تعالى هي أن يَبعَثَ النبيَّ بعدَ أن يُتمَّ الأربعينَ سنةً، مثلَما يقولُ العلّامةُ أبو حَيّانَ الأندَلسيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «وكان عمُرُه (أي: سيّدِنا موسى عليه السَّلام) حين ذَهَب إلى مَدْيَنَ اثنَيْ عشَرَ عامًا وأقام عشَرةَ أعوامٍ في رَعْي غَنَم شُعَيبٍ، ثمّ ثمانيةَ عشَرَ عامًا بعدَ بنائه بامرأتِه بنتِ شُعَيبٍ، ووُلِد له فيها فكَمُلَ له أربعونَ سنةً وهي المدّةُ الّتي عادةُ الله إرسالُ الأنبياءِ على رأسِها»(٢).

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

٢١ ـ حين يَصِلُ عُمرُ الرجُل المؤمنِ سِنَّ النُّضْج هذا في الأربعينَ يَستيقظُ ضميرُه في هذا العمُر بدايةً إن كان قد ظَلَّ غافلًا من قبلُ، ويَرجِعُ إلى ربِّه من أَجْل النَّجاة من غَفْلتِه هذه، ويدعو اللهَ قائلًا: يا إلهي، وفِّقْني إلى شكرِك وإلى العملِ الصالح، واقبَلْني أنا وأولادي في طاعتِك.

---

(١) تفسير روح المعاني، سورة الأحقاف (٤٦): الآية ١٥.
(٢) البحر المحيط، سورة طه (٢٠): الآية ٤٠.

وأكثرُ المفسِّرينَ على أنّ الشخصَ الذي ذُكِر في هذه الآية ينطبقُ على سيّدِنا أبي بكرٍ الصّدِّيقِ رضي الله عنه، إذ إنّ أربعةَ أجيالٍ من ذُرِّيةِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه من الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم، يعني: هو نفسَه ووالدَيْهِ وأولادَه وأحفادَه أيضًا، ولا يوجَدُ مِن بينِ الصّحابةِ الكرام الآخَرينَ رضي اللهُ عنهم جميعًا مَن كان أربعةُ أجيالٍ من ذُرِّيـتِه من الصَّحابة، حتى أنّ أحفادَ سيّدِنا عليٍّ رضي الله عنه أيضًا ليسوا من الصَّحابة.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: «فلم يبقَ له وَلَدٌ ولا والدٌ ولا والدةٌ إلّا آمَنوا بالله وحدَه. ولم يكنْ أحدٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ أَسْلمَ هو وأبواه وأولادُه وبناتُه كلُّهم إلّا أبو بكرٍ»[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

٢٢ ـ الذين يَرجِعونَ إلى الله تعالى مقتَدِينَ في ذلك بسُنّةِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه، ويَدْعُونَ اللهَ تعالى لأولادِهم بالتوفيق إلى فعلِ الخير، همُ السُّعداءُ الذين يَقبَلُ اللهُ تعالى أعمالَهم الصّالحةَ، ويعفو عن هفَواتِهم بسببِ صالح أعمالِهم، ويُدخلُهم الجنةَ كما وَعَدَهم.

﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

٢٣ ـ في هذه الآية ذِكرٌ لكافرٍ والداهُ مُسلمانِ، ويُخوِّفانِه من عذابِ الآخِرة، لكنّ هذا الوَلَدَ الكافرَ يُعلنُ براءَته من والدَيْه قائلًا: ما أعجبَ ما تقولانِ! إنّكما

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الأحقاف (٤٦): الآية ١٥.

تخوِّفاني من الآخِرة، معَ أنّ أُممًا كثيرةً قد مَضَتْ، ولم يَعُدْ أحدٌ منهم إلى الحياةِ مرةً أخرى، فكيف سأعودُ أنا إلى الحياةِ ثانيةً؟ معَ أنّ المسلمينَ لم يَدَّعوا أبدًا أنّ عمليةَ الإحياءِ ثانيةً هذه ستكونُ قبلَ يوم القيامة، ولأنّ القيامةَ لم تأتِ حتى الآنَ، لهذا لن يُعادَ أحدٌ مات إلى الحياةِ ثانيةً قبلَها، لكنّ والدَيْ هذا الابنِ الكافرِ معَ ذلك يَدعُوانِ اللهَ تعالى له بالهداية، ويُفهِمانِه أنّ وعدَ الله حقٌّ، وأنّ الساعةَ لا بدَّ قائمةٌ، ولهذا عليك أن تؤمنَ، وإلّا ستهلِكُ، وستُواجهُ عذابًا مُخزِيًا، لكنّ الابنَ الكافرَ برَغْم كلِّ هذا يظَلُّ قائمًا على صَلَفِه وتعنُّتِه، ويقولُ لوالدَيْه: هذه قَصَصٌ كاذبةٌ من اختراع الأوّلينَ بأنّ القيامةَ ستأتي.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

٢٤ ـ مضَتْ جماعاتٌ كثيرةٌ من الجنِّ والإنس ممَّنِ استَحَقُّوا عذابَ جهنَّمَ بإنكارِهمُ القيامةَ، وواضحٌ أنّ مَن يتبَعونَهم أيضًا سيكونونَ من الخاسِرينَ معهم.

يقولُ البعضُ: إنّ هذه الآياتِ نَزَلت في حقِّ عبدِ الرحمن أو عبدِ الله ابن سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه؛ لأنه لم يُسْلِمْ في بدايةِ الأمر، ولكنّ هذا الكلامَ غيرُ صحيح؛ لأنّ الابنَ المتمرِّدَ الذي جاء ذِكرُه في هذه الآياتِ مات على كُفرِه، واستَحقَّ عذابَ جهنَّم، في حينَ أنّ ابنَيْ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنهما قد أَسْلما، وعاشا بقيّةَ حياتِهما مسلمَيْن.

﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

٢٥ ـ في الجنةِ والنارِ درجاتٌ متفاوتة، ودرجةُ كلِّ إنسانٍ ستكونُ طبقًا لأعمالِه، فلن يعاقَبُ مجرمٌ بأكثرَ ممّا يستحِقُّ على جُرمِه، كما لن يُنقَصَ من أجرٍ صالح عما يستحِقُّه، وإنّما سيُجازَى كلُّ إنسانٍ على أعمالِه بشكلٍ كامل، ولن يَظلِمَ أحدٌ أبدًا.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾

٢٦ ـ سيوقَفُ الكفّارُ على حافَةِ جهنَّمَ ويقالُ لهم: إنّ ما قمتُم به في الدُّنيا من أعمالٍ صالحةٍ مثلَ الكرَم وخِدمةِ الخَلْق والعَدْل والإنصافِ وغيرِها، أخَذتُم أجرَكم عليها في الدُّنيا، وقدِ استمتَعتُمُ استمتاعًا كاملًا بكلِّ النِّعَم الدُّنيويّة وبما ترغَبونَ من الأشياءِ فيها، ولكنَّكم سيُلقَى بكمُ اليومُ في عذابِ جهنَّم وعذابِ الذُّلِّ؛ لأنّكم أنكرتُم آياتِ الله تعالى، وتكبَّرتُم في الأرضِ بغيرِ حق.

وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

٢٧ ـ الأحقافُ يقالُ للتِّلالِ الرَّمْليّةِ المتدرِّجة، والمرادُ بالأحقافِ في القرآنِ المجيد: تلك الصَّحراءُ الرَّمليّةُ الممتَدّةُ من عُمَانَ حتى حَضْرَموتَ، فقد كانت في هذه المنطقة حقولٌ يانعةٌ في يوم من الأيام، كما كانت عامرةً بقُرى قومِ عادٍ القويّة، وقد جاءهم أنبياءُ عديدونَ قالوا لهم: لا تعبُدوا غيرَ الله تعالى، وقال لهم سيِّدُنا هودٌ

عليه السَّلام الكلامَ نفسَه، أي: لا تعبُدوا إلّا الله، وإلّا فإنّي أخشَى أن يُصيبَكم عذابُ يومٍ عظيم، أي: عذابُ يوم القيامة.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

٢٨ ـ كان قومُ عادٍ طُغاةً متمرِّدينَ، فقالوا لسيّدِنا هودٍ عليه السلام: لسنا بتاركي آلهتِنا من أَجْل دعوتِك، وإن كنتَ صادقًا فلماذا لا تأتينا بالعذابِ الذي تخوِّفُنا منه؟

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾

٢٩ ـ يعني: متى يأتي ذلك العذابُ؟ هل سيأتي في هذه الدُّنيا، أم سيؤخَّرُ إلى الآخرة؟ هذا عِلمُه عندَ الله تعالى، إلّا أنّ الرسالةَ التي أُرسِلتُ مكلّفًا بها هي التي أُخبِرُكم بها، يعني: إن لم تَرجِعوا عن طُغيانِكم فسَينزِلُ العذابُ عليكم يقينًا، ولكنّي أرى أنّكم قومٌ جاهلونَ، ولا تحاولونَ فَهْمَ الحقيقة.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

٣٠ ـ عندَما حان وقتُ نزولِ العذابِ عليهم رأَوْا سحابةً سوداءَ تتقدَّمُ نحوَ أَوْديتِهم، ولم يكنِ المطرُ قد نَزَل عليهم منذ فترة، وكانت المنطقةُ كلُّها تعاني من القَحْط، فلمّا رأوا السحابةَ السوداءَ فَرِحوا وأخَذوا يُهنِّئُ بعضُهم بعضًا ظنًّا منهم أنّ هذه السحابةَ ستُمطرُهم ماءً، وبذلك ينتهي القَحطُ من بلادِهم، في ذلك الوقتِ «قال لهم هود: ليس الأمرُ كما زَعمتُم أنه مطر، بل هو ما استَعجَلْتُم به من العذاب»[1].

---

(١) صفوة التفاسير.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

٣١ - وهكذا هَبَّت العاصفةُ عليهم، وظَلَّت هكذا لثمانيةِ أيام متتالية، فهَلَك بسببِها الإنسانُ والحيَوانُ على السَّواء، وتطايَرت أسقُفُ منازلِهم، ولم يبقَ سوى أنقاضِ جُدرانِها لتكونَ عبرةً، واللهُ تعالى يعاقبُ المجرِمينَ بهذا العقابِ الشديد.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

٣٢ - في هذه الآية تنبيهٌ لأهل مكةَ بأنّ قومَ عادٍ كانوا أكثرَ منكم قوةً وعظَمةً وشأنًا، لكنَّهم حين أعرَضُوا عن سَماعِ الحقِّ ورؤيةِ الحقِّ وفَهْم الحقِّ، وأنكروا آياتِ الله تعالى دونَ أن يتدبَّروها أو يتفكّروا فيها، بل وسَخِروا من العذابِ الإلهيِّ، عندَئذٍ لم تستطعْ آذانُهم ولا أعيُنُهم ولا قلوبُهم أن تُنقذَهم من عذابِ الله تعالى، ودمَّرهم ذلك العذابُ الذي كانوا يَسخَرونَ منه، ولهذا عليكم أن تَعتبِروا ممّا حَدَثَ لهم، ولا تُنكروا آياتِ الله تعالى، وإلّا فمن الممكنِ أن يُصيبَكم العذابُ أيضًا.

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

٣٣ ـ يا أهلَ مكة، لقد دمَّرنا مِن حولِكم قُرى عادٍ وثمودَ وغيرِهما، وقد شاهدتُم بأنفُسِكم أطلالَ هذه القُرى أثناءَ أسفارِكم التِّجارية، وقد أرسَلْنا إليهم الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ أيضًا، وأرَوْهم المعجِزاتِ حتى يَرجِعوا إلى الحق، لكنّهم لم يَرجِعوا عن طُغيانِهم وتعنُّتِهم وصَلَفِهم، وكانت نتيجةُ هذا أنْ أهلَكَهم اللهُ تعالى ودمَّرهم، ولهذا عليكُم أن تَعتبِروا منهم.

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

٣٤ ـ عندَما جاء عذابُ الله تعالى على قوم عادٍ وثمودَ، لم يَنصُرْهم أولئك الذين كانوا يعبُدونَهم من دونِ الله، بل إنّ هؤلاءِ المعبودينَ قدِ اختَفَوْا من أمام عابديهِم في هذه المصيبةِ التي حلَّت بهم، والحقيقةُ أنّ هذه العقيدةَ لدى الكفّارِ كذبٌ وافتراءٌ مَحْض، يعني: ما يقولونَه من أنّهم يعبُدونَ الأصنامَ ليُقرِّبوهم إلى الله تعالى.

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

٣٥ ـ جاءتِ الجنُّ إلى النبيِّ الكريم ﷺ في مجموعاتٍ مختلفةٍ ومناسباتٍ متعدِّدة، وأسلَموا بسَماع رسالةِ القرآن المَجيد، وقد جاء في هذه الآياتِ بيانٌ لأول

واقعةٍ في هذا الإطار، في ذلك الوقتِ كان النبيُّ ﷺ يؤمُّ الناسَ في صلاةِ الصُّبح بوادي نَخْلَة بالقُربِ من مكةَ، وحين وَصَلت الجنُّ هناك كان النبيُّ ﷺ يَتْلو آياتِ القرآنِ الكريم، فاستَمَعت الجنُّ - في صَمْتٍ - إلى التِّلاوة، وحين انتَهى النبيُّ ﷺ من تلاوتِه عادَتِ الجنُّ (وهم الذين كانوا من أَتْباع سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ) إلى قومِهم وقالوا لهم: يا قومَنا، لقدِ استَمعْنا بعدَ سيّدِنا موسى عليه السَّلام إلى تلاوةٍ من كتابٍ يُصدِّقُ الكتُبِ السابقةَ، ويَهدي إلى الطريقِ المستقيم، ولهذا إنْ قَبِلتُم أنتم أيضًا دعوةَ هذا الرسُولِ وآمنتُم به، فسيَغفِرُ اللهُ تعالى ذنوبَكم، ويُنجِّيكم من العذابِ الأليم، والذي لن يَقبَلَ دعوةَ هذا الرسُول سيكونُ في ضلالٍ مبين، ولن يستطيعَ الإفلاتَ من عذابِ الله تعالى، كما أنّ أحدًا سوى اللهِ تعالى لن يُمكنَه مدُّ يدِ العونِ له.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

٣٦ - ألا يتفكَّرُ كفّارُ مكّةَ بأنه ليس من الصعبِ على اللهِ تعالى، الذي خَلَق مخلوقاتٍ عظيمةً مثلَ الأرضِ والسماء، ولم يُصِبْه تعبٌ أو نَصَبٌ في خَلْقِهما، أنْ يُحيَي إنسانًا صغيرًا بعدَ موتِه، في حينَ أنه القادرُ على كلِّ شيء؟

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

٣٧ - كان الكفّارُ يعتقدِونَ أنّ هذه الدنيا هي كلُّ شيء، ولهذا كانوا يُنكرونَ الآخرةَ، ولكنْ حينَ يُعرَضونَ يومَ القيامة على نارِ جهنَّم، ويقالُ لهم: أليست هذه هي جهنَّمَ التي كنتُم تُنكرونَها؟ عندَئذٍ يَعترِفونَ حالفينَ بأنّ القيامةَ حقٌّ فعلًا، وأننا كنّا على ضلالٍ، ولكنّ الاعترافَ في ذلك الوقتِ لن يُنجيَ أيَّ كافرٍ من العذاب.

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾

٣٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، لا تُحزِنْ قلبَك بسببِ إيذاءِ أهل مكةَ لك، واصبِرْ مثلَما صَبَر أولو العَزْم من الرُّسُلِ قبلَك، ولا تتعجَّلْ في استنزالِ العذابِ على هؤلاء الكفّارِ، وحين يرى هؤلاءِ الناسُ العذابَ يومَ القيامة سيَعرِفونَ جيدًا حينَئذٍ أنّ الحياةَ الدنيا كانت قصيرةً مختصَرة، وكأنّها كانت مجرَّدَ ساعةٍ من أيام الدنيا، وحَكَم اللهُ تعالى أن يُسَلَّطَ العذابُ على العُصاةِ من الناسِ فقط، أما المطيعونَ فلن يُبتلَوْا بالعذاب.

من هم أولو العزم من الرسل؟

الحقيقةُ أنّ الرُّسُلَ جميعًا أولو عَزْم، وقد أظهَر كلُّ رسولٍ عزمًا كبيرًا وهمّةً عظيمةً في تبليغِه للرسالةِ الإلهيَّة، ولكنْ طبقًا لِما جاء في القرآنِ الكريم فإنّ اللهَ تعالى قد فَضَّل بعضَ الرسُلِ على بعض، ولهذا فإنّ الرسُلَ الذين تفوَّقوا على الآخَرينَ في صفة العَزْم، اشتُهروا معَ أسمائهم بلقبِ «أُولي العَزْم»، وهؤلاءِ خمسةٌ هم: سيِّدُنا نوحٌ، وسيِّدُنا إبراهيمُ، وسيِّدُنا موسى، وسيِّدُنا عيسى عليهمُ السَّلام، ثم سيِّدُنا محمدٌ ﷺ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة العصر من يوم الاثنين ٧ يونيه ٢٠١٠م
الموافق ٢٥ جمادى الأخرى ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتمَل تفسيرُ سُورة الأحقافِ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في تسعةِ أيام فقط، يعني: من ٢٩ مايو إلى ٧ يونيه، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

بسم الله الرحمن الرحيم

(٤٧) سورة محمد

هذه السُّورةُ مدَنيّةٌ، واسمُها «محمَّد»، وهو مأخوذٌ من الآية رقم **٢** منها، ولها اسمٌ آخَرُ هو: «القتالُ»؛ لأنّ أحكامَ القتالِ جاء بيانُها في هذه السُّورة.

مضامين السورة

وَرَد ذِكرُ اسم نبيِّنا الحَبيبِ سيّدِنا محمّدٍ ﷺ في أربعةِ مواضعَ في القرآنِ المجيد، أحدُها: في الآيةِ رقم **٢** من هذه السُّورة، أما المواضعُ الثلاثةُ الأخرى فهي: الآيةُ رقم **١٤٤** من سُورة آلِ عِمران **(٣)**، والآيةُ رقم **٤٠** من سُورةِ الأحزاب **(٣٣)**، والآيةُ رقم **٢٩** من سُورةِ الفتح **(٤٨)**.

القتال

استمرَّتِ المعاركُ ضِدَّ الكفّارِ في المدينةِ المنَّورة لتسعِ سنواتٍ، وفي هذا الخصوصِ جاء الأمرُ للجيشِ الإسلاميِّ بأنْ لا تَجبُنوا حينَ تُواجِهونَ المحارِبينَ الكفّارَ، وإنّما قاتِلوا بكلِّ ما تَملِكونَ من قُوّةٍ وشجاعة، واقطَعوا عُنُقَ كلِّ من يُحارِبُكم من الأعداء، حتى لا يجرُؤَ ثانيةً على مجرَّدِ التفكيرِ في محاربتِكم.

هذا فيما يتعلَّقُ بالحربِ فقطْ، وليس معنى هذا أنْ تَقتُلوا مَن تجِدونَه منهم

في الطريقِ أو الشارع في أيام السِّلم أيضًا، بالقَطْع لا، فإذا التقيتُموهم في الشارع فإنّ لهذا معنًى آخَرَ، وكذلك إذا التقيتُموهم في ميدانِ الحربِ فإنّ له معنًى آخَرَ، ولهذا عليكم بالمواجَهة في مَيْدانِ الحربِ بكلِّ شجاعة، فإذا انتَهَت الحربُ فقيِّدوا أسرى الحربِ بالحِبال جيِّدًا قبلَ أن تُفكِّروا في جَمْع الغنائم، حتى لا يَفِرُّوا منكم، ويكونوا سببًا في خَلْقِ المشاكل لكم.

الجنة والنار

كما أنّ عقائدَ أهل الإيمانِ وأعمالَهم مختلفةٌ عن عقائدِ وأعمالِ أهل الكُفر، كذلك تختلفُ عاقبةُ كلٍّ منهم عن الآخَر، فسيَدخُل المتَّقونَ الجنّةَ حيث أنهارُ الماءِ واللَّبنِ والخمرِ والعَسلِ المصَفَّى وكلُّ أنواع الفواكه، وفوقَ هذا كلِّه سيَحصُلونَ على رضا الله تعالى وعفوِه بحيث لن يَغضَبَ اللهُ تعالى منهم أبدًا، وعلى العكسِ من ذلك سيُلقَى بمُنكري الله تعالى في نارٍ خالدة، يُسقَوْنَ فيها ماءً مَغْليًّا تتقطَّعُ منه أمعاؤهم.

علامة المنافقين

يقولُ الإمامُ فخرُ الدِّين الرازي: «والنبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يَعرِفُ المنافق، ولم يكنْ يُظهِرُ أمرَه إلى أنْ أَذِنَ اللهُ تعالى له في إظهارِ أمرِهم، ومُنِع من الصّلاةِ على جنائزِهم والقيام على قبورِهم»[١]، وحين أُذِنَ للنبيِّ ﷺ بالإفصاح عن أسماءِ المنافقينَ أَخْرجَهم من المسجدِ مُناديًا على كلٍّ منهم باسمِه.

الدعوة إلى الصلح أثناء الحرب

قال اللهُ تعالى في سُورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ

(١) التفسير الكبير، سورة محمد (٤٧): الآية ٣٠.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، يعني: لو دَعاكُم الكُفّارُ إلى الصُّلح فاقبَلوا دعوتَهم، واتَّفقُوا على الصُّلح وأوقِفوا الحربَ، لكنّ اللهَ تعالى مَنَع المسلمينَ في الآية رقم **٣٥** من هذه السُّورةِ من الدعوةِ إلى الصُّلح، وليس معنى هذا أنه ينبغي للمسلمينَ أن لا يبدَأوا بالدَّعوةِ إلى الصُّلح، وإنّما معناهُ أنه لا ينبغي لهم أن يدعوا إلى الصُّلح مُظهِرينَ جُبنًا وضعفًا مثلَ المنافقين، كما لا ينبغي الدَّعوةُ إلى الصُّلح أيضًا في حالةِ ما لو كانت نتائجُه ستُلحِقُ الضَّررَ بالمسلمين، ولكنْ يجوزُ ذلك إذا لم يكنْ سيؤثِّرُ بالسَّلبِ على هَيْبةِ المسلمين ووقارِهم، وعندَئذٍ لا حَرَجَ في الدَّعوةِ إلى الصلح.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة المغرب من يوم الاثنين ٧ يونيه ٢٠١٠م
الموافق ٢٥ جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ مُحَمَّدٍ (٤٧)،

مدنية (٩٥)، آياتها (٣٨)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

١ ـ الذين كَفَروا ويحاولونَ إبعادَ الآخرينَ عن الإسلام أيضًا، لن تُفيدَهم أعمالُهم الطيِّبةُ في الآخِرة بشيءٍ مثلَ: صَدَقاتِهم وتبرُّعاتِهم وعَدْلِهم وإنصافِهم وخدمتِهم للخَلْقِ وغيرِها، لأنه لا أَجْرَ ولا ثوابَ على الأعمالِ بدونِ الإيمان، إلّا

أنّ هؤلاءِ يُعطَوْنَ الأجرَ على أعمالِهم الطيِّبة هذه في الدُّنيا في صورةِ النِّعَم والرَّفاهيّةِ والراحةِ الدُّنيويّة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾

٢ ـ الدِّينُ الذي نَزَل على نبيِّنا الحَبيبِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ هو الدِّينُ الحقُّ عندَ اللهِ تعالى، والذين يؤمنونَ بهذا الدِّين ويعمَلونَ الصالحاتِ يَغفِرُ اللهُ لهم ـ ببركةِ إيمانِهم ـ الذُّنوبَ التي ارتكبوها حالَ كُفرِهم، كما أنه يعفو عن زَلّاتِهم في فترةِ إسلامِهم ببرَكةِ أعمالِهم الصّالحة، ويوفِّقُهم مستقبَلًا لعمَلِ الصالحاتِ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ويُعلَمُ منه أنه كما أنَّ اللهَ تعالى يغفرُ الذنوبَ ببركةِ الأعمال الصّالحة، كذلك يعفو عن المذنِبينَ بشفاعةِ الصّالحين.

بركة الأعمال الصالحة

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «أرأيتُم لو أنّ نَهرًا ببابِ أحدِكم، يغتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسًا، ما تقولُ ذلك يُبقي من دَرَنه؟». قالوا: لا يُبقي من دَرَنِه شيئًا. قال: «فذلك مَثَلُ الصَّلواتِ الخمس، يَمْحو اللهُ بها الخطايا»(١).

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو ذَرٍّ رضي الله عنهُ: إنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم خَرَج زمنَ الشّتاءِ والوَرَقُ يتَهافَتُ، فأخَذ بغُصنَيْنِ من شجرةٍ، قال: فجَعَل ذلك الوَرَقَ يتَهافَت، قال: فقال: «يا أبا ذرٍّ»، قلت: لبَّيْكَ يا رسولَ الله. قال: «إنّ العبدَ المسلمَ

---

(١) البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب ٦ برقم ٥٢٨.

لَيُصلِّي الصّلاةَ يريدُ بها وجهَ الله، فتَهافَتُ عنه ذنوبُه كما يَتَهافَتُ هذا الوَرَقُ عن هذه الشّجرة»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «الصَّلَواتُ الخمسُ، والجمُعةُ إلى الجمُعة ورمضانُ إلى رمضانَ، مُكفِّراتٌ ما بينَهُنَّ إذا اجتُنِبَ الكبائر»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن حجَّ لله فلم يرفُثْ ولم يَفسُقْ رَجَع كيَومَ وَلَدتْه أُمُّه»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الصّيامُ والقرآنُ يَشفَعانِ للعبدِ يومَ القيامة، يقولُ الصّيام: أيْ ربِّ، منَعتُه الطّعامَ والشّهواتِ بالنّهار، فشفِّعْني فيه، ويقول القرآنُ: مَنعتُه النَّومَ بالليل، فشفِّعْني فيه»، قال: «فيُشفَّعان»[٤].

بركة الصالحين

ـ ينقُلُ الإمامُ مسلمٌ حديثًا طويلًا، عن سيّدِنا أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، جاء فيه: «ثمّ يُضرَبُ الجَسْرُ على جهنَّم، وتَحِلُّ الشّفاعةُ ويقولونَ: اللّهُمّ سلِّمْ سلِّمْ... فيمُرُّ المؤمنونَ كطَرْفِ العَيْن وكالبرقِ وكالرّيح وكالطَّيْر وكأجاويدِ الخَيْل والرِّكاب، فناجٍ مُسَلَّمٌ ومخدوشٌ مرسَلٌ ومكدوسٌ في نارِ جهنَّم. حتّى إذا خَلَص المؤمنونَ من النّار فوالّذي نفسي بيدِه، ما مِنكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاءِ الحقِّ

---

(١) مسند أحمد، ٥: ١٧٩.
(٢) مسلم، كتاب الطهارة، باب ٥ برقم ٥٥٢.
(٣) البخاري، كتاب الحج، باب ٤ برقم ١٥٢١.
(٤) مسند أحمد، ٢: ١٧٤.

من المؤمنينَ لله يومَ القيامة لإخوانِهِمُ الّذين في النّارِ، يقولون ربَّنا كانوا يصُومونَ معنَا ويُصلُّونَ ويحُجُّونَ. فيقالُ لهم: أَخْرِجوا من عَرَفتُم. فتُحرَّمُ صُوَرُهم على النّارِ فيُخرِجونَ خَلْقًا كثيرًا قد أخذتِ النّارُ إلى نصفِ ساقَيْه وإلى رُكبتَيْه»[١]، ويُعلَمُ منه أنّ معيّةَ الصالحينَ وصُحبتَهم ستكونُ وسيلةً للنَّجاةِ من جهنَّمَ يومَ القيامة.

ـ رُويَ عن سيّدِنا عبدِ الله بن عُمرَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ما مِن أربعينَ من مؤمنٍ يشفَعونَ لمؤمنٍ إلّا شَفَّعَهم اللهُ»[٢].

ـ رُويَ عن سيّدِنا أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه، أنه قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «أُمّتي أُمّةٌ مرحومةٌ، مُتابٌ عليها، تَدخُلُ قبورَها بذنوبِها، وتَخرُجُ من قبورِها لا ذنوبَ عليها، تُمحَّصُ عنها ذنوبُها باستغفارِ المؤمنينَ لها»[٣].

ـ رُويَ عن سيّدِنا عثمانَ بن عَفّانَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ، قال: «يَشفَعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشُّهداء»[٤].

ـ يقولُ سيّدُنا الحَسَنُ البَصْريُّ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَشفَعُ عثمانُ بنُ عفّانَ يومَ القيامة في مِثلِ ربيعةَ ومُضَرَ»[٥].

اسم «محمد» في القرآن المجيد

جاء اسمُ سيّدِنا محمدٍ المبارَكُ ﷺ في أربعةِ مواضعَ في القرآنِ الكريم: في الآية رقم ٢ من سُورة محمد (٤٧)، والآيةِ رقم ١٤٤ من سورة آل عِمران (٣)،

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨١ برقم ٤٥٤.
(٢) ابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ١٩ برقم ١٤٨٩.
(٣) المعجم الأوسط للطبراني، ٢: ٥٢٣ برقم ١٩٠٠، ومجمع الزوائد، ١٠: ٦٩.
(٤) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٧ برقم ٤٣١٣.
(٥) الترمذي، أبواب صفة الجنة، باب ١٢ برقم ٢٤٣٩.

والآيةِ رقم ٤٠ من سُورةِ الأحزاب (٣٣)، والآيةِ رقم ٢٩ من سُورة الفَتْح (٤٨).

شرح اسم محمد

اسمُ نبيّنا الحبيبِ ﷺ الذاتيُّ هو محمدٌ وأحمدُ، وباقي أسمائه الكريمةِ أسماءُ صفاتِه. يقولُ أهلُ اللُّغة: إنّ الذاتَ التي تكونُ جامعةً لصفاتِ الخير، يعني: مجموعةً من المميِّزات، ويُثْنَى عليها مراتٍ ومرات يقالُ لها: «محمد»، وبقَدْرِ ما يتطوَّرُ الزمنُ ويَرتقي بقَدْرِ ما تتَّضحُ كمالاتُ النبيِّ ﷺ وفضائلُه بشكلٍ أكبر، ولهذا فإنّ سلسلةَ الثناءِ عليه ﷺ ومَدْحَه ممتدّةٌ متّصلةٌ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، يعني: تزدادُ عظَمتُه في كلِّ لمحةٍ عما سبَقَتْها.

قول «يا محمد»

رَوى الإمامُ مسلمٌ حديثًا طويلًا عن سيّدِنا البَراءِ بن عازبٍ رضي اللهُ عنه، جاء في آخِرِه: أنه حينَ جاءَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة «فصَعِد الرّجالُ والنّساءُ فوقَ البيوت وتفرّقَ الغِلْمانُ والخَدَمُ في الطُّرُقِ ينادُونَ: يا محمّد يا رسولَ الله، يا محمّد يا رسولَ الله»[1]. ولمزيدٍ من التفصيل عن الأشعارِ التي قَرَأها أهلُ المدينةِ المنوَّرة والهُتافاتِ التي رَفَعوها بمناسبةِ قدومِه ﷺ إلى المدينةِ المنوَّرة راجعِ الحاشيةَ رقم ٣ للآية رقم ٦ من سُورة لُقمان (٣١).

كَتَب الحافظُ ابنُ كَثِير يقولُ عن أحوالِ زمنِ خلافةِ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي اللهُ عنه: «وكان شِعارَهم يومَئذ: يا محمَّداهُ»[2].

---

(١) مسلم، كتاب الزهد، باب ١٩ برقم ٧٥٢٢.

(٢) البداية والنهاية، المجلد ٣: ٦: ٣٢٤.

ويقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن بنُ سَعْد رضي اللهُ عنه: «خَدِرت رِجلُ ابنِ عُمرَ، فقال له رجُلٌ: اذكُرْ أحبَّ النّاس إليك، فقال: يا محمَّد»[١]، فذَهَبَ خَدَرُ رِجْلِهِ[٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾

٣ ـ ضاعَتْ أعمالُ الكفّارِ سُدًى لأنّهمُ اتَّبعوا الباطلَ، بينَما كانت أعمالُ أهلِ الإيمان باقيةً مؤْثَرةً لأنّهم اتّبعوا الحقَّ، وقد بيَّن اللهُ تعالى أمثلةَ الحقِّ والباطل حتى يخافَ الناسُ من عاقبةِ الباطل ويتَّبِعوا طريقَ الحقِّ، لكنّ أكثرَ الناسِ معَ ذلك لا يتفكَّرونَ في هذه الحقيقة.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ﴾

٤ ـ استمرَّتِ المعاركُ ضدَّ الكفّارِ في المدينةِ المنوَّرةِ لتسعِ سنوات، وفي هذا الخصوصِ جاء الأمرُ للجيشِ الإسلاميِّ بأنْ لا تَجبُنوا حينَ تواجِهونَ المحاربينَ الكفّارَ، وإنّما قاتِلوا بكلِّ ما تملِكونَ من قوةٍ وشجاعة، واقطَعوا عنُقَ كلِّ مَن يُحارِبُكم من الأعداء، حتى لا يجرُؤَ ثانيةً على مجرَّدِ التفكيرِ في محاربتِكم.

هذا فيما يتعلَّقُ بالحربِ فقط، وليس معنى هذا أنْ تقتُلوا من تَجِدونَه منهم في الطريقِ أو الشارع في أيام السِّلْم أيضًا، بالقَطْع لا، فإذا التقيتُموهم في الشارع فإنّ لهذا معنًى آخَرَ، وكذلك إذا التقيتُموهم في ميدانِ الحربِ فإنّ له معنًى آخَرَ، ولهذا عليكم بالمواجهةِ في ميدانِ الحربِ بكلِّ شجاعة، فإذا انتهَت الحربُ فقيِّدوا

---

(١) الأدب المفرد، الإمام البخاري: ٢٨٥ برقم ٩٦٤.

(٢) أرشيف ملتقى: المكتبة الشاملة.

أَسْرى الحربِ بالحبالِ جيِّدًا قبلَ أن تفكِّروا في جَمْع الغنائم، حتى لا يَفِرُّوا منكم، ويكونوا سببًا في خَلْقِ المشاكل لكم، وهذه هي الأحكامُ التي يجبُ الالتزامُ بها في ميدانِ الحرب.

لو كان من الضروريِّ ضربُ أعناقِ كلِّ الكفّار لَما كان هناك حُكمٌ بإطلاقِ سَراح الأَسْرى بالإحسانِ أو بالفِدْية، ولَضُرِبت أعناقُ الأَسْرى بدلًا من ذلك، معَ أنّ الإسلامَ لا يُجيزُ قَتْلَ الأَسْرى، وقد عَفَا النبيُّ الكريمُ ﷺ يومَ فتح مكةَ عن ألدِّ أعدائه برَغْم كُفرِهم، فلو كان المقصودُ هو قتلَ الكفّارِ على أيِّ حال لَما تُرِك كافرٌ حيًّا في ذلك اليوم، ولَقُتِلوا جميعًا، كما أنّ الكفّارَ كانوا يأتُونَ إلى النبيِّ ﷺ في السنواتِ الأخيرةِ من حياتِه الطاهرة وفودًا، ولو كان من الضروريِّ قتلُهم لَما عاد وفدٌ حيًّا من عندِ رسول الله ﷺ، وبالإضافة إلى ذلك فقد كان اليهودُ والنَّصارى لا يزالونَ موجودينَ في الجزيرةِ العربيّةِ عندَ وفاةِ النبيِّ ﷺ.

إنّ قتلَ الأعداءِ في حالةِ الحرب، والسَّيطرةَ على بعضِهم واعتقالَهم أحياءً، أمرٌ رائجٌ من قديم الزَّمانِ وحتى اليومَ، وإليك بعضَ ما جاء في الكتابِ المقدَّس في هذا الخصوص:

ـ حينَ تَصِلُ بالقربِ من المدينة التي خَرَجْتَ لحربِها، عليكَ أن تُرسلَ إليها أولًا رسالةَ الصُّلح، فإنْ أجابُوكَ إلى الصُّلح وفَتَحوا أبوابَهم لك فإنّ كلَّ السُّكانِ هناك يخضَعُونَ لطاعتِك ويخدِمونَك، وإن لم يُجيبوك إلى الصُّلح، وإنّما أرادوا محاربَتك، فحاصِرْهم، وحين يُمكِّنُك ربُّك منهم فاقتُلْ كلَّ رجُلٍ منهم بالسَّيف، واحتفِظْ بنسائهم وأطفالِهم وأنعامِهم وكلِّ مال المدينة ومتاعِها لنفسِك، واستعمِلْ غنيمةَ الأعداء التي مَنَّ ربُّك بها عليك، وافعَلْ مِثلَ هذا معَ كلِّ المُدُنِ البعيدةِ

عنك، أمّا المُدُنُ التي أعطاها ربُّك لكَ ميراثًا، فدمِّرْ كلَّ شيءٍ حيٍّ فيها وأهلِكْه، بل عليك أن تقضيَ قضاءً مُبرَمًا على كلِّ الأقوام كما أمَرَك ربُّك مثلَ أقوام مَتَّى وأَمُوري وكَنْعاني وفَرْزي وحوي ويَبُوسي، وذلك حتى لا يُعلِّموك منهمُ القيامَ بالأعمالِ المكروهة التي يقومونَ بها لآلهتِهم، فترتكبَ ذنوبًا خلافًا لله ربِّك[1].

ولمزيدٍ من التفصيل عن الجهادِ والإرهابِ راجعْ تعارفَ سُورةَ التوبة (٩).

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾

٥ ـ لو شاء اللهُ تعالى لَابتَلى الكفّارَ بالعذابِ وانتَقَم منهم، لكنّه يريدُ اختبارَكم؛ مَن مِنكم سيُبدي شجاعةً فائقةً في ميدانِ الحرب، ومَن سيتهرَّبُ من الجهاد. على أيِّ حال، السَّعيدُ الذي يُستشهَدُ في سَبيلِ الله تعالى لن تَضيعَ تضحيتُه، وإنما سَينالُ عليها الأَجْرَ العظيم.

﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾

٦ ـ سيُري اللهُ تعالى الشهيدَ طريقَ الجنّةِ يومَ القيامة، وسيَجعَلُ حالَه من الطَّهارةِ والنقاءِ بحيث يستطيعُ أن يَشفَعَ لأقاربِه مثلَما قال رسولُ الله ﷺ فيما رَواهُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: «يُشفَّعُ الشّهيدُ في سبعينَ من أهلِ بيتِه»[2].

﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾

٧ ـ عندَما يَدخُلُ الشَّهيدُ وأهلُ الإيمانِ الآخَرونَ الجنةَ لن يَجِدوا صعوبةً في البحثِ عن قصورِهم، وإنّما يتعرَّفونَ عليها مسبَقًا؛ لأنّ هذه القصورَ تُعرَضُ

(١) الكتاب المقدس: سفر الاستثناء: ٢٠: ١٠ - ١٨.

(٢) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ٢٦ برقم ٢٥٢٢.

عليهم في قبورِهم كلَّ يوم مرَّتَيْن، ولهذا فإنّهم يَعرِفونَ قصورَهم منذُ كانوا في قبورِهم، مثلَما يتَّضحُ من الأحاديثِ التالية:

ـ يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «... أُذِنَ لهم في دخولِ الجنّة، فوالّذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، لَأحدُهم أهدى بمنزلِه في الجنّةِ منه بمنزلِه كان في الدّنيا»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي اللهُ عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ أحدَكم إذا مات عُرِض عليه مقعَدُه بالغَداة والعَشِيّ، إن كان من أهل الجنّةِ فمن أهل الجنّة، وإن كان من أهلِ النّارِ فمن أهلِ النّار، فيقال: هذا مقعَدُك حتّى يبعثَك اللهُ إلى يوم القيامة»(٢).

ـ رُويَ عن سيّدِنا أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرّجلَ لَتُرفَعُ درجتُه في الجنّة فيقول: أنّى هذا؟ فيقال: باستغفارِ وَلَدِك لك»(٣).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾

٨ ـ يا أهلَ الإيمان، إذا نَصَرتُم دينَ الله تعالى ورسُولِه ﷺ فإنّ اللهَ تعالى سيَنصُرُكم ويُثبِّتُ أقدامَكم على الإسلام.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلَهُمۡ ﴾

٩ ـ الذين أنكَروا توحيدَ الله تعالى، وكَرِهوا أحكامَ القرآنِ المجيد، أضاعَ اللهُ تعالى أعمالَهم الطيِّبةَ أيضًا؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يَقبَلُ عملًا بغيرِ إيمان.

---

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٤٨ برقم ٦٥٣٥.

(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب ٨٩ برقم ١٣٧٩.

(٣) ابن ماجه، أبواب الأدب، باب ١ برقم ٣٦٦٠.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾

١٠ ـ يعني: رأى كفّارُ مكةَ أثناءَ أسفارِهم التِّجاريةِ أطلالَ الأُمم السّابقةِ عليهم، كما أنّهم قد سَمِعوا كذلك بأحوالِ دمارِهم وهلاكِهم، ولهذا ينبغي لكفّارِ مكةَ أخْذُ العبرةِ من المصيرِ الذي آلَ إليه هؤلاء، وأن ينأَوْا بأنفُسِهم عن معصيةِ الله تعالى، وإلّا فمنَ الممكنِ أن يَنْزِلَ عليهم أيضًا العذابُ.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

١١ ـ كلُّ الحروبِ التي خاضَها المسلمونَ ضدَّ الكفّارِ في الجزيرةِ العربيّة خاضُوها لنَيْل رضا اللهِ تعالى، ولهذا نَصر اللهُ تعالى المسلمينَ فيها، بينَما كان الكفّارُ يحاربونَ لنَيْل رضا الأصنام عنهم، وليس لدى الأصنام طاقةٌ تستطيعُ من خلالِها نَصْرَ من يحاربونَ لرضاها، مثلَما قال أبو سُفيانَ في غزوة أُحُد: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، وعليه أجابَ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى قائلًا: «اللهُ مَوْلانا ولا مولَى لكم»[1].

ويُعلَمُ منه أنّ المسلمينَ حين يَنزِلونَ إلى ميدانِ العمَل من أَجْلِ رضا الله تعالى واتِّباع رسولِه الكريم ﷺ فقطْ، فإنّ اللهَ تعالى يَنصُرُهم، وحين يَضعُفُ إيمانُ المسلمين، وتصبحُ المصالحُ الدُّنيويّة مقدَّمةً لديهم، فإنّهم يُحرَمُونَ من نُصرةِ الله تعالى.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ

---

(١) «قال أبو سفيان لنا العزّى ولا عزّى لكم. فقال النّبيّ ﷺ «أجيبوه». قالوا: ما نقول قال «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم». البخاري، كتاب المغازي، باب ١٧ برقم ٤٠٤٣.

وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾

١٢ ـ الحيَواناتُ تأكُل بقَصْدِ مَلْءِ بطونِها، ولا تستطيعُ التمييزَ بينَ الحلالِ والحرام ولا بينَ الخبيثِ والطيِّب، ولأنّ الكفّارَ لا يؤمنونَ بالحساب في الآخِرة، لهذا فإنّهم يأكلونَ ليجعَلوا حياتَهم أكثرَ مُتعةَ، ولا يراعُونَ في هذا طيِّبًا ولا خبيثًا.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾

١٣ ـ هنا تنبيهٌ لأهلِ مكّةَ بأنّكم أَجْبَرتُم النبيَّ ﷺ على الهجرةِ من مكةَ، ولكنْ ينبغي أن تَعلَموا أنه حينَما خالَفَت الأُممُ التي سبَقَتْكم أنبياءَهم عليهم السَّلامُ أهلَكْناهم، ولم يستطعْ أحدٌ نَصْرَهم، وكذلك إن لم يرجِع الذين يُخالفونَ النبيَّ الكريمَ ﷺ عن مخالفتِه فسوف يَهلِكونَ أيضًا.

يقولُ سيِّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: لمّا خَرَج النّبيُّ ﷺ من مكّةَ إلى الغارِ التَفتَ إلى مكّة وقال: «اللّهُمّ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلادِ إليّ، ولولا المشركونَ أهلُكِ أَخْرجوني لَما خَرَجْتُ منكِ»[1].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة محمد (٤٧): الآية ١٣.

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾

١٤ ـ يعني: كيف يكونُ النبيُّ ﷺ والذين اتَّبعوُه ثابتينَ على الطريقِ المستقيم الذي أوحَى اللهُ به مِثلَ أولئك الذين يتَّبِعونَ أهواءهم ويسيرونَ وراءَ كُفرِهم وشِركِهم بغيرِ أيِّ دليلٍ لديهم؟

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

١٥ ـ كما أنّ عقائدَ أهلِ الإيمان وأعمالَهم مختلفةٌ عن عقائدِ وأعمالِ أهل الكُفر، كذلك تختلفُ عاقبةُ كلٍّ منهم عن الآخَر، فسيَدخُلُ المتَّقونَ الجنةَ حيث أنهارُ الماءِ واللَّبنِ والخمرِ والعسَلِ المصَفَّى وكلُّ أنواع الفواكه، وفوقَ هذا كلِّه سيحصُلونَ على رضا الله تعالى وعَفْوِه بحيث لن يغضَبَ اللهُ تعالى منهم أبدًا، وعلى العكسِ من ذلك سيُلقَى بمُنكري اللهِ تعالى في نارٍ خالدة، يُسقَوْنَ فيها ماءً مغليًّا تتقطَّعُ منه أمعاؤهم.

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾

١٦ ـ كان المنافقونَ يحضُرونَ خُطبةَ الجمُعة، ويُظهِرونَ للمسلمينَ وكأنَّهم يستمعونَ إلى خُطبةِ النبيِّ ﷺ بكلِّ تمعُّنٍ وتدبُّرٍ واهتمام، لكنّ الحقيقةَ هي أنّهم لا يُبالُونَ بها غافلينَ عنها؛ لأنّهم لم يكونوا يؤمنونَ بالنبيِّ ﷺ من قلوبِهم، وحين كان المنافقونَ يَخرُجونَ من المسجدِ كانوا يَسألونَ أهلَ العلم الصَّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم عما قاله النبيُّ ﷺ قبلَ قليل؛ لأنهم لم يفهَموا ما قاله جيدًا.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

١٧ ـ الحقيقةُ أنّ المنافقينَ قد سَوَّدوا ـ باتِّباعِهم أهواءهم ـ قلوبَهم وعَطَّلوها

عن العمل إلى درجةٍ كبيرة، فكأنّ اللهَ طَبَع عليها، والآنَ أُغلِقت أمامَهم أبوابُ القَبولِ والهداية.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾

١٨ ـ الذين يستمعونَ إلى كلام النبيِّ ﷺ بآذانِ قلوبِهم، ويسيرونَ على طريقِ الهداية بنيّةٍ خالصة، يزيدُ اللهُ تعالى في هدايـتِهم وتَقْواهم، فيَثبُتونَ على طريقِ الهداية دائمًا.

﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗۖ فَقَدۡ جَآءَ أَشۡرَاطُهَاۚ فَأَنَّىٰ لَهُمۡ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ ذِكۡرَىٰهُمۡ ﴾

١٩ ـ مُنكِرو القيامةِ ينتظرونَ قيامَها، بحيث إذا قامَتْ فعلًا يؤمنونَ، لكنْ ينبغي أن يعلَموا أنّ الساعةَ ستقومُ بَغْتةً، ولن يجدَ أحدٌ فرصةً للتَّوبةِ في ذلك الوقت، ولوِ افترَضْنا أنّ أحدًا وَجَد هذه الفرصةَ، فإنّ إيمانَ أحدٍ بعدَ رؤيـتِه القيامةَ لن يكونَ مقبولًا.

اللهُ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ عِلمَ اليقينِ وقتَ قيام الساعةِ الحقيقيَّ، ولكنْ جاء بيانُ علاماتِ قُربِها، وأكبرُ علامةٍ منها بَعْثةُ نبيِّنا الحبيبِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ، مثلَما رَوى سيِّدُنا أنسٌ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعِثتُ أنا والسّاعةُ كهاتَيْنِ»[1]، يعني: لن يأتيَ نبيٌّ بعدي، وإنّما ستأتي الساعةُ.

علامات الساعة

ـ يقولُ سيُّدنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تقومُ السّاعةُ حتّى يَنزِلَ فيكمُ ابنُ مريَم حَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرُ الصَّليبَ، ويَقتُلُ الخِنزيرَ، ويضَعُ

(١) البخاري، كتاب الرقاق، باب ٣٩ برقم ٦٥٠٤.

الجِزيةَ، ويَفيضُ المالُ حتّى لا يَقبَلَه أحدٌ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي اللهُ عنه ابنُ أُسَيْد الغِفاريُّ: اطَّلَع النّبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكَرُ، فقال: «ما تَذاكَرون؟». قالوا: نذكُرُ السّاعةَ. قال: «إنّها لن تقومَ حتّى ترَوْا قبلَها عشْرَ آياتٍ». فذَكَر: «الدُّخَانَ والدّجّالَ والدّابّةَ وطلوعَ الشّمسِ من مغرِبها ونزولَ عيسى ابن مريَمَ ﷺ ويَأجوجَ ومَأجوجَ وثلاثةَ خسوفٍ: خَسْفٌ بالمشرق وخَسْفٌ بالمغربِ وخَسْفٌ بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ من اليمنِ تَطرُدُ النّاسَ إلى محشَرِهم»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «من أشراطِ السّاعةِ أن يَقِلَّ العِلم، ويَظهَرَ الجهلُ، ويَظهَرَ الزّنا، وتَكثُرَ النّساءُ ويَقِلَّ الرّجالُ، حتّى يكونَ لخمسينَ امرأةً القيّمُ الواحد»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله[٤] رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «حتّى يَبعَثَ اللهُ فيه رجلًا (الإمامَ المَهْديَّ) منّي أو من أهل بَيْتي، يُواطِئُ اسمُه اسمي واسمُ أبيه اسمَ أبي ـ زادَ في حديثِ فِطرٍ ـ: يملأُ الأرضَ قِسطًا وعدلًا كما مُلئت ظُلمًا وجَوْرًا»[٥].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: بينَما النّبيُّ ﷺ في مجلسٍ يُحدِّثُ القومَ جاءه أعرابيٌّ فقال، متى السّاعةُ؟... قال: «فإذا ضُيِّعتُ الأمانةُ فانتظِر السّاعةَ». قال: كيف إضاعتُها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمرُ إلى غيرِ أهلِه فانتظِر السّاعةَ»[٦].

ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إذا

---

(١) البخاري، كتاب المظالم، باب ٣١ برقم ٢٤٧٦.

(٢) مسلم، كتاب الفتن، باب ١٣ برقم ٧٢٨٥.

(٣) البخاري، كتاب العلم، باب ٢١ برقم ٨١.

(٤) هو: ابن مسعود. علل الحديث، لابن أبي حاتم، ٦: ٥٣٤ برقم ٢٧٣١.

(٥) أبو داود، ، كتاب المهدي برقم ٤٢٨٢.

(٦) البخاري، كتاب العلم، باب ٢ برقم ٥٩.

فَعَلت أُمّتي خمسَ عشْرةَ خَصلةً حَلَّ بها البلاءُ». فقيل: وما هنّ يا رسولَ الله؟ قال:

١ ـ «إذا كان المغنَمُ دُولًا.

٢ ـ والأمانةُ مغنَمًا.

٣ ـ والزّكاةُ مَغْرَمًا.

٤ ـ وأطاعَ الرّجلُ زوجتَه.

٥ ـ وعقَّ أُمَّه.

٦ ـ وبَرَّ صديقَه.

٧ ـ وجفَا أباه.

٨ ـ وارتفَعت الأصواتُ في المساجد.

٩ ـ وكان زعيمُ القوم أرذلَهم.

١٠ ـ وأُكرِم الرّجلُ مخافَة شرِّه.

١١ ـ وشُرِبتِ الخمورُ.

١٢ ـ ولُبِس الحرير.

١٣ ـ واتُّخِذت القَيْناتُ.

١٤ ـ والمعازفُ.

١٥ ـ ولَعَن آخِرُ هذه الأُمّةِ أَوَّلَها.

فلْيرتقِبوا عندَ ذلك ريحًا حمراءَ أو خَسْفًا ومَسْخًا»[١].

---

(١) الترمذي، أبواب الفتن، باب ٣٨ برقم ٢٢١٠، ٢٢١١.

﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

٢٠ ـ إنك تَعلَمُ جيِّدًا أنه لا إلهَ إلّا الله، ولهذا عليكَ أن تَذكُرَ هذه الحقيقةَ دائمًا، وبَلِّغها إلى الآخرين، واستمرَّ في تبليغِهم إياها.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾

٢١ ـ يقولُ العلّامةُ الرازي في تفسيرِ لفظِ الذَّنب: «والذَّنبُ هو: ترْكُ الأفضَل (خلافَ الأَوْلى) الذي هو بالنِّسبة إليه ذنبٌ، وحاشاهُ من ذلك»[١].

في هذه الآيةِ قال اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ مُسَرِّيًا عن قلبِه: اصبِرْ على إيذاءِ الكفّارِ والمشركينَ لك، واستغفِر اللهَ ممّا هو خلافُ الأَوْلى وإن لم يكنْ ذنبًا باعتبارِ الشَّريعة، وإنّما قيلَ له مجازًا: ذنبٌ باعتبارِ درجةِ تقواكَ الرَّفيعة، وذلك لكي تبقَى مطمئنًّا دائمًا، ولا تشعُرَ بشيءٍ في داخلك مما هو خلافُ الأَوْلى.

والاستغفارُ لا يكونُ لمجرَّدِ العفوِ عن الذنوبِ فقطْ، وإنّما يكونُ كذلك لرَفْع الدَّرجاتِ ولنَيْلِ القُربِ الإلهيِّ أيضًا، فتُغفَرُ ذنوبُ المذنِبينَ بالاستغفار، ولكنْ حينَ يستغفرُ الصالحونَ تُرفَعُ به درَجاتُهم، مثلَما رَوى سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، أنه سَمعَ النبيَّ ﷺ يقول: «واللهِ إنّي لَأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليوم أكثرَ من سبعينَ مرّةً»[٢].

يقولُ العلّامةُ أحمدُ الصَّاوي: «والمقصودُ من هذا الأمر: تعليمُ الأُمّةِ ذلك، وإلّا فرسولُ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم معصومٌ من الذُّنوبِ جميعًا صغائرَ وكبائرَ، قَبل النُّبوةِ وبعدَها، على التحقيقِ، كجميع الأنبياء»[٣].

---

(١) التفسير الكبير، سورة محمد (٤٧): الآية ١٩.

(٢) البخاري، كتاب الدعوات، باب ٣ برقم ٦٣٠٧.

(٣) حاشية الصاوي، صفوة التفاسير، سورة غافر (٤٠): الآية ٥٥.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

٢٢ ـ اللهُ تعالى رحيمٌ غايةَ الرَّحمةِ بالمسلمين، فقد أمَرَ نبيَّه الحبيبَ ﷺ أن يستغفرَ لرجالِ أُمتِه ونسائها، والنبيُّ ﷺ شفيعٌ لا تُردُّ شفاعتُه، وهي مقبولةٌ دائمًا.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾

٢٣ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم مشاغلَكم في الدنيا، ومَثْواكُم الذي ستؤجَرونَ به في الآخِرة حسابًا على هذه المشاغل.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾

٢٤ ـ حين كان المسلمونَ يَضِيقونَ بظُلم الكفّارِ لهم، ويَدْعونَ اللهَ قائلين: لماذا لم تُنزِلْ حتى الآنَ سورةً تسمحُ لنا بالجهاد، حتى نستطيعَ الردَّ على الاعتداءاتِ

التي تتِمُّ علينا، كان المنافقونَ يُساندونَهم في هذا الدُّعاء على مَضَضٍ، خوفًا من أن يُفتضَحَ نفاقُهم، ولكنْ حينَ نَزَل الحُكمُ الصَّريحُ بالجهادِ أُسقِطَ في أيدي المنافقين، وأَخَذوا يلتفتُونَ هنا وهناك كأنّ الموتَ قد غَشِيهم، معَ أنّهم لو صَدَقوا فيما قالوه بألسنتِهم، وقَبِلوا حُكمَ الجهادِ من قلوبِهم، لَكان هذا خيرًا لهم.

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴾

٢٥ ـ يقولُ العلّامةُ الخازنُ في تفسيرِ هذه الآية: «﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ يعني: أعرضتُم عن سَمَاع القرآنِ وفارقتُم أحكامَه ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني: تعودوا إلى ما كنتُم عليه في الجاهليّةِ من الفسادِ في الأرض بالمعصيةِ والبَغْي وسَفْكِ الدَّم وترجِعوا إلى الفُرقةِ بعدَ ما جَمَعكم اللهُ بالإسلام؟»[1]، يعني: ستظَلُّونَ تَقتُلونَ وتَنهَبونَ لقرونٍ عديدة بسبب أمورٍ صغيرةٍ تافهة، وتظَلُّونَ تدفِنونَ بناتِكم أحياءً فتُهرِقونَ دمَ كلِّ صلةٍ بينَ الأمِّ وابنتِها؟ ولهذا لا تتكاسَلوا في الدِّفاع عن الإسلام وحمايتِه، حتى ينتهيَ ظلمُ الجاهليّة وفسادُها وما يَحدُثُ فيها من قطع للرَّحِم، ويبدأَ تطبيقُ نظام العدلِ والإنصافِ وصلةِ الرَّحِم الذي جاء به الإسلامُ.

فضل صلة الرحم

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلْيُكرِمْ ضيفَه، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلْيَصِلْ رَحِمَه، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصمُتْ»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن سرَّه أن

---

(١) تفسير الخازن.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٨٥ برقم ٦١٣٨.

يُبسَطَ له في رزقِه، وأن يُنسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَمْرٍو رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكنّ الواصلَ: الّذي إذا قُطِعت رَحِمُه وَصَلَها»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا سَلمانُ بن عامر رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «صَدَقتُك على المِسكين صدَقَـةٌ، وعلى ذي القُربى الرَّحِم ثنتانِ: صدَقةٌ وصِلة»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه: «الجيرانُ ثلاثة: فجارٌ له حقٌّ واحدٌ وهو أدنى الجيرانِ حقًّا، وجارٌ له حقّانِ، وجارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ، فأمّا الذي له حقٌّ واحدٌ فجارٌ مُشرِكٌ لا رَحِمَ له له حقُّ الجِوار، وأمّا الذي له حَقّانِ فجارٌ مسلمٌ له حقُّ الإسلام وحقُّ الجِوار، وأمّا الذي له ثلاثةُ حقوقٍ فجارٌ مسلمٌ ذو رَحِمٍ له حقُّ الإسلام وحقُّ الجِوارِ وحقُّ الرَّحِم»(٤).

ذم قطع الرحم

ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الرَّحِمُ معلَّقةٌ بالعرش تقولُ: مَن وَصَلَني وَصَلَه الله، ومَن قَطَعَني قَطَعَه الله»(٥).

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الرَّحمن رضي الله عنه: إنه سَمِع رسولَ الله ﷺ يقول: «قال اللهُ: أنا اللهُ وأنا الرّحمنُ، خَلَقتُ الرَّحِمَ وشَقَقْتُ لها منَ اسمي، فمَن وَصَلَها وَصَلتُه، ومَن قَطَعَها بَتَتُّه»(٦).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٢ برقم ٥٩٨٦.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ١٥ برقم ٥٩٩١.

(٣) مسند أحمد، ٤: ٢١٤.

(٤) كنز العمال، ٩: ٥١ برقم ٢٤٨٩١.

(٥) مسلم، كتاب البر، باب ٦ برقم ٦٥١٩.

(٦) الترمذي، أبواب البر، باب ٩ برقم ١٩٠٧.

ـ يقولُ سيّدُنا جُبيرٌ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا يَدخُلُ الجنَّة قاطعٌ»[1].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾

٢٦ ـ هؤلاءِ هم المنافقونَ الذين أبعَدَهم اللهُ تعالى عن رحمتِه، وحَرَم آذانَهم من سَماع الحقِّ وأعيُنَهم من رُؤيـتِه؛ لأنّ قلوبَهم مصابةٌ بمرضِ النِّفاقِ الذي أغفَلَهم عن الحقِّ.

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

٢٧ ـ وَضَّح القرآنُ المجيدُ الحقَّ من الباطل، لكنّ المنافقينَ أغلَقوا قلوبَهم بأقفالِ التعصُّب، ولهذا فهم لا يتدبَّرونَ القرآنَ المجيدَ أصلًا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾

٢٨ ـ الذين اتَّضح أمامَهم طريقُ الهداية بشكلٍ كامل، ومَع ذلك انحَرَفوا عن الهداية، فهؤلاءِ خَدَعَهم الشّيطانُ قائلًا بأنّ الحياةَ لا تزالُ طويلةً أمامَكم، فلا ينبغي أن تَقضُوا عليها سريعًا بالمشاركةِ في الجهاد، وإنّما استمتِعوا بصحّتِكم وشبابِكم، ثم تُوبوا في شيخوختِكم.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾

٢٩ ـ أكَّد منافقو المدينةِ لمشركي مكةّ أنهم معَ المسلمينَ في الظاهرِ فقطْ، ولكنَّهم ـ في حالةِ نشوبِ الحربِ ـ سيُنفِّذونَ ما يطلُبونَ منهم، ولن يَقفِوا معَ المسلمينَ

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ١١ برقم ٥٩٨٤.

أو يُساندوهم. ورَغْم أنّ مؤامرةَ المنافقينَ هذه في غايةِ الخِسّة، لكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ مؤامراتِهم تمامَ العلم، وقد أَطْلع حبيبَه المصطفى ﷺ على مؤامراتِهم.

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

٣٠ ـ المنافقونَ عندَئذٍ أعرَضوا عن الموتِ في ميدانِ الجهاد، ولكنْ كيف سيكونُ حالُهم حينَ تَضرِبُ الملائكةُ وجوهَهم وأدبارَهم حالَ قَبْضِهم أرواحَهم؟

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ سلسلةَ الحسابِ والثواب والعقابِ تبدَأُ مباشرةً فَوْرَ انتهاءِ هذه الحياةِ الدنيا، ولأنّ هذا الأمرَ يختصُّ بالملائكةِ وعالَم البَرْزَخ الذي هو فوقَ إدراكِنا، لهذا لا نستطيعُ أن نُدركَ حقيقتَه في هذه الدنيا، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾[البقرة:١٥٤]، لكنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلام والملائكةَ يُدرِكونَ ثوابَ البَرْزَخ وعقابَه ويشعُرونَ بهما.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: مرَّ النّبيُّ ﷺ بحائطٍ من حيطانِ المدينةِ أو مكّةَ، فسَمع صوتَ إنسانَيْنِ يُعذَّبانِ في قبورِهما، فقال النّبيُّ ﷺ: «يُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ»، ثمّ قال: «بلى، كان أحدُهما لا يستترُ من بولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنّميمة». ثمّ دَعا بجريدةٍ فكَسَرها كِسْرتَيْنِ، فوَضَع على كلِّ قبرٍ منهما كِسرةً. فقيل له: يا رسولَ الله، لمَ فعلتَ هذا؟ قال: «لعلّه أن يُخفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا أو إلى أن يَيْبَسا»[1]، فلم يكن الصَّحابةُ الكرام رضي اللهُ عنهم يَعلَمونَ شيئًا عن عذابِ البَرْزَخ هذا، لكنّ النبيَّ ﷺ كان يَعرِفُ بأحوالِ البَرْزَخ التي تجري تحتَ التراب.

---

(١) البخاري، كتاب الوضوء، باب ٥٥ برقم ٢١٦.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

٣١ ـ واجَه المنافقونَ الشِّدةَ عندَ الموتِ لأنّهم أعرَضوا عن رضا اللهِ تعالى واتَّبعوا أهواءَهم ومشَوْا وراءها، وهي التي كانت سببًا في غضَب الله تعالى عليهم، كما أنّ الواضحَ أنّ اللهَ تعالى أحبَطَ أعمالَهم الطيِّبةَ وأضاعَها لأنّ العمَلَ لا يُقبَلُ في الآخِرة بغيرِ إيمان.

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

٣٢ ـ كان المنافقونَ يظُنُّونَ أنّ اللهَ تعالى لا يمكنُ أن يَعرِفَ ما بقلوبِهم من البُغض والعنادِ ضدَّ المسلمين، وعليه قال اللهُ تعالى لحبيبِه المصطفى ﷺ: لو أرَدْنا لَأريناكَ المنافقينَ فردًا فردًا، بحيث تَعرِفُهم بمجرَّدِ رؤيتِهم، لكنَّهم معَ ذلك لا يَخفَوْنَ عليك؛ لأنك تَعرِفُهم من طريقةِ كلامِهم وأسلوبِهم في الحديث.

يقولُ الإمامُ فَخْر الدِّين الرازي: «والنبيُّ ﷺ كان يَعرِفُ المنافقَ ولم يكنْ يُظهِرُ أمرَه إلى أن أَذِنَ اللهُ تعالى له في إظهارِ أمرِهم ومُنع من الصّلاةِ على جنائزِهم والقيام على قبورِهم»[١]، وحين أُذِن للنبيِّ ﷺ بكشفِ أسمائهم أَخْرَجَهم النبيُّ ﷺ من المسجدِ مناديًا عليهم كلٌّ باسمِه.

يقولُ سيّدُنا أبو مسعودٍ عُقبةُ بن عَمْرٍو رضي الله عنه: خَطَبَنا رسولُ الله ﷺ خُطبةً فحَمِد اللهَ وأثنَى عليه، ثمّ قال: «إنّ فيكم منافقينَ، فمن سَمَّيتُ فلْيقُمْ». ثمّ قال: «قمْ يا فُلان. قمْ يا فُلان. قمْ يا فُلان». حتّى سَمَّى ستّةً وثلاثينَ رجلًا، ثمّ قال: «إنّ فيكم، أو منكم، فاتّقُوا اللهَ»[٢].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾

٣٣ ـ اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العِلم الناسَ جميعًا وكلَّ أحوالِهم، ومقصِدُ ابتلاءِ الله تعالى هو: أن تقومَ عليهم الحُجّةُ، ويَعلَمَ الآخَرونَ أيضًا حقيقتَهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

٣٤ ـ الذين اتَّضح لهم صِدقُ النبيِّ ﷺ بالدَّلائل والمعجِزات، ومعَ ذلك لم يؤمنوا به، وانهَمَكوا في معاداتِه ﷺ ومخالفتِه، فإنّهم لن يَضُرُّوا اللهَ شيئًا بمخالفتِهم ومعاداتِهم هذه، وإنّما سيَضُرُّونَ أنفُسَهم بها، وظاهرٌ أنّ أعمالَهم الحسَنَة أيضًا ستَضيعُ وتُحبَطُ بسببِ عَدَم إيمانِهم.

---

(١) التفسير الكبير، سورة محمد (٤٧): الآية ٣٠.

(٢) مسند أحمد، ٥: ٢٧٣.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾

٣٥ ـ هنا تنبيهٌ لأهلِ الإيمانِ بأنْ يَثبُتوا على طاعةِ الله وطاعةِ رسولِه ﷺ، وأنْ لا يُضيِّعوا أعمالَهم بالرُّجوعِ إلى الكُفرِ والشِّركِ ثانيةً؛ لأنّ الكُفرَ والشِّركَ ذنبٌ لا يَغفِرُه اللهُ تعالى أبدًا.

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

٣٦ ـ نَزَلت هذه الآيةُ في المدينةِ المنوَّرةِ بعدَ أنْ أَذِنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ بالجهاد، وكانت المعاركُ متواصلةً معَ الكفّار.

وفي هذه الآيةِ تشجيعٌ للمسلمين بأنْ لا تَفقِدوا همَّتَكم وعَزْمَكم مثلَ المنافقينَ حين تواجِهونَ الكفّارَ في الحرب، وإنّما حارِبوهم بكلِّ جُرأةٍ وشجاعة، واللهُ تعالى سيَنصُرُكم، وستظَلُّونَ أنتم الغالبينَ، ولن يَنقُصَ اللهُ تعالى من أَجْرِ أعمالِكم وثوابِها شيئًا.

الدعوة إلى الصلح أثناء المعركة

قال اللهُ تعالى في سُورة الأنفال: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]، يعني: لو دَعاكم الكفّارُ إلى الصُّلح فاقبَلوا دعوتَهم، واتَّفِقوا على الصُّلح وأَوْقِفوا الحربَ، لكنّ اللهَ تعالى مَنَع المسلمينَ ـ في الآية رقم **٣٥** من هذه السُّورة ـ من الدعوةِ إلى الصُّلح، وليس معنى هذا أنه ينبغي للمسلمينَ أن لا يبدَأُوا بالدّعوةِ إلى الصُّلح، وإنّما معناهُ: أنه لا ينبغي لهم أن يَدْعُوا إلى الصُّلح مُظهِرينَ جُبنًا وضعفًا مثلَ المنافقين، كما لا ينبغي الدعوةُ إلى الصُّلح أيضًا في حالةِ ما لو كانت نتائجُه ستُلحِقُ الضَّررَ بالمسلمين، ولكنْ يجوزُ ذلك إذا لم يكنْ سيؤثِّرُ بالسَّلبِ على هَيْبةِ المسلمينَ ووَقارِهم، وعندَئذٍ لا حَرَجَ في الدَّعوةِ إلى الصُّلح.

في هذه الآيَةِ بشَّر اللهُ تعالى الصَّحابةَ الكرامَ رضي اللهُ عنهم بأنه معَهم، وأنّهم سيظَلُّونَ الغالبينَ، والتاريخُ يشهَدُ أنّ اللهَ تعالى أَنْعم على الصّحابةِ الكرام رضي الله عنهم بفتُوحاتٍ عظيمة، ولئن زَرَعْنا نحن اليومَ بداخِلنا إيمانًا مِثلَ إيمانِ الصّحابة وحماسًا مِثل حماسِهم لَنَصَر اللهُ تعالى المسلمينَ على وَجْهِ اليقين:

ـ اخلُقِ اليومَ مِثلَ جوٍّ بدرٍ وستَنزِلُ الملائكةُ من الأفلاكِ صفوفًا لنُصرتِك.

ـ فمَن يَخلُقُ اليومَ بداخِله إيمانًا مثلَ إيمانِ إبراهيمَ، يمكنُ أن تكونَ النارُ له بمثابةِ الرَّوضة.

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

٣٧ ـ هذه الدنيا ومتاعُها ومالُها فانٍ، وستنتهي يومًا ما كأنَّها مسرحيّةٌ، في حينَ أنّ الحياةَ الآخِرةَ والجنّةَ خالدتانِ، ليْتَ الكفّارَ يُدرِكونَ حقيقةَ أنّ الحياةَ الدنيا ما هي إلّا فترةٌ وجيزةٌ بغَرَضِ الابتلاءِ والاختبارِ ليس إلّا، فلا يُضيِّعُوها في اللَّهوِ واللعب.

المرادُ بالحياةِ الدُّنيا في هذه الآية: حياةُ الكافر؛ لأنّ الكافرَ يَعتبِرُ هذه الحياةَ الدنيا هي كلَّ شيء، ولا يؤمنُ بالآخِرة ولا بالحسابِ فيها على الأعمال، ولهذا تدورُ حياتُه حولَ اللَّهوِ واللّعبِ ورغَباتِه النَّفْسانيّةِ وهواه، أما الذين يحمِلونَ اليقينَ على الآخِرة وخَشْيةَ الله تعالى في قلوبِهم، فإنّ هذه الحياةَ الدنيا أيضًا تكونُ نعمةً لهم، مثلَما قال النبيُّ ﷺ: «نِعمَتِ الدّارُ الدّنيا لمن تزوَّدَ منها لآخِرته»[1]، وقال أيضًا: «الدّنيا مزرعةُ الآخِرة»[2]، وهكذا يقولُ أهلُ العلم: أن الطفولةَ مزرعةُ الشباب، والشّبابُ مزرعةُ الكُهولة.

---

(١) المقاصد الحسنة، ٢٢٧.

(٢) المرجع السابق.

وحيثُما جاءت مَذَمّةُ هذه الدنيا ومالِها ومتاعِها في القرآنِ الكريم والحديثِ الشَّريف كان المقصودَ بها حياةُ أولئك الذين يوظِّفونَ هذه الحياةَ الدُّنيا لرغباتِهم النَّفسانيّةِ وهواهم، فيستحِقُّونَ ـ في نهايةِ الأمر ـ نارَ جهنَّم عقابًا لهم، لكنّ الذين في قلوبهم تقوى الله تعالى وخَشْيتُه يستعمِلونَ هذه الدنيا من أَجْل رضا الله تعالى، فيستحِقُّونَ في النهايةِ الجنةَ أجرًا وثوابًا، فالدُّنيا لهؤلاءِ نعمةٌ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يُكثِرُ من الدعاءِ التالي: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾

٣٨ ـ يا أهلَ الإيمان، سيُعطيكم اللهُ تعالى الأَجْرَ الكاملَ على أعمالِكم كلِّها، وهو لا يَطلُبُ منكم كلَّ أموالِكم حتى يُعطيَكم الأَجْرَ والثوابَ في الآخِرة، ولكنّه يَطلُبُ قدرًا ضئيلًا في صورةِ الزَّكاة، وهو لا يَطلُبُ هذا لنفسِه، وإنّما لإخوانِكم الفقراء، ولو طَلَبَ منكم أموالَكم كلَّها وأصَرَّ على أن تؤدُّوها كاملةً لَبخِل أكثرُكم، ولَظَهرت علاماتُ الامتعاضِ على وجوهِكم، ولهذا لم يُطالبْكُم اللهُ تعالى بأموالِكم كلِّها، ومعَ ذلك فهناك من السُّعداءِ أمثالُ سيّدِنا أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه، والذين ضَحَّوْا بأموالِهم كلِّها في سَبيل الله تعالى.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾

٣٩ ـ يا أهلَ الإيمان، أَنْفِقوا بعضَ أموالِكم في سَبيل الله تعالى، فإنّ ذلك يُطهِّرُ أموالَكم، وتَنالونَ في الآخِرة أجرًا عظيمًا عليه، وبرَغْم ذلك فإنّ بعضًا منكم يبخَل، والمؤمنُ الذي يبخَلُ يَضُرُّ نفسَه، يعني: يَحرِمُ نفسَه من الأَجْرِ العظيم في الآخرة،

والله تعالى هو المستغني، ولا حاجةَ به إلى أموالِكم، إلّا أنكم أنتمُ الذين ستحتاجونَ الحسَناتِ في الآخِرة، والله تعالى رحيمٌ بكم غايةَ الرَّحمة، ولهذا يَطلُبُ منكم المالَ حتى يُعيدَه إليكم يومَ القيامة معَ أَجْرٍ وثوابٍ مضاعَفٍ أضعافًا كثيرةً عليه.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾

٤٠ ـ لئن أعرَضتُم عن طاعةِ الله تعالى، ومَلأتُم الأرضَ ظلمًا وبُخلًا، فسيأتي اللهُ تعالى بقومٍ غيرِكم يطيعونَه، ولن يكونوا ظالمينَ بُخلاءَ أمثالَكم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعد صلاة المغرب من يوم الأحد ١٣ يونيه ٢٠١٠م
الموافق غُرةَ رجبٍ المرجَّب ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتَمل تفسيرُ سورة محمَّد بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في ستةِ أيام فقط، أي: من ٧ يونيه إلى ١٣ يونيه، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٤٨) سُورَةُ الفَتْح

هذه السُّورةُ مدَنِيّة، واسمُها: «الفَتْح»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها، وقد نَزَلت هذه السُّورةُ على النبيِّ ﷺ وهو في طريقِ عودتِه من الحُدَيْبِيَة إلى المدينةِ المنوَّرة، والمقصودُ بالفَتْح الذي وَرَد ذِكرُه في هذه السُّورة هو: صُلحُ الحُدَيْبِيَة.

خلاصة صلح الحديبية

كان المهاجرونَ والأنصارُ في المدينةِ الطِّيبة دائمًا يتحرَّقُونَ شوقًا إلى زيارةِ بيتِ الله الحرام في مكةَ المكرَّمة، ولهذا تَوجَّه النبيُّ ﷺ معَ ألفٍ وأربعِمائة من أصحابِه إلى مكةَ في شهرِ ذي القَعْدة من السّنة السادسةِ للهجرة، وكانوا يريدونَ أداءَ العُمرة، ولهذا لم يَحمِلوا معَهم أسلحتَهم، وإنّما اصْطَحَبوا معَهم، بدلًا من ذلك، حيَواناتِ الأضاحي. فلمّا عَلِمت قُريشٌ بقدوم النبيِّ ﷺ ظَنُّوا أنه جاء بغَرَض الاستيلاءِ على مكةَ، وأنّ موضوعَ أداءِ العُمرةِ ما هو إلّا خُدعةٌ، ولهذا قَرَّروا ألّا يسمَحوا للمسلمينَ بدخولِ مكةَ مهما كان الثمنُ.

حَطَّ المسلمونَ رِحالَهم عندَ الحُدَيْبِيَة، وأرسَلَ أهلُ مكةَ عُروةَ بنَ مسعود الثقفيَّ إلى المسلمينَ للتفاوض معَهم، وحَثَّهم على العودةِ من حيث جاءوا، وتناقَش عُروةُ معَ النبيِّ الكريم ﷺ، فتأكَّد له أن النبيَّ الكريمَ ﷺ لا يريدُ حربَ

أهلِ مكةَ، ولا يريدُ الاستيلاءَ على مكةَ، وإنّما جاء ﷺ هو وأصحابُه المخلِصُونَ بغَرَض أداءِ العُمرةِ فقط، وعاد عروةُ إلى أهلِ مكةَ وأخبَرهم بما شاهَده، وأشار عليهم بأنْ يتخَلَّوْا عن إرادةِ مقاومةِ المسلمين؛ لأنهم سيُقيمونَ هنا لأيام قلائلَ ثم يعودونَ إلى المدينة.

لمَّا عاد عُروةُ بنُ مسعود الثَقفيُّ إلى مكةَ في إطارِ صُلح الحُدَيْبِيَة قال لقُريش: «أي قوم، والله لقد وَفَدتُ على الملوك ووَفَدتُ على قَيْصرَ وكسرى والنَّجاشيّ، والله إن رأيتُ مَلِكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمّدٍ ﷺ محمّدًا، والله إن يَتنَخَّمْ نُخامةً إلّا وَقَعت في كفّ رجُلٍ منهم فدَلَك بها وجهَه وجِلدَه، وإذا أمَرَهمُ ابتَدَروا أمرَه، وإذا توضَّأ كادوا يقتَتِلونَ على وَضُوئه، وإذا تكلَّموا خَفَضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّونَ النّظَر اليه تعظيمًا له»[1]، وليس بوُسعِكم مواجهةُ المسلمين، ولكنّ أهلَ مكةَ أصَرُّوا على عنادِهم.

أرسَلَ النبيُّ الكريمُ ﷺ سيّدَنا عثمانَ الغنيَّ رضي الله عنه إلى أهل مكةَ حتى يُطْلعَهم على واقع الحالِ بأنّنا لم نأتِكم محارِبينَ، وإنّما جِئْنا لأداءِ العُمرةِ لا أكثرَ، ولهذا جئنا مُحرِمين، وليس معَنا أسلحةٌ، وإنَما حيَواناتُ الأضاحي، لكنّ أهلَ مكةَ قالوا: لقد أقسَمْنا ألّا نسمحَ للمسلمين بدخولِ مكةَ، فعودوا من فَوْرِكم، ثم يمكنُ أن نُفكِّرَ في هذا الأمرِ العامَ القادمَ.

قال أهلُ مكةَ لسيّدِنا عثمانَ بن عفّانَ رضي الله عنه: إنّنا لن نسمحَ للمسلمينَ غيرَك بأنْ يَضَعوا أقدامَهم في مكةَ، أو أن يَطُوفوا بالكعبة، إلّا أنك ضيفُنا، ويمكنُك الطوافُ، فقال سيّدُنا عثمانُ رضي الله عنه: لن أطوفَ بالكعبة الآنَ ما لم يطُفْ بها حبيبي رسولُ الله ﷺ، وهكذا تتَجلَّى محبةُ النبيِّ ﷺ وإجلالُه.

---

(١) البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ برقم ٢٧٣١.

عندما أَوْقَف أهلُ مكةَ سيّدَنا عثمانَ رضي الله عنه لديهِم بغَرَض استكمالِ المفاوضات، انتشَرت شائعاتٌ تقولُ بأنّ أهلَ مكةَ قَتَلوا سيّدَنا عثمانَ رضي الله عنه، وعليه أمَرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه رضي اللهُ عنهم بأنّنا لن نتحرَّكَ من هنا ما لم نثأَرْ لمقتلِ عثمانَ رضي الله عنه، ولهذا بايِعُوني على بَذْلِ الأنفس. وهكذا جَلَس النبيُّ ﷺ تحتَ شجرة، وأَقْبل عليه الصَّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم كالفَراشاتِ العاشقة يبايعونَه، وقد عُرِفَت هذه البيعةُ باسم «بَيْعةِ الرِّضوان»؛ لأنّ اللهَ تعالى بَشَّر في القرآنِ المجيدِ الذين بايَعوا النبيَّ ﷺ في هذه البَيْعة برضاه، ولمّا بايَعَ الصَّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ وَضَع النبيُّ ﷺ يدَه اليُمنى على يدِه اليسرى ودَعا في الحضرةِ الإلهيَّة قائلًا: يا الله، هذه اليدُ من عثمانَ؛ لأنه ذَهَب من أَجْل تنفيذِ أمرِك وأمرِ رسولِك.

ورَغْم أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ أنّ خبَرَ مقتلِ سيّدِنا عثمانَ رضي الله عنه لم يكنْ صحيحًا، لكنّ الحِكمةَ من أَخْذِ البيعةِ كانت إدخالَ الرُّعبِ في قلوبِ كفّارِ مكةَ حين يَعرِفونَ بمشاعرِ المسلمينَ هذه، فيتخلَّونَ عن إرادةِ الحرب، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فما أنْ بَلَغ أهلَ مكةَ أمرُ هذه البَيْعةِ حتى طار صوابُهم، واختَفى صَلَفُهم وعنادُهم، وأرسَلوا سُهيلَ بنَ عمرٍو طالبينَ الصُّلح، وبعدَ مفاوضاتٍ طويلة استقرَّ الأمرُ على الصُّلح بالشروطِ الآتية:

شروط صلح الحديبية

١ ـ يعودُ المسلمونَ هذا العامَ بغيرِ عُمرة، ثم يَرجِعونَ العامَ القادمَ بغيرِ أسلحة، ويُسمَحُ لهم بالقيام في مكةَ ثلاثةَ أيام فقطْ يعودونَ بعدَها إلى المدينة.

٢ ـ يَسري هذا الصُّلحُ لعشْرِ سنوات، ولا يتحاربُ الفريقانِ خلالَ هذه المدة.

٣ ـ لو لَجَأَ أحدٌ من أهل مكةَ إلى المسلمينَ فعليهم أن يُعيدوه، ولو لَجَأَ أحدٌ من المسلمينَ إلى مكةَ لا يَلزَمُ أهلَ مكةَ إعادتُه.

٤ ـ لكلِّ القبائلِ الحقُّ في الاختيارِ بينَ أن تكونَ حليفةً لسيّدِنا محمدٍ ﷺ أو حليفةً لقُريش، وهكذا حالَفَت بنو خُزاعةَ النبيَّ ﷺ، وحالَفَت بنو بكرٍ قُريشًا.

وبعدَ إبرام هذه المعاهدة تحَلَّل النبيُّ ﷺ وأصحابُه الكرامُ رضي الله عنهم من إحرامِهم، وذَبَحوا أضاحيَهم.

ولم تُعجِبْ بعضُ شروطِ هذا الصُّلح المسلمين، ولكنِ انتَهى تبرُّمُ المسلمينَ بهذه الشروطِ بعدَ أنِ اتَّضحت آثارُها بعدَ فترة؛ لأنّ معنى هذه الشروطِ أنّ كفّارَ مكةَ قدِ اعتَرفوا بالكِيانِ المستقِلِّ للمسلمين، وانتهت حالةُ الحربِ بينَ مكةَ والمدينة، ورُفِعت القيودُ على التنقُّل بينَهما، وازدادت الدعوةُ إلى الإسلام نشاطًا، ودَخَلت قبائلُ عديدةٌ في الإسلام.

الحفاظ على المعاهدات مع غير المسلمين

يقولُ ابنُ هشام: «فبَيْنا رسولُ الله ﷺ يَكتُبُ الكتابَ هو وسُهيلُ بنُ عَمْرٍو، إذ جاء أبو جَنْدل بنُ سُهَيل بن عَمْرو يَرسُفُ في الحديد،... فلمّا رأى سُهَيلٌ أبا جَنْدلٍ قام إليه فضَربَ وجهَه، وأخَذ بتلبيبِه، ثمّ قال: يا محمّد، قد لَجَّت القضيّةُ بيني وبينَك قبلَ أن يأتيَك هذا، قال: صَدَقتَ، فجَعَل ينترُه بتلبيبه، ويَجُرُّه ليَرُدَّه إلى قُريشٍ، وجَعَل أبو جَنْدلٍ يصرُخُ بأعلى صوتِه: يا معشرَ المسلمين، أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك النّاسَ إلى ما بهم، فقال رسولُ الله ﷺ: يا أبا جَنْدلٍ، اصبِرْ واحتسِبْ، فإنّ اللهَ جاعلٌ لك ولمَن معَك من المستضعَفينَ فرجًا ومَخْرجًا، إنّا قد عَقَدنا بينَنا وبينَ القوم صُلحًا، وأعطَيْناهم على ذلك، وأعطَوْنا عهدَ الله، وإنّا لا نَغدِرُ بهم»(١)، ثم قام سيّدُنا أبو جَنْدلٍ رضي الله عنه مُحبَطًا وغادَرَ معَ والدِه، وتمَّت المعاهدةُ.

يقول سيّدُنا البراءُ بنُ عازبٍ رضي الله عنه: «صالَحَ النّبيُّ ﷺ المشركينَ يومَ

---

(١) سيرة ابن هشام، ٣: ٢٠٤.

الحُدَيْبِيَة على ثلاثةِ أشياءَ: على أنّ مَن أتاه من المشركينَ رَدَّه إليهم، ومَن أتاهم من المسلمينَ لم يَرُدُّوه، وعلى أن يَدخُلَها من قابلٍ ويُقيمَ بها ثلاثةَ أيّامٍ، ولا يُدخَلَها إلّا بِجُلُبّانِ[1] السّلاح: السّيفِ والقوسِ ونحوِه. فجاء أبو جَنْدلٍ يَحجِلُ في قيودِه فرَدَّه إليهم»[2].

يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ بنُ اليمَان رضي الله عنه: «ما مَنَعني أن أشهَدَ بدرًا إلّا أنّي خَرَجتُ (من مكةَ) أنا وأبي - حُسَيْلٌ - قال: فأخَذَنا كفّارُ قُريشٍ، قالوا: إنّكم تريدونَ محمّدًا؟ فقلنا: ما نريدُه، ما نريدُ إلّا المدينةَ. فأخَذوا منّا عهدَ الله وميثاقَه لَنَنصرِفَنَّ إلى المدينةِ ولا نُقاتلُ معَه، فأتَيْنا رسولَ الله ﷺ فأخبَرْناه الخبرَ، فقال: «انصرِفا، نَفِي لهم بعهدِهم ونستعينُ اللهَ عليهم»[3]، كما أنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا دِينَ لمن لا عهدَ له»[4].

كتابة النبي ﷺ بنفسه

يقولُ سيّدُنا البراءُ بنُ عازبٍ رضي الله عنه: اعتَمرَ النّبيُّ ﷺ في ذي القَعْدة، فأبَى أهلُ مكَّة أن يَدَعوه يَدخُلُ مكّةَ، حتّى قاضَاهم على أن يُقيمَ بها ثلاثةَ أيّامٍ، فلمّا كَتَبوا الكتابَ كتَبوا: «هذا ما قاضَى عليه محمّدٌ رسولُ الله» ﷺ. فقالوا: لا نُقِرُّ بها، فلو نَعلَمُ أنّك رسولُ الله ما مَنَعْناك، لكنْ أنت محمّدُ بنُ عبد الله. قال: «أنا رسولُ الله وأنا محمّدُ بنُ عبد الله». ثمّ قال لعليٍّ: «امْحُ رسولَ الله». قال: لا، والله لا أمحوك أبدًا، فأخَذ رسولُ الله ﷺ الكتابَ، فكتَب: «هذا ما قاضَى عليه

---

(١) بضم الجيم واللام وتشديد الموحدة، كالجراب من الأدم (الجلد) يوضع فيه السيف مغمودًا ويطرح فيه الراكب سوطه وأداته، يعلقه من آخرة الكور أو في واسطته. تاج العروس (جلب).

(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٧ برقم ٢٧٠٠.

(٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب ٣٥ برقم ١٧٨٧.

(٤) مسند أحمد، ٣: ١٣٥.

محمّدُ بنُ عبد الله»[١]، وفي رواية: «فمَحاهُ رسولُ الله ﷺ بيدِه»[٢].

شجرة البيعة

هي تلك الشَّجرةُ التي أخَذ الرَّحمةُ المُهداةُ النبيُّ ﷺ البيعةَ من أصحابِه تحتَها، وقد غَيَّبها اللهُ تعالى بعدَ ذلك لحِكمةٍ عندَه، فلمَّا مرَّ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه ثانيةً من المكانِ نفسه، حاوَلَ هو والصَّحابةُ الكرامُ الآخَرونَ البحثَ عن الشجرة، ولمّا زادَ الاختلافُ بينَ الناس حولَ مكانِها قال سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: هيا تَقدَّموا، فلقد غُيِّبت الشّجرةُ، ولكنْ لمّا عَلِم بعدَ ذلك أنّ بعضَ الناسِ اعتقَدوا في شجرةٍ أخرى أنها شجرةُ البَيْعة حينَئذٍ أمَرَ رضي الله عنه بقَطْع هذه الشجرة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعد صلاة المغرب من يوم الثلاثاء ١٥ يونيه ٢٠١٠م
الموافق ٣ رجبٍ المرجَّب ١٤٣١هـ.

* * *

(١) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٩.
(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٦ برقم ٢٦٩٨.

سُورَةُ الفَتْحِ (٤٨)،

مدنية (١١١)، آياتها (٢٩)، ركوعاتها (٤)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

١ ـ المرادُ بالفَتْحِ المُبين عندَ أكثرِ المفسِّرين هو: صُلحُ الحُدَيْبِيَة؛ لأنّ هذا الصُّلحَ كان إرهاصةً لفَتْحِ مكةَ بعدَ عامَيْن، ولهذا قال سيّدُنا أنسُ بن مالك في تفسيرِ هذه الآية:

إنّ المرادَ من الفَتْح هو: صُلح الحُدَيْبِيَة[١]، وقد رَوى سيِّدُنا موسى بنُ عُقبةُ رضي الله عنه، أنّ رجلًا قال عندَ مُنصرَفِهم من الحُدَيْبِيَة: ما هذا بفتحٍ، لقد صَدُّونا عن البيت. فقال النّبيُّ ﷺ: «بل هو أعظَمُ الفتوح»[٢]، ويقولُ سيِّدُنا مُجمِّعُ بن جارِيةَ الأنصاريُّ: شَهِدنا الحُدَيْبِيَة معَ رسول الله ﷺ، فلمّا انصَرَفْنا عنها، فوجَدْنا النّبيَّ ﷺ واقفًا على راحلتِه عندَ كُراع الغَميم، فلمّا اجتَمَع عليه النّاسُ قَرأَ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، أفتحٌ هو؟ قال: «نعم، والّذي نفسُ محمّدٍ بيدِه إنّه لَفتحٌ»[٣].

كان مشركو مكةَ منذُ تسعةَ عشَرَ عامًا مضَتْ يحاولونَ بكلِّ ما يستطيعونَ أن يقضُوا على المسلمينَ قضاءً تامًّا وبأيِّ صورةٍ من الصُّوَر، وكانت معاركُ بدرٍ وأُحُدٍ والخَندقِ مَظهرًا من مظاهرِ هذه المحاولات، لكنّ صُلحَ الحُدَيْبِيَة كان بمثابةِ الفتح العظيم، حيث طلَبَ المشركونَ فيه بأنفُسِهم الصُّلحَ، ووَقْفَ الحربِ لعشْرِ سنواتٍ قادمة، وسَمَحوا للمسلمينَ الذين لم يكونوا يريدونَ أن يرَوْهم أحياءً بأنْ يأتوا لأداءِ العُمرةِ في العام التالي.

وقد كان من برَكاتِ هذا الصُّلح أنِ التفَتَ المسلمونَ التفاتًا كاملًا نحوَ تبليغ الإسلام بلا خوف، فانتشَر الإسلامُ بسُرعةٍ كبيرة، بحيثُ أنه بعدَ أن كان عددُ الصَّحابةِ الكرام الذين كانوا معَ النبيِّ ﷺ في مناسبةِ صُلح الحُدَيْبِيَة في العام السادسِ للهجرة ألفًا وأربعَمائةِ صحابيًّا، ارتفَع عددُ الجيشِ الذي صاحَبَ النبيَّ ﷺ عندَ فتح مكةَ ـ بعدَ ذلك بعامَيْنِ فقطْ ـ عندما نَقَض المشركونَ العهدَ، فأصبح عشَرةَ آلافِ رجلٍ دَخلوا مكةَ، فاصابَ المشركينَ الرُّعبُ منهم بحيث لم يجرُؤوا على مواجهتِهم، وأصبحت السُّلطةُ في مكةَ للمسلمينَ منذُ ذلك التاريخ.

---

(١) «عن أنسٍ رضي الله عنه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية». البخاري، كتاب تفسير القرأن، سورة الفتح (٤٨): باب ١ برقم ٤٨٣٤.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ١.

(٣) أبو داود، كتاب الجهاد، باب ١٤٣ برقم ٢٧٣٦.

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

٢ ـ لقد أَنْعم اللهُ تعالى بهذا الفَتْح المُبين على سيّدِنا محمدٍ ﷺ لكي يَغفِرَ له ما تقدَّم ممّا قام به خلافَ الأَوْلى وما تأخَّر، وأنْ يُتمَّ عليه نعمةَ الإسلام، وأن يُثبِتَه على الصِّراطِ المستقيم إلى الأبد، وأن يَنصُرَه بذلك نصرًا مؤزَّرًا بحيث لا يستطيعُ الكفّارُ مضايقتَه بعدَ ذلك أبدًا، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فرَفْرفَت رايةُ الإسلام على شِبهِ الجزيرةِ العربيّة كلِّها بعدَ سنواتٍ قليلة.

الأنبياء الكرام عليهم السلام معصومون من الذنوب

ـ يقولُ العلّامةُ أحمد الصَّاوي: «والمقصودُ من هذا الأمرِ تعليمُ الأُمّة ذلك، وإلّا فرسولُ الله ﷺ معصومٌ من الذُّنوبِ جميعًا صغائرَ وكبائرَ، قبلَ النُّبوةِ وبعدَها، على التحقيق، كجميع الأنبياء»[١].

ـ ويقولُ العلّامةُ الرازي في تفسيرِ لفظِ ذَنْب: «المرادُ هو النبيُّ، والذَّنبُ هو: تَرْكُ الأفضلِ الذي هو بالنِّسبة إليه ذنبٌ، وحاشاه من ذلك»[٢].

ـ يقولُ المفتي أمجد عليّ: «الأنبياءُ معصومونَ قبلَ النُّبوّةِ وبعدَها من كلِّ كُفرٍ وشِرك، ومن كلِّ أمرٍ يَنفِرُ منه الخَلْقُ، كالكذبِ والخيانةِ والجَهْل وغيرِها من الصِّفاتِ الذَّميمة، وكذا من الأفعالِ التي تُنافي الوجاهةَ والمروءةَ، كما أنّهم معصومونَ مطلقًا من الكبائر، والحقُّ أنهم معصومونَ أيضًا منَ ارتكابِ الصغائر عمدًا قبلَ النُّبوّةِ وبعدَها كذلك»[٣].

---

(١) حاشية الصاوي، صفوة التفاسير، سورة غافر (٤٠): الآية ٥٠.
(٢) التفسير الكبير، سورة محمد (٤٧): الآية ١٩.
(٣) بهار شريعت (ربيع الشريعة)، ١: ١١.

وهنا يتبادَرُ إلى الذِّهن سؤالٌ مُفادُه: هل يمكنُ أن يرتكبَ الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلامُ أيضًا ذنبًا؟ عَلَّق على هذا الأمرِ شيخُ طريقتي سيّدُنا ضياءُ الأُمةِ رحمةُ الله عليه تعليقًا جامعًا أُقدِّمُ للقارئ الكريم خُلاصَته فيما يلي:

الأنبياءُ الكرامُ عليهمُ السَّلام معصومونَ من الصغائرِ والكبائرِ على السَّواء، والسببُ في ذلك أنّنا أُمِرْنا بطاعتِهم طاعةً مطلَقة، فلو كان يَجوزُ عليهمُ ارتكابُ الذَّنبِ لَكان لِزامًا علينا نحن أيضًا أن نُطيعَهم في ارتكابِ الذَّنبِ أيضًا، مما يَهدِمُ تمامًا نظامَ الهدايةِ من أولِه إلى آخِره، ويمكنُ أن تثارَ شُبهةٌ على ذلك بأنّ القرآنَ الكريمَ قد نَسَب إلى الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام في مواضعَ متعدِّدةٍ منه أشياءُ هي من الذُّنوب، ثم إنه وَرَد أنّ الأنبياءَ الكرامَ عليهمُ السَّلامُ قد نَدِموا كثيرًا على وقوع هذه الأشياءِ منهم واستغفَروا اللهَ عليها أيضًا، فكيف والحالُ هذه يمكنُ القول بعِصمتِهم مطلقًا؟ وينبغي أن نَضَعَ في أذهانِنا دائمًا شيئًا واحدًا للردِّ على هذه الشُّبهة وإزالتِها، وهو: أنّ أيَّ فعلٍ يصبحُ ذنبًا عندَما يوجَدُ فيه القَصْدُ إلى العِصيانِ والعَزْمُ عليه، فإذا فُقِد العَزْمُ والقَصْدُ، وصَدَر فعلٌ نسيانًا ودونَ إرادةٍ مما يبدو ظاهرًا مخالفًا لحُكم من الأحكام فلا يُعَدُّ هذا الفعلُ ذنبًا، ووقوعُ مثل هذه الأمور يتنافَى معَ عِصمةِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام، كما أنّ عصمةَ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ليّنةٌ رقيقةٌ كمَثَل العَيْن، تشعرُ معَها بالشَّعرةِ تُصيبُها كأنها جَبَلٌ[1]. يعني: أنهم يَنظُرونَ إلى النِّسيانِ البسيط والخطأِ في الاجتهادِ على أنه ذنبٌ عظيمٌ وَقَع منهم، ولا يكفُّونَ عن التوبةِ والاستغفارِ منه.

ولأنّ الأنبياءَ الكرامَ اعتَقدوا ـ بفَضْل تَقْواهم البالغة ـ أنّ الهفوةَ البسيطةَ منهم تُعَدُّ ذنبًا، لهذا استعمَل اللهُ تعالى أيضًا هذا اللَّفظَ «ذَنْب»، وهو يَذكُرُ الهفوةَ

(١) تفسير ضياء القرآن، سورة البقرة (٢): الآية ٣٦.

التي صَدَرت منهم، وإلّا فإنّ النبيَّ - في الحقيقة - لو أذنَبَ أو ظَلَم بنفسِه، كيف يمكنُ له أن يدعوَ الآخَرينَ إلى الحسَنةِ والسَّلام؟

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾

٣ - حَزِنت قلوبُ المسلمينَ بسببِ شروطِ صُلح الحُدَيْبِيَةِ وتألَّمتْ منها، ولكنّ اللهَ تعالى أَنْزَلَ السَّكِينةَ على قلوبِهم حين بَشَّرهم بالفتح المُبين لدى عودتِهم، يعني: لا تَقلَقوا بشأنِ هذا الصُّلح، فإنه سيكونُ مقدِّمةً لانتصارِ الإسلام، وهكذا اطمأنّت قلوبُ المسلمين، وتضاعَفتْ قوّةُ إيمانِهم.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾

٤ - جنودُ اللهِ تعالى في السماءِ والأرضِ لا حَصْرَ لهم، على سَبيل المثال: لو أراد اللهُ تعالى لَأرسَل جيشًا من الملائكةِ وأهلَكَ الكفّار، لكنّه مَنَح المسلمينَ - لحِكمةٍ عندَه - فرصةَ المشاركةِ في الجهادِ وأداءِ حقِّ عبوديّتِهم لله تعالى، وسوف يغفرُ اللهُ تعالى لهم ذنوبَهم لقاءَ هذا، ويُدخِلُهم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، وهذا هو الفَوْزُ العظيم.

يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: «أُنزِلت على النّبيّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة، فقال النّبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت علَيّ آيةٌ أَحبُّ إليَّ ممّا على الأرض، ثمّ قرأها النّبيُّ ﷺ عليهم، فقالوا: هنيئًا مَريئًا يا نبيَّ الله، قد بيَّن اللهُ لك ماذا يُفعَلُ بك فماذا يُفعَلُ بنا (أي: فأخْبِرنا ماذا سيُفعَلُ بنا)؟ فنزَلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتّى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾»[١]، يعني: أنّ اللهَ تعالى سيَغفرُ ذنوبَ المؤمنينَ والمؤمنات ويُدخِلُهم الجنةَ.

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، سورة الفتح (٤٨): باب ٤٨ برقم ٣٢٦٣.

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾

٥ ـ اصْطَحَب النبيُّ ﷺ ألفًا وأربعَمائةٍ من أصحابِه في السّنة السّادسة بعدَ الهجرةِ واتَّجه إلى مكةَ، وكان النبيُّ ﷺ لا يريدُ سوى أداءِ العُمرةِ فقطْ، ولهذا لم يحمِلوا معَهم أسلحتَهم، وإنّما بدَلًا من ذلك اصْطَحَبوا معَهم حيَواناتِ الأضاحي، فاعتقَد المنافقونَ أنّ المسلمينَ ذاهبونَ إلى عُقْرِ دارِ الأعداء بغيرِ أسلحة، وبالتالي لن يعودَ أحدٌ منهم حيًّا، وسيُهلِكُهم كفّارُ مكةَ، ولهذا اختَلقَ المنافقونَ الأعذارَ والحِيَل ولم يذهَبوا معَ المسلمين، وعلى الجانبِ الآخَر كان كفّارُ مكةَ يظُنُّونَ ـ خطأً ـ أنهم قد حَقَّقوا نجاحًا عظيمًا حين مَنَعوا المسلمينَ من أداءِ العُمرةِ وصالَحوهم على الشروطِ التي يريدونَها هم، وهكذا كأنّ الكفّارَ والمنافقينَ قد أساءوا الظنَّ باللهِ تعالى بأنه لم يَنصُرْ نبيَّه ﷺ، ولكنّ اللهَ تعالى عاقَبَ الكفّارَ والمنافقينَ على تآمُرِهم وسُوءِ ظنِّهم عقابًا كبيرًا بحيث استولَى المسلمونَ على مكةَ بعدَ عامَيْنِ فقطْ، وأصابَ المنافقينَ في المدينةِ الذُّلُّ والخِزيُ والعارُ لَمَّا رأَوا الإسلامَ ينتشرُ ويرتقي رُقِيًّا عظيمًا، وكان هذا عقابَهم في هذا الدنيا، وسيغضَبُ اللهُ تعالى عليهم في الآخِرة، ويَطرُدُهم من رحمتِه، ويُدخلُهم جهنَّمَ وبئس المصير.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

٦ ـ للتعرُّفِ على تفسيرِ هذه الآية راجع الحاشيةَ رقم ٤ أعلاه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾

٧ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقيل: شاهدًا عليهم بأعمالِهم من طاعةٍ أو معصيةٍ. وقيل: شاهدًا عليهم يومَ القيامة. فهو شاهدُ أفعالِهم اليومَ، والشَّهيدُ عليهم يومَ القيامة»[١].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٨.

وللتعرُّفِ على تفسيرٍ مفصَّل للفظِ ﴿شَـٰهِدًا﴾ راجع الحاشيةَ رقم **٥١** للآية رقم **٤٥** من سورة الأحزاب **(٣٣)**، وكذا الحاشيةُ رقم **٩٨** للآية رقم **١٤٣** من سُورة البقرة **(٢)**.

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾

٨ ـ أرسَـلَ اللهُ تعالى سيّـدَنا محمدًا ﷺ حتى تؤمـنوا بالله ورسولِه، وتُعينوا النبيَّ ﷺ في نَشْرِ الإسلام، وتعظِّموه، وتسبِّحوا اللهَ تعالى صباحًا ومساءً. وللتعرُّف تفصيلًا على تعظيم الرسُولِ راجع الحاشيةَ رقم **٨٣** للآية رقم **١٥٧** من سُورة الأعراف **(٧)**.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

٩ ـ أرسَلَ النبيُّ ﷺ سيّدَنا عثمانَ الغنيَّ رضي الله عنه إلى أهلِ مكةَ حتى يُطلِعَهم على واقع الحالِ بأنّنا لم نأتِ بغَرَضِ محاربتِكم، وإنّما جئنا لأداءِ العُمرةِ فقط، ولهذا جئْنا مُحرِمينَ، وليس معَنا أسلحةٌ، وإنّما حيَواناتُ الأضاحي، لكنّ أهلَ مكةَ قالوا: لقد أقسَمْنا ألّا نسمحَ للمسلمين بدخولِ مكةَ، فعودوا من فَوْرِكم، ثم يمكنُ أن نفكِّرَ في هذا الأمرِ العامَ القادم.

قال أهلُ مكّةَ لسيّدِنا عثمانَ بن عفّان رضي الله عنه: إنّنا لن نسمَحَ للمسلمينَ غيرَك بأن يضَعوا أقدامَهم في مكةَ، أو أن يَطُوفوا بالكعبة، إلّا أنك ضيفُنا، ويمكنُكَ الطَّوافُ، فقال سيّدُنا عثمانُ رضي الله عنه: لن أطوفَ بالكعبةِ الآنَ ما لم يَطُفْ بها حبيبي رسولُ الله ﷺ، وهكذا تتجَلّى محبةُ النبيِّ ﷺ وإجلالُه.

وعندَما أَوْقفَ أهلُ مكةَ سيّدَنا عثمانَ رضي الله عنه لديهِم بغَرَضِ استكمالِ المفاوضات، انتشَرت شائعاتٌ تقولُ بأنّ أهلَ مكةَ قَتَلوا سيّدَنا عثمانَ رضي اللهُ عنه،

وعليه أَمَر النبيُّ ﷺ أصحابَه رضي الله عنهم بأنّنا لن نتحرَّكَ من هنا ما لم نَثْأَرْ لمقتَلِ عثمانَ رضي الله عنه، ولهذا بايِعُوني على بَذْلِ الأنفس. وهكذا جَلَس النبيُّ ﷺ تحت شجرة، وأَقْبل عليه الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم كالفراشاتِ العاشقة يُبايِعُونَه، وقد عُرِفت هذه البَيْعةُ باسم «بَيْعةِ الرِّضوان»؛ لأنّ اللهَ تعالى بَشَّر في القرآنِ المجيدِ الذين بايَعوا النبيَّ ﷺ في هذه البَيْعة برضاهُ ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. ورُوِي عن سيِّدِنا جابرٍ رضيَ الله عنه هذا القولُ للنبيِّ ﷺ: «لا يَدخُل النّارَ إن شاء اللهُ تعالى من أصحابِ الشّجرةِ الذين بايَعُوا تحتَها أحدٌ»(١).

ولمّا بايَعَ الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم النبيَّ ﷺ وَضَع النبيُّ ﷺ يدَه اليُمنى على يدِه اليُسرى ودَعَا في الحضرةِ الإلهيَّةِ قائلًا: يا الله، هذه اليدُ من عثمان؛ لأنه ذَهَب من أَجْل تنفيذِ أمرِك وأمرِ رسولِك. ورَغْم أنّ النبيَّ ﷺ كان يَعلَمُ أنّ خبرَ مقتَل سيّدِنا عثمانَ رضي الله عنه لم يكنْ صحيحًا، لكنّ الحِكمةَ من أَخْذ البَيْعةِ كانت إدخالَ الرُّعبِ في قلوبِ كفّارِ مكةَ حين يَعرِفونَ بمشاعرِ المسلمينَ هذه، فيتخلَّوْنَ عن إرادةِ الحرب، وهذا هو ما حَدَث بالفعل، فما أنْ بَلَغ أهلَ مكةَ أمرُ هذه البَيْعة حتى طار صوابُهم، واختفَى صَلَفُهم وعنادُهم، وأرسَلوا سُهيلَ بن عَمْرٍو طالبينَ الصُّلحَ.

وقد أخبرَت هذه الآيةُ أنّ يدَ النبيِّ ﷺ كانت ـ في الظاهرِ ـ فوقَ أيدي الصّحابةِ الكرام رضي الله عنهم جميعًا، لكنّ اللهَ تعالى قال عنها: إنها يدُ الله تعالى، يعني:

---

(١) «فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف. فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول ﷺ. واحتبسته قريشٌ عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنّ عثمان قد قتل. قال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتّى نناجز القوم». ودعا رسول الله ﷺ النّاس إلى البيعة. فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة... عن جابر رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: لا يدخل النار إن شاء الله تعالى من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها أحد». تفسير ابن كثير، سورة الفتح (٤٨): الآية ١٠.

أنّ كلَّ مَن بايَعَ على يدِ النبيِّ ﷺ إنّما بايَعَ ـ في الحقيقة ـ على يدِ الله تعالى؛ لأنّ النبيَّ ﷺ أخذَ البيعةَ بأمرِ الله تعالى وبحُكمِه، وهذا يُشبِهُ ما قاله اللهُ تعالى في سُورةِ النِّساء: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾

١٠ ـ قال اللهُ تعالى عن بَيْعةِ النبيِّ ﷺ: إنّها بيعتُه هو، وفي نفسِ الوقت توَعَّدَ من يَنقُضُ هذه البَيْعةَ بأنه لن يستطيعَ الإفلاتَ من عقابِ ذلك، ومن يَلتزِمُ بهذه البَيْعةِ فإنّ اللهَ سيُعطيه أجرًا عظيمًا على ذلك.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ﴿١١﴾ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾ قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنٗاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٧﴾

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

١١ ـ دَعَا النبيُّ ﷺ المسلمينَ جميعًا في السَّنةِ السادسةِ للهجرةِ للذَّهابِ إلى مكةَ لأداءِ العُمرةِ معَه، ففكَّر المنافقونَ الذين كانوا يقيمونَ في القُرى المحيطةِ بالمدينةِ أنّ كفّارَ مكّةَ قد جاءوا من قَبلُ وهاجَموا المدينةَ، ولم يستطعْ هؤلاءِ مُواجهتَهم، وحَفَروا الخندقَ ونجَوْا بأنفُسِهم، والآنَ يذهبُ هؤلاءِ إلى المدينةِ بغيرِ أسلحة، وبالتالي لن يعودَ أحدٌ منهم حيًّا، ونحن لا نستطيعُ أن نُلقيَ بأنفُسِنا في التَّهلُكَةِ بالذَّهابِ معَهم، ولهذا لم يَذهبوا معَ النبيِّ ﷺ، والحقيقةُ أنّ الشيطانَ قد زيَّن لهم هذا الظنَّ في قلوبِهم، معَ أنه ظنٌّ في غايةِ السُّوء.

ولكنْ، بينَما كان النبيُّ ﷺ في طريقِ عودتِه من مكةَ سالمًا، أخبَرَه اللهُ تعالى على سَبيل المعجزةِ بأنك حين تَصِلُ إلى المدينةِ سيأتيك المنافقونَ القُرويُّونَ مختلِقينَ الأعذارَ بأنّهم لم يكنْ لديهم سَبيلٌ آخَرُ لحمايةِ أموالِهم وأهليهم، ولهذا لم يستطيعوا الذهابَ معَك، ولهذا أيضًا سيطلُبونَ منك أن تَدعوَ اللهَ لهم بالمغفرة، حتى يَغفرَ اللهُ لهم هذا التقصيرَ، وقد أَطْلع اللهُ تعالى نبيَّه الكريم ﷺ مسبَقًا أنّ هؤلاءِ إنّما يُظهِرونَ هذا بألسنَتِهم فقطْ، بينَما قلوبُهم مطمئنّةٌ بنفاقِهم؛ لأنّهم لم يذهَبوا إلى مكةَ خوفًا من الموت، ولهذا قلْ لهم يا رسولَ الله ﷺ: لو أنّ اللهَ تعالى أرادَ أن يضُرَّكم وأنتم جالسونَ في بيوتِكم، أو أن ينفَعكم حالَ كونِكم ذاهبينَ إلى الحُدَيْبيَة، لَما استطاعَ أحدٌ أن يمنَعَه من ذلك، ولهذا فإنّ قرارَكم بعَدَم الذهابِ معَ النبيِّ ﷺ لم يكنْ قرارًا صحيحًا، فقد حَرَمَكم قرارُكم هذا من سعادةٍ عظيمةٍ نالَها أولئك الذين شارَكوا في سَفَرِ الحُدَيْبيَة. على أيِّ حال، اللهُ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم نواياكم وتحرُّكاتِكم، وسوف يعاقبُكم طِبقًا لها.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

١٢ ـ في هذه الآية ترغيبٌ لأولئك الذين تخلَّفوا عن السَّفرِ إلى الحُدَيْبِيَة بأنْ يتوبوا، وبأنّهم لو تابوا الآنَ توبةً صادقةً، فإنّ اللهَ تعالى سيعفُو عن تقصيرِهم هذا؛ لأنه هو الغفورُ الرحيم.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾

١٣ ـ نَزَلتْ هذه السُّورةُ في طريقِ العودةِ من صُلح الحُدَيْبِيَة، وفيها أخبرَ اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ مسبَقًا أنك عندَما تصلُ إلى المدينةِ المنوَّرة سيأتيك المنافقونَ الذين لم يُشاركوا في سَفَر الحُدَيْبِيَة، وسيخْتَلِقونَ الأعذارَ الكاذبةَ، وسيطلُبونَ منك أن يشاركوا في جيشِ خَيْبَر طَمَعًا في الغنيمة، لكنّ اللهَ تعالى بَشَّر بأموالِ خَيْبَرَ المشاركينَ في صُلح الحُدَيْبِيَة، فقُلْ للمنافقين: إنّكم لا تستطيعونَ تبديلَ حُكم الله تعالى، وحُكمُه هو أنّكم لن تستطيعوا الذهابَ معَنا إلى خَيْبر، وسيقولُ المنافقونَ حينَذاك: إنّكم تحسُدونَنا، فقلْ لهم: ليس في الموضوع حسَدٌ، لكنّكم في الأصل لا تفهَمونَ الحقيقةَ، فلقد بَشَّر اللهُ تعالى أولئك الذين شارَكوا في سَفَرِ الحُدَيْبِيَة فقطْ بمالِ الغنيمة، ولهذا فإنّ المنافقينَ لا يُمكنُهم المشاركةُ في جيش خَيْبر.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾

١٤ ـ كان القُرَويُّونَ يتحرَّقونَ شوقًا للمشاركةِ في جيشِ خَيْبر، فقد كانوا يأمُلونَ في الحصولِ على أموالٍ كثيرةٍ من الغنائم، وقد قال النبيُّ ﷺ بأمرِ الله تعالى: اصبِروا قليلًا، فهذه ليستِ المعركةَ الأخيرةَ، ولا تزالُ هناك معاركُ أخرى كثيرةٌ

قادمة، وخاصّةً أنّكم ستُتاحُ لكم فرصةُ محاربةِ قومٍ محارِبينَ أشِدّاءَ، يستسلمونَ لكم في النِّهاية، فإذا أطَعتُم أميرَكم حينَذاكَ فإنّ اللهَ تعالى سيُعطيكم أجرًا عظيمًا، ولكنْ إن أعرَضتُم حينَذاكَ مثلَما فعلتُم في سَفَرِ الحُدَيْبِيَة، فإنّ اللهَ تعالى سيُعذِّبُكم في الآخرةِ عذابًا عظيمًا.

يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «وقال الزُّهْريُّ ومُقاتلٌ: بنو حنيفةَ أهلُ اليمامةِ أصحابُ مُسيلِمةَ. وقال رافعُ بن خَدِيجٍ: واللهِ، لقد كنّا نقرأُ هذه الآيةَ فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ فلا نَعلَمُ من هم، حتّى دعانا أبو بكرٍ إلى قتالِ بني حَنيفةَ فعَلِمنا أنّهم هم»(١).

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾

١٥ ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عبّاس رضي الله عنهما: «لمّا نزلت» ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسولَ الله؟ فنزَلت ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: لا إثمَ عليهم في التّخلُّفِ عن الجهادِ لعماهُم وزِمانتِهم وضَعْفِهم»(٢).

حقوق المعاقين

الشخصُ المُعاقُ يستحِقُّ الاهتمامَ أكثرَ من غيرِه من الأشخاصِ الطبيعيِّين، ومراعاةُ عزّةِ نفسِه وإعاقتِه مسئوليةُ كلِّ إنسان.

١ ـ كان سَعيدُ بن يَربوع صحابيًّا، وقد فقَدَ بصرَه، فقال له سيّدُنا عُمرُ بن الخطاب

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ١٦.

(٢) تفسير القرطبي.

رضي اللهُ عنه: لماذا لا تَحضُرُ في صلاةِ الجمُعة؟ فقال: ليس عندي مَن يَقُودُني في الطريق. فعيَّن له سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه رجلًا يبقَى معَه دائمًا(١).

٢ ـ ذاتَ مرّةٍ كان سيّدُنا عُمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه يُطعِمُ الناسَ، إذْ رأى شخصًا يأكُل بيدِه اليُسرى، فذَهَب إليه سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه قائلًا له أن يأكُلَ بيدِه اليمنى. فقال: لقد فَقَدتُ يديَ اليُمنى في غزوةِ مؤتة، فأثَّر ذلك في سيّدِنا عُمرَ رضيَ اللهُ عنه كثيرًا، فجَلَس بجانبِه وقال باكيًا: آهٍ، من يا تُرى يساعدُك على الوضوء، ومن يَغسِلُ رأسَك؟ ثم قرَّر له خادمًا، وهيّأَ له بنفسِه كلَّ احتياجاتِه(٢).

٣ ـ في عهدِ الخلافةِ الرّاشدةِ إذا كان هناك مسلمٌ مشلولٌ ضعيف، ولا يستطيعُ العملَ لكَسْبِ رزقِه، كانت تُجرَى عليه مِنحةٌ من بيتِ المال، وبنفسِ الطريقة إذا كان هناك ذِميٌّ مشلولٌ ضعيفٌ فإنْ كانت تُجرى عليه مِنحةٌ من بيتِ المال، مثلَما قال خالدُ بنُ الوليد في المعاهدة التي عاهَدَ عليها الذّميِّينَ في الحِيرة: «جَعَلتُ لهم أيُّما شيخ ضَعُف عن العمَل أو أصابَتْه آفةٌ من الآفاتِ أو كان غنيًّا فافتَقَر وصار أهلُ دِينِه يتصدَّقونَ عليه طَرَحتُ جِزيتَه وعِيلَ من بيتِ مالِ المسلمين»(٣).

٤ ـ ذاتَ مرةٍ «مرَّ عُمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه ببابِ قوم وعليه سائلٌ يَسأل: شيخٌ كبيرٌ ضَريرُ البصَر، فضَربَ عضُدَه من خلفِه وقال: من أيِّ أهل الكتابِ أنت؟ فقال: يهوديٌّ، قال: فما أَلْجَأَك إلى ما أرى؟ قال: أسألُ الجِزيةَ والحاجةَ والسِّنَّ، فأخَذ عمرُ بيدِه وذَهَب به إلى منزلِه فرَضَخ (أي: أعطاه شيئًا ليس بالكثير) له بشيءٍ من

---

(١) الفاروق، العلامة شبلي النعماني، ٣٣٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) كتاب الخراج، أبو يوسف، ١٥٧، والفاروق للعلامة شبلي النعماني، ٢٩٤.

المنزل، ثم أرسَلَ إلى خازِن بيتِ المال فقال: انظُرْ هذا وضُرَباءه، فوالله ما أنصَفْناهُ أن أكَلْنا شَبيبتَه ثم نَخذُلُه عندَ الهَرَم ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ والفقراءُ هم المسلمونَ، وهذا من المساكينِ من أهلِ الكتاب. ووَضَع عنه الجِزيةَ وعن ضُرَبائه»[1].

٥ ـ ذاتَ مرّةٍ خَرَج سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه في سَوادِ اللَّيل «فرَآهُ طلحةُ رضي اللهُ عنه، فذَهَب عُمرُ، فدَخَل بيتًا، ثم دَخَل بيتًا آخَرَ، فلمّا أصبح طلحةُ ذَهَب إلى ذلك البيتِ (أي: إلى البيتِ الذي ذَهَب إليه سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه ليلًا)، وإذا بعجوزٍ عمياءَ مُقعَدةٍ، فقال لها: ما بالُ هذا الرجُل يأتيكِ؟ فقالت: إنه يتعهَّدُني منذ كذا وكذا، يأتيني بما يُصلحُني، ويُخرجُ عني الأذى»[2].

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢٠﴾ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢١﴾ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذۡ

(١) كتاب الخراج، أبو يوسف، ١٣٩، والفاروق للعلامة شبلي النعماني، ٢٩٥.
(٢) سيرة عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ٦٤.

جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾

١٦ ـ تَقدَّم الحديثُ عن خَلْفيّةِ هذه البَيْعةِ في الحاشية رقم ٩، وفي هذه الآيةِ بيانٌ لعَظَمةِ المبايِعينَ في هذه البَيْعة، يعني: أنّ اللهَ تعالى رضي عنهم بفَضْل بَيْعتِهم هذه، وقد أَنْعم اللهُ تعالى بالسَّكِينة والطُّمَأْنينةِ على قلوبِ الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم جميعًا بفَضْل الصِّدقِ والإخلاصِ المتأصِّل في قلوبِهم برَغْم الظروفِ الصَّعبة، وأَنْعم عليهم سريعًا بفَتْح خَيْبرَ، حيث غَنِموا مغانمَ كثيرة.

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾

١٧ ـ وَعَدَكم اللهُ تعالى بمغانمَ كثيرةٍ، من بَيْـنِها غنائمُ خَيْبَر التي أَنْعم عليكم بها سريعًا، كما أنّ اللهَ تعالى قد أدخَلَ في قلوبِ كفّارِ مكةَ الرُّعبَ منكم في مناسبةِ صُلح الحُدَيْبِيَة بحيث لم يستطيعوا بعدَها أن يَرفَعوا أيديَهم عليكم، وفي هذا آيةٌ لسكينتِكم، يعني: أنّ اللهَ تعالى نَصَرَكم برَغْم قلةِ عددِكم، وثبَّتَكم على الصِّراطِ المستقيم.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

١٨ ـ أَنْعم اللهُ تعالى عليكم بفَتْح خَيْبرَ بعدَ صُلح الحُدَيْبِيَة مباشرةً، ثم أَنْعم عليكم بعدَ ذلك بفتوحاتٍ عديدةٍ مثلَ فَتْح مكةَ وفَتْح حُنَيْن وغيرِهما ممّا لم تكونوا قادرينَ بأنفسُكِم على تحقيقِه، لكنّ اللهَ تعالى يَسَّر لكم كلَّ هذه الفتوحاتِ لأنه القادرُ على كلِّ شيء.

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

١٩ ـ لو لم يَعقِدْ كفّارُ مكة الصُّلحَ معَكم في الحُدَيْبِيَة في العام السادس للهجرة، واختاروا أن يُحاربوكم، لَهُزِموا وفرُّوا من الميدان، ولَما استطاع أحدٌ أن يمُدَّ يدَ العونِ لهم.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

٢٠ ـ لا يستطيعُ أحدٌ أن يُبدِّلَ في سُنّةِ الله تعالى على الإطلاق، وسُنّتُه منذُ الأزَل هي أنه عندَما يتَواجَهُ المؤمنونَ معَ الباطل محقّقينَ كلَّ مقتَضَياتِ الإيمان، فإنّ اللهَ تعالى يَنصُرُهم، مثلَما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

٢١ ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: «إنّ ثمانينَ، هَبَطوا على رسولِ الله ﷺ وأصحابِه من جَبَل التّنعيم عندَ صلاةِ الصّبح وهم يريدونَ أن يقتُلوه، فأُخِذوا أَخْذًا، فأعتَقَهم رسولُ الله ﷺ، فأَنْزل الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآيَةَ»[1]، يعني: بَرْغم أنّ المسلمينَ قد أَسَرُوهم، لكنّ اللهَ تعالى أوقَفَ الفريقَيْنِ من أن يَهجُمَ أحدُهما على الآخَر؛ لأنّ الصُّلحَ في ذلك الوقتِ كان الأفضَلَ بالنِّسبةِ للمسلمين.

---

(١) الترمذي، تفسير القرآن، باب ٤٨ برقم ٣٢٦٤.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾

٢٢ ـ لقد مَنَعَك كفّارُ مكةَ من دخولِ المسجدِ الحرام والوصُولِ إلى مكانِ ذَبْح الأضاحي، وبناءً على تعنُّتِهم هذا كان يجبُ أنَ يأذَنَ اللهُ تعالى لكم بالهجوم عليهم، ولكنّ اللهَ تعالى لم يأذَنْ لكم بذلك لسبَبيْنِ:

السببُ الأول: أنه يوجَدُ في مكةَ بعضُ النِّساءِ المسلماتِ والرجالِ المسلمين الذين أخفَوْا إيمانَهم لكي لا يتعرَّضُوا للإيذاءِ من الكفّار، أو البعضُ الذين أَظْهَروا إيمانَهم لكنَّهم لم يستطيعوا الهجرةَ لعَجْزِهم عن ذلك، فإذا أَذِن لكم بالهجوم على الكفّارِ فقد يُستشهَدُ العديدُ من المسلمينَ معَ كفّارِ مكةَ دونَ قَصْدٍ منكم، وهو ما سوف تأسَفُونَ له كثيرًا من جانب، ومن جانبٍ آخَر سيكونُ مَطعنًا للكفّار عليكم بأنّكم ظالمون، إذْ قتلتُم إخوانَكمُ المسلمينَ معَ الكفّار.

والسببُ الثاني: هُو أنّ اللهَ تعالى قد أعطَى كفّارَ مكةَ فرصةً حتى يُعيدوا النَظَر في سلوكِهم، ويَدخُلوا في أحضانِ رحمةِ الإسلام، وهكذا يشهَدُ التاريخُ أنّ قائدًا حربيًّا عظيمًا مثلَ سيّدِنا خالدِ بن الوليدِ رضي الله عنه، وسياسيًّا عظيمًا مثلَ سيّدِنا عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنه، وآخرينَ من مشاهيرِ الناس، قد جاءوا إلى النبيِّ ﷺ وقَبِلوا الإسلام، وباختصار: فإنه لو لم يكنْ هناك خطرُ احتمالِ استشهادِ بعضِ المسلمينَ الضُّعَفاء، أو لم يكنْ هناك أملٌ في إيمانِ بعضِ الكفّار، وكانت مساكنُ الكفّارِ ومنازلُهم منفصِلةً عن مساكنِ المسلمينَ ومنازِلهم؛ لأَذِنَ اللهُ تعالى بالهجوم على الكفّارِ وابتلاهُم بالعذابِ الأليم.

مسألة التضحية في العمرة

التّضحيةُ في العُمرةِ ليست واجبةً، لكنّ النبيَّ الكريمَ ﷺ وصحابتَه الكرامَ رضيَ اللهُ عنهم جميعًا اصْطَحَبوا معَهم الجِمالَ للتضحيةِ بها نَفْلًا، ولِينالوا ثوابَ التطوُّع أيضًا، ولِيزدادَ يقينُ كفّارِ مكةَ على أنّ المسلمينَ لم يأتُوا بغَرَضِ الحرب، وإنّما جاءوا بقَصْدِ أداءِ العُمرةِ والتّضحيةِ في الحَرَم ليس إلّا.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

٢٣ ـ كان لكلِّ فردٍ في الجزيرةِ العربيّة الحقُّ في أن يَزُورَ بيتَ الله تعالى معتمِرًا أو حاجًّا، ولكنّ كفّارَ مكةَ حَرَموا المسلمينَ من هذا الحقِّ بدافع من تعصُّبِهم الجاهليِّ، ولم يَسمَحوا لهم بدخولِ مكةَ.

كما أنّ كفّارَ مكةَ قد صَالَحوا المسلمينَ على شروطٍ كانت ـ في ظاهرِها ـ مؤلمةً للمسلمين، ولكنّ المسلمينَ صَبَروا امتثالًا لحُكم نبيِّهم الحَبيب ﷺ، ولقاءَ هذا أَنْزلَ اللهُ تعالى سكينتَه على قلبِ نبيِّه الكريم ﷺ وعلى قلوبِ المسلمين، ومَنَحهم مزيدًا من القوةِ في كلمةِ التقوى، أي: التوحيد، ولم يَمنَحهم اللهُ تعالى هذا الشَّرفَ بلا سببٍ، وإنّما كانوا ـ بالفعل ـ يستحِقُّونَ هذا الشَّرفَ بفَضْل صِدقِهم وإخلاصِهم، وكانوا أحقَّ به من غيرِهم.

اللهُمَّ ارْضَ عن هذه النُّفوس القُدُسيّة، وارضَ ببرَكتِها عن المسلمينَ جميعًا أيضًا، فكم كانوا سُعداءَ الحظِّ إذْ رسَّخَ اللهُ تعالى في قلوبِهم التوحيدَ والسَّكِينة، ومن يُرسِّخُ اللهُ تعالى في قلوبِهم التوحيدَ والسَّكِينةَ لا تستطيعُ أيُّ قوةٍ في الدُّنيا

مهما كانت أن تُضِلَّهم، والذين يُسيئونَ الظنَّ بأمثالِ هذه النفوسِ القُدُسيّة يجبُ عليهم علاجُ إيمانِهم، فبأيِّ وجهٍ يلقَوْنَ اللهَ تعالى يومَ القيامة، وهو الذي أَحْكَم في قلوبِهم التوحيدَ والتقوى.

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾

٢٤ ـ يقولُ الإمامُ ابنُ كثير: «كان رسولُ الله ﷺ قد أُرِيَ في المنام أنّه دَخَل مكّةَ وطافَ بالبيت، فأخبرَ أصحابَه بذلك وهو بالمدينة، فلمّا سَاروا عامَ الحُدَيْبِيَة (في العام السادسِ للهجرة في ألفٍ وأربعِمائةٍ من الصَّحابة) لم يشُكَّ جماعةٌ منهم أنّ هذه الرُّؤيا تتفسَّرُ هذا العامَ، فلمّا وَقَع ما وَقَع من قضيَّةِ الصُّلح ورَجَعوا عامَهم ذلك على أن يَعُودوا من قابلٍ، وَقَع في نفوسِ بعضِ الصّحابةِ من ذلك شيءٌ (يعني: قد لا تتحقَّقُ رُؤيا النبيِّ ﷺ)، حتّى سَألَ عُمرُ بن الخطّاب، رضي الله عنه، في ذلك، فقال له فيما قال: أفلم تكنْ تُخبِرُنا أنّا سنأتي البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بلى، أفأخبرتُكَ أنّك تأتيهِ عامَك هذا؟» قال: لا، قال: «فإنّك آتيهِ ومُطوِّفٌ به». وبهذا أجاب الصّدِّيقَ، رضي الله عنه، أيضًا حَذْوَ القُذّةِ بالقُذَّة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَّقَدْ

صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾: [و] هذا لتحقيقِ الخبرِ وتوكيدِه»[١].

ورَغْم أنّ النبيَّ ﷺ قد أوضَحَ أنه لم يكنْ هناك تصريحٌ في الرُّؤيا أنّ العُمرةَ ستكونُ هذا العامَ، ومعَ ذلك أَنْزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ فزادَها وضوحًا بأنّ الرُّؤيا التي أراها اللهُ تعالى لنبيِّه الكريم ﷺ صادقةً تمامًا، وستَدخُلونَ المسجدَ الحرام إن شاء اللهُ يقينًا، وهكذا دَخَلوا مكةَ في العام الذي يَليه ـ أي: في العام السابع للهجرةِ ـ بكلِّ أمنٍ وأمانٍ واطمئنان، وأدَّوا العُمرةَ، وحَلَق البعضُ رءوسَهم، وقصَّر البعضُ، ويقالُ لهذه العُمرة في التاريخ: عُمرةُ القضاء.

﴿ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ ﴾

٢٥ ـ بعضُ شروطِ صُلح الحُدَيْبيَةِ لم تُعجِب المسلمينَ، وكانوا يريدونَ أن يهجُموا على أهلِ مكةَ في العام نفسِه ويؤدُّوا العُمرةَ، ولكنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ أنهم إنْ هَجَموا على مكةَ هذا العامَ فمنَ الممكنِ أن يُقتَلَ معَ الكفّارِ الضُّعفاءُ من المسلمينَ والمسلماتِ الذين أخفَوْا إسلامَهم خوفًا من أن يَبطِشَ بهم الكفّارُ دونَ قَصْدٍ أو علم.

كما أنّ اللهَ تعالى أراد أن يفتَح على المسلمينَ خَيْبرَ قبلَ أدائهمُ العُمرةَ، حتى تتحسَّن الحالةُ الماديّةُ للمسلمين، ويؤدُّوا العُمرةَ بكلِّ اطمئنان، وهكذا عندَما توقَّفت الحروبُ من طرفِ أهلِ مكةَ لبعضِ الوقت انتشَر الإسلامُ بسرعةٍ كبيرة بحيث أصبح تَعدادُ المسلمينَ الذين شاركوا في فَتْح مكةَ عشَرةَ آلافٍ بعدَ أن كان عددُ الذاهبينَ إلى مكةَ قبلَها بعامَيْنِ ألفًا وأربعَمائةٍ فقط.

---

(١) تفسير ابن كثير.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾

٢٦ ـ أرسَلَ اللهُ تعالى رسولَه الأخيرَ سيّدَنا محمدًا ﷺ بالهدايةِ الكاملة: القرآنِ المجيد، وبالحقِّ الكاملِ: دينِ الإسلام، حتى يَجعَلَ الإسلامَ غالبًا على الأديانِ كلِّها.

وقد ظَلَّ الإسلامُ غالبًا بالفعل على الأديانِ كلِّها في ميدانِ الدَّلائل والبراهين، ولهذا السَّببِ فإنّ أكثرَ الأديانِ انتشارًا بينَ غيرِ المسلمينَ في أيامِنا هذه هو الدِّينُ الإسلاميُّ، كما أنّ الإسلامَ ظلَّ غالبًا في ميدانِ الحياةِ الماديّةِ طالما ظلَّ المسلمونَ قائمينَ على العمَل به بشكلٍ كامل، وهكذا يشهَدُ التاريخُ أنّ الإسلامَ ظَلَّت له الغَلَبةُ الماديّةُ في عهدِ الخلافةِ الراشدة وفي القرونِ الوسطى، وحينَ قَصَّر المسلمونَ في العمَل بالإسلام كان من الطبيعيِّ أن يغشاهمُ الزَّوالُ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

٢٧ ـ أَثبَت اللهُ تعالى رسالةَ النبيِّ ﷺ وأكَّد نُبوَّتَه عن طريقِ المعجِزات، ومعَ ذلك إنْ لم يؤمنْ كفّارُ مكةَ فلن يُحدِث ذلك فرقًا، فإنّ شهادةَ اللهِ تعالى على صِدقِ النبيِّ ﷺ كافيةٌ تمامًا.

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾

٢٨ ـ قرأتُ في ثنايا التعريفِ بهذه السُّورةِ أنّ كفّارَ مكةَ قدِ اعترَضُوا على كتابة «رسول الله» معَ اسم النبيِّ ﷺ في صُلح الحُدَيْبِيَة؛ لأنّهم لا يؤمنونَ به ﷺ

نبيًّا لله تعالى، وفي هذه الآيةِ كَتَب اللهُ تعالى لفظَ «محمّدٌ رسول الله» مُخبِرًا أنه لا فرقَ يَحدُثُ من عَدَم كتابةِ «رسول الله» معَ اسمِك في وثيقةِ صُلح الحُدَيْبيَة؛ لأنّ اللهَ تعالى أَنْزل هذه الألفاظَ في القرآنِ الكريم مقترِنةً باسمِك، وهو ما سيظَلُّ يُقرَأُ حتى يوم القيامة، وسيظَلُّ يشهدُ بنُبوّتِك خمسَ مراتٍ في اليومِ الواحد في الأذان.

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾

٢٩ ـ في هذه الآيةِ بيانٌ لفَضْل أصحابِ النبيِّ الكرام رضي الله عنهم وأوصافِهم، وأولُ أوصافِهم هذه هو: أنّهم أشِدّاءُ على الكفّار، يعني: كانوا إذا حارَبوا الكفّارَ حارَبُوهم بكلِّ شدّةٍ وثَباتٍ كأنّهم الصَّخرُ، وثَبَتوا على دينِهم راسخينَ فلا تستطيعُ قوةٌ في العالَم كلِّه أن تَثْنِيَهم عنه أو تُبعِدَهم منه، وليس معنى هذا أبدًا أنّهم كانوا قُسَاةٌ لا رحمةَ في قلوبِهم، وأنهم كانوا يُعامِلونَ الكفّارَ بظُلمٍ وتجبُّرٍ.

العدل والإنصاف مع غير المسلمين

الإسلامُ دينُ العدلِ والإنصاف، ولا يسمَحُ لأحدٍ من المسلمينَ بأن يرتكبَ الظُّلمَ معَ أحدٍ حتى ولو كان في ميدانِ الحرب، وإنّما يسمَحُ فقطْ بمحاربةِ ذلك الكافرِ الذي حَمَل السلاحَ وخَرَج لمحاربتِهم، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، يعني: إذا وَصَل الأمرُ إلى مرحلةِ الحربِ فارفَعوا سيوفَكم على الذين يشاركونَ في الحربِ ضدَّكم فقط، وما عدا ذلك فليس مسموحًا لكم بقَتْل النِّساءِ والأطفالِ والشيوخ والرُّهبان، وأنْ لا تُمثِّلوا بجُثَثِ القتلى، بل ولا تُلحِقوا ضَرَرًا بالحيَواناتِ ولا الحقولِ الخَضْراءِ ولا الأشجارِ المثمِرة بدونِ ضرورةٍ مُلحّةٍ[1]، يعني: أثناءَ

---

(١) «إنّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه بعث جيوشًا إلى الشّام، وقال: لاتقتلنّ امرأةً، ولا =

الحربِ والقتال، حيث يَصعُبُ السَّيطرةُ على العواطفِ والانفعالات، ونارُ الانتقام تتأجَّج، في هذه الظروفِ أيضًا أَلْزمَ الإسلامُ المجاهدينَ بقواعدِ وضوابطِ العدلِ والإنصاف، حتى لا يُظلَمَ أحدٌ أو يُجارَ عليه؛ لأنّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الظالمين.

فهل يوجَدُ في عالَمِنا المتطوّرِ هذه الأيامَ شعبٌ التزَمَ بقانونِ العدلِ والإنصافِ في حالةِ الحربِ مثلَما فَعَل المسلمون؟ في أيامِنا هذه ما إن تنشَبُ الحربُ حتى تُدَكَّ المُدُنُ والقُرى كاملةً بالقنابل، ولا يُستثنَى أحدٌ من المواطنينَ المسالمينَ العُزَّلِ ولا النِّساءِ والأطفالِ الصِّغار أو كبارِ السّنّ، بل ويتمُّ قصفُ المستشفياتِ ودُورِ العبادة ودُورِ العِلم وتحويلُها إلى أنقاضٍ، ولم يَنَلْ غيرُ الإسلام شرفَ عَدَمِ السَّماح لأحدٍ من أتباعِه بظُلمِ بريءٍ حتى في ميدانِ الحرب.

حسن السلوك مع غير المسلمين

ـ قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]، وفي هذه الآياتِ إشارةٌ إلى حقيقةٍ بَدَهيّةٍ، يعني: أنه لا يوجَدُ شعبٌ يسمَحُ لأحدِ أفرادِه بأنْ يعقِدَ صَداقاتٍ معَ أعدائه؛ لأنّ هناك احتمالًا قويًا بأنْ تتسرَّبَ أسرارُ البلادِ القوميّةُ إلى العدوِّ عن طريق هذه الصَّداقات، ولهذا يقالُ لمن يرتكبُ هذا: خائنٌ، ويعاقَبُ بما يستحِقُّ، لكنّ الشَّعبَ الذي لا يُعادي المسلمينَ لا يَمنَعُ اللهُ تعالى من مصادقتِهم.

ـ جاء في بعضِ الرِّواياتِ الإسرائيليّة «أنّ إبراهيمَ كان لا يأكلُ وحدَه، فإذا

= صبيًّا، ولا كبيرًا هرمًا، (ولا تمثلوا)، ولا تقطعنّ شجرًا مثمرًا، ولا تخرّبنّ عامرًا، ولا تعقرنّ شاةً، ولا بعيرًا الّا لمأكلةٍ». الموطأ للإمام مالك، كتاب الجهاد، باب ٣.

حَضَر طعامُه أرسَلَ يطلُبُ من يأكلُ معَه، فلقَي يومًا رجلًا، فلمّا جَلَس معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سمِّ اللهَ، قال الرّجلُ: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ، فقال له: يقولُ الله: إنّه يَرزُقُه على كُفرِه مدى عُمُرِه وأنت بَخِلتَ عليه بلُقمةٍ، فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يجُرُّ رداءه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجِعُ حتّى تُخبرَني لمَ ترُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبَرَه بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمَنتُ، ودَخَل وسَمَّى اللهَ وأكَل مؤمنًا»[١].

ـ رُويَ عن سيِّدِنا أبي هريرةَ رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «أوحَى اللهُ إلى إبراهيم: يا خليلي، حسِّنْ خُلُقَك، ولو معَ الكافِرِ، تَدخُلْ مدخَلَ الأبرار، فإنّ كلمتي سَبَقَت لمَن حَسَّن خُلُقَه أنْ أُظِلَّه تحتَ عرشي، وأن أَسقيَه من حظيرةِ قُدُسي، وأن أُدنيَه من جِواري»[٢].

ـ عن مجاهدٍ: أنّ عبدَ الله بنَ عَمْرٍو رضي اللهُ عنه ذُبحت له شاةٌ في أهلِه، فلمّا جاء قال: أهدَيتُم لجارِنا اليهوديّ؟ أهديتُم لجارِنا اليهوديّ؟ سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما زال جِبريلُ يوصيني بالجارِ حتّى ظننتُ أنّه سيُورِّثُه»[٣].

وتبادُلُ الهدايا معَ الجيرانِ من الطُّرقِ التي تساعدُ في الاحتفاظِ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ معَهم، ولكنْ ينبغي للطَّرفَيْنِ عندَ تبادُلِ الهدايا أن يحترمَ كلٌّ منهم المشاعرَ الدِّينيةَ لدى الآخَر، وألّا يُقدِّمَ له في إهدائه شيئًا غيرَ محبَّبٍ في دينِه.

ـ تقولُ السيّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنهما: قَدِمَتْ عليَّ

---

(١) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

(٢) المعجم الأوسط، الإمام الطبراني، ٧: ٢٦١ برقم ٦٥٠٢، والترغيب والترهيب، ٣: ٤٠٧، الترغيب في الخلق الحسن.

(٣) الترمذي، أبواب البر، باب ٢٨ برقم ١٩٤٣.

أُمّي وهي مشرِكةٌ في عهدِ رسولِ الله ﷺ، فاستفتَيْتُ رسولَ الله ﷺ، قلت: إنّ أُمّي قَدِمَتْ وهي راغبةٌ، أفَأَصِلُ أُمّي؟ قال: «نعم، صِلي أُمَّك»(١).

التراحم

كان الصَّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم يتَراحمونَ فيما بينَهم ويتعاطفُ بعضُهم مع بعض، وكانوا يتوادُّونَ معَ بعضِهم حتى في حـالِ كونـهم أشِدّاءَ على الـكفّارِ أيضًا، ولم تكنْ محاربةُ بعضِ الصحابةِ معَ البعضِ الآخَرِ بسببِ رغَباتِ نَفْسانيّة، وإنّما كان مبعَثُها الاختلافَ في الرأي.

ويعتقدُ أهلُ السُّنّةِ والجماعةِ أنّ الصَّحابةَ الكرامَ جميعًا رضيَ اللهُ عنهم عُدولٌ ونجومُ هداية، وإجلالُهم وتعظيمُهم واجبٌ، فإذا كان اللهُ تعالى قد عَفَا عنهم، فمن يكونُ له الحقُّ إذًا في أن يتطاولَ عليهم بلسانِه، إذ إن اختلافاتِهم وقتالَهم فيما بينَهم كان مبنيًّا على الأمورِ الاجتهاديّة، كما أنّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، ولا يمكنُ أن تكونَ لأحدٍ حَسناتٌ مثلَما كان للصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم، ولهذا لا يستحِقُّ أحدٌ نفسَ القَدْرِ من العفوِ والسَّماح الذي استحَقَّه الصّحابةُ الكرامُ رضي الله عنهم، وينبغي لنا بدلًا من توجيهِ النَّقدِ لهم أن نَطلُبَ العفوَ من الله على أخطائنا نحن. يا الله، أكرِمْنا ببركةِ مجاهدي الإسلام السُّعداءِ هؤلاء، واعفُ عنّا يا كريم، آمين.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو موسى رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «المؤمنُ للمؤمن كالبُنْيان، يشُدُّ بعضُه بعضًا»، ثمّ شَبَّك بينَ أصابعِه(٢).

---

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣ برقم ٢٦٢٠.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣٦ برقم ٦٠٢٦.

ـ يقولُ سيّدُنا النُّعمانُ بنُ بَشِير رضي الله عنه: إن النبيَّ ﷺ قال: «مَثَلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم مَثَلُ الجسدِ إذا اشتكَى منه عضوٌ تَداعَى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهرِ والحُمّى»[1].

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾

٣١ ـ كان الصَّحابةُ الكرامُ رضيَ اللهُ عنهم يُحِبُّونَ عبادةَ الله تعالى إلى درجةِ أنهم كانوا لا يُرَوْنَ إلا راكعينَ أو ساجدين، وكان الهدفُ من هذه العبادة كلِّها هو نَيْلُ رضا الله تعالى وفضلِه.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾

٣٢ ـ كانت آثارُ سجودِ الصَّحابة الكرام رضي الله عنهم وآثارُ قيامِهم اللَّيلَ واضحةً على وجوهِهم، مثلَما يقولُ سيّدُنا جابرٌ رضي الله عنه من أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن كثُرتْ صلاتُه باللّيل حَسُن وجهُه بالنّهار»[2].

وليس المرادَ منه تلك العلَامةُ السَّوداءُ التي تبدو على جِباهِ بعضِ المصَلِّين بسببِ سجودِهم على شيءٍ صُلبٍ؛ لأنّ هذه العلامةَ السَّوداءَ لا تَظهَرُ على جباهِ سُودِ البشَرة من الناس، وإنّما المرادُ منه نورُ التقوى والشَّرفُ والتعاطفُ الإنسانيُّ والأخلاقُ الطيِّبة، والذي يَظهَرُ على وجوهِ الصّالحين، إذ إنّ وجهَ الإنسانِ مثلُ غلافِ كتابٍ مفصَّلٍ ما أن تراهُ حتى تستطيعَ التعرُّفَ على ما بداخلِه، مثلَما قال النبيُّ ﷺ فيما رَواه سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما، من أنّ رجلًا سَألَ النبيَّ ﷺ: يا رسولَ الله، مَن أولياءُ الله؟ قال: «الذين إذا رُؤوا ذُكِر اللهُ عزَّ وجَلّ»[3]،

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٧ برقم ٦٥٨٦.

(٢) ابن ماجه، إقامة الصلوات، باب ١٧٤ برقم ١٣٣٣.

(٣) ابن أبي حاتم، برقم ١٠٤٥٥.

يعني: أنّ آثارَ التوحيدِ غالبةٌ على أشكالِهم وصُوَرِهم وكلامِهم وأفعالِهم، وظاهرةٌ فيها، بحيث يتجدَّدُ ذِكرُ الله تعالى في عقلِ وضميرِ مَن يراهم.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾

٣٣ ـ الأوصافُ التي أورَدَتْها هذه الآيةُ من القرآنِ الكريم للصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم ذُكِرت كلُّها من قبلُ في التَّوراةِ والإنجيل.

﴿كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾

٣٤ ـ مَثَلُ الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم كمَثَلِ حَقْل يَنبُتُ فيه بدايةً بُرعُمٌ صغير، ثم يقوَى هذا البُرعُمُ بعدَ ذلك تدريجيًّا حتى يصبحَ نباتًا مكتملًا يانعًا، فيَسعَدَ به الزُّرّاعُ، لكنّ أعداءَ هؤلاءِ الزُّرّاع يحترقونَ غيظًا وحَسَدًا، وبنفسِ الطريقة كان النبيُّ ﷺ في البدايةِ وحدَه الذي دعا إلى الإسلام، ثم بعدَ ذلك أَسْلم الناسُ واحدٌ تِلوَ الآخَر تدريجيًّا، إلى أن أصبحَ المسلمونَ قوةً مستحكِمةً، وقد سَعِدَ النبيُّ ﷺ برؤيةِ هذه الكثرةِ من المسلمينَ وقوّتِـهم، لكنّ الكفّارَ كانوا يحترقونَ غَيْظًا وحَسَدًا.

ويُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ النبيَّ ﷺ كان سعيدًا برؤيةِ إخلاصِ الصَّحابةِ الكرام رضي الله عنهم وتَقْواهم، لكنّ الكفّارَ كانوا يغتاظُونَ حسَدًا وبُغضًا برؤيةِ نجاحاتِهم التي يحقّقونَها، واليومَ أيضًا يَسعَدُ المسلمونَ بسَماع الإنجازاتِ العظيمة لأولئك النفوسِ القُدُسيّة، لكنّ الذين في قلوبِهم بُغضٌ وحَسَدٌ وعنادٌ لهم، عليهم قراءةُ الأحاديثِ النّبويّةِ الرائعةِ التالية بتمعُّنٍ وتدبُّر، وينبغي لهم أن يُطهِّروا قلوبَهم فيما يتعلَّقُ بهذه النُّفوسِ القُدُسية:

تعريف الصحابي

الصَّحابيُّ يقالُ للإنسانِ سعيدِ الحظِّ: الذي شَرُفَ بصُحبةِ نبيٍّ آخِرِ الزّمان ﷺ أو زيارتِه وهو على الإيمان، ثم استقامَ على إسلامِه وثَبَت عليه، وماتَ وهو على الإيمانِ أيضًا.

فضل سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه

أفضَلُ بني الإنسانِ ـ بعدَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلامُ، في نظرِ أهلِ الإسلام: هو سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه، وإليك بعضَ الإحالاتِ في هذا الإطار:

١ ـ جَعَل الإمامُ البخاريُّ عُنوانَ البابِ الرابع من كتابِ فضائلِ الأصحابِ في «صحيحه» هو «بابُ فَضْل أبي بكرٍ رضي الله عنه بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلَّم»، وفيه ينقُلُ هذه الرِّوايةَ: عن ابنِ عُمر ـ رضي اللهُ عنهما ـ قال: كنّا نُخَيّرُ بينَ النّاس في زَمَن النّبيِّ ﷺ فنُخَيّرُ أبا بكرٍ، ثمّ عُمرَ بنَ الخطّاب، ثمّ عثمانَ بنَ عفّان رضيَ اللهُ عنهم[1].

ويقولُ العلّامةُ بدرُ الدِّين عَيْني في شَرْح هذا الحديث: «وعلى هذا أهلُ السُّنّةِ والجماعة»[2].

وقد نَقَل الإمامُ ابنُ حَجَر العَسْقلانيُّ قولَ الإمام الشافعيِّ رحمةُ الله عليه: «أجمَعَ الصحابةُ وأَتْباعُهم على أفضَليّةِ أبي بكرٍ، ثم عُمرَ، ثم عثمانَ، ثم عليٍّ رضي اللهُ عنهم أجمَعين»[3].

---

(١) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٤.

(٢) عمدة القاري، ١٦: ١٧٧.

(٣) فتح الباري، ٧: ١٧.

٢ ـ عن عبدِ الله بن سَلَمة، قال: سَمِعتُ عليًّا، يقولُ: خيرُ النّاسِ بعدَ رسولِ الله ﷺ: أبو بكرٍ، وخيرُ النّاسِ بعدَ أبي بكرٍ: عُمر»[1].

٣ ـ عن محمّدٍ ابن الحَنَفيّة (يعني: محمدَ بنَ عليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه)، قال: قلتُ لأبي: أيُّ النّاس خيرٌ بعدَ رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكرٍ. قال: قلتُ: ثمّ مَن؟ قال: ثمّ عُمر. قال: ثمّ خَشِيتُ أنْ أقولَ: ثمّ من؟ فيقولَ: عثمان، فقلتُ: ثمّ أنت يا أبةِ؟ قال: ما أنا إلّا رجلٌ من المسلمين[2].

٤ ـ قال سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: كنّا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حيٌّ: أفضَلُ أُمّةِ النّبيّ ﷺ بعدَه: أبو بكرٍ ثمّ عُمرُ ثمّ عثمانُ رضي الله عنهم أجمعين[3].

٥ ـ نَقَل الطَّبرانيُّ الحديثَ السابقَ معَ بعضِ الإضافة في نهايتِه كالتالي: «كنا نقولُ ورسولُ الله ﷺ حَيٌّ: أفضَلُ هذه الأُمةِ [بعدَ نبيِّها]: أبو بكرٍ وعُمرُ وعثمانُ رضي الله عنهم أجمعين، ويَسمَع ذلك النبيُّ ﷺ ولا يُنكرُه»[4].

٦ ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي الله عنه: رآني رسولُ الله ﷺ أمشي أمامَ أبي بكر، فقال: «يا أبا الدَّرداء، أتمشي أمامَ مَن هو أفضَلُ منك في الدُّنيا والآخِرة؟ فوالذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، ما طَلَعتِ الشّمسُ ولا غَرَبت على أحدٍ بعدَ النّبيِّينَ والمرسَلينَ أفضَلَ من أبي بكرٍ»[5].

٧ ـ تقولُ السيّدةُ عائشةُ رضي الله عنها: [قال لي رسولُ الله ﷺ في مرضِه]:

---

(١) ابن ماجه، المقدمة برقم ١٠٦.

(٢) أبو داود، كتاب السنة، باب ٨ برقم ٤٦٢٩.

(٣) أبو داود، كتاب السنة، باب ٨ برقم ٤٦٢٨.

(٤) المعجم الكبير، الطبراني، ١٢: ٢٨٥ برقم ١٣١٣٢.

(٥) السيرة الحلبية، ٢: ٥٦.

«ادعي لي أبا بكرٍ أباكِ، وأخاكِ، حتّى أكتُبَ (لهما) كتابًا، فإنّي أخافُ أن يتمنَّى مُتَمَنٍّ ويقولَ قائلٌ: أنا أَوْلى (أي: بالخلافة) ويأبَى اللهُ والمؤمنونَ إلّا أبا بكرٍ»[١].

٨ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «أتاني جِبريلُ فأخَذَ بيدي فأراني بابَ الجنّة الّذي تَدخُل منه أُمّتي». فقال أبو بكرٍ: يا رسولَ الله، وَدِدتُ أنّي كنتُ معَك حتّى أنظُرَ إليه (أي: إلى وجهِك الكريم). فقال رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنّك يا أبا بكرٍ أوّلُ مَن يَدخُلُ الجنّةَ من أُمّتي»[٢].

فضائل الخلفاء الراشدين

ومن بينِ التفاسيرِ الواردة لهذه الآية: أنّ المرادَ بالذين معَ النبيِّ ﷺ في هذه الآية: سيّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه، وأنّ المرادَ بالأشِدّاءِ على الكفّار: سيّدُنا عُمرُ بن الخَطّاب رضي الله عنه، وأن المرادَ برُحَماءَ بينَهم: سيّدُنا عثمانُ بنُ عفّانَ رضي الله عنه، وأنّ المرادَ بالرُّكَّع السُّجودِ: سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه، وأنّ المرادَ بالذين يبتَغُونَ فضلًا من الله ورضوانًا: الصَّحابةُ الكرامُ الباقونَ رضي اللهُ عنهم جميعًا[٣].

فضائل الصحابة الكرام رضي الله عنهم

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبد الله: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا تمَسُّ النّارُ مسلمًا رآني أو رأى مَن رآني»[٤].

---

(١) مسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب ١ برقم ٦١٨١.

(٢) أبو داود: كتاب السنة: باب ٨ برقم ٤٦٥٢.

(٣) «وذكر بعضهم في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني أبا بكر الصديق ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: عمر بن الخطاب، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ عثمان بن عفان ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ علي بن أبي طالب ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ بقية الصحابة». تفسير الخازن.

(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٦ برقم ٣٨٥٨.

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا رأيتُم الّذين يَسُبُّونَ أصحابي فقولوا: لعنةُ الله على شرِّكم»[١].

- يقولُ سيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنه: إن النبيَّ ﷺ قال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنّ أحَدكم أنْفقَ مِثلَ أحُدٍ ذهبًا ما بَلَغَ مُدَّ أحدهِم ولا نَصِيفَه»[٢].

- يَروي سيّدُنا عبدُ الله بنُ بُرَيْدةَ رضي الله عنه، عن والدِه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِن أحدٍ من أصحابي يموتُ بأرضٍ إلّا بُعِث قائدًا ونورًا لهم يومَ القيامة»[٣].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مغفَّل رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تتَّخِذوهم غَرَضًا بعدي، فمَن أحبَّهم فبُحبِّي أحَبَّهم، ومن أبغَضَهم فببُغضي أبغَضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى اللهَ فيوشكُ أن يأخُذَه»[٤].

- يقولُ سيّدُنا الحُسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «الإسلامُ عُريانٌ، فلباسُه الحياءُ وزينتُه الوفاءُ ومُروءتُه العمَلُ الصّالحُ وعمادُه الوَرَع؛ ولكلِّ شيءٍ أساسٌ، وأساسُ الإسلام حُبُّ أصحابِ رسولِ الله ﷺ وحُبُّ أهلِ بيتِه»[٥].

- يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بن عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «...وإنّ بني إسرائيلَ تفَرّقَتْ على ثِنتَيْنِ وسبعينَ ملّةً، وتفترقُ أُمّتي على ثلاثٍ وسبعينَ

---

(١) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٩ برقم ٣٨٦٦.
(٢) البخاري، فضائل الأصحاب، باب ٥ برقم ٣٦٧٣.
(٣) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٥.
(٤) الترمذي، أبواب المناقب، باب ٥٨ برقم ٣٨٦٢.
(٥) كنز العمال، ١١: ٥٣٩ برقم ٣٢٥٢٣.

ملّةً كلُّهم في النّارِ إلّا ملّةً واحدةً»، قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي»[١].

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «عن (المحدِّثِ المشهور) عُمرَ بن حَبيبٍ، قال: حضَرتُ مجلسَ هارونَ الرّشيد فجَرَتْ مسألةٌ تنازَعَها الحضورُ وعَلَت أصواتُهم، فاحتَجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويهِ أبو هريرةَ عن رسولِ الله ﷺ، فرَفعَ بعضُهم الحديثَ وزادت المُدافَعةُ والخِصام حتّى قال قائلونَ منهم: لا يُقبَلُ هذا الحديثُ على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرةَ متَّهمٌ فيما يَرويه، وصَرَّحوا بتكذيبِه، ورأيتُ الرّشيدَ قد نَحا نحوَهم ونَصَر قولَهم، فقلتُ أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقْل صَدُوقٌ فيما يَرويه عن النّبيِّ ﷺ وغيرِه، فنَظَر إليّ الرّشيدُ نَظَرَ مغضَبٍ، وقُمتُ من المجلسِ فانصَرفتُ إلى منزلي، فلم ألبَثْ حتّى قيل: صاحبُ البريدِ بالباب، فدَخَل فقال لي: أجِبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتولٍ، وتحنَّطْ وتكفَّنْ! فقلتُ: اللّهُمّ إنّك تَعلَمُ أنّي دَفَعتُ عن صاحبِ نبيِّك، وأَجْللتُ نبيَّك أن يُطعَنَ على أصحابِه، فسلِّمْني منه. فأُدخِلتُ على الرّشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهبٍ، حاسِرٌ عن ذراعَيْه، بيدِه السّيفُ وبينَ يدَيْه النِّطْعُ، فلمّا بَصُر بي قال لي: يا عُمرُ بنَ حَبيبٍ، ما تلقّاني أحَدٌ [من الرّدِّ والدَّفع] لقولي بمِثل [ما تلقَّيتَني به، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنّ الّذي قلتُه وجادَلتُ عنه فيه ازدراءٌ على رسولِ الله ﷺ] وعلى ما جاء به [إذا كان أصحابُه كذّابين فالشّريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصّيام والصّلاةِ والطّلاق والنّكاح والحدودِ كلُّه مردودٌ غيرُ مقبولٍ، فرَجَع إلى نفسِه ثمّ قال: أحيَيْتَني يا عُمرُ بنَ حبيبٍ أحياك الله! وأمَرَ لي بعشَرةِ آلاف درهم»[٢].

---

(١) الترمذي، أبواب الإيمان، باب ١٨ برقم ٢٦٤١.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.

- يروي عُوَيْمُ بن ساعدةَ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجلّ اختارَني واختارَ لي أصحابي، فجَعَل لي منهم وُزراءَ وأَخْتانًا وأصهارًا، فمَن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكةِ والنّاس أجمعين، ولا يَقبَلُ اللهُ منه يومَ القيامة صَرْفًا ولا عدلًا»[1].

- يقولُ العلّامةُ القرطبيُّ: «فالصّحابةُ كلُّهم عُدولٌ، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرتُه من خَلْقِه بعدَ أنبيائه ورسُلِه. هذا مذهبُ أهلِ السّنّة»[2].

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظهر من يوم الأحد ١١ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ٢٩ رجبٍ المرجَّب ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتمَل تفسيرُ سُورة الفتح بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في ستة وعشرينَ يومًا فقط، أي: من ١٥ يونيه إلى ١١ يوليو، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) تفسير القرطبي، سورة الفتح (٤٨): الآية ٢٩.
(٢) المرجع السابق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٤٩) سُورَةُ الحُجُرَاتِ

هذه السُّورةُ مدَنيّة، واسمُها: «الحُجُراتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الرابعةِ منها.

مضامين السورة

ـ جاء في بدايةِ هذه السُّورة تعليمُ آدابِ الحضرةِ النَّبويّةِ للصّحابةِ الكرام رضي الله عنهم، فبيَّنت طريقةَ الحضورِ عندَ النبيِّ ﷺ وأسلوبَ الحديثِ معه.

ـ المؤمنونَ إخوةٌ، فإذا تحارَبوا فأَصْلِحوا بينَهم، وإنْ لم يمكن الصُّلحُ فلا تَقِفوا موقفَ المتفرِّج منهم، وإنّما سانِدوا مَن كان على الحقِّ منهم.

ـ ينبغي للمؤمنينَ تجنُّبُ سُوءِ الظنِّ والغِيبة، كما لا ينبغي أن يَسْخَرَ أحدُهم من الآخَر؛ لأنّ من الممكنِ جدًّا أن يكونَ من تَسخَرُ منه أفضَلَ عندَ الله منك.

ـ الناسُ جميعًا أبناءُ أبٍ واحدٍ وأُمٍّ واحدة، وأفضَلُهم عندَ الله تعالى أكثرُهم تقوى لله وخوفًا منه.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ إشراق يوم الأربعاء ١٤ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ٢ شعبان ١٤٣١هـ.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ (٤٩)،

مدنية (١٠٦)، آياتها (١٨)، ركوعاتها (٢)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

١ ـ جاء في الآياتِ الأُولى من هذه السُّورةِ تعليمٌ للتأدُّبِ معَ رسولِ الله ﷺ

واحترامِه، يعني: إن أردتُم أن تُعرِضوا أمرًا في الحضرةِ النَّبويّة فلا ينبغي أن تَستبِقوا الحُكمَ فيه، وإنّما عليكم انتظارُ حُكم النبيِّ ﷺ، وعندَما يُصدِرُ النبيُّ ﷺ حُكمَه، تسابَقوا عندَئذٍ في طاعتِه، وألقوا بأهوائكم جانبًا.

كان هذا الحُكم في حياةِ النبيِّ ﷺ الظاهريّة، أمّا الآنَ فإنّ صُورتَه هي أنه إذا عَرَضتْ لنا مسألةٌ من المسائلِ ينبغي أن نبحثَ عن حَلِّها في القرآنِ والسُّنةِ النَّبويّة أولًا، فإنْ لم نَجِدْه فيهما علينا أن نُعمِلَ عقولَنا لحلِّها في ضوءِ القرآنِ والسُّنة، مثلَما قال النبيُّ ﷺ لسيّدِنا معاذِ بن جَبَل رضي اللهُ عنه عندَما أراد أن يُرسلَه إلى اليمنِ حاكمًا عليها: «كيف تقضي إذا عَرَض لك قضاءٌ؟». قال: أقضي بكتاب الله. قال: «فإنْ لم تَجدْ في كتابِ الله»، قال: فبسُنّةِ رسول الله ﷺ. قال: «فإن لم تَجِدْ في سُنّةِ رسُول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟»، قال: أجتهدُ رأيي (يعني: الاجتهادَ) ولا آلُو. فضَربَ رسولُ الله ﷺ صَدره وقال: «الحمدُ لله الذي وَفَّق رسولَ رسولِ الله لِما يُرضي رسولَ الله»[١].

ويقولُ العلّامةُ محمد عليّ الصّابونيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «إذا عَرَضتْ مسألةٌ في مجلسِه ﷺ لا يسبِقونَه بالجواب، وإذا حَضَر الطعامُ لا يبتدئونَ بالأكل، وإذا ذَهَبوا معَه إلى مكانٍ لا يمشُونَ أمامَه»[٢].

احترام العلماء والمشايخ

يجبُ احترامُ العلماءِ الكرام والمشايخ العِظام بنفسِ الطريقةِ أيضًا؛ لأنّهم ورَثةُ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السّلام، مثلَما قال سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: رآني رسولُ الله أمشي أمامَ أبي بكرٍ، فقال: «يا أبا الدَّرداء، أتمشي أمامَ من هو أفضَلُ منك

(١) أبو داود، كتاب القضاء، باب ١١ برقم ٣٥٩٢.
(٢) صفوة التفاسير.

في الدُّنيا والآخِرة؟ فو الذي نفسُ محمّدٍ بيدِه، ما طَلَعتِ الشّمسُ ولا غَرَبت على أحدٍ بعدَ النّبيِّينَ والمرسَلينَ أفضَلَ من أبي بكرٍ»(١).

احترام الوالدين

كما ينبغي احترامُ الوالدَيْنِ بنفسِ الطريقةِ أيضًا، مثلَما وَرَد مِن أنّ أبا هريرةَ رضي اللهُ عنه أبصَر رجُلَيْنِ، فقال لأحدِهما: ما هذا منك؟ فقال: أبي، فقال: لا تُسَمِّهِ باسمِه ولا تمشِ أمامَه ولا تجلسْ قبلَه(٢).

ويُحكَى أنّ «رجُلًا جاء إلى الأستاذِ أبي إسحاقَ، فقال: رأيتُ البارحةَ في المنام أنّ لحيتَك مُرصَّعةٌ بالجواهرِ واليواقيت، فقال: صَدَقتَ، فإنّي البارحةَ مسَحتُ لحيتي تحتَ قَدَم والدتي قبلَ أن نِمتُ، فهذا من ذاك. ويباشرُ ابنُ إسحاقَ خِدمتَها بيدِه ولا يفوِّضُها إلى غيرِه؛ لأنه ليس بعارٍ للرجُل أن يَخدِمَ معلِّمَه وأبوَيْه وسُلطانَه وضيفَه ولا يؤمَّه للصّلاةِ وإن كان أفقَه منه أي: أعلمَ بالفقهِ من الأبِ ولا يمشيَ أمامَهما إلّا أن يكونَ لإماطةِ الأذى عن الطريقِ، ولا يتصدَّرَ عليهما في المجلس، ولا يسبِقَ عليهما في شيءٍ أي: في الأكل والشُّربِ والجلوسِ والكلام وغيرِ ذلك»(٣).

وقال النبيُّ الكريمُ ﷺ فيما رُوي عن والدِ عبدِ العزيز: «تُعرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميسِ على الله، وتُعرَضُ على الأنبياءِ وعلى الآباءِ والأُمّهاتِ يومَ الجمُعة، فيفرَحونَ بحسَناتِهم وتزدادُ وجوهُهم بياضًا وإشراقًا، فاتَّقوا اللهَ ولا تؤْذوا موتاكم (بارتكابِ الذُّنوب)»(٤).

---

(١) السيرة الحلبية، ٢: ٥٦.
(٢) الإمام البخاري، الأدب المفرد، ٢٢.
(٣) تفسير روح البيان، سورة الإسراء (١٧): الآية ٢٣.
(٤) كنز العمال، ١٦: ٤٦٩ برقم ٤٥٤٩٣.

احترام الأستاذ

الأستاذُ أيضًا مِثلُ الأبِ يستحِقُّ الاحترامَ باعتبارِ أنه يُعلِّمُ الإنسانَ العِلمَ، مثلَما يقولُ سيِّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّما أنا لكم بمنزلةِ الوالدِ أُعلِّمُكم»(١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

٢ ـ اتَّقوا اللهَ تعالى وخافوهُ في كلِّ وقت؛ لأنه يسمعُ كلَّ ما تقولونَ، كما أنه يَعلَمُ نواياكم أيضًا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾

٣ ـ هنا تنبيهٌ لأهلِ الإيمانِ بأنّكم عندَما تتحدَّثونَ فيما بينَكم في وجودِ النبيِّ ﷺ فلا ينبغي أن يرتفعَ صوتُكم فوقَ صوتِ النبيِّ ﷺ، وإذا تحدَّثتُم إلى النبيِّ ﷺ فلا تتحدَّثوا معَه بصوتٍ مرتفع مثلَما يتحدَّثُ بعضُكم مع بعضٍ، كما أنه لا ينبغي أن تُنادوا على رسولِ الله ﷺ باسمِه قائلينَ: يا محمد، مثلَما يُنادي بعضُكم بعضًا باسمِه، وإنّما خاطِبوهُ بأحسنِ الألقاب وبكلِّ أدبٍ واحترام قائلينَ على سَبيل المثال: يا رسولَ الله؛ لأنكم إن لم تُراعوا الأدبَ والاحترامَ في الحضرةِ النَّبويّة فسوف تَضيعُ كلُّ حسناتِكم وتَحبَطُ دونَ أن تشعُروا بسببِ هذه الإساءةِ في الأدب.

ولمزيدٍ من التفصيل عن تعظيم النبيِّ ﷺ وإجلالِه راجع الحاشيةَ رقم ٨٣ للآية رقم ١٥٧ من سُورة الأعراف (٧)، والتي جاء فيها الحديثُ عن تعظيم النبيِّ ﷺ تحتَ العناوينِ التالية، يعني: تعظيمَ النبيِّ ﷺ في ضوءِ القرآنِ الكريم، وتعظيمَ

---

(١) أبو داود، كتاب الطهارة، باب ٤ برقم ٨.

النبيِّ ﷺ في ضوءِ الأحاديثِ النَّبويّةِ الشّريفة، وسلوكَ الصَّحابةِ الكرام وأهلِ البيت الأطهارِ رضي الله عنهم فيما يتعلَّقُ بتعظيم النبيِّ ﷺ، وتعظيمَ النبيِّ ﷺ بعدَ انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى، وتعظيمَ أحاديثِ النبيِّ ﷺ الشّريفة، وكذا تعظيمُ آثارِ النبيِّ ﷺ ومتبرَّكاتِه.

إساءة الأدب مع النبي ﷺ

إنّ إساءةَ الأدبِ معَ النبيِّ ﷺ ذنبٌ عظيمٌ، بحيث يمكنُ أن تَضيعَ بسببِه الحَسناتُ الخالصةُ لشخصيّاتٍ مقدَّسة مِثلَ الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم، فما بالُك بمقصِّرينَ ومُذنِبينَ مثلَنا إن أساءوا الأدبَ معَ رسولِ الله ﷺ، ماذا يا ترى يكونُ مصيرُ حَسناتِهم؟ يقولُ الإمامُ أبو يوسُفَ: «وأيُّما رجُل مسلم سَبَّ رسولَ الله صلى الله عليه وآلِه وسلَّم أو كذَّبه أو عابَه أو تنقَّصَه فقد كَفَر بالله»[1].

الفرق بين ذنب إساءة الأدب مع النبي ﷺ وباقي الذنوب

الفرقُ بينَ تارِكِ الصّلاة ومُسيءِ الأدبِ معَ رسولِ الله ﷺ أنّ تاركَ الصّلاةِ يَعلَمُ ذنبَه، ومنَ الممكنِ أن يتوبَ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، لكنّ مسيءَ الأدبِ معَ رسولِ الله ﷺ لا يَعلَمُ ذنبَه أصلًا، فكيف سيتوبُ من هذا الذَّنبِ إذًا؟ ولهذا يجبُ الاحتياطُ قدرَ المستطاع فيما يتعلَّقُ بذاتِ النبيِّ ﷺ وعظَمتِه. يا إلهي، وفِّقْنا إلى التأدُّبِ معَ نبيِّك الحبيبِ ﷺ واحترامِه، واحفَظْنا من إساءةِ الأدبِ معَه وجنِّبْنا إياها. آمين.

الحديث بصوت مرتفع عند الضرورة ليس ممنوعًا

إنّ الحديثَ في حضرةِ النبيِّ ﷺ بصوتٍ مرتفع بما يؤْذي قلبَ النبيِّ ﷺ

---

(١) كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ١٩٩.

إساءةٌ للأدب، لكنّ الحديثَ بصوتٍ مرتفع بما يُسعِدُ النبيَّ ﷺ ليس ممنوعًا، مثلَ أن يؤذِّنَ أحدٌ بصوتٍ مرتفع في وجودِ النبيِّ ﷺ، أو أن يُناديَ على المجاهدينَ في ميدانِ الحربِ بصوتٍ مرتفع، أو أن يقرَأَ سيِّدُنا حسّانُ بنُ ثابت رضي اللهُ عنه مدحًا في النبيِّ ﷺ بصوتٍ مرتفع، أو ترديدِ السيّداتِ والرجالِ والأطفالِ ذكورًا وإناثًا بصوتٍ مرتفع قولَ: اللهُ أكبر، جاء رسولُ الله ﷺ، وطَلَع البدرُ علينا، وغيرِها في مناسبةِ تشريفِه ﷺ المدينةَ بالقدوم إليها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾

٤ ـ أمَرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمانِ أن يُعظِّموا النبيَّ ﷺ، وإلّا ستَضيعُ أعمالُهم الصّالحة، وكانت النفوسُ القُدُسيّةُ، أي: الصَّحابةُ الكـرامُ رضي الله عنـهم، يبذُلونَ قُصارى جُهدِهم في تنفيذِ هذا الحُكم من الله تعالى بتعظيم النبيِّ ﷺ بكلِّ الطُّرُق رَغْم كلِّ ما كانوا يواجهونَه من مصائبَ وآلام، فكانوا يخفِضُونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله ﷺ، وبفَضْل تنفيذِهم لحُكم الله تعالى وتعظيمِهم للنبيِّ ﷺ، جَعَل اللهُ تعالى قلوبَهم خالصةً للتقوى بحيثُ لا يمكنُ أن يَدخُلَها شيءٌ مخالفٌ للتَّقوى، وقد عفَا اللهُ تعالى عن أخطائهم الماضية بفَضْل وبرَكةِ هذه التقوى، وبشَّرهم بالأَجْرِ العظيم مستقبَلًا، واليومَ أيضًا من يُعظِّمُ هذه النفوسَ القُدُسيّةَ، وكذا الآثارَ المقدَّسةَ، يكونُ ذلك علامةً على تقواه، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾

٥ ـ كانت حياةُ النبيِّ ﷺ مشغولةً إلى أقصى درجة، فقد كانت دروسُ تعليم

الكتابِ والحِكمة في المسجدِ متواصلةً جَنْبًا إلى جنبٍ معَ إقامةِ الصَّلوات، أمّا في البيتِ فقد كان ﷺ يخصِّصُ وقتًا لآلِ بيتِه جَنْبًا إلى جنبٍ معَ الانشغالِ بالعبادة، وبالإضافةِ إلى كلِّ هذا، كان نزولُ الوحي عليه ﷺ مستمرًّا، ولم يكنْ يتيسَّرُ للنبيِّ ﷺ وقتٌ يستريحُ فيه سوى جزءٍ من اللَّيل ووقتِ القَيْلولةِ في الظَّهيرة، ولهذا كان الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم كثيرًا ما يحضُرونَ عندَه ﷺ في هذا الوقتِ حين يكونُ في المسجد، فإذا كان ﷺ في البيتِ فإنّ الصَّحابةَ الكرامَ رضي الله عنهم كانوا ينتظرونَ قدومَه ﷺ إلى المسجد.

ذاتَ مرّةٍ جاء بعضُ البَدْوِ من قبيلةِ بني تميم وقتَ القَيْلولة، ووَقَفوا خارجَ مقرِّ النُّبوةِ ينادُونَ: يا محمد، اخرُجْ إلينا. وعندَئذٍ نَزَلتْ هذه الآية. يعني: أنّ هؤلاءِ كانوا جَهَلةً وحمقَى، ولم يستوعِبوا انشغالاتِ النبيِّ ﷺ، ولو أنّهم صَبَروا وانتظَروا قليلًا لخَرجَ النبيُّ ﷺ إليهم بنفسِه، ولَكان هذا خيرًا لهم، ولأنّ هؤلاءِ البَدْوَ كانوا يجهَلونَ آدابَ التعامُل معَ النبيِّ ﷺ، فقد أحسَن اللهُ إليهم ونَصَحَهم، ولكنّه لم يعاقِبْهم على ما فَعَلوا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾

٦ ـ مَن هو المرادُ بالفاسقِ في هذه الآية؟ ذَكَر المفسِّرونَ في هذا الخصُوص سيّدَنا الوليدَ بنَ عُقبةَ رضي الله عنه، لكنّ الإمامَ الرازي نفَى هذا نفيًا مطلَقًا. يقولُ: «بل نقولُ: هو نَزَل عامًّا لبيانِ التثبُّتِ وتَرْكِ الاعتماد على قولِ الفاسق»[1]، على سَبيل المثال: لو أنّ فاسقًا شَكَا إليك أُناسًا، ووَثِـقتَ أنت في قولِه وهَجَمتَ عليهم، ثم اتَّضح بعدَ ذلك أنّ هذا الفاسقَ أخبَرَك بخبرٍ غيرِ صحيح، فتخيَّلْ أنت كم يكونُ

---

(١) التفسير الكبير، سورة الحجرات (٤٩)، الآية ٦.

نَدَمُك على تعجُّلِك، لهذ ينبغي أن تتحقَّقَ جيِّدًا من أيِّ خبرٍ يُخبِرُك به فاسقٌ قبلَ أن تَثِقَ فيما يقولُ، حتى لا تندَمَ فيما بعدُ.

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾

٧ ـ هنا إخبارٌ للصَّحابةِ الكرام رضيَ اللهُ عنهم أنّكم ـ في بعضِ الأحيان ـ يغلِبُ عليكم الانفعالُ فتقولونَ كلامًا تكونُ عاقبتُه ليست جيِّدةً لكم، ولو أطاع النبيُّ ﷺ ما تقولونَ لَوقعتُم في مشاكلَ كثيرةٍ، ومن حُسنِ طالعِكم أنّ النبيَّ ﷺ موجودٌ بينَكم بنفسِه، وهو يَعلَمُ مصالحَكم أكثرَ من غيرِه، ولهذا إنْ عَمِلتُم على تعظيمِه وطاعتِه كان الفوزُ والفلاحُ من نصيبِكم دائمًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾

٨ ـ أيُّها الصَّحابةُ الكرامُ رضوانُ الله عليهم، إنّ فضلَ الله تعالى عليكم وكرَمَه عظيم، فقد وَضَع في قلوبكم محبّةَ الإيمانِ وكراهيَةَ الفِسق والكُفرِ بسببِ إخلاصِكم، وهذا دليلٌ كافٍ على أنّكم مهتَدون.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

٩ ـ يا أيُّها المؤمنون، لو أنّ طائفتَيْنِ منكم تحارَبا فيما بينَهما فأَصْلِحوا بينَهما، ولوِ اعتَدتْ إحداهما على الأُخرى وبَغَتْ عليها، وأصرَّتْ على ذلك ولم ترغَبْ في الصُّلح، عندَئذٍ عليكم أن تُحاربوا هذه الطائفةَ الظالمةَ مجتمعينَ إلى أن

تَرجِعَ إلى حُكم الله تعالى وتتوبَ من ظُلمِها، فإنْ تابَتِ الطائفةُ الظالمةُ من ظُلمِها ورَجَعت عن سلوكِها الظالم فأصلِحُوا بينَ الطائفتَيْنِ من جديد، وعليكم في هذا مراعاةُ مقتَضَياتِ العدلِ والإنصافِ حتى لا يَقَع ظلمٌ على طائفةٍ منهما؛ لأنّ الله تعالى يحبُّ المنصفين.

قتال الصحابة الكرام رضي الله عنهم فيما بينهم

ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «لا يجوزُ أن يُنسَبَ إلى أحدٍ من الصّحابةِ خطأٌ مقطوعٌ به، إذْ كانوا كلُّهم اجتَهَدوا فيما فَعَلوه وأرادوا اللهَ عزّ وجلّ، وهم كلُّهم لنا أئمّةٌ، وقد تَعبَّدنا بالكفِّ عمّا شَجَر بينَهم، وألّا نَذكُرَهم إلّا بأحسنِ الذِّكر، لحُرمةِ الصُّحبة ولنَهْي النّبيِّ ﷺ عن سبِّهم، وأنّ اللهَ غَفَر لهم، وأخبَر بالرّضا عنهم»[1].

ـ يقولُ العلّامةُ ابنُ فُورِك: «ومن أصحابِنا من قال: إنّ سَبيلَ ما جَرَى بينَ الصّحابة من المنازَعاتِ كسَبيل ما جَرى بينَ إخوةِ يوسُفَ معَ يوسُف، ثمّ إنّهم لم يَخرُجوا بذلك عن حدِّ الولاية والنُّبوّة، فكذلك الأمرُ فيما جَرى بينَ الصَّحابة»[2].

ـ سُئل سيّدُنا الحَسَنُ البصريُّ رضي اللهُ عنه عن قتالِ الصَّحابةِ الكرام رضي اللهُ عنهم فيما بينَهم، فقال: «قتالٌ شَهِده أصحابُ محمّدٍ ﷺ وغِبْنا، وعَلِموا وجَهِلنا، واجتَمَعوا فاتَّبَعنا، واختَلَفوا فوقَفْنا»[3].

ـ يقولُ العلّامة المُحاسَبيُّ: «فنحنُ نقولُ كما قال الحَسَن، ونَعلَمُ أنّ القومَ كانوا

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

أعلمَ بما دَخَلوا فيه منّا، ونتّبعُ ما اجتَمَعوا عليه، ونقفُ عندَ ما اختَلَفوا فيه، ولا نَبتدعُ رأيًا منّا، ونَعلَمُ أنّهم اجتَهدوا وأرادوا اللهَ عزَّ وجلّ، إذْ كانوا غيرَ متَّهمِينَ في الدِّين»[١].

ـ يقولُ سيِّدُنا أبو بكرٍ الصدِّيقُ رضي الله عنه: رأيتُ رسولَ الله ﷺ على المِنبَر والحَسَنُ بنُ عليٍّ إلى جَنْبِه، وهو يُقبِلُ على النّاسِ مرّةً وعليه أُخرى ويقول: «إنّ ابني هذا سيّدٌ، ولعلَّ اللهَ أن يُصلحَ به بينَ فئتَيْنِ عظيمتَيْنِ من المسلمين»[٢]، وقد ثَبَت صحّةُ نبوءةِ النبيِّ ﷺ هذه، وفي هذه النُّبوءة قرَّر النبيُّ ﷺ أنّ فريقَ سيّدِنا الأمير معاويةَ وسيّدِنا الإمام الحَسَن رضي اللهُ عنهما كلَيْهما مسلمون.

ـ سُئلَ بعضُ العلماءِ عن هذه الدِّماء التي سَالتْ في قتالِ الصحابة رضي الله عنهم فيما بينَهم، فتلا هذه الآيةَ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]، بينَما أجاب البعضُ قائلًا: وقد سُئل بعضُهم عن الدّماءِ الّتي أُريقَتْ فيما بينَهم، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وسُئل بعضُهم عنها أيضًا، فقال: تلك دماءٌ طهَّر اللهُ منها يدي، فلا أُخضِّبُ بها لساني[٣].

ـ سُئل سيّدُنا عليٌّ رضي الله عنهُ ـ وهو القُدوةُ ـ عن قتالِ أهل البَغْي من أهلِ الجَمَل وصِفِّين: أمُشرِكونَ هم؟قال: لا، من الشِّرك فَرُّوا. فقيل: أمنافقونَ؟ قال: لا، لأنّ المنافقينَ لا يَذكُرونَ اللهَ إلّا قليلًا (لكنّ ألسِنةَ أولئك الناسِ كانت دائمًا رَطْبَةَ بالذِّكرِ الإلهيِّ). قيل له: فما حالُهم؟ قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا[٤].

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ٩.

(٢) البخاري، كتاب الصلح، باب ٩ برقم ٢٧٠٤.

(٣) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ٩.

(٤) المرجع السابق.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

١٠ ـ المسلمونَ إخوةٌ فيما بينَهم، ولو حَدَث اختلافٌ بينَ مسلمينَ فعليكم أن تُصلِحوا بينَ أخوَيْكم المسلمين، فهذا في ذاتِه حسَنةٌ عظيمة.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ألا أُخبِرُكم بأفضلَ من درجةِ الصّيام والصّلاةِ والصَّدَقة؟». قالوا: بلى. قال: «صَلاحُ ذاتِ البَيْن، فإنّ فسادَ ذاتِ البَيْن هي الحالِقة». قال أبو عيسى: هذا حديثٌ صحيحٌ. ويُروى عن النّبيِّ ﷺ أنّه قال: «هي الحالقةُ، لا أقولُ: تَحلِقُ الشَّعر، ولكنْ تَحلِقُ الدِّينَ»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومن فَرَّج عن مسلمٍ كُربةً فرّج اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يوم القيامة، ومَن سَتَر مسلمًا سَتَره اللهُ يومَ القيامة»[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ

(١) الترمذي، صفة القيامة، باب ٥٦ برقم ٢٥٠٩.

(٢) البخاري، كتاب المظالم، باب ٣ برقم ٢٤٤٢.

يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ﴾

١١ ـ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ جاء المَنْعُ من العواملِ والأسبابِ التي تكونُ سببًا في الفسادِ والاقتتال، وأولُ شيءٍ مُنِع منه في هذا الخصُوص هو أن يَسخَر أهلُ الإيمانِ رجالًا ونساءً من بعضِهم، إذا إنّ من الواضح أنّ الإنسانَ الذي يَسخَرُ من إنسانٍ آخَرَ يعتبِرُه حقيرًا وأقلَّ منه درجةً، معَ أنه لا أحدَ يدري، فقد يكونُ هذا الذي تَسخَرُ منه أفضَلَ منك، ولهذا ينبغي ألا يَسخَرَ مسلمٌ ـ رجلًا كان أو امرأةً ـ من مسلم آخَر.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾

١٢ ـ لا يَجوزُ لمسلم أن يَعيبَ أخاه المسلمَ، أو أن يُطلقَ عليه ألقابًا سيئةً، وبنفسِ الطريقة لا تَجوزُ مُعايَرةُ مسلم حديثِ الإسلام بماضيه في الكُفرِ والفِسْق، أو أن يقالَ له: كافرٌ وفاسق، فهذا أمرٌ في غايةِ السُّوء، وإذا كانت هذه الصِّفاتُ أو الأفعالُ السيِّئةُ موجودةً بالفعل في مسلمٍ، فعليه أن يتوبَ على الفَوْرِ من هذه الأفعال، وإلا سيُعَدُّ من الظالمين.

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أيّما امرِئٍ قال لأخيه: [يا] كافر، فقد باء بها أحدُهما، إن كان كما قال، وإلّا رَجَعتْ عليه»(١).

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٢٦ برقم ٢١٦.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عَبّاس رضي اللهُ عنه: «التّنابُزُ بالألقاب: أن يكونَ الرّجلُ قد عَمِل السّيّئاتِ ثمّ تاب، فنَهَى اللهُ أن يُعيَّرَ بما سَلَف. يدُلُّ عليه ما رُويَ أنّ النّبيَّ ﷺ قال: مَن عيَّر مؤمنًا بذنبٍ تابَ منه كان حقًّا على الله أن يَبتليَه به ويَفضَحَه فيه في الدّنيا والآخرة»[١].

ـ يَروي سيّدُنا ابنُ عُبيدةَ، عن أبيه رضي اللهُ عنهما، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «التّائبُ من الذّنبِ كمَن لا ذنبَ له»[٢].

ـ يقولُ سيّدُنا أنسٌ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اذا تابَ العبدُ من ذنوبِه أنسَى اللهُ عزَّ وجلّ حَفَظتَه ذنوبَه، وأنسى ذلك جوارحَه ومعالمَه من الأرض حتّى يلقَى اللهَ يومَ القيامة وليس عليه شاهدٌ من الله بذَنْبٍ»[٣].

وحينَ تنعقدُ محكمةُ العدالةِ الإلهيّةِ في ميدانِ الحَشْر ستَشهَدُ الملائكةُ وأعضاء البَدَن والأماكن من الأرضِ لإتمام الحُجّة على الناس، لكنّ سعيدَ الحظِّ الذي يكونُ قد تابَ إلى الله تعالى، فإنّ اللهَ تعالى يُنسي كلَّ أولئك الشهودَ ما ارتكَبَ من ذنوبٍ، وسيَنْجو من العذابِ بسببِ عَدَم وجودِ شهودٍ عليه، ويُعلَمُ منه أنه لو تابَ إنسانٌ من ذنوبِه توبةً صادقةً فلا ينبغي مُعايرتُه أو الطَّعنُ عليه بسببِ ذنوبِه السابقة، فإذا كان اللهُ تعالى قد طَهَّره من ذنوبِه، وأنسَى الملائكةَ أيضًا ذنوبَه، فعلينا نحن أيضًا أن ننسَى ذنوبَه السابقةَ، ونُركِّزُ على حسَناتِه الحالية.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾

١٣ ـ اجتَنِبوا سُوءَ الظنِّ بالآخَرينَ طيلةَ الوقت؛ لأنّ بعضَ الظنِّ إثمٌ وذنبٌ،

---

(١) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ١١.

(٢) ابن ماجه، أبواب الزهد، باب ٣٠ برقم ٤٢٥٠.

(٣) الترغيب والترهيب، كتاب التوبة، ٤: ٩٤.

إذ إنه يجبُ أن يُحسِنَ المسلمونَ الظنَّ فيما بينَهم بعضُهم عن بعضٍ؛ لأنّ إساءةَ الظنِّ بأحدٍ بغيرِ سببٍ بمثابةِ الذَّنب، إلا أنّ الشخصَ الذي تتَّضحُ عليه علاماتُ الفِسقِ والفجورِ يجوزُ إساءةُ الظنِّ به، ولكنْ طالما لم تكنْ لدَيْنا أدِلّةٌ وبراهينُ قاطعةٌ لا يجوزُ لنا أن نتَّخذَ ضدَّه أيَّ إجراءٍ بناءً على سُوءِ الظنِّ فقط.

وصم مسلم بالكفر

يقولُ المفتي أحمدُ يار خان نعيمي في تفسيرِ هذه الآية: إنّ العلماءَ يقولون: إنه إذا احتَملَ كلامُ أحدٍ معنى الكُفر بنسبة ٩٩ في المائة، واحتَمَل معنى الإيمانِ بنسبة واحدٍ في المائة، فلا تَصِمُوه بالكُفرِ بناءً على هذا[١]، ويمكنُكَ في هذا الخُصوصِ مراجعةُ ما قالهُ النبيُّ ﷺ وأورَدْناهُ في الحاشية السابقة رقم ١٢.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾

١٤ ـ عندَما يَعلَمُ شخصٌ بأنّ شخصًا ما ينقِّبُ في عيوبِه لكي يُشوِّهَ سُمعَته فإنه هو الآخرُ ـ بدَوْرِه ـ يبحثُ في عيوبِه، وهكذا تسوءُ سُمعةُ الاثنَيْنِ؛ لأنه لا يوجَدُ شخصٌ خالٍ من العيوب، ولهذا أمرَ اللهُ تعالى أهلَ الإيمان أنْ لا يتجسَّسَ أحدٌ على الآخَر، وألّا يبحثَ أحدٌ في عيوبِ الآخَر، وإنّما حين يَستُرُ أحدٌ عيوبَ آخَرَ، يستُرُ اللهُ تعالى عيوبَه.

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، ومن كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومن فَرَّج عن مسلمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه كُربةً من كُرُباتِ يوم القيامة، ومن سَتَر مسلمًا سَتَره اللهُ يومَ القيامة»[٢].

---

(١) تفسير نور العرفان، سورة الحجرات (٤٩): الآية ١٢.

(٢) البخاري، ٢٤٤٢، كتاب المظالم، باب ٣.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ﴾

١٥ ـ الغِيبةُ تُقالُ لبيانِ عيوبِ أحدٍ أمامَ الناس بقَصْدِ تشويهِ سُمعتِه والطَّعن فيه، واغتيابُ أحدٍ ـ في نَظَرِ الإسلام ـ يُعتبَرُ فعلًا مكروهًا غايةَ الكراهة، مثلَما أنّ أكلَ لحم الأخ الميِّت مكروهٌ غايةَ الكراهة، إلّا أنّ بيانَ عيوبِ أحدٍ لمصلحةٍ شرعيّة وضرورةٍ من الضَّروراتِ لا يُعَدُّ غِيبةً، مثلَ: بيانِ عيوبِ العُصاة من الناس بقَصْدِ النَّجاة من شرورِهم، أو بيانِ جوانبِ القصُورِ في الأطفال لأولياءِ أمورِهم وأساتذتِهم بقَصْدِ إصلاح أحوالِهم، كلُّ هذا ليس غِيبةً؛ لأنّ المقصودَ منه ليس تشويهَ سُمعةِ الظالمينَ أو الأطفال، وإنّما القصدُ هو إصلاحُهم.

ضرر الغيبة

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أَتدرُونَ ما الغِيبة؟»، قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم، قال: «ذِكرُك أخاك بما يَكرَه»، قيل: أفرأيتَ إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقولُ، فقدِ اغتَبْتَه، وإن لم يكنْ فيه، فقد بَهَتَّه»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله وسيّدُنا أبو سعيدٍ الخُدريُّ رضي الله عنهما: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الغِيبةُ أشدُّ من الزّنا»، قيل: وكيف؟ قال: «الرجلُ يزني ثم يتوب، فيتوبُ اللهُ عليه، وإنّ صاحبَ الغِيبةِ لا يُغفَرُ له حتّى يَغفِرَ له صاحبُه»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ الرجُلَ لَيؤتَى كتابَه منشورًا، فيقولُ: ياربّ، فأين حسَناتٌ كذا وكذا عمِلتُها ليست في صحيفتي؟ فيقول: مُحِيَت باغتيابِك النّاس»[3].

---

(١) مسلم، كتاب البر، باب ١٨ برقم ٦٥٩٣.
(٢) الترغيب والترهيب، باب الغيبة، ٣ برقم ٥١١.
(٣) المرجع السابق.

ـ سَمِع النّبيُّ ﷺ رجُلَيْنِ من أصحابِه (أي: أصحابِ سيّدِنا ماعزٍ الذي رُجِم بعدَ اعترافِه بالزِّنا) يقولُ أحدُهما لصاحبِه: انظُرْ إلى هذا الّذي سَتَر اللهُ عليه فلم تدَعْه نفسُه حتّى رُجِمَ رَجْمَ الكلب. فسَكَت عنهما، ثمّ سار ساعةً حتّى مَرَّ بجيفةِ حمارٍ شائلٍ برِجلِه، فقال: «أين فلانٌ وفلانٌ؟». فقالا: نحن ذانِ يا رسولَ الله. قال: «انزِلا فكُلا من جِيفةِ هذا الحمار». فقالا: يا نبيَّ الله، مَن يأكلُ من هذا؟ قال: «فما نِلتُما من عِرضِ أخيكما آنفًا أشدُّ من أكلٍ منه، والّذي نفسي بيدِه، إنّه الآنَ (أي: ماعزًا) لفي أنهارِ الجنّة ينغمِسُ فيها»[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾

١٦ ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عبّاس رضي الله عنهما: لمّا كان يومُ فتح مكّةَ أمَرَ النّبيُّ ﷺ بلالًا حتّى عَلا على ظهرِ الكعبةِ فأذّن، فقال عَتّابُ بنُ أُسَيد بن أبي العِيص: الحمدُ لله الّذي قَبَض أبي حتّى لا يَرى هذا اليومَ. وقال الحارثُ بن هشامٍ: ما وَجَد محمّدٌ غيرَ هذا الغُرابَ الأسودَ مؤذّنًا. وقال سُهيلُ بن عَمْرٍو: إنْ يُرِدِ اللهُ شيئًا يغيِّرْه. وقال أبو سُفيان: إنّي لا أقولُ شيئًا أخافُ أن يُخبرَ به ربُّ السّماء، فأتَى جِبريلُ النّبيَّ ﷺ وأخبَرَه بما قالوا، فدَعاهم وسألَهم عمّا قالوا فأقَرُّوا، فأَنْزلَ اللهُ تعالى هذه الآيَةَ»[٢]. يعني: أنكم جميعًا من أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، وأنكم جُعِلتُم شعوبًا وقبائلَ لكي تتعرَّفوا لبعضِكم، ولهذا فإنّه ـ باعتبارِ الإنسانيّة ـ لا أفضَليّةَ لأحدٍ منكم على أحدٍ آخَرَ، وكلُّ الناس سَواسيَة، لكنّ السعيدَ الذي يَستحِقُّ الأفضَليَّة هو ذلك الذي

---

(١) أبو داود، كتاب الحدود، باب ٢٤ برقم ٤٤٢٨.

(٢) تفسير القرطبي، سورة الحجرات (٤٩): الآية ١٣.

يكونُ أكثرَ تقوى من الآخَرين؛ لأنّ مولدَ أحدٍ في قومٍ بِعَيْنِهم أو قبيلةٍ بعَيْنِها ليس في اختيارِ أحد، ولهذا لم يجعَلِ القرآنُ المجيدُ هذا الأمرَ سببًا للأفضليّة، وإنّما قرَّر أنّ سببَ الأفضليّةِ هو التقوى، وذلك لكي يجتهدَ الإنسانُ في سَبيلِ الحصُول عليها.

لا تمييز في الإسلام بسبب لون أو عرق أو قبيلة

ـ يقولُ سيّدُنا ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما: إنّ رسُولَ الله ﷺ خَطَب يومَ فتح مكةَ فقال: «أمّا بعدُ، أيُّها النّاس، فإنّ اللهَ عزَّ وجلّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليّة، وتعاظُمَها بآبائها، فالنّاسُ رجُلان: مؤمنٌ تقيٌّ كريمٌ، وفاجرٌ شَقِيٌّ مَهِينٌ، والنّاسُ كلُّهم بنو آدم، وخَلَق اللهُ آدمَ من تراب»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا جابرُ بنُ عبدِ الله رضي الله عنهما: خطَبَنا رسولُ الله ﷺ في وَسَطِ أيّام التّشريق خطبة الوداع، فقال: «يا أيّها النّاس، إنّ ربَّكم واحدٌ، وإنّ أباكم واحدٌ، ألَا لا فَضْلَ لعربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعجَميٍّ على عربيٍّ، ولا لأحمرَ على أسود، ولا أسودَ على أحمر، إلّا بالتّقوى، إنّ أكرَمَكم عندَ الله أتقاكُم، ألا هل بَلَّغتُ؟»، قالوا: بلى يا رسولَ الله، قال: «فلْيُبَلِّغ الشّاهدُ الغائبَ»(٢).

ـ وَلَّى النبيُّ ﷺ غلامَه المحرَّرَ سيّدَنا أُسامةَ بنَ زيدٍ رضي الله عنهما على قيادةِ آخِرِ جيشٍ أعدَّه في حياتِه الطاهرة، وهو الجيشُ الذي أرسَلَه لمحاربةِ الرُّوم، معَ أنّ سيّدَنا أبا بكرٍ الصدِّيقَ وسيّدَنا عُمرَ الفاروقَ وسيّدَنا سَعدَ بنَ أبي وَقّاص وسيّدَنا سعيدَ بنَ زيدٍ وسيّدَنا أبا عُبَيدةَ وغيرَهم من كبارِ الصَّحابة رضي الله عنهم جميعًا كانوا مشاركينَ في هذا الجيش، وعليه بدَأتْ بعضُ الشائعاتِ والتساؤلاتِ تتردَّدُ

---

(١) شعب الإيمان، ٤: ٢٨٦ برقم ٥١٣٠.

(٢) شعب الإيمان، ٤: ٢٨٩ برقم ٥١٣٧، ومسند أحمد، ٥: ٤١١ برقم ٢٣٥٣٦.

بينَ الناس؛ لماذا يَجعَلُ النبيُّ ﷺ شابًّا في العشرينَ من عمُرِه ابنَ عبدٍ، ولا خبرةَ أو تجرِبةَ لدَيْه، قائدًا للجيش برَغْم وجودِ أكابرِ الصَّحابة المخضرَمينَ رضي اللهُ عنهم جميعًا في هذا الجيش؟ وعندَما بَلَغ النبيَّ ﷺ ما يقالُ غَضِبَ غضبًا شديدًا، ثم صَعِد المِنبَرَ الشّريفَ وقال بعدَ حَمْدِ الله تعالى والثناءِ عليه ما معناه: إنَّني قد وَلَّيتُ أُسامَةَ قيادةَ الجيشِ وهو أهلٌ له(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «اسمَعوا وأطيعوا وإنِ استُعمِلَ عليكم عبدٌ حبَشيٌّ كأنّ رأسَه زَبيبةٌ (أي: صغيرةٌ وسوداء)»(٢)، والحديثانِ التاليانِ فيما يتعلّقُ بطاعةِ الأمير وعَدَم عصيانِه يستحِقّانِ التمعُّنَ والتدبُّر:

١ ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «من أطاعَني فقد أطاعَ اللهَ، ومَن عصاني فقد عصَى اللهَ، ومَن أطاع أميري فقد أطاعَني، ومن عصَى أميري فقد عصَاني»(٣).

٢ ـ يقولُ سيّدُنا عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنّما الطّاعةُ في المعروف»(٤).

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

١٧ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ: «نَزلت في أعرابٍ من بني أَسَد بن خُزَيمةَ قَدِموا على رسولِ الله ﷺ في سَنَةٍ جَدْبةٍ وأظهَروا الشّهادتَيْن ولم يكونوا مؤمنينَ في السِّرّ.

---

(١) سيرة ضياء النبي، ٤: ٧٩٤- ٧٩٥.
(٢) البخاري، كتاب الأحكام، باب ٤ برقم ٧١٤٢.
(٣) البخاري، كتاب الأحكام، باب ١ برقم ٧١٣٧.
(٤) مسلم، كتاب الإمارة، باب ٨ برقم ٤٧٦٥.

وأفسَدوا طُرُقَ المدينةِ بالعَذِراتِ وأغلَوْا أسعارَها، وكانوا يقولونَ لرسولِ الله ﷺ: أتَيْناك بالأثقالِ والعِيال ولم نُقاتِلْك كما قاتَلَك بنو فلانٍ، فأعطِنا من الصَّدَقة، وجَعَلوا يمُنُّونَ عليه، فأَنْزل اللهُ تعالى فيهم هذه الآيَةَ»[1]، يعني: أنّ النبيَّ ﷺ قال لهم بأمرٍ من الله تعالى: الحقيقةُ أنكم لم تَقبَلوا الإسلامَ من قلوبِكم، وإنّما استعمَلتُم اسمَ الإسلام من أَجْل تحقيقِ مصالحِكم الدُّنيويّةِ فقطْ، ولهذا لن يفيدَكم هذا النِّفاقُ بشيءٍ، لكنّكم لو قَبِلتُم طاعةَ الله وطاعةَ رسولِه من قلوبِكم، فسيُعطيكم اللهُ تعالى الأَجْرَ كاملًا على أعمالِكم، ولن يَنقُصَ منه شيئًا، وكلُّ من يَقبَلُ الإسلامَ بقلبٍ صادقٍ فإنّ اللهَ تعالى يتكرَّمُ عليه ويُحسِنُ إليه ويَعْفو عن كلِّ ذنوبِه السابقة.

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

١٨ ـ يا أيُّها النبيُّ الحبيبُ ﷺ، قُلْ للمنافقينَ: من يا تُرى تريدونَ خِداعَه بقَبولِكم الإسلامَ بلسانِكم فقط؟ هل تريدونَ أن تُعلِّموا اللهَ تعالى بإسلامِكم الظاهريِّ هذا، في حينَ أنه يَعلَمُ تمامَ العلم كلَّ شيءٍ في السماءِ والأرض، ويَعلمُ كذلك نوايا قلوبِكم، ولا يستطيعُ أحدٌ أن يَخدَعه؟

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

١٩ ـ كان أبناءُ بعض قبائلِ البدوِ يأتُونَ إلى النبيِّ ﷺ ويَقبَلونَ الإسلام، ويمنُّوْنَ على النبيِّ ﷺ أنّهم أَسْلَموا دونَ قتالٍ أو حرب، ولهذا ينبغي له أن يساعدَهم في توفيرِ ضروريّاتِ الحياة، فردَّ عليهم النبيُّ ﷺ بأمرٍ من الله تعالى قائلًا: لا تمنُّوْا عليّ أنكم

(١) تفسير القرطبي.

أَسْلمتُم، ولا إحسانَ لكم علَيَّ في هذا الخصوص، بل إنّكم لو كنتُم ـ بالفعل ـ مخلِصينَ في إيمانِكم لَعلمتُم أنّ هذا فضلٌ من الله تعالى عليكم بأنْ وفَّقكم إلى الإيمان، ولهذا ينبغي لكم أن تشكُروا اللهَ تعالى على هذا، وهو يَعلَمُ تمامَ العلم أسرارَ قلوبِكم، ويشاهدُ كذلك أعمالَكم.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ إشراق يوم الأربعاء ٢١ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ٩ شعبان ١٤٣١هـ.

هذا وقدِ اكتمَلَ تفسيرُ سُورة الحُجُراتِ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في سبعةِ أيام فقط، أي: من ١٤ يوليو إلى ٢١ يوليو، والحمدُ لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

❋ ❋ ❋

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(٥٠) سُورَةُ ق

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها ق (قاف)، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأولى منها.

مضامين السورة

جاء الحديثُ في هذه السُّورةِ عن العقائدِ الأساسيّةِ للإسلام، يعني: التوحيدَ والنُّبوةَ والآخِرةَ، مَثَلُها مَثَلُ السُّورِ الأخرى، ولكنْ جاء الحديثُ عن الآخِرة بتفصيل أكبرَ؛ لأنّ أكبرَ اعتراضٍ لكفّارِ مكّةَ كان على مسألةِ البعث، بمعنى: كيف سيتمُّ إحياؤنا من جديدٍ بعدَ أن نكونَ قد مِتْنا وصِرنا تُرابًا؟

بيَّن اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ عقيدةَ الآخِرة من خلالِ المشاهَداتِ اليوميّة، يعني: كما أنّ اللهَ تعالى يُنزِلُ المطرَ من السماءِ فيُحيي به الأرضَ بعدَ موتِها، فإنّ إحياءَ الإنسانِ بعدَ موتِه ليس بالأمرِ الصَّعبِ عليه.

اللهُ تعالى أقربُ إلى الإنسانِ من حَبْل وريدِه، ويَعلَمُ كلَّ حركاتِه وسَكَناتِه وكلَّ ما يدورُ بخَلَدِه، لكنّه معَ ذلك جَعَل ملكَيْنِ على يمينِ الإنسان ويسارِه، يكتُبانِ كلَّ أقوالِه وأفعالِه، ثم يَعرِضانِ كلَّ هذا أمامَه يومَ القيامة.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ ظهر يوم الأربعاء ٢١ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ٩ شعبان ١٤٣١هـ

سُورَةُ قٓ (٥٠)،

مكية (٣٤)، آياتها (٤٥)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

﴿قٓ﴾

١ ـ هذه حروفٌ مقطَّعات، وهي سِرٌّ بينَ الله تعالى ورسولِه الكريم ﷺ، ولمزيدٍ من التفصيل عنها راجع الحاشيةَ رقم ١ من سُورة البقرة.

وقد نَقَل العلّامةُ إسماعيلُ حقي في تفسيرِها قولَ ابنِ عطاء: «أَقْسَم بقوّةِ

قلبِ حبيبِه حيث تَحمَّل الخطابَ والمشاهدةَ ولم يؤثِّرْ ذلك فيه لعلوِّ حالِه، أي: بخلافِ موسى عليه السَّلامُ فإنه خَرَّ صَعِقًا في الطُّور من سَطْوةِ تَجلِّي النُّور»[١].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾

٢ ـ القرآنُ عظيمُ الشأنِ من كلِّ اعتبار، وفصاحةُ ألفاظِه وبلاغتُها عظيمةُ الشأن، وكذا تعاليمُه وإفادتُها عظيمةُ الشأنِ أيضًا، والقرآنُ الكريمُ كلامُ الله تعالى، وكما أنّ اللهَ تعالى ليس كمِثْلِه شيءٌ فإنّ كلامَه أيضًا ليس كمِثلِه شيءٌ.

وقد أَقْسَم اللهُ تعالى بهذا الكلام عظيم الشّأنِ للتأكيدِ على أنّ الآخِرةَ التي يُحذِّرُكم منها حبيبُه المكرَّمُ ﷺ حقٌّ، وأنّ النبيَّ ﷺ رسولٌ حقًّا، وكذا رسالتُه رسالةُ الحقِّ والصِّدق.

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

٣ ـ كان كفّارُ مكّةَ يتعجَّبونَ من أنّ واحدًا منهم جاء ليُنذرَهم، معَ أنّ هذا ليس بالأمرِ الذي يُتعجَّبُ منه؛ لأنّ الأنبياءَ الكرامَ السابقينَ عليهمُ السَّلامُ أيضًا قدِ ابتُعِثوا أفرادًا من بني جِلدتِهم.

والحقيقةُ أنّ التعجُّبَ يكونُ إذا أُرسِل إليهم رجلٌ أعجَميٌّ من غيرِ قومِهم، أو مَلَكٌ من الملائكة رسُولًا إليهم، إذًا كانوا سيُواجِهونَ مشاكلَ جَمّةً في التعامل معَه والتحدُّثِ إليه، ولكنْ ما أعجَبَ أهلَ مكةَ حين يتعجَّبونَ من إرسالِ واحدٍ من بينِهم يعرِفونَه جيِّدًا، وهو الصّادقُ الأمينُ في نَظَرِهم، معَ أنه ينبغي أن يكونَ ابتعاثُ نبيٍّ من بني جِلدتِهم مَبْعثَ فَخْر ومحلَّ اطمئنانٍ لهم.

---

(١) تفسير روح البيان، سورة ق (٥٠): الآية ١.

﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾

٤ ـ كان الأمرُ الأكثرُ إثارةً لحَيْرةِ كفّارِ مكةّ هو أنّهم كيف سيَحيَوْنَ من جديدٍ بعدَ أن يكونوا قد ماتوا وصاروا ترابًا، فقد كان هذا الأمرُ يبدو لهم بعيدًا تمامًا عن أيِّ منطقٍ وعقل، معَ أنّهم لو تدبَّروا في قُدرةِ الله تعالى لَعلِموا أنّ ذلك لا يُمثِّلُ أيَّ مشكلةٍ حتى من الناحيةِ العَقْليّة أيضًا.

﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ﴾

٥ ـ كان الاعتراضُ الأكبرُ من قِبَل كفّارِ مكةَ هو أنّ الإحياءَ بعدَ الموتِ أمرٌ بعيدٌ كلَّ البُعدِ عن العقل، وقد رَدَّ اللهُ تعالى عليهم في هذه الآية بأنّنا نعلَمُ تمامَ العلم كم من الجسدِ الإنسانيّ تُفنيه الأرض، وكم منه تُبقي عليه، وهذا ليس بالأمرِ الجديدِ بالنِّسبةِ لنا، بل إنّنا قد أدرَجْناهُ في اللَّوح المحفوظِ من قبلُ، بأنّ الأرضَ لا تأكلُ أجسادَ الأنبياءِ الكرام عليهمُ السَّلام، ولكنْ تُفني أجزاءَ كلِّ أجسادِ مَن عَداهُم من بني الإنسان، باستثناءِ عَظْمةٍ صغيرةٍ في نهايةِ العمُودِ الفَقَريّ للإنسانِ (عَظْمةِ الذَّنَب)، وهي التي يحيا من خلالِها الإنسانُ ثانيةً.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ليس من الإنسانِ شيءٌ إلّا يَبلَى، إلّا عَظْمًا واحدًا وهو عُجْبُ الذَّنَب (جزءٌ بقَدْرِ الخَرْدلةِ من العمودِ الفَقَريِّ للإنسان)، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامة»[1].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ في الإنسانِ عَظْمًا لا تأكُله الأرضُ أبدًا فيه يُركَّبُ يومَ القيامة». قالوا: أيُّ عظمٍ هو يا رسولَ الله؟ قال: «عُجْبُ الذَّنَب»[2].

---

(١) البخاري، كتاب التفسير، سورة عمّ يتساءلون (٧٨).

(٢) مسلم، كتاب الفتن، باب ٢٨ برقم ٧٤١٦.

ـ يقولُ سيّدُنا حُذَيفةُ رضي الله عنه: إنه سَمِع النبيَّ ﷺ يقولُ: «إنّ رجلًا (من الأُمم السابقةِ) حضَرَه الموتُ، فلمّا يَئِسَ من الحياةِ أوصَى أهلَه إذا أنا مِتُّ فاجمَعوا لي حَطَبًا كثيرًا وأَوْقِدوا فيه نارًا، حتّى إذا أكَلَتْ لحمي، وخَلَصتْ إلى عَظْمي، فامتَحَشَت، فخُذوها فاطحَنوها، ثمّ انظُروا يومًا راحًا فاذْرُوهُ (أي: هذا الترابَ) في اليَمّ. ففَعَلوا، فجَمَعَه اللهُ (أي: فأحياهُ) فقال له: لمَ فعلتَ ذلك؟ قال: من خَشْيتِك. فغَفَر اللهُ له»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا شَدّادُ بن أَوْس رضي الله عنه: إنّ رسُولَ الله ﷺ قال: «إنّ مِن أفضلِ أيّامِكم يومَ الجمُعة، فيه خُلِق آدَمُ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعقةُ، فأكثروا علَيَّ من الصَّلاة فيه، فإنّ صلاتكم معروضةٌ علَيَّ»، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، كيف تُعرَضُ صلاتُنا عليك وقد أُرِمتَ؟ يعني: بَلِيت؟ فقال: «إنّ اللهَ قد حَرَّم على الأرض أن تأكُلَ أجسادَ الأنبياء»[٢].

﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ﴾

٦ ـ عندَما جاء النبيُّ ﷺ بدِينِ الحقِّ إلى كفّارِ مكّةَ لم يتعجَّبوا منه ﷺ فقطْ، وإنّما كذَّبوه أيضًا، وباختصار: كانوا مُصابِينَ باضطرابِ تعقيداتٍ ذِهْنيّة من عند أنفسِهم، ولهذا كانوا أحيانًا يقولونَ عنه ﷺ: كاذبٌ وساحرٌ! وأحيانًا أخرى كانوا يقولون عنه: شاعرٌ ومجنون!

﴿ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴾

٧ ـ في هذه الآياتِ دعوةٌ إلى التفكيرِ موجَّهةٌ لمُنكري الآخرة؛ أفلا يرَوْنَ

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٢ برقم ٣٤٥٢.

(٢) ابن ماجه، إقامة الصلاة، باب ٧٩ برقم ١٠٨٥.

كيف أقام اللهُ تعالى السَّماءَ بغيرِ أعمِدة، وزَيَّنها بالنُّجوم والكواكب، وقد مَضَتْ قرونٌ وقرون، ولم يَحدُثْ في السّماءِ تصدُّعٌ أو شروخٌ؟ فإذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ هذه السَّماءَ العظيمةَ بهذا الشَّكل، فكيف يَصعُبُ عليه أن يُعيدَ خَلقَ إنسانٍ مات وصار ترابًا؟

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

٨ ـ جَعَل اللهُ تعالى الأرضَ ممتدَّةً متَّسعةً، وأقام عليها الجبالُ الشَّوامخُ، حتى لا تتأرجَحَ في كلِّ وقت، ثم أَنْبتَ من الأرض نباتاتٍ مختلفةً متنوِّعةً جميلةً تُعَدُّ وسيلةً لأرزاقِكم، فإذا كان اللهُ تعالى يستطيعُ أن يَخلُقَ هذه الأرضَ الواسعةَ الممتدَّة، فكيف يَصعُبُ عليه إحياءُ الإنسانِ من جديدٍ بعدَ موتِه؟

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

٩ ـ لو تدبَّرْنا في خَلْق السماءِ لَوجَدْنا فيها آياتٍ لا حصرَ لها من البصيرةِ والنَّصيحة، وكلُّها تكفي الإنسانَ لكي يتيقَّنَ على وَحْدانيّةِ الله تعالى، لكنْ تتيسَّرُ هذه النَّصيحةُ فقَطْ للشّخصِ الذي يَرجِعُ إلى البحثِ عن الحق.

﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

١٠ ـ تَيبَسُ الأرضُ تمامًا أيامَ الجفافِ والقَحْط، فلا تجدُ أيَّ أثرٍ للخُضرةِ في أيِّ مكانٍ منها، ثم عندَما يُنزِلُ اللهُ تعالى ماءَ المطرِ المبارك تبدَأُ نباتاتُ الغِلال والحدائقِ والبساتينِ في الظُّهور، وتَجذُبُ سِباطاتِ البَلَح المتدلِّيةَ من أشجارِ النخيل الباسقة سِباطةً فوقَ سِباطةً الأنظارَ إليها، وكما أنّ اللهَ تعالى يُحيي الأرضَ المَيْتةَ اليابسةَ بالماء، ويجعَلُها خضراءَ يانعةً، حتى يتهيَّأَ الرِّزقُ للعباد منها، كذلك يُحيي اللهُ تعالى

الموتَى ويُخرِجُهم من قبورِهم يومَ القيامة، حتى يُحاسَبوا على أعمالِهم ويثابوا أو يُعاقَبوا طِبقًا لها.

المؤمن مثل شجرة النخيل

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عُمرَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ منَ الشّجرِ شجرةً لا يَسقُطُ ورَقُها، وإنّها مِثلُ المسلم، فحدِّثوني ما هي»، فوَقَع النّاسُ في شجرِ البوادي. قال عبدُ الله: ووَقَع في نَفْسي أنّها النَّخلةُ، فاستحيَيْتُ، ثمّ قالوا: حدِّثْنا ما هي يا رسول الله، قال: «هي النَّخْلة»[1].

وكما أنّ كلَّ شيءٍ في أشجارِ النَّخيل مُفيدٌ، يعني: تُستعملُ جذوعُ النَّخل أعمدةً في بناءِ البيوت، وتُصنَعُ الحصائرُ والحبالُ ومَراوحُ اليدِ من أوراقِها وسُعفِها، وتؤكلُ ثمارُها الطازَجةُ، ثم إنّ هذه الثمارَ تؤكَلُ كذلك جافةً فيما يُطلَقُ عليه «بَلَحُ الفِطرة»، وهكذا المسلمُ عندَما يقضي حياتَه طبقًا للأحكام الإلهيَّة، فإنّ أكلَه وشُربَه ونومَه ويقَظتَه عبادةٌ.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾

١١ ـ بعدَ بَعْثةِ النبيِّ ﷺ أخَذ كفّارُ مكةَ ـ فجأةً ـ في اتِّهام النبيِّ ﷺ بالسِّحرِ والجنون، بعدَ أنْ كانوا يُطلقونَ عليه الصّادقَ الأمينَ قبلَ البَعْثةِ النّبويّة، وفي هذه الآياتِ طَمْأنَ اللهُ تعالى نبيَّه الكريمَ ﷺ بأنْ لا تغتمَّ ولا تحزَنْ يا رسولَ الله لتكذيبِ كفّارِ مكّةَ لك، فهذا ليس بالأمرِ الجديد؛ لأنّ الأُممَ السابقةَ ـ مِثلَ قوم نُوح وأصحابِ الرَّسِّ وثمودَ وعادٍ وقوم فِرعونَ وأصحابِ الأَيْكةِ وقوم تُبَّع ـ قد كذَّبوا أنبياءَهم، ونَزَل عليهم العذابُ من الله طبقًا لوعيدِه لهم، وإذا لم يَرجِعْ كفّارُ

---

(١) البخاري، كتاب العلم، باب ٤ برقم ٦١.

مكّةَ عن طُغيانِهم فسوف يواجِهونَ هزيمةً مُنكَرةً، وهذا هو ما حدَث بالفعل، فقد قُتِل بعضُ المنكِرينَ في المعارك، والبعضُ الآخرُ منهم اضْطُرَّ إلى الرَّحيل عن وطنِه مكةَ بعدَ فتحِها.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾

١٢ ـ هل يعتقدُ كفّارُ مكّةَ أنّ اللهَ تعالى قد أصابَه التعبُ بالخَلْق الأوّل، ولهذا لن يستطيعَ أن يَخلُقَ من جديدٍ، مع أنّ خَلْقَ شيءٍ مِثلِ الذي خُلِق من قبلُ أمرٌ أكثرُ سهولةً ويُسرًا؟ ومعَ أنّ هذا الأمرَ في غايةِ الوضوح، وليس لدى الكفّارِ أيُّ دليلٍ على إنكارِهم له، لكنّهم مُبتَلَوْنَ بالشكِّ المزعوم من قِبَلِهم فيما يتعلَّقُ بالخَلْق ثانيةً دونَ دليلٍ أو برهان.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾

١٣ ـ لفظُ الوَسْوسة يقالُ للفِكرِ والتصوُّرِ الذي يولَدُ في قلبِ الإنسانِ ولا يَعلَمُ عنه أحدٌ آخرُ شيئًا، ولكنّ اللهَ تعالى هو خالقُ الإنسان، ويَعلَمُ تمامَ العلم كلَّ مكوِّناتِ

الإنسانِ وكذا الأفكارُ والأَخْيلةُ التي تدورُ في قلبِه، وهو أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيد باعتبارِ علمِه المحيط، وحَبلُ الوريدِ يقالُ لذلك العِرقِ في الرقَبة، والذي يموتُ الإنسانُ بقَطْعِه.

وقد بيَّن العلّامةُ الخازنُ معناه بقوله: «﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ بيانٌ لكمالِ علمِه، أي: نحن أعلَمُ به منه، ومعنى الآيةِ أنّ أجزاءَ الإنسانِ وأبعاضَه يَحجُبُ بعضُها بعضًا ولا يُحجَبُ عن علم الله شيءٌ»[1].

﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾

١٤ ـ يقولُ مجاهدٌ: «وَكَّل اللهُ بالإنسانِ معَ علمِه بأحوالِه مَلَكَيْنِ باللّيل ومَلَكَيْنِ بالنّهارِ يحفَظانِ عمَلَه، ويكتُبانِ أثرَه إلزامًا للحُجّة، أحدُهما: عن يمينِه يكتُبُ الحسَنات، والآخَرُ عن شمالِه يكتُبُ السّيّئات»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «قال اللهُ عزَّ وجلّ (أي: لملائكتِه): إذا هَمَّ عبدي بسيّئةٍ فلا تَكتُبوها عليه، فإنْ عَمِلَها فاكتُبوها سيّئةً وإذا هَمَّ بحسَنةٍ فلم يعمَلْها فاكتُبوها حسَنةً، فإنْ عَمِلها فاكتُبوها عَشْرًا»[3].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾

١٥ ـ كلُّ شخصٍ يَعلَمُ أنّ الموتَ حقّ، ولا اختلافَ في هذا على الإطلاق، إلّا أنّ بعضَ الناسِ لا يؤمنونَ بما بعدَ الموتِ من حياةِ البَرْزَخ والحياةِ الآخِرة وما فيها من ثوابٍ وعقاب، ولهذا يحبُّ هؤلاءِ البقاءَ في هذه الدنيا، ويَفِرُّونَ من الموتِ

(١) تفسير الخازن.
(٢) تفسير القرطبي، سورة ق (٥٠): الآية ١٧.
(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٥٩ برقم ٣٣٤.

بعيدًا، ولكنْ حينَ يَحِينُ موعدُ موتِهم تنقطعُ كلُّ علاقةٍ لهم بهذه الدُّنيا، وتبدو لهم أحوالُ البَرْزَخ، وعندَئذٍ يتيقَّنونَ أنّ الآخِرةَ فعلًا حقٌّ، وسيقالُ لهم عندَئذٍ: هذا هو الموتُ الذي كنتُم تَفِرُّونَ منه، وهذا هو عالَمُ الحسابِ والثوابِ والعقابِ الذي كنتُم تُنكِرونَه.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾

١٦ ـ المرادُ منه: النَّفخةُ الثانيةُ في الصُّور، يعني: أنّ كلَّ شيءٍ يفنَى معَ النَّفخةِ الأولى في الصُّور، ثم يَنهَضُ الناسُ أحياءً معَ النَّفخةِ الثانية، وسيقالُ لهم عندَئذٍ: هذا يومُ الحسابِ والثوابِ والعقابِ الذي كان الأنبياءُ الكرامُ يُنذِرونكم به.

﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾

١٧ ـ يقولُ العلّامةُ محمَّد علي الصَّابوني: «وجاء كلُّ إنسانٍ، بَرًّا كان أو فاجرًا، ومعَه مَلَكانِ: أحدُهما يَسُوقُه إلى المحشَر، والآخَرُ يشهَدُ عليه بعمَلِه»[1].

﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾

١٨ ـ (أيُّها الإنسانُ المتمرِّدُ الطاغي) عندَما كان أنبيائي الكرامُ عليهمُ السَّلام في الدُّنيا يُخوِّفونَكَ من عذابِ الآخِرة كنتَ تضَعُ على قلبِك وأُذُنَيْك وعينَيْك غِشاوةً من الغَفْلة والجهالة، وتُنكرُ تعاليمَهم دونَ أن تفكِّرَ فيها أو تتدبَّرَها، ولكنْ عندما تزولُ كلُّ هذه الغِشاواتِ يومَ القيامة، ستَرى كلَّ الأحوالِ التي كنتَ تُنكِرُها في الدُّنيا.

ويُعلَمُ من هذهِ الآية أنه لن يكونَ هناك أيُّ شخصٍ أعمًى يومَ القيامة، بل إنّ كلَّ شخصٍ سيَرى بعينَيْه صحيفةَ أعمالِه وأحوالَ يوم القيامة.

---

(١) صفوة التفاسير.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾

١٩ ـ كلُّ إنسانٍ في الدُّنيا معَه مَلَكانِ عيَّنَهما اللهُ تعالى لإعدادِ سجِلٍّ لكلِّ أعمالِه، وعندَما يُبعَثُ الإنسانُ يومَ القيامة يأتيه هذانِ المَلَكان، أمّا أحدُهما فيأتي به من ناحيةِ ميزانِ العَدْل، وأمّا الثاني فيأتي بصحيفةِ أعمالِه ويقدِّمُها لله تعالى قائلًا: هذه هي صحيفةُ أعمالِه، وهي جاهزةٌ عندي.

﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

٢٠ ـ ثم يقولُ اللهُ تعالى لهذَيْنِ المَلَكيْنِ: ألقِيا في عذابِ جهنَّمَ الشّديدِ كلَّ جاحدٍ وطاغٍ وناهٍ عن المعروف، ومتَعَدٍّ للحدود، ومشكِّكٍ في دينِ الله تعالى، أو مُشركٍ معَ الله إلهًا آخَرَ.

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾

٢١ ـ المرادُ بالقَرينِ في هذه الآية هو: الشّيطانُ الذي يبقَى معَه في الحياة، ويُرغِّبُه في فعلِ السيئات، مثلَما يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي الله عنه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «ما مِنكم من أحدٍ إلّا وقد وُكِّل به قَرينُه من الجنّ»، قالوا: وإيّاك يا رسولَ الله؟ قال: «وإيّايَ، إلّا أنّ اللهَ أعانَني عليه فأَسْلَم فلا يأمُرني إلّا بخيرٍ»[1].

يومُ القيامة سيُلقي كلُّ واحدٍ من أهلِ جهنَّم، بتهمةِ إضلالِه ـ على قَرينِه من الشياطين، ويقولُ: يا ربَّنا، لقد أضَلَّني هذا الشّيطانُ، وعليه سيقولُ الشّيطان: يا ربِّ، أنت تَعلَمُ علمَ اليقين أنَّني لا أستطيعُ أن أُضِلَّه عَنْوةً وقَسْرًا، وإنّما هو الذي كان قد قَطَع في الضّلالِ شوطًا بعيدًا.

---

(١) مسلم، كتاب المنافقين، باب ١٦ برقم ٢٨١٤.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾

٢٢ - يومَ القيامة سيَلُومُ الفردُ من أهلِ جهنَّم على قرينِه من الشياطينِ قائلًا: لَعَنَك الله، لقد أَضْلَلْتَني. وسيقولُ الشّيطانُ له: متى أجبَرتُك على أن تتَّبِعَني؟ إنني لم أفعَلْ سوى أنْ رَغَّبتُك في السُّوء، وأنت الذي اختَرتَ اتِّباعي بدافع من رغباتِك النَّفسانيّة ومصالحِك الدُّنيويّة، مثلَما جاء في القرآنِ الكريم ما قالَ الشّيطانُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى سَبيل المثال: لو أنّ أحدًا طَلَب منكَ أن تقفزَ في البحرِ لأنّ في أعماقِه جواهرَ ولآلئَ، ويمكنُ أن تُخرِجَها، فإذا قَفَزتَ في البحرِ ولَفَظتَ أنفاسَك بسببِ ذلك، فإنّ المسئوليّةَ لا تقَعُ على عاتقِ ذلك الشّخصِ الذي رَغَّبك في القفزِ في البحر، وإنما تقَعُ المسئوليّةُ على عاتقِك أنت الذي ارتكبتَ هذه الحماقةَ.

وعندَما يَحتدِمُ هذا النِّقاشُ يومَ القيامةَ بين القَرينِ وصاحبِه من أهل جهنَّمَ يقولُ اللهُ تعالى: لا تَتجادَلا أمامي، فلا فائدةَ من الجدالِ الآنَ في ميدانِ الحَشْر، ولقد أعلَمتُكم مسبَقًا عن طريقِ رُسُلي وأنبيائي أنّ الشّيطانَ ومتَّبعيهِ سيَدخُلونَ جهنَّم، مثلَما قال اللهُ تعالى مخاطبًا الشَّيطانَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، كما أنّ حُكمي لا يتبدَّلُ أو يتغيَّر ولا مجالَ فيها لذلك؛ لأنّ حُكمي يكونُ مَبْنيًّا على العدلِ والإنصافِ والحقِّ والصِّدق، وأنا لا أظلمُ أحدًا.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا

فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾

٢٣ ـ قال اللهُ تعالى في سُورةِ هود: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وسيَسألُ اللهُ تعالى جهنَّمَ طبقًا لوعدِه لها: هلِ امتلأتِ بالطُّغاة من الجنِّ والإنسِ أم لا؟ وستقولُ جهنَّمُ: هل من مزيد؟ يعني ائْتني بكلِّ الطُّغاةِ جميعِهم، وأنا على استعدادٍ لتعذيبِهم، رَغْمَ أنّ اللهَ تعالى يَعلَمُ تمامَ العلم إن كان لا يزالُ في جهنّم مكانٌ للمزيدِ أم لا، ولكنّ المقصودَ من أسلوبِ البيانِ هذا هو بيانُ مدى غَيْظِ جهنَّم وغضَبِها، وذلك حتى يتولَّد الخَوْفُ بقَدْرِ الإمكانِ من جهنّم في قلوبِ الطُّغاة، وبالتالي يَرجِعونَ عن طُغيانِهم.

رَغْمَ أنه ليس لجهنَّمَ لغةٌ، ولكنْ مثلَما ستَشهَدُ أيدي الإنسانِ وأرجُلُه يومَ القيامة، ومثلَما كان الحَجَرُ يُسلِّمُ على النبيِّ ﷺ، كذلك سيُمكنُ لجهنَّمَ أيضًا أن تتكلَّمَ بأمرٍ من الله تعالى.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

٢٤ ـ عندَما يؤْذَنُ للمتَّقينَ يومَ القيامة بدخولِ الجنّة، فلن يكلَّفوا بمزيدٍ من المشي حتى الجنّة، أو مشَقّةِ الانتظار، وإنّما سيتمُّ تقريبُ الجنّةِ منهم، فما أنْ

يَصدُرَ الحُكمُ بدخولِهم الجنّةَ حتى تكونَ الجنّةُ موجودةً بالفعل عندَهم، ويُعلَمُ منه أنّ الذين يخشَوْنَ اللهَ تعالى في هذه الدُّنيا ويتَّقونَه سيُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم يومَ القيامة بكرَم خاصٍّ من عندِه.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾

٢٥ ـ الشخصُ الذي يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى في هذه الدُّنيا، ويُحافظُ على دينِه، ويخشَى اللهَ تعالى دونَ أن يَراه، ويظَلُّ قلبُه عامرًا بذِكرِ الله تعالى، عندَما يؤْذَنُ له بدخولِ الجنّة يومَ القيامة سيقالُ له: هذه هي الجنةُ التي وَعَدْناك بها في الدنيا، ادخُلْها الآنَ بكلِّ اطمئنانٍ وأمان، فهي مستَقرُّكَ الأَبديُّ، وهنا ستَحصُلُ على كلِّ شيءٍ تتمنّاه، ولدَيْنا من أَجْلِك نِعَمٌ أخرى كثيرةٌ لا تستطيعُ أن تتصوَّرَها.

رَوى سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، أنّ اللهَ تعالى قال: «أعدَدتُ لعبادي الصّالحينَ ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعت، ولا خَطَر على قلبِ بشَرٍ»[1].

يقولُ سيّدُنا أنسٌ وسيّدُنا جابرٌ رضي الله عنهما: «المزيدُ: (في الآية رقم **٣٥**) النظَرُ إلى وجهِ الله تعالى بلا كيف»[2]، وستكونُ هذه أكبرَ نِعَم الجنّةِ وأعظَمَها، مثلَما يقولُ سيّدُنا صُهَيبٌ رضيَ اللهُ عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا دَخَل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ، قال: يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: تريدونَ شيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا، ألم تُدخِلْنا الجنّةَ وتُنجِّنا من النّار؟ قال: فيُكشَفُ الحِجابُ، فما أُعطُوا شيئًا أحبَّ إليهم من النّظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلّ»[3].

---

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة السجدة (**٣٢**) برقم **٤٧٧٩**.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب ٨٠ برقم **٤٤٩**.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾

٢٦ ـ هنا تنبيهٌ لأهلِ مكّةَ بأنّ أقوامًا كثيرينَ قد مَضَوْا من قبلِكم، وكانوا أكثرَ منكم قوةً، وحينَ نَزَل عليهم عذابُنا بَحَثوا عن ملجأٍ لهم في مدُنٍ كثيرة، ولكنّهم لم يَجِدوا ملجأً يُنجِّيهم من عذابِنا، ولهذا إنْ لم تَرجِعوا أنتم أيضًا عن طُغيانِكم، فلن تجِدوا لكم ملجأً من اللهِ تعالى ومن عذابِه.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

٢٧ ـ ممّا لا شكَّ فيه أنّ في القرآنِ المجيدِ وفي الوقائع الواردةِ فيه، والتي تمتلئُ عبرةً، نصائحَ عديدةً، ولكنْ يستفيدُ من هذا كلّه ذلك الذي ليس قلبُه من حَجَر، وإنّما ذو القلبِ السليم، يعني: الذي يمتلكُ المقدرةَ على الفَهْم، ويسمعُ القرآنَ المجيدَ بكلِّ اهتمام وانتباه؛ لأنه إن كان أحدُهم حاضرًا في المجلسِ بجسَدِه فقط، بينَما هو غائبٌ باعتبارِ ذهنِه وعقلِه، فإنّ استماعَه للقرآنِ المجيدِ وعَدَمَ استماعِه له سواءٌ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾

٢٨ ـ وهنا يَبرُزُ سؤالٌ: لماذا استَغرقَ اللهُ تعالى ستةَ أيام في خَلْق السمواتِ والأرض معَ أنه قادرٌ مطلَق، ويستطيعُ أن يَخلُقَ الكائنات كلَّها بلفظ ﴿كُن﴾ في لمحةٍ واحدة؟ ثم ما هو الوقتُ المقصودُ باليوم هنا؟ لأنّ الشمسَ لم تكن قد خُلِقت بعدُ، وهي التي يتعيَّنُ اليومُ من طلوعِها وغروبِها؟

الحقيقةُ أنّ اللهَ تعالى وحدَه هو الذي يَعلَمُ عِلمَ اليقينِ حقيقةَ كلِّ هذه الأشياء وحِكمتَها، ولا يخلو فعلٌ من أفعالِه من الحِكمة، ولكنْ إذا لم نستطعْ فَهْمَ حِكمةِ فعلٍ من أفعالِه فإنّ من اللازم علينا أن نؤمنَ به دونَ أدنى تردُّد.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

٢٩ ـ ألَا يتدبَّرُ كفّارُ مكّةَ بأنّ اللهَ تعالى الذي خَلَق مخلوقاتٍ عظيمةً مِثلَ السماءِ والأرضِ ولم يُصِبْه في خَلْقِها تعبُ أو نَصَب، هل يكونُ من الصَّعبِ عليه أن يُحييَ مخلوقًا بسيطًا مثلَ الإنسانِ بعدَ موتِه، معَ أنه القادرُ على كلِّ شيء؟

يقولُ العلّامةُ محمَّد عليٍّ الصّابوني: «هذه الآيةُ ردٌّ على اليهودِ، حيث زَعَموا أنّ اللهَ خَلَق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، أوّلُها يومُ الأحد وآخِرُها يومُ الجمُعة، وأنه تَعِبَ فاستراحَ يومَ السَّبت! واستلقَى على ظهرِه فوقَ العرش، فكذَّبهم اللهُ تعالى»[١].

وقد جاء بيانُ هذا الأمرِ في الكتابِ المقدَّس كالتالي: خَلَق الربُّ السماءَ والأرضَ والبحرَ وكلَّ ما فيها في ستةِ أيام، ثم استراحَ في اليوم السابع، ولهذا بارَكَ اللهُ يومَ السَّبتِ وخصَّه للراحة[٢].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾

٣٠ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، اصبِرْ على ما يقولُه الكفّارُ عنك وعنِ الإسلام وما يرتكبونَ من أفعالٍ تؤْذي قلبَك، وسبِّحْ بحمدِ ربِّك من أَجْل أن يطمئنَّ قلبُك ويَستريح.

يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما: «الصَّلاةُ قبلَ الطلوع: الفَجْر، وقبلَ الغروب: الظُّهرُ والعصر، ومن اللَّيل: العشاءان، وأدبارُ السُّجود: النوافلُ بعدَ الفرائض»[٣].

---

(١) صفوة التفاسير

(٢) سفر الخروج: ٢٠: ١١: الكتاب المقدس الحي، الطبعة البريطانية ١٩٧٥م.

(٣) تفسير روح المعاني.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

٣١ ـ أيُّها المخاطَب، اسمَعْ جيِّدًا، حينَ سيُنفَخُ في الصُّورِ للمرّةِ الثانية سيكونُ صوتُه في غايةِ الشِّدة، بحيثُ يشعُرُ كلُّ إنسانٍ مدفونٍ في أيِّ ركن من أركانِ الدنيا وكأنّ أحدًا بجانبِه يُناديه، وهذا الصَّوتُ حقٌّ وقادمٌ لا محالةَ، وسيكونُ هذا هو يومُ القيامة الذي سيُخرَجُ فيه الأمواتُ جميعًا من قبورِهم.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾

٣٢ ـ نحن الذين نمنَحُ الإنسانَ الحياةَ والموتَ، وسوف يَرجِعُ إلينا الجميعُ يومَ القيامة، حيث سنُحاسبُهم إثابةً وعقابًا طبقًا لأعمالِهم.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾

٣٣ ـ حين تنشَقُّ الأرضُ يومَ القيامة عن الموتَى، ستعودُ إليهم جميعًا الحياةُ، ويُخرَجون من قبورِهم، وكما أنّ خَلْقَ بني الإنسانِ لأوّلِ مرةٍ كان سهلًا ميسَّرًا، فإنّ إحياءهم مرةً ثانيةً بعدَ موتِهم وجَمْعَهم في ميدانِ الحَشْر سهلٌ ميسَّرٌ أيضًا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

٣٤ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، إنّ الكفّارَ يقولونَ عنك ما يؤْذي قلبَك، ولا يؤمنونَ بك، فلا تغتمَّ لهم، ولا تحزَنْ عليهم؛ لأنّ إجبارَهم على الإيمانِ ليس من واجبِك، كما أنّ حِكمتَنا لا تقتضي ذلك، ونحن لا نقبَلُ سوى الإيمان الذي يكونُ عن رضًا وطيبِ خاطر. على أيِّ حال، عليك أن تواصلَ النُّصحَ عن طريقِ القرآنِ المجيد، وسيؤمِّنُ يقينًا من كان في قلبِه خوفٌ من عذابي.

كان سيّدُنا قَتادةُ رضي اللهُ عنه يدعو دائمًا بقولـِه: «اللهُمَّ اجعَلْنا ممَّن يخافُ وعيدَك ويرجو موعدَك»[1]. يا إلهي، هذا العبدُ المُذنبُ الفقيرُ إليك يدعو الدُّعاءَ نفسَه للأُمةِ المسلمةِ كلِّها: «اللهُمَّ اجعَلْنا ممَّن يخافُ وعيدَك ويرجو موعدَك».

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعد صلاة الظهر من يوم الأربعاء ٢٨ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ١٦ شعبان ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتَملَ تفسيرُ سُورة قٓ في سبعةِ أيام فقط، أي: من ٢١ إلى ٢٨ يوليو، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسَّلامُ على سيِّد المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

(١) تفسير القرطبي.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

هذه السُّورةُ مكِّية، واسمُها «الذّارِياتُ»، وهو مأخوذٌ من الآيةِ الأُولى منها.

مضامين السورة

ـ في بدايةِ هذه السُّورة أَقْسم اللهُ تعالى بأربعةِ أشياءَ مؤكِّدًا على قولِه بأنّ وعدَ القيامة حقٌّ، وأنّ يومَ الحسابِ قادمٌ لا مَحالةَ، وليس هناك أيُّ مجالٍ للشكِّ فيه.

ـ الذين يُنكرونَ يومَ القيامة ليس لديهِم أيُّ دليلٍ معقول على إنكارِهم هذا، وكلُّ ما لدَيْهم هو القياسُ والتخمين، وهم أنفسُهم غيرُ مطمئنِّينَ لهذا القياسِ والتخمين، ولذلك تَراهم مختلِفينَ فيما بينَهم، ولكنّهم سيَعرِفونَ الحقيقةَ عندَما يُلقَوْنَ في نارِ جهنَّم.

ـ الذين يؤمنونَ بالآخِرة هم الذين يخشَوْنَ اللهَ ويتَّقونَه، ويعمَلونَ الصّالحات، ويُعطُونَ للسائلِ والمحروم نصيبًا من أموالِهم، هؤلاءِ سيَدخُلونَ الجنةَ، حيث يستمتعونَ بنِعَم اللهِ تعالى.

ـ في الآياتِ من ٢٤ إلى ٣٧ من السُّورة جاء ذِكرُ الملائكةِ الذين نَزَلوا ضيوفًا على سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وهمُ الذين بَشَّروا سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ في شيخوختِه بوَلَدِه صاحبِ العلم.

ـ بعدَ ذلك جاء ذِكرُ بعضِ الأُمم الطاغية، والذين كَذَّبوا أنبياءَ الله تعالى عليهمُ السَّلام، وعاقَبهم اللهُ تعالى على ذلك عقابًا أليمًا.

ـ في نهايةِ السُّورةِ جاء بيانٌ لمقصِدِ خَلْق الإنسان، يعني: أنّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسَ والجنَّ ليعرِفوا اللهَ تعالى ويعبُدوه، واللهُ تعالى ليس في حاجةٍ إلى عبادةِ بني الإنسان، بل على العكس، بنو الإنسانِ هم المستفيدونَ من هذه العبادة، فاللهُ تعالى هو المستغني، وهو القادرُ المطلَق، والكائناتُ كلُّها في حاجةٍ إليه، بينَما هو لا يحتاجُ إلى أحدٍ.

الفقيرُ إلى الله: محمَّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا
بعدَ صلاة الظهر من يوم الأربعاءِ ٢٨ يوليو ٢٠١٠م
الموافق ١٦ شعبانَ ١٤٣١هـ.

❋ ❋ ❋

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ (٥١)،

مكية (٦٧)، آياتها (٦٠)، ركوعاتها (٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾

١ - في بدايةِ هذه السُّورةِ أَقْسم اللهُ تعالى بأربعةِ أشياءَ مؤكِّدًا على قولِه بأنّ وعدَ القيامة حقٌّ، وأنّ يومَ الحسابِ قادمٌ لا مَحالةَ، وليس هناك أيُّ مجالٍ للشكِّ فيه.

ولو تدبَّرنا الأشياءَ الأربعةَ التي أَقْسم اللهُ تعالى بها لَوجَدْنا أنها تدُلُّ على وقوع يوم القيامة، يعني: أنّ ذاتَ الله المقدَّسةَ الذي بأمرِه تُثيرُ الرِّياحُ الغبارَ، ويَحمِلُ السَّحابُ

ماءَ المطر، وتسيرُ السُّفُنُ في البحر، وتؤدِّي الملائكةُ مختلفَ الأعمال، سيحيا الإنسانُ مرةً ثانيةً بأمرِه هو أيضًا.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾

٢ ـ عندَما تتلألأُ في السَّماءِ نجومٌ لا حَصْرَ لها، تبدو الطُّرقُ المختلفةُ وكذا المجَرّاتُ المتنوِّعة، وقد أَقْسم اللهُ تعالى بهذه السَّماءِ اللّامعة المتلألئةِ مخاطبًا الكفّارَ قائلًا: إنّكم غيرُ متَّفقينَ على أيِّ أمرٍ من الأمور، كما أنه ليس لديكُم أيُّ دليلٍ عَقْليٍّ على إنكارِكمُ القرآنَ، ولهذا فإنّكم أحيانًا تقولونَ عن القرآن: إنه سحرٌ أو شعرٌ، وأحيانًا أُخرى تقولون عنه: إنه كلامٌ مختَرَعٌ، أو قَصَصُ الأوَّلين.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

٣ ـ تعاليمُ القرآنِ الكريم تتَّفقُ معَ الفِطرةِ والعقل، ولهذا فإنّ صاحبَ العقل السَّليم هو الذي يستطيعُ أن يُقدِّرُ القرآنَ الكريمَ حقَّ قَدْرِه بالفعل، وواضحٌ أنّ الشخصَ الذي يتَّسمُ عقلُه بالفتورِ والفسادِ سيبقَى بعيدًا عن القرآنِ الكريم.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾

٤ ـ يقولُ العلّامةُ القُرطبيُّ في تفسيرِ هذه الآية: «لُعِن الكذّابون»[1]، يعني: أنّ الذين يُنكرونَ القرآنَ الكريمَ بغيرِ دليلٍ معقولٍ سوى القياسِ الكاذبِ والتخمينِ الذي لا حقيقةَ له، هؤلاءِ قد أُبعِدوا عن رحمةِ الله تعالى، وقد غَشِيَهم الضَّلالُ والغَفْلةُ بسببِ هذا الإنكارِ إلى درجةِ أنّهم نَسُوا الآخرةَ.

---

(١) تفسير القرطبي.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾

٥ - يَسألُ مُنكِرو القيامةِ على سَبيل السُّخرِيَة: تُرى متى يأتينا هذا العذابُ الذي تُخوِّفُنا منه؟ إنّنا لا نؤمنُ به، ولهذا إن كنتَ على حقٍّ فيما تقولُ فعلًا، فلماذا لا يأتينا هذا العذابُ الآنَ؟ والآنَ إذا قيلَ لهم: إنّ الساعةَ ستقومُ في تاريخ كذا، فإنّهم لن يؤمنوا أيضًا ما لم يرَوْا بأعيُـنِهم، ولهذا قال لهمُ النبيُّ ﷺ بأمرٍ من اللهِ تعالى: سيقالُ لكم في الوقتِ الذي تكونونَ فيه تحترقونَ بنارِ جهنَّم، وتكونونَ قد شاهدتُم عذابَ الآخِرةِ فعلًا: هذا هو العذابُ الذي كنتُم تَستعجِلونَ به في الدنيا، ولهذا ذوقوا الآنَ جزاءَ إنكارِكم للقيامة.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَـٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾

٦ - جاء في هذه الآياتِ بيانٌ لأحوالِ المتَّقينَ من الناس، فجاء أولًا ذِكرُ أجرِهم وثوابِهم، يعني: أنهم سيكونونَ في جنّاتٍ يَسُودُها ربيعٌ دائم، فيها فواكهُ وثمارٌ متنوِّعةٌ تتدلّى من أشجارِها ونباتاتِها، وتجري من تحتِها عيونُ الماءِ الصّافي الشَّفّافِ الرَّقْراق، وسيكونُ أعظمَ شيءٍ في هذا الجوِّ الرائع هو أنّ اللهَ تعالى سيُنعِمُ عليهم برؤيةِ ذاتِه وإنعاماتٍ أخرى كثيرة، وأنّهم سيأخُذونَ هذه الإنعاماتِ بكلِّ فرحةٍ وسرور.

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

٧ - هنا إخبارٌ بأعمالِ المتَّقينَ من الناس، وهي الأعمالُ التي أَنْعم اللهُ تعالى عليهم بكَرمِه الخاصِّ بسببِها، يعني: أنّهم لم يَقْضُوا حياتَهم الدُّنيا في ظُلمٍ وعِصيانٍ، وإنما قَضَوْها في صلاح وطاعة، وكانوا ينامونَ باللّيل قليلًا، وينهَضونَ عندَ السَّحَر يذكرونَ اللهَ تعالى ربَّهم، ويطلُبونَ منه العفوَ والمغفرةَ، كما أنّهم لم يستأثِروا بما أعطاهُم اللهُ من مالٍ ومتاع في الدُّنيا مترصِّدينَ - كالثَّعابين - لمَن يقتربُ منه، وإنّما

جَعَلوا في أموالِهم هذه جزءًا للفقراءِ والمحتاجين، كما أنّهم كانوا يُنفقونَ على الفقراءِ جنبًا إلى جنبٍ معَ إخراجِهم زكاةَ أموالِهم.

ويُعلَمُ منه أنّ الذين يَستيقظُونَ باللّيل يطلُبونَ المغفرةَ من الله تعالى ربِّهم، وبالنهارِ يقدِّمونَ يدَ العونِ والمواساةِ لخَلْقِ الله تعالى، سيُنعِمُ اللهُ تعالى عليهم في الآخرةِ بإنعاماتٍ خاصّةٍ من عندِه.

فضل صلاة التهجد

ـ يقولُ سيّدُنا عَمْرُو بن عَبَسةَ رضي الله عنه: إنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أقربُ ما يكونُ الرّبُّ من العبدِ في جوفِ اللّيل الآخِر، فإنِ استطعتَ أن تكونَ ممّن يَذكُرُ اللهَ في تلك السّاعةِ فكُنْ»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا بلالٌ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «عليكم بقيام اللّيل فإنّه دَأْبُ الصّالحينَ قبلَكم، وإنّ قيامَ اللّيل قُربةٌ إلى الله، ومَنْهاةٌ عن الإثم، وتكفيرٌ للسيّئاتِ، ومَطْرَدةٌ للدّاءِ عن الجسد»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «يَنزِلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السّماءِ الدُّنيا حين يبقَى ثُلُثُ اللّيل الآخِر، يقولُ: مَن يَدعُوني فأستجيبَ له، من يسألُني فأُعطيَه، من يَستغفرُني فأغفرَ له؟»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أفضَلُ الصّيام

---

(١) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١١٨ برقم ٣٥٧٩.

(٢) الترمذي، كتاب الدعوات، باب ١٠١ برقم ٣٥٤٩.

(٣) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٤ برقم ١١٤٥، والترمذي، برقم ٤٤٦.

بعدَ رمضانَ شهرُ الله المحرَّم، وأفضَلُ الصّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللّيل»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ سَلَام رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «يا أيُّها النّاسُ، أفشُوا السّلامَ، وأَطْعِموا الطّعام، وصَلُّوا والنّاسُ نيام، تدخُلوا الجنّةَ بسلام»[٢].

ـ تقولُ السيّدُة عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي اللهُ عنها: إنّ نبيَّ الله ﷺ كان يقومُ من اللّيل حتّى تتفطَّرَ قَدماهُ، فقالت عائشةُ: لمَ تصنَعُ هذا يا رسولَ الله وقد غَفَر اللهُ لكَ ما تقدَّم من ذنبِك وما تأخَّر؟ قال: «أفلا أُحبُّ أن أكونَ عبدًا شكورًا»[٣].

ـ يقولُ سيّدُنا عبدُ الله بنُ مسعودٍ رضي اللهُ عنه: ذُكِر عندَ النّبيِّ ﷺ رجلٌ، فقيل: ما زال نائمًا حتّى أصبح ما قام إلى الصّلاة. فقال: «بالَ الشّيطانُ في أُذُنِه»[٤].

حقوق الفقراء والمحتاجين

يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩]، يعني: أنّ اللهَ تعالى قد جَعَل في أموالِ الأغنياءِ مقدارَ اثنَيْنِ ونصفٍ بالمائة على سَبيل الزّكاةِ حقًّا مقرَّرًا للفقراء، جنبًا إلى جنبٍ معَ ما يختصُّ بالحكومة، ولهذا فإنّ هذا المقدارَ من المالِ إنما هو بمثابةِ أمانةٍ للفقراءِ لدى الأغنياء، وينبغي للأغنياءِ أن يقوموا بردِّ هذه الأمانةِ إلى أصحابِها في أسرعِ وقتٍ ممكن، فربَّما كان أصحابُ هذه الأماناتِ في حاجة ماسّةٍ إليها.

كما أنّ اللهَ تعالى لم يَفرِضْ على الفقراءِ من الناس أن يذهَبوا إلى الأغنياءِ

---

(١) مسلم، كتاب الصيام، باب ٣٨ برقم ١١٦٣.

(٢) الترمذي، صفة الجنة، باب ٤٢ برقم ٢٤٨٥.

(٣) البخاري، كتاب التفسير، سورة الفتح (٤٨) برقم ٤٨٣٧.

(٤) البخاري، كتاب التهجد، باب ١٣ برقم ١١٤٤.

لِيُطالبوهم بحقِّهم هذا، وإنّما فَرَض على الأغنياءِ لكي يؤدُّوا ما فُرِضَ عليهم أن يبحَثوا هم بأنفُسِهم عن الفقراءِ، ويؤدُّوا إليهم حقوقَهم. ليتَ المسلمينَ جميعًا يؤدُّونَ هذا الفَرْضَ الذي فَرَضَه اللهُ عليهم بكلِّ أمانةٍ وضمير، وعندَها لن نجدَ فقيرًا واحدًا في العالَم الإسلامي.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «كان الرّجلُ يُداينُ النّاسَ، فكان يقولُ لفتاه: إذا أَتيْتَ مُعسِرًا فتجاوَزْ عنه، لعلّ اللهَ أن يتجاوَزَ عنّا. قال: فلقيَ اللهَ فتجاوَزَ عنه»(١).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو قَتادةَ رضي الله عنه: إنه سَمعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «من سَرَّه أن يُنجيَه اللهُ من كَرْبِ يوم القيامة فلْيُنفِّسْ عن مُعسرٍ أو يضَعْ عنه»(٢).

ـ يقولُ سيّدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنّ الصَّدقةَ لَتُطفئُ غَضَب الرّبِّ وتدفَعُ مِيتةَ السُّوء»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي الله عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «السّاعي على الأرملةِ والمسكينِ كالمُجاهدِ في سَبيل الله، أو القائم اللّيلَ الصّائم النّهارَ»(٤).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو أُمامةَ رضي اللهُ عنه: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «من مَسَح رأسَ يتيمٍ لم يمسَحْه إلّا لله كان له بكلِّ شعرةٍ مرَّتْ عليها يدُه حسَنات، ومن أحسَنَ إلى يتيمةٍ أو يتيمٍ عندَه كنتُ أنا وهو في الجنّة كهاتَيْنِ»، وفَرَّق بينَ أُصبعَيْه: السَّبّابةِ والوسطى»(٥).

---

(١) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٥٤ برقم ٣٤٨٠.

(٢) مسلم، كتاب المساقاة، باب ٦ برقم ٤٠٠٠.

(٣) الترمذي، أبواب الزكاة، باب ٢٨ برقم ٦٦٤.

(٤) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٣.

(٥) مسند أحمد، ٥: ٢٥٠.

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «قال اللهُ: أنفِقْ يا ابنَ آدمَ (أي: على بني الإنسانِ إرضاءً لي) أُنفِقْ عليك»(١).

ـ تقولُ السيِّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال لي: «لا تُوكِي فيُوكَى عليكِ»(٢).

ـ تقولُ السيّدةُ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ رضي الله عنهما: إنّ النبيَّ ﷺ قال لي: «أَنْفِقي... ولا تُحْصي فيُحصي اللهُ عليك»(٣).

ـ يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «إنّ اللهَ عزَّ وجلّ يقولُ يومَ القيامة: يا ابنَ آدم، مَرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ، كيف أعودُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أما عَلِمتَ أنّ عبدي فلانًا مرضَ فلم تَعُدْه، أما عَلِمتَ أنّك لو عُدتَه لوَجدتَني عندَه؟ يا ابنَ آدم، استطعمتُك فلم تُطعِمْني، قال: يا ربِّ، [و] كيف أُطعمُك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: أما عَلِمتَ أنّه استَطعَمَك عبدي فلانٌ فلم تُطعِمْه؟ أما عَلِمتَ أنّك لو أطعمتَه لَوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابنَ آدم، استَسْقيتُك فلم تَسْقِني، قال: يا ربِّ، كيف أسقيك وأنت ربُّ العالَمين؟ قال: استَسْقاكَ عبدي فلانٌ فلم تَسْقِه، أمَا إنّك لو أسقَيْتَه وجدتَ ذلك عندي»(٤).

ـ يَروي سيّدُنا سالمٌ رضي الله عنه، عن والدِه، أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم لا يَظلِمُه ولا يُسلِمُه، من كان في حاجةِ أخيه كان اللهُ في حاجتِه، ومن فَرَّج عن مسلمٍ كُربةً فَرَّج اللهُ عنه بها كُربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن سَتَر مسلمًا سَتَرَه اللهُ يومَ القيامة»(٥).

---

(١) البخاري، كتاب النفقات، باب ١ برقم ٥٣٥٢.
(٢) البخاري، كتاب الزكاة، باب ٢١ برقم ١٤٣٣.
(٣) مسلم، كتاب الزكاة، باب ٢٨ برقم ٢٣٧٥.
(٤) مسلم، كتاب البر، باب ١٣ برقم ٦٥٥٦.
(٥) مسلم، كتاب البر، باب ١٥ برقم ٦٥٧٨.

ـ تقولُ السيِّدةُ عائشةُ أُمُّ المؤمنينَ رضي الله عنها حين نَزَل الوحيُ الأولُ على رسولِ الله ﷺ وأصابَه الخوفُ من ذلك: قالت خديجةُ: كلّا والله، ما يُخزِيكَ اللهُ أبدًا، إنّك:

- لَتَصِلُ الرَّحِم.
- وتحمِلُ الكَلَّ.
- وتُكسِبُ المعدوم.
- وتَقْري الضّيف.
- وتُعينُ على نوائبِ الحقّ[1].

والصِّفاتُ التي ذَكَرتْها أُمُّ المؤمنينَ السيِّدةُ خديجةُ رضي الله عنها في ثنايا طَمْأنتِها للنبيِّ ﷺ عندَ اضطرابِه من نزولِ الوحي تتعلَّقُ كلُّها بمساعدةِ الفقراءِ والمحتاجين، معَ أنّ النبيَّ ﷺ كان معروفًا أكثرَ بالصادقِ الأمين، ويُعلَمُ منه أنّ السّيدةَ خديجةَ أُمُّ المؤمنين رضي اللهُ عنها تَرى أنّ من يساعدُ الفقراءَ لا يفوزُ في الآخرةِ فقط، وإنّما يكونُ من المفلحينَ في هذه الدُّنيا أيضًا، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «خيرُ النّاس مَن ينفَعُ النّاس»[2]، وما أحسَنَ ما قال الشاعرُ:

ـ خَلَقَ اللهُ الإنسانَ للمحبّةِ والتعاطُف، وإلّا فإنّ الملائكةَ لم يكونوا قليلينَ من أَجْلِ الطاعة.

وإليكَ بعضَ الوقائع في هذا الخصُوص فتدبَّرْها:

١ ـ لم يكنْ سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ يتناولُ طعامَه وحدَه أبدًا، «فإذا حَضَر

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي، باب ٣ برقم ٣.

(٢) كنز العمال، ١٦ : ١٢٨ برقم ٤٤١٥٤.

طعامُه أرسَلَ يطلُبُ من يأكلُ معَه، فلقيَ يومًا رجلًا، فلمّا جَلَس معَه على الطّعام، قال له إبراهيمُ: سَمِّ اللهَ، قال الرّجُلُ: لا أدري ما الله؟ فقال له: فاخرُجْ عن طعامي، فلمّا خَرَج نَزَل إليه جِبريلُ فقال له: يقولُ اللهُ: إنّه يَرزقُه على كُفرِه مدى عمُرِه وأنت بَخِلت عليه بلُقمةٍ! فخَرَج إبراهيمُ فَزِعًا يجُرُّ رداءَه، وقال: ارجِعْ، فقال: لا أرجعُ حتّى تُخبرَني لمَ ترُدُّني لغيرِ معنًى؟ فأخبَرَه بالأمر، فقال: هذا ربٌّ كريمٌ، آمَنتُ، ودَخَل وسَمَّى اللهَ وأكلَ مؤمنًا»(١).

٢ ـ يقولُ أَسْلمُ ـ وكان غلامًا لسيّدِنا عُمرَ الفاروقِ رضي اللهُ عنه ـ: إنّ عُمرَ بنَ الخطاب طافَ ليلةً، فإذا هو بامرأةٍ في جوفِ دارٍ لها وحولَها صِبيانٌ يبكُونَ، وإذا قِدرٌ على النار قد ملأَتْها ماءً، فدَنا عمرُ من البابِ فقال: يا أَمَةَ الله، ما بكاءُ هؤلاءِ الصِّبيان؟ قالت: بكاؤهم من الجوع، قال: فما هذه القدرُ التي على النار؟ قالت: قد جَعَلتُ فيها ماءً هو ذا أُعلِّلُهم به حتى يناموا وأُوهِمُهم أنّ فيها شيئًا دقيقًا، فبكَى عُمرُ، ثم جاء إلى دارِ الصَّدَقة، وأَخذَ غِرارةً وجَعَل فيها شيئًا من دقيق وشَحْم وسَمْن وتمرٍ وثيابٍ ودراهمَ حتى ملأَ الغِرارةَ ثم قال: يا أَسْلَم، احمِلْ علَيَّ، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أنا أحمِلُه عنك، فقال لي: لا أُمَّ لك يا أَسْلَم، أنا أحمِلُه لأني أنا المسئولُ عنهم في الآخِرة، فحَمَله حتى أتَى به منزلَ المرأة، فأخَذ القِدرَ فجَعَل فيها دقيقًا وشيئًا من شحم وتَمْرٍ وجَعَل يُحرِّكُه بيدِه ويَنفُخُ تحتَ القِدر، فرأيتُ الدُّخانَ يخرُجُ من خَلَل لحيتِه حتى طَبَخ لهم، ثم جَعَل يَغرِفُ بيدِه ويُطعِمُهم حتى شَبِعوا، ثم خَرَج ورَبَضَ بحذائهم حتى كأنه سَبُع، وخِفتُ أن أُكلِّمَه، فلم يزَلْ كذلك حتى لعبَ الصِّبيانُ وضَحِكوا، ثم قام فقال: يا أَسْلم، تدري لم رَبَضتُ بحذائهم؟ قلت: لا، قال: رأيتُهم يبكُونَ فكرِهتَ أن أذهبَ وأدَعَهم حتى أراهم يضحكون، فلمّا

---

(١) تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٦٩.

ضَحِكوا طابَتْ نفسي. فقالت المرأةُ: جزاكَ اللهُ كلَّ خير، إنك أحقُّ بالخلافةِ وليس عُمرَ[١].

٣ ـ ذاتَ مرّة، كان سيّدُنا عُمرُ بن الخطاب رضي اللهُ عنه يَطُوفُ ليلًا، فإذا ببَدويٍّ يجلسُ على الأرضِ خارجَ خيمتِه، فذَهَب إليه سيّدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه وجلسَ بجانبِه، وفجأةً جاء صوتُ بكاءٍ من الخيمة، فسألهُ سيّدُنا عُمرُ رضي الله عنه: من يبكي؟ فقال: إنّها زوجتي تُعاني آلامَ الولادة. فعاد سيّدُنا عُمرُ رضي اللهُ عنه إلى البيتِ، واصْطَحَب معَه زوجتَه السيّدةَ أُمَّ كلثوم رضي الله عنها، ثم استَأذَنَ البَدَويُّ وأرسَلَ زوجتَه داخلَ الخيمة، وبعدَ قليل وُلِد طفلٌ، فنادتِ السيّدةُ أُمُّ كلثوم رضي اللهُ عنها على سيّدِنا عُمرَ رضي الله عنه قائلةً: يا أميرَ المؤمنين، بارِكْ لصاحبِك. فلمّا سمعَ البدَويُّ لفظَ أميرِ المؤمنين انتبَه، وجلسَ في غايةِ الأدب، فقال له سيّدُنا عُمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: لا تحزَنْ، تعالَ إليّ غدًا، وسوف أجعَلُ لهذا الطِّفل جُعلا[٢].

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾

٨ ـ الذين يوقِنونَ بقُدرةِ الله تعالى ووَحْدانيّـتِه، لهم في وُسعةِ الأرض والطَّقس، وما يطرَأُ عليه من تغيُّرات، آياتٌ عديدةٌ تجعَلُ عقيدتَهم في التوحيدِ أكثرَ رسوخًا ونضجًا، لكنّ الذين لا يجتهدونَ في طلبِ الحقِّ، وأَقْسموا على إنكارِ التوحيدِ، لا يمكنُ أن تؤثِّرَ فيهم هذه الآياتُ أو تُقنعَهم؛ لأنّهم لم يؤمنوا برَغْم رؤيتِهم معجِزاتِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلام.

---

(١) الفاروق، شبلي النعماني، ٣٣٠، وكنز العمال، ١٢ : ٦٤٨ برقم ٣٥٩٧٨.
(٢) الفاروق، شبلي النعماني، ٣٣١.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾

٩ ـ ليس الأرضَ فقطْ، بل إنّ الإنسانَ لو تدبَّر ذاتَه كيف أصبح إنسانًا كبيرًا إلى هذا الحدِّ من مجرَّدِ قطرةِ ماءٍ لا رُوحَ فيها، بل ويُسخِّرُ الحيَواناتِ جميعًا، فهذه كلُّها آياتٌ عظيمةٌ ودليلٌ كافٍ على توحيدِ الله تعالى.

ألا ترَوْنَ أنّ مِثلَ هذا الإنسانِ الذي يمتلكُ قُدُراتٍ ومواهبَ كثيرةً لا يمكنُ أن يُخلَقَ هكذا بنفسِه، ولا بدَّ أن هناك مَن خَلَقَه، وهو اللهُ تعالى، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

١٠ ـ يعني: أنّ المطرَ أيضًا يَنزِلُ من السماء، ومنه يتهيَّأُ لكم الرِّزقُ، وما وُعدتُم به من حسابٍ على أعمالِكم من جنّةٍ ونارٍ طبقًا لها، مُثبَتٌ في اللَّوح المحفوظ، واللَّوحُ المحفوظُ موجودٌ في السماءِ أيضًا.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾

١١ ـ أَقْسَم اللهُ تعالى بذاتِه قائلًا: أيُّها الإنسانُ، حينَما تتحدَّثُ أنتَ لا يكونُ لديكَ شكٌّ فيما تقولُ، وتكونُ على يقينٍ من أنك أنتَ الذي تتكلَّم، وبنفسِ الطريقة فإنّ هذا القرآنَ كلامي أنا، ولا مجالَ فيه لأيِّ شكٍّ أو شُبهة.

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾

قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾

١٢ ـ يعني: وَصَل إليكم خبرُ قدوم ضيوفِ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ رفيعي المقام، وقد مرَّت هذه الواقعةُ من قبلُ في سُورَتَيْ هودٍ والحِجْر، فذاتَ مرّةٍ جاء بعضُ الملائكةِ إلى سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلام في صُورةِ بشَر، وبعدَ السَّلام وردِّ السلام فكَّر سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ أنّ هؤلاءِ الناسَ غُرباءُ عابرو سَبيل، ولا بدَّ أنهم في حاجةٍ إلى طعام، وبالتالي ذَهَب سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى بيتِه بهدوء، وجاء بعِجْلٍ مَشْوي، وقدَّمه للضُّيوف، ولمّا لم يَمُدَّ الضيوفُ يدَهم إلى الطعام أصابَ القلقُ سيّدَنا إبراهيمَ عليه السَّلام، وخافَ أن يكونَ وراءَ هؤلاءِ الناس أمرٌ غيرُ طبيعيّ، عندَئذٍ قالت الملائكةُ: لا تُسِئِ الظن بنا، فنحن ملائكةٌ، وقد جئنا لنبشِّرَك بولدٍ ذي عِلم.

ويُعلَمُ من هذه الآية أنّ إلقاءَ السَّلام وردَّ السَّلام من سُنَن الأنبياءِ والملائكةِ عليهمُ السَّلام، كما أنّ تقديمَ أفضلِ الطعام الموجودِ في البيتِ للضُّيوف من سُنَنِ الأنبياءِ أيضًا.

يقولُ سيّدُنا أبو هريرةَ رضي اللهُ عنه: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «خَلَقَ اللهُ آدمَ على صُورتِه، طولُه ستّونَ ذراعًا، فلمّا خَلَقَه قال: اذهَبْ فسَلِّمْ على أولئك النَّفَرِ من الملائكةِ جلوسٌ، فاستمِعْ ما يُحَيُّونَك، فإنّها تحيّتُك وتحيّةُ ذُرّيّتِك. فقال: السّلامُ عليكم. فقالوا: السّلامُ عليكَ ورحمةُ الله. فزادوهُ: ورحمةُ الله، فكلُّ من يَدخُلُ الجنّةَ على صُورةِ آدمَ (يعني: بطولِ ستينَ ذراعًا)، فلم يزَلِ الخَلْقُ ينقُصُ بعدُ حتّى الآنَ»[1].

حكم الإسلام فيما يتعلق بالضيف والمضيف

ـ يقولُ سيّدُنا أبو شُرَيح العَدَويُّ: إنّ النبيَّ ﷺ قال: «من كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلْيُكرمْ جارَه، ومَن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخِر فلْيُكرمْ ضيفَه جائزتَه»، قال: وما جائزتُه يا رسولَ الله؟ قال: «يومٌ وليلةٌ (أي: يستضيفُه بأحسنِ ما عندَه) والضّيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ، فما كان وراءَ ذلك فهو صَدَقةٌ عليه»[2].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو شُرَيح الخُزَاعيُّ: إنّ رسولَ الله ﷺ قال: «الضّيافةُ ثلاثةُ أيّامٍ، وجائزتُه يومٌ وليلةٌ، ولا يَحِلُّ لرجلٍ مسلمٍ أنْ يُقيمَ عندَ أخيه حتّى يؤثِّمَه». قالوا: يا رسولَ الله وكيف يؤثِّمُه؟ قال: «يقيمُ عندَه ولا شيءَ له يَقْريه به»[3].

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

١٣ ـ كان لسيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ من قبلُ ولدٌ من بَطْنِ السيّدةِ هاجَرَ عليها السَّلام، يعني: سيّدَنا إسماعيلَ عليه السَّلام، لكنْ لم يكنْ للسيِّدة سارةَ عليها السَّلامُ أولادٌ منه، وكانت تتمنَّى لو أنّها أيضًا رُزقت بالوَلَد، وكان عُمُرُ السيِّدةِ

---

(١) البخاري، كتاب الاستئذان، باب ١ برقم ٦٢٢٧.

(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب ٣١ برقم ٦٠١٩.

(٣) مسلم، كتاب اللقطة، باب ٣ برقم ٤٥١٤.

سارةَ عليها السَّلام إذْ ذاك تسعينَ عامًا، وكان عُمُرُ سيّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ وقتَئذٍ مائةَ عام[1]، فلمّا سَمِعت ببُشْرى الولَدِ في هذه المرحلةِ من العمُرِ بَلَغت حَيْرتُها منتهاها، فضَرَبت بيدِها على وجهِها وقالت بكلِّ ما تملِكُ من قوة: إنّني عجوزٌ وعقيم! فكيف يمكنُ أن أَلِدَ أصلًا؟ وعليه قالتِ الملائكةُ لها: هذا أمرُ الله تعالى، وهو القادرُ على كلِّ شيء، ولهذا لا حاجةَ بكَ إلى التعجُّبِ أو الحَيْرة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾

١٤ ـ سأل سيّدُنا إبراهيمُ عليه السَّلامُ الملائكةَ: ما أهمُّ المقاصدِ التي أُرسِلتُم من أَجْلِها بالإضافة إلى تبشيرِنا بالوَلَد؟ فأجابوه قائلينَ: لقد أَرسَلَنا اللهُ تعالى لتدميرِ قوم مجرِمينَ، يعني: قومَ لوط؛ لأنّهم قومٌ تجاوَزوا كلَّ الحدودِ في الفِسقِ والفجورِ واللِّواط، وسوف نُمطرُهم بحصًى من طينٍ هي أقسى وأشدُّ من الأحجار، وقد جَعَل اللهُ لكلِّ مجرم علامةً خاصّةً على الحَصَاةِ التي ستكونُ سببًا في هلاكِه.

﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

١٥ ـ لم يكنْ في هذه البلدةِ بيتٌ مسلمٌ غيرَ بيتِ سيّدِنا لوطٍ عليه السَّلامُ فقط، ولهذا فإنّنا قبلَ تدميرِ البلدةِ أَخْرَجْنا منها سيّدَنا لوطًا عليه السَّلامُ والذين آمَنوا معَه سالمينَ آمِنين.

﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾

١٦ ـ لقد تَرَكْنا أطلالَ هذه البلدة المدمَّرةِ على سَبيل العِبرة لفترةٍ من الزمن، حتى يراها الناسُ فيعتبِروا منها، وهذه الآياتُ من العِبرة جَعَلْناها أيضًا لأولئك

---

(١) «كانت بنت تسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة». تفسير القرطبي، سورة هود (١١): الآية ٧٢.

الذين يخشَوْنَ عذابَ الله تعالى ويتَّقونَه؛ لأنّ أمثالَ هؤلاءِ الناس هم ـ فقط ـ الذين يتدبَّرونَ هذه الآياتِ ويتأمَّلونَها.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾

١٧ ـ في واقعةِ سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ أيضًا آيةُ عبرةٍ للذين يخشَوْنَ العذابَ الإلهيَّ، يعني: عندما أرسَلَ اللهُ تعالى سيّدَنا موسى عليه السَّلامُ بمعجزةِ العصا واليدِ البيضاءِ إلى فِرعَونَ وقومِه، ولم يكنْ لدى فِرعونَ أيُّ دليل على إنكارِ هذه المعجزاتِ، فأعرَضَ معتمِّدًا على جيشِه وقوّتِـه فقط، وقال عن سيّدِنا موسى عليه السَّلامُ: إنه ساحرٌ ومجنونٌ، وقد أَغْرقَ اللهُ تعالى الفِرعونَ وجيوشَه في البحر عقابًا له على سُلوكِه المَشِين هذا، وأثناءَ غَرَقِه لامَ الفِرعونُ نفسَه، وأعلَن إيمانَه، ولكنّ الإيمانَ عندَ رؤيةِ العذابِ لا يكونُ مقبولًا عندَ اللهِ تعالى.

﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾

١٨ ـ وفي هلاكِ قوم عادٍ أيضًا آيةُ عبرةٍ، وكان قومُ عادٍ يقطُنونَ منطقةَ الأحقافِ في اليمن، وكانوا قدِ اتَّخذوا آلهةً كثيرةً يعبُدونَها من دونِ الله، فقال لهم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلام: اترُكوا عبادةَ هذه الآلهة، واعبُدوا اللهَ وحدَه، وإلّا سيُنزَلُ عليكم عذابُ غضبِ الله تعالى.

ولم يُعجِبْ هذا الكلامُ سادةَ قوم عاد، فقالوا: إنّنا لسنا على استعدادٍ للتخَلِّي عن آلهةِ آبائنا وأجدادِنا، وعليك إن كنتَ صادقًا فيما تقولُ أن تأتِيَنا بالعذابِ الذي تهدِّدُنا بِهِ الآنَ، وعليه قال لهم سيّدُنا هودٌ عليه السَّلام: لقد حَكَم اللهُ تعالى بنزولِ العذابِ عليكم بالفعل، فانتظِروا أنتم، وأنا معَكم من المنتظِرينَ لنرى متى يأتيكم هذا العذابُ؟ وهكذا هبَّت عليهم ريحٌ عاصفٌ استمرَّت لثمانيةِ أيام كاملة، قضَتْ عليهم قضاءً مُبرمًا، وخَلَّفْتهم وراءها مثلَ أعجازِ النَّخيل المُقطَّعة متناثِرينَ هنا

وهناك على الأرض، ولم يَنجُ من هذه العاصفةِ سوى سيّدِنا هودٍ عليه السَّلام والذين آمَنوا معَه وتابُوا من الشِّرك.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾

١٩ ـ وفي هلاكِ قوم ثمودَ أيضًا آيةُ عبرةٍ، فقد كان هؤلاءِ مشركينَ، وكانوا يَسكُنونَ منطقةً بينَ الشام والحجاز، ودعاهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ إلى التوحيد، لكنَّهم طالبوه بأن يُخرجَ لهم من صخرةٍ من الصُّخورِ الحَجَريّة ناقةً حيّةً يرَوْنَها بأعيُنِهم إنْ كان على حقٍّ فيما يدعوهُم إليه. وهكذا دَعا سيّدُنا صالحٌ ربَّه، فاستجابَ اللهُ له، وأَخْرج من الصَّخرة ناقةً حيّةً أمامَهم، فقال سيّدُنا صالحٌ لهم: هذه الناقةُ دليلُ نُبوَّتي وآيةٌ على قُدرةِ الله تعالى، ولهذا اترُكوها حرّةً تأكلُ من حيثُ تريد، ولا يُضايقْها أحدٌ منكم، وإلّا نَزَل عليكم عذابٌ أليم.

لكنّ سادةَ قوم ثمودَ المتكبِّرينَ تآمَروا ضدَّ سيّدِنا صالح عليه السَّلام، وعَقَروا الناقةَ، وقالوا لسيّدِنا صالح عليه السَّلامُ: لقد قَتَلْنا الناقةَ، وعليكَ الآنَ أن تأتيَنا بالعذابِ الذي كنتَ تهدِّدُنا به فيما لو آذَيْنا الناقةَ إن كنتَ صادقًا فيما تقول، فأخبرَهم سيّدُنا صالحٌ عليه السَّلامُ أن يَمكُثوا في ديارِهم ثلاثةَ أيام، وسيَهلِكونَ بعدَها. وبعدَ ثلاثةِ أيام فعلًا جاءَتْهم صَيْحةٌ عظيمةٌ وزلزالٌ في غايةِ القوة، وكانوا حينَذاك ينظُرونَ إلى ما يحدُث، ولكنْ لم يكن لديهِم القُدرةُ على مجرَّدِ الوقوف من أماكنِهم، أو أن يُنقذَهم أحدٌ من هذا العذابِ النازلِ عليهم، وهكذا، وفي صباح اليوم التالي كانوا جميعًا مُلقَيْنَ على وجوهِهم في بيوتِهم موتَى، وحَفِظ اللهُ تعالى سيّدَنا صالحًا عليه السلام والذين آمَنوا معَه.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

٢٠ ـ وفي هلاكِ قوم نُوح أيضًا آيةُ عبرةٍ، وكان هؤلاءِ يسكُنونَ العراقَ، وكانوا

مبتَلَيْنَ بالشِّرك، فقال سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلامُ لقومِه: اعبُدوا اللهَ وحدَه؛ لأنه لا أحدَ سواه يستحِقُّ العبادةَ، وقد أُرسِلتُ إليكم من الله تعالى نبيًّا، وأنا أُخبرُكم من الله تعالى عن ذاتِه وصفاتِه وعن القبرِ والحَشْرِ والحسابِ وثوابِ الجنّة وعذابِ جهنَّمَ وغير ذلك ممّا لم تكونوا تعرِفونَه من قبلُ.

قال سادةُ قوم نُوح متعجِّبين: لماذا لم يُرسِلِ اللهُ تعالى مَلَكًا نبيًّا، أو لو أنه كان لا بدَّ مرسِلًا بشَرًا رسُولًا، لماذا لم يُرسلْ واحدًا من سادتِنا، ولماذا أَرسَلَ رجلًا مسكينًا ضعيفًا مثلَك نبيًّا؟ يبدو لنا أنك قد ضَلَلتَ. وعليه قال لهم سيّدُنا نوحٌ عليه السَّلام: أنا لستُ ضالًّا، وإنما أريدُ الخيرَ لكم، فأنا أُبلِّغُكم أحكامَ الله تعالى حتى تكونوا من المتَّقينَ، وإن لم تُسلِّموا بأحكام الله تعالى، وظَلَلتُم على سابق شِركِكم، فإنّي أخشَى أن يُصيبَكم عذابٌ من الله تعالى عظيم.

وبالرَّغم من هذه المبادرةِ الطيِّبة من سيّدِنا نوح عليه السَّلام، وبالرَّغم من تحذيرِه لهم، إلّا أن عُميانَ القلوبِ هؤلاءِ كَذَّبوا سيّدَنا نوحًا عليه السَّلامُ، فعاقَبَهم اللهُ تعالى بأنْ أَغْرقَهم جميعًا في مياهِ الطُّوفان، ولم يَنْجُ سوى سيّدِنا نوح عليه السَّلام ومَن رَكِبوا معَه في السَّفينة من الذين آمَنوا به وتابُوا إلى الله من شِركِهم.

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

٢١ ـ هنا يُبيِّنُ اللهُ تعالى قُدرتَه، يعني: أنّ السَّماءَ بالأصل في غايةِ الاتِّساع، ومعَ ذلك فإنّ لدينا القُدرةَ على أن نَزيدَ في اتِّساعِها، أو أن نَخلُقَ سماءً أخرى مِثلَها، بل إنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى سيَخلُقُ سماءً أخرى وأرضًا جديدةً يومَ القيامة، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وستكونُ الأرضُ والسّماءُ يومَ القيامةِ من نوع جديدٍ مختلف، فلن تكونَ في السَّماءِ نجومٌ، كما لن تكونَ على الأرضِ جبالٌ شامخةٌ ولا تلالٌ مرتفعة، أو أغوارٌ عميقة، إنّما أرضٌ مسَطَّحةٌ مستويةٌ نظيفة.

وهناك تفسيرٌ آخَرُ للآية، وهو أنّ اللهَ تعالى يزيدُ في سَعةِ الكائناتِ السَّماوية مثلَما يشيرُ إليه البحثُ العلميُّ الحديث:

«الكائناتُ تمتَدُّ لأنّ النُّجومَ تنفصلُ عن بعضِها، وتزدادُ المسافاتُ بينَها»(١).

﴿ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴾

٢٢ ـ رَغْم أنّ الأرضَ كُرَويّةٌ، لكنّها واسعةٌ بحيث أنّ اللهَ تعالى جَعَلها كأنّها مفروشة، يستطيعُ الإنسانُ أن يسيرَ عليه بسهولةٍ ويُسر، ويهيِّئَ لنفسِه عليها كلَّ ما يحتاجُ إليه في حياتِه.

---

(١) The universe is expanding. With the galaxies moving apart from each other and the space between them getting larger. (The Hutchinson Encyclopedia, new **8**th Edition, universe, Page No. **1196**).

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

٢٣ ـ يُعلَمُ من هذه الآيةِ أنّ اللهَ تعالى خَلَق من كلِّ شيءٍ زوجَيْن، يعني: الذَّكرَ والأُنثى، فأمّا الأزواجُ في الإنسانِ والحيَوانِ فأمرٌ معروفٌ وحقيقةٌ عامّةٌ يَعرِفُها كلُّ إنسانٍ منذُ الزمنِ القديم، ولكنّ العلماءَ الألمانَ والإيطاليِّينَ في القرنِ التاسعَ عشَرَ الميلاديِّ أثبَتوا أنّ في النباتاتِ أزواجًا أيضًا مَثَلُها مَثَلُ الإنسان، أي: الذَّكرِ والأُنثى، ويَنتُجُ عن التلقيح بينَهما البذورُ والثِّمار، ولمزيدٍ من التفصيل عن عمليّة التلقيح هذه راجع الحاشيةَ رقم **٥** للآية رقم **٣** من سُورةِ الرعد (**١٣**).

إنّ اكتشافَ موضوع الذَّكرِ والأُنثى في النباتاتِ هذا يعودُ إلى القرنِ التاسعَ عشَرَ الميلاديِّ، لكنّ القرآنَ المجيدَ أعلَن قبلَ **١٤٠٠** عام أنّ في كلِّ شيءٍ، ذَكَرًا وأُنثى، حتى النباتاتِ أيضًا، وأنّ البذورَ والنباتاتِ تَنتُجُ عن عمليّةِ التلقيح بينَهما، وهذا الكلامُ دليلٌ واضحٌ على أنّ القرآنَ المجيدَ ليس كلامَ البشَر، وإنّما كلامُ الله تعالى؛ لأنه لم يكنْ أحدٌ قبلَ نزولِ القرآنِ الكريم يَعلَمُ أنّ في النباتاتِ أيضًا ذَكَرًا وأنثى، بل إنّ القرآنَ المَجيدَ هو الذي أخبَر أيضًا بالأزواج التي لا يَعلَمُ بوجودِها حتى الآنَ، مثلَما قال اللهُ تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾

٢٤ ـ هنا تنبيهٌ للكفّارِ بأنّ اللهَ تعالى أرسَلَني لتحذيرِكم من العذابِ، ولهذا لا تعبُدوا معَ الله إلهًا آخَرَ، وأسرِعوا إلى الإيمانِ بالله تعالى؛ لأنّ الموتَ يمكنُ أن يأتيَكم في أيِّ لحظة، وعندَها لن يكونَ للنّدم أيُّ فائدة.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾

٢٥ ـ في هذه الآيةِ تسريةٌ عن قلبِ النبيِّ ﷺ بأنه إذا كان كفّارُ مكةَ يقولونَ عنك: إنك ساحرٌ ومجنون، فإنّ هذا ليس بالأمرِ الجديد، فقد قالت الأُممُ السابقةُ عن أنبيائهمُ الكرام عليهمُ السّلام: إنّهم سَحَرةٌ ومجانينُ، ولهذا لا تغتمَّ من تكذيبِهم لك ولا تحزَنْ عليهم.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ طَاغُونَ﴾

٢٦ ـ كلُّ الأُمم التي كَذَّبت أنبياءها عليهمُ السَّلام احتَلّت ألفاظُ «سَحَرةٌ ومجانينُ» رأسَ قائمةِ الألفاظِ التي استعمَلوها في تكذيبِهم للأنبياء، هل يمكنُ أن تكونَ الأُممُ السابقةُ قد أَوْصتِ الأُممَ التاليةَ لها بأنِ استعمِلوا أنتم أيضًا نفسَ الألفاظِ في تكذيبِكُم الأنبياءَ عليهمُ السَّلام؟

لكنّ هذه ليستِ الحقيقةَ؛ لأنّ هناك فَرْقًا كبيرًا بينَ بعضِ الأُمم وبعضِها في المسافاتِ والزَّمن، والحقيقةُ هي أنّ التمرُّدَ والطُّغيانَ هو الذي كان مشتركًا بينَ فطرةِ كلِّ هذه الأُمم، وبسببِ هذا الاشتراكِ بينَها جاء إنكارُها أيضًا على مِنوالٍ واحد.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾

٢٧ ـ يا أيُّها النبيُّ الحَبيبُ ﷺ، لقد أدَّيتَ حقَّ تبليغ الرسالة، فلا عليكَ من الذين لم يؤمنوا مدفوعينَ ببُغضِهم وعنادِهم، وبرَغْم فَهْمِهم الدِّينَ، لأنهم مُبتَلَوْنَ بالتعصُّب، وأنت لن تُسألَ عن عَدَم إيمانِهم.

ـ يَروي سيّدُنا أبو ثَعْلبةَ الخُشَنيُّ، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «ائْتَمروا بالمعروفِ وتَناهَوْا عن المنكر، حتّى إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوًى متَّبعًا ودنيا مؤْثَرةً وإعجابَ

كلِّ ذي رأيٍ برأيِه، فعليك بخاصّةِ نفسِك ودَع العوامَّ»[١].

ـ يقولُ سيّدُنا أبو الدَّرداءِ رضي اللهُ عنه: بينَما نحن عندَ رسولِ الله ﷺ نتَذاكَرُ ما يكونُ، إذ قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سَمِعتُم بجَبَلٍ زالَ عن مكانِه، فصدِّقوا، وإذا سَمِعتُم برجُلٍ تغيَّر عن خُلُقِه، فلا تُصدِّقوا به، وإنّه يصيرُ إلى ما جُبِلَ عليه»[٢].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

٢٨ ـ لكنّ عليكَ أن تُواصلَ دعوةَ عامّةِ الناس ونُصحَهم، والذين ليس في قلوبِهم مرضُ التعصُّبِ سيؤمنونَ بك، وسيَستفيدونَ من برَكةِ إيمانِهم.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

٢٩ ـ خَلَق اللهُ تعالى الجنَّ والإنسَ لكي يَعرِفوا اللهَ تعالى ويعبدوه، ولكنّ أكثرَ الناسِ غافلونَ عن مقصِدِ خَلْقِهم.

المرادُ بالعبادةِ ليس فقطْ أن ينشغلَ الإنسانُ بالصّلاةِ والصِّيام والتسبيح طيلةَ اليوم، وإنّما المقصِدُ أن يقضيَ حياتَه طبقًا لأحكام الله تعالى، يعني: يصلِّي ويقولُ الصِّدقَ ويَكسَبَ الرِّزقَ الحلالَ ولا يأكُلَ حقَّ أحد، ولهذا فإنّ الإنسانَ الذي لا يعصي اللهَ تعالى يُعَدُّ كلَّ فعلٍ من أفعالِه، حتى نومَه وطعامَه أيضًا، عبادةً، ويستحِقُّ رضا الله تعالى عنه.

﴿ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾

٣٠ ـ لم يَخلُقِ اللهُ تعالى البَشَرَ لأنه يحتاجُ منهم إلى رزقٍ أو طعام، بل إنّه

---

(١) الترمذي، أبواب تفسير القرآن، سورة المائدة (١٥) برقم ٣٠٥٨.

(٢) مسند أحمد، ٦: ٤٤٣، ومجمع الزوائد، ٧: ١٩٦.

تعالى هو رازقُ كلِّ المخلوقات، وهو الأقوى على الإطلاق، ولكنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى خَلَق الناسَ ليعبُدوه ويُطيعوه، وفي هذا فائدةٌ للناس أنفسِهم، بأنْ يرضَى اللهُ تعالى عنهم، ويباركَ لهم في أرزاقِهم ودنياهم وآخِرتِهم.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴾

٣١ ـ مثلَما نالتِ الأُممُ الطّاغيةُ السابقةُ نصيبَها من العذاب، فإنّ هناك نصيبًا من العذابِ أيضًا مقرَّرٌ للأقوام الطاغيةِ الحاليّة، وسوف يَنالونَ نصيبَهم هذا تأكيدًا، ولكنْ في الوقتِ المحدَّد لذلك، فلا يَستعجِلْ أهلُ مكةَ في استنزالِه عليهم، وإنّما ينبغي لهم أن يَستفيدوا من المُهلةِ المعطاةِ لهم، ويعمَلوا على إصلاح أنفسِهم، وإلّا فسيُصيبُهم دمارٌ وهلاكٌ عظيم حين يأتيَ الوقت المقرَّرُ للعذاب.

الفقيرُ إلى الله: محمّد إمْداد حُسَين بِيرْزاده،
جامعة الكرَم، إنجلترا.
بعدَ صلاة المغرب من يوم الأربعاء ٤ أغسطس ٢٠١٠م
الموافق ٢٣ شعبانَ ١٤٣١هـ.

هذا وقد اكتَمل تفسيرُ سورة الذّارياتِ بفَضْل الله تعالى وكرَمِه في سبعةِ أيام فقط، أي: من ٢٨ يوليو إلى ٤ أغسطس، والحمدُ لله ربِّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّدِ المرسَلين، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

* * *

فهرس المطالب التفصيلي
للمجلد الخامس
(من سورة فاطر إلى سورة الذاريات)

❋ ❋ ❋

المصادر والمراجع

أولًا: كتب التفاسير

(١) تفسير ضياء القرآن: الشيخ محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٩٩٥م (٥ مجلدات).
(٢) الدر المنثور: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت ١٩٩٣م (٨ مجلدات).
(٣) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٤) التفسير الكبير: الإمام فخر الدين الرازي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٦ مجلدًا).
(٥) حاشية الصاوي على الجلالين: الشيخ أحمد الصاوي المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(٦) في ظلال القرآن: الشهيد سيد قطب، دار الشروق، مدينة نصر، القاهرة، مصر (٦ مجلدات).
(٧) جامع البيان (تفسير الطبري/ تفسير ابن جرير): أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٤م (١٥ مجلدًا).
(٨) تفسير روح البيان: الإمام إسماعيل حقي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٠ مجلدات).
(٩) صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان ١٩٨١م (٣ مجلدات).
(١٠) تفسير البيضاوي: الإمام ناصر الدين البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (مجلدان).
(١١) تفسير فتح العزيز (تفسير عزيزي: أردو)، شاه عبد العزيز الدهلوي، مطبعة عليمي، دهلي، الهند.
(١٢) تفسير ابن كثير: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار القلم، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٣) التفسير المظهري: القاضي محمد ثناء الله باني بتي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٤) تفسير نعيمي: المفتي أحمد يار خان نعيمي، المكتبة الإسلامية، الكجرات، باكستان.

(١٥) تفسير روح المعاني: الإمام شهاب الدين السيد محمود البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٨م (١٠ مجلدات).
(١٦) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم، القاهرة، مصر ١٩٩١م (١٤ مجلدًا).
(١٧) تفسير الحسنات: العلامة أبو الحسنات القادري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان (٧ مجلدات).
(١٨) تفسير الخازن: الإمام علاء الدين البغدادي، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٧ مجلدات).
(١٩) تنوير المقياس: عبد الله بن عباس، المكتبة الشعبية، القاهرة، مصر ١٩٧٢م.
(٢٠) البحر المحيط: محمد بن يوسف الغرناطي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٢١) مدارك التنزيل (تفسير النسفي): الإمام عبد الله بن أحمد النسفي، دار النفائس، بيروت، لبنان ١٩٩٦م.
(٢٢) خزائن العرفان: سيد محمد نعيم الدين مرادآبادي، حفيظ بك دبو، الهند.
(٢٣) أحكام القرآن: الإمام أحمد بن علي الجصاص، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٤) زهرة التفاسير: محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر.
(٢٥) تفسير المنار: محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٢٦) تفسير الكشاف: محمود بن عمر الزمخشري: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(٢٧) فتح القدير: محمد بن علي الشوكاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
(٢٨) تفسير القرآن العظيم، حافظ بن أبي حاتم، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان (١٤ مجلدًا).
(٢٩) تفسير الجيلاني: محي الدين عبد القادر الجيلاني الحسني الحسيني، شركة التمام، بيروت، لبنان.
(٣٠) التفسير المنير: دكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام (١٧ مجلدًا).
(٣١) زاد المسير: عبد الرحمن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٨ مجلدات).
(٣٢) تفسير الماجدي: عبد الماجد دريا آبادي، تاج كمپنى لميتد، لاهور، كراتشي، باكستان (مجلدان).
(٣٣) تفسير أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(٣٤) تفسير معارف القرآن: مفتي محمد شفيع، إدارة المعارف، كراتشي، باكستان (٨ مجلدات).

(٣٥) تفهيم القرآن: سيد أبو الأعلى المودودي، مركزى مكتبه إسلامى ببلشرز، نيو دلهي، الهند (٦ مجلدات).

(٣٦) تفسير عثماني: شبير أحمد عثماني، دار الإشاعت، أردو بازار، كراتشي، باكستان (مجلدان).

(٣٧) تفسير البغوي: الحسين بن مسعود البغوي، دار الفكر، بيروت، لبنان، حاشية تفسير الخازن (٧ مجلدات).

(٣٨) تفسير تبيان القرآن: العلامة غلام رسول سعيدي، فريد بك ستال، اردو بازار، كراتشي، باكستان.

(٣٩) تفسير أبي السعود: القاضي محمد بن محمد، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٤٠) تفسير حقاني: العلامة عبد الحق حقاني، مير محمد كتب خانه، آرام باغ، كراتشي، باكستان.

(٤١) تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

ثانيًا: كتب الأحاديث

(٤٢) صحيح البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٣) صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري، دار الدعاء، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٤) سنن الترمذي: محمد بن عيسى، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٥) سنن ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٦) سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٧) سنن النسائي: أحمد بن شعيب، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٨) مسند أحمد: الإمام أحمد بن حنبل، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٤٩) الموطأ: الإمام مالك بن أنس، دار الدعوة، اسطنبول، تركيا ١٩٨١م.

(٥٠) مشكاة المصابيح: محمد بن عبد الله التبريزي، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(٥١) المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني، مطبعة الزهراء الحديثة، الموصل، العراق ١٩٨٤م (٢٥ مجلدًا).

(٥٢) المستدرك: الإمام الحاكم النيشابوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (٤ مجلدات).

(٥٣) الجامع الصغير: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م (مجلدان).

(٥٤) رياض الصالحين: يحيى بن شرف النووي الشافعي، دار القلم، بيروت، لبنان ١٩٧٠م.
(٥٥) سنن الدارقطني: علي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، بيروت، لبنان ١٩٩٣م (٤ مجلدات).
(٥٦) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٩٠م.
(٥٧) الترغيب والترهيب: عبد العظيم المنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٩٦٨م.
(٥٨) السنن الكبرى: أحمد بن الحسين البيهقي، نشر السنة، الملتان، باكستان (١٠ مجلدات).
(٥٩) المعجم الأوسط: سليمان بن أحمد الطبراني، مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية (١١ مجلدًا).
(٦٠) صحيح ابن حبان: دار الفكر، بيروت، لبنان (٦ مجلدات).
(٦١) سنن الدارمي: الإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، دار الدعوة، استنبول، تركيا ١٩٨١م.
(٦٢) مصنف عبد الرزاق: الإمام عبد الرزاق بن همام الصنعاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (١١ مجلدًا).
(٦٣) مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٤) المعجم الصغير: الإمام الطبراني، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٦٥) جمع الجوامع: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٦٦) الجامع الصغير: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

مراجع أخرى:

(٦٧) معجزات الرسول: محمد متولي الشعراوي، المكتبة الإسلامية الشعراوية، القاهرة، مصر.
(٦٨) الخصائص الكبرى: الإمام جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٧٥م (مجلدان).
(٦٩) السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام، دار الجيل، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(٧٠) البداية والنهاية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (٧ مجلدات).
(٧١) المفردات: الإمام راغب الأصفهاني، مكتبة مصطفى البابي، مصر ١٩٦١م.
(٧٢) لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، القاهرة، مصر (٨ مجلدات).

(٧٣) المنجد: دار المشرق، بيروت، لبنان ١٩٧٥م.
(٧٤) شرح المواهب اللدنية: الإمام محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٧٥) دلائل النبوة: أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م (٧ مجلدات).
(٧٦) كتاب المبسوط: شمس الدين السرخسي، دار المعرفة، بيروت، لبنان ١٩٨٠م (١٥ مجلدًا).
(٧٧) الفتاوى العالمگيرية: العلامة نظام الدين، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٨) فتاوى قاضي خان: حسن بن منصور الفرغاني الحنفي، بلوچستان بك دبو، كويته، بلوشستان، باكستان ١٩٨٥م (٦ مجلدات).
(٧٩) رد المحتار: ابن عابدين، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٧٩م (٨ مجلدات).
(٨٠) حاشية الطحطاوي: الإمام أحمد الطحطاوي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨١) مراقي الفلاح: حسن بن عمار الحنفي، مير محمد كتب خانه، كراتشي، باكستان.
(٨٢) فتاوى أفريقيه: الإمام أحمد رضا القادري، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٨٣) بهارِ شريعت: ربيع الشريعة: العلامة محمد أمجد علي، شيخ غلام علي ايند سنز، لاهور، باكستان.
(٨٤) إمداد الفقه: محمد إمداد حسين بيرزاده، دار السلام، القاهرة، مصر ٢٠٠٣م.
(٨٥) اسلامى عقائد: العقائد الإسلامية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم پبلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة ١٩٩٩م.
(٨٦) كنز العمال: العلامة علاء الدين البرهانبورى، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ١٩٨٥م (١٦ مجلدًا).
(٨٧) مجمع الزوائد: علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (١٠ مجلدات).
(٨٨) نزهة المجالس: عبد الرحمن الصفوري الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(٨٩) نور الإيضاح: الشيخ حسن بن علي، كتب خانه مجيديه، ملتان، باكستان.
(٩٠) قصيدة البردة: الإمام البوصيري، الترجمة الإنجليزية: محمد إمداد حسين بيرزاده، الكرم بپلى كيشنز، ايتن هال، نوتنجهام شاير، المملكة المتحدة.

(٩١) السيرة النبوية: الحافظ إسماعيل بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان.
(٩٢) ضياء النبي: بير محمد كرم شاه الأزهري، دار نشر ضياء القرآن، لاهور، باكستان ١٤١٥هـ (٧ مجلدات).
(٩٣) الصراط المستقيم: شاه إسماعيل الدهلوي، اسلامي اكيدمي، لاهور، باكستان.
(٩٤) القول الجميل (أردو): شاه ولي الله، مدينه پبلشنگ كمپنى، كراتشي، باكستان.
(٩٥) سبل الهدى والرشاد: الإمام محمد بن يوسف الشامي، وزارة الأوقاف، القاهرة، مصر (١٢ مجلدًا).
(٩٦) المنتظم في تواريخ الملوك والأمم: الإمام عبد الرحمن الجوزي، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(٩٧) تاريخ الإسلام: المؤرخ شمس الدين الذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان (٥٢ مجلدًا).
(٩٨) إمتاع الأسماع: تقي الدين المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٥ مجلدًا).
(٩٩) حلية الأولياء: الإمام أبو نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (١٢ مجلدًا).
(١٠٠) الفقه الإسلامي وأدلته: وهبة الزحيلي، دار الفكر، دمشق، الشام ١٩٨٩م (٨ مجلدات).
(١٠١) الفقه الحنفي وأدلته: الشيخ صاغر جي، دار الكلم الطيب، دمشق، الشام ٢٠٠٠م (٣ مجلدات).
(١٠٢) الفقه على المذاهب الأربعة: عبد الرحمن الجزيري، دار الفكر، بيروت، لبنان (٥ مجلدات).
(١٠٣) لسان الميزان: ابن حجر العسقلاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م، (١٠ مجلدات).
(١٠٤) الأدب المفرد: الإمام البخاري، مكتبة الآداب.
(١٠٥) السيرة الحلبية: نور الدين الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٠٦) شرح الشفاء: القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٠٧) طبقات ابن سعد: مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر ٢٠٠١م، (١١ مجلدًا).
(١٠٨) بدائع الصنائع: علاء الدين الكاساني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٣م (١٠ مجلدات).
(١٠٩) الموسوعة الإسلامية: الفيصل ناشران، اردو بازار، لاهور، باكستان (مجلدان).

(١١٠) تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، (١٠ مجلدات).
(١١١) الهداية: علي بن أبي بكر الفرغاني، مكتبة شركة علمية، خارج بوابة بوهر، الملتان، باكستان (مجلدان).
(١١٢) فقه السنة: السيد سابق، دار الفكر، بيروت، لبنان ١٩٨٢م (ثلاث مجلدات).
(١١٣) عمدة القاري، العلامة بدر الدين عيني، دار الفكر، بيروت، لبنان (٢٥ مجلدًا).
(١١٤) فتح الباري: الإمام ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان (١٣ مجلدًا).
(١١٥) الأحكام الفقهية: أحمد محمد عساف، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
(١١٦) جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٠م.
(١١٧) المقاصد الحسنة: شمس الدين السخاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ١٩٨٧م.
(١١٨) الفاروق: العلامة شبلي النعماني، مشتاق بك كارنر، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١١٩) المواهب اللدنية: الإمام أحمد القسطلاني، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان (٤ مجلدات).
(١٢٠) الحاوي للفتاوي: الإمام جلال الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (مجلدان).
(١٢١) الكواكب السائرة: الشيخ نجم الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (٣ مجلدات).
(١٢٢) الفوائد المجموعة: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٣) حقوق الأولاد: محمد شريف الصواف، دار الفكر، دمشق، الشام.
(١٢٤) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان ١٩٨٨م (٤ مجلدات).
(١٢٥) سيرة النبي: سيد سليمان الندوي، ناشران قرآن لميتد، أردو بازار، لاهور، باكستان.
(١٢٦) الخطبة العصرية: إبراهيم محمد الجمل، مكتبة القرآن، القاهرة، مصر.
(١٢٧) كتاب الخراج: الإمام أبو يوسف، مكتبة الأزهر للتراث، القاهرة، مصر.
(١٢٨) شرح شمائل الترمذي: سليمان بن عمر الأزهري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
(١٢٩) البدر المنير: الإمام الشعراني، مكتبة عالم الفكر، القاهرة، مصر.
(١٣٠) الكامل لابن الأثير، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
(١٣١) إرشاد العباد: عبد العزيز محمد سلمان، مطابع الخالد، الرياض، المملكة العربية السعودية.
(١٣٢) نسيم الرياض: شهاب الدين خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٣٣) أسد الغابة: أبو الحسن الجزري، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(١٣٤) الإصابة: الحافظ ابن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(١٣٥) جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية، دار الحديث، القاهرة، مصر.

(١٣٦) سيرة عمر بن الخطاب: أبو الفرج بن الجوزي، دار الدعوة الإسلامية، القاهرة، مصر.

(١٣٧) الفاروق عمر: محمد حسين هيكل، دار المعارف، القاهرة، مصر.

(١٣٨) فيوض القرآن: سيد حامد حسن بلكرامي، فيروز سنز لميتيد، لاهور، باكستان.

(١٣٩) نزهة القاري شرح البخاري: مفتي محمد شريف الحق أمجدي، دائرة البركات، كهوسي، اعظم كرهـ، يوبي، الهند.

(١٤٠) منهاج البخاري: محمد معراج الإسلام، عرفان القرآن، أعوان تاون، لاهور، باكستان.

(١٤١) إرشاد الساري شرح البخاري: شهاب الدين قسطلاني، دار الفكر، بيروت، لبنان.

(١٤٢) أيها الولد: الإمام الغزالي، Awakening Publications **200** UK Swansea.

(١٤٣) دلائل النبوة: أبو نعيم الأصبهاني، دار ابن كثير، بيروت.

ثالثًا: المراجع الإنجليزية

(144) Miracles of the Qur'an: Muhammad Mutawali ash-Sha'raawi, published by Daar-ul-Taqwa Ltd. London.

(145) Encyclopedia Britannica: peter B. Norton, Joseph Espsito, USA, 1995.

(146) Islam & the West: H.R.H. Charles Prince of Wales, printed by Uniskill Ltd. Eynsham, Oxford, UK.

(147) Muhammad at Madinah: Montgomery Watts. Oxford University Press, 2006.

(148) Oxford Encyclopedia Dictionary: published by Oxford University Press, USA, 1991.

(149) Shari'ah the Islamic Law: Abdur Rahman Doi (Zia-un-Nabi).

(150) The Holy Bible: published by Collins, London, 1954.

(151) The Living Bible: British Edition, 1975.

(152) The Hutchinson Encyclopedia: 1999 Edition.

(153) The New Universal Encyclopedia: Caxton publishing Co, Ltd, London.

(154) The English Pig: published by The Hambledon Press, London 1998.

(155) American Government: Lowi & Ginsberg. Published by W.W. Norton Publication 1998.

(156) Fream's Agriculture: printed by Butler & Tanner Ltd, London. 16th Edition 1983.

(157) Oxford Advanced Learner's Dictionary: 4th Edition 1989.

(158) The Hans Wehr Dictionary of Modern Written Arabic: Edited by J. M. Cowan, 3rd Edition.

(159) The 100: Michael H. Hart, Citadel Press, 1987, New Jersey, USA.

(160) The Bible, the Qur'an and Science: Maurice, 1979, North America, Trust Publication, USA.

